الكوفة

نشأة المدينة العربية الإسلامية

هشام جعيط

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

هذا تعريب كتاب:

Hicham Djaït

AL- KŪFA

Naissance de la Ville Islamique

Editions: Maisonneuve et Larose

Paris - 1986

الكوفة

نشأة المدينة العربية الإسلامية

جميع حقوق الطبع محفوظة
لدار الطليعة - بيروت
ص.ب: ١٨١٣ - ١١
تلفون: ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى: (مؤسسة الكويت للتقدم العلمي) ١٩٨٦
الطبعة الثانية: (منقحة) تشرين الثاني ١٩٩٣

الباب الأول

الفتح العربي العراق وتأسيس الكوفة

١٢ ـ ١٧ هـ/ ٦٣٣ ـ ٦٣٨

- ١ -
إشكالية الفتح

لا مراء في أن إنشاء الكوفة سنة ١٧ من الهجرة الموافق لسنة ٦٣٨ ميلادية ارتبط مباشرة بفتح العرب للعراق. فحالما فرغ العرب من السيطرة على العراق، بعد طرد فلول القوات الساسانية إلى النجد الإيراني، وبعد أن استولوا على جلولاء والمدائن، مكتسحين السواد كله، شعروا بالحاجة إلى إنشاء دار هجرة على تخوم البلاد المفتوحة، تكون بمثابة المعسكر والمركز للهجرة في الوقت نفسه. وعلى ذلك، تشكل الكوفة ثمرة مباشرة لعملية من عمليات الفتح الخاطف معللة إياها ومشكلة بطورها امتداداً لها، ضامنة لها، راسمة معالمها على التربة، ذلك أن الكوفة تحتل موقع القلب من المنطقة، تلك المنطقة التي كانت تدور فيها المعارك بين العرب والامبراطورية الساسانية؛ منطقة معدة لكي يعمرها أول من يعمرها المشاركون في القتال ويستقر فيها أغلب المجاهدين العرب. وعلى هذا، فستتأثر الكوفة كثيراً، وبدرجة أعظم مما حصل في البصرة، بالحدث التاريخي المتمثل في الفتح، كما سيؤثر فيها العيش على ذكراه، وسيظهر ذلك التأثير في عناصرها البشرية التي جسمت كيانها، وفي بنيتها الاجتماعية، وفي الحركات السياسية الدينية التي ستهزها. وفضلاً عن ذلك، يتجاوز الفتح العربي للعراق مصير الكوفة بصفته قضية تاريخية، ذلك أن الكوفة تندرج ضمن ظاهرة كونية هي ظاهرة الفتح العربي الذي اكتسح العالم. ولا يبدو لنا مفيداً أو ضرورياً التعمق في بحث القضية في جملتها، بل نرى أنَّ من الأهم البحث في اندراج الفتح العربي ضمن فضاء معين، بمواقيت خاصة به وبعناصره البشرية. ولكن، بقدر ما يكون الارتباط مباشراً لا محالة بين الظروف التاريخية المحيطة بإنشاء الكوفة وظاهرة الفتح بصفة عامة، فمن المفيد أن نلمح دون إطالة إلى قضية نشأة الفتح العربي ودلالته.

يستحسن التذكير بأن المؤلفين المحدثين ومنهم كايتاني Caetani وشعبان Shaban الذي تلاه بعد ثلاثة أرباع القرن، قد طرحوا مسألة النظر في أسباب الفتح العربي ومعناه،

ارتباطاً بالغارات الأولى التي شنت على أرض الرافدين(١). نعني غارات سنة ١٢ هـ/ ٦٣٣ م، التي كانت منطلقاً لظهور القدرة الحربية العربية بعد وفاة الرسول، وبذلك يمكن أن يتجه التفكير إلى إمكان بلوغ العناصر التي كانت أصلاً للفتح العربي في ٢٨ جملته، لو أمكن تسليط الضوء على الظروف التي أحاطت بهذا الدفع الأول. نميل فعلاً ومن أول وهلة إلى تاريخ انطلاق الأحداث في محرم سنة ١٢ هـ/ مارس ٦٣٣ م رداً على الرؤية التقليدية، ونسبة الغارات التي جدت في السواد إلى مبادرة من بكر بن وائل تجاوب معها إقدام خالد بن الوليد وقد خرج منتصراً من حرب الردة قبل مدة قصيرة. ولعلها كانت بداية لمغامرة كبرى في التاريخ العالمي، إنما تجذرت في الغموض والتهميش. ومن أول وهلة يبدو أن الفتح تقرر مصيره في الجنوب الشرقي من بلاد العرب، بعيداً عن قرار الحكم المركزي. واستناداً إلى الأسبقية الزمنية للغارات على السواد بالمقارنة مع المعارك التي دارت في الشام وفلسطين، يطرح كايتاني بهذا الصدد قضية كبرى هي قضية الفتح العربي برمته، وكأنه صار مسلماً بأن حركة الفتح انطلقت من هذه الغارات العراقية.

الواقع أن شيئاً من ذلك لم يكن. لا شك أن الأيام التي جدت سنة ١٢ هـ، قد أثرت على قرار عمر الذي اتخذه في السنة التالية، والخاص بالشروع في فتح السواد. على أن هذا القرار يكون غير معقول بدون الانتصارات على البيزنطيين. وينزع السياق التاريخي برمته، ٢٩ كما المطالعة المتيقظة للمصادر، إلى الدلالة على أن مواجهة الشام كانت تعتبر الجبهة الرئيسية والجبهة التي كانت فكرة الفتح عامة توضع فيها على محك الاختبار.

هذا وينبغي الإنطلاق من الأحداث الملموسة في ميدان يتصف بمثل هذه الضبابية. اتجه الرسول بنظره إلى الشمال قبل أن يتوفى، فشكل في محرم من سنة ١١هـ/٦٣٢ جيشاً للشام بقيادة أسامة بن زيد، وأمره بـ «أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين» كما روى الطبري(٢) نقلاً عن إبن إسحاق. ولا يكفي أن يكون التقليد الإسلامي أفاض في القول كما شاء في الغايات التي رسمها الرسول للغزو الخارجي لكي ننكر أو نخفف من وجود نيّة توسّعية في حياة الرسول نفسه. وإلاّ فلا يمكن فهم الإلحاح الذي أحاطت به الروايات جيش أسامة، مباشرة بعد مبايعة أبي بكر، في حين بدأت تطرح مسألة الردة الخطيرة، ولا نفهم بالخصوص إلا بعسر أنه بعد إنهاء حروب الردة (في أواخر سنة ١١ هـ)، وبعد أن تكلل بالنصر تسلل خالد إلى السواد فعلاً، قامت الدولة في المدينة بقيادة الفتح

---

(١) Caetani, *Annali dell'Islam*, Milano, 1907, Vol. II, t.II; Wellhausen, *Prolegomena Sur ältesten geschischte des Islams, Skizzen und Vorarbeiten*, VI, Berlin, 1889, pp.37ff ; Shaban, *Islamic History, a new interpretation*, I, Cambridge, pp. 25ff.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، نشرة القاهرة، ١٩٦٠ - ١٩٦٩، ج٣، ص ١٨٤.

الرسمي العلني نحو الشام وفلسطين، فجهزت ثلاثة جيوش مهمّة (في بداية سنة ١٣ هـ/ ٦٣٤). وهكذا فإن وجدت استمرارية في النوايا منذ عهد الرسول وروح عزم وقرارات باتّة من لدن دولة المدينة فإن ذلك كان موجهاً نحو الشمال، فضلاً عن احتمال وجود أسباب أخرى موضوعية أملتها الأوضاع القائمة في الخارج. ويبدو لنا أن شعبان قدّم عن دراية افتراضاً مفاده أن البيزنطيين كانوا يتأهبون للقيام بتدخل وشيك، درءاً للحملات العربية على حدودهم. لقد كانوا أكثر اطلاعاً من الفرس على ما كان يجري في بلاد العرب، وكانوا راغبين أيضاً في إعادة الخطوط التجارية التقليدية التي انقطعت بسبب تقدم الإسلام[(١)].

والمقصود من كل هذا النقاش أنه إذا وجب طرح قضية الفتح عامة، فمن حصافة الرأي أن يكون هذا الطرح بخصوص الشام لا بخصوص العراق. على أن مشروع الفتح امتد سريعاً جداً إلى العراق في أثناء خلافة عمر، إذ أعاد عمر النظر في العمليات الأولى التي قادها المثنّى وخالد، فوسع فيها وعقلنها بداية من سنة ١٣ هـ/٦٣٤. وبذلك يتبين أن تطور الفتح في العراق يوضح توضيحاً ممتازاً كل ما يتعلق بأسباب التوسع. تتجلّى هذه الأسباب بتطور الظاهرة ذاتها في تنوعها الملموس. ذلك أن الفتح العربي الخاضع منذ البداية إلى دفع مركزي، حالفه التنوع المرتبط بتنوع الأقاليم المفتوحة، وتضمن هذا التنوع البذرة التي نبتت فيها القضايا المقبلة التي ستواجه المجتمع العربي المهاجر. كان الفتح فعلاً «هجرة مسلحة»، كما جاء في تعبير كايتاني الجيد[(٢)]، وهي عبارة تنطبق على العراق أكثر مما تنطبق على أية جهة أخرى. أما أن يعتبر كرجوع لاشعوري إلى حركة بعيدة في الزمن، كما فعل المستشرق الإيطالي، وبمثابة ظاهرة تدفع بانتظام موجات الساميين بعيداً عن موطنهم الأول في بلاد العرب، فذلك يعني تأويلاً للتاريخ عرقياً مشطاً. ذلك أن كلمة ساميين تشمل بشراً متنوعي الأصناف وحّدهم التبحر العلمي الأوروبي في القرن التاسع عشر بأن جدد بناء لغاتهم فربط بينهم ربطاً خيالياً[(٣)]. وعوض أن نرجع إلى العصور الغابرة من الأجدر بنا أن نبذل الجهد للاحتفاظ فقط من تاريخ العراق الذي سبق الإسلام مباشرة بما من شأنه أن يوضح

---

(١) *Islamic History*, I, p.25. من المهم أن نلاحظ أن المسلمين كان يحدوهم في حياة الرسول، شعور بالخطر البيزنطي المسلط عليهم. وقد راجت إشاعات سنة ٨ هـ/ ٦٢٩، مفادها أن هناك قبائل عربية مناصرة تجمعت حول البيزنطيين، هي لخم، وجذام، وغسان، وعاملة: راجع ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١، ص ١٠٤. ومن المعلوم أن وقعة مؤتة كادت أن تكون كارثة.

(٢) *Annali dell'Islam*, Vol.II, t.II, p.861.

(٣) من العبث القول إن الفتح العربي في بلاد الرافدين كان «آخر محاولة لإقامة الهيمنة السامية من جديد في آسيا»: Caetani, *Annali*, Vol.II, t.II, p.861، كأن الأمر يتعلق بوجود وعي سامي وباستمراره عبر التاريخ.

الاستقرار العربي.

وضعية العراق قبل الفتح العربي

ساد الفرس على هذا البلد منذ ما يزيد على ألف سنة، وكان قطراً معروفاً بغرينه الثري، واقتصاده المائي، فكان حقاً هبة دجلة والفرات. وورث الفرس نسق بابل للري في أساسه وقد ذكر الخطيب البغدادي أنهم لم يقوموا سوى بتحسينه فحفروا قنوات ثانوية، لأن القنوات الرئيسية كانت سابقة لهم[١]. لكنهم طبعوا البلاد بطابعهم فكانت التقسيمات الإدارية وتقسيم الأراضي تحمل أسماء فارسية وكانت تنسب إلى ملوك الفرس، ولا سيما الساسانيين منهم[٢]. ولقد أقام الملك عاصمة ملكه كله في المدائن (أو طيسفون). وكان عليه أن يعود صيفاً إلى اصطخر المدينة المقدسة. والعراق بفضل ثرائه وموقعه الجغرافي، وموارده البشرية وماضيه، صار مركز الامبراطورية الفارسية في العهد الساساني. ومع ذلك، فقد ظل متميزاً عن الموطن الإثني الأصلي - أي فارس ذاتها - حيث كان للشعب المهيمن جذوره العميقة. وبالفعل فبعد تجاوز الحد الشرقي من حلوان، كان النجد الإيراني يشرف بكامل ارتفاعه على الأراضي السفلية لبلاد الرافدين. وقد لجأت فلول جيش يزدجرد إلى هذا المكان، بعد أن طردها العرب من العراق. وكان الخط الفاصل بشرياً بين الشعوب السامية[٣] الناطقة بالآرامية، من الأهالي الخاضعين أو النبط، والشعوب الإيرانية وهي قوام السيطرة الساسانية، كان هذا الخط يقع أسفل سفوح جبال زاغروس. ولكن على الرغم من أن العراق كان قطراً مفتوحاً خاضعاً مستغلاً، ولم يكن قطراً «قومياً»، فهو مرتبط بالامبراطورية إلى درجة أنه لو ضاع العراق لضاع كل شيء، كما دلت عليه الأحداث فيما بعد، خلافاً لما وقع في الشام وفي الامبراطورية البيزنطية. لقد ميز العرب قطعاً بين العراق -

---

(١) تاريخ بغداد، ج١، ص٥٧. اقتبس المؤلف أخباراً عن الهيثم بن عدي بخصوص دور الأنباط في التشييد ولعلهم بنوا القنوات الكبرى لصراة، وسورا، ونهر الملك في حين أن الفرس لم يحفروا سوى كوثى، والصراة الصغرى، والنهروان.

(٢) قسم العراق في العهد الساساني إلى اثنتي عشرة ولاية مالياً وإدارياً، سميت أستان، كانت ست ولايات منها تقع شرقي دجلة وتقع ست ولايات أخرى شرقي الفرات ومن أسمائها: شاد فيروز، بهزان خسرو، شادبهان، أردشير بابغان، بيهقباذ. Le Strange, *The Lands of Eastern Caliphate*, pp.79-81؛ وصالح أحمد العلي، «منطقة الكوفة»، سومر، ١٩٦٥، المجلد ٢١، ج١ و٢، ص ٢٢٩ - ٢٥٣. Spuler, *Handbuch der Orientalistik*, Brill, Leyden, 1959, III, 2, p.23ff.

(٣) راجع حول آثار اللغة الأكادية في المصطلحات التقنية للري العربي [مُشَنّيتو الأكادية = مسناة العربية] ما كتبه Armas Salonen في *Orientalia*, XXXII (1963), pp. 449-51; Bosworth, *JESHO*, XII/2 (1969), p.

الذي اشتمل على الأهواز، وخوزستان في الجنوب الشرقي - وبين فارس والجبال، وأصر عمر على رفضه مهاجمة الفرس في بلدهم الأصلي ودام رفضه بضع سنوات. لكن الأمر الدال هو أن أهم ما في الجهاز الدفاعي الإيراني استقر بالعراق. ثم أن خط الدفاع ضد «البرابرة» القادمين من الغرب، لم يكن موجوداً في أسفل جبل زاغروس، بل على مرتفعات الطَّف، وراء الفرات، ومواجهاً للبادية العربية[1].

لا شك أن العرب ما انفكوا يتسللون في كل العصور، من بلاد العرب إلى بلاد الرافدين. ولو اقتصرنا على المؤرخين العرب كالطبري والمسعودي، لكان شعورنا أن محاولات الاستقرار التي قامت بها الجموع العربية تعود إلى عهد سحيق مع ملاحظة أن أولئك المؤرخين كانوا يخلطون بين القديم والحديث، وما كان قابلاً للتصديق وما لم يكن كذلك. روى الطبري[2] أنه وُجد تجار عرب في بلاد الرافدين زمن نبختنصر الذي عاش في عصر معدّ بن عدنان (كانت هذه المعاصرة أسطورية لكنها كثيرة الأهمية كعلامة ذهنية). وقد تلقى الملك من الرب أمراً بالقضاء عليهم، لكنه بنى لهم حيراً (معسكراً) ثم تخلى عن هذه الفكرة، فاستقروا عند ذلك في الأنبار[3]. وروى الطبري كذلك في موضع آخر، أن العرب أقاموا بالحيرة والأنبار في عهد ملوك الطوائف أي زمن دولة الأرصسيديين Arsacides . وقد استفاد عناصر من تغلب وقيس وغطفان وأياد، كانوا تجمعوا في البحرين تحت إسم تنوخ الجامع لرايتهم، ولعل عناصر من لخم والأزد انضموا إليهم، استفادوا من انقسام الفرس، فأقاموا غرب الفرات حسب خط متواصل يمتد من الأنبار إلى الحيرة[4]. وتقول المصادر أنهم حافظوا على شخصيتهم، حيث كانت لهم شخصية مستقلة ثابتة بصفة خاصة. كانوا لا يسكنون إلا الخيام، ولم يختلطوا بالأهالي، وقد سمّي أولئك العرب المقيمون بالطّف بعرب الضاحية أي عرب الأطراف. على أن جميع العرب الذين أقاموا خارج شبه الجزيرة، من الأبلّه إلى الشام مروراً بالجزيرة، عاشوا عيشة مهمشة واتصفوا بصفات مشتركة وربطوا علائق قرابة وثيقة بينهم، حيث كانوا محاصرين بين العالم العربي الداخلي والهياكل الامبراطورية الخارجية. وما يدل على ذلك أن **جمهرة** ابن حزم[5]، صنفت، تنوخ، وغسان،

---

(١) لا سيما خندق سابور والحاميات الفارسية الموجودة بمنابع نهر الطفّ، وفي عين الصيد وقُطقُطانة، ورهيمة، وعين جمل: البلاذري، فتوح البلدان، القاهرة، ١٩٣٣، ص ٢٩٦.

(٢) تاريخ الطبري، ج١، ص ٥٥٨.

(٣) لكن من المعلوم أن الأنبار أنشئت بعد ذلك بكثير من طرف سابور ذي الأكتاف: الدينوري، **الأخبار الطوال**، طبعة بيروت، ص ٤٨ - ٤٩.

(٤) الطبري، ج١، ص ٦٠٩.

(٥) **الجمهرة**، طبعة القاهرة، ص ٤٦١.

خارج تسلسل الشجرة المشتركة وظهرت أياد والنمر لا محالة بمظهر هامشي بارز. ثم إن الأمر يختلط على نسابينا ومؤرخينا، فخلطوا بين هجرة قضاعة واستقرار عرب الضاحية واستقرار تغلب والنمر وأياد في الجزيرة[1]. لكن هذا الشتات العربي كان يربط الصلات حيثما كان.

فهل هذا أصل مشترك؟ أو تضامن أملاه ما كانت عليه ظروف العيش من تشابه، أم كانت سهولة في التحرك مردها استمرار الترحال؟ يرى المسعودي أن الاستقرار الأول في الحيرة، تم بواسطة انفصال جموع من المهاجرين في الشام، فوصف جذيمة الأول بأنه تنوخي[2]. هذا وأن تسمية تنوخ الغامضة تستند إلى الماضي البعيد. الواقع أن هذه النسبة كانت نادرة في المصادر كلما اقتربنا من الفتح. لكن إذا وجب التمييز بين خط الاتصال العربي - الفارسي بالطف والخاضع للحيرة، وبين منطقة الجزيرة، وبين المنطقة العربية الداخلية القريبة من العراق والمستقلة، فلا مناص من القول إن العناصر القبلية لهذه المناطق الثلاث كانت متشابكة.

أ) تقيم أياد وتغلب والنمر على أرض الجزيرة بصورة رئيسية، وهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمصير الحيرة: وتوجد في قلب السواد أيضاً، تقوم على خفارة تجار سوق قرية بغداد[3]، أو بعين التمر حيث كانت تدافع عن الحصن برفقة الفرس، وقد قام خالد بتقتيلها[4]. وقد تأكد من جهة أخرى أن ملك الحيرة كان يعتمد عليهم ويستخدمهم ضمن فرق شرطته[5]. ويمكن الافتراض أنهم أكثروا من التنقل حين انهارت مملكة الحيرة، مع العلم بأنهم كانوا يتنقلون دائماً، وأن مقرهم الرئيسي كان بأرض الجزيرة الفراتية، ويبدو أن الفرس استخدموهم في الدفاع عن حدودهم العربية.

ب) أقام عرب داخل بلاد العرب علائق مع العالم الإيراني، وكان بصرهم مركزاً على العراق، ولا سيما قبيلتان كبيرتان من ربيعة هما عبد القيس وبكر. وقد بيّن ماسينيون Massignon أن عبد القيس تأثرت بالحياة الإيرانية إلى حد ما قبل ظهور الإسلام بمدة[6].

---

(١) Caetani, *Annali dell'Islam*, II,2, p.253.

(٢) مروج الذهب، تحقيق پلا Pellat، بيروت، ١٩٦٦، ج٢، ص ٢١٤.

(٣) تاريخ الطبري، ج٣، ص ٤٧٤، يتحدث الطبري عن «خفراء من ربيعة وقضاعة». وكانت أياد أنشط القبائل الثلاث.

(٤) المرجع نفسه، ج٣، ص ٣٧٦.

(٥) Kister, «al-Hira. Some notes on its relations withArabia», *Arabica*, xv,1, 1968, p.159. يشير إلى قبيلة النمر لكن ليس صحيحاً القول إن خالداً أبادهم خلال حروب الردة، إلا إذا اعتبرنا أيام سنة ١٢هـ مدرجة في الردة.

(٦) Massignon, «Explication du plan de Kufa», *Opera minora*, tIII, p.41.

ومن الثابت أن بعض عناصر هذه القبيلة التي ستقوم بدور رئيس في العشرين سنة التالية، قد تسربوا إلى منطقة الأبله وتقدموا إلى خوزستان[1]. أما قبيلة بكر التي ارتبطت بها عجل وثيق الارتباط، فقد كانت تترحل في البوادي خارج الطّف. وقد أنيطت مسؤوليات بعهدة بعض شيوخها، كلفهم بها الفرس، كما جرى الأمر مع شيخ من بكر ولي على الأبله[2]. لكن الملاحظ أنه ظهرت داخل هذه القبيلة استعدادات عدائية تجاه الامبراطورية الساسانية. كانت هذه القبيلة قبيلة اتصال ومثلت أيضاً رأس الرمح للعروبة تجاه العجم. ظهر ذلك خلال معركة ذي قار[3]، ثم أثناء مقدمات الفتح الذي انطلق مع بكر فعلاً بقيادة شيخهم المثنّى بن حارثة الشيباني. كانت معركة ذي قار تشكل أول مواجهة بين الفرس والعرب على أرض مكشوفة وتستند أسباب نشوبها إلى تاريخ العلاقات بين الامبراطورية ومملكة الحيرة، وهي العلاقات التي بلغت مرحلتها الأخيرة من التدهور. ذلك أنه لكي يقوم بنو شيبان بنجدة آخر المناذرة الذي طارده كسرى ابرويز، ولكونهم رفضوا تسليم الدروع التي أودعها النعمان عندهم، فإنهم وافقوا على خوض نزاع كان يبدو غير متكافىء[4]. وقد شدت عجل أزرهم بقوة، وجسّم حنظلة شيخهم روح النضال والتحدي، أكثر من هانىء بن قبيصة سيد بكر. وما هو ذو دلالة أيضاً أن قبيلة أياد التي حاربت مع الفرس، اقترحت، حسب المصادر، خذلان أسيادها لفائدة أبناء جلدتها - وقد تجدد هذا النوع من السلوك في بعض مراحل الفتح العربي.

ولقد أشادت أشعار كثيرة بهذا الحدث[5] الذي كانت مراحله متعددة. وقد وصفها العرب - ذهل بن شيبان وعجل - كما وصفوا أيامهم المعهودة، فظهرت أيام قراقر وحنو، وجبابات، وذو أجرم، وغدوان، وأخيراً المراجهة الحاسمة في بطحاء ذي قار. والأمر المهم الواجب لحظه أن رؤساء الحاميات العربية بقيادة أياس بن قبيصة الطائي[6] رافقوا الفرس ومن بينهم شخص بارقي (من الأزد) وآخر شيباني من بيت ذي الجدين عهد إليه بقيادة حامية صفوان في الطفّ. ما هي حصيلة هذه الوقعة؟ هل كانت تبشر في واقع الأمر

---

(١) نجد عناصر من ربيعة متنصرة في منطقة فارس وأسياف البحر إلى حد زمن علي لكن الأرجح أنهم قاموا بهجرة وحشية: الطبري، ج٥، ص١٢٤ - ١٢٥.

(٢) كان من بيت ذي الجدين الشريف الذي أقطع الأبله طعمة: الطبري، ج٢، ص ٢٠٦.

(٣) راجع ما ذكره عنها، غولدزيهر. Goldziher, Muhammadanishe, I.p.104.

(٤) تاريخ الطبري، ج٢، ص٢٠٦. هذا الاستبقاء لكمية ضخمة من الدروع والأسلحة يفسر قوة بكر العسكرية في أول الفتح: ياقوت، معجم البلدان، ط. بيروت، ١٩٥٧، ج٤، ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٥) المرجع نفسه، ج٢، ص ٢١٢.

(٦) خليفة النعمان على رأس الحيرة.

بانقلاب الوضع لفائدة العرب، وتغيير علائق القوة؟ الحقيقة أن الموضوع مرتبط بحدث صغير في حد ذاته، كان عبارة عن معركة صغيرة دارت بين بعض الجماعات العربية وبعض حاميات خط الدفاع الفارسي. على أن هذا الحدث يندرج في سلسلة من الظواهر التي تكتسب دلالة معينة حين يقع ربطها ببعضها بعضاً: منها العدوانية المقدامة التي أبدتها قبيلتا شيبان وعجل، المتحمتان والداخلتان في فلك الساسانيين دخولاً متفاوت الأهمية، وقد بقي بعض من عناصرهما على تلك الحال، ثم انهيار مملكة الحيرة في شكلها التقليدي، وتغييرات طرأت على استراتيجية الدفاع الفارسي ضد العرب، وعدم استقرار هذه الاستراتيجية، وهناك أمور أخرى لم يرد ذكرها في المصادر إلا تلميحاً، وهي ترجعنا إلى بنية من العلاقات التي نخمنها: مثلاً، أن يكون الفرس قد اعتبروا الغارات العربية الأولى، حتى وقعة القادسية، بمثابة دفعة حمى تسببت بها المجاعة وكأن الأمر يعني حركة معهودة من الاضطرابات.

وأخيراً، لن ننفك دائماً نلح على الدور الجديد الذي قامت به بكر بن وائل. فقد كانوا الأولين الذين بدأوا الإغارة على السواد، وإليهم يرجع فضل المبادرة في فتح العراق، بمساندة الحكومة القائمة في المدينة طبعاً وبإذن منها.

ويتضح إذن أنه لا يمكن تعليل هذه المبادرة دون الرجوع إلى ذلك الماضي القريب، ماضي النزاعات والأطماع والتحدي الموجه إلى أعظم امبراطورية في العالم والصادر عن قبيلة كانت ذهنيتها ترتبط أعمق ارتباط بشبه الجزيرة، لكنها كانت تعيش لا محالة على رباط وثيق بالعالم الخارجي وكانت مطلعة على نقاط الضعف فيه.

ج) كتب الكثير عن مملكة الحيرة[1]. كانت الحيرة موجودة قبل الساسانيين، فبيؤوها لتكون مملكة تابعة أنيطت بها مراقبة الحدود بالخصوص، وأصبحت مملكة ذات شأن في القرن الرابع الميلادي، على الأقل بفضل ما حصل عليه النعمان الأول من حظوة عند يزدجرد، وقد أشرف النعمان على بناء قصر الخورنق الذي استقر فيه ابن الملك الساساني. تضاف إلى ذلك الأسباب العسكرية والسياسية التي تفسر كيف أعطى الملك الفارسي النعمان كتيبتين للقتال، كانت الأولى متكوّنة من العرب، من ربيعة بالخصوص، وتكوّنت الثانية من

---

(١) فضلاً عن أبحاث كايتاني ومقال نشر في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية)، يُمكن الرجوع إلى: Labourt, *le christianisme dans l'empire perse;* Aigrain, «art Arabie» in *Dictionnaire d'Histoire et de Géographie ecclésiastiques,* t. III, Paris 1924; Christensen, *l'Iran sous les Sassanides,* Copenhague 1936; Talbot Rice, «Hira» in *Journal of the Royal Central Asian Society,* vol. XIX, 1932, pp. 254-268; وكذلك إلى أعمال كيستر Kister وبالأخص في: *Arabica,* XV, 1, 1968, p.143 ff.

الفرس[1]. ونمت القدرة العسكرية لهذه المملكة في القرن الخامس والقرن السادس الميلادي، كما اتسع مجال عملها. ولكن لا يعني ذلك أننا نجاري كيستر Kister في رأيه القائل إن نسيج العنكبوت الذي حبكه ملوك الحيرة قد امتد إلى بلاد العرب كافة، وكأنهم أصبحوا المحور والمرجع للوجود السياسي كله في بلاد العرب، إنما دخلت الحاشية الشرقية لشبه الجزيرة بصفة متفاوتة في جهازهم. فكان بنو بكر صنائع لهم (من المرتزقة أو بالأحرى كانوا أعواناً مأجورين)، والنمر أيضاً، وارتبطت تميم بهم بفضل رباط الردافة، وعقد عهد بينهم وبين سليم وهوازن، ويمكن اعتبار غطفان وأسد قبيلتين حليفتين لهم.

كانت الحيرة إمارة مهمة، بل كانت تصنف ضمن الممالك الأربع التابعة التي كانت تحويها كل الامبراطورية. وكان ملكها يلقب بلقب شهداران[2]. أما دورها الثقافي والحضاري فيبدو عظيماً إذ نصّبت نفسها مركزاً للشعر العربي الأصيل وملتقى لتأثيرات مختلفة كذلك. أما على الصعيد الديني فقد تعايشت فيها الوثنية العربية والمانوية والمزدكيّة والنسطورية والمذهب التوحيدي لطبيعة المسيح ويبدو أن المسيحيين المشار إليهم من طرف المصادر بكلمة العباد كانوا يشكلون الأغلبية، وعلى رأسهم أسقف من القرن الخامس. فمثلاً نجد أوزي Osee أسقفاً في سنة ٤١٠ م، على «هرته»، وكان حاضراً بمجمع سلوقيه حيث نظمت كنيسة فارس[3] في سنة ٥١٠ م، وصوت نرسس Narses الأسقف النسطوري، لصالح انتخاب جاثليق جديد[4]. وكان الجو جو تسامح، فكان هذا الملك يبدي تشككه تجاه المسيحية ويذهب الأمر بغيره من الملوك ـ كالنعمان بن المنذر القديم ـ إلى حد اعتناق الحياة التنسكيّة، بانياً أديرةً وصوامع[5]. ستقتبس الكوفة كثيراً من هذه الخاصيات الحضارية والثقافية، ولا سيما العناصر الهندسية المعمارية، والكتابة، وعناصر الشعور الديني وبذلك تبقى قضية تأثير الحيرة على ثقافة الكوفة كقضية أساسية.

كانت مملكة الحيرة تقوم بدور فعال، دور الحاجز بين العرب والفرس، وطرأت عليها تغييرات ابتداءً من القرن السابع. فقد أقصى كسرى أبرويز، في ٦٠٢، الأسرة اللخمية

---

(١) الأغاني، طبعة القاهرة، ١٩٢٨، ج٢، ص١٤٦؛ الألوسي، بلوغ الأرب، بغداد، ١٣١٤ هـ، ج٢، ص ١٩١. كانت الكتيبة الأولى تسمى دوسر، وكانت شديدة المراس في القتال، وتسمت الثانية الشهباء، وعرفت الكتيبتان أيضاً باسم «القبيلتين».

(٢) Christensen, *Iran*..., p.96.

(٣) انظر مادة «Arabie» في: *Dictionnaire d'Histoire et de Géographie ecclésiastiques*.

(٤) Talbot-Rice, *art.cit*, p.254. لقد ازداد عدد النسطوريين.

(٥) الأغاني، ج٢، ص١٣٥: يروى أن هنداً ابنته هي التي أمرت ببناء دير هند الشهير الذي كان محاذياً لمدينة الكوفة المقبلة.

المالكة وكانت من المناذرة، لأسباب تبقى مجهولة لدينا إلا أن المؤرخين القدامى ربطوا هذا القرار بالدور الذي قام به عدي بن زيد الشاعر(1). كان عدي ذا حظوة في بلاط الساسانيين، ويعتقد أنه أنقذ السلالة اللخمية لما أجلس على العرش النعمان الذي كان في حمايته. وقد أثارت حظوته الخاطفة في الحيرة الحفائظ والدسائس. فاغتيل، وقرر الإبن الأخذ بثأر أبيه فأثار كسرى على النعمان الثالث. وأظهر النعمان العصيان وطورد من أجل ذلك إلى قبيلة طيّ التي رفضت مساعدته، ثم دخل في ذمة هانئ بن قبيصة من ذهل بن شيبان من بكر، فكانت حمايته له ناجعة، مما أدى إلى نشوب المواجهة في ذي قار، التي صمد فيها العرب حتى النصر. لكن هذا لم يحل دون طرد المناذرة عن الحكم، وألحقت مملكة الحيرة إلحاقاً كان مقنّعاً ثم صار مباشراً. وبالفعل ولّي عربي هو أياس بن قبيصة الطائي على ثغر العرب، ومن المحتمل أن الأمر تم له بعنوان الولايه لا بصفته ملكاً. وخلفه أزاذابه بن ماهان الفارسي طيلة سبعة عشر عاماً، منها أربعة عشر عاماً وثمانية أشهر في حكم كسرى أبرويز(2). وبذلك نصل إلى سنة ٦٣٠ م/ ٨ هـ. وصارت الوضعية عندئذ غامضة. فظهر أحد أحفاد الأسرة المالكة سابقاً وهو أحد المناذرة الذي اشتهر باسم الغرور عند العرب، وانتهى أمره مقتولاً في البحرين(3).

وها أن الحيرة تبرز في ضوء التاريخ الإسلامي، بمثابة الجزء المركزي من الأيام التي حدثت سنة ١٢ هـ. أنشئت إلى جانبها الكوفة بعد خمس سنوات، رمزاً وموطناً للعروبة الجديدة التي برزت مع الإسلام، وكانت عروبة مغايرة كل المغايرة لتلك التي جسمتها الحيرة طيلة ثلاثة قرون.

الواقع أن انهيار حكم المناذرة لا يكشف عن تناقض سياسة كسرى الثاني فقط، حتى ولو دلّ على مدى الخفة الذي بلغه عسف هذا الملك. إذ إن حالة الحيرة التي صار الولاة يتقاذفونها في آخر طورها، تعكس تفكك السلطة الساسانية ذاتها. ولا فائدة من التعرض للأسباب العميقة للأزمة التي مرت بها الامبراطورية الفارسية. على أننا نلاحظ ما هو ماثل للعيان وهو ما لاحظه المؤرخون العرب أنفسهم. كان العهد الطويل الذي قضاه في الحكم كسرى أبرويز (٥٩٠ ـ ٦٢٨)، بمثابة الكارثة من وجوه عدة: اكتناز المال بصورة لا تصدق، وشطط جبائي وتجاوزات من كل قبيل، وحروب مرهقة مع بيزنطة(4). فضلاً عن أن الهوس

---

(1) الطبري، التاريخ، ج٢، ص ١٨٨، وما بعدها؛ الأغاني، ج٢، ص ١٠٠ وما بعدها؛ المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص ٢٢٣ وما بعدها.

(2) الطبري، التاريخ، ج٢، ص ٢١٣.

(3) المرجع نفسه، ج٢، ص ٢١٣.

(4) الطبري، التاريخ، ج٢، ص ٢١٦.

التنجيمي لهذا الملك دفعه إلى القضاء عن ذريته ذاتها. فطرأت أزمة على خلافة الملك، لكون الذرية مفقودة. لم يكن البيت الساساني مهدداً بالزوال فقط، بل إن الضربة القاضية لحقت بهيبته، دون أن تتأكد في الاثناء شرعية سياسية أخرى. فتواتر على العرش خلال بضعة أعوام الملوك والمدعون بأحقيتهم في الملك، إضافة إلى الدسائس والانقلابات والاغتيارات والمقاتل. ولم يبق شيرويه في الحكم خلفاً لكسرى سوى ستة أشهر تقريباً، وخلفه ابنه أردشير وبقي سبع سنوات في الحكم. ثم ساد الغموض بعد ذلك. وما يمكن ذكره من أسماء في هذا الصدد، اسما: بوران ورستم، وآخرها يزدجرد الذي توج باصطخر حينما كان الفتح العربي على أشده[1].

ولذا أدى الاضطراب السياسي إلى نشوب أزمة خلافة لا مخرج منها. ومما زاد الطين بلة أن الكوارث الطبيعية نزلت على العراق، ففاض الفرات ودجلة في سنة ٧ من الهجرة، واستحال سد الثغرات ونشأت البطائح وكانت مساحات واسعة من الماء الراكد تقع بجنوب موقع الكوفة العتيدة إلى حدود الأبله. وبذلك نزعت مساحة كبيرة كانت صالحة للزراعة وخسرها النشاط الزراعي خسارة دائمة[2] وعجز كسرى أبرويز عن إيقاف هذه الظاهرة التي استمرت وتفاقمت مع الغزوات العربية.

(١) الطبري، ج٢، ص ٢٢٩ - ٢٣٤؛ الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٠ - ١١١.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٩٠؛ Le Strange, *The Lands of Eastern Caliphate*, p. 26- 27.

- ٢ -
من الأيام إلى القادسية

انطلق الفتح العربي في مثل هذه الظروف غير الملائمة للفرس إطلاقاً. وقد ارتكب الساسانيون خطأً كبيراً. ذلك أنهم لم يتفطنوا إلى تقييم ما كان يجدّ في بلاد العرب، كما أنهم لم يتغلبوا على الشعور بالمناعة الذي قضى عليهم في النهاية.

الأيام

بينما كانت تدور حروب الردة - وقد كانت مدرسة تعلم فيها العرب الحرب تعلماً ممتازاً[1] - بلغ إلى علم بني شيبان أن مملكة فارس كانت في أزمة خلافة، فخططوا للقيام بغارات كبيرة على السواد[2]. وأراد المثنّى، سيّدهم، ربط هذه العملية بالإسلام: كان الجزء الذي يتبعه من بكر في طريق الأسلمة ولا سيما أنه بقي وفياً للمدين خلال حروب الردة. وعمل المثنى من أجل إكساب وضعه صبغة شرعية، فطلب الإذن من أبي بكر، لكن بعد انطلاق العملية. وتدخل خالد بن الوليد في هذا الظرف إذْ كان قريب العهد بالانتصار على حنيفة في معركة عقرباء. فلا مفر من تفسير ذلك بأن السلطة في المدينة أرادت استرجاع المبادرة التي قامت بها قبيلة بكر، وحصرها، وحتى تسييرها. وأذن أبو بكر للمثنى بالتحرك، لكنه عمل على إعلام خالد بالأمر، وأمره بالانضمام إلى المثنى وقيادة العملية كلها. فنشأت عن هذا الإتصال «أيام» سنة ١٢ هـ، التي كانت منطلقاً لسيطرة العرب على العراق، ثم على الممتلكات الساسانية كلها في فترة لاحقة.

هل اغتاظ المثنى من قدوم خالد؟ «وكره المثنى ورود خالد عليه وكان ظن أن أبا بكر

---

(١) ذلك ما لاحظه نابليون: راجع: Norman Daniel; *Islam, Europe and Empire*, p.29

(٢) الطبري، التاريخ، ج٣، ص ٣٤٤؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٤٢؛ الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١١.

سيوليه الأمر» كما قال الدينوري[١]. ليس يهم إلا قليلاً الاطلاع على مشاعر المثنى. لكن، وخلافاً لذلك، لا منازع أن مساعدته كانت فعالة وثمينة وأنه جسّم عنصر الاستمرار والدوام في مشروع الفتح الذي تعطل عدة مرات. كان البلاذري والدينوري محقين في منحه مكاناً مركزياً في انطلاق المغامرة العراقية[٢]، في حين أن الطبري نزع إلى إغفال دوره، فيما نقله لنا من روايات باستثناء تلك التي يعتمد فيها أبا مخنف[٣]. وعلى كل، فخلافاً لما اتصف به كتاب الدينوري من إيجاز ووضوح وتبويب، إذ ربط أحداث الأيام بعرض حول تدهور الأحوال في الامبراطورية الساسانية، وقصرها على الاستيلاء على الحيرة وحصونها الثلاثة، وكذلك على وقعة عين التمر، وخلافاً أيضاً لما يبدو عليه نص البلاذري من الوجازة، فإن النصوص التي أوردها الطبري تستهدف الشمولية، فجاءت كثيفة، مفرطة التفاصيل، مترامية الأطراف. وردت روايات مطولة لأحداث الأيام، وتجاوزت كثيراً ما كان يترقب منها من أهمية عسكرية حقة. وتجلى هذا الأمر في كتب الفقه[٤]، والمغازي والتاريخ[٥]. أما حقيقة الأمر، فإن المناوشات الأولى على حدود العراق تبدو في نظر المؤرخ الحديث المتتبع لسياق الأحداث، بمثابة الأحداث الصغرى بالنظر للمعارك الحاسمة ـ ومنها معركة القادسية ـ التي هزت الامبراطورية الفارسية في قوتها ثم في وجودها هزاً لا رجعة فيه. فضلاً عن أن نتائجها الإيجابية كخضوع الحيرة وخضوع بعض قرى السواد منها أليس وبانقيا كانت غير ثابتة، لأن عودة الفرس إلى الهجوم جعلتها لاغية، وهكذا انطلق العرب من الصفر في القادسية، كأنه لم يقع شيء. فلم هذا التضخيم لحدث الأيام في الروايات؟ يمكن تعليل اهتمام الفقهاء بالتطورات الأولى للفتح بمحاولتهم العثور على قاعدة فقهية عامة مستمدة من صور خاصة، هي قاعدة الصلح المتميزة عن وضعية العنوة. ومن الممكن أيضاً أن سكان الحيرة أرادوا التملص من النظام المشترك للسواد، مستظهرين بمعاهدة أبرمت مع خالد. وبذلك يمكن للمشاغل النوعية الخاصة بالقرن الثاني (إمكانية التصرف بالبيع في أرض السواد أم لا، نظام خاص أو غير خاص للمجموعات التي طالبت به باسم الحقوق التاريخية) أن تفسر اهتمام الفقهاء بأحداث تبدو ثانوية من الوجهة التاريخية[٦].

---

(١) الأخبار الطوال، ص ١١٢.

(٢) فتوح البلدان، ص ٢٤٣؛ الأخبار الطوال، ص ١١٢؛ لا نجد في تاريخ خليفة بن خياط أي خبر مهم: انظر ج١، ص ٨٥ ـ ٨٦.

(٣) الطبري، التاريخ، ج٣، ص ٣٤٣.

(٤) أبو يوسف، كتاب الخراج، ص ١٤٢ ـ ١٤٩.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ص ٣٨٤ ـ ٤٦١.

(٦) يعتمد البلاذري في رواية الأحداث، قواعد فقهية من هذا القبيل: «ليس لأهل السواد عهد إلاّ الحيرة وأليس وبانقيا» أو من ذلك: «لا يصلح بيع أرض دون الجبل إلاّ أرض بني صلوبا وأرض الحيرة»، فتوح البلدان =

هناك تعليل آخر صبغته اجتماعية تاريخية. لقد تحقق الفتح على مراحل متوالية، وكان التمييز بين المحاربين على أساس الأقدمية في الخدمة («السابقة»). فجسم هذا الأمر إسقاطاً على الأحداث التي تلت وجود الرسول، لزمنية نبوية وإسلامية محضة. وعندما جدّت نزاعات اجتماعية دينية في خلافة عثمان وعلي ومعاوية، وفي الكوفة بالذات، كانت جميعها أو كادت تدور حول اختيار سلم الرتب، وكان التيار الإسلامي ينزع طبعاً إلى تمييز السابقة الزمنية في القتال. وقد آل الأمر إلى أن يكوّن أبطال الأيام مجموعة متماسكة كانت لها مطامح سياسية واجتماعية في البداية، ثم تحولت إلى مجرد مطامح تاريخية وأدبية. «كان أهل الأيام من أهل الكوفة يتوعدون معاوية عند بعض الذي يبلغهم، ويقولون: ما شاء معاوية، نحن أصحاب ذات السلاسل، ويسمون ما بينها وبين الفراض ما يذكرون ما كان بعد احتقار لما كان بعد فيما كان قبل»[1].

لعل هذه المجموعة النشيطة في خلافة عثمان، التي خلت إلى ذكرياتها في عهد معاوية، هي التي غذت رواية الأساطير حول الأيام سنة ١٢، فتقصت الأحداث الصغرى والأشعار المنظومة على نموذج مستمد من العصر الجاهلي بصورة غريبة. فنجم عن ذلك مصدر جديد للأثر التاريخي قائم على الأخبار لا على الفقه وقد استوحى صبغة ذات خصوصية - استهدفت المصلحة الأدبية لمجموعة معينة - وصبغة إسلامية في الآن نفسه قامت على مفهوم إسلامي للعزة، وصبغة عربية جاهلية المظهر أخيراً. فمن جهة هناك شعور بعزة شبه أسطورية ناشئة عن أن أهل الأيام كانوا أول من انطلق في مغامرة هشة في بدايتها، لكنها عظيمة في نتائجها آخر الأمر، إذ إن الأشياء لا تقاس بأهميتها الظاهرة بل بصوفية الانطلاقة، وبالحركة الأولى التي تلهب التاريخ والتي ترجع إلى زمن النبي. ومن جهة أخرى يعود لفظ الأيام، من حيث وقعه، إلى الجاهلية الأولى: حوادث صغيرة، لا تكاد تدخل في التاريخ، ولكنها تطبع الوعي الجماعي بقوّة. ولربما كان المقصود في نطاق أيامنا العراقية تكييف تكتيك الحرب القبلية إلى تكتيك الحرب الشاملة بين شعب وشعب. الحقيقة أن هذا التدرب تحقق بعد وقت قصير زمن أبي عبيد وجرير بن عبد الله البجلي،

= ص ٢٤٦. وقد تعددت المناقشات أيضاً حول تسويغ البيع والشراء أو عدمه في أراضي بغداد، التي اعتبرت جزءاً لا يتجزأ من السواد: راجع الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١، ص ٤ - ٢٠. وقد اعتمد Dennett في: *Conversion and the Poll-tax*، هذه التصورات الفقهية، فأعطى مكاناً أعظم مما ينبغي لقرى مثل أليس وبانقيا، الخ...

(١) الطبري، التاريخ، ج٣، ص ٣٨٥. حسب هذا النص، يمكن تحديد أهل الأيام بوصفهم العناصر الذين اشتركوا في آخر الغزوات النبوية، ثم في القضاء على الردّة، بقيادة خالد، وأخيراً في الغارات الأولى على العراق التي بدت لهم كأنها تتويج لعملهم دفاعاً عن حياض الإسلام وتوسعه في الجزيرة العربية وعلى هوامشها.

خلال المرحلة الثانية من الفتح. أما في مرحلة الأيام، فالأمر بقي مرتبطاً بأحداث كانت تدور بين العرب أنفسهم: في الحيرة مثلاً أو في عين التمر، حيث المهزومون الرئيسيون كانوا من عرب الحدود أكثر مما كانوا من الفرس، وكأنّ ذلك، بشكل من الأشكال، امتداد لحرب القضاء على الردة.

إن تاريخ الطبري هو أضمن المصادر بهذا الصدد رغم مظهره المتشعب. أما البلاذري فيخلط بين التواريخ وتشتبه لديه الأحداث ويدخل فيها جانباً لا يستهان به من غريب الرواية والوعظ. أما كتاب أبي يوسف فهو جيد لكن يعوزه التحديد.

يروي الطبري عدة روايات منكراً صحتها[1]، وقد ورد فيها أن خالداً مرَّ بالأبله واتجه شمالاً حتى الحيرة. الواقع أن الساحة الرئيسة للعمليات كانت تقع في موقع الكوفة العتيدة حيث جرى الاستيلاء على الحاميات وفي الإمكان أن يكون العرب قد تقدموا في مرحلة ثانية إلى السواد حتى دجلة، محتلين إياه في واقع الأمر، بحيث أن دجلة لا الفرات هي التي قامت مقام الحاجز بين العرب والعجم في مطلع عام ١٣[2]. ودعي خالد، في المرحلة الأخيرة، لنجدة الجيوش في الشام فسار إلى أعلى الفرات ودخل الجزيرة فقمع بشدة القبائل العربية على حدود الشام، ثم عبر الصحراء فتفرع جيش الأيام فرعين: فرع رافق خالداً تحت اسم أهل العراق وعاد فوراً لا محالة بعد وقعة القادسية، وبقي قسم آخر مع المثنى في الحيرة، وهم في اعتقادنا أنصار المثنى بالذات، وسيكون نصيبهم المشاركة في كل مراحل المغامرة العراقية.

إن الحصون التي استولى عليها خالد والمثنى هي أليس والحيرة وبسما وبانقيا وأمغيشيا. توجد أليس على الفرات[3] وكانت في حماية قائد عسكري فارسي يسمى جاباز وقد لعب دوراً ما في حروب الفتح حتى وقعة القادسية. كان جابان يعتمد على أعوان عرب

---

(١) وجاراه فلهوزن في هذا الرأي: Prolegomena.. p.43.

(٢) الطبري، التاريخ، ج٣ ص ٤١٤.

(٣) هذا ما ورد في أغلب المصادر، لكن لا يشكل ذلك خبراً كافياً، إذ لو كانت حامية فارسية تدافع عن خط المواجهة مع العرب، لوقعت منطقياً على ضفة الفرات اليمنى، لكن السياق كله الذي توحي به مطالعة كتاب الطبري خاصة، يدل على وجود هذه القرية والقرى الأخرى داخل السواد، أي على ضفة الفرات اليسرى وبالأحرى في منطقة الحيرة والكوفة وهو الموقع الذي حدده لها صالح أحمد العلي في الخارطة المدرجة بدراسته: «منطقة الكوفة، دراسة طوغرافية»، سومر، ١٩٦١، المجلد ٢١، ج١ و٢، ص ٢٢٩ - ٢٥٣. وقد أشار الدينوري صراحة، ص ٢٩٨، إلى وجود بانقيا في المنطقة ذاتها. هذا ولا يُعتمد على المعاجم الجغرافية المتأخرة في موضوع التعرف على المواقع القديمة، إذ أوردت ما نقلته عن الكتب السابقة وهي بذاتها قليلة الوضوح: ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص ٣٣١ و ٣٢٠. وقد أكد الطبري في مكان آخر أن أليس تقع بمنطقة الأنبار وتتوغل في الشمال: التاريخ، ج٣، ص ٤٧٣.

إما من عرب الضاحية (الحيرة)، وإما جندوا من القبائل المتحالفة: وهي قبائل عجل وأياد وضبيعة. وانتهت القضية بتقتيل حقيقيْ لهؤلاء العرب والاستيلاء على أمغيشيا[1]، وكانت أليس قلعة لها[2]. كما وقع الاستيلاء على الحيرة بالعنف نفسه. فقد ضرب الحصار على حصون القصر الأبيض وقصر العدسيين، وقصر بني مازن، وقصر ابن بقيلة حيث كان يوجد عمرو بن عبد المسيح[3] الحامي الرئيسي للحيرة. ونشبت المعركة ودخل الجيش البيوت والأديرة، وبدأ التقتيل، فطلب سكان القصور الصلح، لما كانت عليه المدينة والأديرة من عجز عن الدفاع، وقبلوا بدفع جزية تبلغ ١٩٠ ألف درهم، ووعدوا، فوق ذلك بإرشاد الجيوش الإسلامية. وتجدد المشهد نفسه تقريباً في كل مكان: الشروع في التقتيل في المدينة الملاصقة للحصن، واستسلام المدافعين عن الحصن بعد التفاوض على إبرام اتفاق. وكان يتم أحياناً إبرام معاهدة صلح بعد حصول اقتحام واضح لا جدال فيه: حدث ذلك في بانقيا وعين التمر[4]. ويروي الطبري الأمور وكأنه يريد إطلاعنا على القواعد الفقهية التي اعتمدها الفتح في البداية وقد يتعلق الأمر أيضاً بإسقاط على الماضي. ويظهر خالد في هذه الروايات بمظهر أول شخص ينظم الفتح ويكتشف ويمارس قواعد تنظيمه الأساسية: مبدأ الصلح، والعهد، وبقاء الفلاحين في أراضيهم، والتمييز بين العمل والثغر[5].

وهكذا أنهي فتح نصف السواد (حتى دجلة) بعد إنجاز ضربة خاطفة، ساعد عليها غياب الفرس من الساحة غياباً كاد يكون تاماً؛ ويمكن القول إن خالداً تعهد الفتح وكأنه وقع احتلال نهائي. روي أنه بقي سنة في الحيرة يقوم بدور الوالي الحقيقي على المنطقة الموجودة بين الفرات ودجلة[6]. وإن هو انطلق شمالاً وقاد حملة قصيرة، فذلك لكي ينجد أحد ضباطه المسمى عياض بن غنم الذي كان في وضع صعب. وجدّ في الأثناء يوم

---

(١) أثبتت الحفريات التي تمت في بابل عام ١٨٨٣، وجود Ummischigedia ولعلها تكون هي بذاتها أمغيشيا: Wellhausen *Prolegomena*, p.41.

(٢) الطبري، ج٣، ص ٣٥٨.

(٣) الطبري، ج٣، ص ٣٦٤.

(٤) تحدث أبو يوسف عن الاستيلاء على هذه القرى عنوة، كما تحدث أيضاً عن عهد: كتاب الخراج، ص ١٤٥، كان يرمي إلى وعظ الأمراء عن واجب احترام المعاهدات التي أبرمها سابقوهم.

(٥) يبدو أن خالداً ولى عمالاً: فاتجه جرير إلى بانقيا وبسما أو باروسما، واتجه بشير بن الخصاصية إلى بانسورة، وسويد إلى نستار أو عقر، الخ: الطبري، التاريخ، ج٣، ص٣٦٩. أما الثغور فكانت في حكم أربعة أمراء منهم المثنى والقعقاع بن عمرو المشهور.

(٦) الطبري، التاريخ، ج٣، ص ٣٧٢.

الأنبار[1] ويوم عين التمر[2]، ويوم دومة الجندل[3]. كانت عبارة عن هجمات عنيفة ،للنبأ
للغنيمة والتخويف، وقد ذهب ضحيتها عرب الضاحية. فقتلت النّمر وتغلب وأياد في عين
التمر داخل الحصن، واشتهر هذا الحصن لوحاهة الأسرى الفتيان الذين أسروا فيه (ولا سيما
سيرين ويسار ونصير). وقد واجه خالد في دومة الجندل قبائل كانت تقيم بين الشام والجزيرة
هي بهراء وكلب وغسان وتنوخ. ندرك في هذا الصدد الوجه الجاهلي العروبي الموجود في
الأيام، إدراكاً جيداً، فضلاً عن كونها تظهر أيضاً بمظهر حروب الردة، الذي لا يرحم غير
المسلمين. فوقع تقتيل الأسرى العرب، إلا من كانوا من كلب لأنهم كانوا في حماية حلف
مبرم مع تميم. وعلى هذا النحو حصلت القطيعة مع عرب الضاحية في الجزيرة كما في
العراق، وانضمت العناصر الخارجية من ربيعة إلى النموس[4].

عاد خالد بعد هذه الجولة العسكرية إلى الحيرة وهناك دعي إلى اللحاق بالشام،
فانتهت الأيام العراقية بعد نشوب بعض المعارك، بيوم الفراض. وقد حددها أصحابها
أنفسهم، نعني أهل الأيام، على هذا النحو من الوجهة الزمنية. وبرزت هذه التشكيلة
كإحدى التشكيلات الاجتماعية المقبلة التي ستكون لها أهمية كبرى في الكوفة. الواقع أنه
بقبولنا رواية هذه الأحداث على هذا النحو، ندرك ما كان من تمجيد هؤلاء الرجال للأيام،
وندرك مبررات هذا التمجيد بصورة من الصور، ذلك أن هذه الأيام تمثل الملحمة الكاملة -
ولو بصورة مجملة ووتيرة لاهثة - لفتح العراق.

مرحلة وسيطة: الجسر والبويب (١٣ - ١٤هـ/ ٦٣٤ - ٦٣٥)

إذا ارتأت حكومة المدينة لزوم توجيه خالد لنجدة جيوش الشام ولم تقم بالعملية
المعاكسة على الرغم من الإنتصارات الساحقة التي سجلتها الأيام، فإن هذا يرجع إلى كون
الجبهة الحقيقية الجدية والوحيدة التي تخضع لاستراتيجية موضوعة مسبقاً هي جبهة الشام.
الواقع أن العمليات التي وجهت ضد البيزنطيين بكامل الجدية، أعطت نتائج إيجابية فورية
بفضل انتصار أجنادين[5] (جمادى الأول من سنة ١٣/ ٦٣٤) الذي تمّ وأبو بكر على قيد
الحياة.

---

(١) الطبري، التاريخ، ج٣، ص ٣٧٣ - ٣٧٥.

(٢) الطبري، المصدر نفسه ج٣، ص ٣٧٦ - ٣٧٧.

(٣) الطبري، ج٣، ص ٣٧٨ - ٣٨٠.

(٤) اعتنقت الاسلام منذئذ بعض جماعات من ربيعة في العراق: الطبري، التاريخ، ج٣، ص ٤١٤. هذا دون
اعتبار الوثبة العرقية القومية التي دفعت بأفراد من ربيعة إلى الانضمام إلى اشقائهم العرب، في وقعة القادسية
وحتى قبل ذلك: المرجع نفسه، ص ٤٦٤.

(٥) الطبري، ج٣، ص ٤١٥ - ٤١٨، نقلاً عن سيف بن عمر الذي لم يميز بين أجنادين واليرموك (١٥ هـ/ ٦٣٦).

وتولى عمر الخلافة فتابع مخططات أبي بكر، دون أن يدخل عليها من البدء تغييرات تذكر. ولا يبدو قابلاً للتصديق أن ننسب إليه، كما فعل سيف[1]، مشروعاً واضحاً محدداً وواسع النطاق، يكون شرع فيه منذ سنة ١٣، ويتمثل في تصور الفتح صراحة بمثابة غزو للهجرة، وفي إرادة إشراك كل العرب من شبه الجزيرة ـ ومنهم المرتدون ـ في التحرك العراقي. كما أنه لا يمكننا على العكس مجاراة كايتاني حين يؤكد أن عمر لم يهتم جدياً بالعراق إلا بعد وقعة اليرموك[2]. معنى ذلك أنه لا يمكن أن نحصر كامل العمل الذي سيحققه عمر خلال الثلاث سنوات القادمة ـ وكان عملاً تدريجياً حذراً وجسوراً في آن ـ في نية وضعت مسبقاً، إذ تعتبر بداهة تنظيراً إسقاطياً لما سيتم تحقيقه بعد ذلك. فماذا فعل عمر وماذا كان بقادر أن يفعل؟ أن يتابع ما سنه أبو بكر، ويداوم الضغط على الحدود الساسانية، ترقباً لظروف أخرى تكون أكثر ملاءمة، بمعنى أن يسهر على إعداد آلة الحرب. لقد استعان في المدة الأولى بنخبة محاربة صغيرة من الأنصار وأقنع في فترة ثانية قبيلة بجيلة بالاستقرار في العراق، وقام بخطوة حذرة في اتجاه الانفتاح على المرتدين. كانت سنة ١٣ ـ ١٤ هـ عبارة عن مرحلة وسيطة لكنها تجاوزت مرحلة الأيام، بفترة المجابهات التي جدّت. ذلك أن السلطة الفارسية استعادت تماسكها وأخذت في ردّ الفعل في حين أنها اكتفت إلى ذلك الوقت بالاعتماد على الحاميات العربية ـ الفارسية الساهرة على خط الدفاع.

لكن شعور الفرس الجديد بالخطر العربي لم يكن قوياً بما يكفي، حتى يعدلوا عن منازعاتهم الداخلية فكانت ردودهم ظرفية، قوية أحياناً لكنها غير مسترسلة وغير مثمرة.

١) أبو عبيد ومعركة الجسر (شعبان أو رمضان ١٣ / أكتوبر أو نوفمبر ٦٣٤)[3].

كلف عمر أبا عبيد بن مسعود الثقفي[4] برئاسة سرية من ألف رجل لمدّ يد المساعدة

= فالتبست عليه المعركتان وأرخهما في سنة ١٣، في حين أن كافة الروايات التاريخية الأخرى لا سيما رواية مدرسة المدينة (ابن اسحاق والواقدي) ومنطق الأحداث البديهي تفصل بين الأمرين: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٢٠، وخليفة بن خياط، التاريخ، ج١، ص ٨٧. يلاحظ كايتاني عن حق أن تقديم سيف لمعركة اليرموك نشأ عنه غلطه في تاريخ المعارك العراقية: Caetani, *Annali dell'Islam*, III, 2, p.519.

(١) الطبري، ج٣، ص ٤٤٥.

(٢) Caetani, *Annali*... III, 2, p.632.

(٣) حسب كايتاني، قدّم سيف المعركة شهراً: Annali dell'Islam, III,2, p.630, 633.، راجع أيضاً: Voccia-Vagliori, «art. Kadisiyya», *Encyclopedie de l'islam*, t. IV, p.401-3. وأورد أبو مخنف تاريخاً حدده في شهر رمضان من سنة ١٣: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٥٣. نجد التاريخ نفسه في الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٤.

(٤) لعلّ أبا عبيد لم يكن عاملاً بالصورة التي يريد كايتاني حملنا على تصديقها، ويظهر أن هيل Hill, =

للمثنى[1]، وقيادة العملية العسكرية في العراق، فربطها هكذا بالحكم المركزي. ضمن هؤلاء المقاتلين الألف نجد صفوة من المسلمين من الأنصار، مع أنه يمكن الخلوص إلى تأكيد وجود عدد مهم من أبناء ثقيف أيضاً، إعتماداً على إشارات كثيرة وردت في رواية سيف[2].

لقد واجه العرب المسلمون مع أبي عبيد جيشاً فارسياً نظامياً، لأول مرة، كان بقيادة بهمن جاذويه وانضم إليه جالينوس، وكانا قائدين مهمين. وبدأت المعركة، بعد حصول بعض عمليات نهب، بقرقس[3] الواقعة على ضفة الفرات اليسرى، لكنها احتفظت باسم معركة الجسر، اعتماداً على إسم المشهد الرئيسي الذي أثر فيها وحيث أشرف العرب على الكارثة. لقد أرهبتهم الفيلة، فأخفقوا في تفجير قلب الجيش الفارسي رغم الحملات العنيفة التي شنوها عليه. وما لبثوا أن أجبروا على التقهقر إلى شاطىء الفرات دون أن يقدروا على عبوره من جديد ـ ذلك أن الجسر المتكون من مراكب انقطع بمبادرة عابثة قام بها أحد العرب ـ فقتلوا وأغرقوا. روى سيف أن عدد القتلى ارتفع إلى ٤٠٠٠ وفرَّ ألفان، ولم ينج سوى ٣٠٠٠ رجل من بكر من رجال المثنى[4]. لقد أنقذ المثنى الجيش، برباطة جأشه، من هلاك لا هوادة فيه. أما أهل المدينة فلجأوا إلى الصحراء استحياء من الفرار، وقتل أبو عبيد بعد أن برهن على شجاعته أكثر مما برهن على خبرته. إن الصدمة التي أثرت في الأنصار رفقاء أبي عبيد تبرهن بقوة على ماهية الإيديولوجيا الإسلامية التي استلهمت الفتوحات روحها منها إلى مدى بعيد، فبدا الفرار في نظر أهل المدينة وكأنه ضعف لا يغتفر، لا بمعنى الشرف العربي المعهود بل كخطيئة اقتُرفت تجاه الله. ولم يكن ينوي عمر توجيه الاتهام إليهم[5] بل إنه قام بعملية نفسية من شأنها رفع الشعور بالإثم عنهم[6]. ويرجع الفضل له

= *The Termination of Hostilities in the Early Arab Conquests*, 634-56, London, 1971, p.110.
قد جاراه في ذلك. لكن كان أبو عبيد ينتمي إلى نسب رفيع من ثقيف.

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٥١، ذكر أن أبا عبيد جند الرجال في الطريق؛ وقال الطبري، ج٣، ص ٤٤٤، إن المثنى كان بالمدينة؛ انظر الدينوري، **الأخبار الطوال**، ص ١١٣.

(٢) الطبري، **التاريخ**، ج٣، ص ٤٤٤ ـ ٤٤٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٤٥٤. كانت تسمى أيضاً قُسّ الناطف أو المروحة: الدينوري، ص ١١٣.

(٤) الطبري، التاريخ، ج٣، ص ٤٥٨؛ اقتبس إبن الأثير هذه الأرقام والقصة بأكملها، متقيداً كثيراً برواية سيف التي ذكرها الطبري لكنه عرضها بصورة أكثر وضوحاً: الكامل، طبعة بيروت، ١٩٦٥، ج٢، ص ٤٣٨ ـ ٤٤٠.

(٥) نسب كايتاني إلى سيف خطأ، أنه روى خبرا عن عمر جاء فيه تأنيب للأنصار: Caetani, *Annali*. .., III.2, p.657.

(٦) أضنى الخجل بعض أهل المدينة، فلجأوا إلى البادية، ورجع بعضهم الآخر إلى المدينة: الطبري ج٣، ص

وللمثنى في التغلب على صدمة الهزيمة ناسباً إياها إلى الخطأ لا إلى ضعف عسكري هيكلي. ولولا إصرار عمر، ولولا ما بذله المثنى من جهد تنظيمي حيث نراه دائماً مستعداً لتصحيح أخطاء الآخرين، خاضعاً لتدخلات السلطة بالمدينة وعزمها على إبعاده عن القيادة، لبدا فتح العراق بعد انهيار الجسر أمراً بعيد المنال بالنسبة للعرب. ومن يدري، لعل فتح الشام أيضاً ستهدده بعد ذلك وعلى المدى المتوسط الدولة الفارسية لو أتيح لها الوقت لاسترداد قواها.

٢) البويب

بقي المثنى وحيداً من جديد. وتعذر استغلال التقدم الذي اكتسبه الفرس في معركة الجسر، لما كانوا عليه من خلافات داخلية[١]. لكن المثنى احتاط وتراجع إلى الطفّ، فبلغ إمّا أليس الصغرى، أو أقام بين خفان والقادسية تاركاً الحيرة. عند ذلك قرر عمر توسيع التجنيد، وتجاوز الدائرة المدنية - القرشية - الثقفية من العرب المستقرين الأوفياء للسلطة الحاكمة، وقرر تعبئة القبائل والعشائر داخل جزيرة العرب. كان هذا الانفتاح تدريجياً لا محالة، يجري حسب نظام التطوع كالعادة وبمساعدة شيوخ العشائر، ولم يتقرر، بعدُ آنذاك استنفار العناصر التي أمعنت في الردة. كان عمر يقصد محو هزيمة الجسر وحمل العرب أيضاً على قبول فكرة الهجرة إلى العراق[٢]، فوجهت الدعوة إلى قبيلة بجيلة. وكانت بجيلة من أصل يمني، وأقامت قبل ذلك بالسراة ثم دحرت وشتتت، وتفرقت (تحت ضغط الأزد؟). وكان جرير بن عبد الله البجلي وهو من صحابة النبي ومن المقربين لعمر، يسعى إلى جمع أفراد هذه القبيلة المتفرقين، ويحاول أن يعيد تشكيل قبيلته فرداً فرداً[٣]. فالتقى مشروع

= ٤٥٨. ولنذكر أن القرآن بعد وقعة أحد أنب المؤمنين الفارين من القتال، إلاّ إذا حصل تجمعهم لدى مؤمنين آخرين: ﴿ومن يولهم يومئذ دبره إلاّ متحرفاً لقتال أو متحيزاً لفئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ الأنفال، ١٦. واعتمد عمر تفسيراً آخر للآية ليعيد لرجاله هيبتهم كما كانوا يتصورونها. وتحدث أيضاً البلاذري عن تقتيل الأنصار، ص ٢٥٣، لكن القصة التي أوردها عن معركة الجسر كانت موجزة ضعيفة التماسك في مجموعها.

(١) روى ذلك الطبري نقلاً عن سيف قال: «وأن ذا الحاجب الخبر باختلاف الفرس»، ج٣، ص ٤٥٨. وعاد بجيشه.

(٢) الطبري، التاريخ، ص ٤٦٠ - ٤٦٤؛ الدينوري، ص ١١٤. كان على عمر أن يقنع المتطوعين، وأكثرهم من القادمين من اليمن، باختيار الإقامة في العراق.

(٣) لعلّ بجيلة تفرقت بعد حرب الفجار: الجمهرة، ص ٣٩٠، فاعتزم جرير جمعها في حياة الرسول حيث حصل على وعد منه في هذا المعنى، فذكر أبا بكر بالأمر حين انضم إلى جيش الشام، لكن أبا بكر أجّل المشروع إلى وقت لاحق لكثرة مشاغله: الطبري، ج٣، ص ٣٦٥. والملاحظ أن نسبته لحمير لا لبجيلة في هذا الخبر. وتوجد هذه النسبة أسفل الوثائق التي يعتقد أنها أبرمت بين خالد وأهل الحيرة: المرجع نفسه، ص ٣٦٨ =

جرير بمشروع عمر: كان الأول في حاجة إلى فكرة وهدف جديد وطموح، وكان الثاني محتاجاً إلى مهاجرين ومحاربين مسلمين أوفياء ليدفع بهم إلى العراق. على أن جريراً لم يرض بمقترح عمر إلا متردداً، لأن قومه كما العرب كافة، باستثناء بكر دون شك، كانوا يفضلون الشام على العراق. وتم الاتفاق، بعد بذل الوعد لبجيلة أن تمنح هبات خاصة عند الانتصار وتقرر أن تأخذ ربع الخمس من الغنيمة كما جاء في أغلب المصادر[1]، أو «الثلث بعد (أخذ؟) الخمس»، كما أشار إلى ذلك البلاذري إشارة غامضة[2] أو ربع البلدان المفتوحة كما كان محتملاً كثيراً[3]. ويبقى الشك يسيطر على هذه المساومة، نظراً لأن المرحلة التي بلغها الفتح في العراق لم تكن تؤهل للوعد بأي شيء. ومما له دلالة أن جريراً تخلى عن كل مطلب على السواد، بعد الانتصار، لأسباب معنوية صرف[4]. هذا و . تحولت قبيلة بأكملها كانت تعد ٢٠٠٠ رجل، إلى العراق بهدف الهجرة نهائياً، منتحة بذلك الحركة الكبرى للهجرة اللاحقة.

وإلى جانب بجيلة، أشير إلى تدفق الحشود من الأزد[5]، وكنانة، وضبة، وخثعم والرباب، وبني سعد، وبني عمرو[6]، وعبد القيس، كما حضرت قبيلة النمر من ربيعة وقد كانت إلى جانب الفرس إلى ذلك الوقت، تدور بدرجة متفاوتة في فلك الساسانيين، وبعد أن سلط عليها خالد قمعاً شديداً. لعل عناصر عبد القيس والنمر[7]، وحتى تغلب وقد شهدت البويب أدمجت من طرف المثنى فيما يمكن تسميته بجيشه الخاص أو القبلي، طالما كان

= و ٣٦٩. لكن سيف كان صريحاً في أن جريراً لم يدخل العراق قبل معركة الجسر. أما عن تسميته بالحميري، فإما انها تعود إلى أن مجمّع بجيلة كان غريب النسب عنها سواء كان أزدياً أم حميرياً، وإما انها اختلطت بمسألة عرفجة بن هرثمة منافس جرير. كان عرفجة أزدياً من بارق، ويبدو أنه قاد جانباً من بجيلة على أدنى تقدير وكان عمر يفضله على غيره، لكن بجيلة تخلوا عنه والتفوا حول جرير: الطبري، التاريخ، ج٣، ص ٤٦٢ و ص ٤٧١.

(١) مثلاً: الطبري، التاريخ، ج٣، ص ٤٦٢.

(٢) فتوح البلدان، ص ٢٥٤، نقلاً عن الشعبي.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٥٣ عن أبي مخنف، وص ٢٦٧ عن ابن أبي حازم حيث قال أيضاً أن بجيلة «كانت ربع الناس يوم القادسية».

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٦٧، وذكر خبراً آخر بالصفحة نفسها قال فيه «كان عمر أعطى بجيلة ربع السواد فأخذوه ثلاث سنين» وفي نهايتها طلب عمر منهم إرجاع الأموال، والتساوي مع بقية المسلمين. ويوجد الخبر ذاته تقريباً في كتاب الخراج لأبي يوسف، ص ٣٢.

(٥) مثلاً الطبري، التاريخ، ج٣، ص ٤٦٣، كانت الأغلبية لبارق بقيادة عرفجة لا مخنف بن سليم كما يقول الدينوري في الأخبار الطوال، ص ١١٤.

(٦) الطبري، التاريخ، ج٣، ص ٤٦٤.

(٧) الطبري، الموضع نفسه، وقد مثلها أنس بن هلال النمري، وكان شـ ـصاً مرموقاً.

استقلاله كبيراً بالنسبة للسلطة في المدينة. أما الآخرون فإن السلطة هي التي استحثتهم على التنقل والواقع أن منهم عشائر وقادة تورطوا في حروب الردة، منهم عامر بن ربعي، وعدي بن حاتم. وبما أن سيف بن عمر انفرد بذكرهم، يمكن القول انه سبق الأحداث، ويمكن التفكير كذلك أن عمر بتوجيهه هذه الفرق الصغيرة، أراد اختبار صلاح أهل الردة. إن روايات سيف جيدة بصورة عامة، فيما يخص القبائل وتركيب الجيش العربي، وترتيب وصول الجيش وعدد المقاتلين[1]، في حين أنها تخطىء في خصوص ضبط التواريخ. فما قولنا في كل ذلك سوى أن عمر قرر على الأرجح منذ مطلع سنة ١٤ هـ، وربما حتى منذ أواخر سنة ١٣، الشروع في مسيرة القبائل الطويلة، بهدف فتح العراق فتحاً حقيقياً[2]، دون أن يترقب نتائج العملية الدائرة في الشام؟ ومن هذه الوجهة تمثل هجرة بجيلة، ورحيل ضبة وخثعم وغيرهما، التي تمت عن طواعية، توطئة لما سيجدّ على صعيد أوسع بمشاركة سعد، كما تمثل البويب معركة تدريبية تعد العدة لمعركة القادسية. كان ينبغي الانتصار لا محالة في البويب، بلوغاً لهذا المطلب.

سمي هذا الصدام بيوم مهران أيضاً[3] على اسم القائد الفارسي المهزوم والمقتول، عند موقع الكوفة العتيدة، فيما بين خطة السكون والفرات أو دار الرزق - وبني سليم[4]، حيث كان البويب بمثابة المصب العتيق للفرات[5]. ودارت المعركة وراء الفرات، على مدى المجال الذي ستحتله مدينة الكوفة. المؤكد أن الرهان كان مهماً. قد يتسبب انتصار للفرس بالبويب في دحر العرب، كما أن انتصاراً للعرب قد يجبر الفرس فعلاً على خوض المجابهة النهائية لإنقاذ العراق والامبراطورية كافة أو التخلي عنهما. لا شك أن الفرس شعروا عند إنهزامهم بالبويب، بواقع الخطر العربي عند فوات الأوان، أما العرب، فقد استمدوا من نصرهم جسارة لا تقهر. بقي أن نتحدث الآن عن مشكل تأريخ الأحداث.

---

(١) معلوماته من الدقة والتماسك في هذا الموضوع بما يمنع التشكيك فيها بجملتها وقد استخدم الطبري كتاب الفتوح الكبير: راجع الفهرست، طبعة بيروت، ص ٩٤. أما عن الفتوحات فيُراجع هيل، Hill *Termination of Hostilities*...، الذي استعرض ستاً وثلاثين رواية كان أوردها سيف. ولنضف بخصوص فتح العراق، أن الاسنادات المتواترة تعود إلى مجالد والشعبي ومحمد وطلحة.

(٢) نتفق كل الاتفاق في هذا الأمر مع السيدة فيشيا فاغليري: Mme. Veccia-Vaglieri, E.I/2 Sub Verbo: Kadisiyya، ومن المفارقة أن سيفاً أورد التاريخ نفسه: الطبري، التاريخ، ج٣، ص ٤٧٨.

(٣) كان مهران أحد رؤساء العشائر السبع، راجع: Christensen, *L'Iran sous les Sassanides*, Copenhague, 1936, p.99.

(٤) الطبري، التاريخ، ج٣، ص ٤٦٨.

(٥) «كان مغيضاً للفرات في عصر الأكاسرة يصب في الجوف»، حسب عبارة البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٥٤؛ وفي معجم البلدان، لياقوت، ج١، ص ٥١٢، تفاصيل أخرى.

رفض كايتاني بحق التأريخ الذي اقترحه سيف والذي جعل وقعة البويب تقوم بعد شهر من معركة الجسر، يعني في رمضان ١٣ هـ /نوفمبر ٦٣٤، وحجته على ذلك جيدة[١]. لقد قدم سيف تأريخ وقعة البويب لأنه قدّم تأريخ القادسية. وبما أنه أساء تأريخ اليرموك وفتح دمشق[٢]، فقد أجبر على تنقيح كل التواريخ. ومن جهته أخذ كايتاني مؤشرين بعين الاعتبار صعوداً ونزولاً استمدهما من مدرسة المدينة - مدّة سنة بين معركة الجسر ومعركة البويب[٣]، وثمانية عشر شهراً بين وقعة البويب والقادسية - فكان عليه أن يؤخر التواريخ كلها. وحيث اننا نلتزم بتأريخ معركة القادسية في رجب أو شعبان ١٥ هـ/٦٣٦ م فإن تاريخ رمضان من سنة ١٤ هـ يبدو لنا تأريخاً متأخراً جداً بالنسبة لوقعة البويب، وقد فضلنا عليه تاريخ ذي الحجة من سنة ١٣ هـ أو محرم من سنة ١٤، وبذلك نكون قد احتفظنا بمدة الثمانية عشر شهراً التي تفصل بين المعركتين[٤].

على أن المهلة كانت نسبية تماماً، لأن العرب شرعوا في اكتساح السواد واستغلوا حيرة أعدائهم واضطراب أمورهم، فشنوا الغارة فيما بين الحيرة وكسكر وسورا والصراة وفيما بين الفلّوجتين، والنهرين، وعين التمر. ثم أنهم نهبوا تكريت وسوق بغداد، فانتزعوا أموال التجار الأراميين من الأعالي، كما نهبوا حماتهم العرب - الخفراء - من قضاعة وربيعة[٥]. لكن في الاثناء وبفاعل الضغط العربي أخذت السلطة الفارسية تعمل من أجل إعادة تنظيم صفوفها وقد تعالت الشكايات الصادرة عن دهاقين السواد المنهوك. وهكذا توّج يزدجرد

---

(١) *Annali...*, Vol III, p.655 ff. وقد سبق لفيلهوزن أن رفض هذا التأريخ، راجع: *Prolegomena...* in: *Skizzen und Vorarbeiten*, VI, p.73.

(٢) أرخهما في سنة ١٣ هـ.

(٣) الواقع أن هذا الخبر ذكره أبو مخنف واستعاده البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٥٣، وهو عبارة عن قول منفرد، نرفضه فيما يخصنا لادخاله البلبلة على تسلسل الأحداث.

(٤) أرخ البلاذري معركة الجسر في رمضان سنة ١٣ هـ، ولم يذكر تاريخاً دقيقاً بشأن معركة البويب بل اكتفى بذكر مدة سنة حسب رواية أبي مخنف، وبذلك تحدد تأريخ معركة البويب في رمضان من سنة ١٤ هـ. وقد فصل محترزاً بين معركة البويب والقادسية، بمدة ١٨ شهراً وبذلك يكون تاريخ سنة ١٦ هـ معقولاً، وهو الذي اعتمده كايتاني. فيثق المستشرق الإيطالي في النهاية بالواقدي الذي اعتمده البلاذري. وقد أرخنا فيما يخصنا معركة القادسية في عام ١٥ هـ. وسنبين ذلك - فوجب علينا إما إهمال السنة الفاصلة بين معركة الجسر ومعركة البويب أو مدة ١٨ شهراً التي تفصل بين معركة البويب والقادسية، وقد فضلنا الحل الاول رغم أن سيفاً أشار إلى أن المحاربين في البويب كانوا صائمين (الطبري، ج٣، ص ٤٦١)، وفي رأيه أن الأمر يتعلق بعام ١٣ لكن رواية ابن عمرو الشيباني أرخت معركة البويب بالفعل في محرم سنة ١٤ هـ: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٥٣، وأرخ خليفة بن خياط وقعة البويب في صفر من سنة ١٤ هـ: التاريخ، ج١، ص ٩٨.

(٥) قتل المثنى جماعات من تغلب والنمر: الطبري، ج٣، ص ٤٠٣ - ٤٧٥، وحدثت أعمال نهب وأخذ بالثأر يعود طابعها إلى العصر الجاهلي.

ملكاً، وقد كان حفيداً لكسرى أبرويز وأنهيت وصاية بوران، وسلمت قيادة الجيش الموحدة إلى رستم. ووازن هذا التأهب الفارسي من أجل المواجهة الحاسمة، المسيرة الطويلة التي قادها سعد بن أبي وقّاص، من المدينة إلى القادسية، وتنظيم جيش عربي جديد تحت قيادته.

المسيرة العربية إلى العراق والتوطئة لوقعة القادسية (محرم ١٤ - رجب ١٥)

إن فكرة كايتاني الرئيسية هي أن عمراً لم يكن يقدر حقاً على أن يأخذ على عاتقه القضية العراقية إلا بعد أن يكون قد حسم الأمر مع البيزنطيين في اليرموك (رجب ١٥/ أغسطس ٦٣٦)[١]. لكن هذا تأريخ مردود إذ يفسح وقتاً قصيراً جداً لسعد لكي يجمع جيشاً يعد ثلاثين ألف رجل. فلا موجب لإبداء الشك في الأرقام التي ذكرها سيف، ولا للتقليل من أهمية المعركة ذاتها. يذكر كايتاني أن عمراً لم يكن ليقدر على «تقسيم قواته»، لكن لم تكن هناك قوات لكي تقسم، ذلك أننا لا نجد المادة البشرية نفسها هنا وهناك، في الشام والعراق. إن تزامن العمل هو إحدى خاصيات الفتح العربي (مع استثناء تنقل صغير من الشام إلى العراق والعكس) وقد سبق ليوسف في بحث نشر منذ ثلاثين سنة، أن لاحظ أن بطء مسيرة سعد كان يفترض مسبقاً مدة طويلة فأرخ قرار عمر بداية سنة ١٣ هـ[٢].

الواقع أن عمر لم يحتج إلى أن يترقب معركة اليرموك للعودة إلى الهجوم على العراق، ذلك أن عزمه على مواجهة الفرس كان واضحاً من قبل، حيث حثّ بجيلة وعرباً آخرين من قلب الجزيرة على الهجرة. ولم يكن ليلقي بسعد في المغامرة النهائية بكل تأكيد قبل ظهور نتيجة إيجابية في واقعة البويب، أي قبل محرم من سنة ١٤ هـ أو ذي الحجة ١٣ هـ/ فبراير - مارس ٦٣٥ م.

ومما يدل على ذلك أن عمر اختار صحابياً قرشياً كبيراً مكلفاً بجمع الجباية الشرعية من هوازن وهو سعد بن أبي وقاص[٣] لقيادة المجابهة الكبرى مع العلم بأن هوازن كانت مع أهل الردة[٤]. الواقع أن مسيرة سعد بين المدينة والقادسية، مروراً بصرار وزرود،

---

(١) Caetani, *Annali*, p.632.

(٢) «The Batle of Quadisiyya», *Islamic Culture*, 19 (1945), p.28. لكنه جارى كايتاني في بداية الأمر.

(٣) يبدو أن أبا بكر هو الذي ولّاه على صدقات هوازن في نجد: الطبري، ج٣، ص ٤٨٢.

(٤) الطبري، ج٣، ص ٢٦١ وما بعدها؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٠٤، يذكر غطفان، وفزارة، وعبس وذبيان. لكن إلى أي حد تمثل هوازن قبيلة معينة بدل أن تكون نسباً يشمل عدة قبائل، منها عامر بن صعصعة وسلول وغيرهما...: الجمهرة، ص ٢٦٠ وما بعدها.

وشراف، والعذيب وهي آخر مرحلة في الطفّ قبل دخول السواد، تبدو قبل كل شيء مسيرة لحشد قبائل معروفة مهمّة أصيلة في عروبتها، كانت من أبرز حلقات المشاركين في الردة[1]. وهكذا تجاوزت السلطة الحاكمة في المدينة وكادت تتجاوز سياسة الاعتماد على جموع مستقلة (بكر)، أو هامشية (بجيلة وكذا شظايا الأزد واليمن). كما لم يعد يمكنها توجيه فرق صغيرة مدنية صرف أو شغل القوات المقاتلة في الشام لكنها تولت قيادة الفتح والهجرة فاتحة الباب لجموع الردة الكبيرة القوية، ووسعت دائرة الأطر البشرية والسياسية والعسكرية لصالح الاسلام الغازي. لقد عمل عمر بهذا على تطابق الدين الإسلامي وشبه جزيرة العرب، فطرد من بلاد العرب كل من لم يكن إسلامياً[2]. وبذلك تغلب على الصّدع الذي دب في الهيكل العربي مع ظهور الإسلام، وشحن الإسلام بمحتوى قومي - ثقافي لكنه في الآن نفسه طبعه بطابع البداوة والتسيّس مشكلاً بذلك الهيكل المقبل للحضارة التي ستتحدد معالمها في الكوفة والبصرة.

خرج سعد من المدينة برفقة ٤٠٠٠ رجل - منهم ٣٠٠٠ يمني ومن السراة[3]، و ١٠٠٠ قيسي أكثرهم من بني هلال[4] - وحين حط سعد الرحال أول مرة، لحق به ٤٠٠٠ مقاتل منهم ٢٠٠٠ من غطفان[5]. ولما كان في زرود وهي من مراعي تميم وأسد اختار بنفسه ٧٠٠٠ رجل من هذه التجمعات القبلية. وتجمع ٣٠٠٠٠ رجل[6] في الجملة في شراف والتحموا بجيش في تضخم مستمرّ منهم فيما بين ٧٤٠٠ إلى ٩٤٠٠ من اليمنيين، ويرتبط تغيّر هذا العدد بحسب ما يلتصق بنسبة اليمني من تضييق أو توسيع. وعدت ربيعة ٨٠٠٠ رجل منهم ٦٠٠٠ من بكر و ٢٠٠٠ من قبائل أخرى (النمر، أياد، تغلب). وحضر بشراف ١١٠٠٠ رجل من مضر منهم ٤٠٠٠ من قيس، و ٤٠٠٠ من تميم وحلفائها. و ٣٠٠٠ من أسد فمالت النسبة لصالح مضر. لكن الأمر الأكثر دلالة أن نسبة العناصر التي

---

(١) منها أسد، وتميم، وغطفان.

(٢) الواقع أن طرد نجران وقع بعد مدة، لكن منطق التماثل قام منذ عصر الرسول، واكتسى كامل دلالته في خلافة أبي بكر، واتخذ صفة عملية في خلافة عمر.

(٣) الطبري، ج٣، ص ٤٨٤.

(٤) المرجع نفسه، ص ٤٨٣. المقصود هنا هم الألف رجل الذين جندهم سعد بنجد؛ وما يمكن استنتاجه من أن واحداً من بني هلال قاد هذا الحشد الأول، هو وجود أكثرية من بني هلال فقط، لكنه استنتاج وليس بحجة قاطعة.

(٥) المرجع نفسه، ص ٤٨٦. لكن عمراً هو الذي وجه الرجال هذه المرة. المؤكد أن كلمة غطفان تشمل مجموعة من القبائل المتصاهرة مثل فزاره وأشجع وذبيان وسُليم. فمثلاً حضر المسيّب بن نجبة الفزاري القادسية مع أبناء قبيلته: الجمهرة، ص ٢٥٨.

(٦) الطبري، ج٣، ص ٤٨٧.

حاربت من البداية لفتح أعراق (من بكر وعجل وبجيلة) تقهقرت لصالح اللاحقين، وضعفت نسبة المخلصين القدامى للإسلام لصالح المرتدين السابقين، وأخيراً تناقصت أعداد العناصر المحتكّة بحضارة المدن المرتبطين من قديم بالخارج لصالح المجموعات البدوية الضاعنة الكبرى التي برزت من أعماق بلاد العرب. هذا ما يمكن استنتاجه على الأقل من شعور يوحي به الوصف المفصل الذي قدمه سيف بن عمر والذي عملنا على استكماله (راجع الجدول على ص ٣٢ - ٣٣).

لقد شكك كايتاني في هذا الوصف، معتمداً روايات أهل المدينة فقط، التي كانت قليلة الإسناد والمعلومات، فألغى حضور المرتدين متهماً سيفاً بالمودة المتحيزة للبدو أجداد سكان مدينة الكوفة[١]. صحيح أن سيفاً يقدّم وقعة القادسية كأنها انتصار للموجات المتأخرة من البدو، فلم يعد يتحدث عن بكر، وهو على العكس يمجد القادة المرتدين الكبار - وهذا يبرر نقد كايتاني - لكن بخصوص سير المعركة لا غير. ذلك أن مصداقية سيف أكيدة في كل ما يتعلق بتجمع الجيش، وتركيبه، وهيكلته، وكلّ ما يذكر من توافد الرجال من أسد وتميم، والرباب، وغطفان[٢]. وكيف نقبل أنه لم يكن يوجد في القادسية سوى ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ رجل في حين أن جيش المثنى وحده كان يعد العدد نفسه[٣].

كيف يتاح لنا فهم الكوفة العتيدة دون وجود جيش سعد في شراف كما وصفه سيف؟ لا مناص من التأكيد على أن كايتاني لم يفهم لا معنى ولا أهمية استخدام أهل الردّة في عملية الفتح، وقد لفت شعبان Shaban فقط النظر إلى هذه الظاهرة منذ مدة قريبة[٤]. ولنا مزيد من التدقيق فيما ذكره سيف بهذا الصدد[٥]، إذ يقول: «استنفرهم عمر ولم يولّ منهم أحداً».

---

(١) Caetani, *Annali*..., III,2, p. 657.

(٢) إن حسابات سيف دقيقة جداً، فلا يمكن التشكيك فيها. وهي تتفق ومعلوماتنا عن الكوفة العتيدة وتؤيدها معلومات دقيقة وردت بالجمهرة لابن حزم: مثلاً ص ١٩٤، حيث تعرضت لعشيرة بني الحارث بن ثعلبة بن دودان (أسد) التي لعبت دوراً ما في القادسية. وورد ذكر تميم وبني عمرو، ص ٢١٤، وبني رياح بن يربوع، والأبناء، وبني شيطان ص ٢٢٨، على أنها أقامت بالكوفة. وكانت فعلاً عشائر قد شاركت في معركة القادسية، خلافاً لأكثر تميم البصرة. وصف ابن حزم بني الأعرج من الأبناء بأنهم ساهموا في المعركة ولذا يبدو عدد ٤٠٠٠ رجل من تميم معقولاً، ويجعل البقية محتملة.

(٣) يبدو لنا أن الأرقام التي ذكرها عوانة (٧٠٠٠)، واليعقوبي (٨٠٠٠)، وابن اسحاق (٦٠٠٠)، وأوردها كايتاني (*Annali*, III,2, p.645 *ff*). غير صحيحة وكذلك الأمر بالنسبة للأرقام التي ذكرها الواقدي وأوردها البلاذري في فتوح البلدان، ص ٢٥٦.

(٤) Shaban, *Islamic History*, p. 16ff.

(٥) التاريخ، ج٣، ص ٤٨٩.

جدول القبائل العربية التي شهدت القادسية

	مجموعات قبائل كبرى	عدد الرجال	تقسيمات قبلية، عشائر
مُضَر	قيس	٣٠٠٠ (٢٠٠٠+١٠٠٠)	هلال، سُليم، غطفان ثقيف (بالمئات)
	تميم	٣٠٠٠ + مئات	بنو حنظلة
	رباب وزيد مناة	١٠٠ + مئات	بنو رياح
	ضبّة		بنو سعد، بنو عمرو عبدالله بن دارم
		١٠٠٠	بنو شيطان
	اسد	٣٠٠٠	بنو الحارث بن ثعلبة بنو دودان
يمن	يمنيون أصليون	٢٣٠٠	أ) مذحج، نخع، مثبه، جعفي وحلفاؤهم جزء، زبيد وصدى جنب، مسلية ب) حضرموت وصَدِف (٦٠٠)
	يمنيون ملحقون		
	ازد (سراة)	٦٠٠+٧٠٠	بارق، ألمع، غامد
	خثعم		
	بجيلة	٢٠٠٠	كل العشائر
	كندة	١٧٠٠	بنو الرائش بنو معاوية بن الحارث السكون
	يمنيون مهاجرون طي وقضاعة	٢٠٠٠	
ربيعة	بكر بن وائل	٦٠٠٠	ذُهل بن شيبان عجل
	عناصر أخرى من ربيعة	٢٠٠٠	عبد القيس النَمير إياد تغلب
أهل المدينة وآخرون		٥٠٠ الى ١٠٠٠	مهاجرون وانصار كنانة

فترة الوصول	القيادة أو الدور المهمّ .	المشاركة في الردة
قبل البويب بين المدينة والقادسية بين الايام والجسر	بشر بن عبد الله الهلالي أبو عُبيد	غطفان ، فزارة سُليم
قبل البويب	ربيع بن عامر ثم ابنه شبث بن ربعي (حنظلة) هلال بن علّفة قرفة بن زاهر التيمي قعقاع بن عمرو زُهرة بن الحوية	تميم ورباب
شراف	ضرار بن الازور طليحة بن خويلد	أسد
المدينة مراد اثناء المعركة	أبو صبرة بن ذويب (جَعفي) عمرو بن معد يكرب (منبه) يزيد بن الحارث	
جزء منها قبل البويب	عرفجة بن هرثمة (بارق) جرير بن عبد الله الأشعث بن قيس شرحبيل بن السمط	كندة
شراف	حُصين بن نمير عدي بن حاتم (طي) عمر بن وبرة (قضاعة)	طي
٤٠٠٠ (مقاتل) في الايام	المثنى بن حارثة (توفي قبل المعركة) مذعور بن عدي العجلي مضارب بن يزيد العجلي	
٤٠٠٠ مقاتل بين الايام والجسر	قرط بن جماع العبدي أنس بن هلال النميري	
الناجون من الجسر ، رجعوا قبل البويب المدينة	. سعد بن أبي وقّاص . هاشم بن عتبة	

الواقع أن الاحترازات بقيت عنيدة على مستوى المؤسسات، ولن تبدأ في التبدد إلا بعد وقعة القادسية فعلاً، كأن القادسية كانت فرصة للتكفير عما سلف أو بوتقة للتوحيد. لقد صاحب القادة الكبار المرتدون، منهم الأشعث بن قيس وطليحة بن خويلد وعمرو بن معديكرب، قبائلهم إلى الحرب، لكنهم لم يتحصلوا على أية صفة عسكرية قيادية في شراف. إن قادة الأعشار التي كانت عبارة عن وحدات كبيرة - والتي ستتحول بعد ذلك إلى أسباع - وكذلك الذين كانوا على رأس وحدات الجيش الكبرى المتأهبة للقتال - وهم أمراء التعبئة - سواء على الميمنة، أو الميسرة، أو القلب، أو المشاة، أو الفرسان، قد اختيروا لولائهم للإسلام. وهكذا، وقع تفضيل شرحبيل بن السمط الكندي ضمن قبيلة كندة، على الأشعث الذي كان أكثر شرفاً، لكنه كان مرتداً شهيراً كما يذكره سيف الذي يشير إلى أن الأمور ستتغير بعد ذلك قائلاً: «وكان قد غلب الأشعث على الشرف فيما بين المدينة إلى أن اختطت الكوفة»[1].

ويلاحظ الاتجاه الإسلامي ذاته في مستوى القيادات الصغرى، نعني العرافات المتركبة من عشرة رجال، على نمط عرافات الرسول والتي ستبقى بالكوفة والبصرة، وبعد أن أعيد فيها النظر من وجهة الوظيفة والعدد. روي أنه «كان في الأعشار، سبعون رجلاً بدرياً، وثلاثمائة وعشرة من الصحابة ممن ترجع صحبته إلى بيعة الرضوان، وولي ثلاثمائة صحابي آخر شاركوا في فتح مكة وسبعمائة من أبناء الصحابة من كل القبائل»[2]، لكن مفهوم الصحابي مرن، وهو يشمل كل أولئك الذين كان لهم اتصال سابق بالرسول. وإذا صحت هذه الأرقام، فلعلها تعني أنه لم يغادر المدينة عناصر كثيرة حيث لم تصلنا أسماء معروفة منهم[3] لا في مرحلة التنظيم ولا في مرحلة المعركة لكنها تبرهن على أنه وقع تفضيل الأوفياء على غيرهم وأن التيار الإسلامي فُضّل على التيار التقليدي ضمن عالم القبائل بالذات»[4].

وخلافاً لذلك، كان أبناء كبار الصحابة حاضرين بالشام، وقاتلوا بأجنادين كما في اليرموك، حيث دفعوا ضريبة الدم التي كانت مرتفعة (٥). وعندما يرد ذكر بعض الأسماء منهم في القادسية فإن عدد الأنصار يربو على عدد القرشيين. ومن باب التناقض أن يلح

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص ٤٨٨.

(٢) الطبري، التاريخ، ج٣، ص ٤٩٠.

(٣) لكن ورد ذكر اسم عبد الله بن المعتم: الطبري، ج٣، ص ٤٨٨.

(٤) من الأوفياء كان هناك أشراف. ولنذكر زهرة بن عبد الله بن قتادة بن الحوية الذي كان قائداً للطليعة (الطبري، ج٣، ص ٤٨٨ وغيرها)، وعاصم بن عمرو، المرجع نفسه، ص ٥٣٠).

(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤١.

سيف في روايته المستندة في هذا المقام إلى مجالد بن سعيد والشعبي، في آن واحد على متانة القيادة الإسلامية والطابع العربي القومي للمواجهة النفسانية، وعلى الدور الفعلي المتفوق الذي لعبه القادة التقليديون المرتدون الذين صاروا يجسمون القيم الحربية العربية. وقد قلنا إن روايته للاستعدادات لمعركة القادسية لم تتجاهلهم، بل يبدو أنها وضعتهم في المقدمة. لقد انتزعت من رؤساء القبائل القيادات الكبيرة كافة، لكنهم لعبوا دوراً حاسماً في التعبئة النفسانية، وأجروا المحادثات مع العدو وتولوا فعلاً قيادة أفراد قبيلتهم في الهيجاء[1]. فهل كان ذلك تشويهاً متحيزاً عن وعي أو بدون وعي كما أكد كايتاني، أم كان تحويلاً طرأ على واقع الأمور، أي تجسيماً لعودة القوى الحقيقية ومحاولتها زعزعة الهيكل المؤسساتي؟ لا شك في تضافر الأمرين. إن روايات سيف دقيقة وملحمية في آن، وهي مطبوعة بالشمولية والانتقائية على السواء، فالدقة تحملها على عدم تجاهل إرادة عمر الجازمة على إقرار تأطير إسلامي على أوسع درجة وانتقائيتها تحملها على تناسي الرجال الذين كانوا دعامة لتلك القيادة. كما أن رواية سيف اتصفت بالملحمية لأن هذا المؤلف أعطى المرتبة الأولى لأعمال الذين أسسوا استمرارية تاريخية في العراق ولا سيما في الكوفة. لكن الصحيح من جهة أخرى أن جيش العراق باستثناء فترة خالد وأبي عبيد كان مركباً في الواقع وعلى الدوام من عناصر بدوية من خارج الحواضر الإسلامية، وهي لعمري ظاهرة اتسعت مع سعد، فلا عجب بعد ذلك أن يتناسى ويتجاوز قادة القبائل سلطة المدينة؛ ومن يدري، لعل عمراً اجتهد بغية محاربة الفرس، من أجل النهوض بالقوى العربية الصرف، شريطة أن تخضع هذه القوى للمثل الإسلامية المطروحة كهدف أسمى؟

وقد روى سيف أن عمراً أراد مواجهة الفرس بأفضل العرب، بمعنى أبطالهم وخطبائهم وشعرائهم. ولعله سمح لبعض قيم الجاهلية بالعودة إلى النشاط ولا سيما القيم التي لم تكن تعارض الإسلام إلا قليلاً. كان ذلك نتيجة منطقية للانفتاح على الردة والاختيار الأساسي المتمثل في تفضيل الفتح الواسع على الفتح المحدود، وتوسيع الإسلام بدل تعميقه. وقد لاحظ سيف وجود رجال من أهل الشجاعة ـ على رأسهم عمرو بن معديكرب وطليحة، وقيس بن هبيرة ـ ورجال من أهل الرأي ـ كالمغيرة بن شعبة وحذيفة، وعاصم ـ وشعراء ـ كالشماخ، والحطيئة، وأوس بن المغراء، وعبدة بن الطبيب[2].

---

(١) الطبري، التاريخ، ج٣، ص ٥١٤، ٥٢٢، ٥٣٣، ٥٣٧، حيث تنسب الروايات لعمرو بن معديكرب دوراً بطولياً كان قام به في يوم أرماث، وفي ص ٥٥٧، حيث نرى عودة عمرو وطليحة إلى الظهور يوم عماس، ومبادرتهما بأعمال طرفية في القتال.

(٢) الطبري، ج٣، ص ٥٢٣. روي أن المغيرة جاء من الأبلة: الدينوري، ص ١١٨؛ والبلاذري، ص ٢٥٦. ولعل وضع أبي محجن الشاعر يستند إلى عملية عصيان في وجه سعد، وقد أفاضت المصادر في رواية موقف هذا =

أما عن الوفد الموجه إلى رستم، فقد انتقى سعد قادة تقليديين من الرؤساء، ولكن رجال الإسلام أيضاً، منهم ربعي بن عامر والمغيرة بن شعبة، والنعمان بن مقرّن[1]. وما دلالة كبيرة رواية الحوار الذي دار مع رستم، وهو حوار كان بمثابة المواجهة الإيديولوجية التي سبقت الصدام المسلح. من البديهي أن هذه الرواية أعدت بالكوفة، لكن متى؟ هل تمت قبل انبثاق الشعوبية أم بعده؟ هل كانت تعبر عن وعي بالارتباط بعملية الفتح فقط لكونها أساساً للسيطرة العربية التي كانت قائمة في مجتمع الكوفة، فيما بين سنة ١٠٠ و ٣٠ من الهجرة؟ أم كانت تردّ ردّاً غير مباشر على تشكيكات الشعوبية، فقدمت صورة مرضية للعرب، صورة شعب فتي متحمس يحتقر السهولة على طرفي نقيض مع صورة الفرس كشعب أبطره النعيم؟ إن رواية الصورة الذاتية المعروضة تؤيد الفرضية الأولى، فضلاً عن أن الرواية المذكورة تشمل ذكريات كثيرة مستمدة من العصر الجاهلي. هناك جانب كبير من البناء الإيديولوجي تضمنه وصف ربعي الخشن والفظ تقريباً؛ لكن مجموعة أسلحة المقاتل العربي جديرة بالاهتمام: إنه السيف المغمد في الخرق، والرمح، والترس من جلد البقر، والدرع، وهو سلاح لم يكن جيداً إلا قليلاً[2]. وكذلك الأمر بالنسبة للصورة الأخلاقية التي قدمها العرب عن أنفسهم إلى رستم، إذ من المناسب أن نميز بين الإسقاطات الاسترجاعية projections rétrospectives، ومبررات الفتح، ومتبقيات الماضي الحي. ذلك أن الدوافع الاقتصادية طرحت في الميزان دون تحفظ، ولعل الأمر كان جرى تعتيمه لو وُضع الخبر في وقت متأخر: الجوع والبحث عن الأراضي الجيدة، واشتهاء القمح واللحم، والرغبة في النساء والأطفال، فوقع التعبير عن كل هذه العناصر بصراحة لا تداق. اعتداء من شعب على شعب، نية الاستقرار، العزم على الخروج من الجاهلية. كلّ هذا الذي نستشفه لدى الطبري في ذكره رؤية فتح العراق من الجانب العربي يبدو مقبولاً إذا أرجعناه إلى الفترة المبكرة حتى ولو دونت الروايات في القرن الثاني من الهجرة[3]، وهو وصف للعرب يظهرهم بأنهم كانوا على شعور من صلاتهم بالتاريخ. وما يبدو أيضاً قابلاً للاحتمال أن الدّعوة إلى اعتناق الإسلام قبل المعركة كانت فعلية[4]، لكن الأشخاص الذي وفدوا على

= الشاعر: الطبري، ج٣، ص ٥٣١: لكن الرواية التي شاعت كثيراً عزت حبسه إلى السكر: مثلاً ابن اسحاق حسب رواية الطبري، ج٣، ص ٥٧٣؛ والبلاذري، ص ٢٥٨.

(١) لكن الوفد المذكور لم يشتمل على كبار رؤساء الردة، رغم تكاثر روايات المحاورة مع رستم.

(٢) الطبري، ج٣، ص ٥١٩.

(٣) لا أقل من ١٣ خبراً في هذا الموضوع، رواها سيف. ويبدو أن أكثر الأخبار استكمالاً وطرافة هي أخبار محمد، وطلحة، وعمرو، وزياد، ص ٥١٨ - ٥٢١.

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٢٥٧.

رستم لم يقدموا الاسلام لحمل الغير على اعتناقه وإنما للتعريف بذاتيتهم الجديدة ومن أجل إفهام وشرح معجزة تلاحمهم. لقد أخلى المظهر الكوني المجال لصالح البعد القومي، فكان إسلامهم إسلام البعث الاخلاقي للأمة أكثر مما كان وحياً بالمطلق. وواضح أن تأويل الإسلام في المنحى السياسي التاريخي لم يكن من سمات الخطاب المتأخر لعصر التصنيف المذهبي. فاما أنّه يعبّر عن مجتمع مهيمن قريب من تاريخه، مستفهماً مغامرته (كوفة سنة ١٠٠ هـ) واما أنه يستعيد خاصيات عتيقة. والأمر الأكثر احتمالاً أنه تـمّ المزج بين هاتين اللحظتين في المجتمع العربي، لحظة الفتح الحقيقي ولحظة رؤية هذا الفتح.

معركة القادسية

١) الاستعدادات النهائية

لقد تمت هذه المواجهة الايديولوجية عن طريق السفارات حين تواجه الجيشان قبيل القتال، وحين احتلت الأطراف المتواجهة مواقعها. استقر العرب بعد مرحلة شراف، في قلعة العذيب المهجورة حيث بقي سعد مريضاً غير قادر على الحركة طيلة المعركة، بينما خرج أكثر الجيش في اتجاه الفرات بين خندق سابور والعتيق، الملاصق لقرية قادس أو قديس[1]. ويحتمل أن كلمة قادسية لم تكن تدل في ذلك الوقت على اسم قرية بل على المنطقة التي حددها الخندق والعذيب والعتيق[2]. أما رستم، فقد استقر في النجف أول الأمر، ثم عسكر بين الحصن والعتيق: كان الجالينوس يوجد آنذاك إلى الجنوب، بين النجف والسيلحين وعسكر ذو الحاجب بين رستم والجالينوس[3]. وسيدور القتال بين العرب والفرس وراء الفرات، على حدود البادية العربية، فيبقى للعرب إمكانُ الرجوع إلى صحرائهم. كان هؤلاء وأولئك يوجدون في أسفل منحدرات الطفّ، بوادي الفرات. أما الفرس فقد انتشروا على ثلاثة عشر صفاً حذو الفرات. وأما العرب فهم إلى الغرب وعلى ثلاثة صفوف فقط فرساناً ومشاة ونشّابة[4] وكان العتيق يفرق بينهم.

وقد مر معنا أن الجيش العربي كان يعد ٣٠٠٠٠ رجل على أقل تقدير، وربما تجاوز

---

(١) الطبري، ج٣، ص ٤٩٤ الذي يقول: «ونزل زهرة بحيال قنطرة العتيق في موضع القادسية اليوم». وهذا يدلّ على أن قرية القادسية لم تكن موجودة في تلك الفترة. أما كلمة قادس التي يستعملها ابن اسحاق فيظهر أنها تعبر عن قرية قديس كما يذكرها سيف. ولعلّ التسمية الجماعية (قوادس) تشير إلى المنطقة كافة وهذا ما لا يراه صالح العلي. والملاحظ أن العتيق وصف بأنه كان مجرى قديماً للفرات، وكان يصب في الجوف ثم تحول إلى قناة.

(٢) الطبري، ج٣، ص ٥١٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ٥٥٩، والدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٢٢.

(٤) المرجع نفسه، ص ٥٥٩، والدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٢٢.

ذلك بقليل. وكانت الأرقام المتعلقة بالجيش الفارسي تتراوح بين ٦٠٠٠٠ و ١٢٠٠٠٠ رجل[1]. والواقع أن نصف الجيش الفارسي اشتمل على الاتباع، وعلى هذا فنحن نتمسك برقم ٦٠٠٠٠ مقاتل، منهم ١٥٠٠٠ من الأشراف[2]، أي ضعف الجيش العربي. ولم يكن ذلك بالأمر المثبط قط لكن حضور الأتباع بكثرة، ووجود ثلاثين من الفيلة، وكون المقاتلين مترابطين بالسلاسل وكون مجال القتال محدوداً نسبياً، محصوراً بين الفرات، وقنواته وأعالي الطف، كل ذلك جعل من الجيش الفارسي كتلة صعبة التحرك، ثقيلة الحركات. ومما زاده تثاقلاً أنه كان جيشاً عظيم التجهيز مدرعا كله بالحديد، مع أنه صار بذلك أداة حرب هائلة. وكان العرب تجاه أعدائهم قليلي العدة وقد روي أن المحاربين استخدموا سروج مطاياهم وأحزمتها بدل التروس والخوذات، مما يوحي بالشعور أنه كان جيشاً هشاً[3]. لكن الرجال كانوا مسلحين، وكانوا يمثلون نخبة القبائل حيث أمر سعد بألاّ يجند إلا الرجال الممتلكون لأسلحتهم. وتمّ له ذلك بيسر، وهو دليل على ما بلغته بلاد العرب من تطور في ذلك العصر. فلم يكن العرب برابرة بالمعنى المعهود للكلمة، بل كانوا منفتحين على العالم الخارجي بما يكفي لكي يستطيعوا التسلح بصورة واسعة، إما عن طريق التبادل وإما بفضل الإقتباسات التكنولوجية[4].

ويبدو أن رستم قد فضل استراتيجية الاستنزاف على الهجوم الفوري[5]. ولا يحتمل أنه لم يدرك لحد ذلك الوقت طابع الغزو المنظم الذي اكتساه التدخل العربي في العراق، نظراً للوضع الذي صارت عليه الأحداث: وبذلك فإن المقترحات التي عرضها على العرب والتي استهدفت العودة إلى ديارهم عوداً مشرفاً، لا يمكن أن تؤوّل إلاّ من باب الحرب النفسية[6]. فهل كان يريد حقاً تلافي صدام مسلح لا يكون له غنم فيه إذا انتصر، ويفقد فيه كل شيء لو هزم؟ لقد أشارت المصادر إلى حذره، واعتهاده المنجمين الذين توقعوا له

---

(١) ٢٠٠٠٠٠، مع أتباع الجيش، كما ورد بخبر آخر: الطبري، ج٣، ص ٥٠٥.

(٢) الطبري، ج٣، ص ٥١٠: ٦٠٠٠٠ هو أدنى رقم يستمد من رقم ١٢٠٠٠٠ رجل المتداول. وهو يشكل عدد المقاتلين الحقيقيين. وقد خفضه عوانة كما نقل عنه الطبري، ص ٤٩٦، إلى ٣٠٠٠٠، مخفضاً عدد العرب إلى ٧٠٠٠. وروى الطبري، ج٣، ص ٥٧٣، عن ابن اسحاق أن عدد المقاتلين ٦٠٠٠٠. راجع أيضا: Wellhausen, *Skizzen und Vorarbeiten*, VI, p.77. أما البلاذري، فتوح، ص ٢٥٦، فيذكر رقم ٢٠٠٠٠ مقاتل فارسي.

(٣) الطبري، ج٣، ص ٥٥٣ (سيف)، وص ٥٧٥ (ابن اسحاق).

(٤) وجد سعد أسلحة بقاعة العذيب. ولا بدّ أن الثلاث سنوات السابقة التي قضيت في شن الحملات، مكنت العرب من الحصول على عدد من الأسلحة: الطبري، ج٣، ص ٤٩٢.

(٥) المرجع نفسه، ص ٥٠٩.

(٦) المرجع نفسه، ج٣، ص ٥٢٣.

كارثة، إلا أن الملك حثه على القتال(١). كان هذا الملك قليل التروي، قد عيل صبر دهاقين الطف، فغشوه لحمله على حسم الأمر مع العرب(٢). وضايق تريث رستم المبيّت الجيش العربي البعيد عن قواعده، فاقتصر على شن غارات على السواد لضمان الغذاء للمقاتلين، لكن تزايدت صعوبة مثل تلك الغارات (يوم الأباقير، يوم الحيتان)(٣). فأراد العرب كسر الطوق، والخروج من موقف الانتظار الذي أصبح دقيقاً والذي قد يؤدي إلى تفتيت معنويات الجيش، فتحدد بذلك اختيار وقت القتال أكثر مما لو كان الأمر يتعلق بنفاد صبر يزدجرد.

٢) قضية التأريخ:

أشرنا سابقاً إلى هذه القضية عند الحديث عن وقعة البويب حيث أن توقيت المعارك المختلفة في العراق مترابط، وقد بينا أن تأريخ سيف مردود في جملته، وبذلك نكون متفقين في الرأي مع فلهاوزن، وكايتاني، ويوسف. وبخصوص القادسية بالذات، لا يمكن قبول تاريخ محرم ١٤/ فبراير ومارس ٦٣٥. وقد اقترح ابن اسحاق آخر عام ١٥(٤) واقترح خليفة بن خياط شوال من عام ١٥ هـ(٥). واقترح الواقدي أواخر عام ١٦ هـ(٦). وبعد أن قدم كايتاني الحجة بصورة متبحرة ودقيقة أيضاً، مع أنها لم تكن دائماً مقنعة، انتهى به الأمر إلى تأريخ حرب القادسية في ربيع سنة ٦٣٧ بعد الميلاد، أي بين محرم وجمادى الأولى من سنة ١٦ هـ(٧). وأكد موافقته على التاريخ الذي اقترحته مدرسة أهل المدينة، رغم فارق ستة أشهر على الأقل يفصله عن الواقدي؛ لكن يبدو لنا أن التاريخ الذي اقترحه كايتاني ينبغي رفضه لأن شواهد شعرية وتاريخية كثيرة تحثنا على طرح تزامن وقعتي اليرموك (رجب

---

(١) الطبري ج٣، ص ٥٠٩ و ٥٠٥.

(٢) «وعج أهل السواد إلى يزدجرد بن شهريار، وأرسلوا إليه أن العرب قد نزلوا القادسية بأمر ليس يشبه إلا الحرب... وقد أخربوا ما بينهم وبين الفرات، وليس فيها هنالك أنيس إلا في الحصون، وقد ذهب الدواب وكل شيء لم تحتمله الحصون من الأطعمة... وكتب إليه بذلك الملوك الذين لهم الضياع بالطف»: الطبري، ج٣، ص ٥٠٣.

(٣) المرجع نفسه، ج٣، ص ٤٩٠. كان ذلك لتغذية النساء والأطفال في العذيب وقادس حيث خرجت بعض القبائل بنسائها وأطفالها.

(٤) المرجع نفسه، ج٣، ص ٥٧٢.

(٥) التاريخ، ج١، ص ١٠١.

(٦) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٦٠، واعتمد ابن سعد تأريخ الواقدي، طبقات ابن سعد، تحقيق Sachau، ج٣، القسم الأول، ص ٣٠.

(٧) Caetani, *Annali*, III,2, p.633.

عام ١٥ هـ) والقادسية أو على الأكثر أن نقبل فارقاً ضئيلاً لا يمكن أن يتجاوز شهراً[١]. وقد تسمى أحد أيام القادسية بيوم أغواث، مذكراً بالنجدات التي وردت من الشام بعد معركة اليرموك[٢].

وسواء أكان قيس بن مكشوح أول القادمين، أم هاشم بن عتبة، أم القعقاع بن عمرو فذلك لا يهم إلا قليلاً، كما أنه لا يهم إلا قليلاً أن نعرف أن الامداد من مقاتلة اليرموك وصلوا قطعة واحدة خلال المعركة، أم أنهم توافدوا جموعاً متوالية أو فوراً بعد القادسية لما انتهى كل شيء[٣]. وبالفعل فإن الروايات مختلفة في هذا المقام. ورغم الفارق الكبير الذي صدر عن مدرسة أهل المدينة يسود الشعور بوجود تزامن تقريباً بين وقعة اليرموك ووقعة القادسية مع تأخر طفيف لمعركة القادسية، وهذا يفسر في آن واقع الامداد والاضطراب الذي ساد الرواية التاريخية بصددها. فإذا وقعت حرب اليرموك في رجب سنة ١٥ هـ/ أغسطس ٦٣٦ م، فلا مراء أنه يجب تأريخ حرب القادسية في ذات التاريخ أو بعد شهر من ذلك، أي في شعبان من سنة ١٥ هـ[٤]. وتتكاثر الحجج المؤيدة لهذا الاختيار والمتمثلة في ضعف الامداد وفي الإشارة إلى أن العرب أقاموا وسيطروا على السواد طيلة ثلاثة أعوام[٥]. ويفيد خبر آخر أنه مرت مدة زمنية تقدر بثمانية عشر شهراً تفصل بين معركة البويب وحرب القادسية، وأخيراً هناك منطق الأحداث (اختيار عمر لوقت الغزو، ومسيرة سعد، ومرحلة الانتظار بالقادسية)، وقد تضافرت كل هذه الأمور على تأييد هذا التسلسل الزمني الاجمالي[٦].

---

(١) سيف كما روى عنه الطبري، ج٣، ص ٥٤٢ ـ ٥٤٣، الذي يصرّح بفارق شهر بين احتلال دمشق والقادسية، مقترحاً تزامناً مع وقعة اليرموك. وفي هذا الصدد لا مجال للحديث إلا على الاستيلاء الثاني على دمشق. وقد ورد بقصائد كثيرة ذكرها الدينوري ص ١٢٤ ـ ١٢٥، منها قصيدة منسوبة إلى قيس بن هبيرة، فارق شهر بصورة واضحة. ونسب البلاذري، ص ٢٦١، القصيدة ذاتها إلى قيس بن مكشوح، نقلاً عن خبر لهشام بن الكلبي.

(٢) الحقيقة أن كلمة أغواث لم توجد سوى في روايات سيف وفي المقاطع الشعرية التي أوردها الطبري، ج٣، ص ٥٤٥.

(٣) خاضت مصادر الفقه في الموضوع؛ راجع أيضاً قصيدة لبشر بن أبي ربيعة، وردت في الاخبار الطوال، للدينوري، ص ١٢٥، بخصوص حضور هاشم وقيس.

(٤) ابن حبيش، كتاب الغزوات، مخطوطة القاهرة، ورقة ٢١٦ وما بعدها، يذكر سيفاً مفصلاً ويبدو أنه اطلع على كتابه، وهو يؤرخ وقعة القادسية في شوال سنة ١٥ هـ. وقد اورد تاريخاً قريباً من تاريخنا بالنسبة لمجموع المعارك.

(٥) الطبري، ج٣، ص ٥٣٢.

(٦) الأمر المسلم به الذي لا يتفق وتاريخنا والذي اعتمده كايتاني، هو فارق سنة الذي فصل به أبو مخنف بين معركة الجسر ومعركة البويب. وقد اقترح Elias de Nisibe تاريخ جمادى الأولى سنة ١٦ هـ/ يونيو ٦٣٧ م، وجاراه Wellhausen في هذه النقطة: *Skizzen*.... VI, p.73.

٣) سير المعركة:

ليس ما يبرّر البتة أن نتجه بتفكيرنا، كما فعل كايتاني، إلى القول إن المعركة دارت في يوم واحد[١]. ورغم أن رواية سيف اكتست طابعاً ملحمياً، فقد كانت أكثر تفصيلاً، ولا شك أنها كانت قريبة من الحقيقة نسبياً. وإذا ما حاولنا كتابة التاريخ العسكري الصرف لحرب القادسية، ففي الامكان تشييد إشكالية كاملة للفن العسكري عند العرب، اعتماداً على الروايات التي وصلتنا. كان ترتيب القتال قائماً على الخط، لا على الكراديس التي استخدمها مروان الثاني فيما بعد[٢]، مع وجود جناحين وقلب. كيف كانت الوحدة التكتيكية؟ هل كانت الكتيبة؟ وفي هذه الصورة ما هو الدور الذي كان للعرافات المتركبة من عشرة ومن مائة رجل، والتي سبق الحديث عنها؟ وهناك مشكلة مهمة أخرى: كيف يتكيف النسق القبلي بالتنظيم العسكري البحت؟ هل حافظت القبائل على وحدتها وكيانها، بعد أن اندمجت في نظام قتالي لا يخضع مبدئياً إلا لغاية خاصة به؟[٣]. يدور الحديث مثلاً حول كتيبة أسد[٤]، وفي اليوم الأول من وقعة أرماث، نشعر تماماً أن القبيلة - مثل بجيلة، وأسد، وتميم - أصبحت العامل الأساسي للتحرّك. ويمكن أن يكون قد سخر سعد عبقريته كلها لحماية تماسك وحدة القبيلة مع صهرها في الوقت نفسه في هياكل استراتيجية وتكتيكية للجيش، بمعنى أن يجد الحل الوسط بين البنية القبلية والبنية العسكرية الصرف. أما عن العمل العسكري ذاته فتبقى الأمور غامضة. يجري الكلام عن المطاردة والطراد[٥] (هل كانت ملاحقات للخيالة؟)، والجولان (دورات الخيل ومبارزات؟)، والزحف أو

---

(١) Caetani, *Annali*, III, p.656-7. يتحدث الواقدي عن «يوم القادسية»: البلاذري، ص ٢٥٦، لكن ذلك لا يدل على أنه ينبغي اعتبار يوم بمعنى «يوم واحد». أما ابن اسحاق، فلم يحدد المدة وقد استنتج كايتاني أن البلاذري تأثر بمدرسة العراق عند حديثه عن ثلاثة أيام، معتمداً رواية للشعبي، وكيف لا يكون الأمر كذلك بالنسبة لرواية أحداث تهم أهل العراق في المقام الأول؟

(٢) Wellhausen, *Das Arabische Reich und Sein Sturze*، نقله إلى العربية أبو ريدة، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٣٥٨.

(٣) يرتب سيف رؤساء القبائل في آخر السلم، بعد أمراء التعبئة (المشاة والفرسان والطليعة دون شك). وأمراء الأعشاء، وأصحاب الرايات: الطبري، ج٣، ص ٤٨٦. هذه أمور كلها غامضة ويكاد يكون مستحيلاً كذلك تكوين فكرة عن التنظيم العسكري العربي، اعتماداً على روايات أبي مخنف المتعلقة بالفترة اللاحقة؛ راجع الطبري، ج٣، ص ٥٥٧، بخصوص وجود فرق المائة.

(٤) الطبري، ج٣، ص ٥٣٩. من الممكن أن تكون الكتيبة هي الوحدة التكتيكية بينما الوحدة الاستراتيجية هي الجناح والقلب والطليعة.

(٥) الطبري، ج٣، ص ٥٣٨، وغيره حتى صفحة ٥٧٦. وكذلك الأمر بالنسبة للمصطلحات الأخرى التي استخدمها سيف.

الهجوم الشامل. وقد ذكر سيف ما يلي: «كان يكون أول القتال في كل أيامها المطاردة»[١]. ويبدو أن المطاردات كانت تتمادى على شكل اشتباكات عنيفة، لكن باستثناء اليوم الأخير، لم يكن يعني الأمر سوى مواجهات ظرفية، ولم يشن الهجوم العام إلا في النهاية.

ولنتعمق في الأمور عن كثب. لقد دامت المعركة أربعة أيام وليلة: يوم أرماث، ويوم أغواث، ويوم عماس، وليلة الهرير، ويوم القادسية.

أ) في اليوم الأول، واجهت القبائل صدام الفيلة، وكانت على التوالي بجيلة، ثم أسد، ثم تميم[٢]. وقد تمثل المشكل عند العرب من وجوب التصدّي للصدام، والتنسيق بين نشاط القبائل، وإبطال تأثير الفيلة. وقد تحقق لهم ذلك حين لجأوا إلى تجريدها، وتمزيق أغطيتها الفاخرة وسيورها، وتحطيم المحامل. كان يوماً شديداً على العرب فقدوا فيه ٢٥٠٠ من القتلى وأشرفوا على الكارثة مراراً، لكن الغموض الذي اكتنف تفاصيل العملية لا يزول: فمن جهة، يروى أن الجهد الفارسي تركز على نقطة محدّدة من المكان الذي عسكرت فيه بجيلة، وأنه وجب أن تتدخل أسد وتميم إنقاذاً للوضع. ومن جهة أخرى، تتحدث الرواية عن مرحلة الطراد، مرحلة تشابكت فيها الكتائب وعن تكبيرة رابعة لسعد تأهباً للهجوم العام أو الزحف، لكن لم يتم هذا الهجوم إلا في اليوم الرابع: فكأن الرواية مترددة في تجميع الأحداث في يوم واحد أو في تمبيعها[٣].

ب) يطرح يوم أغواث مشكلة المساعدات القادمة من الشام. هل كانت مهمة وحاسمة أم كانت بمثابة الدعم النفساني أكثر منها مساعدة حقيقية؟ تحدث خبر عن إرسال ٦٠٠٠ من أهل العراق (كانوا من المقاتلين المتمرسين الذين خرجوا مع خالد) من

---

(١) المرجع نفسه، ص ٥٤٥.

(٢) نتبين من خلال الرواية شحناء ما بين القبائل. وذلك دليل على أن دور القادة من رؤساء القبائل كان مهماً على الرغم من تهميشهم على الصعيد المؤسساتي: راجع الطبري، ج٣، ص ٥٢٩ ـ ٥٤٠. وقد قتل ٥٠٠ رجل من أسد.

(٣) وعلى هذا، يسترد كل قيمته نقد كايتاني لما تضمنته رواية سيف من تناقضات. بدأ سيف يتحدث عن توصيات سعد الذي حدد تكبيراته تماشياً مع مراحل القتال، فخصص التكبيرة الرابعة للهجوم العام، لكن هذه الخطة التالية وكأن التكبيرة الأخيرة بقيت معلقة. وفي خصوص يوم عماس يعود الخبر إلى المزج بين عناصر سبقت العامة تتنافر ومدة القتال الذي استمر أربعة أيام: الطبري، ج٣، ص ٥٣٥. ثم تضطرب الرواية في الأيام روايتها وبين قضية سعد، ص ٥٥٩ وما بعدها، كأن الأمر يتعلق بإجمال للعملية كلها، أقحم في اليوم الثالث وكأن المقصود منه وصف يوم عماس، أو أن سيفاً رتب استخدام رواية مستقلة تصف مجمل الدراما في يوم واحد.

طرف أبي عبيدة[١]. وورد بخبر آخر أن ٧٠٠ رجل فقط بلغوا القادسية[٢]. وكان قيس بن مكشوح حاضراً أو أنه كان غائباً حسب الظرف؛ وهناك خبر مُلحّ ورد مراراً مفادُه أن المساعدات وصلت متأخرة لكنها حصلت على نصيبها من الغنيمة رغم ذلك.

ومن الممكن أن سيفاً ومخبريه من أهل العراق، مجدوا أكثر مما يجب، دور القعقاع وهو أحد قادة بُعوث اليرموك الذي أصبح مدرباً للجيش العربي كافة. فكان يوجد في كل مكان، ويقود أعمالاً طرفية، وهو الذي دشن تكتيك الدفاع المتمثل في دائرة الخيل المحيطة بنواة من الجمال وهو الذي قتل الجالينوس، وتولى فعلاً قيادة العمليات آخر الأمر[٣]. لكن لا نجد له أثراً في روايات الواقدي المدنية.

ج) كان يوم عماس أقسى يوم على العرب. تحصل الفرس على النجدات في حين أن دعم هاشم لم يكن إلا رمزياً[٤] وظهرت الفيلة من جديد فتحتم قتالها هذه المرة. تذكر لنا المصادر وقوع حركة تطويق في أحد ممرات العتيق. كان عملاً جسوراً أنفذه طليحة وعمرو بن معديكرب لكن من الصعب إدراك تأثيراته على المعركة في مجموعها[٥].

والأمر الأساس أن المعركة استمرت كامل الليلة ـ ليلة الهرير ـ حيث توقع العرب أن يشن الفرس هجوماً عاماً، فقاموا بزحف كامل، مستبقين أوامر سعد، وبالكاد متخطين لأوامره[٦]. فكانت لهم الغلبة في فجر ليلة القادسية، لكن مسعاهم لمّا يكلل بالنصر، إذ كان عليهم أن يتجلدوا ساعات أخر، ويقاوموا ويجالدوا حسماً للأمر لصالحهم.

د) وقد تم لهم ذلك في صُبيحة وقعة القادسية. قتل رستم فانهار الجيش الفارسي انهياراً تاماً. ودار التقتيل والإغراق في نهر العتيق. ولم ينجح في التقهقر بانتظام إلى المدائن سوى جمع محدود العدد، لكن حتى ذا الحاجب الذي كان يقود هذا الفريق أمكن اللحاق

---

(١) الطبري، ج٣، ص ٥٤٣. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٥٦. وقد أورد كايتاني رواية اليعقوبي التي لم تكن سوى نقل لرواية سيف: ج٣، ص ٦٤٥. ولم يرد عدد المقاتلين لدى الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٢٠.

(٢) الطبري، ج٣، ص ٥٥١؛ يتحدث سيف، ص ٥٤٣، عن ١٠٠٠ رجل دون أن نعلم هل يقصد بذلك ١٠٠٠ مقاتل في الجملة، وصل منهم ٧٠٠ في بداية الأمر، أو أنه قدم ١٠٠٠ ثم ٧٠٠ رجل؛ البلاذري، ص ٢٥٧، يذكر رقم ٧٠٠ رجل بقيادة قيس بن مكشوح الذي جاء لانقاذ الوضع.

(٣) الطبري، ج٣، ص ٥٤٧ وغيرها.

(٤) روي أن هاشماً جاء يوم عماس برفقة قيس بن مكشوح في حين أن القعقاع سبقهما.

(٥) الطبري، ج٣، ص ٥٥٧ ـ ٥٥٨ نقلاً عن سيف.

(٦) الطبري، ج٣، ص ٦٥١؛ البلاذري، فتوح البلدان، يعترف أن ليلة الهرير بالقادسية كانت نموذج ليلة الهرير بصفين: ص ٢٥٩. ويرى كايتاني خلافاً لذلك، أن الأمر اسقاط يعود من المستقبل على الماضي Caetani. Annali, III.2, p.646 ff.

به وقتل. كان النصر العربي كاملاً. أما ما يثير الاستغراب في الجانب الفارسي فهو اتساع الانهيار أكثر من الهزيمة ذاتها، وما لحق الفرس من تقتيل وقد تشتتوا شذراً مذراً، واستسلموا، وهو ما لم يكن متوقعاً بعد صلابة المقاومة الفارسية التي استمرت ثلاثة أيام وليلة.

٤) تفسير وقعة القادسية ودلالتها:

فتح النصر في القادسية طريق العراق للعرب، العراق الذي يجب اعتباره الآن مفتوحاً، بعد القضاء على القوة العسكرية الفارسية. وقد تضمن هذا النصر على المدى المتوسط بذور نهاية الامبراطورية الساسانية وغزو فارس ذاتها وإخضاعها. ويعترف كايتاني أن نتائج معركة اليرموك كانت أقل أهمية من نتائج معركة القادسية لكنه يُجادل في أن يكون لهذه المعركة صبغة درامية. قال: «كانت القادسية معركة ناجحة في يوم واحد، وكانت اليرموك الخلاصة والأزمة القصوى لحملة طويلة شاقة استمرت ثلاث سنوات»(١). ومن المؤكد كما أسبقنا أن الشام اكتسبت أهمية أعظم من العراق، في مسيرة الفتح العربي، وأنها استقطبت القدرة العسكرية لدولة المدينة، بمعنى تلك القوة الضاربة التي أنشأها الرسول، ثم طورها أبو بكر وعمر. وخلافاً لذلك، جرى اللجوء دوماً إلى قوات قبلية فرعية، في خصوص العراق، كانت مستقلة نسبياً. ويحتمل أيضاً أن بيزنطة اعتبرت في بداية الأمر الخطر الأساس الذي كان يستوجب أسرع رد ممكن، وأكثره تنظيماً وتواصلاً، كما اعتبرت الشام امتداداً طبيعياً لبلاد العرب. وهو ما يفسر استمرار الجهد المبذول وتماسكه بالنسبة لجبهة الشمال. لكن لا يعني ذلك إطلاقاً أنه تمّ استنقاص الفرس من الوجهة العسكرية. ومن المعروف أن العرب ترددوا في الهجرة إلى العراق، وقد مرّ معنا ما كان من خطورة الهزيمة التي مني بها العرب في معركة الجسر، وهي الوحيدة التي ألحقت بالعرب والتي كان لها مثل تلك الأهمية. وتدل الأخبار الكثيرة التي وردت في المصادر على الشعور بالنقص الذي انتاب العرب أمام القوة الفارسية، وقد وجب التغلب على إحباط نفسي حقيقي لمواجهتها(٢).

كانت وقعة القادسية كوقعة اليرموك تتويجاً لعمل دام ثلاث سنوات. وليس لها أن تكون نصراً يسهل تفطنه إلا إذا أخفق الفرس في تنظيم أمورهم من جديد، ولم يجرِ الأمر على ذلك النحو. كانت حقاً امبراطورية بكامل مواردها، تنظيمها، وتقاليدها العسكرية

---

(١) Caetani, *Annali*, III.2, p.659.

(٢) الطبري، ج٣، ص ٤٨٤ - ٤٨٥. كان «الأسد» لقب الفرس ور ة - نعني بها بكرا - كانت تلقّب بربيعة الأسد لأنها كانت الشريك الأكبر، في الحرب، للساسانيين. وا رت حتى صفين الفكرة القائلة إن لربيعة خبرة كبيرة في الحرب.

تلك التي واجهت الفتح العربي في القادسية. صحيح أنها كانت امبراطورية في حالة ضعف عميق، لكنها استردت استقرارها مؤقتاً، وكانت قائمة الذات عند وقعة القادسية.

ويعني ذلك أن الأمر لم يتعلق في شيء بغارة موفقة بل إن المعركة كانت جدية، درامية، وكانت بمثابة المأساة إلى أعلى درجة في نظر المهزومين. كانت درامية بالنظر للمقاتلين لأن نتيجتها كانت محل شك. لكن مشكل المناعة العربية مطروح على المؤرخ لكثرة ما اعتبر طبيعياً أن العرب لا يمكنهم إلا أن ينتصروا.

توخى العرب تجاه خصومهم كافةً سلوكَ انتصار محقق، ولم تعد في حاجة إلى تعليل جانب كبير من ذلك. إنها قضية تاريخية، لكن يمكن عرض بعض العناصر في وضع القادسية بالذات. لقد جمع الجيش العربي بين خاصتين: كان من الصنف البرابري، وكان أيضاً جيشاً منظماً تنظيماً قوياً لا محالة، كان جيشاً - شعباً وجيش مهاجرين، وقد تألّف من محاربين مالكين لأسلحتهم، نعني نخبة القبائل، فضلاً عن أنهم كانوا من المتطوعين. وكانت تحرك هؤلاء الرجال رغبة واضحة في الفتح: ليس إرادة لتوسيع امبراطورية ما، بل صورة ملحة للعيش الأفضل. وكان جيشاً من النوع البرابري أيضاً، لأنه واجه شعباً بامبراطورية، وكان ذلك الشعب قليل السلاح، لكن كانت له دوافع نفسانية فضلاً عن وجود القوة التعبوية للإسلام وندائه الموحد، ووجود سياسة منسّقة، ومسعى عقلاني. قلنا إنه كان غزواً من الصنف البرابري لا شعباً برابرياً ذلك أن ما يلفت النظر في الروايات التي وصلتنا لم يكن من شكيلة الجسارة اللاّواعية، بل هي الشجاعة المكتسبة والمزج بين روح المبادرة والانضباط، وفوق كل ذلك وجود تقاليد ثقافية وتقاليد عسكرية.

لا شك أن البعد المعنوي وهو الأيسر على الإدراك كان الأكثر حسماً لتعليل الانتصار. وفوق ذلك، يبدو أن العرب أقاموا استراتيجية عسكرية جديدة. كان تجهيزهم أخف، وكانوا أكثر حركة تجاه جيش قوي لكنه ثقيل، وقد مرت بهم أيضاً تجربة حروب الردة وما حصلت عليه بكر ثم بجيلة من ممارسة حربية ثمينة خلال فترة الأيام إضافة إلى خبرة القعقاع ورجاله. ولا نعلم إلا القليل عن تنظيم الجيش العربي، لكن هل آل تنظيمه إلى الرفع من قدرته على التنقل والفعالية من الوجهة التكتيكية؟ ودور الفرسان أيضاً؟ كل هذه الأمور تستوجب التوضيح.

حقيقة الأمر أن هذا الفن العسكري شهد تطوراً حاسماً بدفعة من النبي، خصوصاً على مستوى التعبئة أي تنظيم الجيش القتالي أو قبلها[1]. لقد كانت الحرب مقامة في

---

(١) المؤسسة العسكرية، بيروت ١٩٧٧؛ عبد الجبار محمود السمرائي، «تنظيم التعبئة عند العرب»، المورد، مجلد ١٢، عدد ٤، ١٩٨٣ ص ٧ - ١٥

الجاهلية على نظام الكر والفر أي الرجعة بعد الجولة وهذا يعني من وجهة التعبئة أن يصطف المقاتلة على أساس قبلي ويعني من وجهة القوة العدائية انتفاء روح الاستقلال والصمود على نطاق واسع. والتجديد الحاسم الذي أوجده الإسلام يكمن أولاً في اتخاذ التعبئة بالصفوف بصفة مضبوطة صارمة وثانياً في نبذ فكرة الفر والإبقاء على الكر وبالتالي بث روح الصمود دون استثناء. وأول ما طبق ذلك النبي في معركة بدر حيث تذكر لنا المراجع أنه كان يسري الصفوف كصفوف[1] الصلاة (وهنا تبرز بصفة محسوسة العلاقة في الإسلام بين الحرب والصلاة) وأن المؤمنين كانوا يزحفون على العدو دون فكرة تراجع. وقد اعتبر القرآن بعد أحد كل انهزام في المعركة دون مبرر تكتيكي أمراً كبيراً حيث يرد أن ﴿ومن يولهم دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾[2]. وكان الجيش الإسلامي يتركب منذ زمن النبي على النمط التالي: الصف الأول هو صف الرماح والثاني السهام والثالث والرابع السيوف. ويبدو أن الصفوف الأربعة هذه كلها مشاة، أما الفرسان فهي تكون ميمنة الجيش وميسرته. فالنبي إذن يكون قد سنَّ انقسام تعبئة الجيش إلى قسمين: القلب وهو مؤلف من المشاة، والجناحان حيث الفرسان، والقلب بذاته منتظم صفوفاً مختصة حسب السلاح. وإذا صح هذا فقد قام النبي بتجديد عميق في التعبئة، تجديد معقلن تماماً يفوق بكثير التنظيم القبلي القديم إذ يتجاوز الاصطفاف على أساس القبيلة ويقيم وحدة الجيش المقاتل. ولعل هذا يفسر إلى حد كبير تفوّق جيوش النبي على جيوش أعدائه كما تفوّق الحكم القائم بالمدينة على القبائل العربية في حروب الردّة[3]. ونحن نعلم أن أبا عبيدة باليرموك جعل هو بدوره الفرسان على أجناب الصفوف الثلاثة. أمّا بخصوص سعد بالقادسية، فإنّ سيفاً يذكر لنا ما نصّه[4]: «والمسلمون على مواقفهم إلا من تكتّب أو طاردهم وهم ثلاثة صفوف، فصفّ فيه الرّجالة أصحاب الرماح والسيوف وصف فيه المُرامية، وصفّ فيه الخيول، وهم أمام الرجالة وكذلك الميمنة، وكذلك الميسرة» ويعني هذا أنّه احتفظ بالثلاثة صفوف وبهيكلة الجيش إلى قلب وجناحين دون تخصيص الجناحين إلى الفرسان. لكن من جهة أخرى، وقد ذكرنا ذلك، تبدو القبائل وكأنها وحدات قائمة الذات، ونحن نلحظ الشيء نفسه في معركة صفين[5]. ولا يمكن تفسير ذلك إلا إذا اعتبرنا توزيع القبائل إلى كتل، الكتلة حذو

(١) ابن اسحاق، السيرة، ص ٤٤٥ حيث يقول: «إن رسول الله ﷺ عدل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قضيب يعدل به القوم...».

(٢) سورة الأنفال، ١٦.

(٣) الطبري، ج٣، ص ٥٥٩.

(٤) المرجع نفسه، ص ٥٦١.

(٥) نصر بن مزاحم، معركة صفين، ص ٢٢٥ - ٢٢٩.

الأخرى، لكن على جميع الصفوف.

وتبرز المصادر أيضاً هذه المقدرة على الصمود وصبر المقاتلين العرب، وهذا أمر يعود بنا إلى خلفية المعنويات تجاوزاً للمآثر الفردية والقبلية.

وخلافاً لذلك، فقد انهارت قدرة الفرس القتالية في آخر الأيام الأربعة بصورة يرثى لها وكان ذلك نتيجة لمعنوياتهم الرديئة كما كانت حصيلة استنقاصهم للعدو. ومن المتيسر جداً إذا اعتمدنا شهادة الغالبين إبراز السلوك العشوائي الذي ساد جيشاً بلا روح، ولا دافع، ولا إيمان. وهناك سؤال أكثر أهمية: من كان يقاتل مع رستم؟ هل هي الارستقراطية الفارسية بالسواد، التي كانت عنيفة في عدائها للعرب، لكنها أثبتت عجزها قبل ذلك؟ أم جمع المرازبة والملوك والأسياد في الداخل (فارس، وميديا، وسجستان، وخراسان) المصحوبين بمواليهم وأتباعهم؟ كلاهما دون شك. لكن الشعور يحدونا أن الارستقراطيين في السواد بقوا بحصونهم في موقف دفاعي، وأن الارستقراطية العسكرية بالداخل لم تجند بتمامها، إذ وجب على العرب أن يقاتلوا فيما بعد أو أن يتفاوضوا مع رؤساء المدن والمناطق. وكأن كل شيء يحمل على الاعتبار أن الامبراطورية لم تعبىء كل قدرتها العسكرية، لكن كل شيء يحمل على الافتراض أن ما جندته كان مهماً وبما يكفي للقضاء على جانب عظيم من الارستقراطية الساسانية، بعد وقوع مقتلة القادسية[1]. وكما أن امبراطور بيزنطة واجه العرب في اليرموك بجموع الأرمن وعرب الشام، إضافة إلى الروم، فكذلك استخدم يزدجرد أعواناً من الأمم التابعة، من أجناس أخرى، كالأتراك وأهالي بخارى، والديلم[2]. ومن المعلوم أن الديلم تخلوا عن الجيش وانتقلوا إلى الصف العربي. فيعود بنا الأمر دائماً إلى أزمة الدولة الفارسية التي لم تتوان عن التأثير على معنويات الجيش والقيادة. لكن ينبغي البحث عن التعليل الأساسي للنصر العربي، من وراء السياق العام، في الشعب العربي ذاته الذي شهد تحرر قدراته فجأة، تبعاً لتحول طرأ على التاريخ. وقد تجاوزت معركة القادسية في هذا الصدد مصير العراق لتطرح نفسها كأحد الأحداث الأقوى دلالة في تاريخ العالم.

---

(١) الطبري، ج٣، ص ٥٦٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٦٦.

- ٣ -

إنهاء فتح العراق
وتنظيم السواد
(١٦ - ١٧ هـ/ ٦٣٧ - ٦٣٨)

تلاحقت الأحداث بعد القادسية، وجرى فتح سريع نسبياً ويسير شمل السواد كافة، وطرد الفرس من العراق، وأقيم نظام الأراضي والبشر، وأنشئت أخيراً الكوفة والبصرة. وقد تطلبت كل هذه الإنشاءات سنتين أو ثلاثاً، اعتباراً للسنة التي تم خلالها استقرار الأمور وتهيئتها، نعني سنة ١٧ أو١٨ من الهجرة. وكما كان الأمر بخصوص الفترة السابقة، فإن المادة التاريخية المتوافرة لدينا تختلف في كثير من التفاصيل. لكن الوقائع الجوهرية الثلاث: الاستيلاء على المدائن، واحتلال جلولاء وطرد الفرس إلى النجد الإيراني، وإنشاء الكوفة، وردت في الروايات المتواترة كلها.

قسّم كايتاني(١) كعادته هذه المادة إلى رافدين كبيرين: الروايات المدنية (ابن اسحاق والواقدي) التي كانت مفضلة لديه، والروايات العراقية المرتكزة على سيف بن عمر، وهو يرفضها إن صح القول. فهو يعارض بين رواية عراقية متلونة قطعاً، حية أيضاً وحماسية بالخصوص، لكنها تمتاز بالأخطاء في التواريخ وبتضخيم الأحداث البسيطة، ويراها في جملتها تمجيداً خرافياً للأحداث العسكرية، وبين الروايات المدنية الجافة، الهزيلة، المضطربة، ولكن المتميزة حسب رأيه بمصداقيتها. هذا وإن هيل (٢) يجاري كثيراً وجهة نظر كايتاني وقد انتقد بالخصوص التسلسل الزمني الرديء لسيف وانحيازه للكوفة وهما أمران بديهيان بخصوص فتح الجزيرة، هذا الفتح الذي جعل منه سيف امتداداً فورياً للعمليات بالعراق. إن نقائص سيف بديهية، فوجبت الحيطة بشأنها. لكنه يتميز بتماسك الرواية كما يتميّز بثراء المادة الاخبارية. وعلى النقيض من ذلك، فقد اتسمت روايات عراقية أخرى

(١) Caetani, *Annali*, III,2, pp.713 ff, 719 - 732, 734 - 752.

(٢) Hill, *Termination of Hostilities...*, p.94.

بجفاف تجاوز ما هو موجود عند ابن اسحاق ـ وقد روى عنه الطبري[١] وهو الذي يشكل جوهر الروايات المدنية ـ واعتمد البلاذري[٢] بالخصوص تلك الروايات العراقية (رواية عوانة ومجالد بالنسبة للمدائن، ورواية أبي مسعود الكوفي وعوانة وهشام بن الكلبي وعوانة من جديد بالنسبة لجلولاء). وقد اشتملت رواية خليفة بن خياط[٣] على كثير من الأخبار المقتضبة التي كانت عراقية ومدنية، كانت أخباراً رئيسة وثانوية، اضطرب توقيتها. أما رواية الدينوري[٤]، فقد اتصفت بشكلها العام.

الواقع أن من غزارة الروايات وتناقضاتها ذاتها يبرز منطق للأحداث يجب متابعته دون المساس بأصل الروايات أو بشكلها: تلك هي الطريقة التي توخيناها لحد الآن، وهي الطريقة ذاتها التي سنستمر في العمل بها.

الاستيلاء على المدائن

خرج العرب إلى المدائن بعد وقعة القادسية، ودفعتهم إلى ذلك ضرورة عسكرية بديهية هي الاستيلاء على عاصمة الامبراطورية الفارسية التي كانت المقر الرئيسي للسلطة في العراق، والمركز النابض للقيادة؛ وتبعاً لذلك تقرر القضاء على الدولة الفارسية في العراق. كان العرب لذلك السبب على يقين من أن انتصارهم في القادسية كان حاسماً واكتسب طابعاً آخر مغايراً لما كان عليه الأمر في البويب مثلاً. ويزداد الأمر بداهة عند مقارنته بما جدّ في الأيام المعروفة. بقي أن نعرف هل تم القضاء على الجيش الفارسي قضاءً مبرماً، إلى درجة أن المسيرة نحو المدائن ستؤول إلى مجرّد حوز للمدينة أم أن الفرس ما زال لديهم دافع يدفعهم، وهل كان ممكناً قلب الوضع لصالحهم؟

يبدو أن كايتاني يميل إلى الرأي الأول[٥]، وذلك ما جعله يرّق لرواية المدنيين الجافة. على أن ما يقبل الاحتمال هو ظهور بعض مواقع المقاومة الصغرى حتى المدائن، وصمود أشد في أسفل جبال زاغروس، بجلولاء ذاتها. لجلولاء في الرواية التاريخية العربية كلها مكان مفضل في ملحمة فتح العراق، لكن أيضاً في كتب الفقه. كان حضور الناس وعدم الحضور

---

(١) التاريخ، ج٣، ص ٥٧٨.

(٢) فتوح البلدان، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٥.

(٣) التاريخ، ج١، ص ١٠٣ ـ ١٠٨.

(٤) الأخبار الطوال، ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

(٥) فقد تحدث عن وحلة بدون روبي ترتب عليها طرد الساسانيين من بلاد بابل: *Annali*..., III.2, pp.713 - 14. p.756.

في المدائن وجلولاء يكتسب أهمية بالنسبة لتقسيم الغنيمة وإسناد أراضي الفي،[1]. هذا يعني أنه ينبغي مجاراة سيف بحذر ويقظة أيضاً.

وبذلك نصل إلى طرق نقطة أخرى كذلك هي أنه كان للعرب رغبة ملحة في الاستيلاء على الكنوز الساسانية. وخشية أن تفلت منهم هذه الكنوز بعيداً داخل الأرض الإيرانية، اندفع العرب إلى التعجيل بالمرحلة الأخيرة المتمثلة في الاستيلاء على المدائن وكذلك إلى ملاحقة الجيش الفارسي بجلولاء وحتى حلوان. وبتهيئتهم المراحل (في بابل، وساباط، وبهرسير والمدائن)، أثبتوا جيداً ما كان لهم من حيطة في التوغل العسكري، ويدل هذا الأمر كذلك على وجود مقاومة فارسية ما، قُصد بها حماية فرار ملكهم وكنوزه. وتم هذا الفرار على مراحل أيضاً، فانطلق الملك من المدائن إلى حلوان، ثم من حلوان إلى الجبال، كأن هذا الملك كان يترقب حدوث معجزة، أو كان يعقد بعض الأمل على رجاله. إذ لو اقتصر الفرس على مجرد حماية كنزهم لما ترقبوا أن يباغتهم العرب في المدائن. المؤكد أن الفرس أعادوا تجميع قواتهم في فترة أولى - لتشتت أكثرها - وحاولوا تعطيل التقدم العربي إلى أقصى حد، لكن فوجىء الملك في المدائن، ففر تاركاً جانباً مهماً من ماله. ومع هذا فلم يتردد في مواجهة العرب من قلعة أخيرة، نعني الجيش المعسكر بجلولاء. كان على هذا الجيش أن يحمي فراره، ويقطع الطريق على غزو محتمل للتراب الإيراني، وأن يقاتل في آن واحد من أجل الكنز الملكي أو ما تبقى منه.

أما بخصوص التوقيت، فلم يتمكن سيف إلا بعسر من التوفيق بين تأريخه المبكر لحرب القادسية في ١٤ هـ والاستيلاء على المدائن في صفر سنة ١٦ هـ[2]. ولذا أرّخ، حسب ما ورد لدى الطبري، أكثر الأحداث التي جدّت بين وقعتي القادسية والمدائن في سنة ١٥ هـ. ولا شك أنه أفاض القول بسبب ذلك في عبور سواد الفرات في حين أن الرواية توحي بنفاد صبر الجيش العربي. ويقول الطبري أيضاً أن ابن اسحاق والواقدي أرّخا هذه الأحداث بالذات في سنة ١٦ هـ[3]، وبذلك كان عليهما أن يوجزا القول فيها. واتفق جميعهم باستثناء خليفة بن خياط الذي اعتمد تواريخ كانت محض خيال[4]، اتفقوا على

---

(١) الطبري، ج٣، ص ٦١٥، وج٤، ص ٢٠ - ٣٢؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٦٣ - ٢٦٤؛ أبو يوسف، كتاب الخراج، ص ٣٢. أما بخصوص الأقوال المنسوبة إلى عمر والمتعلقة بأبناء سبايا جلولاء الذين سيحضرون وقعة صفين، فليراجع الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٢٩.

(٢) الطبري، ج٤، ص ٨.

(٣) المرجع نفسه، ج٣، ص ٦١٨.

(٤) التاريخ، ج١، ص ١٠٧ حيث أرخ وقعة جلولاء في ١٧ هـ/ ٦٣٨ م.

تاريخ الاستيلاء على جلولاء في ذي القعدة ١٦ /ديسمبر ٦٣٧[١]. وبالفعل، يتفق الواقدي وسيف، حسب الطبري كما حسب البلاذري، على أن تاريخ وقعتي المدائن وجلولاء يقع في سنة ١٦ هـ[٢]. وبذلك يكون تحديد التاريخ في سنة ١٩ كما جاء عند الواقدي وذكره كايتاني، غير مقبول اطلاقاً[٣]. لا شك أنه ينبغي تأخير الاستيلاء على المدائن، كما ورد عند سيف، بضعة شهور كي تتسق سلسلة الأحداث طبق الصورة التي وردت عند المؤرخين. وعلى ذلك يبدو لنا تأريخ الاستيلاء على المدائن في جمادي سنة ١٦ / يونيو ٦٣٧، حسب ما قرّره كايتاني قريباً إلى المعقول كل القرابة[٤].

تقدم العرب على الطريق الرابطة بين الحيرة وبابل، فالمدائن، فالنهروان، ثم جلولاء في اتجاه حلوان والري. وكان لا بدّ من عبور الفرات وسورا ودجلة. نحن هنا في قلب بلاد بابل، أي في قلب السواد أو تربة الفرات، حيث تجري قنوات جانبية كثيرة رابطة بين دجلة والفرات في اشتباك مكثّف[٥] كانت تربة غنية عامرة بالفلاحين الخاضعين للدهاقين، وقد سبق أن اختار أكثر هؤلاء حلاً للتعايش مع الغالب، وفرّ الفلاحون أمام التقدم العربي. كان هذا التقدم إلى المدائن مصحوباً بغارات وقعت بين دجلة والفرات، وروي أن ١٠٠,٠٠٠ من الفلاحين وقعوا أثناءها في الأسر، في حين تحدثت المصادر وألحت في الحديث عن هروب الفلاحين[٦]. أما القيادة فهي دائماً بيد سعد في أعلى مستوى، نائبه فيها هاشم بن عتبة ابن أخيه وقد عوض في هذا المنصب خالد بن عرفة الذي عيّن قائداً للمشاة[٧]. ولم تتضمن كوكبة القادة التي أحاطت بسعد وهاشم، قادة الردة، ولكنها اشتملت على ثلاثة رجال رئيسيين هم زهرة بن الحوية قائد الطليعة، وعبد الله بن المعتّم، وشرحبيل بن السمط. وقد

---

(١) فتوح البلدان، ص ٢٦٥ ؛ الطبري، التاريخ، ج٤، ص ٣٢؛ *Skizzen*... VI, p.73; Caetani, *Chronografia Islamica, I*, p. 190; Hill, *Termination of Hostilities*..., p.111

(٢) فتوح البلدان، ص ٢٦٣ : وقال الواقدي : كان فراغ سعد من المدائن وجلولاء في سنة ست عشرة؛ ولا يقترح ابن اسحاق تأريخاً ضمن الرواية التي ذكرها الطبري، ج٣، ص ٥٧٠ ـ ٥٧٩، والبلاذري.

(٣) *Annali*, III.2, p.717، حيث نستغرب نسبته تأريخ وقعة جلولاء في ١٦ هـ، إلى ابن اسحاق، وإلى الواقدي تحديد تأريخها في ١٩ هـ.

(٤) Caetani, *Chronografia Islamica*, I, p.190.

(٥) Le Strange, *The Lands of Eastern Caliphate*, p.30.

(٦) الطبري، ج٤، ص ٥، وقيل ان ذلك وقع خلال الحصار المضروب على بهرسير في حين أن العرب كانوا يغيرون على المناطق الموجودة بين الفرات ودجلة.

(٧) الطبري، ج٣، ص ٦١٩. وروى البلاذري خبراً نعوانة مفاده أن خالداً كلف بالاستيلاء على ساباط : فتوح البلدان، ص ٢١٣. وكان خالد قائداً بالنيابة في معركة القادسية وحليفاً لزهرة،عشيرة سعد : ابن سعد، الطبقات، ج ٢، ص ٢١.

روى سيف أن «كل المسلمين فارس مؤدٍ»[١]. وذلك قد يعني أن المشاة ينتمون إلى صفوف الأساورة والحمراء. وبقي سعد مع أكثر الجيش، في المؤخرة على عادته، لكنه كان يلحق بانتظام بالمقدمة.

تكللت المرحلة الأولى في نَرْس[٢] بنصر صغير على بصبهري. وفي بابل وهي المرحلة الثانية تجمعت بقايا القادسية ممن أفلت من القتل مع قادتهم وهم: النخيرجان، ومهران الرازي، والهرمزان، والتحق بهم بصبهري، وتولى عليهم الفيرزان قائداً أعلى، وكان سابقاً منافساً لرستم[٣]، واتضح بذلك العزم الفارسي على التصدي. ولم يعتقد زهرة أنه كان يستطيع هزمهم بمفرده، فطلب المدد من سعد الذي وجه إليه عبد الله وشرحبيل، ثم هاشماً مع باقي الجيش الذي وصل بعد أن تم النصر[٤]. كان نصراً سريعاً، تفرق بعده أكثر القادة الفرس، فجارى كل واحد منهم أطماعه أو انساق وراء المصلحة المحلية للإقليم الذي كان يمثله. فعاد الهرمزان إلى الأهواز، ورجع الفيرزان إلى نهاوند لاستغلال موارد هذا الإقليم. وبقي النخيرجان ومهران وحدهما للدفاع عن المدائن[٥]. ويدل تفكك القيادة هذا على عدة عوامل، منها أن السلطة الملكية تلاشت تماماً أو كادت، وأن الاقليمية عادت إلى الظهور في عالم إيراني منحلّ مهدد، وقد تأكدت دون شك حال انفجار أزمة الخلافة على الملك، وبلغت طلائع الجيش العربي بهرسير غرب دجلة بعد صدام قصير في كوثى. وتجدد المشهد ذاته في مواطن القتال الأخرى إذ حالما وصل زهرة مع مقدمة الجيش إلى ساباط، طلب دهقانها الصلح، بعد أن قضى زهرة على الكتيبة الخاصة لكسرى بوران، ولحق به هاشم وخاض القتال[٦]، وأخيراً وصل جميع الفرسان المرافقين لسعد أمام بهرسير وضربوا عليها حصاراً دام شهرين (أواخر سنة ١٥ وبداية سنة ١٦ من الهجرة)[٧]. وخلال هذا الحصار اكتسح الجيش العربي السواد فيما بين الفرات ودجلة، ولعل الاتفاق قد تم أثناءه بخصوص وضع الفلاحين وأراضي هذه المنطقة.

---

(١) المرجع نفسه، ج٣، ص ٦١٩.

(٢) خليفة بن خياط، التاريخ، ج١، ص ١٠٣، لا بُرس بالباء، كما جاء بطبعة القاهرة لـ تاريخ الطبري، ج٣، ص ٦١٩. ذكر خليفة أن الطريق المسلوكة هي نرس ـ دير كعب ـ كوثى. وقد ذكر البلاذري مرتين كوثى وساباط: فتوح البلدان، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣، لكن لم يتحدث أي واحد منهما عن بابل.

(٣) الطبري، ج٣، ص ٦٢٠.

(٤) المرجع نفسه، ج٣، ص ٦١٩.

(٥) الطبري، ج٣، ص ٦٢٠. في الامكان أن يكون لكل قائد جيش خاص به.

(٦) الطبري، ج٣، ص ٦٢٢ ـ ٦٢٣؛ فتوح البلدان، ص ٢٦٢.

(٧) الطبري، ج٤، ص ٥؛ فتوح البلدان، ص ٢٦٢، حيث جاء في رواية غير مقبولة أن الحصار استمر مدة تتراوح بين تسعة أشهر ونهاية عشر شهراً. والملاحظ أن الملك كان بالمدائن آنذاك.

إن حصار بهرسير سبق الدخول إلى المدائن وكان تمهيداً له. وكانت بهرسير ذاتها جزءاً من مجموعة المدن المكوّنة للمدائن الكبرى، فضلاً عن إمكان اعتبارها مفتاح المدائن - طيسفون بالذات، بتسمية «المدائن الدنيا» تجاه «المدائن القصوى»[1]. لقد تكون مركّب المدائن أصلاً انطلاقاً من مدينتين[2] هما سلوقية غرب دجلة المؤسسة بين ٣١٢ و ٣٠١ قبل الميلاد، وطيسفون شرقاً (٢٢١ ق.م.) وهي وريثة أوبيس Opis . لكن في حين أن المدينة الواقعة شرقاً تطورت وأدمجت القرى المجاورة، واتسعت أيضاً بفضل إنشاء مواطن جديدة (مثلاً رومية حيث وطّن المهاجرون من سلوقية الشام في ٥٤٠ بعد الميلاد، والتي لا ينبغي أن تشتبه علينا بسلوقية توأم طيسفون)، فإن المدينة الواقعة إلى الغرب التي كانت من أصل يوناني، تبدو قد تقلصت. ولم يبق فعلاً منها سوى الجزء الجنوبي الذي أعيد تسميته به - أردشير، من طرف الساسانيين[3]. ويطابق هذا الاسم الصيغة المعربة «بهرسير» المشتقة من الأرامية، وكان يصل جسر بين بهرسير والمدائن وقد مكّن الفرس من إخلاء مدينة بهرسير والاتجاه إلى الشاطىء الشرقي، دون أن يتفطن العرب إلى ذلك. ثم حطموا الجسر وسحبوا كل السفن فدخل العرب مدينة قفراء. وشاهدوا عن بعد القصر الأبيض لكسرى[4]، وكان رمزاً خيالياً للعظمة والحضارة الفارسية. إنها للحظة مشهودة في خضمّ مغامرة خاطفة. ولا ريب أن الفرس فكروا في الاستفادة من مهلة ما، في المدائن الشرقية، حتى يرتبوا أمورهم، ويضمنوا إجلاء منظماً للعائلات والكنوز الملكية الهائلة. فوجه يزدجرد أهل بيته إلى حلوان بعد أن تم الاستيلاء على بهرسير[5]. لكن العرب عجلوا باحتلال المدائن، بصورة لم يكن يتوقعها الفرس، وقصروا الإقامة في بهرسير، فاتجه العمل العسكري بأكمله عند ذلك إلى السباق نحو الغنيمة إذ وجب اللحاق بها قبل أن تطير.

وتم عبور دجلة عبوراً ملحمياً على الخيل[6]. توجه في البدء عاصم بن عمرو عاجلاً في الطليعة مع ٦٠٠ رجل منهم ٦٠ مقاتلاً خرجوا للاستكشاف فنجحت العملية، وفرض عاصم رقابته على ضفة النهر بعد الفراغ من مناوشات صغيرة، وسرعان ما يلحق به أكثر

---

(١) الطبري، ج٤، ص ٨.

(٢) Streck, art. «Mada'in», E.I/1; Le Strange, *op. cit.* p.33ff. Hertzfeld, *Archaeologische Reise*, II, p.46-76. وأورد ياقوت في معجم البلدان، ج٥، ص ٧٤، قائمة منقرضة لمختلف المدن، كما أورد اليعقوبي في كتاب البلدان، ص ٣٢١، قائمة لها.

(٣) (واه) حسب Streck و (بيه) حسب Le Strange، وهو لا يعني أردشير الطيب بل بيت أردشير.

(٤) الطبري، ج٤، ص ٨. لا ينبغي الخلط بين القصر الأبيض والإيوان، لكن كليهما كانا على الشاطىء الشرقي.

(٥) الطبري، ج٤، ص ١٣.

(٦) المرجع نفسه، ج٤، ص ٩؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٦٣؛ الأخبار الطوال، للدينوري، ص ١٢٦.

الجيش بأمر من سعد الذي كان حاضراً بنفسه. إنها لمفخرة بالنسبة لأولئك العرب الصحراويين أن يتخلصوا من خوفهم من الماء، ويتحدّوا عظمة دجلة وزبدها وموجها الأجاج، ولم يفت سيفاً طبعاً أن يفاخر «بيوم الماء»[1]، لكن الواقعة وردت في أكثر الأخبار. بعد الوقعة وفي هذه المرة أيضاً تشتت السكان، وفرّ الملك وكان لفراره طابع الفاجعة، ودخل الجيش العربي مدينة قنراء واقتحم القصر الأبيض والإيوان بعد استسلام المدافعين، وأقام سعد صلاة الفتح في الإيوان بين التصاوير الحائطية والتماثيل[2].

وبعد قرنين من ذلك جاء البحتري متأملاً منشداً شعره أمام الإيوان، فأهدى الدولة المنقرضة درة من درر الشعر العربي[3]. واستولى الفاتحون على الغنيمة التي كانت تعادل نصف أموال الملك المقدرة بثلاثة مليارات من الدراهم[4]. وكانت هذه الذخائر ثمرة لتقليد طويل مقام على خزن المال زاد تأكداً مع السياسة الخرقاء التي سار عليها أبرويز. وقد سلمت أربعة أخماس الغنيمة إلى الرجال وتجاوز نصيب الفرسان مرتين أو ثلاث مرات نصيب المشاة (الحمراء المتحالفين فقط أم أن هناك مشاة من العرب؟)[5]. ووجه الخمس المتبقي إلى المدينة بعد أن أجاز سعد بعض القادة. ووافق المقاتلون على عدم اقتسام كسوة الملك وجواهره، وبساط كبير مرصّع بالأحجار الثمينة، وقرروا توجيه كل هذا إلى الخليفة[6]. وقد روى سيف حكايات شيّقة بهذا الصدد، فقال مثلاً إن الغالبين العرب ظنوا الكافور ملحاً، واستبدلوا بالتساوي الآنية الفضية بالآنية الذهبية[7]. أما بالمدينة وحول عمر فقد ساد الوجوم والعبث، والانبهار الكبير والتذكير بزيف الدنيا.

سيتبين أن الاستيلاء على المدائن كانت له أهمية قصوى من حيث منطق الفتح العربي ومن حيث التنظيم الآتي للبلدان المفتوحة. واستقر بها العرب بصورة مؤقتة[8]،

---

(١) الطبري، ج٤، ص ١٣.

(٢) الطبري، ج٤، ص ١٥ ـ ١٦: وأقيمت بعد صلاة سعد المفردة أول صلاة جامعة في العراق، والتاريخ المحدد لها هو صفر من سنة ١٦ هـ.

(٣) في ٢٩٠ هـ. راجع قصيدته المشهورة التي تضمنتها مقدمة ديوان الحماسة للبحتري، ط القاهرة، ١٩٢٩، ص: س إلى ف.

(٤) الطبري، ج٤، ص ١١.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٠، زعم سيف أن عدد الفاتحين كان ٦٠٠٠٠ وأكد أنهم كانوا جميعاً من الفرسان وأن نصيب كل واحد منهم كان ١٢٠٠٠ درهم.

(٦) المرجع نفسه، ص ٢٠ ـ ٢١.

(٧) المرجع نفسه، ج٤، ص ١٧؛ الأخبار الطوال، ص ١٢٧؛ فتوح البلدان، ص ٦٣.

(٨) الطبري، ج٤، ص ٢٠ ـ ٢١، قسمت دور المدائن بين الفاتحين بعد أن استولوا على الغنيمة كلها التي كانت موجودة فيها.

فصارت نقطة تعتمد لتحديد البلاد التي فتحها جيش العراق عملاً بالمبدأ القائل إن لكل جيش مجالاً ترابياً يصبح ملكاً له ومن حقه ومكسبه. فكان مهماً أن يُعرف مَنْ كان حاضراً في تلك الفترة الممتازة التي كانت خلالها المدائن مرحلة: ذلك أن [illegible] حقاً مكتسباً في شيء [illegible] في [illegible] لكن أيضاً في مكاسب ثابتة في المستقبل. ومن المدائن [illegible] الذي ستفتتحه الكوفة فيما بعد، بصفتها وريثة للمدائن بالذات. وبهذا المعنى ينبغي فهم قول سيف: «فتوح المدائن السواد وحلوان وماسبذان وقرقيسياء»[1] وهذا القول الآخر: «ولي سعد بن مالك على الكوفة بعدما اختطت ثلاث سنين ونصفاً سوى ما كان بالمدائن قبلها، وعمالته ما بين الكوفة وحلوان والموصل وماسبذان وقرقيسياء إلى البصرة»[2]. هذا وسنعود إلى طرق مشكل امتداد فتوحات أهل المدائن وقد أصبح أكثرهم من أهل الكوفة[3]، لكي ينبغي التأكيد على دور الاستيلاء على المدائن والإقامة فيها كعقدة مجاليّه - زمنية في النسق العربي، ومرحلة لزمنية تاريخية تندرج في تسلسل معين لكنها تفرض مسبقاً وجود مجال وحقوق.

جلولاء (١٦ هـ/ ٦٣٧ م): المعركة الأخيرة من أجل العراق

كان الاستيلاء على المدائن بلا قتال. أما جلولاء فهي معركة مهمة، وتكاد تكون حدثاً تاريخياً في المشروع العربي الموجه ضد الساسانيين، ومعركة أخيرة. لا شك في أن الغنيمة كانت أحد الحوافز بالنسبة لبعض الفاتحين، فقد اكتسبت وقعة جلولاء مظهر الملاحقة وحتى ما يشبه السباق من أجل الملاحقة. لكن كان الأمر بالنسبة للفرس يتعلق بالدفاع عن أملاكهم وحماية العبور إلى الجبال، وإلا فلا يفهم الغرض من اعتصامهم بهذا المكان قبل لجوئهم إلى النجد الإيراني. كان معسكر جلولاء يشكل نقطة قصوى لتجمع الفرس قبل كارثة تشتتهم الذي نجم عنه خضوع بلدهم[4].

كانت جلولاء بالفعل آخر مدينة بالسهل في اتجاه الجبال[5]. وكانت مفترقاً لطرق الشمال والشرق، الطرق المؤدية إلى آذربيجان وطريق الجبال فخراسان[6] فاكتسبت بذلك

---

(١) الطبري، ج٤، ص ٤٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٠.

(٣) الطبري، ج٣، ص ٦١٥.

(٤) الطبري، ج٤، ص ٢٤ - ٣٥؛ فتوح البلدان، ص ٢٦٤ - ٢٦٥؛ الأخبار الطوال، ص ١٢٧ - ١٢٩؛ خليفة بن خياط، التاريخ، ج١، ص ١٠٧ - ١٠٨.

(٥) Le Strange, *op.cit.*, p.62. p.62.

(٦) الطبري، ج٤، ص ٢٤.

أهمية الحاجز والحصن، من هنا تجمُّعُ الفرس وإسراعُ العرب الكبير للتحول إلى هذه النقطة. من هم هؤلاء الفرس الذين اعتصموا في جلولاء، بقيادة مهران أو خرزاد؟ كانوا عبارة عن النواة الأخيرة المتبقية من جيش القادسية التي سبق أن تخلت عنها فضائل فضلت الانسحاب إلى النجد الإيراني، وروي أن أمداداً قادمة من حلوان وما والاها التحقت بها أيضاً(١). لقد أجلي الأهالي إلى خانقين، بينما حط الملك رحاله بحلوان(٢)التي كانت أول ممرّ جبلي بالجبال(٣)، وكانت تقع تماماً على التراب الإيراني لا في العراق كما قيل، ولذا يحدونا الشعور الجلي أن الفرس عمدوا إلى اختيار موقع جلولاء ليكون العراق مسرحاً لآخر معاركهم من أجل العراق وكذلك لحماية بوّابة فارس: كانت جلولاء أهم من المدائن من حيث الأهمية الاستراتيجية.

ولم يخطىء العرب في تقديرهم ولذا وجهوا هاشم بن عتبة نائب القائد العام برفقة ١٢٠٠٠ فارس شكلوا نخبة المقاتلين، ونحن نستشف هذا الأمر من رواية الأحداث بل إن الروايات تؤكد ذلك(٤). وخرج إلى القتال قادة من طراز جرير بن عبد الله البجلي والقعقاع بن عمرو، وقد تولوا القيادات في حين أن زعماء الردة لم يقوموا إلا بالمساهمة في القتال. لقد ظهرت معركة جلولاء في نظر العرب بمظهر المعركة الجدية التي كانت محسومة سلفاً، نظراً للموقف العسكري العام، وهو ما يفسر أن سعداً لم يخرج بأكثر الجيش من المدائن، فوجه جيشاً مهماً لا كل الجيش. ولكن يمكن القول إن ثمة مجموعة شاركت في القتال بغية العمل من أجل كسب حقوق معنوية لاحقة، لأن الحضور بجلولاء اعتبر مخولاً للفيء بمعناه الضيق (التمتع بالأراضي المغتصبة من أملاك التاج الفارسي)، ولأن الغنيمة المتكدسة كانت عظيمة.

لا فائدة من الإلحاح على العملية العسكرية وتفاصيلها. لم تكن جلولاء محصنة أصلاً: فوجب تحصين المعسكر وإحاطته بالوسائل المتاحة لكون الفرس سلكوا حتماً مسلكاً دفاعياً، فلم يتمكنوا من الصمود طويلاً، وحاولوا الهجوم، فكانت الهجمة الأخيرة هي التي شكلت معركة جلولاء بالذات. كانت معركة حامية إذا ما صدقنا سيفاً الذي عاد إلى وصفه الملحمي جاعلاً من جلولاء رَجْعاً للقادسية إلى حد ما(٥): كان كايتاني محقاً عندما أشار إلى

---

(١) فتوح البلدان، ص ٢٦٤؛ الأخبار الطوال، ص ١٢٧؛ الطبري، ج٤، ص ٢٧.

(٢) الأخبار الطوال، ص ١٢٧، فتوح البلدان، ص ٢٦٤.

(٣) على الطريق الكبرى لخراسان: اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٢٧٠؛ ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص ١٦٤؛ Le Strange, *op. cit.*, p.63.

(٤) الطبري، ج٤، ص ٢٤ و ٢٦: كان القعقاع يقود الطليعة؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٦٤.

(٥) الطبري، ج٤، ص ٢٦ - ٢٧.

مبالغاته في هذا الصدد. ثم بدأ تقتيل الفرس، واستولى العرب على غنيمة مهمة وحتى على بيت المال الساساني ذاته[١]، وقد ألحت بعض الروايات على سبي النساء، وروي أن نساء جلولاء كُنّ بداية للتمازج العربي الفارسي[٢]. ويفهم من التأكيد على هذا الحدث بأن الفرس كانوا دائماً يعملون على إبعاد نسائهم عن أطماع الغزاة، ويبدو أن أكثر النساء أبعدن على عجل إلى خانقين التي تم الاستيلاء عليها بعد قليل. ينبغي تسمية مجموع العمليات التي حدثت ما بين معركة المدائن والاستقرار بالكوفة بمرحلة جلولاء وهو اسم الحدث الرئيسي، وذلك بالنسبة للإطار المتعلق بالغنيمة، واستحقاقها، وبخصوص كل امتياز معنوي أو قانوني: هذا ما توحي به النصوص ظاهراً.

ماذا كانت هذه العمليات؟ لنقل بداية إن استيلاء جرير على خانقين، وسيطرة هاشم على سواد شرقي دجلة هما حدثان لا مجال للشك فيهما[٣]، على أن احتلال حلوان وشرقي الجزيرة يطرح مشكلاً. إن البلاذري هو الذي يبرز نشوب معركة خانقين[٤]، كما أوضح بدقة أكبر من دقة سيف، دور هاشم في إخضاع شرقي السواد، وقد كان عملية استيلاء أكثر منه عملية عسكرية. هذا السواد الشرقي كان له الاتساع ذاته وسواد الفرات، وقد أثر فيه كثيراً الحضور الساساني وذكريات هذا الحضور والإنجازات المعمارية الساسانية، وهو يضاهي في الثراء الزراعي السواد الآخر. وقد أسر ١٣٠ ألفاً من فلاحي هذه الجهة ثم أخلي سبيلهم سريعاً[٥] كما سنرى، وبذلك عاد الفارون إلى قراهم.

أما حلوان، المدينة الفارسية، مدينة الجبال المشرفة على الفج والتي تمر منها الطريق الكبرى نحو الشرق، فقد غادرها الملك بعد وقعة جلولاء متوغلاً داخل البلاد. فهل استولى عليها القعقاع لكي يقيم فوراً ثغراً أي حامية خارج الميدان المفتوح لكنها ساهرة على أمنه، والثغر عبارة عن امتداد، وهو بالمعنى الحرفي ثلمة (ينبغي سدها) وبمثابة المدينة الحدودية المطلة على العدوّ والمغايرة للمصر أو المدينة ـ المعسكر؟ إن سيفاً يعلن ذلك[٦] كما أن المصلحة الاستراتيجية تتطلب مثل هذا الأمر، ولم ينبس البلاذري بكلمة عن ذلك لكنه

---

(١) الطبري، ج٤، ص ٢٩؛ الدينوري، ص ١٢٩؛ فتوح البلدان، ص ٢٦٥؛ خليفة بن خياط، ج١، ص ١٠٨. كانت الغنيمة مهمة جداً.

(٢) الطبري، ج٤، ص ٢٨: سُبيت أم الشعبي بجلولاء؛ الدينوري، ص ١٢٩.

(٣) الطبري، ج٤، ص ٢٨.

(٤) فتوح البلدان، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(٥) الطبري، ج٤، ص ٣٠.

(٦) المرجع نفسه، ص ٢٨.

يتحدث عن وجود والٍ عربي بحلوان في موضع آخر من كتابه[1].

وعلى النقيض من ذلك، تنسب روايات ملحّة إلى عمر رفضه رفضاً تاماً المساس بأرض فارس، معبراً عن عزمه على الاكتفاء بالسواد[2]. ويبدو جيداً، فضلاً عن ذلك، أن المقاومة الفارسية هدأت وسبب ذلك قد يرجع إلى أن الفرس حصلوا على تطمينات من جانب العرب بالتوقف عند حدود العراق. لكن حلوان كانت توجد في إيران. فهل أفهمهم العرب، وهل فهم الفرس أن ذلك الأمر يشكل استثناء يعود إلى موقع حلوان وضرورتها لحماية العراق من وجهة نظر العرب؟ فالدينوري يقدّم وجود العرب بحلوان والأهواز على أنه السبب في الرد الفارسي الذي مهّد لتحرك الهرمزان كما لمعركة نهاوند[3]، لكن العمليات العربية في الأهواز لم تبدأ إلا سنة ١٧ هـ. وهي تنتهي سنة ٢١ / ٦٤٢ بالاستيلاء على تستر. أم هل وضع الجيش العربي يده على حلوان ضمن عمل منفصل متأخر بالنظر لمعركة جلولاء وربما بعد الاستقرار بالكوفة؟ يبقى السؤال بدون جواب.

وتتضح الأمور أكثر بخصوص شرقي الجزيرة لأن رواية سيف غير قابلة للتصديق. يريد سيف حملنا على أن نصدق أن الجيش العربي انقسم نصفين في المدائن، فاتجه قسم منه إلى جلولاء، واتجه قسم آخر إلى شرقي الجزيرة، ولا سيما الموصل التي وقع اقتحامها والاستيلاء عليها سنة ١٦ هـ[4]. ويكون هذا القول في رأي هيل بمثابة التعويض بالنسبة للكوفيين الذين بقوا في الواقع في حالة فراغ طيلة أربع سنوات و «لم يحاولوا فتح الجزيرة الشرقية رغم خلوها من العوائق الطبيعية وفراغها من قوات معادية»[5]. ذلك أن الجزيرة فتحت في جزئها الغربي خاصة الذي كان أكثر ثراء، انطلاقاً من الشام سنة ١٩ هـ. ولم يستول عتبة بن فرقد القادم من العراق، على الموصل وتكريت إلا سنة ٢٠ هـ، مع أن هرثمة بن عرفجة الذي كان أحد الشاميين الذين شاركوا في فتح الجزيرة بصحبة عياض بن غنم هو الذي تولى تخطيط الموصل[6]. وستقع هذه المدينة في فلك الكوفة، لكن يمكن القطع بالقول إن إخضاعها لم يقع إثر وقعة جلولاء. فلا يمكن إذن إدراج الموصل، وقرقيسيا، ومن باب أحرى ماسباذان - التي استولى عليها أبو موسى بعد نهاوند[7] - ضمن

---

(١) فتوح البلدان، ص ٣٢٩: المقصود هو عزرة بن قيس البجلي بالذات.

(٢) الطبري، ج٤، ص ٢٨.

(٣) الأخبار الطوال، ص ٢١٩.

(٤) الطبري، ج٤، ص ٣٥ - ٣٦.

(٥) Hill, *ouvr. cit.*, pp. 94-97.

(٦) فتوح البلدان، ص ٣٢٧ - ٣٢٨.

(٧) المرجع نفسه، ص ٣٠٤ - ٣٠٥.

فتوحات المدائن لسنة ١٦ هـ، خلافاً لمزاعم سيف. ولم يبق إلا حلوان التي تطرح علينا مشكلاً. يعني كل هذا أن العرب ركزوا جهودهم بعد وقعة القادسية على طرد الساسانيين فقط، وإخضاع وادي دجلة والفرات دون التقدم خلف ذلك الخط سواء في اتجاه الجزيرة أم في اتجاه الأرض الإيرانية. وتوارت الغاية العسكرية لصالح قضايا التنظيم والاستقرار، كما أن اختيار الكوفة بالذات، بدل المدائن كمركز للسكنى ينبيء بالرغبة في الوقوف عند حد المواقع المكتسبة.

تنظيم السواد:

لن يتم إنشاء الكوفة قبل نهاية سنة ١٧ هـ وبداية سنة ١٨[١]، أي بعد أربعة عشر شهراً من احتلال المدائن[٢]، وبعد سنة من انتصار جلولاء بحيث أن سنة ١٧ بقيت سنة استراحة وتفكير وتنظيم. لقد تحول عمر إلى الشام في سنة ١٧ هـ، لكي ينظم أوضاع المقاتلة[٣]، ويحل مشاكل الدفاع والاستقرار والأعطيات، لكن هل قام بذلك بالنسبة إلى كل الأقطار المفتوحة بما فيها العراق، عند تحوله هذا؟ لا تؤيد النصوص ذلك بل هي تقول العكس، بمعنى انه تمّ فضّ المسائل المعلقة بالشام ولم يفض سواها[٤]. وعلى النقيض من ذلك يحثنا الوضع العام على الاعتقاد بأن التشاور المستمر بين عمر وسعد خلال عام ١٧، أدى إلى إعداد وضبط النظام الشامل الذي سيخضع له العراق[٥].

فبعد أن تبلور الوضع، تحول أكثر الجيش المعسكر بالمدائن إلى الكوفة العتيدة. ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك، لأن الاتجاه إلى اختيار تمركز الجيش بمعسكر ارتبط باختيارات مسبقة أخرى هي: عدم اقتسام البلاد المفتوحة بقوة السلاح، وإبقاء الفلاحين على أراضيهم والاستمرار في العمل بالمياكل الجبائية الساسانية، والعمل بفكرة تسديد نفقات المقاتلين بواسطة العطاء. كما أن الصلة واضحة بين هذه الاختيارات الأولى التي جدّت في البلاد المفتوحة عملاً برأي عمر، والانشاء المركزي العام للديوان، وقد أدرك

---

(١) الطبري، ج٤، ص ٤٢، قد اعتمد خبراً أورده الواقدي؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٧٤؛ Caetani, *Annali*, III,2, p.813-33; *Chronografia...*, I,p.199. أرّخ سيف إنشاء الكوفة في بداية سنة ١٧، وهذا تاريخ غير مقبول: الطبري، ج٤، ص ٤٠. ويبدو لنا أن آخر سنة ١٧ أكثر اقتراباً من المعقول من بداية سنة ١٨ وهو التاريخ الذي أخذ به شعبان، انظر: Shaban, *Islamic History*, p.51.

(٢) الطبري، ج٤، ص ٤٢

(٣) المرجع نفسه، ص ٥٩. لم يتجول عمر إلاّ مرة واحدة في هذه السنة، بسبب انتشار الطاعون.

(٤) المرجع نفسه، ج٤، ص ٦٤.

(٥) البلاذري، ص ٢٦٦ - ٢٦٨؛ الطبري، ج٤، ص ٣٠ - ٣٢.

سيف هذه الصلة لكن لا يمكن موافقته على تأريخ ذلك في سنة ١٥[١]. وهو بهذا يناقض نفسه لأنه يعيد الكلام في الأمر بعد حرب جلولاء[٢] فيفصّل لنا أوامر عمر الجديدة ومقرراته بخصوص الفيء والجزية والخراج الخ... على أن أخباره ثمينة المحتوى. إن الروايات العراقية الأكثر قدماً وهي روايات مجالد والشعبي جاء بها تاريخ تأسيس الديوان بآخر سنة ١٧، أي بعد إنهاء فتح الشام والعراق، وبعد جباية محاصيل الخراج الأول[٣]؛ أما الروايات المدنية كما جاءت عند الواقدي والزهري، فقد اقترحت تاريخ محرم سنة ٢٠/ ٦٤٠[٤]. الواقع أن هذا الخلاف يفسر كثيراً من الأمور. إن الديوان كسجلّ لتسجيل أسماء مستحقي العطاء، عملاً بالترتيب الذي تصوره عمر الذي انطلق من المغامرة الإسلامية بأكملها منذ وقعة بدر، كوثيقة ضبطتها وحددتها الكتابة، والديوان كمؤسسة لنسق توزيعي عام، تقرر إنشاؤه على الأرجح سنة ٢٠/ ٦٤٠. لكنه بهذه الصفة كان امتداداً معقلناً للاختيارات التجريبية التي جرت في البلدان المفتوحة فور الفراغ من القتال، أي في سنة ١٧/ ٦٣٨، بعد أن استقرت الأمور، بحيث كان صعود من أسفل إلى أعلى، لا العكس. وهذا ما يفسر أن البلاذري قسم إلى فصلين متميزين الأحكام التي يخضع لها السواد ومؤسسة الديوان ذاتها[٥]. وقد فعل ذلك كبار الفقهاء، منهم أبو يوسف[٦] وأبو عبيد بن سلّام[٧]. فأصبح الديوان الكتابي عملاً منسجماً جاء بعد الوضع الناشيء عن القرارات الحية، وشمل بالخصوص النخبة الإسلامية بالمدينة وأقرها على رأس النسق. فما هي هذه الاختيارات الأساسية بالنسبة للعراق؟ يعتمد قسم من جملة المواد التي وصلتنا على الظروف التاريخية السائدة في ذلك العصر ـ نعني رواية سيف والاخباريين ـ ووقف قسم آخر موقف الفقهاء، فقدم الأمور تقديماً منطقياً إسلامياً. ولا يوجد أي سبب لرفض رواية دون أخرى إذ لو عمل عمر طبق تصميم سياسي قبل غيره، فلا يُتصور كيف أنه فعل ذلك متجاهلاً تعاليم القرآن التي حددت أعمال الرسول.

ولنترك جانباً المدن القليلة التي تمتعت بعهد وكانت مدناً ثانوية تماماً، علماً أنها فسخت

---

(١) الطبري، ج٣، ص ٦١٦ ـ ٦١٩.

(٢) المرجع نفسه، ج٤، ص ٣١ ـ ٣٣.

(٣) فتوح البلدان، ص٤٣٥.

(٤) المرجع نفسه، ص ٤٣٦.

(٥) وضع جلولاء مباشرة ضمن الفصل المتعلق بفتح السواد، ص ٢٦٥ ـ ٢٧٤، والديوان في آخر كتابه، ص ٤٣٥ ـ ٤٥١.

(٦) أبو يوسف، كتاب الخراج، على التوالي، من ص ٢٣ إلى ص ٢٩؛ من ص ٤٢ إلى ص ٤٧. ترتبط مؤسسة الديوان في هذا الصدد بفكرة العطاء لصحابة الرسول.

(٧) كتاب الأموال، طبعة القاهرة، ص ٥٧ وما بعدها و ص ٢٢٣ ـ ٢٠٢.

هذا العهد لا محالة، ... تراجع العرب مؤقتاً، فمُنح العهد من جديد لبعض المدن. إن فتح العراق وقع عنوة على حساب سيد قديم ـ الملك الساساني ومن والاه ـ لكن أكثر الأشخاص العائشين في العراق كانوا غير إيرانيين، كانوا أنباطاً كما سموا في اللغة العربية وكانوا من الساميين الآراميين. وقد أرغموا منذ ألف سنة على البقاء في وضع الفلاحين يدفعون الطسق أو الخراج والجزية: كانوا من المزارعين والعمال والفلاحين، فشكلوا عامّة الأرياف الضخمة التي قدر عددها بـ ٥٥٠٠٠٠ شخص، حسب تقدير عثمان بن حنيف الذي أحصاهم وختم عليهم كما روي[١]. وبذلك كان في العراق صنفان من الأراضي: أراض كانت على ملك التاج وكبار الملاك الإيرانيين الذين حاربوا العرب، وأراض استقر فيها أكثر الفلاحين في البلاد بإشراف الدهاقين. وقد استولى الجيش العربي على الصنفين، لأن عدداً كبيراً من الفلاحين فروا أمام تقدم هذا الجيش. وحسب السنن العربية للحرب فالأرض والرجال[٢] تعتبر غنيمة يقتسمها المقاتلة. وورد ذلك أيضاً في تعاليم القرآن الذي ينص على أن كل ما أخذ عنوة يعتبر غنيمة تسلم أربعة أخماسها إلى المقاتلة والخمس الباقي يسلم إلى الله ورسوله أي إلى الخليفة[٣]. ويحدد القرآن الفيء كهبة من الله لم يكن من اللازم أن يحصل قتال من أجله ولذا فهو يعود كاملاً إلى الله ورسوله[٤]. ومن المعلوم أن النبي استولى على أموال بني نضير لمساعدة المهاجرين المعوزين إذ اعتبرها فيئاً[٥]. فحل التقسيم كان يبدو حتمياً إذن في العراق لكن عمر اختار عدم التقسيم. فثار نقاش كبير في المدينة حول هذا الموضوع: تمسك عبد الرحمن بن عوف وبلال خاصة تمسكاً شديداً بمبدأ التقسيم، وعارضه عمر، وكان علي أول المؤيدين له، وكذلك طلحة، وعثمان، وعبد الله بن عمر، ومعاذ بن جبل[٦]. ولجأ الخليفة إلى تأويل اجتهد فيه شخصياً لإحدى آيات سورة الحشر تعلقت بالفيء فتعرضت لأوضاع المهاجرين والأنصار، وجاء فيها بعد ذكر هؤلاء ما يلي: ﴿والذين جاؤوا من بعدهم﴾ فاعتبر عمر أن الآية تقصد الأجيال القادمة[٧].

---

(١) فتوح البلدان، ص ٢٧٠؛ يبدو أن سعداً لم يجد سوى ١٣٠,٠٠٠ وراء دجلة بعد جلولاء: الطبري، ج٤، ص ٣٠.

(٢) الطبري، ج٤، ص ٣٠. روي أن نصيب كل مقاتل كان ثلاثة رجال.

(٣) لا يميز القرآن بين الأموال المنقولة والعقارية، سورة الأنفال، الآية ٤١، بل عمر هو الذي ميز بينها.

(٤) سورة الحشر، الآية ٦ إلى ١٠.

(٥) سيرة ابن هشام، ط ١٢٧٦ هـ، ص ٦٥٢ وما بعدها. لكن كلمة فيء لها أيضاً معنى أعم يدل على الغنيمة.

(٦) دار النقاش أساساً بخصوص الشام، لكن أيضاً في شأن العراق: أبو يوسف، كتاب الخراج، ص ٢٦؛ أبو عبيد بن سلام، كتاب الأموال، ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٧) لكن مثل هذا التأويل الذي استهدف اقحام المهاجرين والأنصار والقادمين الجدد بفيء بن نضير، تأويل غير صحيح بداهة لأن الأنصار وغيرهم أقصوا عنه: ذكرهم القرآن محرضاً إياهم على إخراج ما في قلوبهم من =

من المهم أن نلاحظ، انطلاقاً من فكرة الاستمرارية الزمنية للأجيال المسلمة، أن عمر اعتبر الثروة العقارية في العراق فيئاً، حسب ما ذكر الفقهاء. ومضمون ذلك ليس أن الدولة تتصرف بها حسب مشيئتها، بمعنى أن تنزعها من المقاتلة، بل معناه أن على الدولة أن تقوم بدور الوساطة، وتبتكر حلاً وسطاً يجعل من الفيء ملكاً مشاعاً للمجتمع الإسلامي، فيشمل بداية وقبل كل شيء كل الذين قاتلوا من أجله. وبهذا المعنى يقع الفيء في الوسط، بين الغنيمة المكوّنة من الأموال المنقولة والقابلة للتقسيم، والخاضعة لدفع الخُمس إلى بيت المال[١] وبين التصور القرآني للفيء الذي يوكله تماماً إلى مشيئة الرسول، فصار الفيء نوعاً من الوقف تتصرف به الدولة لمصلحة الجميع، الحاضرين منهم والغائبين[٢]. ووافق أفراد الجيش على ذلك بعد أن استشيروا على تصور الأمور هذا. وأفضل من ذلك: فيما يخص الأراضي الملحقة بالتاج الساساني والمحاربين الإيرانيين والمعروفة **بالصوافي**، لكن أيضاً **بالفيء** أكثر تحديداً، فقد خُوِّل لهم تقاسمها، لكنهم فضلوا عدم التقسيم. وقد ذكر سيف أنهم فهموا أن تفرقهم في السواد قد يضرّ بالتأكيد بوظيفتهم الحربية كما يضر بعزمهم على البقاء معاً[٣].

لنتمعن في الأمور عن كثب. عاد الفلاحون سكان المنطقة الواقعة بين الفرات ودجلة وكذلك فلاحو ما وراء دجلة، إلى أراضيهم بعد تبادد الرعب ولا سيما أنهم شُجعوا على العودة. فنجوا بداية من العبودية حيث أن عودتهم قامت مقام العهد وبقوا على حالهم في استغلال الأرض[٤]. وكل الذين لجأوا إلى الفرس ولم يعودوا عن طيب خاطر، استُثنوا من

= ضغينة بسبب استثنائهم بالذات من الفيء. يلاحظ بلاشير: Blachère, *Coran. III, p.979*، أن الآية العاشرة لا ارتباط لها بالآية السابقة من الوجهة النحوية. وعندي أن الأمر ربما تعلق بسوء تأويل للقرآن أقدم عليه أبو يوسف، ونُسب إلى عمر لا غير. ويُمكن تفسير ذلك بكون مدرسة الرأي العراقية لم تكن على علم كاف بالظروف التاريخية التي وقع فيها نزول القرآن. هناك فرق كبير ملحوظ بين الشرّاح ومتخصصي السيرة، من ابن اسحاق إلى الطبري.

(١) كان المسلمون الأوائل مشدودين إلى نموذج خيبر، الذي أكدته الآية ٤١ من سورة الأنفال حيث الغنيمة التي تشمل الأموال المنقولة والعقارية تقسم قسمين يأخذ منها المقاتلة اربعة أخماس ويسلم الخمس الباقي إلى الرسول لتسديد الصدقات. عمل عمر بهذه القاعدة بالنظر للغنيمة المنقولة فحسب والقابلة للتقسيم والتخميس. ولم يطبق على الأرض مبدأ اقتطاع الخمس، لأنه لم يتم تقسيمها. فينبغي لذلك التفكير في مصدر أعطيات أهل المدينة المتأتية من المداخيل الاجمالية لا من الخمس. وقد وجب على الفقهاء الذين اضطربوا في الأمر فعقلنوه بعدياً، أن يقبلوا بوجود خطين وسُنتين، سنة الرسول وسنة عمر: ابن سلام، كتاب الأموال، ص ٦٠. انظر أيضاً البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٦٥.

(٢) الطبري، ج٣، ص ٦١٤ - ٦١٥، وص ٥٨٤ - ٥٨٥.

(٣) الطبري، ج٤، ص ٣١؛ كان الجيش هو الذي بادر بالأمر.

(٤) الطبري، ج٤، ص ٣٠؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٦٥ - ٢٦٦؛ أبو يوسف، كتاب الخراج، ص ٣٥. =

إجراء التهدئة والادماج، فجرى اللحاق بهم أو ألقي القبض عليهم، وحتى في هذه الصورة فقد خيَّر عمر المقاتلين بين أن ينتزعوا منهم أراضيهم أو أن يسترقوهم أو يعتقوهم ويعيدوا ادماجهم في النسق، ومن المحتمل أن الحل الأخير هو الذي تم لأكثرهم. أما الدهاقين الذين لا ينبغي أن يُخلط بينهم وبين أشراف الفرس من المقاتلين، فقد اعتنق كثير منهم الإسلام[1]. ومهما كان الأمر، فإنهم سيتحملون دوراً كبيراً في التأطير ونقل الأوامر والوساطة الجبائية بين جماهير الفلاحين والسلطة العربية. لا فائدة في هذا المقام من الدخول في تفاصيل الجباية المفروضة على الأرض، والتي كانت في بداية الأمر موحدة (درهم وقفيز لكل وحدة مساحة عرفت بالجريب)[2]، ثم اتجهت أكثر فأكثر إلى التنوّع ارتباطاً بمحصولات الأرض وبالقرب من مراكز التسويق، منذ خلافة عمر، مع استمرار الأمر زمن علي، وأخيراً في خلافة معاوية الذي استكمل العمل التنظيمي الذي بدأه عمر[3]. لكن ينبغي الاحتفاظ بعنصرين، أولهما أن المساحة الخاضعة للخراج كانت تساوي ٣٦ مليون جريب[4] وثانيهما أن مساحة أراضي الصوافي لم تتجاوز ٧ ملايين جريب[5]. وقد وفق الضبط الأكبر للجهاز الجبائي في التحصيل على دخل كان أقصاه ١٠٠ مليون من الدراهم من الفئة الأولى أي من أراضي الخراج. وخصص أكثر هذا المقدار لتسديد أعطيات المقاتلين المقيمين (يبدو أنهم لم يقبضوا سوى عطاء أو عطاءين في المدائن، أي قبل الانتقال إلى

= ٣٦؛ ابن سلام، كتاب الأموال، ص ٥٧. جعل عمر من أهالي السواد ذميين، لا عبيداً كما كان يتوقع أن تفرضه قوانين الحرب فأدى ذلك بالفقهاء إلى التذكير باستمرار بهذا القرار. والتساؤل نفسه موجود بخصوص مبدأ العهد: هل حصلوا عليه أم لم يحصلوا عليه؟ منعه عنهم يحيى بن آدم، ولم يفعل ذلك الشعبي الذي أوضح أن العهد ضمني لأنهم قبلوا بدفع الخراج: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٦٦. لقد بقي الذين درسوا هذه المسائل في القرن الثاني رهن مقولات جامدة، فعاقهم ذلك عن إفحام التدابير التي اتخذها عمر ضمنها. الواقع أن إضفاء الطابع الاسلامي على المفاهيم ساهم مساهمة خفية في إعادة تصورات عربية مبكرة إلى النشاط: ومن الغريب أن يبقى المستشرقون أيضاً رهن هذه الاشكالية اللاواقعية.

(١) راجع بخصوص الدهاقين عامة المسعودي، مروج الذهب ج٢، ص ٢٤١؛ و Christensen; *L'Iran sous les Sassanides*, p.107؛ و Dennett, *op.cit.*, p.32؛ وراجع حول اعتناقهم الاسلام، فتوح البلدان، ص ٢٦٥.

(٢) الجريب قياس مساحة يطابق انتاج أربعة أقفزة ويساوي ١٥٩٢ متراً مربعاً.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٦٨ ـ ٢٧١؛ أبو يوسف، كتاب الخراج، ص ٣٦ ـ ٣٨؛ Dennett, *Conversion*, pp.24-25. يرى المؤلف أن فرض الضرائب تدقّق بعد سنة ٢٢ هـ. أي في أواخر خلافة عمر، بمساعدة المغيرة بن شعبة، انظر أيضاً: Hill, *Termination of Hostelities*, p.113.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٦٨.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٧٢، كانت بجزء إشارة إلى أن أغلالها ٧ ملايين درهم. وبما أن أراضي الخراج في المرحلة الأولى، وبموجب نمط الجباية الموحدة، كانت تدر ٣٦ مليوناً من الدراهم فهذا استنباط قريب من المعقول.

الكوفة[1]، ولا شك أن المبلغ المذكور استخدم أيضاً لسد نفقات الإدارة والأشغال العامة. وأخيراً تغذى بيت المال المركزي بمداخيل العراق أساساً، وأعاد توزيع جانب من المال على المستحقين من النخبة الإسلامية المدنية والمسجلين بالديوان، بداية من سنة ٢٠ هـ. وبذلك ندرك الدلالات المتعددة التي تضمنها اختيار عمر. لم يتعلق الأمر فقط بحماية زراعة مزدهرة من خلال المحافظة على هياكلها البشرية والجبائية، ولا بتجنب غليان الأطماع وتراتب الناس حسب ثرواتهم، بصورة لا تتيح المراقبة، بل أضيفت إلى ذلك فكرة مفادها أن الخيار العسكري العربي أمر دائم يوجب تحرير العرب من الهمّ الاقتصادي، والاستعاضة عن الاتجاهات الإقليمية التي يحتمل أن تنشأ عن الاستقرار الزراعي، بمبدأ وحدة الأمة الإسلامية وتضامنها أيضاً. وتجسم الدولة هذا التضامن وتقوم مقام الوصي والمتصرف والمنظم والوسيط والموزع. فأسست هكذا تراتبيتها التوزيعية التي احتلت فيها النخبة الإسلامية بالمدينة مقام القمّة. وبذلك فإن فيء العراق لا يوزع على الرجال الذي افتتحوه عنوة فحسب، فقد أصبح المهاجرون والأنصار يستحقونه[2]، وكل الذين وفدوا على العراق، من العرب البدو أو الروادف[3]، وطبعاً الأجيال القادمة. وبذلك تكون الطريقة التي سنها عمر قد تميزت بتجاوز حدث الفتح البحت، والتوسيع تدريجياً لحلبة المساهمة ودعم سلطة الدولة التنظيمية. على أن الأمر يتعلق بتحويل فعلي لمكاسب العراقيين بصورة من الصور، يعني ذلك تبعية تتزايد باستمرار بطول المدة، تجاه السلطة المركزية.

وفيما يخص الفئة الثانية، أي أراضي **الصوافي**، كان لتدخل الدولة تأثير أقل شدة على الأقل في بداية الأمر. فقد شملها المقاتلة عن طيب خاطر بمبدأ عدم التقسيم[4] لكن ما كان مفروغاً منه هو ملكيتهم لهذه الأراضي بصورة جماعية لا يشاركهم فيها أحد. فانطبقت كلمة فيء سريعاً جداً على الصوافي بصفة خاصة عند سيف بن عمر الذي ميز فضلاً عن ذلك بين أهل العطاء وأهل الفيء[5]. وبما إن هذه الأراضي كانت بالماضي ملكاً للمقاتلين

---

(١) الطبري، ج٤، ص ٤٢: روى سيف أن المال وزع في محرم ١٧ هـ. بالمدائن وتمّ توزيع أولي في بهرسير سنة ١٦ هـ.

(٢) استثني من ذلك أهل مكة، والبدو أيضاً، الذين لم يشاركوا في الفتوحات: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٤٤.

(٣) وعلى هذا توجد صلة مؤكدة بين الجهاد والعطاء. راجع الطبري، ج٣، ص ٦١٤، بخصوص أعطيات الروادف، التي لم توزع قبل سنة ٢٠/ ٦٤٠. المهم الملاحظة أن القرّاء شكلوا فئة قائمة بذاتها، وقد طلب سعد، بدون نجاح، أن يجري عليهم العطاء بصفتهم تلك بالتساوي مع أهل القادسية وأهل الشام (٢٠٠٠ درهم): فتوح البلدان، ص ٤٤٢.

(٤) تلافياً للتشتت: الطبري، ج٤، ص ٣٢.

(٥) الطبري، ج٣، ص ٦١٥ ـ ٦١٦. وهكذا ازدوج معنى كلمة فيء، فهي تعني: =

الفرس، فقد كان عسيراً حرمان المحاربين العرب الذين استولوا على السواد من التمتع بها. فلم يرد في هذا الباب ذكر الأجيال القادمة ولا الروادف أو الإنضمام إلى نسق الديوان على الأرجح، بل كان الحضور في ساحة الوغى هو الذي يؤخذ بعين الاعتبار لا غير. فكل محارب شارك في القتال فيما بين مرحلة الأيام والاستيلاء على المدائن، له استحقاق في الفيء ـ الصوافي بسواد الفرات، وكان المقصود بالذات هو الجيش الذي حضر برمّته وقعة القادسية. لكن المقاتلين في جلولاء فقط، أي ١٢٠٠٠ رجل بقيادة هاشم بن عتبة، استحقوا الفيء دون الآخرين على ما يبدو، في ما وراء دجلة. يقول سيف[١]: «وكان أحظى بفيء الأرض أهل جلولاء، استأثروا بفيء ما وراء النهروان وشاركوا الناس فيما قبل ذلك».

وهكذا تجعل الدائرة المضاعفة للامتيازات التضامن يربط بداية بين أهل القادسية ثم بين رجال جلولاء بالخصوص، الذين تحصلوا بذلك على الأكثر، دون التوقف عن المشاركة في الأقل. بقي أن نتعرف عليهم. لا شك أن بجيلة بقيادة جرير[٢]، وطليعة زهرة أيضاً، ورجال القعقاع، وفدوا لتقديم المدد في القادسية على رأس أهل العراق أصحاب خالد سابقا، يعني المشاركين في الأيام لسنة ١٢. ومن المحتمل أنهم كانوا قليلي العدد نسبياً عند العودة من الشام إلى العراق[٣]. لكن لا ننس أيضاً بروز عناصر من الردة في معركة القادسية حيث رويت أسماء قادتهم الرئيسيين كطليحة وعمرو بن معديكرب خاصة. لا بد

= أ) أولاً كل الأموال المكتسبة عن طريق الحق الطبيعي للفتح، من أراضي الخراج أو الصوافي، مع اشتراك بقية المسلمين في قسط منها بفضل تدخل الدولة. وليس أهل العطاء جميعاً أهل الفيء، لكن العكس صحيح. ويعني ذلك تأكيد لا غير لحق معنوي.

ب) ينطبق الفيء في معناه الضيق أيضاً على الصوافي حيث يتمّ الحفاظ على حقوق المقاتلة بصورة أوضح.

(١) الطبري، ج٤، ص ٣١. معنى «فيء» الواضح في هذا الصدد هو أراضي الصوافي.

(٢) كان جرير في جلولاء وخانقين وحلوان، حسب بعض الأخبار: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥؛ Caetani, *Chronografia*, fasc.1, p.217, *Annali*, IV, pp.143-145. وصمتت رواية سيف كما أوردها الطبري، ج٤، ص ٢٤ ـ ٢٩ عن جرير، في حين أبرزت دور القعقاع وهاشم اللذين استعانا بجنود الحمراء الإيرانيين الملتحقين بالصفوف العربية.

(٣) ارجع إلى ما سبق وانظر شعبان (Shaban, *op.cit.*, p.45)، حيث طابق بين أهل الأيام وأهل العراق، أي رجال خالد لا غير (الأنصار والمهاجرون وبعض العشائر الصغرى الأخرى) مميزاً إياهم عن بكر الذين حضروا هم أيضاً الأيام، ولعلهم تسموا بأهل البلاء. ويحتمل أن جيش خالد، الذي عاد جزء منه بعد مدة قصيرة، قد تلقب اعتباطاً بهذا اللقب وهو ما يفسر أن تأثير بكر قد تقهقر مباشرة. لكن مفهوم الأيام بالنسبة للديوان مثلاً ومن الوجهة الرسمية كان يشمل كل الذين حضروا قبل حرب القادسية؛ هذا ولا ريب أن رفقة خالد الذين كانوا يمثلون الجيش الاسلامي النظامي في بدايته، قاموا بدور ممتاز كبير بعد القادسية، واتخذوا مبادرات وأكدوا روحاً عصبية لديهم، كما دل على ذلك حضور القعقاع في مقدمة الساحة.

أن هؤلاء القادة شاركوا أيضاً في فيء جلولاء بصفتهم شركاء في الملكية. على أن التصرف أنيط بعهدة الأمراء، أي الماسكين بالقيادة كهاشم، وخالد بن عرفطة، والقعقاع، وزهرة بن الحوية، وجرير بن عبد الله البجلي، فاستثني قادة الردة من التمتع فعلاً بهذه الأراضي[١]. الحقيقة أن [illegible] الرئيسيين وقع اختيارهم من أهل الأيام، لكن لم يكونوا منهم جميعاً دون شك، وبذلك يكون التعريف الذي اقترحه شعبان جريئاً نوعاً ما، ومفاده أن أهل الفيء هم أهل الأيام[٢]. إن العهد إلى كوادر الجيش بالتصرف في أراضي الصوافي يعني أن امتيازاً مشطاً سُلم إلى هذه النخبة الإسلامية التي أراد لها عمر أن تتميز من العامة فأفردها بوضع متميز من الرؤساء التقليديين، بداية من وقعة القادسية. وكما سنرى لاحقاً، فقد طرح هذا الإقصاء قضايا خطيرة[٣]. لكننا على جهل بالأهمية الحقيقية التي كان عليها التفويض الذي تمتع به الأمراء والكيفية التي استثمروا الأرض بها، وكيف وزعوا على عامة المستحقين ما يستحقونه[٤]. وأقصى ما نعلم أن الكثيرين منهم استقروا في قلب السواد[٥]، ونستشعر بأنهم ربما قاموا في أراضي الصوافي بدور شبيه بدور الدهاقين في أراضي الخراج.

تلك كانت القواعد التي أجملناها والمتعلقة بالتنظيم العربي الذي ساد العراق، وقد سبق أن وضعت خلال مرحلة المدائن. لكن من الواضح تماماً أن الخيارات إذا كانت واضحة واستخدمت كمخطط للمستقبل، فلا بد أن الترتيب الفعلي ظل يكتنفه الغموض. والأرجح أن نسب العطاء لم تتحدد إلا عند إقامة الديوان؛ كما أن إنشاء مؤسسات الإحصاء، وتوزيع الأعطيات، والتجنيد، لم يتمّ إلا بعد التحوّل إلى الكوفة.

---

(١) الطبري، ج٤، ص٣٢. جاء في جملة لسيف ما يؤكد أنه كان موجوداً ضمن حملة جلولاء، التي كانت عملية مربحة قبل كل شيء، «وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب ممن ارتدّ وممن لم يرتدّ»: المرجع نفسه، ص ٢٥. إذن وقعت هنا تنقية واختيار لفوائد محتملة. وبخصوص التصرف في هذه الأراضي، راجع شعبان: (Shaban, *Islamic History*, p.53)، الذي جعل منها قضية قرّاء واعتبرهم خطأً أهل الأيام، في حين أن الأمر يعني فئة خاصة تجاوزت الترتيب الزمني للمعارك، ذاكراً وضعية القعقاع ـ الذي كان أميراً ـ لا قارئاً ـ فكان مرجعه الوحيد.

(٢) Shaban, *Islamic History*, p.53.

(٣) وجدت الثورة على عثمان جذوراً لها في هذا الوضع، لكن المعوزين طالبوا قبل ذلك بالتقسيم بصفتهم مستحقين، لكن الأغلبية لم تكن لترضى به: الطبري ج ٤، ص ٣١ حيث يقول: «وكان بعض من يرق يسأل الولاة قسم ذلك فيمنعهم من ذلك الجمهور، أبوا ذلك، فانتهوا إلى رأيهم ولم يجيبوا». انظر أيضاً: ج٣، ص ٥٨٦.

(٤) يمكن أن يكون تقسيم المداخيل متساوياً بين الشركاء في الملكية في الكوفة كما في البصرة (الطبري، ج٤، ص ٧٥) بعد طرح الخمس لفائدة بيت المال.

(٥) المرجع نفسه، ج ٤، ص ٧٥.

إنشاء الكوفة

(أواخر سنة ١٧ هـ / ٦٣٨)

ما ينبغي تأكيده جيداً، أن عرب العراق رغم أنهم اندمجوا في نسق أكد التفوق الأبوي للدولة، فإنهم تمتعوا فعلاً بأعظم جزء من مداخيل الولاية بفضل مؤسسة العطاء. ذلك أن بيت المال بالمدينة تغذّى أيضاً بموارد أخرى[1]. وما يُستخلص في التحليل الأخير أن إعادة توزيع الأموال لصالح الارستقراطية الإسلامية لم يشمل سوى قليل من الناس. ولا شك في قلة احتياجات الدولة وفي بساطتها في تلك الفترة، مما جعل ولاية العراق تتمتع باستقلالية ذاتية مالية لحد كبير. وكانت هذه الاستقلالية شرطاً أولياً لتكوين مصر الكوفة. لعل كلمة مصر من أصل يمني، ولم تكن شائعة للتعبير عن إنشاء الكوفة (خلافاً لكلمة تخطيط التي تعني الاستيلاء على الأرض بعد تقسيمها)[2]. ومن الممكن أن الكلمة شهدت تطوراً وأنها رسخت في الاستعمال ارتباطاً بما أوحت به من واقع. كانت توحي في الأصل بفكرة الحدود والمعسكر الحدودي المتاخم لعالمين حيث يجري توزيع الفيء «دون الرجوع إلى الخليفة»[3].

لا شيء في المصادر المتوافرة لدينا يدل على الأسباب المحتملة التي يمكننا عرضها بخصوص انتقال جيش المدائن إلى الكوفة العتيدة، كضرورة الحفاظ على الهوية الثقافية والإصرار عليها، والصلات المتيسرة بالوطن الأم، والانفصال عن السكان الخاضعين، والاستعداد العسكري. حقاً أنّ إحدى الروايتين اللتين ذكرهما البلاذري، وهي رواية مدنية (للواقدي)، أشارت جيداً إلى السبب الأصلي المتمثل في الأمر الذي أصدره عمر لسعد بأن

---

(١) E.I/2 sub verbo. وكانت موارد ضخمة.

(٢) فتوح البلدان، ص ٢٧٤؛ اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣٠٩ - ٣١٠؛ الطبري، ج٤، ص ٤٠ وما بعدها؛ استعمل ياقوت كلمة (تمصير): معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩١.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، بيروت، ١٩٥٦، ج ٥، ص ١٧٥ - ١٧٦.

يجد «دار هجرة» لا يفصلها البحر (بمعنى النهر) عن المدينة[1] أي أن يبقى الإتصال المكاني ببلاد العرب قائماً. لكن الإشارة إلى الأسباب المناخية كانت هي الواردة في كل الروايات الأخرى. ولنأخذ على ذلك مثل الطبري: تستند كل الروايات الخمس المذكورة بخصوص الإنشاء، ومن بينها أربع روايات رواها سيف وخبر واحد رواه أبو عوانة، إلى مشكلة المناخ[2]. ولم يزد البلاذري عن كونه حوّل المكان الذي انطلق منه المشكل المناخي، فلم يحدده في المدائن بل في المواقع المختارة مؤقتاً بالأنبار وسوق حَكَمة[3].

لا بد أن المشكل كان واقعاً. إذ بعد أربعة عشر شهراً من الإقامة في المدائن تخللتها عمليات جلولاء وحلوان وسواد دجلة، ظهرت علامات التعب على العرب فلم يتكيفوا مع المناخ واعتبروه مضراً بصحتهم، ومتعفناً، ووخيماً[4]. وكانت الحشرات تنهال على الجمال وتوجعها. فصار واضحاً أن موقع المدائن المائي لم يناسبهم. كان موقعاً غطته القنوات، فكان ندياً على الرّغم مما امتازت به مثل هذه المدينة المشيدة المنظمة من الميزات. وقد صار مؤكداً أن ضرورة التكيف مع المحيط الطبيعي لا مناص منها في كل المواقع التي استقر فيها العرب. فأدى ذلك إلى اختيار الفسطاط بدل الإسكندرية، والقيروان بدل قرطاجة. تلك كانت الضرورة الطبيعية التي أملت على العرب اختيار موضع الكوفة على مشارف الصحراء دون شك، فأثر ذلك الاختيار بدوره على الخيارات القادمة، وسن سنّة. وعندي أنّ اختيار الموضع أملته أيضاً خيارات سياسية واستراتيجية وثقافية.

لقد كان لتعليمات عمر دور جوهري في هذا الاختيار، وهو الذي ينسب إليه هذا القول: «إن العرب بمنزلة الإبل لا يصلحها إلا ما يصلح الإبل[5]. فهل كان قوله هذا تعبيراً عن تصور رعوي للوجود العربي في العراق وكامتداد لوجودهم في بلاد العرب، وكيف وقع أن المقاتلين العرب في المدائن وجلولاء قد اصطحبوا ابلهم؟ تثير هذه العبارة مشكلاً متشعباً هو: استقرار العرب، وتراكب الأنماط الحياتية السابق منها واللاحق، وآثار الحياة الرعوية أو الإرادة العنيدة في المحافظة على نمط العرب الحضاري، رغم أنهم كانوا محمولين على تقمص دور آخر هو دور المجموعة الامبراطورية المقاتلة المقامة على توزيع المال المقتطع من الأهالي الأصليين. ستكون لنا عودة إلى هذا الموضوع.

---

(١) فتوح البلدان، البلاذري، ص ٢٧٤.

(٢) التاريخ، ج٤، ص ٤٠ وما بعدها.

(٣) فتوح البلدان، ص ٢٧٤ و ٢٧٥، الطبري، ج٤، ص ٤١.

(٤) الطبري، ج٤، ص ٤٠.

(٥) المرجع نفسه، ص ٤١، نقلاً عن خبر لأبي عوانة، وص ٤٢ عن رواية سيف.

والملاحظ على كلّ أن الإبل كانت حاضرة، سواء اعتبرنا هذا الحضور بقية من بقايا الماضي أم لا. ولا يستبعد أنه أثر في قرار الانتقال إلى منطقة تشرف على البادية لأسباب نفسية أكثر منها اقتصادية، كان التكيف مع الموقع أكثرها بداهة، ذلك أن العرب لا يتكيفون مع مكان إلا إذا تكيفت معه مواشيهم. فكان موقعاً بين البر[1] ـ عالم السباسب والصحراء ـ والريف ـ عالم البادية المزروعة، المنظمة، غير العربية، الخاضعة «للبحر»، بمعنى أن لـه وضعية الحدود فيسمح بمراقبة السواد دون أن ينفصل عن بلاد العرب. وتذكر المصادر أن استكشاف الأراضي شمل الفرات على امتداده، وقد قام بالعملية سلمان وحذيفة بن اليمان، سلمان من جهته وحذيفة[2] من جهته، ذلك أن مواضع كثيرة قد تستجيب للشروط المقررة مسبقاً، وذكرت المصادر مراراً إسم الأنبار وهي الحاضرة التي أنشأها سابور[3]. وقد مر بها سلمان دون أن يتوقف، وهذا ما ذكره سيف. وأقام سعد فيها مدة، كما قال الواقدي، وفيها تململ الجيش من كثرة الذباب[4]. الواقع أن الأنبار كانت تتمتع بموقع استراتيجي طيب: كان مدينة حدودية، فضلاً عن وقوعها بمدخل أول طريق مائية بين الفرات ودجلة. وقد أعـدّ فيها السفاح بعد ذلك مقر إقامته. إلا أنها كانت حاضرة تقع فيما وراء الفرات، بعيداً إلى الشمال في ظن المخططين، وكانت مدينة قائمة الذات بمعنى أنها كانت مجمدة الهياكل، في حين أن همة العرب تعلقت بالجديد، أي أن رغبتهم في أن يشكلوا مجالاً وفق مزاجهم، لا أن يسكنوا إطاراً مبنياً طبق مقاييس حضارية مغايرة. ويحتمل أنهم لم يريدوا حتى إنشاء مدينة ما خلال المرحلة التي وقفوا عندها. بل إن همّهم كان إقامة معسكر مفتوح، كما جاء في توصية منسوبة إلى عمر[5]. حتى أنهم مالوا إلى اختيار أرض عراء بدل اختيـار الأنبار، أو سوق حكمة وحتى الحيرة. كانت الحيرة شديدة التوغل في الباديـة ولم يكن قربهـا من الفرات والسواد كافياً[6]، لكنها كانت تقع بالخصوص تحت وطأة الماضي الـذي أرادت العروبـة

---

(١) المرجع نفسه، ص ٤٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤١.

(٣) Le Strange, *The Lands of the Eastern Caliphate*, p.66؛ ياقوت، ج١، ص ٢٥٧.

(٤) فتوح البلدان، ص ٢٧٤.

(٥) «المعسكر أجدى لحربكم»: الطبري، ج٤، ص ٤٣.

(٦) لم يتأكد لدينا هل أن الحيرة كانت تقع إلى الجنوب الغربي من الكوفة العتيدة، على طريق القادسية، أو إلى الغرب تماماً، من جهة النجف الحالي، وقد تضاربت المصادر في هذا الموضوع، وسادها الغموض. حدد اليعقوبي، فتوح البلدان، ص ٣٠٩، موقعها على طريق النجف، وحدده ياقوت «على بعد ثلاثة فراسخ من الكوفة في مكان يقال له النجف»: ج ٢، ص ٣٢٨. راجع أيضاً الجنابي، ص ١٩٧، وما بعدها، وصالح العلي، «منطقة الحيرة» في مجلة كلية الآداب، بغداد عدد ٢٥، ١٩٦٢، ص ١٧ ـ ٤٤. انظر كذلك لاسنر! Lassner, *The Shaping of Abbasid Rule*, Princeton, pp.143- 151، الذي يميل إلى الاعتقاد بأن =

الجديدة الانفصال عنه. ومع هذا فلا بد أن قربها قد لعب دوراً في الاستقرار بموقع الكوفة، وقد ورد خبر فريد لكنه مثير للاهتمام مذكراً بتدخل لبني بقيلة الذين أسدوا النصح لسعد حتى يختار موضع الكوفة[1].

تتحدث المصادر عن ذلك وكأنه اكتشاف. لكن سبق للعرب معرفة هذه المنطقة فضلاً عن أنها وافقت التصور الذي أراده عمر وفرضه. كانت منطقة مأنوسة لديهم نظراً لما شنوه من غارات على الحيرة وضواحيها في البداية ثم لأن معركة البويب دارت فيها، وقريباً منها دارت وقعة القادسية. لقد طرق العرب باب العراق من هذا المكان، ومن هنا كان الممر الذي يسّر تسربهم. وما يمكن استخلاصه أن أيسر خط للمرور بين بلاد العرب والعراق كان يمر من هذا المكان، وكذلك الأمر بخصوص عبور الفرات الأوسط وبلاد بابل كافة. إن موقع الكوفة يمثّل نقطة اتصال كما نقطة التقاء بين عالمين وهو ينفتح على الأمداد العربية القادمة من الصحراء، ويشرف على السواد مع كونه متأخراً عنه. تلك كانت وضعية الكوفة. وبما أن العرب فضّلوا تجميع الأمة ووقفوا ضد الانبثاث في السواد، فقد كان منطقياً نسبياً تحديد هذا الموقع المهمش الحدودي الخارج عن المركز، مع أنه كان موقع اتصال. وهم سيقومون بحركة معاكسة في اتجاه الشرق، بغرض إنشاء واسط أولاً، ثم بغداد، لكن بعد أن استوثقوا تماماً من المجال العراقي ومما يليه من بلاد فارس.

لقد فعلت الظروف المناخية فعلها بخصوص انتقال الجيش، فوجب على موقع الكوفة أن يكون صحياً. كانت الكوفة تقع في المكان الذي يدلع البر لسانه[2] في الريف المروي، في موضع متقدم من البرّ إذن، على سطح يقع فوق شاطىء الفيضان للفرع الرئيسي للفرات في ذلك العصر، على ارتفاع يناهز ٢٢ متراً من مستوى البحر[3]. ويرتفع الموضع فوق النجاف غرباً، الذي كان بمثابة الحوض المالح، وقد كان أصله محل نظر عند الجغرافيين العرب[4]، وكذلك فوق البطائح جنوباً التي كانت تمتد حتى البصرة[5]، وهذه البطائح عبارة عن مساحة غارقة في الماء حيث ينبت القصب والحلفاء. وأرض الكوفة مزيج من الحصباء

= الحيرة هي مجموعة قصور ومواضع مشتتة ممتدة أكثر مما هي مدينة مجمّعة.

(١) فتوح البلدان، ص ٢٧٥.

(٢) الطبري، ج٤، ص ٤٢؛ ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج١، ص ٢١٨؛ Massignon, «Explication du plan du Ku'fa», *Opera Minora*, III, p.37.

(٣) الجنابي، ص ٣٢.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص ١١٩.

(٥) ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص ٩٤، الذي يجعل البطائح تبدأ من كسكر لا من جنوب الكوفة كما يرى ذلك لاسترانج Le Strange.

والرمل الأحمر، فأما مصدر الحصباء فهو الرسوبات النهرية وأما الرمل الأحمر فهو متأتٍ من الغرب، كما يدل اسمه على ذلك (سهلة) لأن مسجد السهلة الذي استكشفته التنقيبات كان يقع بالضبط إلى الشمال الغربي من المصر. وبقدر ما نقترب من النهر في المنطقة الغربية دائماً، تكون الأرض مشكّلة من غرينات طينية تحدّد الملطاط[1].

إن جودة موضع الكوفة، وهواءها النقي ومواردها المائية الطيبة، كل ذلك كالت له كتب الأدب المديح، ولا سيما من خلال ذكرها للمجالس التي تواجه فيها الكوفيون والبصريون، وقد اعترف البصريون على الدوام بعيوب مدينتهم[2]. وفوق كل ذلك، إنّ ما يجعل هذا الموضع ذا قيمة استثنائية بالنسبة للسكن البشري، كونه محاطاً من كل جانب بمناظر جغرافية تختلف شديد الاختلاف: الصحراء والنهر والبطائح والبحيرة المالحة، دون التأثر بمساوئها. وفي إمكان هذه الصلة الممتازة بين الصحراء والأرض الزراعية، المستقرة، المائية أن تنشيء نوعاً من التكامل ينبغي التعمق والتمعن فيه، لأن الأمر قد يتعلق أيضاً بحل توفيقي، مستحيل، أو يتعلق بالتردد وعدم الاختيار.

إن تربة الكوفة لم تكن معدة للزراعة بل للاستقرار البشري. فاستقر العرب فيها، ولم يجدوا سوى ثلاثة أديرة فصلت بينها مساحات قصب، هي دير حرقة ودير أم عمرو، ودير سلسلة. كانت هذه الأديرة شاهداً على استقرار المسيحية العربية التي أشعت انطلاقاً من الحيرة[3]. وعلى هذه المواضع الهادئة أقيم في أواخر ١٧ هـ/ ٦٣٨ تجمّع هائل من القبائل العربية والعشائر وأنصاف القبائل، أتى البعض منها من البعيد النائي والبعض الآخر من البعيد القريب، فجعلوا منها مكاناً سامياً للتاريخ المضطرب ورحماً أساسياً للحضارة والثقافة الإسلامية قاطبة.

---

(١) الطبري، ج٤، ص ٤٢؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٧٧. من رأي سيف أن اللسان هو ظهر الكوفة، أي حدها الغربي المطل وهو يمتد في جهة الفرات بالملطاط، وفي جهة الطين بالنجاف. فنجد من الغرب إلى الشرق: النجاف، واللسان ذاته، والملطاط. وتابعه ماسينيون عن كثب، واضعاً الملطاط على حافة النهر: Massignon, *op.cit.*, p.37. ولكن عبارة سيف غامضة. أما البلاذري فقد حدد موقع الملطاط بين الكوفة والحيرة، وجاراه صالح العلي في ذلك: مرجع مذكور، ص ٢٥.

(٢) ابن الفقيه، ص ١٦٤؛ ياقوت، ج٤، ص ٤٩٢.

(٣) الطبري، ج٤، ص ٤١؛ لم يذكر الشابشتي أي دير منها في الديارات، ولا ياقوت، لكنهما أشارا معاً إلى وجود دير الحريق، بالحيرة: الديارات، ص ٢٣٠، ومعجم البلدان، ج٢، ص ٥٠٥.

الباب الثاني

المخطط المدني الأول

- ٥ -

تشابك المشاكل

أشرنا حتى الآن إلى التقلبات التي طرأت على نشأة الكوفة وإلى الأسس التنظيمية التي ستعيش عليها. لكن، ألا يتجاوز الفتح العربي للعراق مصير الكوفة، إذا ما شرعنا في دراسة هذا المصر في خصوصيته وفي وجوده الهش كمدينة؟ لا شك أن المأثرة العسكرية التي دامت خمس سنوات والتي انطلق منها العرب فخرجوا من الحجاز ونجد واليمن إلى طيسفون، أعطت أكلها فكانت الكوفة وكانت البصرة أيضاً. وكان من المحتمل أن يؤول الأمر إلى خيار آخر، مثلاً إلى انبثاث في السواد، ريفي الطابع. لكن لا مناص من الاعتقاد أن فكرة الهجرة هي التي هيمنت على فتح العراق، بصورة أوضح مما كان عليه الأمر بالشام، وأن الاستقرار بالكوفة كان الغاية والمحرك للعمل العسكري. كان العرب يهدفون إلى احتلال مكانة الفرس بصورة محسوسة، أكثر مما كانوا يهدفون إلى تحطيم الامبراطورية الفارسية في العراق، بوازع القوة[1]. واجتمع في الكوفة أكثر المقاتلة، فبدت وكأنها نتيجة تمخضت عن الفتح إلى حد بعيد، ذلك أن التسلسل من الفتح إلى الكوفة أقرب إلى الإدراك الفوري مما عليه في البصرة. بقي أن نطرح المشكل الذي ألمحنا إليه سابقاً، والمتعلق باختيار النموذج المدني كنمط للاستقرار بالعراق، أي في الكوفة كما في البصرة. كان اختياراً كبير النتائج لتحكمه في بنية الحضارة العربية الإسلامية المرتقبة وفي التوسعية العربية كما في الأسلوب المضطرب الذي عاشته الكوفة. ذلك أن مفهوم المصر ينطبق بداية على مركز ذي اتجاه عسكري حدودي[2]، لكنه يعني أيضاً وبصورة لا تقل قيمة، إقامة دائمة للسكن قابلة للتطور إلى مدنية[3].

---

(١) راجع ما سبق ص ١٧ وما بعدها، سمى العرب الفرس «الأسد» وسموا البيزنطيين «الأسيد». روى الطبري هذه الكلمة مشوهة، ونجت من التشويه عند ابن الأثير، الكامل، ج٢، ص ٤٥٢.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص ١٧٥.

(٣) المعنى واضح عند البلاذري، فتوح البلدان، فهو يصف ما يطرأ من تحول من الحامية إلى المدينة حيث يصير لها =

ارتبطت الكوفة في نشأتها ونشوئها بالعمل العسكري، متحملة إياه كهدف لها طيلة قرن. لم تكن حاضرة - امبراطورية، بل كانت إحدى الحواضر الأساسية لامبراطورية أرضية شاسعة في حالة تكوّن، وقد ساهم رجالها مساهمة كبيرة في خلقها والمحافظة عليها، وتوسيعها. صارت الكوفة جزءاً من الجهاز العربي لاحتلال ومراقبة المشرق كافة - أي العالم الساساني - موجهة قدرتها العسكرية إلى التراب الإيراني الذي كان أفقاً للفتح انفتح إلى ما لا نهاية. ومع هذا، كان الطابع المدني للسكنى، والتعايش المنظم العائلي والعشائري والقبلي، قائماً منذ البداية. لم يكن الجيش في الكوفة مقيماً على شكل حامية كما هو الشأن في مستعمرة خارجية، كما في الماه أو الثغور تحديداً[1]. بل استقر في وطنه الجديد دون إبداء نية في العودة. وبذا دلت كلمتا مِصْر ومصَّرَ منذ البداية على الكيان المدني، سواء على الصعيد البشري أم على الصعيد الهندسي المعماري، حتى إننا نجد ابن خلدون يستعمل ذلك باستمرار في فترة متأخرة، تسمية للظاهرة المدنية في نقاوتها المطلقة، وفي أشد معارضتها للحياة البدوية[2].

تخطئة بعض التصورات. قضايا حقيقية وقضايا خاطئة

المفارقة أن الكوفة وهي المصر المثالي، كانت مصراً لبدو في أول الأمر. إذ لا يمكن أن تُنزع عن قبائل مثل أسد وتميم وكندة، التي استقرت بكثرة في الكوفة، السمة المزدوجة للبداوة العربية، أي التنظيم العشائري والقبلي الذي استبقي في الكوفة، وماضي الترحل والظعون. لكن الأمر يرتبط ارتباطاً دقيقاً بماضٍ معين، مهما كان قريباً. أما عن الظاهرة القبلية، فقد تأطّرت بقوة التنظيم الحكومي والعسكري والجبائي. ولم ترتبط بالترحل وما كان أحاط به من تيه ونهب. هنا في هذا الزمن والمكان، بقيت القبائل مستقرة منضبطة

= جامع: مثلاً ص ٣٢٨ بخصوص الحديثة بالموصل. وتعني كلمة «مصر» معسكراً في الحميرية: راجع بحثنا: «Les Yamanites à Kufa au 1er siècle de l'Hegire», *JESHO, XIX.2, p.177.* أما عند ابن خلدون، فالمصر هو الحاضرة بالضبط: «مقدمة ابن خلدون، طبعة بيروت ١٩٦١، ص ٦٣٦ وغيرها حيث استخدم الكلمة دون تمييز مع كلمة مدينة. راجع أيضاً: Wensinck, E.I/1، والصفحات التي كتبها صالح العلي في كتابه التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري...، ص١٣ وما بعدها.

(١) قبل دخول العرب التراب الايراني، يبدو أن ثغور الكوفة كانت الموصل، وماساباذان، وحلوان، وقرقيسياء: الطبري، ج٤، ص ٣٧ - ٤٢؛ ثم الري وقزوين بعد ذلك: الطبري، ج٤، ص ١٤٩ وما بعدها. أما عن مسألة الماهين الاثنين، التي سأعود إليها، فليراجع الطبري، ج٤، ص ١٦١. انظر أيضاً البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٠٢، ٣٠٥، ٣١٥، ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٤ - ٣٢٥.

(٢) مقدمة ابن خلدون، مرجع مذكور، ص ٦٤٩ - ٦٥٠.

متحضرة بصورة متزايدة، مع المحافظة على صلات وجدانية ببلاد العرب، على الرغم من استمرار نمط العيش السابق في التأثير على السلوكيات والذهنيات. والأهم من ذلك أن الاستقرار كان له من السرعة والنجاح ما جعل الترحل يظهر جلياً وكأنه كان ضرورة بالنظر للماضي وواقعاً حتمياً، أكثر مما كان وجوداً محبوباً، مع أنه كان محبوباً بصورة من الصور. أما عن الكوفة، والبصرة أيضاً، فما من شيء أغرب، بلا شك، عن واقع الأمور من الفكرة الشائعة التي تقول بهجرة فوضوية وفدت منقضة على بلاد الرافدين[١]. إن مقابلةً أو معارضة ابن خلدون بين المصر والإنسان البدوي في منحى التنافر بينهما، قد تكون وجيهة في فترات متأخرة، في الكوفة بالذات وفي غيرها، لكنها ليست كذلك قطعاً في الفترة التي تكوّن خلالها هذا المصر وازدهر. هذا إشكال خاطىء ينبغي إحباطه. وتوجد إشكالات أخرى أكثر دقة، منها إشكال الاستقرار مثلاً. لقد اعتبره ماسينيون Massignon[٢]، وريشارد بوليات Richard Bulliet[٣] أيضاً، تجربة حاسمة في الكوفة التي كانت لديهما نموذجاً جديراً بأن يبدي الرأي فيه المخططون المعماريون المعاصرون، وعرض كل منهما تفسيراً لهذا النجاح العظيم الذي بلغته عملية الاستقرار. وقد عزاها ماسينيون إلى الدور الدافع الذي لعبه اليمنيون المتحضرون من قديم[٤]، وعزاها بوليات إلى فقدان الفاصل بين ظاهرة الترحل وظاهرة الاستقرار في ماضي الشرق قبل ظهور الإسلام، وتمادي هذا التناضح في الكوفة والبصرة. ينبغي أن تؤخذ وجهات النظر هذه بعين الاعتبار قطعاً، ولكنها تردّ دون وعي على الإشكالية القديمة وتتقمصها، حتى لو تعلق الأمر بدحضها (بوليات). الواقع أنه يمكن التساؤل عما إذا كان لفظ الإستقرار هو اللفظ الصالح فعلاً في هذا الصدد. لعل الأولى القول إنها كانت عملية تمدنية جدّت في ظروف خاصة، اثر دعوة

---

(١) توجد أخطاء فادحة جداً في تقدير ظاهرة الفتح العربي، مثلاً عند زافييه دي بلانول: Xavier de Planhol, *Les Fondements géographiques de l'Histoire de l'Islam*, Paris, 1968, pp. 35 - 37.

(٢) تحدث ماسينيون عن ذلك، في بحثه الأساسي عن الكوفة: «Explication du plan de Kufa», *Melanges Maspero*, III, pp.337-360, reproduit dans *Opera Minora*, III, pp.36-62. فلاحظ من أول وهلة أن رغبته من وراء هذا العمل هو أن يُستخدم «للدراسة التاريخية للاسلام في العراق خلال القرون الثلاثة الأولى من الهجرة، وأيضاً للدراسة الاجتماعية لتوطين وتحضير البدو، وكانت الكوفة أنشط مركز في فجر الاسلام، لهذه الظاهرة الاجتماعية الرئيسية في تكوين الحضارة الاسلامية لذلك العصر، وهي ظاهرة رئيسية في عصرنا أيضاً، حيث رجعت على نطاق واسع، لمستقبل العروبة».

(٣) في بحث غير منشور زاخر بالأفكار، عنوانه *Nomadic Sedentarization in the Seventh Century* وخصص للكوفة والبصرة.

(٤) «Explication du plan de Ku'fa», *op.cit.*, p.41. راجع نقدنا لآراء ماسينيون في هذه النقطة بالذات، ضمن بحثنا: «Les Yamanites...», *art.cit.*, p.175

دينية وضمن نشوء دولة إمبراطورية، وبعد الفتح. إن العنصر الإرادي كامن دائماً، ولا سيما عنصر التأطير. قد يكون لمفهوم الاستقرار معنى أنفذ، لو استقر العرب المهاجرون في السواد بصفة فلاحين، استقراراً عفوياً ضمن إطار اقتصادي مندمج، منسجم تقريباً، أي في ظروف تاريخية لم تعرف الانقلاب الهائل الذي أحدثه الإسلام. إن التغيير، بطابعه المحير، يكمن في التدرب على التعايش بين قبائل كانت متباعدة الواحدة عن الأخرى منذ أقدم العصور، أكثر مما كان ترسيخاً سكنياً لأناس اعتادوا من قبل التنقل الترحلي، كما أنه يكمن في امتلاك جديد للروح الحضرية، والخضوع لدولة فوقية موحّدة. ولم يتسرب لا محالة أي شيء من المصادر، تسرباً صريحاً، فيما يخص الطريقة التي بها تم الاستقرار. وبلوغاً لذلك، ينبغي أن نعود إلى طرح القضية ضمن منظار يخالف كل المخالفة منظار الجغرافيا الاستعمارية أو نظرية التنمية التخطيطية. وما يلفت النظر أن النصوص القليلة المتاحة والخاصة بالكوفة وتشييدها من الداخل، تجرّ الباحثَ كلما تعمق في المطالعة إلى الاقتناع بأن الأمور تمت من أول وهلة، وأن الكوفة حصلت على خاصيات المصر الأساسية منذ انطلاقتها الأولى وفي فترة قصيرة، المصر أي مكان إقامة دائمة، مالك لنواة معمارية ومنظم، ومن البديهي أنه يجب إعادة النظر في مراحل تطور الكوفة منذ خطواتها الأولى.

سبق لنا أن جلّينا مظهر الكوفة، وسنحاول التدقيق فيه، وهو في الحقيقة يتحدى التصورات المعهودة. نحن نترقب مثلاً أن تعود بقوة إلى السطح مسألة العلائق القائمة بين المدينة والريف. الواقع أن الكوفة كانت مرتبطة في آن بالسواد، ومنه تستمدّ عيشها وقاعدتها المادية ـ كنقطة لامتصاص الفيء، كما يقول ماسينيون[1]، ومرتبطة ببلاد العرب حيث تستمد جوهرها البشري والثقافي. إلا أن نشاطها ارتبط بالأحرى بالأفق الإيراني الذي اتجهت إليه بكامل طاقتها[2]. ولذا يظهر السواد عبر المصادر بمظهر الإطار الجغرافي، و«البستان» في نظر أهل الكوفة، تمثلاً بعبارة معروفة[3]، أكثر منه فضاء اندمج في الحاضرة أو غزاها. المؤكد أن المبادلات البشرية جدّت وزادت قوة بمرور الزمن، لكن يتبين أن

---

(1) Massignon, *Opera minore*, p.39.

(2) الطبري، ج٤، ص ١٢٢ وما بعدها، ص ١٤٩ ما بعدها وما قبلها؛ ج٦، ص ٣٤ وما بعدها؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٠٢ وما بعدها، ص ٣٢٤-٣٢٥؛ ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص ١٦٦؛ Hill, *Termination of Hostilities*, p.138ff. p.152-53. Shaban, *The Abbasid Revolution*, Cambridge, 1970, p.16ff.

(3) نسبت هذه الكلمة إلى سعيد بن العاص دلالة على السواد كـ «بستان قريش»، مما أدى بقسم من أهل الكوفة إلى معاداته فعلاً: البلاذري، أنساب الأشراف، طبعة القدس ١٩٣٦، ج٥، ص ٤٠؛ ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، .B.G.A، ج٥، ص ١٦١ - ١٦٦.

الانفصال كان أقوى من التناضح. هذا ولا يمكن الحديث عن عراق عربي جديد في القرن الأول الهجري تحتل فيه الكوفة والبصرة موقع العاصمتين السياسيتين. بل على النقيض من ذلك مثّلت هاتان البؤرتان العراقين[١] العربيين، واستنفدتا فكرة العراق العربي، فما كان يوجد خارجهما شيء سوى سواد البصرة والكوفة أي ميدانهما أكثر مما هو ترابهما[٢]. وقد اقتطع بعض الأفراد من أرستقراطية الأشراف قطائع[٣] وأقاموا بها من حين لآخر، ومنهم المختار[٤]. لكن الحياة الزراعية استمرت على ما كانت عليه في الماضي، مع قيام الدهاقين بمهمة الجباية، وكانوا مسؤولين أما دواوين الدولة[٥]. لقد كان الرجل العادي في الكوفة يشعر بوزن السواد شعوراً سلبياً فقط، عندما تنقص مداخيل الخراج باستحواز جماعات الخوارج على الأموال[٦]. ويعني هذا أن العلاقة بين المدينة والريف لا تسترعي هنا الانتباه كثيراً ولا تبرز للعيان وأنها أكثر تشعباً مما هي عليه في وضع المجتمع المنسجم غير المتأثر بظروف الهيمنة العسكرية والعرقية، أو في صورة الحاضرة المستقلة التي لا تعيش إلا اعتماداً على ترابها. ومن المفارقات أنه بقدر ما يقوى الرباط الحميم الذي يربط بين الكوفة والسواد، يتضاءل شعورهم بهذا الرباط. وبدون أن تكون العلاقة بين الحاضرة وريفها مفقودة، فهي تكتسي صبغة ثانوية في هذا المجال، كان الكوفة قد اقتلعت من الأرض

---

(١) العراقان كلمة شاعت في كل مكان في العصر الوسيط ولا صلة لها بما طرأ من تمييز لاحقاً بين (العراق العربي) (والعراق الأعجمي = الجبال) راجع: Le Strange, *The Lands of Eastern Caliphate*, p.185، بخصوص هذه النقطة الأخيرة.

(٢) وهو ما كان يفرض مسبقاً لا تملك الأرض فقط، بل رباطاً مادياً بواسطة الشغل، وحضوراً، وتنقلاً بين المدينة والحقل. على أن الشعور بالتملك كان الأقوى.

(٣) سنعود إلى مسألة القطائع التي وزعت في خلافة عمر، وفي خلافة عثمان بصورة أوسع: Massignon, op.cit. p.48؛ حسين الزبيدي، **الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة**، بغداد، ١٩٧٠، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٤) كان يملك قرية كاملة وضيعة ضخمة في خطرنية: **أنساب الأشراف**، ج٥، ص ٢١٤. لكن من المهم التذكير بوجود انبثاث عربي بالسواد منذ القرن الأول مع تقوية الظاهرة في القرنين الثاني والثالث. انظر بهذا الصدد عبد العزيز الدوري: «الإسلام وانتشار اللغة العربية والتعريب» في **القومية العربية والاسلام**. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨١، ص ٦١ - ٩٠.

(٥) Shaban, *Islamic History*, p. 53.

(٦) هو «كسر الخراج»: راجع الطبري، ج٦، ص ٢٥٨ بالخصوص، حيث يحرض الحجاج أهل الكوفة على «أن يقاتلوا عن بلادهم وفيئهم»؛ راجع أيضاً الدينوري، **الأخبار الطوال**، ص ٢٦٩١، ٢٨٠؛ خليفة بن خياط، **التاريخ**، ج١، ص ٢٧٢ - ٢٧٨؛ Wellhausen, *Die religios-politischen Oppositions parteien im alten Islam*، نقله إلى العربية عبد الرحمن بدوي، طبعة جديدة بالكويت، ١٩٧٣، ص ٦٠ - ٩٨. وقد لاحظ صالح العلي، بعد أن ذكر ابن خرداذبه، أن خراج العراق انخفض في ولاية الحجاج، إلى ٢٤ مليون درهم بعد أن كان ١٢٠ مليون درهم، اعتباراً للانكسار الحاصل، أي الاغتصاب الذي جد بسبب الخوارج: راجع التنظيمات، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٥.

للنهوض بمشاريع يغطّي رهانها مجال الإسلام كله. لم تكن الكوفة مدينة زراعية كما أنها لم تكن مدينة تجارية. وهذا منظار آخر ينبغي تفنيده أو تقويمه: وهو يتمثل في فكرة ما للدور التجاري من أهمية ضرورية لتفسير الازدهار الذي تبلغه حاضرة من الحواضر. وهي تتحول إلى فكرة فاتنة شديدة الجاذبية إذا تعلق الأمر بمدينة إسلامية، منذ أن أبرزت أهمية اللغه التجارية في القرآن، مروراً بالتاريخ القوافلي لمكة، دون إغفال الاتجاه التجاري الأولي للرسول، إلى أن أوضحت خطوط الاتصال الكبرى في العالم الإسلامي بصورة مفصّلة أكثر، ووزنه النقدي في العصر الكلاسيكي (٦٥٠ - ١٠٥٠)، وكذلك تيارات المبادلات العظيمة التي اخترقت مجال الإسلام[١]. لم ينفك التقليد التاريخي الحديث يفرض أخذ الظاهرة التجارية بعين الإعتبار، عند القيام بأية دراسة تاريخية للمدينة، إلا أن الكوفة، وكذلك البصرة، لم تنشأ من احتياجات التجارة التي لم تكن محركاً لتطورها. وفي حين أن البصرة - التي ازدهر دورها التجاري كما عرفناه، في القرن التاسع[٢] - تمكنت لا محالة من النشوء مجدداً من العدم، نظراً لموقعها الطيب، كان المركز الديني بالنجف العنصر الوحيد الذي خالفته الكوفة حين قضي عليها إلى الأبد. لقد تمكنت التجارة من إنقاذ البصرة إلى حد ما. وبما أن التجارة كانت ضعيفة بالكوفة، فإنه لم يتح لها مثل هذا الإنقاذ. وبعد، فقد ظهرت التجارة هنا وهناك منذ البداية[٣]، وقامت بوظائفها الأساسية في تغذية الحاضرة وهي الحاضرة المتخمة بالعُملة[٤]، لكن هذه التجارة تمت انطلاقاً من المال الموجود والعمران القائم.

لم تنشأ تصورات شعبية خاصة بالكوفة، لها ثراء التصورات نفسها التي نشأت بخصوص البصرة وبغداد اللتين كثيراً ما ورد ذكرهما في كتاب ألف ليلة وليلة مثلاً. حقاً

---

(١) ابن خرداذبه، المسالك، ص ١٥١ وما بعدها؛ عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، بغداد، ١٩٤٨؛ Lopez et Raymond, *Medieval Trade in The Mediterranean World,* N.Y., 1961.
Goitein, *A Mediterranean Society*, Berkeley, 1967; Lombard, *L'Islam dans sa première grandeur*, Paris, 1971; *Espaces et réseaux du haut moyen age*, Paris, 1972.
وأعمال ماسينيون وكلود كاهن من بعده معروفة بما يكفي.

(٢) صالح أحمد العلي، التنظيمات، ص ٢٣٣ - ٢٦٣؛ Lombard, *L'Islam...*, *op.cit.*, p.142 de la nouvelle édition..

(٣) الزبيدي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأول الهجري، بغداد، ١٩٧٠، ص ١٤٩ - ١٧٨.

(٤) كان محصول الخراج في خلافة عمر ١٠٠ مليون درهم: فتوح البلدان، ص ٢٧٠؛ أما عن عصر زياد، فيراجع أنساب الأشراف، ج٤(١)، ص ٢١٦، والأرقام هي خاصة بالكوفة فحسب؛ والصولي، أدب الكتّاب، القاهرة، ١٣٤١ هـ، ص ٢٢٠.

وجدت رؤية شيعية كارثية، وقد حللها ماسينيون(١)، كما وجد تصور ثقافي، ما زال حياً، متعلق بالارث النحوي(٢)، إلا ان ايقاع أطوار حياة هذه الحاضرة بقي هزيلاً في المخيال الإسلامي. وبذلك تفرض نفسها صورة الحاضرة الإسلامية المتأخرة، الحاضرة المختنقة في أزقتها الضيقة، المسحوقة بتشعبها الفوضوي، المأهولة بالسكان والمتلونة(٣)، وإذا كانت فكرة «المدينة»(٤) قد ظهرت بظهور العصر العباسي - التي نفترضها متراصة - وكذلك فكرة الربض المحيط، يبقى أن الكوفة تميزت بخاصيات المدينة المفتوحة الهندسية الواسعة المهوّاة وهي الخاصيات الموجودة حين كان نشاطها السياسي والعسكري على أشده (١٧ - ١٣٢ هـ/ ٦٣٨ - ٧٤٩)، والموجودة مجدداً في آخر مراحل حياتها(٥). ولذا وجب في استقرائنا للمدينة الإسلامية من الجيل الأول إمعان النظر باتجاه الماضي القريب (العربي ذاتياً، والماضي الفارسي(٦) والهلنستي(٧))، أكثر من إمعانه بالاتجاه إلى المستقبل أي نحو الجهاز الكلاسيكي، وقد أضبح هذا الجهاز يتماثل مع طول الزمن وإلى حدّ كبير بنمط المدينة العراقية القديمة(٨).

---

(١) Massignon, *op.cit.*, p.54؛ البراقي، تاريخ الكوفة، ص ٧٠ وما بعدها، يعرض وصفاً غريباً لنهاية الزمان بالكوفة والعلامات البارزة المرافقة لذلك، وهي عبارة عن تنبؤات توحي بالكوارث.

(٢) الفهرست، تحقيق فلوجل Flügel، ص ٦٤ - ٧٧؛ ياقوت، معجم الأدباء، ج٥ ص ١٠٦ - ١١٥. لقد اعتمدت كل التآليف الكلاسيكية في الأدب والطبقات، المقارنة بين الكوفة والبصرة في مجال النحو الذي ارتبط كثيراً بفقه اللغة، ولا سيما ابن الأنباري. أما عن المُحْدَثين فيراجع جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، القاهرة، ١٩٢٤، ج٢، ص ١٧٩ - ١٨٩؛ وأحمد أمين، ضحى الإسلام؛ Brockelmann, Geschichte sup. I pp.177ff.,.... وخصّ المخزومي المدرسة النحوية بالكوفة بدراسة جدية عنوانها: مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، بغداد، ١٩٥٥.

(٣) انظر لاحقاً ص ١٣٤ من هذا الكتاب.

(٤) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٢؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١، ص ٧١، ٧٤، ٧٦؛ الطبري، ج٨، ص ٥٦١.

(٥) ابن جبير، الرحلة، بيروت ١٩٥٩، ص ١٨٧ وما بعدها؛ ابن بطوطة، الرحلة، بيروت ١٩٦٠، ص ٢١٩ وما بعدها. وهناك معلومات عند المقدسي في أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١١٧.

(٦) انظر لاحقاً، ص ١٦٦ - ١٧٣.

(٧) انظر لاحقاً، ص ١٦٢ - ١٦٦.

(٨) H. Franckfort, «Town-Planning in Ancient Mesopotamia», *Town Planning Review*, XXI (July 1950); Sir Leonard Wooley, *Excavations at Ur: a Record of Twelve years' Work*, London, 1954; *History of Mankind*, I, pp. 417-429; Leo Oppenheim, *La Mésopotamie*, Paris, 1970, pp. 88-155. وقد ذهبت مرغريت روتن بعيداً جداً في المقارنة بين المدينة الاسلامية في العهد الوسيط والمدينة البابلية، انظر: Marguerite Rutten, *Babylone*, Paris, 1948, pp. 51-55. راجع أيضاً: E. Wirth, «Die Orientalische Stadt...», *Saeculom* 26 (1975), pp. 45-94. ونقدنا له لاحقاً، ص ١٤٤ - ١٤٦.

لا شك أن شخصية حاضرة ما ولا سيما اختياراتها الإيديولوجية تؤثر في بنية مجالها وأكثر من ذلك في رؤية هذا المجال، وقد أجاد ماسينيون عرض التصور الشيعي اللاحق (القرن الرابع هـ/ العاشر م.) للكوفة[١]. لكن تصور المدينة الشيعية المتميزة بطابعها الفارسي وذات الخصوصية الكبيرة، لا يطابق في الجملة واقع القرن الأول والثاني من الهجرة، حيث شاركت الكوفة بقسطها في التاريخ العربي الصميم وفي صميم مشاكل الامبراطورية. فكانت مسرحاً لأعظم الحركات على اختلافها وكانت نقطة تجذر فيها الفاتحون العرب الأوائل، وبوتقة لأسلمتهم.

عند ذلك تبرز على صعيد الجغرافيا التاريخية أربعة خطوط للبحث: قضية مدنية تهمّ تنظيم المجال الداخلي، وقضية تعمير واستيطان، وقضية بيئة، وأخيراً قضية وظائف الكوفة.

من الواضح أن هذه المستويات تتشابك فيما بينها، فيكون الفصل بينها مفتعلاً.

إن تاريخ الكوفة غطته فعلاً كتابات كثيرة[٢]. كتب ماسينيون بحثاً ثرياً جاء طابعه طبوغرافياً أصلاً، وهو كذلك دون شك، لكن الأمر يكون متيسراً بصورة غير لائقة لو استرجعنا هذا البحث على علاته وتوسعنا فيه لا غير، كما فعل الجنابي[٣]. أما التعمير فإنه يفترض دراسة علاقاته بالمجال وضبطاً لقائمة القبائل، وهو يطرح مشكلاً سكنياً، مشكل التعايش الإنساني ومشكل العلائق بالتنظيم العسكري الجبائي. وفي المقام الثالث يستدعي المحيط التفكير فيه من زاوية المواصلات والاقتصاد والإطار الطبيعي وأسماء المواضع المشكّلة لدائرة الكوفة، والحركة المزدوجة التي تدفع الكوفة نحو السواد ونحو بلاد العرب على السواء. وأخيراً فإن قضية وظائف الكوفة العسكرية والسياسية والإدارية تثير من جديد القضايا السابقة لكنها تتشكل أساساً حول الروابط بالعالم الإيراني. هذا ويواجهنا عائق التحديد الزمني وكذلك العائق التوثيقي حيثما كان[٤].

---

(١) *op.cit.*, pp.52, 54؛ راجع أيضاً بشأن مفهوم المسجد المبارك، والمسجد الملعون: ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٧٣، وخاصة البراقي، التاريخ، ص ٤٤ وما بعدها.

(٢) باستثناء الدراسة المعروفة لماسينيون المنقولة نقلاً سيئاً إلى العربية، ينبغي ذكر كتاب الجنابي وعنوانه تخطيط مدينة الكوفة عن المصادر التاريخية والأثرية، بغداد ١٩٦٧، ١٩٧ صفحة ورسوم وخرائط كثيرة. وقد اهتم صالح العلي بمنطقة الكوفة: سومر، عدد ١٩، ١٩٦٥، ص ٢٢٩ ـ ٢٥٢، ومجلة كلية الآداب، عدد ٥، ١٩٦٢، ص ١٧ ـ ٤٤. وهناك أعمال أخرى كثيرة عن الحياة الاقتصادية والثقافية: راجع بحثنا، مادة «الكوفة»، في E.I./2.

(٣) امتاز عمل الجنابي باستعراض نتائج الحفريات الأثرية التي تمت في القصر وحواليه.

(٤) المصادر مشتتة وجزئية. أما بخصوص مصادر تاريخ الكوفة فيعود الرجوع بنفع كبير، فضلاً عن بحث ماسينيون المذكور آنفاً، إلى دراسة صالح العلي: «مصادر دراسة تاريخ الكوفة في القرون الاسلامية الأولى» في مجلة =

الإطار الزمني

عملياً شيدت مدينة الكوفة على مراحل، وأكثر المراحل بداهة بعد تحليل أولي هي: خلافة عمر (١٧ - ٢٣ هـ/ ٦٣٨ - ٦٤٣) وولاية زياد (٥٠ - ٥٣ هـ/ ٦٧٠ - ٦٧٢) - وكانتا فترتين رئيسيتين - وولاية خالد القسري (١٠٥ - ١٢٠ هـ/ ٧٢٣ - ٧٣٧)، والعصر العباسي الأول (١٣٢ - ١٩٧ هـ/ ٧٤٩ - ٨١٣)، والعصر العباسي الثاني وهو فترة زمنية شاسعة (١٩٧ - ٣٣٤ هـ/ ٨١٣ - ٩٤٥). توحي دراسة المصادر المكتوبة بهذا التقسيم الزمني أنها مؤيدة تماماً بما توصل إليه علم الآثار من نتائج، فالحفريات الجديدة التي جرت في القصر[١] أتاحت بلوغ مستوى أولي، ومستوى أموي (يمتد على فترتين) ومستوى عباسي (يمتد أيضاً على فترتين). والأهم من ذلك أن القصر الأموي المشيد والذي أعيد بناؤه، يشكل إلى حد بعيد أهم عنصر في العمارة من جهة الهيكل كما من جهة المظهر[٢]. فجاء علم الآثار مؤيداً للتاريخ في اصطفاء العصر الأموي عصراً أساسياً في وجود الكوفة، ولم يكن ذلك على الصعيد المعماري فحسب، إذ لم يقم الولاة العباسيون بغير ترميم القصر الأموي لصلاحه على وضعه القائم، لكن أيضاً لأن التغيير شمل كل شيء في الكوفة فلم يعد هناك مجال للخلق، بل للتدعيم انطلاقاً من البنية الموروثة، إذ لم تعد الكوفة عسكرياً وسياسياً، أحد المراكز الحيوية للامبراطورية. وليس من باب الصدفة كذلك أن تكاثرت الجزئيات بالنسبة للعصر الأموي في ما لدينا من مصادر حيث كانت الأحداث متوفرة عندئذ، وقد جدّت أمور وأمور. هذا ولا يمكن أن يكون الترابط عفوياً بين ما اصطبغ به المستوى الأموي من مركزية كشف عنها علم الآثار، وما اكتسته الأحداث التاريخية من أهمية، وإسهاب الاخباريين في الكلام عنها. حقاً لا يستبعد أن تكون الكوفة أفادت في العصر العباسي من نماء دار الخلافة بصورة عامة وأنها امتدت في الفضاء في الوقت ذاته الذي رقت خلاله الحضارة أي إطار الحياة، ويشهد على ذلك اتساع حقل الآثار[٣] وإشارات متفرقة إلى

= المجمع العلمي العراقي، عدد ٢٤، ١٩٧٤، ص ١٣٧ - ١٧١، لكن هذا العمل المتين المفصل أهمل المصادر الشيعية. ومن المؤسف أننا لم نتمكن مؤخراً من الاطلاع على كتاب النسب لابن الكلبي، وتوجد منه نسختان متكاملتان في المتحف البريطاني ومكتبة الاسكوريال. وقد ذكر صالح العلي أن لا شك في قيمته بخصوص خطط القبائل.

(١) محمد علي مصطفى «تقرير أولي عن التنقيب في الكوفة»، مجلة سومر، عدد ١٠، ١٢، ١٣ (١٩٥٤، ١٩٥٦، ١٩٥٧): استخدمنا خاصة الترجمة الانجليزية بالنسبة للنتائج الحاصلة سنة ١٩٥٦، والتي نشرت بعنوان «Preliminary Report on the Excavations in Kufa during the third season» في مجلة سومر، عدد ١٩ (١٩٦٣)، ص ٣٦ - ٦٤.

(٢) «Preliminary Report...», *op.cit.*, pp.37, 41, 57. والمخطط المرفق ناطق بذاته.

(٣) الجنابي، ص ٤١، ١٧٢: كان أقصى امتداد يعادل ١٥ كم في الطول و ٩ كم في العرض.

فساحة المدينة[1]، ومظهر الفترة الأولى من المستوى العباسي بالضبط[2]. لكن المعلوم أيضاً أن القوى الحية ـ الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ـ هاجرت من الكوفة إلى بغداد[3] وأن الكوفة وقع الحط من مركزيتها على صعيد المؤسسات[4]، وصار وضعها هشاً بصورة متزايدة. فإذا وجد نموّ ما في الفترة العباسية فينبغي إكساؤه صفة النسبية وإدراجه في الحركة العامة للعالم الإسلامي الكلاسيكي (القرن التاسع والقرن العاشر).

وخلافاً لذلك، كان العصر الأول المتفرع إلى ثلاث فترات هي الفترات التي تولى خلالها الخلفاء الثلاثة (عمر وعثمان وعلي) يبدو بدائياً من الوجهة المعمارية، لكن ذلك العصر كان القاعدة والأس، ويمثله مستوى الأسس في هندسة القصر[5]. لقد رسم هذا العصر من جميع الوجوه بنية وجود الكوفة، فخطط في خلافة عمر لهندسة المدينة واستنبط تنظيمها، واستعمل ذلك من عدة وجوه في خلافة عثمان، وأضفيت في خلافة علي الصيغة التاريخية ذات الدلالة الرفيعة بالنسبة للقرون التالية.

كانت الكوفة الأولى تاريخية أكثر من الكوفة الأموية التي صارت مهمشة في ما بعد، وكانت الكوفة في العصر الأموي أكثر تاريخية منها في العصر العباسي. لكن لا شك أنه ينبغي عكس الحركة على صعيد الحضارة المادية. ومصدر الطابع المميز للعصر الأموي أنه جمع في آن عنصر الحضارة وعنصر الدلالة التاريخية. فالكوفة تشكلت عندئذ بوصفها مدينة، وأفرزت الحدث بصورة صاخبة بصفتها موضع تاريخ، ولذا يستدعي هذا القرن قطعاً عمودياً عميقاً. لكن لا يمكن تناسي الإطار الزمني، وكله انفصامات وقفزات ووثبات، ضمن أية دراسة بنيوية ذلك أنه هو الذي يسمح بصفة خاصة بتجميع وتركيب جمهرة الأحداث التي تخترق حياة المصر.

---

(١) ذكر ياقوت رقم ١٦ ميلاً وثلث (هل كانت أميالاً مربعة؟) بالنسبة لسنة ٢٦٤ هـ: معجم البلدان، ج٤، ص ٤٩٢؛ وتحدث المستوفي القزويني بعد مدة طويلة جداً عن دائرة محيطها ١٨,٠٠٠ خطوة وهذا أمر له معناه: Le Strange, *op.cit.*, p.75.

(٢) محمد علي مصطفى، مرجع مذكور، ص٣٨ ـ ٤٨.

(٣) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٢٣٤؛ راجع بخصوص العلماء الكثيرين الذين هاجروا من الكوفة منذ إنشاء بغداد: ابن سعد، **الطبقات**، ج٧، ص ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، الخ. وقد تشكلت أغلبية المهاجرين إلى بغداد من العلماء من أهل الكوفة.

(٤) منذ أن تولى العباسيون الحكم، وقعت مراجعة وضع الأعمال أي الولايات. فبقي الطبري يتحدث في سنة ١٣١ هـ. عن والي العراق: **التاريخ**، ج٧، ص ٤١١. ولكن في سنة ١٣٢ تعدّد الولاة: الكوفة وسوادها إلى جانب البصرة وفارس والجزيرة والموصل الخ، كل على حدة، ص ٤٥٨. وبداية من سنة ١٣٣، كان الحديث عن الكوفة ومنطقتها، ج ٧، ص ٤٦٠. راجع أيضاً قدامة بن جعفر، **كتاب الخراج**، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٨.

(٥) محمد علي مصطفى، مرجع مذكور، ص ٦٣.

- ٦ -

الكوفة الأولى (١٧ - ٢٤ هـ/ ٦٣٨ - ٦٤٤)
هل كانت مجرد معسكر أم مدينة حقيقية؟

يكون انطلاقنا من نص رئيس كتبه لويس ماسينيون[1]، واستعرض فيه مراحل التمصير معرفاً إياه بأنه «الانتقال من مرحلة تجمع المعسكرات إلى مرحلة التوزيع على حارات في المدن». ثم أضاف: «من المعلوم أن الكوفة، بعد سنة ١٧ هـ (= ٦٣٨ م)، لم تكن خلال السنوات الخمس الأولى من إنشائها، سوى مجرد تجمع من خصاص القصب (= أكواخ منطقة وهران)، يقام بين حملتين بصورة مؤقتة (استمرت النساء في مصاحبة الرجال إلى الحرب). وأثناء ولاية المغيرة (التي امتدت من ٢٢ هـ إلى ٢٤ هـ)، ظهرت مواقع الخيام المصففة، بصورة دائمة، في شكل حيطان صغيرة من لبن. وبداية من سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م) وقع أخيراً الشروع في بناء دور حقيقية من آجر، وكان ذلك في ولاية زياد».

فالأمر واضح لا مراء في ذلك: يرى ماسينيون أنها كانت إقامة عسكرية في البداية، غير مستقرة، ويفسّر ضعف الاستقرار كذلك بأن الكوفيين بذلوا نشاطاً واسعاً في منطقة الجبال. واستقر القوم بعد معركة نهاوند تماماً (٢١ هـ/ ٦٤٢ م)، وبذلك عوضت الخيام ببيوت من لبن. ويمكن أن تكون «المناهج» وحدها هي التي ابتنيت فحدّدت بحيطان صغيرة

---

(١) [illegible] op. cit., pp. 38-39. لقد [illegible] ماسينيون ياقوتاً واقترح عبارة «جدران صغيرة من لبن». لكن لا نجد لها ذكراً عند هذا [illegible] البلدان، ج٤، ص٤٩١). وخلافاً لذلك، لعلّه اقتبس هذا الرأي من الشيخ علي الشرقي الذي نشر سنة ١٩٣٢، مقالاً عنوانه «عروبة المتنبي»، في مجلة الاعتدال الصادرة في النجف. وقد اقتطف منه البراقي نتفاً، ص ١١٧ وما بعدها. وتتفق هذه المقتطفات اتفاقاً واضحاً مع رأي ماسينيون على الأقل بالنسبة لهذا القسم، مما يحمل على الاعتقاد أن ماسينيون قد اطلع [illegible] ليه بالرغم من تأكيده العكس. ويمكن أيضاً التساؤل في خصوص نقاط أخرى كثيرة، فيما إذا كان ماسينيون [illegible] منه الكثير. وإلاّ فإن البراقي يكون قد اقتبس عن بحث ماسينيون، المؤرخ في ١٩٣٤ دون ذكر اسمه، علماً أن مؤلّف البراقي نشر سنة ١٩٣٨.

من لبن، على أنّ ماسينيون يماثلها بصفوف الخيام(١). وأخيراً، لم تشيد الكوفة حقاً إلا في العصر الأموي، خلال ولاية زياد، حيث استخدم الآجر المعهود في بلاد الرافدين. هذا التصور جذاب حقاً وهو تصوّر تحتل فيه لوازم البناء مكاناً مهماً في بلورة الكوفة وتحولها إلى مدينة، كما أن واقع الترحال العسكري يخول إضفاء صفة المعسكر والمدينة ـ المعسكر على الكوفة. وتؤيد هذا التصور القريب من المعقول إشارة وردت لدى البلاذري وجاء فيها أن أهل البصرة، كانوا في بداية الأمر يقلعون خصاص القصب قبل الخروج إلى القتال(٢)، ويتحدث ابن سعد من جهته في خصوص الكوفة عن الخيام وأهل الخيام كما ورد أنّ أغلب سكان الكوفة كانوا يسكنون بيوت القصب(٣). إلاّ أننا لا نعثر على أي أثر في أقدم النصوص، نعني سيفاً كما رواه الطبري(٤)، لوصف مثل هذه الطريقة البطيئة المتسقة المتبعة في بناء الكوفة قبل ولاية زياد، أي الكوفة كما كانت في خلافة عمر، ولم نجد أثراً لذلك في فتوح البلدان للبلاذري(٥). وتعتمد هذه الصورة تماماً على خبر عارض رواه ياقوت وانفرد بروايته (القرن السابع/ القرن الثالث عشر(٦). يتحدث ياقوت بالخصوص عن خصاص من قصب كانت تقتلع في كل حملة، حين كانت النساء ترافق المقاتلة إلى الحرب، كما يتحدث عما سنه الوالي المغيرة بن شعبة من تغيير (دون تحديد للتاريخ، ٢٢ ـ ٢٤ هـ. أو ٤١ ـ ٥٠ هـ في خلافة معاوية؟)(٧) لكن مقولة ياقوت عن الكوفة، ومقولته عن البصرة أيضاً، اقتبستا أغلب موادهما عن البلاذري. فما هو مصدر هذه الزيادات؟ سبق لصالح العلي أن لاحظ أن مصدر الفروق الطفيفة الموجودة بين البلاذري وياقوت بخصوص البصرة، يتمثل في تآليف مفقودة، منها كتاب الساجي خاصة(٨). لكن ما الرأي بشأن

(١) يتحدث ماسينيون بعد ذلك عما ذكره سيف من مناهج ورواه الطبري، ج٤، ص ٤٥، وسنرى ذلك، فيقول إنها عبارة عن صفوف من الخيام. ثم يقول: «إن القائمة الوحيدة المتوفرة بخصوص صفوف المساكن يرجع عهدها إلى الفترة الأولى. كان التصفيف ينطلق من الجامع. ويشمل خمسة عشر منهجاً (يعني صفوف الخيام) كما حددها سعد للقبائل»: Massignon, pp. 44-45. وقد أكد الشيخ علي الشرقي الشيء نفسه، واقتبس عنه البراقي، ص ١١٧.

(٢) فتوح البلدان، ص ٣٤٢.

(٣) الطبقات، ج٦، ص ٦ و٧.

(٤) الطبري، ج٤، ص ٤٠ ـ ٤٨.

(٥) فتوح البلدان، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٧.

(٦) معجم البلدان، ج٤، ص ٤٩١.

(٧) يقع اختيار علي الشرقي وماسينيون على الفترة الأولى: Massignon, *op.cit.*, p.38.

(٨) التنظيمات، ص ٢٣؛ أعاد العلي إلى الأذهان ضمن ما ذكره من مصادر، مرجع مذكور، ص ١٥٠، أن مصدر البلاذري الرئيسي في خصوص الكوفة هو أبو مسعود الكوفي الذي لم يعثر له على ترجمة في أي كتاب، لكن يبدو أنه عاش في بداية القرن الثالث الهجري. ويعود الخبر الذي رواه ياقوت إلى ابن عباس، دون سند وسبط: انظر =

الكوفة؟ لم يصل إلى علمنا شيء من ذلك. يبدو الخبر الذي أورده ياقوت دقيقاً جداً، فلا شك أنه مستمد من مصدر معين. على أنه غير مستبعد أن يكون ما تجمع من خبر عن البصرة قد أسقط على الكوفة، وهو ما يوحي به كتاب فتوح البلدان عند الحديث عن اقتلاع الخصاص.

وما لا يقبل الجدال أن ماسينيون اعتمد نصاً متأخراً ـ هو نصّ ياقوت ـ انفرد بالخبر لرسم مسار الكوفة في أول عهدها، باستثناء ما أمكننا الإطلاع عليه من وثائق. وبدا هذا الوصف مستنداً إلى تحديد زمني لم يعد ثابتاً تبعاً لذلك. ولنكرر ما قلنا: الثابت في كل المصادر أنه تمّ استخدام القصب ثم اللبن، ولا يمكن أن يكون هذا الأمر محل نقاش. وعلى النقيض من ذلك، يتفق البلاذري والطبري على عدم التحدث بتاتاً عن تفكك المعسكر عند بدء الحملة. ويأخذ كلاهما بعين الاعتبار التخطيط بمثابة الأمر الأساسي، أي التصور الشامل المخطوط على الأرض، الذي كاد يظهر بسرعة فائقة، من أول وهلة، مواكباً للبناء بالمواد الصلبة، كما روى سيف بن عمر هذا الأمر.

مشكلة المراحل حسب البلاذري وسيف بن عمر:

إنّ لهذا النقاش أهميته كما هو واضح. ذلك أن الأمر يتعلق بالتحقق من وجود إرادة تمصيرية ظهرت منذ البداية، وصدرت عن السلطة كما عن أهل الكوفة. ولنتساءل هل كانوا يشعرون بكنه مدينة جديدة، وهل طرح على النظر مشكل الاستقرار، في بداية الأمر؟ ويطرح أيضاً مشكل الموازاة بين الكوفة والبصرة.

البلاذري:

نبدأ باعتماد البلاذري. فقد ذكر روايات سبعاً، تهمنا منها مباشرةً روايتان، الأولى مقتضبة وهي مدنية (عن الواقدي)(١)، والثانية مطوّلة وهي عراقية بصرية (عن أبي عبيدة) وكوفية (عن هشام بن الكلبي)(٢) في آن واحد. وينسب الواقدي كل شيء إلى ما قام به

= مجدداً صالح احمد العلي، «مصادر دراسة تاريخ الكوفة في القرون الإسلامية الأولى»، مجلة المجمع العلمي العراقي، ٢٤/ ١٩٧٤، ص ١٣٧ ـ ١٧١.

(١) فتوح البلدان، ص ٢٧٤؛ Caetani, *Annali*, III,2, p.847: أورد كيتاني رواية الواقدي من خلال الطبري وابن الأثير؛ راجع أيضاً صالح العلي، مرجع مذكور، ص ١٤٧. لقد ألف الواقدي كتاب الفتوح، وبقيت منه مقاطع: Fuat Sezgin, *Geschichte des arabischen Schrifttums*, Leyde, 1967. الترجمة العربية، القاهرة، ١٩٧٧، ج ١، ص ٤٧٤ ـ ٤٧٦.

(٢) فتوح البلدان، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٦.

سعد في سنة ١٧ هـ، أي الاختطاط، وتوزيع الخطط على القبائل، وبناء المسجد.

ولا يتحدث هشام بن الكلبي ولا من روى عنهم من أهل الكوفة[١]، عن الخيام أو خصاص القصب. وهم يلحون على العملية الأساسية الأولى المتمثلة في تحديد مجال [illegible] وقع برمي السهم. [illegible] منيعاً. وهب [illegible] خصتين كبيرتين. [illegible] وحدة لقبائل اليمن كافة في اتجاه الشرق، والأخرى لمضر في اتجاه الغرب. وهما تظهران بمظهر المجموعتين الموحدتين، لكنّ الخطط وزعت على القبائل في صلب كل مجموعة[٢]، ولم يجرِ الحديث عن البناء في هذه المرحلة. بل خلافاً لذلك، يحدونا الشعور أن المجال المركزي، هو الذي يسميه غرابار Grabar[٣] «الفوروم Forum»، قد وقع الإقتصار على تحديده. لكن هناك فراغاً في الرّواية إذ هي تقفز إلى المغيرة وتنسب إليه توسيع المسجد ثمّ إلى زياد الذي ابتناه[٤]. وتقترب هذه الرواية مما رواه ياقوت واعتمده ماسينيون، لكنها تفترض فكرة التخطيط الفوري النهائي، مع أنها لم تتحدث عن بناء المسجد قبل ذلك، حتى ولو كان باللبن. وتشير هذه الرواية إلى دور المغيرة، وقد أكّدت على هذا الدور كذلك رواية ثالثة أوردها البلاذري (عن المدائني)، فنسب إليه صراحة فضل بناء المسجد الذي لم يعمل زياد إلا على توسيعه. علماً بأن المسجد هو ما يضفي الطابع العمراني على المدينة، فإنه يمكن أن نستنتج من ذلك أن البناء بالمواد الصلبة ظهر في ولاية المغيرة. لكن هاتين الرّوايتين الأخيرتين توحيان بأن العمل كان منقوصاً، إذ كيف كان المسجد والقصر في ولاية سعد؟ يصعب الإعتقاد أن الأمر يتعلق بمجرد مجال خال. لقد روى البلاذري نفسه أخباراً أخرى[٥] ذكرت ما أحدثه محمد بن مسلمة بالكوفة، وقد أرسله عمر لإحراق بوابة القصر الخشبي الشامخة التي كان الوالي يحتجب خلفها عن الرعية. فهل كان قصراً مبنياً من قصب وكان بابه من خشب؟[٦]. لا نرجع ذلك، وإلاّ كان علينا رفض الرواية

---

(١) فتوح البلدان، ص ٢٧٤ يستعمل عبارة «منذ أبيه (محمد) ومشايخ الكوفة».

(٢) فتوح البلدان، ص ٢٧٥: من المعلوم أن ياقوتاً أورد في معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩١، هذه الرواية وسنرى أن هذا التسكين لليمنية شرقاً والمضرية غرباً، لا يطابق التصور الخاص بالاستقرار الأول كما وصفه سيف، ولا بالتضمنات الأرضية لروايات الثورات التي جدت في القرن الأول الهجري. ويمكن على النقيض من ذلك ترجمة هذا الاستقطاب الثنائي عن وضع جديد نشأ في العصر العباسي حوالي عام ٢٠٠ هـ: راجع اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣١١، وقد ورد فيه تحديد لموقع مضر إلى الغرب، ضمن تحركات القبائل. ولم يرو الرواية الثانية الكلبي وحسب، بل أبو عبيدة معمر بن المثنى أيضاً: Caetani, *Annali*, III.2, p.847.

(٣) عند لابيدوس، Lapidus, *Middle Eastern Cities*, Berkeley and Los Angeles, 1969, p.34.

(٤) فتوح البلدان، ص ٢٧٥.

(٥) فتوح البلدان، ص ٢٧٧. هذا خبر جدي سنده يعود إلى أبي مخنف وهشام الكلبي.

(٦) هذا ما أكده بوضوح الخبر الذي رواه أبو مخنف.

القائلة بأن سعداً بنى باللبن، وقد أيد سيف بشدة هذه الرواية[١]، وكذلك الواقدي[٢]، واليعقوبي[٣].

وفيما كانت الروايات التاريخية العربية واضحة بالنسبة للبصرة، في خصوص استخدام القصب لبناء حجرة الصلاة والقصر في المرحلة الأولى[٤]، فإنّا لا نجد ما يقابل هذا بالنسبة للكوفة. ولعل ذلك لا يرجع إلى قضية التوثيق وحسب، بل إلى ما أحاط بنشوء المدينتين من ظروف متنوعة سوف نعود إليها.

سيف بن عمر:

يتوفر لدينا نص وحيد مفصل بخصوص بداية التخطيط[٥]. يحدد هذا النص بوضوح المراحل ويؤرخها خلال سنة ١٧، مضيفاً بعض العلامات الزمنية[٦]. ويستعرض بمزيد من الوضوح القبائل المستقرة ومواقعها، وذلك ثمين بالنسبة لكل دراسة تخص الجغرافيا القبلية. إلا أنه يتبين بعد قراءة النصوص التي تروي الأحداث السياسية اللاحقة[٧]، أن توزيعه الطوبوغرافي للقبائل أصح من الروايات التي أقرت المضرية غرباً واليمنية شرقاً. الحقيقة أن قيمة سيف في هذا الباب جيدة كما نعلم. يبقى أن أخباره المليئة بالمعلومات توحي بضعفها من الوجهة الزمنية. وهو ما لا يفيد في حل مشكل المراحل. ذلك أنه يتحول تحولاً غير معقول من ولاية سعد إلى ولاية زياد[٨]. وتجري الأمور كما لو أراد سيف تقديم صورة متقصاة لنشأة الكوفة وتطورها، متجاوزاً مجرد الإطار الزمني المحدد إلى عام ١٧، فتجاوز بذلك صيغة الحولية التاريخية[٩]. لكن ما يقوله عن بناء المسجد في ولاية زياد يشبه كثيراً ما يقوله عن ذلك في ولاية سعد[١٠]. يحتفظ نص الطبري بثرائه الإخباري

---

(١) الطبري، ج٤، ص ٤٧: التبكير بالعمل لا يستثني وجود مرحلة أولى، قصيرة حسب سيف، حيث كان البناء من قصب، لكن هل كان القصر أيضاً من قصب؟

(٢) فتوح البلدان، ص ٢٧٥؛ Caetani, *Annali*, III,2, p.847

(٣) كتاب البلدان، ص ٣١٠.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٤١؛ ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص ٤٣٢؛ صالح العلي «خطط البصرة»، في سومر العدد ٨، ١٩٥٢، ص ٧٢.

(٥) الطبري، ج٤، ص ٤٠ - ٤٨. نقدم المرجع لهذا النص في طبعة Leyde، ج ١، ص ٢٤٨٢ - ٢٤٩٥، حيث أنه يكتسي مزيداً من الأهمية ومكاناً في ثنايا دراستنا.

(٦) المرجع نفسه، ج ٤، ص ٤٢ و ٤٤.

(٧) ثورة حجر بن عدي: الطبري، ج٥، ص ٢٥٣ - ٢٨٦؛ ثورة المختار: الطبري، ج ٦، ص ٧ - ١١٦؛ ثورة شبيب: الطبري، ج٦، ص ٢٢٤؛ ثورة زيد بن علي: الطبري، ج ٧، ص ١٦٠ - ١٧٣ و ١٨٠ - ١٩١.

(٨) المرجع نفسه، ج٤، ص ٤٦.

(٩) يتضمن تحليل كايتاني عملياً، نصّ سيف بتمامه: Caetani, *Annali*, III,2, pp.853 - 863.

(١٠) الطبري، ج٤، ص ٤٥ و ٤٦.

الاستثنائي بعد إبداء هذه الاحترازات، وعلينا أن نعتمده من جميع الوجوه. ولنستعرض الأحداث في تسلسلها. فحالما استقر أهل الكوفة، طلبوا من عمر الإذن في البناء بالقصب. لم يرفض عمر ذلك مع أنه كان يفضل البقاء بالمعسكرات، ولا شك أنه كان يؤيد نصب الخيام[1]. ثم شب حريق في شهر شوال، فقضى على كل شيء، وحصل ذلك بعد عشرة أشهر من استقرار العرب (في محرم). وطالب أهل الكوفة عندئذ بأن يؤذن لهم في البناء الصلب، يعني باللبن. **فكان ذلك منطلق التخطيط، أي أن التخطيط تزامن مع قرار البناء باللبن**. إن نصّ سيف واضح كل الوضوح في هذا الشأن.

الرواية الأولى:

«فبعث سعد منهم نفراً إلى عمر يستأذنون في البناء باللبن فقدموا عليه بالخبر عن الحريق وما بلغ منهم وكانوا لا يدعون شيئاً ولا يأتونه إلا وآمروه فيه فقال افعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا في البنيان ...»[2].

الرواية الثانية:

«لمّا أجمعوا على أن يضعوا بنيان الكوفة أرسل سعد إلى أبي الهياج فأخبره بكتاب عمر في الطرق أنه أمر بالمناهج أربعين ذراعاً وما يليها ثلاثين ذراعاً وما بين ذلك عشرين وبالأزقة سبع أذرع ...»[3].

ثم يبدأ الوصف المفصل للأجهزة الأساسية المقامة، والخطط القبلية، والسكك، طبق ترتيب دقيق. فتم في آن التخطيط والتمصير في الجملة. ولقد تحدد الفضاء المركزي (= Temenos) بالخصوص في هذا الوقت بالذات الذي يلي تخطيط المسجد: «فأوّل شيء خطّ بالكوفة وبني حين عزموا على البناء المسجد»[4].

ويستنتج من نص سيف أنه:

أ) في فترة أولى دامت عشرة أشهر وهي فترة التنزيل، برزت إلى الوجود بصفة

(1) المرجع نفسه، ج٤، ص ٤٣.

(2) المرجع نفسه، ج٤، ص ٤٤: يمكن أن نستنتج أن بيوت الكوفة العادية لم تتجاوز ثلاث حجرات في القرن الأول هـ. ويندر أن تكون بيوت ذات طوابق.

(3) تابع للخبر الأول بالاسناد ذاته: الطبري، ج٤، ص ٤٤.

(4) الطبري، ج٤، ص ٤٤. لا Wellhausen في *Skizzen*, VI, p.155، ولا Caetani في *Annali*, III,2. p.857، ولا Creswell في *Early Muslim Architecture*, I, pp.18 ff، لا أحد منهم أدرك الصلة بين قرار البناء بالصلب وتخطيط المدينة. فأخطأوا جميعاً في مدلول الأشغال الأولى التي تحددت بفضلها مساحة مركزية لم يكن المسجد إلّا مركزها هي، فاعتقدوا أنّ المناهج الفاصلة للخطط القبلية تنطلق من المسجد. لعلّ الوحيد الذي اشتمّ مثل هذا الاحتمال هو ريتمير (Reitemeyer, *op.cit.*, pp.21,32)، لكنّه يرى أنّ مخطّط سيف يعبر عن هندسة معمارية من الصنف العباسي: *op.cit.*, p.35.

فوضوية وبدون تخطيط مسبق نواة مدينة ثابتة ومبنية، بيوتها من قصب، وهي متميزة عن المعسكر العادي لكنها لا تبتعد عنه كثيراً.

ب) الرغبة في البناء الصلب، أي في إنشاء مدينة حقيقية، ظهرت بقوة وكانت سبباً في كافة العمليات التي تؤدي إلى تحقيق هذا المشروع، مشروع (التخطيط) بالذات. ولم يتم البناء على الأرجح إذن، انطلاقاً من مجال وقع توزيعه وتقسيمه وتم فصله إلى أجزائه المتنوعة، بل إن البناء هو الذي يكون فرض تحديد هذا المجال.

ولا شك أن سيفاً يعرض علينا في هذا المقام مثلاً تمصيرياً إرادياً، عقلانياً، سريعاً بصورة عجيبة، مبتعداً عن التصور الذي اعتمده ماسينيون والذي مفاده أن المدينة نشأت نشوءً بطيئاً، وهو تصوّر لا يتفق كذلك والأخبار التي رواها البلاذري فيما يخص وجود تخطيط تلاه البناء في مرحلة لاحقة.

الواقع أن علم الآثار يقدم لنا يد المساعدة في هذا المجال، شواهده تؤكد على وجود قصر شيد تشييداً صلباً في الفترة الأولى[1]. فمن بنى هذا القصر؟ هل بناه سعد أو المغيرة؟ هل بُني بعد ولايتهما؟.[2] لا يمكننا الفصل في هذا الأمر. لكن ذلك دليل على وجود مركز أثري قبل العصر الأموي. ويتبين من قراءة المصادر الكتابية وجود عدة أصناف من مواد البناء في اللحظة التاريخية الواحدة. فقد ظهرت في آن واحد وتعايشت في فترة متأخرة جداً من العصر الأموي، خصاص القصب، ومساكن من لبن، وبناءات من آجر[3]، لأن مرحلة معينة لا تمحو المرحلة التي سبقتها.

ما من شك في أن التردد ساد في بداية الأمر، كما أن الاستقرار استتب بصفة فوضوية. على أنّ هذه المرحلة لم تكن لتدوم طويلاً ومن المؤكد على كلّ حال أنها لم تدم خمس سنوات (تلك التي ارتآها ماسينيون). ظهرت في الأوّل الخصاص عفوياً على وجه أرض

---

(١) مصطفى، مرجع مذكور، ص ٧٣. يحدد المؤلف المستوى الأول من الحفريات بدار الامارة التي بناها سعد أو بمبنى قبل إسلامي.

(٢) بُني المستوى الأول السابق للعصر الأموي بالآجر، ولا أثر للزخرفة فيه: محمد علي مصطفى، مرجع مذكور، ص ٦١. وبذلك يؤيد علم الآثار أقوال سيف الذي روى أن روزبه بنى داراً لسعد هي «قصر الكوفة اليوم»، مستخدماً آجر القصور الساسانية في الحيرة: الطبري، ج٤، ص ٤٥.

(٣) لو تبعنا حرفياً نص سيف بن عمر حيث التخطيط مرهون بالبناء باللّبن، لقلنا أنّ اغلب مساكن الكوفة كانت من لبن إبان التخطيط، وليس من شكّ في أن دور الأشراف كانت كذلك زمن زياد. على أن ابن سعد، طبقات، ج ٦، ص ٢٣٨، يؤكد «أن عامة الكوفة يومئذ لخصائص» يعني زمن علي بن أبي طالب. وورد في تاريخ الطبري وفي خصوص ثورة ابن المهلب بالبصرة، ج٦، ص ٥٩٤، إن دار الحسن البصري كانت من «خص القصب». وهذا يثير تساؤلات محيرة.

الكوفة، معبّرةً عن الرغبة الجامحة في الاستقرار عليها، فتشكلت ما يشبه القرية العظيمة. وجاء دور التخطيط والتمصير سريعاً جداً بإشراف سعد - هذا أمر ثابت لدينا - لكن ربما بصفة مستقلة عن المادة البنائية المستخدمة. فانتصب على الأرض شكل لمدينة مقبلة قادرة على حمل وجود إسلامي جماعي (وهذا هو المعنى الصحيح لكلمة مَصّر) وجود دائم مدني وحضري. لعل القصب كان المادة المهيمنة في ولاية سعد، باستثناء المسجد والقصر، خلافاً لما قاله سيف، وأن المغيرة هو الذي أدخل اللبن[1]. لكن ليس هذا أمراً ثابتاً، فضلاً عن أن تغيير المواد لو وقع زمن المغيرة، لدخل على بنية مدينة سابقة الوجود فلم يكن له أن يغير من تنظيم المجال الداخلي، وكذلك كان الأمر في عهد زياد بعد ذلك. كانت نية التمصير حاضرة منذ البداية، وكذلك الجانب الإرادي في ظهور مدينة الكوفة. هذا ما سنحتفظ به أساساً من النص المهم جداً المنسوب إلى سيف بن عمر.

(١) هذا كما بينا رأي ماسينيون والشيخ علي الشرقي. ولا يُعتمد إلّا نص ياقوت الذي حللناه سابقاً، وتالياً، يظل الشك قائماً.

- ٧ -

بنية المجال الداخلي: المدار المركزي

يورد سيف بالذات تفاصيل ممتازة عن المخطط المدني الأولي الذي ستتقيد به بنية الحاضرة المقبلة وطوبوغرافيتها. يتشكل مجال الكوفة الأولى من عناصر ثلاثة: مساحة مركزية كبرى سياسية ودينية تشمل المسجد والقصر، وهي عبارة عن مكان القيادة وتجمّع الناس، ثم تأتي الخطط القبلية للسكن، وهي تشع انطلاقاً من هذه النواة المحددة من أعلى قسراً، والمحصورة، والمرسومة بمثابة المجال المقدس، ثالثاً: هناك عنصر للفصل والمرور في آن، وهي المناهج التي تمكن من تفريد الخطط القبلية وجمع المقاتلة في أسرع وقت داخل المجال المركزي الكبير. ومن المناسب قطعاً أن نتساءل عن أصل هذا التصور ودلالته أيضاً. لكن ينبغي قبل ذلك تقرير وجوده وواقعه تقريراً حازماً. ذلك أن سيفاً خلف لنا نصاً صعباً، كثيراً ما أسيئت قراءته ووقع التسرع في استيعابه.

المجال المركزي:

وعلى هذا فإن قراءة مستعجلة أدت[1] وتؤدي إلى حملنا على الظن أن هناك تخطيطاً أولاً للمسجد أنجز برمي السهام، وأن شوارع مستقيمة انطلقت من المسجد، وأن هذه الشوارع كانت بمثابة صفوف للخيام[2]، بمعنى أنها كانت الخطط القبلية ذاتها.

أما القصر، فلعله كان يقع (من ذا الذي حدد موقعه؟ كيف؟) إلى الجنوب الشرقي من المسجد. وقد ذهب الأمر بكرسويل Creswell إلى أن استنتج أن رمية السهم تساوي ما

---

(١) Welhausen, *Skizzen*, VI, p.155؛ Creswell, *Early Muslim Architecture*, I, pp.18 ff.، وبحثه «Architecture» في E.I/2. وقد جاراه الجنابي في رأيه دون نقاش - مرجع مذكور، ص ١٢٤ - ١٢٧، أو ناقشه بالأحرى نقاشاً متضارباً. يرى هذا المؤلف أنه لا وجود لفتحات أربع جنوب المسجد، حيث أن علم الحفريات لم يؤكد سوى فتحة واحدة. لكنه استمر يعتقد أنها فتحات بجدران المسجد. ونقل (ص ١٢٨) رسماً لفكري به فتحة في الشمال، وأخرى في الجنوب، وثلاث فتحات في الشرق والغرب، فكان مجرد تصحيح لرسم كرسويل.

(٢) Massignon، انظر ما سبق.

يقرب من ٥٥ متراً، في حين أنبه من المعلوم تمام العلم أن كل ضلع من الأضلاع التي يشكلها المسجد، كان يساوي قرابة ١١٠ من الأمتار. ثم أضاف قائلاً: إن نقاط انطلاق المناهج كانت تشكل الأبواب وفتحات المسجد[١]. ولم يصل أي باحث إلى استنتاج فكرة المساحة المركزية التي قصدها المخططون العرب، وأيضاً الوظيفة الثلاثية للعناصر المدنية بالكوفة الذي كان مخططها موحداً. وتبدو الفكرة الأولى حاسمة إذا أمعنا النظر في نص سيف الوارد عند الطبري[٢].

- تحدد موقع المسجد في مرحلة أولى. كيف؟ لم يصلنا من أمره شيء. لكن ذلك لم يتحقق بواسطة رمية السهام قطعاً.

- ثم جرى استدعاء الرامي في المرحلة الثانية فقط، وهو رام قوي «شديد النزع»، كما يقول سيف. ولعله انتدب من بين أساورة القادسية. ويطرح لا محالة في هذا الموضوع مشكل فيما إذا كان هذا فعلاً شعائرياً، أو كان تقنية لإنشاء الحواضر، وفيما إذا كان من أصل عربي أو ساساني (الأحرى أنه كان ساسانياً). وقف الرامي في وسط المسجد المحدد شرعاً، وأطلق القوس في اتجاهات أربعة مطابقة تقريباً للجهات الجغرافية الأربع[٣]. إلا أن القبلة وهي إلى الجنوب الغربي تعتبر المرجع الأول.

وبذلك تحددت مساحة مربعة الشكل ضلعها غلوتان - وهو المصطلح الصريح الذي إعتمده سيف والطبري - وتعني الغلوة «مسافة رمية السهم»[٤]. وقد أصبحت قياساً يعادل $\frac{١}{٢٥}$ من الفرسخ، أي ٢٤٠ متراً[٥]. فيكون ضلع المربع مساوياً بذلك ٤٨٠ متراً، أي ما يقرب من نصف كلم، وتساوي مساحته ٢٣٠٤٠٠ متر مربع، أي ٢٣,٤ هكتاراً بالضبط. هذا مجال مهم كما نرى. ومن المعلوم أن مساحة مدينة أور كانت تساوي مائة هكتار، وأن بابل في عصر هيرودوتس كانت على شكل مربع ضلعه يساوي ١٢٠ غَلْوةً (بابلية)[٦] (أي أكثر من ٢٣ كلم) وهو مقدار عظيم لا يمكن مقارنته إلا بأبعاد سامراء. على

---

(١) Creswell, «Architecture», E.I./2.

(٢) الطبري، ج٤، ص ٤٤.

(٣) الطبري، ج٤، ص ٤٤. الجملة هي: «وترك المسجد في مربّعة غَلْوة من كل جوانبه».

(٤) ابن منظور، لسان العرب، ج١٥، ص ١٣٢ وهو يعادل ٢٥ غلوة بفرسخ.

(٥) يساوي الفرسخ ٣ أميال، أي ٥٩٨٥ متراً. وبذلك تساوي الغلوة ٢٤٠ متراً. راجع مادة «فرسخ» (Parasange) في E.I/2، بقلم W.Hinz؛ راجع أيضاً كتابه: *Islamische Masse und gewichte*, Leyde, 1955, pp. 62-63.

(٦) الملاحظ أن «ستاد» هيرودوتس لم يكن «الستاد» «الأتيكي بل البابلي، أي ما يعادل ٩٨ متراً. Stade: غلوة، ملعب المدرج.

أن ضلع معبدها وهو عنصر مركزي، كان قياسه غلوتين (قرابة ٤٠٠ متر). أما مساحة ميسان Mycènes، فكانت خمسة هكتارات.

إن هذا الفضاء الواسع الذي خَلَفَ القلعة القديمة لبلاد الرافدين. سيشمل المسجد ذاته، وقصر الوالي، والأسواق، وخصص خلاء لساحة كبرى استخدمت للاجتماعات وعرفت بالميدان أو الرحبة. فلا عجب إن كان لهذا المجال مثل هذه الأبعاد، ولا سيما أن أفراد الطبقة الارستقراطية تمكنوا من قضمه بعد ذلك، مع العلم أنه صح العزم على أن يبقى خارج كل نية تروم بناء المساكن الخاصة.

من أول نظرة يبدو نص سيف مبهماً ومغلطاً، لكنه صريح في كل ما سبق قوله. إذ لم تكن هناك حاجة إلى أن ترسم أولاً الخطوط الأولية لمحيط المسجد، إذا وجب بعد ذلك دعوة الرامي الماهر لتحديد المسجد ذاته.

يقول سيف:

«فأول شيء خطّ بالكوفة وبني حين عزموا على بناء المسجد، فوضع في موضع أصحاب الصابون والتمّارين من السوق فاختطوه. ثم قام رجل في وسطه رام شديد النزع فرمى عن يمينه فأمر من شاء أن يبني وراء موقع ذلك السهم ورمى من بين يديه ومن خلفه وأمر من شاء أن يبني وراء موقع السهمين»(١).

وهذه الآن الجملة الحاسمة: «وترك المسجد في مربعة غلوة من كل جوانبه». إنها جملة غامضة في تركيبها. لكنها واضحة بما يكفي لاستخلاص الاستنتاجات الآتية:

أ) لا يدل لفظ مسجد على فضاء ما، بل على الجهاز الديني المعروف(٢).

ب) أقحم هذا المسجد المربع الشكل في محيط مربع أيضاً أوسع منه، تحددت أبعاده بالغلوة فعلاً. هذا وإن رمية السهم تفصل مركز المسجد عن أقصى نقطة في المحيط، مع وجوب مضاعفة ضلع المحيط. وهو ما يدل عليه معنى الجملة التي ذكرها: «فترك المسجد في مربعة غلوة من كل جوانبه»(٣). ما هو الاسم الذي سمى به المؤلف هذه المساحة المركزية، إذا كان علينا أن نفهم كلمة مسجد في خصوصيتها الدينية الضيقة؟ استخدم لذلك كلمة **صحن** عدة مرات بعد ذلك، علماً أنه لا ينبغي فهمها بالمعنى المتأخر أي أنها ساحة مكشوفة

---

(١) الطبري، ج٤، ص ٤٤.

(٢) ذلك ما أدركه Grabar جيداً، خلافاً لما أبداه لامنس من رأي: Lammens, *Middle Eastern Cities*, p.32. ولا سيما ماسينيون؛ Massignon, *op.cit.*, p.52.

(٣) الطبري، ج٤، ص ٤٤.

في المساجد، تقابل بيت الصلاة المُغطّى (ظلّة)، بل يجب فهمها بمعناها الأول المرادف للفناء أي للساحة المركزية بأرض منبسطة. عرّف «لسان العرب» الكلمة بمعناها المتأخر (وتعني حرفياً ساحة، صحن لمركز البيت)، وأورد التعريف الآتي[1]:

«المستوي من الأرض مثل عرصة المربد، صحن».

والملاحظ أن استشهاد مربد البصرة يبدو مرجعاً رئيساً، وهو المجال الكبير المستخدم كسوق للدواب، وكملتقى للشعراء، وهو ما يقابل الكناسة في الكوفة. ولنلاحظ أيضاً أن مفاهيم الفلاة، والأرض المنبسطة، والمركز بالخصوص، التي نجدها عند ابن منظور للتعريف بالصحن، تعبر بصورة عجيبة عن الجوانب المتنوعة للمساحة المركزية، الموجودة فعلاً في أرض منبسطة كما في مجال صحراوي.

وقد أحيط هذا الصحن بخندق[2] فوراً، لكي لا يقع اقتحامه ببناية ما، وبذلك يكاد يكتسي مناعة مقدسة، ينبغي التساؤل عن كنهها. ومن هذا الصحن بالذات - وهي الكلمة التي اعتمدها سيف - تشع المناهج الخمسة عشر. وقد تحدد مفهوم الصحن بوضوح أخيراً، فكان يشمل المسجد والقصر والأسواق:

«فكان الصحن على حاله زمان عمر كله لا تطمع فيه القبائل ليس فيه إلا المسجد والقصر والأسواق في غير بنيان ولا اعلام»[3].

إن إقامة هذه المساحة المركزية كمركز للسلطة والدين، وللتجارة بصفة ثانوية، لدليل على وجود نية تمدنية واضحة عند الحكام العرب، لكنها تدل أيضاً على وجود خط متصل يرجع إلى العصور السالفة، فيما يخص تاريخ إنشاء الحواضر. إن لويس ممفورد[4] محق في رأيه حين يقول: «إن المعسكر المحصن (يعني القصر)، والمعبد داخل موقع يفصله حد مقدس عن الدنيا، يشكل سمة مميزة لإنشاء مدينة من المدن». هذا ولا يمكن القول، ونحن نتكلم على الكوفة تحديداً، إن حدود المساحة تكتسي طابعاً مقدساً، لأن الأمر يتعلق بمجرد منع سلطاني للبناء الخاص.

عموماً كان هذا المكان يتّخذ شكل القلعة المحصّنة أو المدينة - الحصن في التقليد المديني ماضياً - وتبرز هذه الظاهرة عند العراقيين القدامى بتواتر أكبر ممّا عند المصريين[5]

---

(١) لسان العرب، ج١٣، ص ٢٤٤.

(٢) الطبري، ج٤، ص ٤٥.

(٣) الطبري، ج٤، ص ٤٥.

(٤) Lewis Mumford, *La Cité à travers l'histoire*, Paris, 1964, p.53.

(٥) *Ibid.*, pp. 106 -109.

وعند الرومان مما عند اليونان. هنا، لا هذه المساحة ولا الكوفة بمجملها حتى عهد المنصور (١٥٥هـ/٧٧٢)لم تحاطا بأسوار، على أن الجامع والقصر حصّنا في الفترة الأموية. لكن المرء يميل إلى أن يجد في الطقوسية التي واكبت نشأة الكوفة وفي الوظيفة الثلاثية للمركز وأخيراً في رمزية التفرقة بينه وبين المدينة الأهلية، أقدم التصورات للنواة السياسية ـ الدينية التي عرفتها الإنسانية ولبقايا شكلية ملفتة للنظر.

لقد كان لمكّة مركزها وهو الحرم المحتوي على الكعبة. وكانت له حدود (الانصاب) لا يمكن خرقها بل أضيفت عليها صفة القداسة والتحريم وقد جدّدها عمر وثبتها في مكانها. ومن جهة أخرى الطقوسية التي حفّت بامتلاك موقع الكوفة (التنزيل) والتي تجسدت في تلاوة كلمات قدسية ذات طابع جاهلي، نجدها منسوبة إلى النبي عندما حلّ بقباء وأصلها العربي واضح. لذا يمكن أن نعتبر أن العرب قبل الإسلام كانوا متملكين للأساليب الأساسية المعهودة بزمانهم التي بفضلها تؤسس المدن، وهي مفهوم المجال المقدس ومفهوم المعبد (= المسجد) وعملية التخطيط والطقوسية الملائمة. إن هذه الأساليب العتيقة شاعت في كل العالم القديم. ولنضرب أمثلة عن مقدرة النماذج المدنية في التنقل والانبثاث من مناخ حضاري إلى آخر. لقد قيل إن العمارات ذات الطوابق من خاصيات النموذج الهلنستي بينما نجدها في بابل كما وصفها هيرودوتس ولربما استلف منها هذا الشكل المعماري ثم وقع استرجاعه من طرف الشرق. إن روما القديمة عرفت البوميريوم = pomerium وهو المجال المقدس الذي حُجّر عليه البناء[١]، أما الفوروم = forum المركزي فهو إلى حد بعيد مماثل للأغورا = agora التي تعتبر عنصراً معمارياً منبثقاً عن الحضارة اليونانية الأسيوية وعن مدرسة ميلي Milet بالتحديد[٢]. ولا بدّ أن يكون النموذج الهلنستي قد أشاع البعض من مكوناته في الشرق القديم الخاضع للفرس آنذاك، وكذلك فإن النموذج الروماني، وهو الآخذ عن تقليده الذاتي العتيق وعن الاشكال الهلنستية في آن، قد انبثّ في العالم الروماني وبث بطبيعة الحال هذه الأشكال[٣].

سيكون لنا رجوع إلى مشكلة التأثيرات على التصور الأولي للكوفة بمجملها، لكن في خصوص المساحة المركزية الكوفية يبدو لنا أن صيغة معممة ومعمول بها قد وجدت في كل مكان للتأسيس الإرادي للمدينة، وأنها تبتدىء بتحديد المجال المركزي العمومي[٤]، سواء

---

(١) *Ibid.*, pp. 267.

(٢) Roland Martin, *Recherches sur l'agora grecque*, Paris, 1951.

(٣) في خصوص التأثير اليوناني والروماني على الفرس في مجال المعمار، انظر: Ghirshman, *L'Iran des origines à l'Islam*, p.309.

(٤) Oppenheim, pp. 146 -147; Mumford, p.267.

كان قلعة أم لا. وهذا التقليد لا يمكن أن يقال عنه إنه بابلي أو هلنستي أو روماني أو ساساني، إلا أن العرب استبطنوه قبل الإسلام وزاد استيعابهم له بعد أربع سنوات قضوها بالعراق، منها سنة بالمدائن نفسها.

لكن المدائن كانت حاضرة مشيّدة، فلا تقدر على أن تكون أنموذجاً في هذه المرحلة الأصلية، على أرض خلاء. فإذا كان المشيدون الفرس الساسانيون كروزبه[1] حاضرين، فلا يوجد سبب لاستبعاد حضور خبراء في التمصير معهم. والأهم من ذلك هو الدور الذي قام به بعض أشراف الحيرة في هذه المرحلة الأولى من ظهور الكوفة. فقد روى أن ما قدموه من نصائح كان حاسماً لاختيار الموقع[2]. وكما تأكد في علم الآثار، وخلافاً لما ورد في المصادر الكتابية، فإذا صح أن المواد والتأثير المعماري الذي جاء من الحيرة، كان قليل الأهمية، فإن البذل الحيري كان مهماً على صعيد التصور المعماري. وهو ما يمكن أن نسميه اللحظة الحيرية في تاريخ الكوفة[3]. كان التصور الأولي عربياً إذاً وتغذى بالزاد العربي الأولي كما تغذى بالتقاليد التمدينية القديمة الغامضة التي تسربت من قبل إلى شبه الجزيرة. ووجد أيضاً وعلى الأرجح تأثير فارسي، وهو يتلون بلون غرب بلاد الرافدين، بمعنى أن بابل أثرت فيه. وكان للحيرة أخيراً دور الوسيط فنقلت نظرة معمارية مزدوجة تركبت من عناصر هلنستية وفارسية ومن بلاد الرافدين وعناصر عربية[4]. مما لا مراء فيه أن كل هذه العوامل مع إضافة التأثير اليمني[5]، تضافرت لتنير سبيل المنشئين وتزودهم قبل كل شيء بصورة المساحة المركزية. هذا وإن الظروف الموضوعية التي كان يعيشها المهاجرون العرب يسرت الأمور. كانوا يمتلكون دولة عسكرية مركزية كانت تستلزم وجود مجال للقيادة، ومكان لممارسة السلطة، وهو أمر لم يكن معمولاً به في مكة خلال العصر الجاهلي. وهم أيضاً مكتسبون لدين، كان جوهرياً لوجودهم كأمة، وهو يدخل في علاقة شبه عضوية بالقيادة السياسية العسكرية. لكن، بما ان الإسلام حظر الخلط بين التجارة والصلاة، فلن يكون المسجد معبداً متاجراً، حسب التقليد العتيق، وستتميز عنه السوق على الرغم من وقوعها في المركز[6]. وهكذا ندرك المستقبل الذي كان يترقب هذه البنية الثلاثية للنواة المدنية، التي

---

(١) الطبري، ج٤، ص ٤٥، .Caetani, *Annali*, III,2, p.860

(٢) فتوح البلدان، ص ٢٧٥.

(٣) محمد علي مصطفى، مرجع مذكور، ص ٤٥.

(٤) راجع في خصوص الحيرة صالح أحمد العلي، مرجع مذكور، ص ٢٨ - ٤٤.

(٥) راجع بحثنا بعنوان «Les Yamanites à Kufa au 1er siècle de l'Hegire» في: *JESHO*, XIX,2, 1976, p.177.

(٦) Wirth, «Zum Problem des Bazars (suq, carsi)», *Der Islam*, 51 (1974), pp. 203-260, et 52 (1975), pp. 6-46.

ستحدد مورفولوجيا المدينة الاسلامية العتيدة بأكملها.

المسجد الأصلي:

لا فائدة من التذكير بالمناقشات التي دارت بين المستشرقين والمؤرخين المسلمين بخصوص فكرة المسجد، طالما كانت المواقف مطبوعة هنا وهناك بالعجز عن استقراء النصوص وإمعان النظر فيها. أما في العصر الحديث، فقد اهتم غرابار بقضية مولد المسجد الاسلامي وتطوره[1]. وقد يعاب على غرابار أيضاً، أن بحثه عن «نمط مثالي»، جعله يتنقل دون حرج وبنوع من الخفة، من القرآن إلى ابن خلدون. إن أقواله يمكن أن تعتبر في آن صحيحة وخاطئة، من وجهة دراستنا المونوغرافية، كما من وجهة المنطق التاريخي المجرد، من جهة أخرى. فمن البديهي أن القرآن يماثل بين فكرة المسجد وفكرة المعبد، لأن المعبد كان المرجع العالمي في ذلك العصر. لكن ما لا يقل بداهة أن الإسلام الذي عرّف بنفسه كدين جديد، لم يكن له منذ البداية، إلا أن يضفي على «المعبد» الاسلامي خصوصيته الاكثر صرامة. ويتحدث غرابار من جهة أخرى[2] عن ظهور «مركز» مدني/ موطني = civic center بالكوفة والبصرة والفسطاط، وهو أمر صحيح. لكنه لا يكاد يدرك فيه الجانب التقليدي والعادي، لأن مركز النشاط الموطني لا يتعارض مع الخطط القبلية، كما لا يتعارض المسجد المركزي مع مساجد العشائر إلا بقدر ما يتعلق الأمر بدين جديد وجب غرسه، ولربما وجد معبد ومركز للسلطة أيضاً، لو تعلق الأمر بدين قديم. والنقطة الثالثة والواجب دحضها إطلاقاً هي أن المركز وهو الشبيه بالفوروم forum كما يقول غرابار عن حكمة[3]، لا يماثل المسجد لا من حيث المجال ولا من حيث الوظيفة (وهذه فكرة أخذها عن لامنس Lammens). بل هو يتطابق مع الصحن كافة، كما ذكرنا آنفاً. وأخيراً فرأيه القائل إن المسجد ذاته بقي مدة طويلة خلاءً، أو إنه لم يصبح بناية قائمة إلا في العصر الأموي، هو رأي صحيح، إذا اعتمدنا بعض الاشارات الواردة في النصوص التي بين أيدينا، وهو ليس كذلك حسب بعض الروايات الأخرى[4]. فما تقوله هذه النصوص فيما

---

(١) Grabar, «The Architecture of the Middle Eastern Cities from the past to present: The case of the Mosque» in *Middle Eastern Cities*, pp. 26 - 46.

(٢) *Ibid.*, pp. 33 ff.

(٣) *Ibid.*, p.34.: «عادة يسمّى هذا الميدان مسجداً ويسمّي مصلّ مرّة واحدة» يقول غرابار ذلك بالاستناد إلى الخطوات الأولى التي قطعتها الكوفة والبصرة والفسطاط.

(٤) *Ibid.*, p.35.: «تحول المسجد إلى بناء بعد أن كان خلاءً». وكان ذلك بين ٦٥٠ و٧٥٠، وهي المرحلة الثانية من تاريخ المساجد.

يتعلق بالكوفة؟

تقول إن المسجد كان بدون أروقة على كل جوانبه، قبل إمارة زياد، باستثناء جانب القبلة. فكان ممكناً مشاهدة دير هند من الصحن، وباب الجسر في اتجاه الفرات[1]، وهذا يعني أنه لم تكن هناك جدران مرتفعة كفاية، لكن لعله وجد سياج من قصب أو جدار صغير من لبن على أكثر تقدير. إن الطابع البدائي للمسجد أي انعدام البناء أو قلته، نستدل عليه أيضاً من أن سعداً هدمه بسرعة كبيرة ونقله إلى الجنوب قرب القصر، بسبب سرقة بيت المال الذي كان ملحقاً بالقصر[2]. أما عن تعليل عملية تقريب المسجد من القصر، فهو أنه تقوم على المسجد حراسة تكون بالليل والنهار، وأن حضور الحراس من شأنه أن يمنع تكرار مثل هذه الحادثة العارضة، مما يفسر أن المسجد يلاصق القصر، فشكّلا بنايتين متلاصقتين. وسيحتل الموضع الأولي للمسجد بعد ذلك جانباً من السوق، ويكون من نصيب باعة الصابون والتمر. وهذا ما يفسر عبارة سيف في هذا المضمار الذي أراني أعود إليها:

«فأول شيء خطّ بالكوفة وبني حين عزموا على البناء المسجد، فوضع في موضع أصحاب الصابون والتّمارين من السوق»[3].

إن هذه المقولة عن تفتح المسجد، وسرعة انتقاله بالفعل، توجهنا إلى فكرة الخلاء غير المشيد، ومن المعلوم أن المصادر تحدثت بخصوص البصرة عن مسجد مشيد بالقصب[4]. لكن ذلك لا يمنع، لا محالة، وجود قاعة مسقفة للصلاة (وهذا هو المعنى الذي تؤديه كلمة ظلة) تتجه إلى القبلة[5] - مع العلم أنها حادت عنها قليلاً[6] -. إن المصادر التي بين أيدينا لا تتكلم إلا عن الصحن وتصفه بأنه صحن غير مسيج أو قليل التسييج، مما يتيح الإشراف على الجسر ودير هند. لكن الارجح أن هذه الظلة كانت موجودة منذ البداية، وقد شيدت تشييداً خفيفاً بالقصب وحتى باللبن[7]. وبعد أن وقع نقل المسجد، وهدمه سعد،

---

(١) الطبري، ج٤، ص ٤٧. وجاء في روايات أبي مخنف المتعلقة بدير هند أنه يقع إلى الشمال الشرقي، قرب الجسر بالذات: الطبري، ج٦، ص ٢٢ مثلاً. والشابشتي صريح في تحديد موقعه بالحيرة: الديارات، ص ٢٢٤ - ٢٤٥؛ وياقوت أيضاً: معجم البلدان، ج٢، ص ٥٤١.

(٢) الطبري، ج٤، ص ٤٦: صار المسجد «لاصقاً للقصر وكانت من قبل تفصلهما مسافة مائتي ذراع = ١٠٨ أمتار.

(٣) الطبري، ج٤، ص ٤٤.

(٤) فتوح البلدان، ص ٣٤١، على الأقل أثناء الفترة الأولى، في عهد عتبة.

(٥) الطبري، ج٤، ص ١٤٤؛ Caetani, *Annali*, III,2, p.858.

(٦) بما قدره ١٧٠ درجة: الجنابي، ص ١٤٤، الذي اعتمد التنقيبات الأثرية لعام ١٩٣٨.

(٧) في عام ١٦ أو ١٧ هـ. بنى أبو موسى في البصرة المسجد باللّبن وغطاه بالقصب: فتوح البلدان، ص ٣٤٢. =

التخطيط الأول للصحن حسب رواية سيف

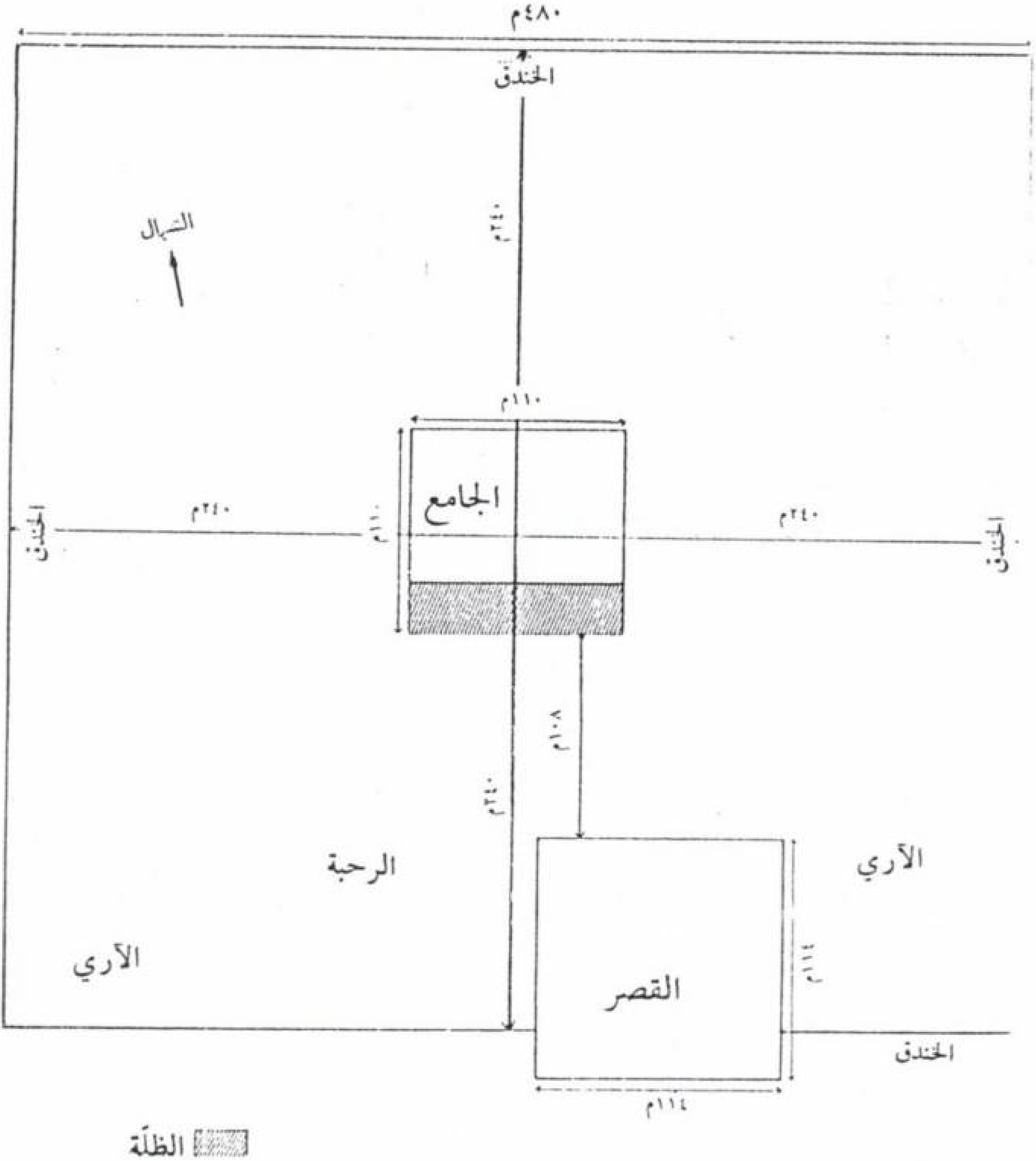

بمعنى أنه قوض الظلة («أراغ بنيانه»)، أي بعد تحديد موقعه نهائياً، قرر سعد بناء المسجد بناءً صلباً مصمماً، والمقصود حجرة الصلاة فقط[1]. وهكذا وإلى حد الآن فإن نص سيف لا يتناقض مع نفسه إطلاقاً. لا بد أن تكون الظلة وجدت منذ البداية، ثم تحسن بناؤها بعد ذلك، ويحتمل أنها بنيت بالآجر، وألحق بها صحن سيء الغلق كان يفتح على الخلاء الخارجي، لكنه كان لا محالة محدد الأبعاد. ولذا فإن مجال المسجد الأصلي لم يكن مجالاً خالياً بل كان مفتوحاً من ثلاثة جوانب وغير مستكمل. والمرجح أنه بني من جانب واحد بناءً سيئاً. وإني أقول «المرجح» لأنه افتراض لا تسمح به رواية سيف بصفة صريحة. بل بالعكس، يحثنا على ذلك غموضه في هذه النقطة بالتحديد، إلى جانب المقارنة بين مختلف المصادر المتاحة لدينا، والمصداقية التاريخية. ومن هذه الوجهة، يكون نص سيف متضارباً، غير دقيق بصفة تامة. فقد أشار إلى الظلة الأولى قائلاً:

«وكانت ظلته مائتي ذراع (نحو ١٠٨ أمتار) على أساطين رخام كانت للأكاسرة، سماؤها كسماء الكنائس الرومية».

وأضاف بعد قليل أن زياداً جلب أعمدة من الأهواز ثقبت وحشيت بالرصاص. ثم تمّ تمتينها بسفافيد من حديد ارتبطت بها مع السقف، هذا السقف المرتفع الذي حملته[2]. وهو يتكلم تارة عن دهقان من همذان وتارة عن روزبه ذاك البنّاء المعماري الذي كثيراً ما يرد اسمه، ويؤكد أن هذا الأخير استخدم عَمَلة من عرب الحيرة النساطرة وهم العباد. إن الشبه بين هاتين الروايتين لمراحل متغايرة ليس بتمام الاكتمال، لكنه ملفت للنظر. وهو يسمح لنا بتأويل المرحلتين الأوليين على أنها إسقاط للمرحلة الأخيرة (فترة زياد). ذلك أن المصادر الأخرى، وهي قليلة التعرض لهذا الموضوع، تنسب حادثة استيراد أعمدة الأهواز إلى زياد، لكنها لا تتكلم البتة عن أعمدة من رخام في خصوص عصر سعد[3]. يزيد النص الموجود في الفتوح للبلاذري، ما قاله غرابار، وهو يتلخص في أنه يمكن للقبائل البناء من

= وقد أكد كرسويل وجود النمط المعماري لبلاد الرافدين في البناء: Creswell, *op.cit.*, pp.17-18 ويضيف أن سقف المسجد بالكوفة كان من خشب.

(١) لو أن الظلة بنيت بناء صلباً منذ البداية بسقف على النموذج الشامي البيزنطي، لما كان من المتيسر هدمها وإعادة البناء على بعد ١٠٠ متر.

(٢) الطبري، ج٤، ص ٤٤ - ٤٦

(٣) فتوح البلدان، ص ٢٧٦؛ ياقوت، معجم البلدان: ج٤، ص ٤٩١، يؤكد أن زياداً كان أول من بنى بالآجر وأنه أتى بالأساطين من الأهواز. ويروي ياقوت في ص ٤٩٢ من الجزء نفسه، أن عبيد الله بن زياد هو الذي بنى المسجد بناء صلباً، وهي رواية تلتقي مع ما ورد في الأخبار عن ثورة مسلم بن عقيل حيث نرى جند ابن زياد يجوسون في ظلال المسجد على ضوء القناديل: راجع الطبري، ج٥، ص ٣٧٢.

وراء العلامات، أما داخلها فإن سعداً ترك فناء (والمقصود خلاء عارياً) للمسجد والقصر[1]. هناك إشارة وحيدة إلى الأعمدة وهي قول البلاذري في الكتاب نفسه: «وكان زياد يقول: أنفقت على كل أسطوانة من أساطين مسجد الكوفة ثماني عشرة ومائة»[2]. لكن لا بد من الانتباه إلى أنه يذكر في رواية أخرى أن اقتطاع أساطين الحجر من جبل الأهواز جد من أجل مسجد البصرة وفي فترة متأخرة نسبياً[3]. أما ياقوت، فكان واضحاً في هذا الموضوع، فقال إنه وقع جلب الأعمدة من الأهواز وصنعها، في ولاية زياد[4]. إن كلّ ما أوردناه لا يناقض سيفاً بصفة واضحة لا مراء فيها، ويبقى نصّ سيف من أكمل مصادرنا، إنّما يدب فينا الشعور بأن زياداً هو الذي منح المسجد جهازه المعلمي من كل الوجوه. أما العنصر الوحيد المؤيد لرواية سيف فهو أن المرحلة الأولى بالنسبة للمسجد كما بالنسبة للقصر كانت تحت تأثير الحيرة، في حين أن مرحلة زياد كانت فارسية بدون ريب. لو أضفنا إلى كل هذا ما هو معروف عن البصرة، وأن هناك شعوراً ضعيفاً بالهندسة المعمارية العظيمة عند العرب، وهو افتراض صحيح، لرجحنا ليس فكرة انعدام أي بناء للمسجد زمن سعد، إنّما فقدان بناء شامل للمسجد يطمح إلى العظمة والاكتمال والانسجام المعماري.

القصر:

لنبدأ باستفهام علم الآثار. فهو يشهد بوضوح، كما مر بنا، على وجود مستوى سبق العصر الأموي، دون أن نعلم هل أن العصر الأموي يبدأ مع زياد أو مع عبد الملك، لأن المصادر المكتوبة تؤكد أن الخليفة عبد الملك هدم كل شيء وأعاد بناءه بعد ثورة مصعب[5]. فيمكن لذلك أن توافق الفترة الأولية ما قام به زياد كما قد توافق ما قام به السابقون له. لكن من هم؟ سعد أم المغيرة؟ لم يتحدث سيف عن المغيرة إطلاقاً.

تؤكد الحفريات الأثرية أن المستوى الأول يشهد بآثار خاصة بأسس وحدة أصلية واحدة، كانت مربعة الشكل بقياس ١١٣,٩٥ متراً على ١١٣,٨٦ متراً[6]. إنها أسس لأسوار مهدومة، لكن يظهر أن البنائين اللاحقين عادوا إليها ليشيدوا فوقها أسواراً جديدة،

---

(١) فتوح البلدان، ص ٢٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧٥. لا يتكلم البلاذري عن أساطين ولا عن أي بناء زمن سعد.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٧٦.

(٤) معجم البلدان، ج٤، ص ٤٩١.

(٥) البراقي، تاريخ الكوفة، ص ٦٦ وما بعدها.

(٦) محمد علي مصطفى، مرجع مذكور، ص ٦٠.

لها الأبعاد نفسها تقريباً، وهي توافق أبعاد الجدران الداخلية. وتوجد الأبراج وعددها عشرون بالمكان نفسه دائماً، وتنغمس في آثار الأبراج القديمة وقد تساوى عددها بالضبط[(١)]. نتعرف بمساعدة علم الآثار على هذه القلعة العظيمة بالنظر لهذا المستوى الأول، إذ كان سمك جدرانها يتراوح بين متر وثمانين سم، ومترين! أما المادة المستخدمة فهي الآجر بقياس ٣٦ سم × ٣٦ سم × ٩ سم، لكن شكل اللبنات غير منتظم، واستخدمت كذلك نصف الآجرة أو القطعة منها في بعض الأحيان، والجبس كموثق للآجر، أو أنه كان يمزج بقطع من الآجر لتبليط البناية. ولم تظهر في هذه الفترة أشياء أو مواضيع زخرفية[(٢)]. وما نجده في الجملة هو هيكل وخطوط موجهة أساسية.

لكن ماذا تقول المصادر الكتابية في هذا الموضوع؟

يتحدث سيف والبلاذري فقط عن القصر. ولا نجد عند البلاذري خبراً عمّا قام به سعد من بناء لا في الموضع المحدد للمسجد، ولا في الموضع المحدد للقصر داخل المساحة العمومية. وتنسب الرواية صراحة إلى زياد بناء القصر[(٣)]. وقد ورد بخبر فرعي قصير وجدّي أن سعداً أحاط قصره بالقصب وجهزه بباب خشبي[(٤)]، يحتمل أنه جلب مع أبواب أخرى من المدائن. فمن الممكن إذن أن يكون القصر بقي خلاءً عراء، ومعسكر خيام الأمير، وأنه كان شبه مركز القيادة على الطريقة البدوية. والأقرب إلى المعقول أنه ربما بني بالقصب بناء بدائياً، فكان خصّاً ضخماً حتى زمن زياد، بين خصاص الناس المقيمين الكثيرة. وفي هذه الصورة يبدو واضحاً لا محالة أن الأسس التي سبقت العصر الأموي[(٥)]، من المستوى الأول للحفريات يرجع تاريخها إلى زياد وتنسب إذن إلى الفترة الأولى من الدولة الأموية. أما المستوى الأموي ذاته، فيؤرخ فيما بعد سنة ٧٥ هـ/ ٦٩٥م.

كان سيف أكثر تفصيلاً. وهو يميل بصورة واضحة إلى إعادة بناء الماضي بواسطة الحاضر. فقد أدخل فكرة قصر أول ارتبط بالمسجد بواسطة نفق طوله ٢٠٠ ذراع (ما يقرب من ١٠٨ أمتار) بني بالآجر أصلاً، وهو الآجر المنتزع من قصر ساساني كان يوجد

---

(١) المرجع نفسه، ص ٦١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٦١.

(٣) فتوح البلدان، ص ٢٧٦؛ *Annali*, III,2, p.850. الحقيقة أن الدينوري يتحدث في الأخبار الطوال، ص ١٢٤، عن بناء القصر والجامع من طرف سعد. ولم يذكر خليفة بن خيّاط شيئاً من ذلك، ج ١، ص ١٠٩.

(٤) فتوح البلدان، ص ٢٧٧.

(٥) لا شيء يسمح لمحمد علي مصطفى بالتصريح أن المستوى الأول يعود تاريخه إلى ولاية سعد. لم يكن قوله سوى افتراض مستند انطلاقاً من المصادر الكتابية. ألم يتحدث هو نفسه عن قصر أموي ثان، لم تتحدث عنه المصادر التي بين أيدينا؟ مرجع مذكور، ص ٤٧.

التخطيط الثاني للصحن حسب رواية سيف

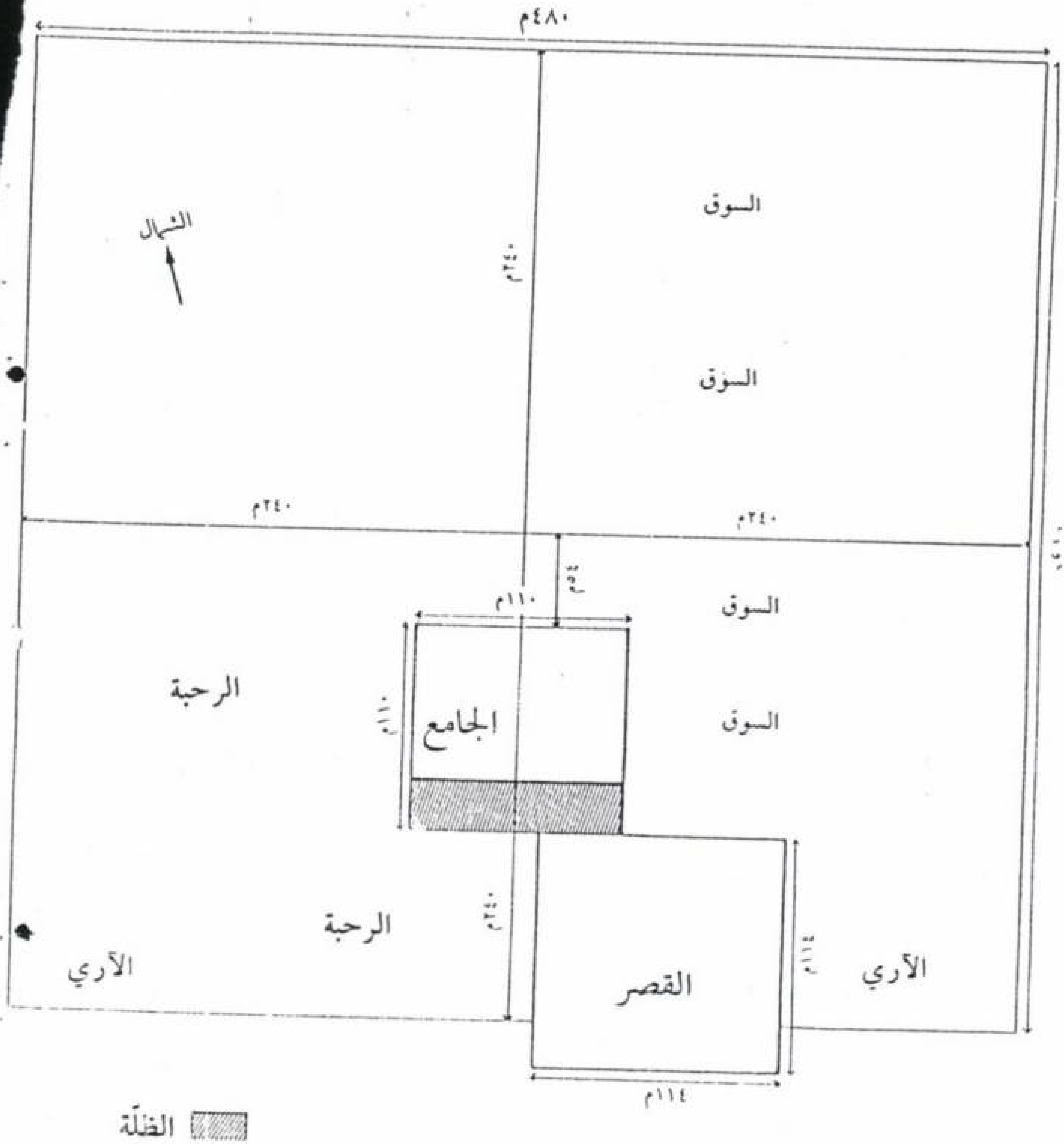

بالحيرة[١]، ولقد ذكرنا أن بيت المال كان ضمن هذا القصر. ثم طرأت سرقة هذا البيت، فتقرر هدم المسجد وجعله قريباً من القصر ومحاذياً له[٢]، فأعيد بناء المسجد والقصر مرّة أخرى انطلاقاً من بقايا قصر ساساني بالحيرة[٣]. يورد سيف ذلك وكأنه يذكره للمرة الأولى[٤].

الواقع أن المسجد الحالي ملاصق لميمنة القصر في اتجاه القبلة، بالصورة التي بيّنها سيف، كما بقيت آثار نفق من العصر الأموي، إلا أن الوصل قد تم في المستوى الأموي المتأخر، بالسور الخارجي للقصر، ويمتد ضلعه على أكثر من ١٦٨ متراً[٥]. ومن المفارقة أن الآثار الوحيدة التي تبقت من المستوى الأول للحفريات توجد من جهة المسجد، لكن في الحوزة الداخلية التي كانت تحدد محيطاً ضلعه ١١٤ متراً[٦]، أي بتراجع يقدر بـ ٣٠ متراً، بالنسبة إلى حائط المسجد. ليس من شك في أن القصر الأصلي المشيد لم يكن يتجاوز الحزام الداخلي[٧]. وبما أن الزوايا الأموية الملاصقة للمسجد ما زالت قائمة، فمن المرجح أن حدود المسجد الحالي، الذي تأخر بناء جدرانه، تعود إلى العصر الأموي، مع أنها تتراجع قليلاً إلى الداخل بما قدره ٣ أمتار و ٦٠ سم. ولا تتوفر لدينا أية معلومات عن اتساع القصر على حساب المسجد، بل بالعكس! لقد بني المسجد لاستقبال ٤٠,٠٠٠ شخص في ولاية سعد، وجرى توسيعه في إمارة زياد، بحيث صار يحوي ٦٠,٠٠٠ شخص[٨]. ولإنقاذ رواية سيف، يكمن الحل الوحيد في التفكير في اتساع القصر بين السورين وعلى حساب المسجد الذي امتد في اتجاه الشمال، فعاد بذلك إلى موقعه السابق. وفي هذا المعنى، هناك مؤشرات قليلة وكثيرة الغموض. لكن ألا يقرب من المعقول أن نفكر بخصوص ما يقوله سيف، في عملية إعادة بناء ذهنية تمت في وقت لاحق؟ كانت مواد الحيرة موجودة فعلاً، لكن النمط المعروف بالنمط الحيري ينتمي إلى الطبقة الأثرية الشائعة في العصر العباسي

---

(١) الطبري، ج٤، ص ٤٠.

(٢) المرجع نفسه، ج٤، ص ٤٦. انظر الخرائط!

(٣) المرجع نفسه، ج٤، ص ٤٦. كايتاني يمرّ مرّ الكرام على هذه المراحل المتنوعة: *Annali*, III.2, p.858. ولم يحتفظ إلا بفكرة «الدار» كنواة للقصر العتيد المبني انطلاقاً من آثار الحيرة. وقد شكك ريتميير بأقوال سيف: Reitmeyer, *op.cit.*, p.34.

(٤) متناسياً أنه تحدث عن قصر سعد في اللحظة الأولى مما جعله يناقض نفسه.

(٥) الشكل الأول من دراسة محمد علي مصطفى وص ٣٨؛ الجنابي ص ١٣٨ - ١٣٩، وشكل ١٤.

(٦) بالضبط ١١٣,٩٥ متراً من الشرق إلى الغرب و١١٣,٨٦ متراً من الشمال إلى الجنوب. انظر: محمد علي مصطفى، ص ٦٠.

(٧) راجع تصميم الجنابي الذي نقل بالضبط تصميم محمد علي مصطفى.

(٨) ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ٤٩١.

الأول[1]، الذي هو عصر سيف بالذات، كما أن وجود الدهليز في واقع الأمر أمكن إسقاطه في الفترة الأولية. ويرجح كثيراً أن نقل المسجد لم يكن بعيداً من القصر، عندما أعيد بناؤه، ولكنه لم يتلاصق الجهازان المتقاربان إلا في العصر الأموي المتأخر، وذلك بزيادة السور الخارجي للقصر، وهذا ما يفسر وجود الدهليز الذي كان يمر منه الوالي[2]، وهذا أيضاً إسقاط يرد إلى الماضي.

وتتفق النصوص الكتابية وعلم الآثار على تحديد موقع البنايتين وعلى أبعادهما الإجمالية[3] ومحيطهما القريب (السوق والرحبة). ويتفق سيف والبلاذري على القول إنه ترتب عن المحاولات المترددة في العصر الأولي، عمل منقوص تمثل في مسجد بدون أروقة، وقاعة صلاة بسيطة للغاية (كانت مبنية إما بالقصب وإما باللبن). ولا يقل القصر بساطة عنها، إذ بني بهذه المواد ذاتها. ولعل الاقتباسات المستمدة من قصور الحيرة القديمة قد أضيفت مع باب خشبي كبير. وما تبقى من الأسس السابقة للعصر الأموي يطرح مشكلة حقيقية: هل كان ذلك في عصر زياد أم في عصر سعد؟ لكنّ الإطار كان مسطّراً، وكانت الفكرة واضحة، فهي تتمثل في توأمة ممتازة بين المعبد والقصر، وسط مساحة عمومية كبرى ما زالت منيعة عن البناءات الخاصة.

الرحبة والسوق والآري:

هناك ثلاثة عناصر أخرى تشكل المساحة المركزية. أولاً الرحبة. وهي كلمة بقيت شائعة في لغة المدينة العربية المعاصرة[4]، توحي بالاتساع، والمكان الخالي ما عدا بعض المناسبات، في المجال المدني. وهي ملاصقة هنا للقصر والمسجد من جهة اليمين، في اتجاه القبلة (تقع في رسمنا يساراً). وقد بين سيف ذلك قائلاً:

«ووضع المسجد بحيال بيوت الأموال منه إلى منتهى القصر يمنة على القبلة ثم مدّ به

---

(١) محمد علي مصطفى، مرجع مذكور، ص ٥٨.

(٢) الجنابي، ص ١٤١.

(٣) بخصوص المسجد: سيف برواية الطبري، ج٤، ص٤٥، قدر طول الظلّة بـ ٢٠٠ ذراع أي ما يزيد قليلاً عن ١٠٨ أمتار. وهذا قياس لا علاقة له برمية السهم. لكنه مطابق لما توصلت إليه التنقيبات الأثرية من نتائج: ١١٠ أمتار لحائط القبلة، و١٠٩ م لحائط الشمال، و١١٦ م لحائطي الشرق والغرب. راجع في هذا الخصوص: وثائق مديرية الآثار، بغداد، ص ١٠. الذراع هنا لا يمكن إلا أن تكون الذراع السوداء المقدرة بـ ٤٥ سم: Hinz, *op.cit.*, p.61.

(٤) قارن برحبة الغنم في تونس. وقد لاحظ البراقي أن في المدن العربية فسحات تسمى صفوة، أو صفاوة، أو مناخة: التاريخ، ص ١٢٠.

عن يمين ذلك إلى منقطع رحبة علي بن أبي طالب عليه السلام والرّحبة قبلته ثم مد به فكانت قبلة المسجد إلى الرّحبة وميمنة القصر»[١].

وهذا يعني أنها تمتد إلى الجنوب الغربي من المسجد وإلى غرب القصر.

ماذا كانت تمثل الرّحبة؟ إذا ما صدقنا سيفاً، فلا بد أنها كانت تحتل الزاوية التي يحددها الحائط الجنوبي للمسجد والحائط الموجود غرب القصر. والرّحبة ظاهرة مدنية عادية تتمثل في ترك فضاء ما أمام البنايات العمومية. أمّا أن يقع الاختيار على مكان يتواجد فيه أو يتواصل المسجد والقصر، بمعنى المكان الذي يشتركان فيه، إن صح القول، فهو أمر طبيعي جداً.

إنه الخلاء المفتوح انفتاحاً كاملاً، وهو يذكّر بالساحة العامة agora عند اليونان، وبالميدان عند الفرس، وبالساحة العامة Forum عند الرّومان. ويمكن أن يذكّرنا كذلك بالساحة الحمراء أو بساحة تيان آن من: هذه ظاهرة عالمية مستمرة بصورة ملحوظة عبر الزمان. وقد ارتبطت الرّحبة في المصادر باسم عليّ، لأن عليّاً كان يسكن فيها (في بيت من قصب، كما ذكرت إحدى الروايات)، ولأنّه ترك القصر مدّة، ليس لأنه أسس الرحبة التي كانت سابقة له. وقد جعل منها ماسينيون فرعاً أو إفرازاً للقصر، وماثلها بالميدان، «الميدان الذي كان يفتح عليه القصر غرباً (بمصطبة مركزية كانت تعد خلال الاحتفالات الكبرى)، وقد تسمى أيضاً رحبة عليّ»[٢]. والواقع إذا كان للرّحبة أن تلعب دور المكان المخصص للاحتفالات العسكرية، واستعراض الجيوش، فإنها تظهر بالأخص امتداداً للمسجد. ولعلها صارت كذلك، لأن الشهادات التي وصلت إلى علمنا متأخرة. وبالفعل، ظهرت رحاب المسجد في الحواضر الإسلامية الكبرى خلال القرنين الأول والثاني للهجـرة. فكانت توجد بالمدينة رحبة القضاء للتحكيم الذي تم على يديّ عبد الرحمن بن عوف، بين عثمان وعليّ سنة ٢٣ هـ/٦٤٤، وقد كانت ملاصقة للمسجد[٣]. وفي سنة ١٤٥هـ/٧٦٢، وقعت فتنة بالمدينة أيضاً، فأمر الوالي الرجال المسلحين الذين قدموا لنجدته بأن يترقبوا طلوع النهار ليشرعوا في قمع العصاة، وأن يحطوا الرحال بالرّحبة[٤]. وفي بغداد اجتمع بعض الأشخاص وقرروا الانتفاض في رحبة الجامع[٥]، داخل المدينة التي تميزت عن الأرباض في

---

(١) الطبري، ج٤، ص ٤٦.

(٢) Massignon, *art.cit.*, p.51.

(٣) الطبري، التاريخ، ج٤، ص ٢٣٧.

(٤) المرجع نفسه، ج٧، ص ٥٥٤.

(٥) الطبري، التاريخ، ج٩، ص ٣٥٨.

ذلك العصر (٢٥٢/ ٨٦٦). وقد أشير إلى وجود رحبة بني تميم[١] في البصرة أيضاً، ورحبة القصابين كذلك[٢]. وما يهمّنا أكثر هو ما ورد عند الطبري من إشارات متفرقة عن رحبة الكوفة. إنّ الإشارتين الواردتين عنده إلى المصطبَة[٣] تدلّان على أن هذه المنصة بناية ثابتة وأنّها قريبة من القصر، لا على أنها تقع في الرّحبة وهو افتراض لا غير. أمّا الرّحبة فقد وقع التلميح إليها بكامل الوضوح عند دخول شبيب إلى الكوفة (٧٧/ ٦٩٦)، لكن دون أي تحديد لموقعها. وخلافاً لذلك، يتوفر لدينا نص ينير لنا السبيل جيداً بالنسبة لعصر لاحق[٤] (١٥٩/ ٧٧٦). فماذا يقول؟ يفيدنا أنّ الرّحبة التي تسمّى رحبة المسجد، كانت موجودة خارج المسجد، لكن بعد الأبواب مباشرة (ولعلها امتدت آنذاك إلى الجانب الغربي، لأننا لا نتصور أبواباً تفتح على حائط القبلة). كانت تستخدم كمصلى، بمعنى أنها كانت موضعاً للصلاة في الهواء الطلق. فظهرت بمظهر المكان الملحق، وكامتداد للمسجد. ومع ذلك، فقد بقيت مستقلة خارجية عن المسجد حقاً. لم يكن لأحدٍ حق إدخال رحائله إليها يوم الجمعة، ما عدا عيسى بن موسى الذي أقلق من أجل هٰذا الأمر، لكن لأسباب سياسية. ولا شك أن هذا النص يصوّر لنا فترة متأخرة، وزماناً ضاق المسجد فيه كثيراً على السكان، كما تغيرت فيه أمور عدّة في حياة الكوفة. والأرجح أن الرّحبة كانت ساحة واسعة في الأصل، محيطة بالقصر والمسجد وكانت تقوم بدور غير واضح في بداية الأمر، لكنها كانت لا محالة فضاء ضرورياً للمرور بين المسجد وخطط القبائل البعيدة عنه. فالنص الذي بين أيدينا واضح وهو يذكر أن «أفواه السكك» كانت تبدأ حيث تنتهي الرّحبة[٥]. هنا كانت تتقاطر أفواج الفرسان القادمين للصلاة، من جهة المسجد. ولا شك أنهم كانوا يربطون بها أفراسهم قبل الدخول إلى المسجد، ولعل سلوك عيسى بن موسى الذي ينمّ عن روح امتياز وتكبر، أراد إحياء عمل قديم صار بالياً بتطور الزمن. أما من جهة القصر، علماً بأنّ الرّحبة كانت تمتد إلى الجنوب الغربي، فقد رجح المظهر العسكري السياسي، ونشر جهاز الحكم مباهجه فيها. وعلى هذا، يتمثل دور الرّحبة إجمالاً في قطبين نفعيين جداً. ثم إن كفة المسجد رجحت بمرور الزمن، فلم تبق سوى رحبة المسجد، التي تحولت هي ذاتها إلى مسجد.

إن المقارنة بمدينة بغداد في عصر المنصور، سوف تخولنا مزيداً من التدقيق في وظيفة الرّحبة، بحيث نتجاوز نص سيف. نجد في هذا المجال معلومات دقيقة عند اليعقوبي[٦]،

---

(١) المرجع نفسه، ج٥، ص ٥١٨.   (٢) المرجع نفسه، ج٥، ص ٥٠٦.

(٣) الطبري، التاريخ، ج٦، ص ٤٧ وج٥، ص ٢٤١. أخطأ ماسينيون في المراجع.

(٤) المرجع نفسه، ج٨، ص ١٢٢.

(٥) الطبري، ج٨، ص ١٢٢، وأنساب الأشراف، ج٥، ص ٤٠٩.

(٦) كتاب البلدان، ص ٢٤٠. يبدو أنه كان للرّحبة موضع مركزي. وأنها كانت محاطة دائرياً وعن بعد دون شك، =

والطبري(١)، والخطيب البغدادي(٢)، إضافة إلى بحثين كتبهما لاسنر Lassner (٣) يظهر بوضوح أن «المدينة المدورة» جسدت تمييزاً لمساحة مركزية كثيرة الاتساع - تشتمل على القصر والمسجد وعمارة للشرطة وحزامين للحماية والسكن، مع سوق داخل الأروقة في البداية. إنّ الرّحبة تبرز كأحد العناصر الأساسية للمساحة المركزية لأنّها تتطابق مع كل الخلاء العاري الذي يحيط بالمسجد والقصر وتفصلهما عن الحزام السكني. وهكذا يصبح الشبه بالكوفة عجيباً - وسنعود إلى هذا الأمر - وهو يسمح بتسليط الضوء على وضع الكوفة، انطلاقاً من بغداد والعكس، بفضل جملة من المقارنات. وبما أن تصميم الرّحبة كان أحسن ببغداد، وبما أنّه وقع إقصاء الأسواق من المساحة المركزية(٤)، فقد صارت أكثر اتساعاً، وأحاطت بفراغها ومن كلّ جانب بالمركّب المركزي. وقد مر بنا أنه كان ينبغي التفكير في مدها في الكوفة أيضاً، إلى كل الواجهة الغربية من المسجد، حتى نهاية المساحة المركزية(٥) وتمتد بعدها الخطط أي قطائع السكن. على أن الأسواق في الكوفة تحتل جهة الشمال داخل المساحة المركزية، فضلاً عن أن القطائع السكنية ستقرض منها نوعاً ما، وهي قطائع استثنائية وشخصية اقطعت لأشراف الناس(٦)، (اشترى عيسى بن موسى دار المختار، التي كانت ملاصقة للمسجد، وذلك لكي يتمادى في الذهاب إليه حسب مشيئته)(٧). وهناك نقطة أخرى تشكل وجه شبه: لم يمش الناس في رحبة المنصور إلا سيراً

= مساكن ودواوين. وكانت الشوارع بين الأروقة.

(١) التاريخ، ج٧، ص ٦٥٢ - ٦٥٤.

(٢) تاريخ بغداد، ج١، ص ٧٤ وما بعدها.

(٣) The «Caliph's personal domain», dans *Islamic City*., pp.103 - 118. ومن المهم مقارنته بمقال جيد لصالح العلي نُشر في المجموعة نفسها، ص ٨٧ - ١٠١؛ انظر أيضاً: *The Topography of Baghdad in The Early Middle Ages*, Detroit, 1970.

(٤) الطبري، ج٧، ص ٦٥٢. وضعت الأسواق في الأروقة الأربعة قبل أن يتمّ نقلها إلى الخارج بالكرخ. وقد أمر المنصور في العملية ذاتها بسد الأبواب التي تفتح على الرّحبة، وفتح أبواب أخرى في الفصيلات بين الأروقة: المرجع نفسه ص ٦٥٢. راجع أيضاً لاسنر، *art.cit.*, p.113، فالرسوم المصاحبة لبحثه تضمنت مواضع متفرقة للرّحاب داخل مركبات الأبواب، بمثابة ساحات للخروج، لا غير. وسمّى الرّحبة الكبرى «Inner court» مما يبعث على اللبس. وقد اقتبس هذه الرسوم عن كريسويل وهرزفيلد (Herzfeld).

(٥) من الممكن تعريف الرحبة أولاً بكل الخلاء غير المبني ولذا تكون محيطة تماماً بالجامع والقصر ومحتوية على الأسواق قبل أن تبنى ويتحدّد مجالها. فهناك إشارات إلى أن السوق الأولية كانت بالرحبة بمعناها الأشمل.

(٦) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣١٠؛ الطبري، ج٦، ص ١٩ بخصوص دار عمرو بن حريث

(٧) الطبري، ج٨، ص١٢٢. يفسر قرب دار المختار من المسجد موقف الشيعة المتأخرين الذين اعتبروا أن قبره كان موجوداً في إحدى زوايا المسجد: البراقي، تاريخ الكوفة، ص ٦١. يظهر أن مسلم بن عقيل نزل في دار المختار: أنساب الأشراف، ج٦، ص ٢١٤.

على الأقدام. وقد روى الطبري[١] والخطيب أيضاً[٢] حادثة وقعت لعيسى بن عليّ، ومفادها أن هذا الشخص وهو أحد أقرباء الخليفة كان مريضاً، فلم يقدر على قطع الرّحبة على طولها مشياً على الأقدام، لكي يصل إلى القصر. وتدل هذه الحادثة بوضوح على أن حظر الركوب بالرّحبة صادر عن المنصور، وهو انطبق على الكوفة تبعاً لبغداد، وأن الركائب كانت تحطّ بالرّحبة في السابق فيما يخص الكوفة، على الأقل يوم الجمعة. وأخيراً، فقد تحولت بعد ذلك الرّحبة في بغداد إلى مصلى[٣]، وقد تم ذلك منذ خلافة المهدي وربما قبل ذلك في الكوفة. هكذا نلحظ تفاوتاً في التطور. لكنّنا نلحظ أيضاً تماثلاً عجيباً في هذا التطور، وبذلك نكتشف كثيراً من الخاصيات للكوفة في بدايتها تظهر في بغداد في خلافة المنصور، شكلياً وعلى مستوى التصور[٤].

من الضروري أن نتساءل الآن عن مصدر الرّحبة. هل كانت من أصل بابلي أم هلينستي، أم ساساني، أم روماني بيزنطي، أم من جنوب بلاد العرب؟

لقد رأينا أنّه تشكل قبل ظهور الإسلام، نوع من الصورة المعممة للبنية المدنية حيث تجمعت كل التقاليد الخاصة. وهو أمر صالح أساساً للمساحة المركزية، كما بالنسبة للعناصر المكونة لها (القصر والمعبد)، ولا بد أنّ الأمر يكون كذلك بالنسبة لساحة المعبد والقصر. ومن المعلوم أنّ مثل هذه الساحة كانت، بصورة أدق، موجودة في المدن اليمنية، وفي المدن الساسانية أيضاً، وقد تحدثنا سابقاً عن البوميريوم pomerium وعن الساحة المركزية في المدن الرّومانية forum، مع أن المكان الأول يطابق بالأحرى فكرة الصحن. ومن المفيد التمعن في فكرة الأغورا agora التي انتشرت كثيراً في الشرق في ذلك العصر[٥]. فماذا نجد في دمشق، المدينة التي تفيد المؤرخ، لأنّها تحملت الاستمرار في التقطع؟ نجد هنا أيضاً، في

(١) التاريخ، ج، ص ٦٥ [illegible]

(٢) تاريخ بغداد، ج١، ص ٧٧.

(٣) ليس الأمر بديهياً تماماً في نص الطبري الذي يروي انتفاضة سنة ٢٥٢: التاريخ، ج٩، ص٣٥٨. وعلى كل فقد صارت الرحبة مرتبطة بالمسجد ارتباطاً عضوياً، واستمدت اسمها منه، وكانت واسعة جداً وشعورنا بعد قراءة متأنية أن الرّحبة استخدمت كمصلى. وقد شدد اليعقوبي تأكيده على هذه النقطة، ولهذا الأمر اعتباره حيث ألف كتابه في الفترة ذاتها تقريباً. كتاب البلدان، ص ٢٤٠.

(٤) سوف نعود إلى هذه النقطة الرئيسة، إذ لا نوافق العليّ ولا لاسنر على رأيهما. ولنشر منذ الآن إلى نصيب أهل الكوفة في بناء الحاضرة الجديدة: أبو حنيفة الفقيه الكبير، راجع الطبري، ج٧، ص٦١٩؛ وابراهيم بن حبيش الكوفي، المرجع نفسه، ص ٦٥٣.

(٥) لنسجل فكرة لويس ممفورد عن انتشار النموذج الهلينستي حيث جرى تعميم الصيغة الهلينستية على الصعيد العالمي «كنموذج منمط للصناعة المسترسلة»: Mumford, *op.cit.*, p.260. ولا بدّ أن الفرس قد استبطنوا هذا النموذج.

قلب المدينة، هذين العنصرين الحاسمين، نعني المعبد والقصر. لكننا نجد أيضاً الساحة العامة (الأغورا) التي غطتها البناءات الكثيرة، فكادت تمحوها، بسبب التغييرات الواسعة التي طرأت عليها. وما ذكره إليسيف Elisseef يدل دلالة عميقة على ذلك، وقد اعتمد سوفاجي Sauvaget فيما قال: «يذكّر درب الرّحبة [illegible] (الذي يعني الأغورا) بوجود [illegible] ساحة مستطيلة أو مربعة الشكل، كانت تسمى رحبة خالد في [illegible]. وقد احتفظ بذكر[illegible] اليوم في ساحة الديوانة...»[١]. ولنلاحظ هذه الترجمة الممتازة التي ظهرت في اللغة والحجر في آن، والتي حولت الأغورا إلى رحبة. ونسوق هذا على سبيل الإشارة والتلميح لا غير، لأنّه لا يمكن القول إن دمشق أثرت في الكوفة في بداية نشوئها[٢]. لقد أتيح لها ذلك كعاصمة للامبراطورية، لكن في عصر لاحق، خلال إمارة زياد، وخلافة عبد الملك وولاية خالد القسري. لكن لو أردنا المضي بعيداً في عملية المطابقات، فمن يقدر أن يدلل على أن رحبة الكوفة قد دُعيت رحبة قبل العصر الأموي؟ أمّا في بلاد الرّافدين فالأحرى أن ينسب إلى التأثير الهلينستي على السلوقيين والبارتيين، أمر تهيئة ساحة كبيرة حول القصر والمعبد على شاكلة الأغوار[٣]. وهكذا تتتابع وتتشابه صور للعنصر الحضري ذاته، ولا تتشابه في الوقت نفسه، ولا سيما في غائيتها. لقد سبق لرحبة المنصور أن استهدفت الاتجاه المَعْلَمي[٤]، وكانت ترمز إلى المسافة التي لا تدانى والتي كانت تفصل السلطة عن الناس وتمثل الفراغ العميق الناتج عن خشية هذه السلطة ذاتها. في حين تقمّصت الرّحبه في الكوفة الأولى وظيفة الرّافد والمصب من الحزام السكني إلى المركز، وشيئاً فشيئاً، وبمقدار تعاظم السلطة المفارقة للوالي صارت لها وظيفة الحاجز في وجه الجماهير الغفيرة المقيمة بالمدينة. فما القول إذن في وظائف الأغورا [illegible]

---

(١) Nikita Eliseeff, «Damas à la lumière des théories de Jean Sauvaget», in *The Islamic City*, Oxford, 1970, p.170.

(٢) لا شك أن سيفاً وصف الظلة الأولى (ظلّة سعد) بأنها كانت مسقوفة بسقف من النوع البيزنطي، بمفعول اسقاط يعود إلى الماضي ويتجه اتجاهاً ثقافياً جامعاً: الطبري، ج٤، ص ٤٥. لكنه لم يكن يتصور ذلك أمراً مستحيلاً، عندما كان بصدد تأليف كتابه وهو الرّجل الذي شاهد عياناً الكوفة خلال العصر الأموي الأخير.

(٣) ذكر ممفورد اعتماداً على أعمال معروفة، أنّه بالنسبة لليونان «كانت الأغورا منذ البداية، مخصصة للعلائق اليومية المتنوعة، وقد فصلت فصلاً تاماً عن سور المعبد.. وتمّ هذا الفصل بصورة أسرع مما كان عليه الأمر في بلاد الرافدين، ذلك أنّه لم تجر أبداً ممارسة التجارة والصناعة بإشراف المعبد، على الأقل بعد عصر هوميروس»: راجع: Mumford, *La Cité à travers l'histoire*, p. 194.

(٤) ينبغي تمييزها من الرحاب الصُغرى الكثيرة المحددة مواضعها في مركبات الأبواب بخصوص الرّحبة المركزية في بغداد التي تكاد تماثل الساحة العامة كلها: راجع كتاب البلدان، ص ٢٤٠؛ الطبري، التاريخ، ج٧، ص ٦٥٤، و Lassner, *The Topography of Baghdad*, p.144.

الكلاسيكية، ووظائف الرّحبة الإسلامية، إذا سلمنا بوجود اقتباس ما؟ كان للأغورا اليونانية في الفترة العتيقة وظيفة تجارية، وأضافت الأغورا في الفترة الكلاسيكية إلى ذلك، وظيفة سياسية. فأصبحت المجال الحيوي للعلاقة الاجتماعية، ومكاناً للمداولات والمناقشات. لكن رحبة الكوفة، ورحبة بغداد بدرجة أقل، لم تكن امتداداً للسوق، ولا ساحة سياسية، ولا حتى مكاناً للمداولات: إنّ صمت المصادر العربية عن هذا الموضوع ناطق مبين. لقد كان القصر يجمع في قبضته قوة القمع والقرار، فكان في بداية الأمر يوظف الرّحبة إما لجمع رجاله، وإما لإظهار قوته عبر الاستعراضات العسكرية. أما المسجد، فكان يجمع طيلة القرن الأول الهجري، النقاش السياسي الديني، لا كاختيار أصلي متجذر[١]، إذ كان موكولاً للتعبد قبل كل شيء، بل كعادة مكتسبة. كان النقاش يدور في المسجد والقوم جلوس، لا وقوفاً أو متجولين في الرّحبة. ثم بعد ذلك وجد التحريض الكلامي والمسلّح نقطاً للارتكاز في الجبانات[٢]، تلك الأشكال الأخرى المنبثة للرّحبة، كما في الكُناسة، ذلك المكان الرفيع الآخر لحرارة العلاقة الاجتماعية المستمرة.

السوق:

كانت السوق عنصراً أساسياً ثانياً في المساحة المركزية، إلى جانب الرّحبة وكانت مثلها محيطة بالمركّب الأثري «المَعْلَمي» المتكون من القصر والمسجد. وقد أسقطت منذ البداية على مخطط المدينة، بعد أن استنبطتها مخيلة المخططين. إن السوق عنصر من الحياة الجماعية وجزء من المساحة العامة. كانت مستقلة وجهازاً قائماً بذاته متميزاً عن المسجد ـ خلافاً لتقاليد الشرق القديم. لكنها كانت قريبة منه وحدّد موقعها في الجوار المباشر للمسجد، هذا الجوار الذي استمر في كل بنية مدنية إسلامية، في حين أن القصر هاجر إلى القصبات الخارجية أو إلى محلات للإقامة في الضواحي. إن المهم في هذا المجال أن نؤكد تعمد تهيئة الموقع الخاص بالسوق[٣]. فلم تنشأ السوق كإفراز لحاجات التبادل والاستهلاك في المدينة، أي نشوء عفوياً، بل كان وجودها إرادياً محدد الموقع. وأن تكون بسيطة جداً أو حتى غير متميزة داخلياً في الأول، فلا يزيد هذا على أن يكون أمراً طبيعياً. الحقيقة أن عالم التجار

---

(١) هذا رأي لامنس الذي أنكر صبغته الدينية. راجع: Lammens, *Etudes sur le siècle des Omayyades*, Beyrouth, 1930.

(٢) راجع بحثي المذكور سابقاً، في مجلة JESHO، وكذلك مادة «الكوفة»، في E.I/2.

(٣) الطبري، ج٤، ص ٤٧؛ اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣١١.

كان موجوداً منذ ابتداء الفتح، متقفياً الجيش، متصيداً الغنيمة[1]. لكن هل نحن على يقين من إنشاء السوق لمثل هذا الصنف من المبادلات وحتى لهذا الصنف البشري، أي لتاجر الجيش، المضارب المغامر المتجول؟ إن السوق المركزية، كما سيظهر ذلك من خلال تطورها اللاحق، مكان للمبادلات ومكان للانتاج. وقد أنيطت بها خدمة جماعة في سبيل التمركز والاستجابة لحاجاتها الحيوية. وهنا أيضاً، كان عالم سوق الجيش مدعواً للاستقرار، وتكييف نشاطاته مع نظام المدينة الجديدة، تماماً كما كان المقاتلون يتمصرون. اللهم إلا إذا كان تقاطر على السوق صنف آخر من التجار والصناع، صنف من غير المضاربين في الجيش، من المستقرّين الأصليين، قدموا من المدائن أو من غيرها من البلاد، مختصّين، قنوعين بالربح القليل من نمط تجّار الدّكاكين. ونحن نعلم أنّ السوق ستمتلىء فيما بعد بالعبيد والموالي.

أما على صعيد التمصير، فإن التحديد المجالي هو الذي يشد انتباهنا في الواقع. لم يهتم بالأمر سوى مصدرين فحسب: هما سيف[2] واليعقوبي في كتاب المدائن[3]. فلم يذكر البلاذري شيئاً بخصوص هذه الفترة التأسيسية، لكن بالطبع وردت إشارات متفرقة عن العصر الأموي، تأتي في سياق الخبر السياسي[4] (الطبري)، أو في طيّات التراجم لرجال الدين (ابن سعد)[5].

وما يترتب عن كل هذه الأمور ويلفت نظرنا فوراً، أن السوق أو الأسواق لا بد أن موقعها كان إلى شمال المسجد وإلى شرقيه، وأنها كانت محيطة بواجهته الشمالية، وقاضمة من واجهته الشرقية، غير بعيدة عن زاوية القصر الشمالية الشرقية. ويمكن أيضاً التفكير مع الجنابي[6] أنها كانت تقع شرقي المسجد وتبلغ الواجهة الشمالية للقصر. روى سيف خبراً جاء فيه أن صبر سعد قد نفد لتصاعد ضجيج السوق إليه وهو جالس في القصر يتحدث[7]. كما توفر خبران متكاملان، أحدهما لسيف والثاني لليعقوبي، القصد منهما تبرير امتداد السوق بجوار الجهة الشمالية للمسجد مباشرة، حتى الحدود الشرقية الشمالية للصحن. وقد ذكرنا أن سيفاً تحدث عن نقل المسجد في اتجاه الجنوب، وبذلك توفر فراغ

---

(١) صالح أحمد العلي، التنظيمات، ص ٢٦٣.
(٢) الطبري، ج٤، ص ٤٥.
(٣) كتاب البلدان، ص ٣١١.
(٤) الطبري، ج٦، ص ١٩ وص ٣٠.
(٥) الطبقات، ج٦، ص ١٣٦ وص ٢٢٦.
(٦) الجنابي، مرجع مذكور، ص ٨٦.
(٧) الطبري، ج٤، ص ٤٧.

احتله باعة الصابون والتمر آنذاك، كما قال[1]. ولا يعني ذلك حتماً أن هذا المحال قد احتله الباعة في بداية الأمر. لكن هناك احتمالات وتخمينات في هذا المعنى. أما اليعقوبي فقد ذكر عبارة رئيسة[2] أوردها حرفياً حفاظاً على ما اكتنفها من لبس: «وجُعلت السوق من القصر والمسجد إلى دار الوليد إلى القلّائين إلى دور ثقيف وأشجع».

وما نجهله في هذه المعادلة هو دار الوليد. وباستقراء النصوص، تكون هذه الدار في قلب سوق القصارين[3]، كعلامة معروفة تكاد تكون استثنائية من حيث موقعها وضمن المساحة المركزية قطعاً، وقد أحاطت بها هذه السوق، لكنها غير بعيدة عن سوق السراجين[4]. وباستثناء هذه الاعتبارات، فأين يكون موقعها؟ هل يكون بين المسجد والحدود الشمالية للمساحة، أم إلى الشرق، أم إلى الزاوية الشمالية الشرقية، أم إلى الشمال الغربي؟ لا يمكننا الاختيار بين هذه المواقع. على أن معرفتنا بأن «دور ثقيف وأشجع» تقع إلى شمال الصحن، بالاعتماد على قائمة توزيع القبائل المنسوبة إلى سيف، مع اتجاه إلى الشرق (ارجع إلى الخارطة)، تجعل المشكلة تتمثل في معرفة ما إذا صممت السوق على شكل سوق - شارع حيث تتوالى الاختصاصات، الواحد تلو الآخر، أو على شكل مركّب متشعب ينتشر على مجال واسع. وبذلك تشكل العلامات التي وضعها اليعقوبي - وهي المسجد ودار الوليد والقلاؤون وخطط ثقيف - في الصورة الأولى مراحل تقع على الخط نفسه. ونحن نعلم أن السوق الكبيرة، أو ما سيصبح كذلك تمتد على سكة مركزية طويلة، وهذه خاصية أساسية تميزت بها حواضر إسلامية عديدة. أما الصورة الثانية التي تكتسي في نظرنا صبغة منطقية أكثر، فتحدد بعلامات رسمها اليعقوبي وتتمخض عن مجال ممتد مثلث الشكل أو مستطيله. وقد اعتمد ماسينيون هذا الحل بالذات بصورة ضمنية[5]، وترجم قول اليعقوبي كما يلي: à partir du Qasr et du Jâmi, *d'un côté* jusqu'au Dâr Walid-b-Uqba, de l'autre jusqu'aux Qallâ'yin, et de *l'autre* jusqu'aux habitations des *Thaqif et Ashja*».

وبما أن الخط الرابط بين المسجد والقصر وثقيف معروف (اتجاه شمال/شمال شرقي)، فإن هناك نقطتين تتعارضان حتماً، الواحدة في الشمال الغربي والثانية في الجنوب الشرقي،

---

(1) الطبري، ج٤، ص ٤٤.

(2) كتاب البلدان، ص ٣١١.

(3) صارت في العصر العباسي «دار القصارين»: ابن سعد، الطبقات، ج٦، ص ٢٤؛ الطبري، ج٤، ص ٥٣٢ وج٦، ص ٨٩.

(4) أخبار الدولة العباسية، ص ٢٦٠.

(5) Massignon, *op.cit.*, p.49.

لكن في مستوى مركز المساحة. فضلاً عن أن كلمة أسواق في الجمع تدل على بنية متفرعة ممتدة واسعة متنوعة، وهي لا تعبّر إلا بصعوبة عن بنية مطولة بسيطة. ومن المعلوم أن مثل هذه السكك المتجهة إلى شمال/شمال شرقي كانت موجودة في الكوفة، وكانت تصل بين القصر والجسر، ثم في اتجاه السواد، مخترقة المساحة المركزية والخطط القبلية. ولعل السكة الرئيسية كانت «سكة البريد»، وهي الطريق البريدية الأساسية للاتصال[1]، قبل أن تكون سكة لحام جرير كذلك، كما قال ماسينيون[2]. وأخيراً يؤكد سيف أنه لم يكن يوجد في بداية الأمر، في الصحن، سوى المسجد والقصر والأسواق[3] بحيث تتساوى السوق والكتل المجالية الأخرى، ويكون قوله مؤيداً للتصور الخاص بالأسواق المفتوحة الواسعة الممتدة، أي الميدان المحيط بالمسجد، الذي يتقدم حتى القصر، ويتوغل حتى الشمال والغرب والشرق.

وكانت هذه الأسواق مغطاة بالحصر، في بداية الأمر[4]. ولم يتمّ الشروع في بنائها إلا بعد مدة تناهز القرن (فترة خالد القسري)، وكان ذلك على قواعد متينة جمالية. فهل بقيت على وضعها القديم قبل ذلك؟ يمكن ترجيح ذلك إلى حد بعيد لأن أبا مخنف يفوه بخصوص فترة المختار (٦٦ هـ/ ٦٨٥ م) بما يفيد أن الأسواق لم يكن فيها بناء في ذلك الزمان[5].

وعلى صعيد التنظيم وحسب، من المعلوم أن أماكن الباعة لم يقر لها قرار. لكن إذا احتل البائع مكاناً لأول مرة، فإنه يستمر بشغله كامل يومه، كما هو معمول به في المساجد[6]. وهذا أمر يحملنا على القول أن التنظيم والتخصص في الأسواق كانا معدومين. وسوف يتحقق هذا الأمر في العصر الأموي[7].

الآري:

أما الآري، فقد ذكره الطبري مرتين[8]، كما ذكره اليعقوبي[9]، بحيث أن اتحادهما في

(١) انظر لاحقاً.

(٢) Massignon, *op.cit.*, pp.42, 45.

(٣) الطبري، ج ٤، ص ٤٥.

(٤) كتاب البلدان، ص ٣١١.

(٥) الطبري، ج٥، ص ٢٥٨؛ ج ٦، ص ١٩ و ٣٠ و ١٠٦.

(٦) الطبري، ج٤، ص ٤٥.

(٧) يبدو أن زياداً قد شجع على استقرار المواقع والتخصص في البصرة بصورة ما: **أنساب الأشراف**، ج ٤(١)، ص ٢٣٩.

(٨) الطبري، ج ٤، ص ٥٢.

(٩) كتاب البلدان، ص ٣١٠.

القول يوحي بوقوعه في المساحة المركزية. الآري عبارة عن مرعى عمومي، بمعنى أن الدولة تملكه وتشرف عليه، وهو مخصص لخيل الجيش التي هي ملك للدولة لا محالة. وقد روى أنه توفرت ٤٠٠٠ فرس في خلافة عمر (هل كان بيت المال هو الذي وفرها؟) تأهباً لقتال محتمل. «كان يشتّيها في قبلة قصر الكوفة وميسرته، ومن أجل ذلك يسمّي ذلك المكان الآري إلى اليوم، ويربّعها فيما بين الفرات والأبيات من الكوفة مّما يلي العاقول فسمّته الأعاجم آخُر الشاهجان يعنون معلف الأمراء»(١).

كان منتجع الكلأ هذا يمتد على بضعة كيلومترات كانت تفصل بين عالمين، وكانت الكوفة تقع على الوصلة الرابطة بينهما، هما عالم البر، المتجه إلى الجنوب والغرب وكان عالماً شبه صحراوي، وعالم الرّيف القريب من الفرات والمتجه شرقاً وشمالاً. ولا بد أن العاقول كان يقع شمالي الكوفة، من جهة الفرات، وخارج محيط المدينة. لكن أين الآري أو مرعى الشتاء؟ يصعب علينا تصور حشر ٤٠٠٠ فرس في الزاوية الجنوبية الشرقية للمساحة العمومية، داخل حيّز محدود جداً ترتفع مساحته إلى بضع مئات من الأمتار المربعة. وبمقارنته بالعاقول، نميل في أوّل وهلة إلى نقله إلى الجنوب الغربي مما يلي دور السكن، حيث أن المساحة المركزية أحيطت بخطط القبائل من كل جانب، في اتجاه البادية المترامية حيث ترعى النوق التي شغلت اهتمام عمر كثيراً، ونحن ما زلنا نشاهدها إلى اليوم. لكن أسباباً متعددة تدفعنا إلى اعتقاد خلاف ذلك: علماً أن موضعاً محدوداً كان سبباً في ظهور اسم مكان، وكان ملاصقاً للقصر، ولم يجاور دور الكوفة مثل العاقول ـ الذي كان هو أيضاً يمتد على مجال ضيق يحده الفرات ـ ويرجح اليعقوبي بالخصوص رأينا الأخير حول هذه النقطة بجملة أوضح ما تكون حيث يقول:

«وكان فضاء عند المسجد»(٢).

ثم يضيف:

«وهو فضاء كانت فيه خيل المسلمين»(٣).

وإذا ما صدقنا اليعقوبي، فيبدو أن عمر أقطع نصفه إلى أبي موسى الأشعري والنصف الثاني إلى جماعة من عبس(٤). وهذا يعني أن الآري لم يستخدم لفائدة الخيل إلا خلال

---

(١) الطبري، التاريخ، ج٤، ص ٥٢.
(٢) كتاب البلدان، ص ٣١٠.
(٣) المرجع نفسه، ص ٣١٠.
(٤) المرجع نفسه، ص ٣١٠. المراد بالذات عشيرة حُذيفة بن اليمان.

التخطيط الثاني للصحن حسب رواية سيف والشواهد الأثرية

السنوات الأولى من تأسيس الكوفة حيث شاع عدم الاستقرار، وحيث صمم كل شيء بالنظر للعمليات العسكرية في العراق والشام، فلم يذكر الطبري الأري إلّا عندما تعرض للنجدات التي وجهها أهل الكوفة إلى حمص[1]. وما هو ذو دلالة أيضاً أن اليعقوبي رتب إقطاع الأري هذا بين جملة من الإقطاعات الأخرى التي وهبها عمر لكبار الصحابة، وهي إقطاعات صالحة لبناء دور تقع داخل المساحة المركزية[2]. في الإمكان أن يدور النقاش حول واقعها التاريخي، وفيما يخصني لا أعتقد أنه كان صحيحاً، نظراً لأن فكرة القطيعة تبدو استثنائية في خلافة عمر، في حين أن اليعقوبي يتحدث عنها وكأنها ظاهرة عادية متصلة بالخطط القبلية ذاتها. ومن الواضح أيضاً أن كل ما ينسبه اليعقوبي أو يكاد في هذا الميدان، إلى المبادرة الشخصية وما يشبه المُلكية عند عمر، كان نتيجة لتطور طويل ظهر بعد ذلك. لكن الأهمية المتعلّقة بتحديد مكان الأري ضمن المساحة العمومية تكمن في كونه يرتبه عن خطأ أم لا، ضمن مجموعة الإقطاعات التي تمت بدون استثناء في المساحة المركزية أو في المدينة. وبذلك يكون الأري في الصحن تماماً، بمكان ما جنوب القصر والمسجد[3]، يقع حسب المرجح في زاويتين بالجنوب الغربي والجنوب الشرقي، وهو مقسوم إلى نصفين. على أنه من الصعب أن نعرّف وظيفة الأري بأنّه مرعى مفتوح، بل الأولى أن يكون مكاناً لتجميع الخيل. الواقع أن سيفاً لم يستخدم كلمة رعى بل استعمل (يشتّيها) لكي يكون دقيقاً[4]، وقابلها بخصوص العاقول بكلمة «يربّعها». إنّ المعجم العربي مرتبط بنمط الحياة الرعوية، فتمادى في واقع مغاير، هو واقع الفضاء الضيق الثابت الموظف إلى أقصى حد. وبذلك يشكل الأري حظيرة للخيل تقع في المساحة المركزية كعنصر للتنظيم العسكري المدرج في المجال إدراجاً تاماً دقيقاً[5].

دلالة المركز:

قلنا إن الحركة الرمزية التي سطرت حدود المساحة المركزية لم تكن تتصف بشيء من القداسة، بل بشيء عريق في القدم. وهي التي دحرت إلى ما وراء الصحن الحياة الدّنيوية

---

(١) الطبري، ج٤، ص ٥٠ ـ ٥١.

(٢) كتاب البلدان، ص ٣١٠ ـ ٣١١.

(٣) هذا ما يمكن استنتاجه من التحديد اللاحق لدار أبي موسى الأشعري (إلى الجنوب الشرقي)، ومسجد بني غزوم من قبيلة عبس: الطبري، ج٦، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٤) الطبري، ج٤، ص ٥٢.

(٥) كلمة أري مأخوذة عن الفارسية اربات التي تعني «الحبل الطويل الذي يربط الماشية على خط واحد». راجع: Desmaisons, *Dictionnaire Persan-français*, Paris, 1908, I, p.60. ومن الواضح أن المقصود هنا هو الفسحة المسيّجة حيث تجمّع الخيل. وقد بقي اللفظ في اللهجات المغربية ليعني الاصطبل.

المأنوسة لأبناء القبائل. لكنّ هذه القبائل سرعان ما أعادت تشكيل المجالات الجماعية لها (الجبانات)، داخل الخطط الترابية، كما ابتنت مساجدها الخاصّة حيث كان يلتقي الأشخاص، المنتمون إلى العشيرة نفسها. ذلك أن المركز يوحّد، في حين أن الخطط [illegible] على التفرع العشائري والتنافس [illegible] في حقيقة [illegible] معارضة تامة بين المركز الإسلامي وحزام العمران القبلي. لأن مساجد العشائر تكاثرت[1]، بفضل ما يبعثه التديّن الفردي من تصور سريع. على أن الفكرة تفرض وجودها في البداية. ذلك أنه لم يكن في الأوّل لهذه الجموع العربية من الإسلام إلا الاسم: فهي لا تشبه في شيء أمة المدينة التي استوعبت الروح والتعاليم الإسلامية. لقد تشكل ضميرها الإسلامي في الحرب وارتبط ارتباطاً وثيقاً بهويتها العرقية العامة، كما ارتبط أيضاً بمرتكز القرار في المدينة. فتمخض عن ذلك تأكيد الصلاة كمجموعة من الحركات التوحيدية التي تتجمع بفضلها أمة المقاتلين. وترتب عن ذلك أيضاً طابعها كفريضة مطلقة، لا لسبب ديني وحسب، بل كفعالية سياسية واجتماعية للإبقاء على لحمة شعب مشتّت في الأصل، ولا سيما أنه استسلم للدعة نسبياً بعد وقعة القادسية. كان المركز موطنياً بفضل المسجد، لأن الدين كان معاشاً كظاهرة جماعية أكثر منه كجملة من المضمّنات الماورائية، وكان الحكم يدفع به دفعاً لكن الحكم كان سلطة تنظيم لا غير. إن انفصال المركز عن عالم السكن القبلي لا ينبغي فهمه بمعنى الحفاظ على سر من أسرار المعبد، ذلك أنه لم يكن في خدمة المعبد طبقة من الكهان تسيطر على شعب خانع. بل كلّ ما حصل أن هيىء للمقاتلة مكان للاتصال إما في الصلاة وإما بالتجارة والمكان الذي نظم لهم فيه إطار وجودهم برضاهم. وبما أن المسجد هو ملك للجميع، فقد كان مركزاً أسمى، ومكاناً للالتقاء، فتحتم أن يبتعد عن المجالات ذات الخصوصية المتمثلة في خطط القبائل.

لا شك أن تجاوزات لحرمة المركز قد وقعت. من ذلك إقطاعات منحت للأفراد، ولم تمنح للقبائل أبداً. ولم يحدث ذلك في البداية قطعاً، كما كان يريد اليعقوبي أن يحملنا على الاعتقاد به[2]، ولم يفعل ذلك عمر يقيناً، لكن لعل بعض ولاته في نهاية خلافته قاموا بذلك بصورة استثنائية. لقد بنيت دور في المساحة المركزية وهو أمر ثابت أو يكاد، ومما يزيد يقيننا بخصوص بعضها، أنها وجدت فيها بعد داخل الأسواق. وقد أشير إلى دار الوليد بن عقبة[3] ولعلها بنيت خلال ولايته [٢٥ - ٣٠ هـ/٦٤٥ - ٦٥٠] في خلافة عثمان. كما نجد

---

(١) Grabar, *op.cit.*, p.34.

(٢) كتاب البلدان، ص ٣١٨. لم يكن ذلك يكتسي صبغة عظيمة. ولم تزدد الظاهرة اتساعاً إلاّ في ولاية زياد: انظر لاحقاً.

(٣) الطبري، ج٦، ص ١٩ و ٣٤٦. يمكن التساؤل إذا هي لا ترجع إلى عصر زياد.

أيضاً دار عمرو بن حريث[١]، وعبدالله بن مسعود[٢]، وأبي موسى الأشعري[٣] وغيرهم. وكانوا جميعاً من القرشيين أو من الصحابة، بمعنى أنهم كانوا يدعون الناس إلى اعتناق الإسلام، وكانوا رسلاً لحكام المدينة يميلون للاتجاه المركزي ويعيشون خارج الخطط الجماعية، بفضل نسق القطائع الفردية، أكثر من نسق الخطط.

---

(١) الطبري، ج٦، ص ٨٩؛ ابن سعد، ج٦، ص ٢٤، يتكلّم عن دار كبيرة؛ أخبار الدّولة العباسية، ص ٢٦٠.
(٢) كتاب البلدان، ص ٣١٠.
(٣) كتاب البلدان، ص ٣١٠؛ ابن سعد، ج ٦، ص ١٦.

- ٨ -

بنية المجال الداخلي:
الحزام السكني أو الخطط

إن نص سيف هو المصدر الوحيد الذي بين أيدينا[١]، وهو نص يصعب تأويله لكنه ثري. والغريب في الأمر أن ماسينيون أشار إليه[٢]، واصفاً إياه بأنه «القائمة الوحيدة المتوفرة لدينا عن صفوف المساكن»، ومع ذلك فلم يعتمده في مخططه القائم أصلاً على ما رواه أبو مخنف بخصوص ثورة المختار (٦٦-٦٧هـ/ ٦٨٥ - ٦٨٦) وثورة زيد بن علي، فيبدو مخططه وكأنه مخطط سبري للعصر الأموي. هناك مشكل محير يفرض وجوده على النظر: بما ان المصادر لا تتحدث إلا قليلاً عن تحوّل الخطط في العصر الأموي (أشهر التحوّلات جدت عند عبس[٣] وتميم[٤])، فمن المعقول أن نجد هيكل الكوفة في أول نشأتها من خلال صورة مقتطعة من العصر الأموي. لكن روايات أبي مخنف تتركنا في حيرة من أمر هذا التناقض الأساسي الموجود بين وفرة الجزئيات الطوبوغرافية وغموض الاتجاه، وحتى غيابه. وما يخشى أن مواقع القبائل التي ذكرها تتعارض أحياناً بصفة تامة والتصور الذي طرحه سيف. فإما أن يكون هذا التصور خاطئاً، وإما أن تكون رواية أبي مخنف خاطئة. ونلاحظ الشيء نفسه عند مقارنة هذا النص أو ذاك بكتاب البلدان. إن التطابق إن وجد نادر قليل، وتتراكم الصعوبات في أكثر الأحوال.

ولا تنشأ هذه المصاعب عند المقارنة بين المصادر والعصور فقط. بل إن نص سيف

---

(١) الطبري، ج٤، ص ٤٤ - ٤٥.

(٢) Massignon, *op.cit.*, p.44.

(٣) أكد سيف أن سعداً ترك عبساً بالمدائن، وأنه خصّ أفراد الحاميات والثغور بمواضع خلال فترة الاختطاط، ولاسيما عبس والحمراء: الطبري، ج٤، ص ٣٤ و٤٥. أما اليعقوبي فقد عين مواقع عبس «إلى جانب المسجد»: كتاب البلدان، ص ٣١٠. لم يكن المقصود إدخال تغيير على الإقامة داخل الكوفة، بل هو حضور متأخر.

(٤) أشار ماسينيون إلى هذا الانتقال وأرخه في ٣٧ هـ: Massignon, *op.cit.*, p.47. الواقع أن سيفاً حدد موقع تميم في سنة ١٧ في الناحية الشرقية. ونحن نجدهم بناحية الكُناسة في أخبار أبي مخنف.

ذاته يتضمن شيئاً منها، فيما يرويه وما لم يروه، في صميم الخطاب وفي خلفيته. لنبدأ بالتمعن فيه. وجدير بنا أن نورد الجمل الأساسية في حرفيتها:

«لما أجمعوا على أن يضعوا بنيان الكوفة أرسل سعد إلى أبي الهياج فاخبره بكتاب عمر في الطرق أنه أمر بالمناهج أربعين ذراعاً مما يليها ثلاثين ذراعاً وما بين ذلك عشرين وبالأزقة سبع أذرع ليس دون ذلك شيء وفي القطائع ستين ذراعاً إلا الذي لبني ضبة»[1].

«ونهج في الودعة من الصحن خمسة مناهج وفي قبلته أربعة مناهج وفي شرقيه ثلاثة مناهج وعلمها. فأنزل في ودعة الصحن سُليماً وثقيفاً مما يلي الصحن على طريقين وهمدان على طريق وبجيلة على طريق آخر وتيم اللات على آخرهم وتغلب، وأنزل في قبلة الصحن بني أسد على طريق وبين بني أسد والنخع طريق وبين النخع وكندة طريق وبين كندة والازد طريق، وأنزل في شرقي الصحن الأنصار ومزينة على طريق وتميم ومحارب على طريق وأسد وعامر على طريق، وأنزل في غربي الصحن بجالة وبجلة على طريق وجديلة وأخلاط على طريق وجهينة وأخلاط على طريق.

«فكان هؤلاء الذين يلون الصحن وسائر الناس بين ذلك ومن وراء ذلك واقتسمت على السهمان فهذه مناهجها العظمى. وبنوا مناهج دونها تحاذي هذه ثم تلاقيها وأخر تتبعها وهي دونها في الذرع والمحال فيما بينها ومن ورائها وجعل هذه الطرقات من وراء الصحن»[2].

إنها لصفحة كثيفة مهمة، وهي تتطلب شرحاً ضافياً. وسنعمل على توضيح عدة نقاط، لكن هناك نقاطاً أخرى ستبقى غامضة إلى الأبد. لقد استخدمت كلمة طريق في معناها العام بداية، أي منهج، وفتحة، وسكة بما في ذلك المناهج الواسعة، والمناهج الأخرى الأقل اتساعاً، إلى أن نصل إلى السكك الصغرى. ثم إن الأمر تعلق بمقام القبائل، فدلت الكلمة ذاتها على المناهج العريضة. وقد تحدث أبو مخنف في رواية ثورة المختار، عن «الطرق العظمى»[3] بالكوفة، ويبدو أنها كانت المنافذ الكبرى التي أقامت بها القبائل على امتدادها. فأصبحت الكلمتان (مناهج وطرق) مترادفتين[4]. وهذا لا يعني ما

---

(١) الطبري، ج٤، ص ٤٤.

(٢) الطبري، ج٤، ص ٤٥.

(٣) الطبري، ج٤، ص ٢١. كلمة تتضمن درجة أسمى بالنسبة للسكك.

(٤) تدل طريق على سكة حيث تصطف الدور وما هو منتظم «من بين الأزقة»: الزبيدي، تاج العروس، ج ١٠، ص ٤٣. يبدو أن كلمة طريق عامة وأن المنهج يرتب بالمرتبة الأولى بالنظر للعرض، ثم تدل السكة على صفوف النخيل. وأخيراً فالزقاق أضيقها جميعاً، لكنه سكة صالحة للمرور: المرجع نفسه، ج ٧، ص ٢٤٧.

قصدهُ ماسينيون من أنها صفوف المساكن، وهو معنى غير شائع(١). المقصود بالذات هي شوارع معلمة تفصل بين خطط القبائل بأنواعها، وتسمح لكل قبيلة بالتحول إلى المركز، عبر طريق خاصة بها حددت لها مسبقاً. وما جعل ماسينيون [illegible] الاستقرار الأول تمّ طبق نموذج [illegible] صفوف خيام، وهو نموذج بقي [illegible] لكن [illegible] شيئاً من ذلك في الصورة التي نحن بصدده. ولو كان ذلك لفقد نص سيف كل تماسك. ونجد هذه الطرق، سواء طابقت السكك أم لا، مذكورة بالنسبة لفترات لاحقة وبوصفها شرايين للاتصال البشري ولتنقل الجنود الثائرين أو المزيدين للحكومة داخل المدينة. بل نجدها أيضاً مذكورة في بغداد الجديدة، مع اتساع يمتد من ٤٠ إلى ٥٠ ذراعاً، محفوفة بالدكاكين والدور. وقد روي أن المنصور أمر بهدم بعض منها، محافظة على عرض الطريق المحدد مسبقاً(٢). كان لتخطيط الطرق الكبرى أهميته إضافة إلى ترتيبه التنازلي من ٤٠ ذراعاً(٣) (قرابة ٢١,١٦ متراً) إلى ٣٠ ثم ٢٠ ثم ٦، ما جعل سيفاً يعرض الأمور وكأن هذا التخطيط كان أول أمر صادراً عن عمر في شكل توصية شديدة الخطورة. أن يكون لعمر في هذا الموضوع آراء بمثل هذا الوضوح فهو أمر يصعب تصديقه، ولعل سيفاً أسقط على عمر العمل الذي أنجزه المنصور بشأن بناء بغداد. لكن علينا أن نتذكر أن مخططي الكوفة ـ نعني سعداً وأبا الهياج، ومستشاريهم من الحيرة أو من فارس أو من النبط ـ صمموا المدينة في شكل مجموعة هندسية عقلانية منفتحة. لكن هل خططوا لذلك مسبقاً؟ ألا يليق أن نعتبر ذلك إسقاطاً حيث تحدث المؤلف عن شوارع متوازية، تخترق الطرق الرئيسية وعن شوارع أخرى «تتبعها»، وحتى عن أزقة ومناهج صغرى لا يمكن أن يخطط لها بالطبع مسبقاً. وهي تبرز بالذات في التراص المشط، وفي فوضى التطور المقبل. ولا ننسى أن سيفاً مات فيما بين سنة ١٧٠ / ٧٨٦ و ١٩٣ / ٨٠٩، بحيث يكون ألّف كتابه بعد سنة ١٥٠ / ٧٦٧(٤). هذا ويجب أن لا يبقى أي شك عن فتح شوارع عريضة في حزام السكن منذ البداية، سواء صاحبتها طرق ثانوية أم لا، بصفتها

---

(١) مرجع مذكور، ص ٤٥.

(٢) الطبري، ج٧، ص ٦٥٤: كتاب البلدان، ص ٢٤٢؛ قال الطبري إنها ٤٠ ذراعاً، وذكر اليعقوبي أنها ٥٠ ذراعاً. وقد استخدم الطبري كلمة طريق، واستعمل اليعقوبي كلمة شارع وهو يقصد المناهج الكبرى.

(٣) من البديهي أن الأمر يتعلق بالذراع السوداء التي تساوي ٥٤,٤ سنتمتراً: Hinz, *Arabische Masse Und Gewichte*, p.64.

(٤) لا نعلم إلّا القليل عن حياة سيف: فؤاد سزكين، مرجع مذكور، ج ١، ص ٤٩٨؛ وذكر عبد العزيز الدوري سنة ١٨٠ هـ/٧٩٦ تاريخاً لوفاته: علم التاريخ عند العرب، ص ١٢١. وانظر ما سبق حول تقييم ما قدمه سيف.

العنصر الأساسي، والعمود الفقري لنسق الخطط، يمكن بفضله تحديدها وتعريفها، وأيضاً بصفتها الصلة المثلى للاتصال بين الصحن والخطط، والمركز المشترك حيث تهيؤ الحياة الاجتماعية العربية الاسلامية الجديدة وخطط الوجود القبلي القديم، وحتى الوجود العشائري.

كانت الشوارع الواسعة المستقيمة تنطلق من المركز المربع نفسه، وهو الذي يحوي ذاته مربعين هما المسجد والقصر. ونحن نميل إلى الاعتقاد أن شكل المدينة كلها كان مربعاً، على شاكلة بابل[1]، مع الفارق أننا إزاء مدينة مفتوحة وبدون سور عن قصد، ولا نعرف شيئاً عن نهاية المناهج مع أننا نعرف بدايتها. وقد أسقط ماسينيون على مخططه شكلاً دائرياً أحيط بخندق دفاعي. وإذا ما كان هذا الشكل موجوداً أبداً، فلا يمكن أن يكون قد أقيم إلا في وقت متأخر، لما تدخل المنصور وأمر بتشييد السور وحفر الخندق، فضلاً عن أنه بعث النموذج الساساني الدائري.

الواقع أننا نتقدم في البحث بواسطة اللمسات والانطباعات وإقامة ما نزعم على الاحتمالات، ولن يكون ذلك على أساس اليقين أبداً. هكذا ندرك أن التماثل ليس كاملاً في تصور سيف. لماذا توجد خمس فتحات في الشمال، وأربع في الجنوب، وثلاث في الشرق، وكذلك في الغرب؟ وهل أن المسافة نفسها تفصل نقاط انطلاق المناهج؟ وإذا حددنا خطة إحدى القبائل بكونها تقع بين طريقين، فستظهر إلى الشمال مجالات ضيقة مستطيلة، وخطط واسعة عريضة شرقاً وغرباً. لكن بجيلة وهمدان موجودتان في «الشمال» بالودعة، كما أن دور وطلبات بجيلة[2] معروفة، وقد ذكر اليعقوبي أن بجيلة كانت تستغل اقتطاعاً مهماً[3]، جعلت منه كل روايات أبي مخنف النقطة المرجع بالنسبة للمنطقة الشمالية[4]. قلنا المنطقة الشمالية؟ هل نحن على يقين من ذلك؟ إن مشكل الوجهة مطروح حيث ينبغي أن تكون القبلة هي المرجع، علماً أنها تتجه إلى الجنوب الغربي، لكن هذا الاتجاه لم يحسب حساباً صحيحاً (يقدر انحرافها بـ ١٧ درجة). إن المسافر الذي يعبر اليوم الفرع الغربي للفرات،

(١) هذا على الأقل ما قاله هيرودوتس [illegible] كانت مدينة مربّعة الشكل، تعد مائة وعشرين غلوة من كل وجه»، وقد أورده ممفورد، L.Mumford, op.cit., p.103؛ أما أوبنهايم Oppenheim, op.cit., p.146 فهو يميل إلى شكل المعين؛ وتصرّح مرغريت روتن أن كل المؤلفين اتفقوا على أن شكل المدينة كان مربع الزوايا M.Rutten, *Babylone*, p.34.

(٢) فتوح البلدان، ص ٢٥٣.

(٣) كتاب البلدان، ص ٣١٠.

(٤) الطبري، ج٦، ص ٤٦ - ٤٨.

يسلك طريقاً تتجه إلى الجنوب الغربي[١]، فيصطدم في الصميم بالجدار الشمال الشرقي للمسجد، ووراءه القبلة، أي بشمال شرقي يكاد يكون شرقاً. ويمكن التساؤل عما إذا كان مربع المركز لا يقع موقع القطر بالنسبة للفرات وكذلك بالنسبة للخطط القبلية؟ وفي هذه الصورة، الاتجاه الذي يكون واقعاً إلى الشمال على سبيل الافتراض، يصبح اتجاهه إلى الشرق، وتكون القبلة غرباً، والشرق شمالاً، والغرب جنوباً. فهل هذا الذي حمل البلاذري على القول إن اليمن (يعني بجيلة والازد) استقرت في اتجاه الشرق، وقد جاء ذلك الخبر في فتوح البلدان[٢]، ورواه كل المؤلفين تقريباً[٣]؟ هذا افتراض يصعب اعتماده حقاً، لأن مؤشرات كثيرة جداً وردت في رواية الأحداث التالية تبدو مناقضة له[٤]. وحسبنا أن نعتمد الفكرة التي تقول إن المحور المركزي الذي تشكلت حوله المدينة في جملتها، كان يتجه بصفة بارزة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، حيث كان الفرات إلى الشرق بصفة واضحة[٥]، وقام مقام الحد الوحيد المعرّف للكوفة.

وانطلاقاً من ذلك، يمكن أن نتصور مخططاً نجومياً ومخططاً مربعاً تماماً على السواء. فمن جهة، تنتهي الطرق وتنفصل، تاركة المجال للمساكن، ثم تتوقف في مكان ما، ومن مزايا هذا المخطط سد الزوايا الفارغة التي اكتست أهمية نسبية. أما في الافتراض الثاني فإننا سنجد شوارع متوازية فيما بينها، شاقولية بالنسبة لجوانب الصحن، أي شكلاً يكتسي كمالاً هندسياً كبيراً. واعتقادي أن روح النص الذي نعتمده، تؤيد الصورة الثانية، بمعنى البنية البسيطة. ونصل إلى حل مشكل الزوايا نصف الحل بفضل العبارة التالية: «فكان هؤلاء (أي القبائل التي تم تعدادها) الذين يلون الصحن وسائر الناس بين ذلك ومن وراء ذلك». فماذا يعني هذا سوى أن الفراغات التي خلفتها الزوايا قد جرى سدها؟ متى؟ هل تم الأمر فوراً وبصورة عشوائية، أم بعد مدة من ذلك، لما تبين أن المخطط الأول غير ملائم، فوجب تكييفه؟ ليس الأمر مهماً الآن، بل المهم أن المناهج لم تسطر لكل الناس، وأن المناهج

---

(١) الجنابي، خارطة رقم ١١.

(٢) فتوح البلدان، ص ٢٧٥.

(٣) مثلا ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ٤٩١.

(٤) انظر فيما بعد تحاليل للروايات عن ثورة المختار وشبيب. لكن مفهوم أهل اليمن يرتبط بالأزد وبجيلة وخثعم والأنصار وقضاعة وخزاعة، في رواية أبي مخنف بخصوص ثورة حجر: الطبري، ج٥، ص ٢٦١. لكن ينبغي تحديد موقع الأنصار والأزد وربما خزاعة وقضاعة إلى الشرق والجنوب الشرقي.

(٥) من الملاحظ على كل أن البلاذري وياقوت لم يحددا المنطقة الشرقية بصفتها منطقة تجانب الف ت. وحدد ياقوت خلافاً لذلك، في معجم البلدان. ج ٤، ص ٤٩٢، موقع ثقيف «بين الماء ودار الامارة». ولعلّ الفرات اعتبر حداً يقع إلى الشمال الشرقي، لو ود الجسر وطريق المشرق، العابرين للنهر.

والخطط المرتبطة بها كانت تشكل حزاماً أول، سيتم من ورائه استقرار موجات الروادف، في حين استقرت قبائل أخرى في الفجوات.

والغريب أن سيفاً لم يذكر هذه القبائل في نصه في بداية الأمر: كانت تلك حال بكر وحال طي بالخصوص. كأن الأمر متعلق بامتياز يرتبط بالمتقفعين الأولين بالخطط بصورة نظامية، ثم ألم تشر مصادرنا إليهم فسمتهم أهل الخطط[1]، بمعنى الناس الذين حصلوا على الأراضي بصورة قانونية ومعهم أولئك الذين أقاموا قريباً من المساحة المركزية؟

إن هذه الخطط مهيّأة لأن تتحول إلى أشكال طوبوغرافية على أقل تقدير، وربما إلى أحياء حضرية بالمعنى الدقيق، وإلى أن تسمى مختلف الأماكن في المدينة بأسماء القبائل (فيقال: ذهبت إلى كندة وجهينة)[2]. فصار مهماً جداً ذكر مواقعها على خريطة. لكن هنا تعترض سبيلنا صعوبات هائلة. فما هو الترتيب الذي رتب عليه سيف القبائل التي روى أسماءها؟ وهل ينبغي البدء يميناً أم يساراً، أم من الوسط؟ وعلى فرض أن نبدأ من اليمين، وهو العنصر الخيّر بصورة تقليدية، عنصر اليمن الذي يصطبغ بصبغة دينية، فعلينا أن نتصور عند ذلك أن المخطط الذي حدد للقبائل أماكنها، كان يدور سريعاً وعلى التوالي إلى القبلة، وإلى الشمال الشرقي، والشمال الغربي، والجنوب الغربي، وهو يواجه الوجهة المقصودة في كل مرة، وهذا هو الأمر الأكثر ترجيحاً لأنه يجسم الطريقة التي بها يفكر سيف. لنعد إلى طريقته في الحديث عن الرامي الذي يبدأ يميناً، ووصف وجهة المسجد: . . .

«ووضع المسجد يمنة على القبلة ثم مدّ به إلى منقطع رحبة علي والرحبة قبالته». ثم: «فكانت قبلة المسجد إلى الرحبة وميمنة القصر»[3]. نجد ميمنة القصر من جديد، لأن العلامة المرجع ترتبط باتجاه الصلاة. وهكذا يقع الاستناد إلى عنصر الميمنة بصفة واضحة. هل كانت الميمنة متنقلة، تواجه الشخص الذي يطلق النبل، ويأمر، ويوزع كما ينبغي، أم كانت ثابتة بالنسبة للقبلة ثباتاً ضمنياً؟[4]. هذان الافتراضان كلاهما راجح، ويترتب عنهما

---

(١) ابن سعد، ج ٦، ص ٢٢١، في ترجمة صعصعة بن صوحان، من رفاق عليّ. وقد تحدثت كتب متأخرة في فقه الحنفية عن أهل الخطة واعتمدت روايات قديمة: السرخسي، ج ٢٦، ص ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢؛ والسمرقندي، ج ٣، ص ١٧٥.

(٢) مثلاً ابن سعد، ج ٦، ص ١٨، ٢٦، العبارة واضحة جداً في فتوح البلدان، ص ٢٧٩: «ويقولون جئت من حمراء ديلم كقولهم جئت من جهينة». راجع أيضاً: الطبري، ج ٦، ص ٤٨؛ وكيع، أخبار القضاة، ج ٢، ص ٤٢٤ حيث نرى الشعبي يقطع جهينة ليقوم بجولته اليومية.

(٣) الطبري، ج ٤، ص ٤٦.

(٤) لا يمكن اعتماد القبلة بالنسبة للشمال، بل يعين الشخص المكلف إزاء القبائل الذي يواجه الشمال، أي من الشرق إلى الغرب، سليم وثقيف وهمدان وبجيلة، الخ. . وخلافاً لذلك، يكون الأمر كذلك بالنظر للجنوب، =

خطتان مختلفان يمسّان بالخصوص مواقع سليم وثقيف. وهناك فرضيات أخرى منها أن القبائل التي ترد أسماؤها بالأول تحتل الموقع المركزي، وأن الآخرين يقيمون على التوالي إلى اليمين واليسار، وهذا مخطط ثالث ممكن. وأخيراً، ماذا تعني العبارة التي هي أساسية والتي تؤيدها رواية من البلاذري: «واقتسمت على السهمان؟».

هل تعني إسناد خطتها لكل قبيلة، بعد أن تحدد موضعها الأساسي في الشمال أو الغرب أو الجنوب؟ وفي هذه الصورة، لن نقدر أبداً على رسمها بدقة على خارطة. وكل ما نعلمه أن هناك طريقاً كانت تفصل بين أسد والنخع، وأن كندة مجاورة للنخع والازد أيضاً. هذا كل ما لدينا من معلومات واضحة إلى حد ما بخصوص الرقعة الجنوبية حيث نحس بنوع من التنظيم والتصفيف، أما دون ذلك، إذا اعتمدنا فرضية تمليك الخطط عن طريق القرعة، فإن الترتيب الذي ذكره سيف يفقد كل دلالة، فنكون مجبرين على التمادي في ملاحقة الصدفة.

الواقع أن من الراجح كثيراً ـ وهذا من حسن حظنا ـ أن القرعة لم تفد القبائل ذاتها بقدر ما أفادت، في توزيع العشائر والحسم بينها داخل الخطة القبلية ذاتها[1]، وربما توزيع الأفراد أيضاً. إن بنية الجملة والسياق العام تحثنا على إعتقاد هذا الأمر: «واقتسمت (الخطط) على السهمان».

وبذلك يتشكل لدينا على أية حال تنظيم قبلي. وقد ذكرنا أن أفضل طريقة لتحديد مواقع القبائل، هي أن توضع جنباً إلى جنب، انطلاقاً من المركز، وفي مواجهة كل جانب من اليمين إلى اليسار إلا في خصوص جانبي الشرق والغرب، ففي اتجاه القبلة:

ـ جهة الشمال، من الشرق إلى الغرب: سليم، ثقيف، همدان، بجيلة، تيم اللات، تغلب.

ـ جهة الجنوب، والشرق إلى الغرب: الأزد، كندة، النخع، أسد.

ـ جهة الشرق، من الشمال إلى الجنوب: الأنصار ومزينة، تميم ومحارب، أسد وعامر.

= ولذا ينبغي وضع أسد يميناً في اتجاه القبلة بداية. وبالنسبة للشرق والغرب، يكون المبدأ في وضع القبائل نزولاً في اتجاه القبلة. فمن المرجح أن هناك مزجاً بين هذين المرجعين (الميمنة والقبلة). إلا أنه لا يمكن التأكد من الأمر بصورة قاطعة، على الرغم من مطابقة مثل هذا التصور بصفة مجملة مع ما يمكن استنتاجه من روايات أبي مخنف (راجع الرسم).

(1) ولا سيما أن اليعقوبي أيد في كتاب البلدان، ص ٣١٠، بما لا يدع مجالاً للشك، الرأي القائل أن كل قبيلة اختطت خططها بحضور قائدها.

الخطط القبلية حسب رواية سيف

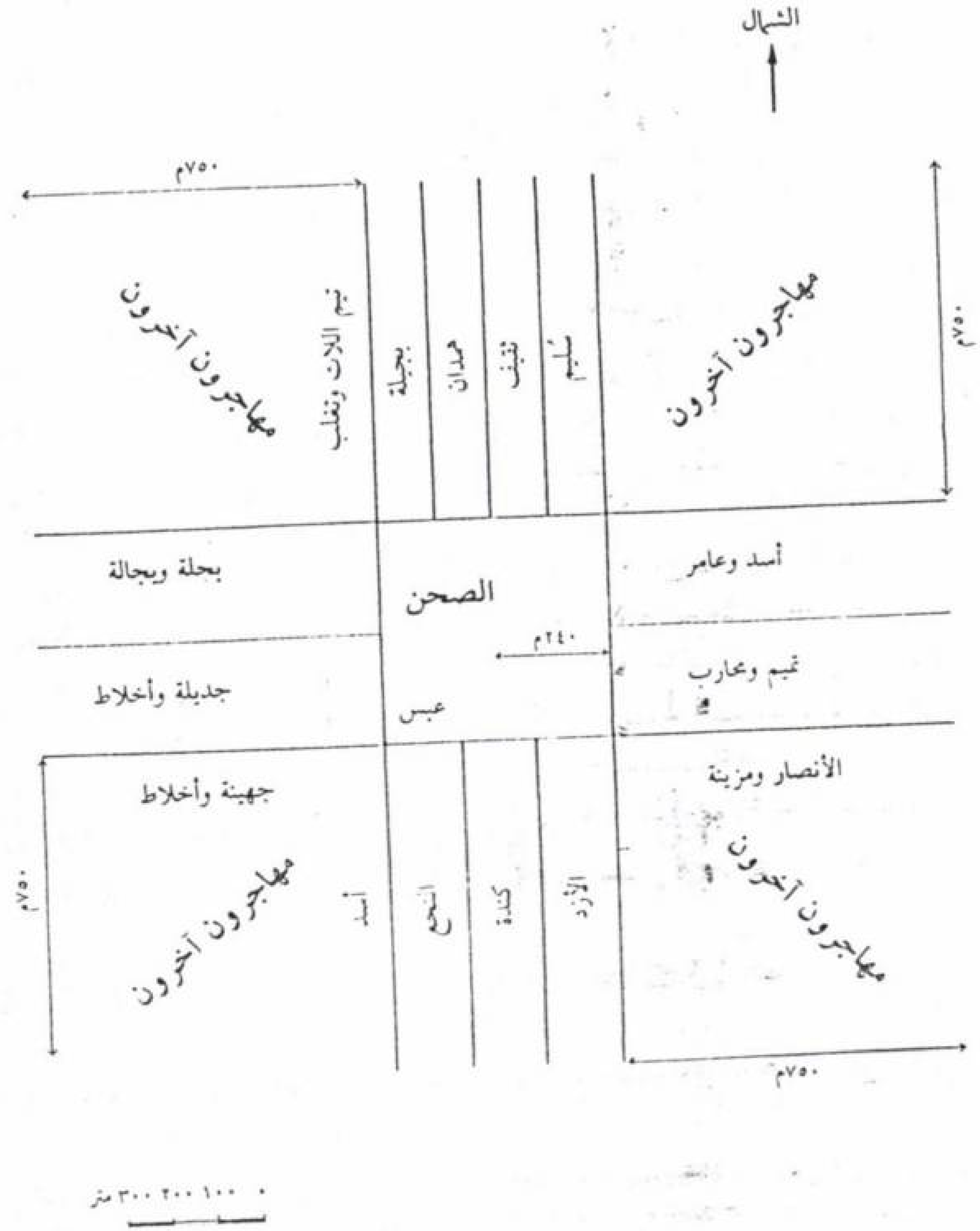

ـ جهة الغرب، من الشمال إلى الجنوب: بجالة وبجلة، جديلة وجهينة.

الحقيقة أن هذه الصورة للجغرافيا القبلية تفيد من بعض المعلومات التي ذكرتها المصادر الأخرى، على الرغم من أنها تطرح مشاكل تخص رصف الواجهة الغربية. فسليم مثلاً غير بعيدة عن السبخة، كما جاء في رواية أبي مخنف بخصوص المختار، والسبخة غير بعيدة عن الفرات[1]. وتتجاور ثقيف وهمدان وبجيلة بصورة واضحة جداً[2]، اعتماداً لرواية ثورة المختار كذلك.

وكانت تميم تقيم شرقاً قبل أن تتحول إلى الغرب. لكن إمعان النظر في أخبار أبي مخنف الخاصة بثورة حجر بن عدي يحمل على الاعتقاد أن هذه القبيلة لم تبتعد كثيراً عن كندة[3]: هناك انحراف طفيف... أما بخصوص الجنوب فتتوفر معلومات رواها اليعقوبي[4] وهي تؤكد وتنكر في آن الترتيب القبلي كما رواه سيف. لكن كتاب اليعقوبي يخاط التغييرات التي طرأت منذ قرنين ونصف القرن، بروايات قديمة، متعلقة بالطوبوغرافيا الأولية للكوفة، ولذا، يجب الاحتياط عند استعماله. فقد حدد موقع كندة بين جهينة وبني أود (من مذحج، أي أقرباء النخع)، وهو ما يطابق مخططنا[5]، مع العلم أن أسداً تقع بينهم. ليس هذا الأمر محيراً، كما أنه غير محير أن يخص بجيلة باقتطاع كبير، حيث يماثل غادلا بين بجيلة وبجلة واسم بجالة. وعلى النقيض من ذلك، يحدد اليعقوبي مكان الازد بين بجيلة وكندة، وكأن الأمر ظاهرة أصلية، أي في اتجاه الغرب[6] أو بالركن الجنوبي الغربي[7]، أي في موضع أسد. وهو الأمر الذي قد لا يتفق وتصور سيف، ولا وروايته السابقة، ولا تؤيده روايات أبي مخنف الذي أفاض في الحديث عن الأزد، لكن بدون أي تدقيق بخصوص مواضع دررهم. ولم ينج ماسينيون من اللبس والغموض، على الرغم مما

---

(١) الطبري، ج٦، ص ٢٤.

(٢) الطبري، ج٦، ص ١٩ و ٤٨.

(٣) الطبري، ج٥، ص٢٦٢، يقيم بنو العنبر إلى جانب كندة والنخع.

(٤) كتاب البلدان، ص ٣١٠.

(٥) لو لم يحدد اليعقوبي نفسه مكان الأود في المركز برحبة عليّ، بصفة استثنائية: كتاب البلدان، ص ٣١٠، لوجب قلب التصور وتحديد موقع مذحج شرقي كندة، وهذا احتمال لا ينبغي استبعاده بأية صورة كانت. ولذا وضعنا مخططاً ثانياً للقبائل (انظر الخارطة).

(٦) ورد خبر عند ابن الكلبي مفاده أن قسماً من الأزد أقاموا عند أبناء أختهم من بجلة: ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٧٤.

(٧) نشعر بالضيق عند قراءة ما رواه أبو مخنف عن زيد حيث نستشف أن جبانة مخنف (الأزد) لا تبعد كثيراً عن كندة، إلى الجنوب الغربي: الطبري ج ٧، ص ١٨٣. وفي هذه الصورة يجب اعتماد المخطط الثاني أو الثالث. وهذان المخططان يتوافقان أكثر من المخطط الأول مع ما عند أبي مخنف واليعقوبي.

بذله من جهد عظيم لتخيل الأمور وتجميعها وذلك لأنه حاول التوفيق بين هـذه المصادر المتنوعة وتوحيد العصور ملحاً مع هذا على العصر الأموي. ولنقتصر فيما يخصنا على القاعدة الصلبة الواضحة لرواية سيف، تضاف إليها الاستفهامات والشكوك التي أحاطت بها والتي تبرز وضع أكثر من مخطط لمواقع القبائل، على أن تتمّ مواجهتها بعد ذلك بالتغييرات الحاصلة.

قطائع العشائر والتقلبات الأولى

إن ما رواه سيف هو مخطط أساسي دام قرنين. لكن ما هي تفاصيله؟

لقد مر بنا أن هناك خططاً كانت على شكل قطائع تفصل بينها سكك واسعة وتجمع بكل خطة قبيلة واحدة أو مجموعة متكونة من فرعين تابعين للقبيلة. وحدد تنظيم التخطيط الخطط وسلمها إلى أصحابها. هذا التنظيم من عمل السلطة ومستشاريها، إذ لا يمكن مجاراة اليعقوبي حين يقول: «فاختطت كل قبيلة مع رئيسها»[1] عادة حول جبانة ما، بصفتها نقطة مركزية للوجود القبلي، وهي نقطة ماء أيضاً كما يظهر. وعلى النقيض من ذلك، لا بد أن تدخل رؤساء القبائل كان نشيطاً، لتهيئة الخطط من الداخل، وتحديد مكان كل عشيرة ضمن المجموعة. وقد لعبت القرعة دوراً في هذا الموضوع وكذلك تحكيم الرؤساء. لا شك أن الخطط الفرعية العشائرية هي التي أشار إليها النص باسم القطائع[2]، وفرضت السلطة أبعادها على شكلية واحدة فيما يبدو (باستثناء بني ضبّة ونجهل سبب ذلك). ومن الواضح أن الستين ذراعاً المذكورة تخص العرض والأمر نفسه بالنسبة للسكك والمناهج والأزقة، وقد صنف المؤلف القطائع في المرتبة نفسها[3].

تتسع إذن قطيعة كل عشيرة إلى عرض ٣٢،٤٦ متراً، في حين أن طولها غير محدد، وهي محاطة بنسق كامل من السكك والأزقة التي يتضاءل عرضها تدريجياً والتي تقسم كل طريدة قبيلة. ولنتابع مرة أخرى سيفاً حيث يقول:

«فهذه مناهجها العظمى وبنوا مناهج دونها تحاذي[4] هذه ثم تلاقيها، وأُخر تتبعها

---

(١) كتاب البلدان، ص ٣١٠: لم تجر الأمور على هذا النحو إلا بعد أن سلمت السلطة الخطط!.

(٢) لسان العرب، ج ٨، ص ٣٨١: يحدّد الشافعي الطابع الوقتي للقطائع ويضاهيها بالأسواق بحيث أنه عندما يغادر شخص الموقع، يمكن لغيره أن يستقر بالمكان «كأبنية العرب وفساطيطهم فإذا انتجعوا لم يملكوا بها». القطيعة إذن هبة من السلطة لكن مرتبطة بالاقامة، ويمكن أن تصير دائمة في واقع الأمر. راجع أيضاً الزبيدي، تاج العروس، ج ٥، ص ٤٧٤ وما بعدها.

(٣) سيف في تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٤٤.

(٤) الطبري، ج ٤، ص ٤٥. هذه كلمة جوهرية اطلاقاً، وهي تتحكم في فهم نسق الطرق وبنية الخطط القبلية. =

وهي دونها في الذرع والمُحال من ورائها وفيما بينها».

كيف يتجسم كل ذلك في الواقع الملموس؟

لنفرض بداية أن كل طريق قبلية كبرى منطلقة من طرف الساحة [illegible] طولها [illegible] كم تقريباً، فالمسافة من [illegible] المسجد الحالي تعادل كيلومتراً وربع الكيلومتر [illegible] أن منطقة [illegible] تقريباً من [illegible] لم تكن ماهولة ـ وعلى هذا يكون موقع السبخة بهذا المكان ـ فينبغي حذف قطيعتين إحداهما تقدر بـ ٢٥٠ متراً وتكون للصحن، والثانية للسبخة، وبذلك يكون العمق مساوياً لـ ٧٥٠ متراً ـ إذ إن الكوفة في بدايتها لا يمكن إلا أن تكون مربعة الشكل وتماثلية، كما كانت البصرة مدة طويلة[1]، وكما ستكون المدينة المستديرة التي بناها المنصور للمرة الأولى[2]. وعلى هذا، كان يحيط بكل قبيلة طريقان طويلتان عرضهما ٢١,٤٠ متراً، وطولهما $\frac{٣}{٤}$ كم وكانت القبيلة تقيم على قطيعة يختلف عرضها بحسب عدد المناهج (٥ شمالاً و ٣ شرقاً). فعلى وجه التدقيق، لم يكن لخطة همدان مثلاً أن تتجاوز عرض ٩٣ متراً في حين أن خطة تميم كان يمكنها أن تبلغ ٢٠٨ من الأمتار[3]. وبالنظر في هذا المثال الأخير فإننا نتصور سكة من الفئة الثانية (١٦ متراً) تقسم القطيعة قسمين في وسطها، وتوازي تقريباً المناهج على طول الخطة، أي

= وقد صاغ سيف جملته على النحو التالي: «وبنوا مناهج دونها تحاذي هذه ثم تلاقيها». حاذى (جذر ح ذ ى) تطرح علينا مشكلاً صغيراً في فقه اللغة. وهي تعني أصلاً (لسان العرب، ج ١٤، ص ١٦٩، ١٧٠): «حذا النعل: قطعها على مثال».
ثم يذكر لسان العرب كمرادف آزى وقابل، وكذلك عند الزبيدي الذي أورد أزى، ج١٠، ص ٨٥. لكن إذا عبرت فكرة الموازاة بوضوح عن مقصودها، فليس الأمر كذلك بالنسبة لكلمة مقابلة المعبرة عن التواجه. «وقد استعمل لسان العرب آزى وإزاء، ودعمه بفعلين هما حاذى وقابل: ج١٤، ص ٣٢. فمن جهة تتبين في الموازاة معنى المجانبة، لأن المثال الذي يقدمه ابن منظور خاص بشخصين يتماشيان جنباً لجنب. لكنه من جهة أخرى بخصوص إزاء وموازاة، يقدم أمثلة عن المقابلة التي تتجسم مثلاً في مواجهة العدو. لكن عندما تحدد المعجم العربي بوضوح أكثر بفضل تقدم العلوم، لم يحتفظ المهندسون إلا بفكرة المجانبة في الكلمتين. راجع: Serre-Schmidt, *Lexique technique français -arabe*, II, p.1660؛ وكذلك Blachère, Chouémi, Denizeau, I, p.102؛ والمعجم الوسيط، القاهرة ١٩٧٢، ج٢، ص١٠٣٠. على أن الأمر يتعلق هنا بتطور في الدلالة من المفروض أن سيفاً كان يجهله. والمرجح إذن أن مؤلفنا أراد التعبير عن الموازاة بالمعنى المقبول حديثاً. لكن شكاً طفيفاً ما زال قائماً بخصوص وضعية عمودية ممكنة.

(١) ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص٤٣٤. كانت أبعاد البصرة في ولاية خالد القسري (١٠٥ ـ ١٢٠) فرسخين على فرسخين، أي ١٢ كيلومتراً على ١٢ كيلومتراً.

(٢) من حيث تساوي المسافة بالنظر للمركز.

(٣) ٢٠٨ أمتار بالضبط، نحصل عليها بطرح ٢١,٤٠ متراً×٣ من ٤٨٠ متراً (ضلع الصحن)، فتكون النتيجة ٤١٦، ثم يقسم هذا الرقم على ٢.

٧٥٠ متراً، ثم تنعرج حسب زاوية قائمة لتلتقي بمنهج تميم. فيتشكل أمامنا مستطيل طوله فقط يكون اعتباطاً، لكن عرضه يساوي ٨٥ متراً[١]. ولنستمر في تصورنا معتمدين سيفاً إلى أبعد حد. نكون بذلك في حاجة إلى سكة يكون عرضها عشرين ذراعاً - أي ١١ متراً - بمعنى سكة من الصنف الثالث تقع بعد المنهج والسكة المركزية. هذه السكة تقسم المستطيل قسمين في اتجاه الطول، وتفتح على حزام الوصل بين السكة الرئيسية والمنهج. إن القطيعة تتحدّد بهذه السكّة الثالثة وعلى هذا النحو تمتد قطيعتان ضمن المستطيل على عرض يقارب ٣٧ متراً، وهو يتجاوز قليلاً ما وقع تقريره[٢]. وتتجدد البنية ذاتها من الجانب الثاني من السكة المركزية. هنا أيضاً نجد قطيعتين، دون أن نعلم ما إذا كان الاتصال يتم في اتجاه المنهج المسند فقط أو أنه يرتبط بمنهج القبيلة المجاورة التي هي أقرب. وبذلك يصبح نص سيف واضحاً حيث تقع الدور «من وراء» شبكة السكة وفيما بينها، أي على جانبي السكك الثانوية[٣]. يبقى مطروحاً على النظر مشكل أخير هو مشكل الأزقة وعرضها ٧ أذرعة أي ٣,٨٠ أمتار. لم يتحدث سيف عنها إلا في البداية ضمن قائمة المصطلحات التي قررتها السلطة مسبقاً، لا في بقية النص، لكنّا نعلم من الروايات اللاحقة عن الثورات أن الأزقة كانت كثيرة. لكن هل كانت موجودة فعلاً من البداية؟ أم هي انبعثت من كثافة المساكن وتراكمها، وتضييق السكك، كي يوسع المجال الضروري للاتصال بالنسبة لكل مجموعة من الدور؟ الاتجاه النقدي الصارم يوجب علينا قبول فكرة تهيئة الأزقة من الأوّل، حيث أننا رضينا بكل أقوال سيف. لكن على أية صورة تكون هذه الأزقة؟ هل كانت عمودية بالنظر لسلسلة المناهج الرئيسية، أو منحرفة، مشكلة بذلك مخططاً في هيئة رقعة، أم كانت موازية لها تنظم وتشق صفوف الدور المتواجهة أو كليهما في آن؟ لن نعرف ذلك أبداً، لكننا نتكهن أن هذه المدينة الكاملة الهندسة، الواسعة التهوية، سوف تتحول انطلاقاً من نقطة الضعف هذه، إلى مدينة ملتوية غصّت بأهلها، وقد حصل ذلك جزئياً حين كان أبو مخنف يؤلف كتبه[٤] (فيما بين سنة ١٣٠ و ١٥٠ / ٧٤٨ - ٧٦٧). على أننا نعلم أن دور الفترة المبكرة

---

(١) نحصل على هذا الرقم بطرح ١٦ متراً من الشارع الثانوي المنتصف، من ٢٠٨ أمتار، ثم تقسم النتيجة على ٢. يطابق هذا الرقم على سبيل التقريب ضعف عرض القطيعة كما ضبطها سيف، أي ٦٠ ذراعاً، على أن تتمّ إضافة الزقاق.

(٢) لا شك أن هناك فارقاً قدره ٥ أمتار وزيادة. فلا بدّ أن قطائع قسم الجنوب كانت أكثر مطابقة للحجم المقرر من القطائع الأخرى. ولا بدّ أنها كانت خلافاً لذلك، أكثر ضيقاً في الشمال.

(٣) الواقع أن الأمر غير ثابت. فماذا يعني بقوله «من ورائها وفيما بينها»؟ لا يمكن أن يكون ذلك خلف المناهج الكبرى، بل وراء وبين السكك الثانوية المتقاطعة، بحيث تكون في شكل مستطيلات.

(٤) هذا واضح تماماً في الرواية المتعلقة بثورة حجر بن عدي المزعومة: الطبري، ج٥، ص ٢٥٢. كان حجر ...

كانت صغيرة (لم تتجاوز ثلاث حجرات) فليس من المعقول أن تتكدس الدور في قطيعة لا يزيد عرضها عن ٣٢ متراً. كان للعرب تقليد المعسكر، وقد لاحظ فوق ذلك مخططوهم وعايشوا في عين المكان بنية المدائن المجالية. فبعد قبول فكرة هندسية المظهر الأولى، يبقى من المرجح أن الزقاق كان يقسم القطائع قسمين في اتجاه الطول، مثله في ذلك مثل سلسلة السكك السابق وصفها. لكن ليس من شك في وجود أزقة عمودية لضمان الاتصال[1].

وبذلك نصل أخيراً إلى نسق حقيقي مرتب من المناهج الطولية التي عليها رصفت الدّور، كما كانت الخيام تصف في مخيمات البدو، الواحدة تلو الأخرى. وفي أدق قطيعة من قطائع السكنى، بمعنى نصف القطيعة عرضاً بعد طرح الزقاق، لا شك أن الدور أقيمت أزواجاً، مع خلاء طفيف فاصل، أو أنها كانت متلاصقة لا غير. نجد الشيء نفسه من وراء الزقاق، وعلى النصف الثاني من القطيعة، وقد ذكر الشيخ علي الشرقي في دراسته المنشورة بمجلة **الاعتدال** لعام ١٩٣٢ ما يلي:

«وكان العرب أول هبوطهم إلى العراق ينزلون الشواطىء من الريف والسواد ويبنون بشكل هندسي مكون من خيمتين خيمتين وإذا طغى النهر ارتفعوا عن الشواطىء ملتجئين إلى المخيمين الكبيرين البصرة والكوفة»[2].

إنه خبر ثمين مستمد على الأرجح من مدونة شيعية مجهولة لدينا. وقد نقله هذا الرجل النجفي الأصيل والمطلع على العوائد البدوية. ونحن نقتبس منه البنية التماثلية المتزاوجة للدور. ولنضف أنه كان لماسينيون تخمين باصطفاف الخيام، لكنه افترض أنها كانت تراكب المناهج أو حتى تكونها، وهو أمر لا يمكن قبوله[3]. وبخصوص عشائر همدان

مطارداً، فكان الفتيان «يدلونه» عبر الأزقة لبلوغ النخع. هذا في سنة ٥١ هـ. لكن القضية برمتها ترمي إلى معرفة ما إذا كان أبو مخنف لم يعكس رؤيته للكوفة المتبدة.

(١) لا بد أن تقاطع المناهج كان يتم على شكل زاوية قائمة لأن البناء كان من آجر، كما في المدن القديمة في بلاد الرافدين. وعلى هذا النحو، نصل إلى مخطط شبيه بالشبكة.

(٢) ذكره البراقي، تاريخ الكوفة، ص ١١٨. هل أن «قرار البناء» الممهد لتخطيط المدينة الذي تحدث عنه سيف شمل كافة الدور في واقع الأمر؟ ألم يكن بالأحرى قراراً عاماً انطبق على القصر والمسجد ودور الطبقة الارستقراطية، لا على جمهرة المهاجرين؟ المرجح أن هؤلاء قد استمروا على العيش تحت الخيام وفي خصاص من قصب. يذكر ابن سعد بكل تأكيد أن في خلافة علي (٣٦ - ٤٠ هـ) «عامة الكوفة يومئذ أخصاص» ج ٦، ص ٢٣٨.

(٣) *op.cit.*, p.38. كانت المناهج مبنية باللبن كما ذكر ماسينيون نفسه وعلي الشرقي. وكما أكده سيف خاصة، فذكر عبارة «بنوا مناهج». إن عبارة «جدران صغيرة من آجر» صالحة، لكنها توحي بفكرة الفصل الدقيق بين الخطط القبلية، وأن الخطط ذاتها محصورة بين المناهج.

فقد تصورها الواحدة تلو الأخرى في المنهج نفسه. أما تصورنا، كما تمليه علينا صرامة نص سيف ذاتها فهو أن العشائر كانت تتوالى، لكنها كانت تتواجه أيضاً. كانت الدور تتوالى ضمن القطيعة الواحدة، لكنها كانت تراكب ممراً، هذا الممر هو الزقاق، وهو أصغر الطرق، وكانت الدور تقع على جانبي كل نسق الطريق قطعاً، كما هو الحال في كل مكان. لكنها لا تقيم عليها، ولا سيما الطريق الكبرى أو المنهج، وهو عبارة عن أرض خلاء صالحة [illegible] والمرور.

ما هو عدد قطائع العشائر في الخطة القبلية نفسها؟ يرتبط هذا الأمر بعدد العشائر التي جاءت مع القبيلة، في بداية الفتح، وبعدد الأفراد داخل كل عشيرة. وقد طرأت تحويرات بالهيكل الشامل فور تنصيبه. ومن المعلوم - دائماً بصورة تقريبية - أن ٤٠٠٠ رجل من قيس حضروا وقعة القادسية (ضبة، هلال، سليم، غطفان، ثقيف): فتوزعوا على عدة خطط قبلية. وجاء ٣٠٠٠ من أسد والعدد نفسه من تميم، و ٢٣٠٠ من مذحج وحضرموت، و ٢٠٠٠ من بجيلة[١]. لكن يتشعب المشكل برحيل عناصر من بكر وضبة[٢] إلى البصرة. والذي حصل بالكوفة هو هجرة أجزاء من قبائل متفاوتة الأهمية فلم تقع هجرة وحدات قبلية كاملة. لكن هل حصل ذلك بأقسام آتية من كل العشائر أم من بعض العشائر المتجانسة؟ لكي تكون لنا فكرة عن هذه المسألة، أحصينا وجود ١٠ عشائر من همدان في بداية نشوء الكوفة[٣]. وللاطلاع، راجعنا كتب الأنساب فوجدنا أن بمذحج ١٧ عشيرة معروفة[٤] (لا بالكوفة، بل بصورة عامة)، وبكندة[٥] ٩ عشائر حسب المصادر المعهودة وما يفوق الـ ٢٠ عشيرة مستقرّة بالكوفة حسب ابن الكلبي. وتحصي بجيلة ٤ أو ٥ عشائر[٦]، خلافاً لتميم التي تألفت من أربعين عشيرة[٧]. وهكذا نرى أن النسب مختلفة جداً. فهل

(١) راجع جدولنا على ص ٣٢ - ٣٣.

(٢) كان رجال ضبّة حاضرين بكثرة في وقعة الجمل إلى جانب أهل البصرة، الطبري، ج٤، ص ٥١٦ - ٥١٨.

(٣) H. Djait, «Les Yamanites à Kufa»: *art.cit.*, pp.158 - 159.

(٤) ابن حزم، الجمهرة، ص ٤٧٦ - ٤٧٧. الواقع أنه كان يوجد ١٥ عشيرة. كانوا حاضرين جميعاً تقريباً في الكوفة.

(٥) المرجع نفسه، ص ٤٧٧، منها ست أو سبع حاضرة بالكوفة. لكن ابن الكلبي في كتاب النسب نسخة الاسكوريال، بالخصوص ورقة ٢٤ إلى ٢٨ يحصي ١٤ مسجداً لعشائر كندة سوى المعروض منها في المصادر الأخرى، وإذا زدنا على هذا العدد العشائر التي لم يذكر لها مسجداً بالكوفة وتقرر وجودها فيها، فإننا نصل إلى رقم يجاوز العشرين، علماً بأن هذا الرقم يعبر عن حالة القرن الثاني.

(٦) الجمهرة، ص ٤٧٤: هناك تردد بسبب وجود عشائر فرعية. ابن الكلبي يحصي ٩ عشائر، المصدر نفسه، ورقة ٥٢ و ٥٣.

(٧) المرجع نفسه، ص ٤٦٦ - ٤٦٧. كانت بين تميم والرباب أوثق الصلات. وحضرت سبع عشرة عشيرة بالكوفة، وأكثر من ذلك قليلاً بالبصرة (صالح العلي، ص ٣٢٠ - ٣٢١). لكن الأمر لا يتعلق دائماً بالعشائر نفسها.

سنجد قطائع كبرى وقليلة العدد عند بجيلة[1] وكثيراً من القطائع الصغرى عند تميم، وقطائع متوسطة عند مذحج وهمدان؟ إذا خضع جميعهم لمبدأ الهيكلة الطولية، في شكل شرائط، مع تحديد مسبق لعرض القطيعة، فمن المحتمل أن تحتل [illegible] أوسع الخطط خطط الشمال والغرب [illegible] مفتوحة من جهة أيضاً، حيث كان يتيسر التوسع جانبياً. ولا بد أن [illegible] خطط العشائر بالخصوص كان متنوعاً، وقد بقي غير محدد ربما بسبب تنوع العشائر. وبما أن بجيلة تفرعت إلى عشائر قليلة، فقد يكون من نصيبها ست أو سبع قطائع ضخمة، وستحافظ هذه القبيلة أكثر من غيرها على نسق طرقها (وكثيراً ما ورد ذكره في الروايات السياسية اللاحقة). وخلافاً لذلك، لقد استقرت تميم في خطة عريضة لكي تكون اقتطعت قطائع قليلة الطول وفي إمكانها تصفيف أربع قطائع جنباً لجنب، في حين أنها لو استقرت شمالاً، فلن تتمكن إلا من تصفيف قطيعتين قطيعتين. هذا ولم تكن كل عشائر تميم حاضرة بالكوفة، ولا كل الذين شاركوا في وقعة القادسية، ولاسيما بنو حنظلة الذين كانت عشائرهم كثيرة. فمنذ أن جرى التحول إلى المدائن، اختاروا الإقامة بالبصرة[2]. بقيت زيد مناة ومنها سعد، وتفريعاتها الكبيرة بصفة مذهلة إذ تحوي في الجملة خمس عشرة عشيرة على أقل تقدير. ثمّ إن خطة تميم تشتمل على محارب. كلّ هذا يحفزنا على قبول تقسيم قصير للقطائع (٢٠٠ متر طولاً فقط)، أي قبول تراكم معين، وذلك يفسر أنه لم يكن لتميم جبانة معروفة، مما يبرر تنقلهم إلى غرب الكوفة في بداية العصر الأموي[3]. إن هذه الجولة في قضايا التعمير ترمي إلى تسليط الضوء على البنية الطوبوغرافية لمحيط الإقامة. يزيد ذلك من تشبثنا بفكرة أن توزيع خطط القبائل لم يتم صدفة ولا بواسطة قانون القرعة القديم، بل هو تعبير وكشف لمنطق كان سيئاً أحياناً. أما تخطيط القطائع فكان يخضع لقاعدة صلبة، بخصوص تحديد العرض وحسب، مثله في ذلك مثل نسق المناهج، فارضاً تشكيلاً وبنيةً ومظهراً عاماً. إنه التشكيل الطولي، تشكيل البدو لصفوف الخيام، الذي انتقل إلى الكوفة وتكيف مع الكثافة البشرية، وانضغط على نفسه في المجال الضيق، فكان في آخر الأمر تنظيماً بديعاً.

على أن هناك نقاطاً هي محل شك بخصوص هذه النتائج. فمثلاً ليس ثابتاً لدينا أن الزّقاق كان دائماً الخط القاسم داخل القطيعة، أو أنه كان كذلك أبداً. ففي وضعية مثل

---

(١) هذا ما أكده اليعقوبي بالنسبة لبجيلة: كتاب البلدان، ص ٣١٠. والملاحظ أن أخمس الكوفة انفصلت عن أكثر بجيلة، من الوجوه كلها.

(٢) الطبري، ج٣، ص ٥٩٠؛ صالح العلي، مرجع مذكور، ص ٨٦.

(٣) نظراً لكثرة عددهم، فقد هاجروا من الشرق إلى الغرب والجنوب الغربي مع ضبة. وقد ضايقت السبخة والفرات تطور المنطقة الشرقية في حين أن الغرب ولا سيما الجنوب الغربي، تضمن إمكانات أكبر للتوسع.

وضعية بجيلة القليلة العشائر ذات القطائع الكبرى المترامية في الطول والمكتسبة لخطة قبلية قليلة العرض (واقعة في الشمال)، يكفي المنهج الطولي من الصنف الثالث (٢٠ ذراعاً = ١٠,٨ أمتار) لرسم الخط القاسم بين قطيعتين متواجهتين. ولن يكون الزقاق الإضافي في الاتجاه نفسه زائداً عن الحاجة فقط، بل يكون غير قابل للبقاء. لكن أزقة بجيلة، كما أزقة ثقيف، وأزقة منطقة الشمال عامة، نجدها حاضرة كل الحضور في الروايات اللاحقة عن الثورات حيث توحي لنا بشعور بالضيق والغموض. إضافة إلى أن هذه الروايات توحي ببنية عارضة للأزقة في اتجاه شرق ـ غرب تصل المناهج فيما بينها[1]: فلا يمكن لهذا، التخلي عن فرضية الأزقة العمودية في صنفي الخطط، الخطط ذات القطائع المتعددة حيث تدخل الأزقة ضمن النسق الطولي للمناهج كما الخطط قليلة القطائع حيث تكون الأزقة عارضة فحسب. فهل نتوصل من جديد إلى مخطط مشبّك؟ لا، قطعاً، لأن المخطط المشبّك يفرض مسبقاً وجود وحدات ذات بعد متساو. لكن تشكيلة الكوفة في بدايتها تعارضه كل المعارضة. لا نجد في هذا المقام جزراً سكنية على الطريقة الرومانية، ولا كتلاً من العمارات على الطريقة الهلنستية. بل هناك تصفيف من صنف عربي[2]. ولنبين أنه لم يكن يعوزه الفكر الهندسي، ولا عقلانية التصور المتأثرة بالتقليد البدوي بلا ريب. يظهر الفكر الهندسي في الخطط ومتفرعاتها، وفي القطائع، ويبرز في أهمية نسق الطرق التي اتسعت بصورة ممتازة، وانتظمت، واتجهت كلها إلى المركز، والتي يصب بعضها في البعض الآخر، والمنظمة لسيل البشر. وتلتزم العقلانية بإرادة التنظيم، وتبرز في توزيع الفضاء الصالح للسكن على الأضلع الأربعة لمربع المركز، وإسناد الخطط للقبائل، وحتى توأمة القبائل ضمن خطة واحدة، وتفصيل القطائع. هنا نجد كل شيء يخالف المدينة العفوية: إنها مدينة منظمة تنظيماً مفرطاً، كأنها رسمت على الورق، لكن هذه العقلانية تتحقق في آن، تتقهقر في تشكيلة الخطط السكنية المفصلة تفصلاً شديداً، هذه التشكيلة تخضع لروح شعب، وتقليد حضاري أصيل. وهي تكشف لنا عن عقلانية سياسية ـ ومعمارية ـ قصوى، لأنها تعتبر العنصر البشري على علاته. إذ كيف تمكن العرب البدو من التكيف مع التعايش الدائم في حين أنهم تعودوا الرحاب الفسيحة، لو لم يعيدوا تشكيل بنية مأنوسة لديهم عربية صرف؟ لكن هذه البنية التي كانت نواة للتطور القادم، كانت تقع تحت عبء ضيق المجال الصالح

(١) الطبري، ج٥، [illegible] وج٦، ص ٢١.

(٢) قارن بخصوص خطط القبائل وقطائع العشائر في الكوفة المخطط الذي أورده ايفانز ـ بريتشارد عن أوطان قبائل بنغازي، لكن هنا بصورة مكبرة، Evans-Pritchard, *The Sanusi of Cyrenaica*, Oxford, 1949, p.55.

للسكن، وما طرأ من تصلب على ترتيب القطائع، وهو ما يتضارب مع نسق الطرق المهوى جيداً ما عدا الأزقة مما أدى إلى ظهور مضاعب فورية.

روى سيف أن الأعشار استقروا في هذا الحزام السكني[١]، أي الوحدات الكبرى في معركة القادسية، في حين أن «مواضع» خصصت للمقاتلين الذين كانوا يحرسون الثغور، وقد غابوا عن الكوفة (ولا سيما عبس)[٢]. لكن ها أن الروادف بدأوا يتوافدون، وقد كانوا من المهاجرين الذين جاؤوا حديثاً، على دفعتين متواليتين، منذ خلافة عمر[٣]. وضاق المكان على المقيمين الأوائل في الحال، وذلك دليل على أن الخطط حددت بصفة كبيسة، وأن مجال السكن كان كثيفاً عموماً إلى حد الشطط. وقد تبين فوراً أنه كان لا يكفي، وما عقد الوضع كثيراً أن العرب لم يكونوا يتصورون أي تجمع للسكن خارج إطار العشيرة والقبيلة عموماً. وأدى هذا إلى إدخال التحويرات والتنقلات والمبادلات، في مستوى العشيرة والقبيلة. فإذا ما تكاثر المهاجرون الجدد المنتمون إلى عشيرة أو مجموعة من العشائر المستقرة سابقاً، فإنهم يجذبون إليهم أبناء عمومتهم الذين يتخلون عن دُورهم ويلحقون بهم حيث يقيمون[٤]، أي خارج مجال الخطط، وربما بالأطراف أو في الفجوات الكبيرة. من البديهي أن هذا قد حصل لاستحالة توسيع مجال السكن وقد حصره نسق الطرق ولأنّ عرضه محدود، ولأنّه يتفرع إلى قطائع أو خطط غير قابلة للاتساع ـ نظراً لوجود عشائر أو قبائل أخرى مجاورة وهي بصورة قسرية محددة ـ فتظهر بمظهر الوحدات الثابتة الصلبة أو الأراضي القبلية التي لا يمكن عبورها. وخلافاً لذلك، حيث يكون الروادف قليلي العدد، فإن رجال عشيرتهم يجلبونهم إليهم، ويفسحون لهم المجال ولو أدى ذلك إلى الضيق، بعد مراجعة تهيئة مجالهم، وإما بإقرارهم في مكان المغادرين إذا أسعفهم الحظ وكانوا من أجوارهم[٥]. فهل كانت تنقلات من الصنف الأول تبين سبب إقامة أحمس، إحدى عشائر بجيلة الكبرى، قريباً من الجبانة[٦]، بحيث أقاموا بعيداً عن تجموع القبيلة، وأنّ تميماً وأسداً وعبساً تجمعوا في الطرف الغربي[٧]، أي من جهة الكناسة[٨]، حيث يوجد مجال أوسع

---

(١) الطبري، ج٤، ص ٤٥.
(٢) المرجع نفسه، ج٤، ص ٤٤.
(٣) المرجع نفسه، ج٤، ص ٤٥.
(٤) الطبري، ج٤، ص ٤٥.
(٥) المرجع نفسه، ج٤، ص ٤٥.
(٦) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣١١.
(٧) المرجع نفسه، ص ٣١١.
(٨) كتاب الأغاني، ج١٥، ص ١١٠؛ Massignon, *op.cit.*, p. 3.

للانتشار؟ نحن نجهل قطعاً تفاصيل هذه التحركات التي يمكن أن تفسر الخلاف المحير جداً، بين بنية الاستقرار الأولى كما رواها سيف، والطوبوغرافيا غير المباشرة التي جاء ذكرها في تواريخ الثورات اللاحقة. لكن على الرغم من التغييرات الطارئة، فإن المخطط الأول في روحه كما في إسقاطه المجالي، بقي الإطار الأساسي لوجود الكوفة وتطورها، والرسم الذي انطلق منه بناء المدينة ونشوؤها.

- ٩ -
التخطيط والتطور اللاحق

ستنمو الكوفة فعلاً وسيكون نموها موفقاً. كان التخطيط الأول بمثابة النواة التي عملت على إملاء الاتجاه الذي سيكون عليه التطور المقبل. إلا أنها كانت نواة شديدة الهيكلة. أن تكون الكوفة نموذجاً للأمصار فهذا مما لا يدخله الشك: الأمصار أي ذاك الجيل الأوّل من التجمعات العربية التي قامت خارج بلاد العرب، فقامت بدور المراكز العسكرية والسكنية المكثفة، وكانت قطباً للتعريب في البلاد التي أقيمت بها كما للأسلمة، ولأسلمة العرب قبل غيرهم. ولكن وفوق هذا، هل كانت الكوفة نموذجاً للمدينة الإسلامية المقبلة كما شكلت مظهرها في العصور التالية، وكما حافظت عليه إلى حدود زمن قريب منا؟ أي ذلك النمط الأصلي المتعلق بخصوصية المدينة الإسلامية من وراء تنوعها في المكان والزمان؟ هذا سؤال ينبغي طرحه لا محالة بمتضمناته المتعددة. وهذا واحد منها يخص إلى حد بعيد بنية المجال الذي نجتهد محاولين الإحاطة به. لقد أتيح لشكل المدينة العربية المعهود في العصر الذهبي وما تلاه، أن يظهر بصفة مكثفة وغير منتظمة وملتوية وفوضوية. كان مكتظاً بالأزقة والسكك الصغرى الضيقة. فمن كان يتحمل أعظم مسؤولية في هذا التغيير، أهو التطور التاريخي اللاحق، أم البنيه الأصلية المجالية في المدينة العربية؟ إن ما يهمنا في هذا المقام هو التخطيط الأولي، فما عسى أن تكون اختلالاته الممكنة؟

الأمر الثابت أن هذا التخطيط كان منتظماً أكثر ما يكون الانتظام وكان بمقدوره أن يخلّف حاضرة منشرحة، هندسية الشكل، لو وقع الاستمرار في مراقبتها خلال نموها، كما كان الأمر عند نشأتها، ولو استمرت تنمو بموجب اتجاهها الأول، وهو اتجاه الطول، بمعنى أن يكون هناك امتداد لا نهاية له، لا أن يكون هناك تكديس. ولا نستبعد أن يكون حدث التطور بالطريقتين معاً. فقد تطورت الكوفة في اتجاه الغرب على امتداد كيلومترات كثيرة، مع العلم أن الناس انهمكوا في ملء النواة الأصلية (المركز والخطط) إلى حد الضغط. ومع

هذا لا يمكن أن تتسبب ظروف النمو المقبل وأسلوبه وحدها في التطور الفوضوي، إذا ما حصل مثل هذا في الكوفة. رأيي أنه ينبغي العودة بصفة مطلقة إلى هذين العنصرين الأولين، نعني وجود الأزقة وما كان من نقص هيكلي في المساحة الصالحة للسكن. يشكل الزقاق، قطعاً، جزءاً من جهاز المناهج، إلا أنه كان أكثر اندماجاً بالمجال الصالح للسكن، لأنه ينفتح على الدور ويقسم القطيعة قسمين. فكان دوره مهماً فيما سيكون للكوفة من مظهر بحيث صار بمثابة السكة المعهودة التي اندمجت حقاً بالنسيج السكني، ولعله بقي العنصر الوحيد من جهاز المناهج، باستثناء المنهج الكبير. لكن الزقاق لما كان عليه من ضيق، كان مع هذا منتظماً وغير قابل للضغط. وعلى ذلك، فقد استمر قائماً، في حين أن المناهج الأخرى الطولية قضمت وألحقت إلى أقصى حد بالمجال السكني. ومن المعلوم أن المنصور قمع هذه النزعة في بغداد، أي نزوع الأهالي إلى تجاوز المناهج الكبرى، فهدم الدور التي خرجت عن الطرق[1]. ولذا، هناك اندفاع طبيعي أو ما يشبه ذلك يتجه من مناطق السكن إلى مجالات الاتصال. وسبب ذلك رقة القطيعة والخطة بصورة عامة، وكذلك ما فرض من تحديد على عرض القطيعة، مقتبس من عرض المناهج. وهذا جعل منها نوعاً من الطريق التي لم تتسع إلا قليلاً، وجعل من الخطة القبلية بتمامها بنية تتناوب فيها السيور الخالية والسيور العامرة. وبقدر ما كانت النظرة كبيرة في نسق الطرق، فإنها كانت قد صغرت في نسق القطائع، كأن الطرق تفوقت على القطائع، كما تفوق المجال العمومي على المجال الخاص: هذا تعبير عن استخدام جماعي للمجال من مجموعة تنشر حياتها خارج البيوت. ولا أعتقد أنه يجب اعتبار تصور الحزام السكني بمثابة ثنائية معينة، بين نسق الطرق المستمد من أشكال هلينستية من جهة، ونسق المساكن الذي يكون بذلك عربياً صرفاً، حيث أن أسلوب الحياة بالذات يوجب وجود التنقل وتحقيقه بصفة ميسرة.

لقد اتضح لنا أن القطيعة لا تكفي لقبول مزيد من السكان. فهي مصممة لإيواء وحدة بشرية هي العشيرة، ولذا كانت إقطاعاً جماعياً يستبعد الملكية الفردية، فانتصبت إطاراً ملزماً لاستقرار كل فرد من أفراد العشيرة. كان إذن المجال الاجتماعي، كما المجال المادي للقطيعة، يضغط عليها في سبيل الضيق. ومن هنا نجد في الأساس البذرة لكي يتجه التطور المقبل إلى صنف مدني ضاق ضيقاً مشطاً، بسبب تطور انعكاسي تماماً ابتلع فيه المجال السكني نسق الطرق فارضاً وجهه المعتم في كل مكان. ويمثل هذا الأمر انتقاماً موجهاً إلى المنهج، مصدره القطيعة. لم يتحول الزقاق إلى طريق مسدودة أو إلى سكة ملتوية، بل إن نقص الفتحات العرضية وأحياناً مجرد فقدانها في التصميم الأصلي، هو الذي

---

(1) الطبري، ج٧، ص ٦٥٤.

نشأ عنه كثير من الطرق الجانبية بكيفية غير منظمة حتماً. وقد تحدث سيف بالفعل عن مناهج كانت تتوازى ثم «تتلاقى»، وتحدث عن أخرى «تتبعها»، وعن الدور «فيما بينها ومن ورائها». يجب الاعتراف أن هذه الفقرة بإمكانها أن تحملنا على تأويل مخطط الكوفة تأويلاً مخالفاً لما ذكرت، أي كمخطط متقاطع حيث تتلاقى السكك، مفصلة بذلك قطائع مربعة الزوايا[1]. وحتى في هذه الصورة حيث يقع تصحيح الاتجاه الطولي الذي اعتقدنا اكتشافه، فإن عناصر المشكلة تبقى قائمة، يعني وجود خطط فرعية للعشيرة محصورة في شبكة من المناهج، وغير قادرة على التمدد إلا إذا قضمت هذه الشبكة، وبذلك يكون الساكن حبيس مجالها العياني.

إنّما سقنا الكلام عن مشكل النمو والتطور، ضمن سياق تكوّن الكوفة لكي نحيط فعلاً بالتصدع الذي بموجبه تنفصم بنية منتظمة متسعة منشرحة، إن لم تنقلبْ في القرون المقبلة. وهي من أمّات مشاكل المدينة الإسلامية وكثيراً ما تعرض لها المستشرقون لكن بصفة غير مرضية.

---

(١) انظر المناقشة فيما سبق.

الباب الثالث

الاستشراق والمدينة الاسلامية

- ١٠ -
من النظام إلى الخلل

على الرغم من وجود أدب استشراقي وفير عن المدن الاسلامية، لم يتساءل إلا علماء قليلون عن المشكل المتعلق بمعنى هذا التطور ومسبباته، ربما لأنهم لم يتمعنوا في أوضاع الامصار. ذلك أنهم كانوا يفضلون دراسة العصور اللاحقة. وإذا ما شعروا بوجود تناقض بين المدينة الأولى في العصر المبكر، المدينة المفتوحة المنظمة، والمدينة الثانية المتكدسة الملتوية وغير «المنظمة»، فإنهم يعللون ذلك بمفعول التطور وحده، لا ببنية المخطط الأصلي أبداً. فكيف تم الانتقال من النظام إلى الخلل؟ هذا سؤال تطارحه باحثون منهم: بلا نهول X. de Planhol[١]، وبرونشفيك R. Brunschvig[٢]، وڤيرث Wirth[٣]. لم يفسر ذلك بلانهول، بل اقتصر على تأكيد الأمر. وباستثناء بعض التخمينات المهمة، فقد عكس مسعاه تماماً أصناف التطورات الاستشراقية كافة عن المدينة الاسلامية، وهذه التصورات ينبغي إمعان النظر فيها جيداً. قال إن الاسلام المبكر عرف الشوارع المتسعة: «نسب حديث إلى الرسول يقول: يجب أن يكون لعرض السكك ٧ أذرع على الأقل (ما يقرب من ٣,٤ أمتار)، وهو

(١) «Le paysage urbain de l'Islam», pp.122-132.

(٢) «Urbanisme médiéval et droit musulman» in *Revue des Etudes Islamiques* XV (1947), pp.127-155.

(٣) «Strukturwandlungen und Entwicklungstendenzen der orientalischen Stadt» in *Erkunde* 22 (1968), pp.101-128; «Zum Problem des Bazars (sūq, carsi). Versuch einer Begriffsbestimmung und Theorie des traditionellen Wirthschaftszentrums der orientalisch-islamischen Stadt» in *Der Islam* 51 (1974), pp. 203-260 et 52 (1975), pp. 6-46; «Die orientalische Stadt. Ein Uberlick aufgrund jünguer Forschungen zur materiellen Kultur» in *Saeculum* 26 (1975), pp. 45-94; «Villes islamiques, villes arabes, villes orientales? Une problématique face au changement», communication au Colloque de Tunis sur la ville arabe, 1979, publié dand *La Ville arabe dans l'Islam*, éd. par Dominique Chevallier, Tunis 1982, pp. 193ff.

حيِّز يتنافر وتلاقي دابتين مثقلتين بالأحمال. وقد اعتمد عمر هذا العرض بالنسبة للسكك الاعتيادية في البصرة والكوفة، ثم في بغداد بعد ذلك، بينما كان عرض الشوارع يبلغ ٢٠ ذراعاً (ما يقرب من ١٠ أمتار) فكانت تفصل كتل الدور وعمقها ٣٠ متراً... وقد ظهر اهتمام تنظيمي مرموق، ونظام صارم، وتصميم موضوع بحزم، حتى في عدة منشآت مدنية إسلامية في بدايتها»[١]. ثم أضاف أن «اختلاف المخطط في المدن الإسلامية هو في أكثر الحالات، واقع مكتسب وليس واقعاً تكوينياً»، وأن الامر لا يتعلق «بنقص جذري»، بل بالاحرى بتطور لاحق يمكن أن يعزى إلى فقدان التنظيم البلدي فقط. هذه حجة منقوصة لأنه لم يمتنع على الدولة تحمل المهام البلدية المهمة، كما فعل عمر بالنسبة للكوفة، والمنصور بالنسبة لبغداد، كما أنها حجة خادعة دافع عنها الاستشراق القديم مدة طويلة، وقد صارت محل اتهام في العصر الحديث، لأنها تستند إلى مثالية المدينة اليونانية ومدينة العهد الوسيط وتعرِّف المدينة الاسلامية لا بما هي، بل بما ليس فيها.

ومع أن روبير برونشفيك درس تطور التمصير الاسلامي من خلال مصادر الفقه، فقد كان شعوره حاداً بالعناصر الحضارية التي ينبغي اعتبارها لشرح هذا المظهر اللافت للنظر في المدينة الاسلامية: تصور الأسرة المنطوية على نفسها[٢]، ونوع من التسامح القريب من الاهمال تجاه المبادرات الفردية[٣]. الشيء الذي جعل الأولوية للبيت على قارعة الطريق العامة التي تواصل قضمها بسبب إمتداد البناءات، في حين أن الخرابات والأماكن المفتوحة كل الفتح كانت متراكمة فضلاً عن ذلك. يقول[٤]: «إن الطريق العمومية سيئة الحماية، والتسامح يتجه إلى من ينمي الملكية المبنية، ولو كان ذلك على حساب الساحات والسكك». هذه ملاحظ صحيحة قطعاً، لكن ما هو سبب عجز السلطة عن العناية بالطرق والمحافظة عليها، بينما كان هذا الشاغل قائماً في القرنين الأول والثاني من الهجرة؟ لعل الاندفاعات العميقة هي التي طغت على كل إرادة تنظيمية لدى السلطة التي تنشيء وتؤسس، ثم تفشل في الصيانة. كانت اندفاعات سكانية، وتصاعدات لنزعات ثقافية ما زالت حية (النزعة البدوية والشرقية وغيرهما)، وتنظيم الحضارة الاسلامية ذاتها في إطار المدينة أو نشوؤها البطيء داخل بعض المدن الرئيسة بالذات. لا يوجد أي شك في وجوب طرح قضية الترابطات العميقة الخفية والتطورية أيضاً، بين نمط الحياة كما تكون بفضل سلسلة من الخيارات والالغاءات، وبين الشكل المدني، كما يتقولب حول أقوى متضمناته.

---

(١) *op.cit.*, p.123.

(٢) *op.cit.*, p.140.

(٣) *Ibid.*, pp.132-134.

(٤) *Ibid.*, p.154.

وبقدر ما تكونت الحضارة الاسلامية في المدينة، انتهى بها الأمر إلى إضفاء وجه معين يشكل هذه المدينة بالذات، ويتمثل في البنية الالتوائية، وتفوّق المخفي وبالتالي إنغلاق الدار، وتخصص الأماكن العمومية وتحديد مواقعها بالمركز، وانقسام المدينة إلى أحياء في فترة لاحقة.

زد على ذلك أن المشكل المطروح يتعلق بمعرفة ما إذا كان المعروض كتطور نحو الفوضى كما قيل[1]، لا يعبر بخلاف ذلك، عن نظام ما، مغاير لنظام الهندسة الواضحة، كما يعبر عن نظرة جمالية بدأنا نشعر بها اليوم، وعلينا أن نسرع بحمايتها من غائلة الدهر. ولا فائدة من الإفاضة في القول في هذا الباب، لكن كان مهماً تصحيح عدة فرضيات مسبقة نشرها الأدب التاريخي الخاص بالمدينة الاسلامية.

---

(١) Planhol, *op.cit.*, p.125; Wirth, «Die orientalische Stadt», pp.61ff.

- ١١ -
مدينة بلا وجه

هل هي مدينة إسلامية؟ هل من يقين في هذا المضمار؟ هذا تساؤل مطروح من طرف الاستشراق ويعلل بالتصور الآتي: بما أنه اتضح وجود فترتين في تاريخ هذه المدينة، فترة أولى (أمددها بعضهم إلى القرن الحادي عشر) ربما تميزت بشبهها بالعصور القديمة اليونانية والفارسية والبابلية والبيزنطية، فيستنتج أن المدينة الاسلامية طالما اتسمت ببعض الاستقلالية في مؤسساتها، وبكونها منفتحة واسعة في مخططها، وبما أن هذه التشابهات والاقتباسات والتأثيرات واردة، فالرأي أن هذه المدينة لم تكن إسلامية[١]. وجملة القول إن الاسلام لا يصبح إسلامياً كما قيل، إلا في عصر متأخر. إن الإسلام الأولي المقاتل والعربي، وكذلك الاسلام المعتد في العصر العباسي، ذاك الاسلام المتردد بين قطب استبطان المحيط الثقافي وقطب المقاومة، في حركة جدلية قوية، يفقد صفته الاسلامية والمدينة من وراء ذلك. وهكذا، لا يمكن لأية حضارة أن تنسب إلى اسمها إلا حين تنهي بناء ذاتها، لا في مرحلة التكون، حتى لو تبين أن هذا التكون تم عن وعي وعمداً. وأحسن من ذلك، يحدد كيانها الأول بالمؤثرات الحاصلة، لا بنصيبها من الخلق والابداع.

نزع فيرث أيضاً، وبكيفية أخرى، الصبغة الاسلامية عن المدينة الاسلامية، فجعل منها مدينة شرقية. كان واعياً بانتظام الشكل في البداية، وهو أمر صحيح مهم، وباختلاله في النهاية، تبعاً لأسلوب النمو على رأيه، لكنه يتقدم شوطاً أبعد من ذلك ويقوم بالتنظير؛

---

(١) Claude Cahen, «Mouvements populaires et autonomisme urbain dans l'Asie musulmane du moyen âge», in *Arabica*, V (1958), pp.225-250, et VI (1959), pp.25-56, 223-265.: يلح كاهن على فكرة استرسال الماضي قبل الاسلامي. ويعرض أن يعود إلى فكرة الإسلام بمنفيه. ويختم لابيدوس دراسته عن المدن الاسلامية والمجتمعات الاسلامية [Ira Lapidus, *Middle Eastern Cities*, p.73] فيؤكد بوضوح أن المدن كانت وحدات جسدية لا كيانات اجتماعية موحدة ومحددة بصفات اسلامية مميزة.

إن رغبته في إبراز خصوصية المدينة الاسلامية تنتهي به إلى حرمانها من أي طابع إسلامي[١]. يمكن تلخيص مظاهرها المميزة فيما طرأ على المخطط من قلب عجيب، وفي ظاهرة الزقاق غير النافذ ـ وهي خاصية لتنظيم المجال تعكس سلوكاً معيناً للجماعات البشرية ـ «لا نجدها في مدن العصور القديمة الكلاسيكية ولا في مدن العهد الأوروبي الوسيط»، وتكون مشتقة من الشرق القديم، ومن هذه المظاهر أيضاً الدار ذات الصحن الداخلي، وهي إرث شرقي، والتنوع الإثني للاحياء وبالخصوص وجود السوق. ويرى ڤيرث أن الخاصيات الأربع الأولى ليست ابتكارات إسلامية، بل هي عناصر شرقية لا تتميز إلا بالنسبة للتقليد الكلاسيكي أو الأوروبي، والسوق فقط إبداع ثقافي إسلامي[٢]. على أن «السوق (البازار) بصفتها مركزاً تجارياً يعمل بمقتضى مبادىء اقتصادية عقلانية، هي مؤسسة لها أضعف الصلات بالاسلام كدين»، يقول ڤيرث مسترسلاً في تفكيره دون حرج، جامعاً بين الأفكار الاستشراقية المسبقة والفرضيات المسبقة كما يجدها عند ڤيبر[٣]. ليست هذه المدينة إسلامية لأن أغلب خاصياتها مستمدة من المدينة الشرقية. فهل نسميها لذلك شرقية؟ لا، حيث «إذا اعتمدنا الآثار المادية والتوثيق المختص بهندسة العمارة، فإنه يبدو معقولاً العدول عن عبارة (مدينة شرقية)» وأخيراً فإنها ليست مدينة عربية[٤]. إنها مدينة بدون اسم، لا ترتبط بأية حضارة معينة. ويختم ڤيرث تدليله دون أن يستنتج فكرة ما، لأنه بقي حبيس تصوراته الذهنية، فهو يرى جيداً أنه حتى بإسناده عناصر شكلية إلى التسلسل الشرقي فإنه يستحيل، من الوجهة الأثرية، مماثلة هذه المدينة الفاقدة لكل اسم بالحاضرة الشرقية. الحقيقة أن نقطة الضعف تكمن بالنسبة لكل هذه المساعي ومنها مسعى ڤيرث كما مسعى من سبقه وبسبب مفارقة هائلة، في التصور المسبق العنيد للاسلام كدين صرف وجديد إطلاقاً، ويكاد أن يكون مثالياً، وفي أنه قام بداهة على أرضية تاريخية ملموسة مزجها، وشكلته هي بدورها. وجملة القول، يكمن هذا الضعف في العمى تجاه الامتدادات والانقطاعات التي تؤسس مجرى التاريخ بالذات.

انطلق المحللون من هذا الوضع، فجمعوا الفرضيات والمتناقضات، إضافة إلى إصدار أحكام قيمية ضمنية وصريحة. ومن الغريب أن ڤيرث أعلن أن العصور الكلاسيكية

---

(١) «Die Orientalische Stadt», *op.cit.*, p.87.

(٢) «Zum Problem des Bazars...», *Der Islam*, 52 (1975), p.39; «Die Orientalische Stadt», *Saeculum*, p.83.

(٣) «Villes islamiques, villes arabes, villes orientales», *op.cit.*, p.198.

(٤) *Ibid.*, p.198.

القديمة والعهد الوسيط لم تعرف السكك الصغرى والازقة[١]، مع علمنا أن روما عرفتها[٢]. كما أنه من الغريب أن تكوّن السوق مقتبسة حسب بلانهول من «الأروقة» اليونانية الرومانية [٣]. إن هذا المؤلف يجد نفسه في تناقض بين مَيْلين، يدفعه أولهما إلى إضفاء عنصر سلبي معين على الحضارة الإسلامية، فيما يدفعه ثانيهما إلى إنكاره ما إذا كان هذا العنصر يعبر عن ابتكار أصيل [٤]. فهو مثلاً يلح على فكرة انقسام المدينة إلى أرباض[٥]، وهذا غرض معروف ينطلق منه للتدليل على ما هناك من نقص في اندماج المدينة الإسلامية. ثم لا يلبث أن يؤكد مباشرة بعد ذلك أن هذا الانفصام لم يبتكره الاسلام لأنه كان حياً جداً في المدن خلال العهد الوسيط (يقصد المدن الاوروبية)[٦]. هذا وبما أن كل استمرار تاريخي جغرافي، وكل خاصية موروثة أو مقتبسة تعادل النقل، فمن المهم أن يوحّد هؤلاء المحللون مواقفهم، ويتأكدوا من كون العنصر «المنقول» هو من الشرق القديم، من فارس أو من التقليد اليوناني وإلا فلن تتبقى سوى إرادة عنيدة للاستنقاص، إذ لم يعد المقصود إبراز التسلسل. فمثلاً هل أن الدار ذات الصحن الداخلي المفتوح، يجب ربطها بالشرق القديم (فيرث)[٧]، أم بفارس أم بالتقليد اليوناني (بلانهول)[٨]؟ المسعى المعرَّض به في هذا المقام، ينقلب على نفسه: فيصير أعمى أمام تيارات انتقال صور الحضارة بين الشرق واليونان، ويتجه إلى ثنائية حيرى (الشرق؟ أم اليونان؟) وبذلك يتيه في التناقض لأنه يريد الافراط في تفريد التقليد الكلاسيكي دون سواه. الحقيقة أن هذا النقد المنهجي يتجاوز قضية نشوء الامصار التي تشغلنا في هذا المقام.

---

(١) *La Ville arabe dans l'Islam*, p.195; «Die Orientalische Stadt», pp.45ff.

(٢) Léon Homo, *Rome impériale et l'urbanisme dans l'Antiquité*, Paris, nouvelle édition 1971, p.370. حيث يشير المؤلف إلى الأزقة الضيقة («angiportus») ويقول إنها «لم تكن سوى أزقة أو طرق مسدودة في الغالب».

(٣) فكرة لعله أخذها عن: Sauvaget, *art. cit.*, p.132.

(٤) *Ibid.*, p.132.

(٥) *Ibid.*, p.129.

(٦) *Ibid.*, p.132.

(٧) *Op.cit.*, p.196.

(٨) *Art.cit.*, p.131.

- ١٢ -
المدينة العفوية والمدينة المُنشأة

وينكشف غرض آخر يتجه إليه الاستشراق، علاقته أكثر مباشرة بدلالة التخطيط: نعني محور المدن «المنشأة» والمدن «العفوية» التي قال عنها فون غرونيباوم[١]: إن «المستشرقين الفرنسيين المتخصصين في تاريخ المدن، ولعون به»، لكن هذا لم يمنع أن يفرض المحور المذكور وجوده على المدارس الاستشراقية الأخرى. وقد سبق لجورج مارسي Georges Marçais أن حدد القضية[٢]، وكذلك ادمون پوتي Edmond Pauty[٣]. يعرض جورج مارسي تعريفاً ضيقاً إلى أقصى حد للمدينة المنشأة، حيث تكون الكلمة - المفتاح هي عمل من محض إرادة شخص أو عمل اعتباطي[٤]. وتتضمن كلمة «اعتباطي» معنى تحقيرياً، على أن هذا الأمر لم يمنع التقليد الاستشراقي كافة تقريباً من اقتباسها، والغريب أن مؤرخاً أكثر كلاسيكية إن صحّ القول، نعني لاڤيدان P.Lavedan لا يقبل مثل هذا التقسيم المتسم بالتصلّب، مؤكداً أنه «ينبغي إعمال الفكر الدقيق أكثر من التعويل على التفكير الهندسي، للتعرف على هيمنة أحد الشكلين على الآخر»[٥]. إن الفكرة الاساسية التي تستند إليها النظرية الاستشراقية هي أن المدينة «المنشأة» تشكل استثناء في تاريخ الاسلام، لأنه من النادر أن يكون قد سبق تصورها أو تصميمها. وهي إن وجدت فليس لصالح مجموعة معينة، بل لصالح الأمير. وبذلك تكون مدينة أميرية أو مقراً للقصر، وترتبط بوجود أسرة

(١) Von Grunebaum, «The Structure of the muslim town», dans *Islam. Essays in the nature and growth of a cultural tradition,* London, p.144.

(٢) «La conception des villes dans l'Islam», *Revue d'Alger,* n°10, t.II, 1945, pp.517-533.

(٣) «Villes spontanées et villes créés en Islam», *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales d'Alger,* t.IX, 1951, pp.52-75.

(٤) *Art.cit.,* p.517.

(٥) P.Lavedan, *Géographie des villes,* Paris 1936, p.11.

حاكمة، أي أنها تكون مؤقتة ومفتعلة بالضرورة(١). فماذا يكون مصير المصر مثل الكوفة والبصرة ،الفسطاط والقيروان، من رؤية الأمور هذه؟ أمدينة عفوية أم مدينة منشأة «لغرض استراتيجي» فقط، لا لسعادة المجموعة؟ هكذا، وبقدر ما كانت هذه الامصار مجرد معسكرات في بداية الأمر، و«خيماً»، تطورت في مرحلة ثانية إلى مدن تملك الصفات الاساسية للحاضرة، فلا يمكن لهذا التطور أن يكون ثمرة لإرادة أصلية بل نتيجة للمحيط والظروف أي للعفوية.

لم يُقصد إنشاء مدينة معينة لذاتها، بل المعسكر هو المقصود بالذات(٢). وقد صلّب جورج مارسي وجهة النظر التي كان أبداها في مقاله، ضمن رسالة وجهها إلى پوتي Pauty(٣) حيث يتساءل «هل من الممكن الكلام على إنشاء عندما تنشأ المدينة عن معسكر...؟ هناك مستوطن عسكري سابق: لكن ليس المعسكر مدينة وليست الخيام دوراً. وأضاف قائلاً: «إن هذه المقرات العسكرية التي تجمع حول قائد العمليات الاقليمية «مصالح الحامية والمنشآت شبه الدائمة لا يمكنها، بأية حال، تمثيل إرادة أصلية لارساء قواعد مدينة»(٤). وزاد قوله: «هناك آخر الأمر.. رباطات ومعسكرات وحاميات «أنشئت» قرب المدن القديمة. كما نجد أحياء «منشأة» يقيم فيها الأمراء. وقد انبثقت عنها تجمعات سكنية تكونت من الاستمرار في تعمير الاحياء التي تولدت حولها. وتميزت دون منازع بطابعها العفوي»(٥).

ومهما كان الأمر، وسواء أكانت المدن منشأة أم عفوية، فإن العمل التمديني الاسلامي محكوم عليه مسبقاً، مع بعض التخفيفات عند الاخوين مارسي(٦)، وبصورة فظة

---

(١) Georges Marçais, *art.cit.*, p.519. لكن المشكل مطروق هنا مع تحفظات؛ راجع بالخصوص: Pauty, *art.cit.*, pp. 58 - 63. وقد اجمل Grunebaum على أحسن وجه وجهة النظر هذه في: *The Structure of the muslim town* in *Essays*..., p.144.

(٢) Pauty, pp.60, 61,74.

(٣) *Ibid*, p.61.

(٤) *Ibid.*, p.61.

(٥) *Ibid.*, p.64.

(٦) لا ننس أن مقال W.Marçais المعروف وعنوانه «L'Islamisme et la vie urbaine»، الذي كان في الأصل بحثاً مؤرخاً في ١٩٢٨، وأعيد نشره في *Articles et Conférences*, pp.59-67، هو الذي انطلق في البحث في هذا الاتجاه. كانت نظرته دقيقة ذكية بالنسبة لذلك الوقت وبالأحرى رصينة. وقد سجل «المفارقة» الواردة في نجاح التمصير الاسلامي، والجهد الخلاق وكونهما حدثا بمساعدة مجموعة بشرية كانت من الرحل أصلاً، وقد حاول تفسير هذه الظاهرة بالتأطير الذي حصل بفضل العناصر المستقرة من الحجاز كما بالمثل الأعلى الجماعي للاسلام. وسيعود الاستشراق اللاحق كله إلى هذه الفكرة الأخيرة منسقاً إياها، كما جرى العود إلى استخدام =

وردت عند پوتي وبلانهول، حيث لا تتطور المدينة العفوية من العشوائية إلى النظام في هذا المقام، خلافاً للنموذج الاغريقي ـ الروماني ـ الاوروبي. وإذا ما وجدت مدينة منشأة «فإنه يحصل محو لهيئتها الأولية»[1].

من المؤكد أن هذه الرؤية كانت محل مراجعة وتدقيق أحياناً، مثلاً من قبل هنري تيراس Henri Terrasse[2]، لكنها ما لبثت أن فرضت شبكتها على بعض التحاليل اللاحقة، ولا سيما التحاليل الأنجلوسكسونية. لم يقم فون غرونيباوم إلا بإجمال وجهة نظر المدرسة الفرنسية، مضيفاً عليها موافقته المترددة[3]. وقد تجاهلها غويتين Goitein مقراً بأن الفسطاط الذي عمّر فوراً زمن الفتوح، صار مركز إشعاع للتعريب اللغوي كما للمبادلات التجارية[4]. أما البرت حوراني فهو يحاول التخلص من الرؤية القديمة التي تنفي عن الإسلام وجود حياة حضرية حقيقية، وهو لا يقوم سوى بالتذكير بإشكالية المدن المنشأة والمدن العفوية، ملطفاً من حدتها كثيراً[5]. لكن ما راعنا إلا لاسنر الذي يعتمد فكرة عفوية الأمصار، ويعرضها عرضاً يبدو غريباً من طرف مؤلف أمعن النظر في نشوء بغداد، لكنّه لم يدرك حقّاً كل الإدراك قرابتها من الكوفة الأولى. بل نجده خلافاً لذلك يعارض بين نمو الكوفة والبصرة من جهة ونمو بغداد من جهة أخرى[6]. ففي هذه الحالة نكون إزاء مدن

= صفة «الاعتباطي» بالنسبة للمدن المنشأة. الواقع أن ماكس فيبر (Max Weber) عبر عنها تعبيراً تاريخياً أقوى حيث طرح الاسلام الأولي كإسلام محارب وسياسي وجماعي، خلافاً لإسلام العصور التالية حيث تظهر العاطفة الدينية الفردية، وخلافاً أيضاً للاسلام في الفترة المكية الذي ينعته بأنه «دين أخلاقي يستهدف النجاة: *Économie et société*, trad.fr., Plon, 1971, t.I, p.497. وقد أخذ المستشرقون عن ماكس فيبر تعريفاً محدداً للغاية لمفهوم المدينة يتوقف عند شخصيتها السياسية الإدارية: M.Weber, *La Ville*, trad.fr., Paris, 1982, pp.29,38، بحيث تكون المدينة ظاهرة أوروبية محضة وهذا ما انفكّ يوحي به ماكس فيبر.

(١) Planhol, *Art.cit.*, p.125.

(٢) ذكره پوتي: Pauty, p.53, note 3.، وهو يرى أن «المعسكر الذي صار مدينة يتج عنه مدينة منشأة، إذا بقي تنظيم المعسكر حياً في المدينة».

(٣) *Ouvr.cit.*, pp.144-145.

(٤) Goitein, «Cairo: an Islamic City in the light of the Geniza documents», dans Lapidus, *Middle Eastern Cities*, pp.81-82.

(٥) A.Hourani, «The Islamic City in the light of recent research», dans *The Islamic City*, p.10. وهو يلخص نظريات پوتي جاعلاً من الطابع العفوي للمدينة الإسلامية انتصاراً لقوى الاستمرارية في المجتمع على الحكم الزائل. والملاحظ أن لابيدوس اعتمد إنكار الطابع الاسلامي للمدينة الاسلامية. Lapidus, *op.cit.*, p.74.

(٦) «The Caliph's personal domain», p.103. وقد أعاد نشره [illegible] بعض التعديلات الطفيفة في: *[illegible]pography of Baghdad in the early Middle Ages*, p.138.

عفوية، وفي الحالة الـ... نكون إزاء مدينة منشأة. ذلك أن الأمصار بصفتها مدناً للحاميات في بداية الأمر، لم تكن «مبنية حسب تصميم مسبق». كانت «مستعمرات عسكرية» تتميز بسرعة نموها الأول، ولعل ذلك النمو تم «دون شعور واقعي بالعناصر الشكلية للتخطيط» (إن العبارة الإنجليزية المطابقة City-planning تكتسي فيما يتعلق بالكوفة، وضوحاً كبيراً لتضمنها فكرة التخطيط). ويضيف أن الاستقرار الدائم ما لبث أن تحقق، واستبدلت الأسواق بطرق التموين، كما نشأ تنظيم صناعي، لكن كل ذلك تم على صورة المدينة الخارجية التي تحيط شيئاً فشيئاً بالمعسكر الأصلي وتغمره. يبدأ الزخم من المركز وتقع دفعة من الداخل نحو الخارج. إن نمو المصر يظهر هكذا بمثابة السلسلة من «المراحل المتعددة للتولد العفوي»، وليس نتيجة «تنفيذ لمخطط منتظم»[1]. وهكذا فإن هذا التصور قد اقتبس الكثير من أفكار پوتي، إذ يتضمن الانقسام بين المعسكر والمدينة اللاحقة، وفقدان كل تصميم سابق، ونعت هذه المدينة اللاحقة بأنها «عفوية»، حيث تكون برزت وراء النواة الأولى بحركتها الذاتية، وبكيفية فوضوية، كما أنها لا تخضع للمراقبة. لكن الجديد عند لاسنر أنه يلح على اتجاه الحركة التي تكون هنا داخلية ـ خارجية، فيجعل منها تحولاً للمركز. لماذا؟ لأنه يريد قلب الحركة ذاتها فيما يخص المدينة المستديرة، فتصبح خارجية ـ داخلية، تنطلق من الأرباض المؤقتة التي أقامها جيش البنائين في اتجاه المدينة المستديرة ذاتها. ويرى لاسنر أن جمهور العمال المشتغلين في بناء المدينة الجديدة قد أفرزوا مدينتهم الخارجية قبل الانتهاء فعلاً من المدينة المستديرة، وتحت أسوارها بالذات. كيف ذلك؟ في شكل مركب مدني قيد التوسع، بمقابره ومساجده ومؤسساته المستقلة[2]. وبذلك يكون قد سبق الكرخ، وعلينا أن نقول انه الكرخ الأول، مدينة السلام. وتصطدم هذه النظرة بشهادات المصادر كما سنرى ذلك، وسلسلة التواريخ التي تقترحها المصادر نفسها. لكن المهم الآن أن نؤكد هذا التعارض، الذي أبرزه المؤلف، بين تكوّن الكوفة وتكوّن بغداد، حين قلب اتجاه النمو الأول[3]. وهنا يكمن التضارب، إضافة إلى أن التصور الذي اقترحه لنشأة الكوفة كان خاطئاً. ذلك أن هذا المؤلف جعل من المدينة المستديرة مدينة منشأة بصفة ممتازة من جهة، قد تمّ تصميمها بصرامة مسبقاً، وكأنها قدت في قالب أسقط على الأرض كما قال الجاحظ، وهو يجعل منها من جهة أخرى امتداداً لمدينة عفوية سابقة للمدينة الأولى. وإذا ما صدقنا لاسنر فإن مدينة المنصور تفقد كثيراً من مظهرها الإرادي ولا سيما أنه وصفها

(١) *Ibid.*, p.103.

(٢) *Ibid.*, pp.139-140.

(٣) *Ibid.*, pp.138-139.

كمنتوج «لتطور بدأ من الخارج إلى الداخل (oustide-in)»[1]. وإذا استقرت المدينة الحقيقية ـ مدينة السكان والأسواق والعسكريين والصناع والتجار ـ خارج الأسوار من أول وهلة، فماذا يبقى في الداخل سوى مركز إداري، أي «ملك خاص للخليفة» شبيه نوعاً ما وفي خاتمة المطاف بحامية الكوفة؟ وأين يكمن أيضاً تطور الداخل بواسطة الخارج، إذا ما خطّت المدينة المستديرة مسبقاً، وحُصر مجالها، فكانت فعلاً لا تقدر على النمو إلا قليلاً؟ وعندئذٍ، هل يتعلق الأمر بمصر معكوس؟ يكفي القول ان المركز كان موجوداً تماماً في المصر وان كل دفع ممكن صدر منه ـ وهو أمر يبدو لنا بديهياً ـ وأن نعيد إلى الجادة معنى تطوره لكي تصير بغداد صنواً للكوفة، طبق مقدمات لاسنر نفسه. لقد أنشيء مركز هنا وهناك، وتحول إلى مدينة حقاً ـ مدينة عفوية ـ بفضل امتداداته المتنامية. لكنّ هذه المقدمات خاطئة، ولاسيما بخصوص الكوفة.

والحق أن كل المواقف المشار إليها سابقاً والقابلة للمحاججة بالنظر للأمصار الأخرى، يتبين خطؤها قطعاً بالنسبة للكوفة. فيمكن عند الضرورة الصاق مفهوم «المدينة العفوية» بالبصرة فعلاً، لا بسبب الثنائية المتصورة بين المعسكر والمدينة المقبلة، ولا كذلك بسبب تطور ما خارجي مستقل عن المصر البدائي ومنعكس عليه، بل بالأحرى لأن البصرة خلافاً للكوفة، ظهرت بصفة عفوية نسبياً، متواضعة في الأصل، وانبعثت انطلاقاً من حافز على الهجرة جدّ لدى قبائل البحرين. لم تؤسس البصرة بفعل عمل مصمّم ومسترسل من طرف السلطة بل هي ظاهرة متفرّعة شبه هامشية، ظاهرة ما زالت غامضة. فضلاً عن أن في البصرة يُدرك هذا التطور البطيء الذي تم على مراحل، من الخيام الوطيئة إلى خصاص القصب التي ترفع أثناء الحملة. وقد وصفت المصادر بوضوح أول مسجد في البصرة على أنه مخطط بكل بساطة لا غير، إنما لم يتمّ بناؤه ولعله أحيط بسياج من القصب. وإذن فليست ظروف البصرة هي ظروف الكوفة حيث استقر أكثر الجيش الفاتح الذي انتصر في معارك القادسية والمدائن وجلولاء: وهي مجموعة ملحاحة متماسكة تطالب وتحصل على رعاية السلطة. فيمكن فعلاً الإشارة إلى عفوية نسبية في البداية بخصوص البصرة. ولم يتردد كايتاني في الإشارة إلى هذا الأمر[2]، مقارناً بين البصرة التي «تولدت من ذاتها، ولضرورة في نفسها»، وبين الكوفة التي ظهرت «اعتباطاً» وبإرادة شخص. وقد أدرك ريتميير Reitemeyer ذلك الأمر جيداً[3]، وجاراه كرسويل Creswell[4]. لكن بالنسبة للكوفة لا

---

(١) *Ibid.*, p.140.

(٢) Caetani, *Annali dell'Islam*, III.2, p.834.

(٣) Reitemeyer, *Sidtgrundungen der Araber in Islam*, p.15.

(٤) Creswell, *Early Muslim Architecture*, euvr. cit. I, p.15.

مجال لطرح قضية العفوية لا حسب تصوّر بوتي، ولا كذلك لاسنر، وهما المشتركان في خلفية فكرية تقرّ بالفصل الجذري بين مجرد معسكر مصطنع «إرادي» بدوي النمط وغير منظم لكونه لم يصمم مسبقاً، وبين مدينة تطورت من ذاتها بعد ذلك [illegible] واقعاً آخر. ذلك [illegible] مصر شيء آخر تماماً. ظهرت [illegible] بين مركز سياسي ديني وبين حزام للسكن، وبيئة مرتبة تسمح بالاتصال. ذلك كان التخطيط الذي جاء بعد عملية التمصير مباشرة، والتمصير مفهوم يستند إلى مشروع إقرار مجموعة بشرية في تجمع سكني مهما كان شكله. ولا نرى هنا ما يشبه المعسكر[1] على طريقة البارث أو الرومان أو الساسانيين أو حتى العرب لمجرّد أن تعمير الكوفة تم بواسطة الجيش. اذ لا يمكن وصف هذا الجيش بمفاهيم معهودة كأن نقول بأنه جيش نظامي دائم، وجهاز لدولة وجدت قبله، ينفذ سياستها التوسعية. لقد تعلق الأمر بعناصر قبلية كاملة، هاجرت بأسلحتها، وأمتعتها ونسائها وأطفالها وكان لها حرية الاختيار ومعنى التملك وشخصية خاصة. ولم تقم الدولة إلا بتنظيم هؤلاء، فعرضت عليهم بناء المستقبل. ولماذا تعتبر الكوفة معسكراً، حتى في فجر إنشائها بالذات، وحتى قبل الشروع في التخطيط، في حين يقصد بالمعسكر الهيكل العسكري المتحصن المتأهب للدفاع، وفي حين يخضع العراق كل الخضوع منذ ما يزيد عن سنة، ويقيم العرب في الأثناء بالمدائن التي لم تكن معسكراً في شيء، مع أنها كانت أقرب كثيراً من قواعد العدو، أي التراب الإيراني ذاته؟ حقاً لم ينوِ عمر تسريح المقاتلين العرب، بل بالعكس كان يريد المحافظة على هذه القوة الضاربة لاستبقاء العراق وإنهاء فتح الشام في آن واحد. لكن سنة ١٧هـ كانت بالأحرى سنة الانفراج، وتنظيم المكاسب، وإقامة هياكل المستقبل، ولم تكن سنة تجميع القوات العسكرية استعداداً لعملية معينة. لم يكن الوضع ينبىء بالخطر. وكان المقاتلة العرب ينتشون بنصرهم دون أن يسرحوا، وهم في راحة أو يكادون. إنما همّهم الوحيد أن يجدوا موطناً للاستقرار و«داراً للهجرة» ووطناً، ويحققوا حلمهم في الاستقرار، بمعنى أن يعودوا إلى الحياة المدنية. إلا أن الخيار العسكري بقي قائماً، كما تمت المحافظة، دون شك، على العادات المكتسبة منذ وقت قريب في التنظيم العسكري الذي يشكل إطاراً تنضبط داخله جموع المقاتلين، ولذا فمن المعقول تصور وجود كوفة أولية ـ الكوفة خلال الشهور التي سبقت التخطيط ـ تنشأ طبق مقاييس تتقاسمها

---

(١) قبل أن يظهر التفكير التمدني الحديث بكثير، وحتى قبل ولیام مارسي، انتشرت فكرة المعسكر في الفكر الاستشراقي: وقد جزم بذلك كايتاني، Caetani, *Annali*, III,2, p.843، مؤكداً الأمر ومعتمداً ما جاء به Müller في الصفحة ذاتها، وهو الذي عرّف الكوفة كمعسكر كبير تحول بعد ذلك إلى مدينة، وجيش الكوفة كجيش مؤلف من الاحتياطيين (Reserveheer).

الصبغة العسكرية والصبغة البدوية، ولا نعلم عنها إلا القليل. وتكون الكوفة إذّاك في هذه المرحلة الانتقالية السريعة جداً، منظمة حسب تنظيم مرن للمعسكر ولكن دون صرامة الجيوش خلال الحرب ـ وكيف يكون الأمر مخالفاً لذلك على أرض عراء؟ ـ وأيد عمر المشروع، ثم تـمّ تجاوز هذه الصيغة عاجلاً إذ ظهرت رغبة ملحة في الاستقرار، أبداها المقاتلة، فحل دور التخطيط سريعاً.

على أنه لا يمكن التحدث بالنسبة لهذه المرحلة الأولى المحددة زمنياً، عن إرادة تعمدت «إنشاء» معسكر، بل كانت إرادة في إقرار جموع المهاجرين على المكان، أي على الأراضي التي استولوا عليها، بمقتضى عدة خيارات أساسية هي: التجمع والقرب من بلاد العرب. أما الأمور الأخرى، أي صيغة المجموعة السكنية، فقد ترك الأمر لرغبات القاعدة. وصادف أن اختارت صيغة التجمع المدني، أي تجمع المجال المبني المهيىء الوظيفي المتلاصق الذي يكون ملكاً لهم ولا يصطبغ بصبغة حضارة أخرى. يجب التشديد على تسجيل هذه الرغبة في التخلي عن نمط حياة الترحال، وهذه الجاذبية القوية نحو الاستقرار، وهما خاصيتان تظهران عند المهاجرين في كل العصور. إنها الحاجة الكبيرة إلى الهدوء والمشاركة الاجتماعية. وبهذا فإن عمر لم يرد «إنشاء» معسكر أو مدينة، بل كان «يشير» فقط (كلمة شعبان جاءت في محلها هذه المرة)[1]، بنقطة للاستقرار والتجمع، على أناس حرضهم على الرحيل خارج بلاد العرب، فما لبثوا أن اختاروا الإطار المديني. وسواء أكانت مادة البناء المستعملة آجراً ـ وهذا كان تقليدياً في بلاد الرافدين ـ أم قصباً، فذلك أمر لا يهم كثيراً. المهم أن تعوض هذه المادة الخيمة، فتشكل رمزية الاستقرار. لكن الأهم من ذلك هو أن يأتي التخطيط بعد تقرير البناء، ويتضمن التخطيط جيداً فكرة الـ «Planning» أي صورة المدينة المرسومة على الأرض، حتى لو رفضنا أن العرب بكّروا بالبناء الصلب، وأنه وجب ترقب ولاية المغيرة بضع سنوات أخرى. وقد اتفقت المصادر إما على طرح تزامن التمصير والتخطيط وإما على أسبقية التمصير على التخطيط بصورة طفيفة، وهو رأي سيف الذي أضاف فكرة البناء بصفة قطعية. وتوحي لنا المصادر أيضاً بتصور إرادة واضحة صادرة عن سعد ومستشاريه: منهم أبو الهيّاج الأسدي، ونصارى الحيرة، وبعض الفرس. فتم على الأقل تحديد المركز السياسي الديني طبق تقنية معينة، وأحيط بخندق، وأقرّت حول ذلك العشائر والقبائل. ووضع داخل المركز مركّب المسجد والقصر، مع أنه كان بدائياً، وإن لم يشيد أو أن بناءه كان متواضعاً. وهكذا وضعت الأجهزة الأساسية للمصر وتحددت نهائياً طبق توجيهات دقيقة: إنه خلق لا مراء فيه تم عملياً من أول وهلة. وسوف تمتلىء الكوفة

(١) أمير المؤمنين = «first counsellor»، في: *Islamic History*, p.57

بدايةً من هذا التصميم الحاسم وحتى الثابت القّار لحياتها المقبلة. فليست الكوفة معسكراً تحول ببطء إلى مدينة (وبصورة أخرى لم يأت هذا التحول من الخارج، وهذه فكرة مجانبة لا تُقبل بتاتاً)، بل مدينة مخططة مفصلة أحسن بناؤها بمقتضى تصورها الأول. هذا أقل ما يمكن لأوجز الأخبار أن تفرضه على اهتمامنا.

بل يرى سيف كما ذكرنا سابقاً، أن المدينة بمعناها الكامل قد أقيمت في زمن سعد، بمناهجها وخططها السكنية وأسواقها وقصرها المشيد وقاعة الصلاة بالمسجد، الخ. . . إن التقليد الاستشراقي يخطّىء عادة سيفاً[1]، لكن دون أن يخلو الأمر من تناقض، لأنه يستمد منه كثيراً من الأخبار والحجج. وقد سبق أن دحض كرسويل وفلهاوزن وكايتاني، الذين اعتبروا الغلوة (رمية السهم) قياساً لضلع المسجد، واعتمد جميعهم رواية سيف والبلاذري أيضاً. وبصورة أدق، إن سيفاً هو الذي أتاح لكرسويل تصور تصميم المسجد، حتى أنه يتقدم بنقاشٍ حول سقف الظلة والنمط الهندسي الذي يستند إليه[2]. ويرى ريتميير أن رواية سيف تُسقط واقعاً لاحقاً، لم يوجد إلا في إمارة زياد، وأن المسجد الأول كان بناية بدائية، بناها العرب بمفردهم[3]، وهو أمر غير مستبعد. ويوحي ما ورد عند سيف من تناقضات وتضعيفات، كما قلنا، إسقاطات ترد الحاضر إلى الماضي، لكن فيما يتعلق بالبناء أو إنهاء البنايات أكثر مما يتعلق بالتخطيط ذاته. ما هي القاعدة التوثيقية التي يستند إليها كرسويل[4]، وأية حجة منطقية يعتمد ليصرّح بأن عرض السكك يجب تأريخه في إمارة زياد؟ يعترف من جهة أنه كان يوجد بداية خمس عشرة سكة - منفذ لم يذكرها إلا سيف. وينسب من جهة ثانية تقرير عرضها إلى زياد في حين أن المساس بنسق الطرق يبدو صعباً بعد ثلاثين سنة من إنشائها، دون خلخلة تنظيم السكن بصورة خطيرة. وما نريد تقريره هو أنه لا يخول للمؤرخ رفض رواية سيف الثمينة ما لم يكتشف اسقاطاً واضحاً جداً أو تضارباً فاضحاً ضمن الرواية، أو مع أغلب المصادر الأخرى. التخطيط إذن كما تحدثنا عنه طويلاً، حصل فعلاً إثر الإنشاء وبميزات لا تنفك تثير إعجابنا إذا ما فكرنا في سرعة الحركة، ووضوح التصور، وروح التنظيم. لكن السرعة ليست لتفاجئنا، وقد جدت في مرحلة تاريخية مشبعة بالمبادرات، مفعمة بالقرارات، تبعث على الخلق بصورة عالية، مغطية مسارها على وتيرة لاهثة. يوجد في البنية الداخلية للكوفة الأولية كما ثبّتها التخطيط، جانب

(١) Wellhausen, *Skizzen und Vorarbeiten*, VI, p.73; Reitemeyer, Städtgrundungen, pp.34.35; Creswell, *Early Muslim Architecture*, I, p.17.

(٢) *Ouvr.cit.*, I,p.18.

(٣) *Ouvr.cit.*, pp.34.35.

(٤) *Early Muslim Architecture*, I, p.17.

واسع من الابتكار السريع، وجانب من الإرث المتلقى جاهزاً من عمل الرسول (كان الرسول يخطط ويقطع القطائع في المدينة وفي غيرها، كما جاء في السنّة)[1]. ويوجد جانب استيعابي في مجال التمدين في بلاد العرب وعلى حواشيها، وكذلك جانب من استبطان التصورات الثقافية الخارجية ـ لكن ما هي هذه التصورات؟ ـ ولنلاحظ تفوق التخطيط في هذه الفترة التكوينية على الهندسة المعمارية ذاتها التي سيأتي دورها فيما بعد. وتبدو الكوفة في الحركة العامة لتاريخ التمدين بمثابة الحلقة الأولى من سلسلة هائلة من الإنشاءات شهدها القرنان الأول والثاني من الهجرة، وبلاد الرافدين أكثر من غيرها. ومن المؤرّخين مَنْ فكَّر في مقارنة هذه الظاهرة بإنشاءات الإسكندر وخلفائه[2] التي هي علامات على المسيرة الساحقة للفاتح العظيم. وهي مقارنة أكثر سداداً مما يُعتقد، لو أدركنا، بعيداً عن فكرة «العمل التحضيري» أو «إرادة التمدين»، السبب الأساسي الذي من أجله قام هذا العمل غداة فتح كبير هنا وهناك أي عند اليونان وعند العرب. لقد تعلق الغرض بإقرار شعب طارىء، Allogène، وبتأسيس نقط استيطان هي بمثابة العلامات للهلينية والعروبة. وهكذا، فإن الرجوع إلى الماضي يفرض نفسه لنحاول تحسين إدراكنا للصورة الأولى التي كانت عليها الكوفة ـ ذلك النموذج الأصلي ـ وأيضاً للبيئة التاريخية التي انصهرت فيها. وهنا يحق القول إننا بإزاء قضية تاريخ شمولي أكثر مما نحن أمام قضية تمصيرية أو معمارية.

---

(١) لسان العرب، ج٨، ص ٢٨١.

(٢) Maurice Lombard, «L'évolution urbaine pendant le haut moyen âge», *Annales, Economie, Société, Civilisation*, 12(1) 1957, pp.7-28, reproduit dans *Espaces et Réseaux du Haut Moyen Age*, pp.47-72; *L'Islam dans sa première grandeur*, Paris, 1971, p.122.

الباب الرابع

التأثيرات والجذور.

من بابل إلى مكة

- ١٣ -
قوّة الماضي :
الشرق والهلينية وامتداداتها

ارتبط تكون الكوفة فعلاً، مكاناً وزمناً، بتقاطع المؤثرات والتقاليد المتراكمة. الحقيقة أن ما هناك من مقارنات دالة بين المدينة الاسلامية والمدينة الشرقية تصلح خاصة للفترة اللاحقة، حين تكون المدينة الاسلامية قد أنهت بناء ذاتها على كل الاصعدة. والحقيقة أيضاً أنه لا يمكن إلا مقارنة مرحلة ما من تطور المدينة الاسلامية بمرحلة أخرى من تطور المدينة الشرقية، مثلاً بغداد في القرن الرابع هـ /العاشر م. وبابل زمن هرودوتس. على أن الفترة الحاسمة بعد تجاوز الطبوغرافيا في مسيرة حياة مدينة ما، هي فترة إنشائها، ولا سيما إذا تعلق الأمر بحاضرة أم مثل الكوفة، وأن يصاحب هذا الإنشاء تحول حاسم في التاريخ.

لا يفوتنا أن نلاحظ أن فجوة ألف سنة تفصل الكوفة عن بابل الامبراطورية الجديدة - وهذا قصير في حياة الشرق - وكذلك مسافة مكانية تعادل ٩٠ كيلومتراً[١]. إنه لجوار ممتاز في رمزيته، وما يلاحظ بصفة رئيسة وبالكيفية نفسها، التأثير المهيمن في ذلك العصر لمركّب سلوقية - المدائن، وهو خلق يوناني ثم بارثي، فيه تبلورت كل الخطوط البارزة للشرق، أو ما تبقى منها. كان التأثير الهلنستي الذي جسمه بقوة السلوقيين، وكانت روما وبيزنطة، وكان الساسانيون الذين أعادوا تنظيم بلاد الرافدين[٢]. هذه طبقات متعددة إذن، لكنها تحركات أيضاً، واستمرارات واضحة وانفصامات. كان ضرورياً تذكير القارىء

---

(١) كتاب البلدان، ص ٣٠٩؛ Caetani, *Annali*, III, pp.833-836; Le Strange, pp.70-71.

(٢) Pauly-Wissowa, *Realencyclopädie der classischen Altertumswissenschaft*, XXIX, pp.1106-1146; Oppenheim, *Ouvr.cit.*, Cambridge, VI, pp.429-431, 505-515, 556-558; VII, pp.155-164, 183-189, 191-196; Rostovtzeff, *Social and Economic History of The Hellenistic World*, Oxford, 1941, I, pp.77-90, 422-440, ?-533; II, pp.664-668, 695-702, 1044-1053, 1230-1238; N. Pigulevskaja, *Les Villes de L'Etat iranien aux époques parthe et Sassanide*, Paris, 1963.

بهذه الخلفية، لفهم ما كان عليه الوضع في ذلك العصر، وما حدث بعد ذلك.

تعددية الشرق ووحدته. إرث العصر الاول

يشتمل هذا الشرق المعتَمَد في وصف الحاضرة الاسلامية، وعكسه، على العصر المتقدم جداً، مقر الديمومة الطويلة، مؤسس النماذج ومنها أكملها تعبيراً، أي بابل الآخرة، ويشتمل أيضاً على الفترة الأخيرة التي دشنها الغزو الفارسي. على أن ما يلاحظ على الصعيد الجغرافي هو ما اتصفت به مصر من خصوصية ونوع من انقسام داخل الشرق المركزي، بين عالم الشام الأكثر جدة والذي يتقبل كل ما يرد عليه، وعالم بلاد الرافدين العريق في القدم، وهو مهد تهيأ فيه النموذج الشرقي.

لنتمعن في الشرق المركزي القديم ونقارنه بمصر. قيل إن مصر كانت تنعم بالراحة وتوحي بالأنس، وتحب الحياة إلى حد أنها تمد يدها في الموت. كان محيطها أقل شدة من محيط بلاد الرافدين، فشيدت حواضر مفتوحة فاقدة للأحزمة المحصنة وفي عصر متأخر. وقبل أن تشرع مصر في بناء المدن، كانت لا تتوقف عن تشييد المقابر التي كانت أعمق رمز للطموح المصري[١].

أما في بلاد الرافدين، وهي عالم الآلهة المرعبة الكونية، وأرض أنشأت المدن كمراكز للعظمة والحرب، فقد كان أسلوب الحضارة المدنية متميزاً بالترتيب والقمع الشديد والنظام والتخطيط والمركزية. فما كان قانون حمورابي سوى تنظيم دقيق للعلاقة البشرية بكيفية تكاد تكون بوليسية؟ «كانت المدينة سجناً يضيّق الحراسة على سكانه»: هذا رأي لويس ممفورد Lewis Mumford[٢].

فمن المعقول بعد هذا، أن نقبل بثنائية النماذج الأصلية. لقد أمكن للنموذج الفرعوني أن يؤثر في الحضارة المينوية minoenne ثم على أسلوب المدينة الاغريقية[٣] وتمادى

---

(١) L. Mumford, pp. 105-112.

(٢) Ibid., p 111. كتب ممفورد صفحات جيدة حيث كانت توصف أرض الرافدين بأنها أم المدن في كل صفحة: op.cit. pp.54-73.، وتعرض إلى صلات المدينة بالحرب في بداية نشوئها، ومظهرها المرضي التقهقري الذي فرضه طوق التنظيم والارهاب، طبق نموذج «خلية النحل». وقد استوحى رأيه من Hocart ولا سيما من Henri Frankfort.

(٣) يعترف هيرودوتس بالتأثير المصري في تكون الحضارة الاغريقية. فكان متقدماً على المؤرخين الغربيين في القرن التاسع عشر، وهم المتمسكون بالطابع الفريد للهلينية، كإسقاط حقيقي للمركزية الاوروبية. وكان M.Jastrow أول من قال بفرضة تأثير سومر وبابل في الأسطورة والعلم اليونانيين: *The Civilization of Babylonia and Assyria*, Philadelphia, 1915، وهو ما سمي بالنظرية البابلية الشمولية أو panbabylonisme.

النموذج الخاص ببلاد الرافدين في بغداد فضلاً عن ذلك، في عين المكان، بغداد المزدحمة بالبشر والمحاطة بسورين مضاعفين، والخاضعة لحراسة مشددة فرضها قهر الخليفة ثم السلطان. لكن ما يهمنا حقاً هو إبراز نمطين مثاليين للمدينة، انطلاقاً من التجربة المصرية وتجربة بلاد الرافدين. الأولى كنمط المدينة المنفتحة الهندسية المتحررة في مظهرها، البسيطة في تخطيطها، والأخرى كنمط المدينة المغلقة المتشعبة الملتوية[1]. لكن ألا تخفي هذه الرؤية التي تجسمت على هذا النحو في موقف مؤلفين من الغرب، جانباً من «الثنائية»، وتمجيداً للهلينية يعتمد المركزية العرقية بصورة مقنعة وبواسطة تمجيد الحضارة المصرية؟ على أن هذا لا يمنعنا من المقارنة الموحية بين الكوفة الهندسية الأولى الحرة المتفتحة، وبين بغداد ربيبة الكوفة إلى حد بعيد، وحتى الكوفة العباسية الحبيسة في أسوارها والتي تسلط عليها القمع والارهاب. وبذلك ينبغي الرجوع كثيراً إلى الوراء، أي إلى أقدم طبقات التقليد المدني، لا أن نقابل فقط بين الهلينية والاستشراق (المقصود هنا المبدأ الشرقي لا علم الاستشراق)، كما يقع في أغلب الأحوال.

بابل

كانت بابل التجسيم الأعلى لنموذج بلاد الرافدين، فقد أجملت مجمل المكاسب الحضارية للشرق المركزي في صفائه، إن صح القول، فبدت حلقة حاسمة للبحث عن التسلسلات. ينبغي استنطاق بابل في ذاتها وفي ما يدور في فلكها أيضاً، أي سبار ونبور وأرك، وبعيداً كركوك، وحتى المدن الأشورية مثل أشور وخرسباد[2]. على أن بابل الطبيعية ذاتها تبقى المحور المشع ضمن هذه الكوكبة. وفي العصر التاريخي الذي ظهر خلاله نبوخذنصّر، يتجه التفكير إليها عندما يدور الحديث عن الحاضرة الشرقية الأصلية. كانت مربعة الشكل ـ مثل الكوفة والبصرة على الأقرب ـ واسعة الشوارع المرتبة. وكانت تستخدم اللبن والأجر[3]، كانت أيضاً المدينة ـ المعبد، حيث يقوم سجيل بدور أساسي، لها أراضيها الخاصة ومخازن حبوبها (لنذكر دار الرزق بالكوفة)، وقاعدتها العقارية التي لم تكن بابل

---

(١) روج وولي Wooley لفكرة أن الحاضرة في الشرق الأوسط اليوم، في نواتها التقليدية، تعكس بنية المدينة القديمة في بلاد الرافدين. وقد شاعت عند غيره، منهم اوبنهايم. ولم يعمل فيرث إلا على اقتباسها لافراغ المدينة العربية من كل أصالة خلاقة. وبالنسبة لإرنست بلوخ Ernst Bloch، يمثل المعمار الفرعوني أصل ونمط البعد الهندسي في [illegible] يصل إلى الكمال في الأهرام، وهو ينعته بـ «يوطبيا بلور الموت» ويعارضه بالـ «يوطبيا الغوطية» التي تمثل شجرة الحياة: *Le Principe Espérance*, trad. fr., II, Paris, 1982, pp.332-335.

(٢) Piguleskaja, pp. 31-33, 39-47; Roztovtzeff, I, pp. 78-79.

(٣) Altheim, *Welgeschichte Asiens*, I, p.153; M Rutten, pp.34ff.

لتعيش بدونها(١). وفي بابل ذاتها وفي المدينة من النمط البابلي عموماً، عناصر تشبه أحياناً ما نجده بالكوفة، وتشبه أحياناً أخرى ما يوجد بالبصرة وببغداد، وذلك على مستويين، المستوى الطبوغرافي ومستوى الوظيفة المدنية، حسب مراحل زمنية متوالية. لقد ثبت مثلاً وجود البنية المثلثة - أي المدينة والربض والرصيف(٢) بالنسبة للبصرة خاصة، حتى القرن الثالث/ التاسع تقريباً. وخلافاً لذلك، فإن عرض الشوارع، والتخطيط حسب الاتجاهات الأربعة، واستقامته، تظهر بوضوح أكبر ضمن المقارنة بالكوفة الأولية التي يمكن مقابلتها عند ذلك بالمرحلة الأولى من تطور الحاضرة البابلية(٣).

إن بابل التي وصفها هيرودوتس مندمجة فعلاً بالامبراطورية الاخمينية، لكن هذا لم يمنعها من الظهور بمظهر الوريثة للحضارة الشرقية القديمة، قبل أن يقضي عليها أرتحششتا Ataxerxès. ولا بد أنها حافظت على أهم الخاصيات التي كانت لها في عصر نبوخذنصّر. ويتجه التفكير إليها حين نشير إلى نمط المدينة الشرقية بغية مقابلتها بنمط المدينة اليونانية الذي روجه الغزو المقدوني(٤). ويُرجع إلى بابل أو المدن التابعة لها - سبار وارك لكي تتاح المقارنات الانطباعية بالمدينة الاسلامية المقبلة كالتواء السكك المعزو إلى عنف الشمس ومشكلة الأسواق، لكن دون أن نعرف هل كان هذا تشابهاً أساسياً أم هو استعادة للعناصر الوظيفية نفسها. إن بابل مثلت في آخر أيام مجدها النقطة الأكثر هيكلة في الامبراطورية الاخمينية(٥)، فضلاً عن أنها تقمصت مع مصر أرقى شكل حضاري. وعلى الرغم من التغييرات الكثيرة التي جدت في عصر الفرس - مثلاً في القانون الجنائي والمدني - فقد بقي الهيكل الاقتصادي الاجتماعي جيد التأطير، وقام عليه الكهنة ورجال الدواوين والتجار والصيارفة. وقد أشرفوا على كتلة الفلاحين المستغلين الرازحين على أرض بابل بالذات. واستمرت التجارة الكبرى على ما هي عليه. لقد كان النموذج البابلي مشعاً إلى حد بعيد على مدن بلاد الرافدين في الشمال وعلى الشام، بفضل جاذبيته الحضارية، وأساليبه المصرفية وحركيته التجارية، فكان يضع سمته على بنية المنظر المدني، كما حصل في كركوك مثلاً(٦).

---

(١) Pigulevskaja, pp. 31-33, 39-47; *Cambridge Ancient History*, VI, pp.491-492. يشك أوبنهايم فقط في صحة هذا التصور إلى حد ما: *Mesopotamie*, p.142 ولاسيما في: *Middle Eastern Cities*, p.6. يبقى المعبد المركز الاقتصادي الكبير.

(٢) Oppenheim «Mesopotomia, land of many cities», في: Lapidus, op.cit., p.6.

(٣) Oppenheim, *Ouvr.cit.*, pp.149-150. Mumford, p.100; Albert Champdor: *Babylone*, Paris, 195[illegible]

(٤) Rostovtzeff, I, pp.427,435; II, pp.1045ff.

(٥) *Idem*, I, pp. 78-81.

(٦) Pigulevskaja, pp.44ff. Rostovtzeff, I, p.79. ويرى أوبنهايم أنه من المناسب أن نعارض بين النموذج =

إن هذا الانتشار الذي طرأ على كل مكان من الشرق المركزي لعناصر مقتبسة من بابل، هو ظاهرة رئيسة تسمح بالبحث عن بقائها في المدينة الاسلامية كما في الحضارة التي أفرزتها.

ومن المعلوم أن العصر الهلنستي تسبب في تدهور بابل. فقد فقدت بابل دورها كعاصمة وحاضرة مركزية[1] عند نشوء سلوقية. ونهبها أنتيغون في ٣١٥ ـ ٣١٤ ق.م، وكان النهب الثاني بعد قليل في حكم سلوقوس الأول[2].

فأصبحت بابل مدينة مستضعفة مفككة، وفقدت قوتها المالية والعقارية لكنها كانت من أندر الحواضر المهمة التي نجت من نظام المدينة اليونانية (Polis)، فبقيت مدينة شرقية صرف. كانت سنة ٢٧٥ ق.م. هي السنة التي نقل خلالها سكان بابل بكليتهم إلى سلوقية، فكان عاماً حاسماً في تاريخ مدن بلاد الرافدين[3]. فقدت بابل سكانها، كما أنها فقدت قاعدتها الزراعية لأن ما أقطع لها من أراض وكذلك لبورسبا وكوثى إنتزع منها بأمر ملكي. عندئذ تصاعد النواح الأكبر لبابل. ذلك أن موتها الفيزيقي الذي ترتب عن هذا الأمر لم يكن موتاً طبيعياً، ولا تحطيماً ذاتياً، بل اغتيالاً نفذه السلوقيون. هذا الاغتيال وقع في سبيل الحفاظ على الهيمنة الامبراطورية المستندة إلى الهلينية أكثر مما كان عملاً تحقق باسم الهلينية ذاتها. وعادت إليها الحياة قليلاً بعد ذلك، في عصر أنطيوكوس ايفانوس، لكن بالخضوع المؤسساتي للنموذج اليوناني، واستقرار جالية إغريقية مقدونية، وتشييد مسرح ومقر لتعاطي الرياضة، وتعيين وال (Strategos) على رأسها[4]. الواقع أن أبيفانوس كان يريد إدماج بابل في الهلينية، درءاً لتصاعد الروح الشرقية أو الإشراق على صعيد الامبراطورية كافة، وقد بدأ يغدر العنصر الهليني. وكان لبابل من الحركية ما جعل الهيلينية تصبح مستوعَبة سريعاً جداً من طرفها بعد أن كانت مستوعِبة في هذا المجال. فتلقب الإغريق بأسماء شرقية وتعودوا بعوائد بابلية واستعملوا أشكال العقود والمعاملات المصرفية البابلية، بينما كانوا هم العنصر الديناميكي المتبوع في المواطن الأخرى، أي في شبكة المدن الهلينية التي أقامها السلوقيون. وهكذا، فإن بابل التي كانت في النزع الأخير، وكادت أن

= الأشوري لبلاد الرافدين العليا ونموذج السهل، على الصعيد الطبوغرافي الصارم، بمعنى أن نقابل آشور بأور: Ouvr.cit., pp.142-143. لكنه استثنى وضع بابل في العصر الكلداني.

(١) Pigulevskaja, *op.cit.*, p.33.

(٢) *Ibid.*, p.34.

(٣) *Ibid.*, p.36. يبدو أن Rostovtzeff لم يطلع بما يكفي على هذا الموضوع، فاقتصر على إبراز دور حماية معابد جهة بابل، الذي قام به السلوقيون: *Ouvr.cit.*, I, pp.435-436.

(٤) *The Cambridge Ancient History*, VII, p.188.

تلفظ أنفاسها، والتي غرّبها عن ذاتها نظامها الجديد، حققت نصراً ثقافياً على الهلينية، في انتظار أن تظهر من جديد القوى الإشراقية المدحورة في كل مكان، من الشام إلى خوزستان، حين صارت الامبراطورية في حالة تفكك.

هناك إذن في روح بابل شيء يشبه الاستماتة الفائقة، وقدرة ممتازة على المقاومة. فماذا صارت هذه الروح حين مرت بها التغييرات التي خضع لها الشرق المركزي؟ أودع ميراث بابل الثقافي في بلاد بابل ذاتها، وانتشر واستبطن في بلاد الرافدين كافة، وتقدم حتى شمال الشام، ولا بد أنه بقي بصفة خاصة في المركّب المدني الشامل لسلوقية والمدائن، حيث أن سكانها نقلوا نقلاً واسعاً، وحملوا معهم حضارتهم كلها. كانت سلوقية المؤسسة الهلينية الكبرى في بلاد الرافدين[1]. وصارت حقاً حاضرة للجزء الشرقي من الامبراطورية، مفسحة صدرها لكل تيارات الشرق الكبرى. أما طيسفون (المدائن)، فقد كانت إنشاء بارثياً، ورمزاً لنهضة العالم الإيراني، لكنها ارتبطت لا محالة بسلوقية التي نقلت إليها بقوة الاتصال أوسع جزء من ارثها خصوصاً حين مالت الكفة في العصر الساساني لصالح طيسفون التي أصبحت القطب التمديني ومركز القرار. فمن البديهي أن قابلية بابل للخلق استبقيت بالمدائن وفي المقام الأول، تقاليدها في الهندسة المعمارية والتمصير، لكن كل هذا بصفة متسترة عنيدة، ولعل تشريق الفرس تشريقاً عميقاً ـ أو إعادة تشريقهم؟ ـ ينبغي البحث عنه عبر هذه الظاهرة، وكذلك انتقال هذا الطابع إلى الفاتح العربي. كانت إقامة الجيش مدة عام بالمدائن[2] بمثابة تجربة للحياة المدنية قطعاً، واتصال أول مديد بنمط المدينة ـ الحاضرة حيث كانت تتجاوز عناصر بابلية وهلينية وفارسية. لكنها كانت فترة قصيرة جداً، وكانت المدينة مستوفاة إلى درجة قصوى لا تسهل استنباط التصور اللازم لإنشاء حاضرة جديدة: فتسربت المؤثرات البابلية بكيفية أكثر بطئاً وغموضاً في بناء الحضارة الاسلامية بالكوفة والبصرة وبغداد في وقت لاحق. ذلك أن المصادر تتحدث بوضوح عن ممصرين من الحيرة أو من الفرس[3] في هذه المرحلة الأولى. لكن إذا قبلنا أن إرث بابل إندمج بالتقاليد الساسانية، في طيسفون ذاتها، فذلك علامة على اتجاه يمكن أن يظهر بوضوح أكبر في الرقعة الجغرافية التابعة لبابل القديمة، بالكوفة والحيرة. فترتب عن هذا الأمر أصلاً تلك البنية المربعة الشكل في مخطط الكوفة التي ليست بالمستطيلة كما في سلوقية بهرسير، ولا بالمستديرة كما في طيسفون.

---

(١) *Ibid.*, VII, p. 187; Rostovtzeff, II, p.427; Pigulevskaja, p.62.

(٢) أو ثمانية عشر شهراً حسب بعض الروايات: الطبري، ج٤، ص ٤٢ ـ ٤٣.

(٣) روذبة أو زوذبة كان من همذان: الطبري، ج٤، ص ٤٨.

الحقيقة أن بابل ليست سوى الوجه الرمزي للشرق وإذ أتينا على ذكرها، فإنما ذكراً للمدينة الشرقية بصفتها تصوراً متماسكاً للمجال، وتقليداً ما زال حياً. وهناك نقطتان تسمحان بتثبيت آرائنا في هذا الموضوع، هما قضية المركز وقضية الشكل.

تحدث وولي Wooley عن مساحة مقدسة Temenos مخصصة للمعبد منذ أن ظهرت المدينة السومرية(١). لكن أوبنهايم Oppenheim(٢) زاد الأمر توضيحاً في مثل هذا الميدان الذي بقي من أكثر الميادين غموضاً وتضارباً، فهو يرى أنه لم يوجد «مركز للمدينة بالمعنى المضبوط يتشكل من القصر والمعبد وساحة السوق» في السهل الغريني لبلاد الرافدين أي بلاد بابل بل إنه يوجد خلافاً لذلك فاصل دال بين المعبد والقصر فتتركز حياة القصر بالأبواب (قارن بباب المدينة المستديرة حيث مقام الخليفة)(٣). لكن ينبغي استثناء بابل العصر الكلداني حيث تمت الصلة بين القصر والمعبد بتأثير آشوري. فاتضح أن هذه الصلة التي جعلت من ذينك العنصرين وحدة مدنية مركزية هي ظاهرة مصدرها أعلى بلاد الرافدين، وأن مفهوم القلعة آشوري النشأة. هناك المعبد والقصر ملتحمان مادياً ويقعان في سياج محاط بسور وحيد(٤)، طارداً الدور إلى الخارج، ما عدا بعض المساكن التي كانت تسد الفجوات بالداخل، والتي أتاحت لهذا المركز أن يعرف باسم المدينة ـ القلعة. وما يلفت النظر أن نبوخذنصر حاكى النموذج الآشوري المختلف كثيراً عن النموذج البابلي القديم، لكنه فعل ذلك وصححه تصحيحاً كبيراً تمثل في عدم ارتباط القصر بالمعبد ارتباطاً مباشراً(٥).

توجد وجوه شبه تفرض نفسها على الذهن، عند المقارنة بالكوفة، لكن ينبغي الإحتياط في ذلك. نلحظ بالكوفة تمييزاً بين المركز السياسي الديني والمحيط الصالح للسكن، ووجود مركّب يشمل المسجد والقصر مشكّل لوحدة فريدة مترابطة مادياً وتكون إذن بحسب النمط الآشوري. لكنّ هذا المركز لم يشكل قلعة في العصر الأول حيث لم يشيد أي سور، ولا حتى في العصر الأموي حيث حصل فعلاً تحصين للمسجد والقصر، إلا أنه كان لكل منهما سور خاص به. إن المساحة العمومية كما أوضحناها كانت تشمل الأسواق والرحبة والأري. وكان يحدها في بداية الأمر خندق، لكنها لم تحظ بسور أبداً، إذ لو كان لها هذا الحزام لاكتست طابع المدينة ـ القلعة، مثلما كانت بغداد في عصر المنصور. وحين عزم

---

(١) في أور: *History of Mankind*, I, p.421.

(٢) *Ouvr. cit.*, pp.142- 146.

(٣) «كان للأبواب... وظيفة أخرى هي وظيفة «المركز»: M. Rutten, pp.38-40; Oppenheim, p.141

(٤) لم تتم فقط إزاحة الفصل بينهما، بل إنهما «شكلا وحدة مدنية تحتل موقعاً مركزياً»: Oppenheim, p.141. على أن القلعة في آشور ذاتها كانت جزءاً من التحصينات.

(٥) كان القصر يقع على السور، في حين أن معبد مردوك كان في المركز: Oppenheim, p.146.

خريطة العراق العربي
في العصر الكلاسيكي
(القرن ١ و٢ هـ / ٨ و ٩ م)

هذا الخليفة على بناء سور بالكوفة في سنة ١٥٥ هـ/ ٧٦٢م، أحاط هذا الحزام بالمركز وبجانب كبير من مساحة السكن، فشكل بذلك «مدينة» من النمط الإسلامي، بمعنى مدينة تامة لا تتميز إلا عن أرباضها. إن ما تبقّى بالكوفة من تقاليد آشورية(١)، نقلتها بابل الجديدة، يتمثل بالخصوص في تجاوز المعبد والقصر الملتحمين هنا في وحدة أو تكاد، أكثر مما كان في بابل، لكن المحتفظين معاً بفردية خاصة بكل منهما. ومن جهة أخرى، تحدد موقع هذه المساحة العمومية في المركز الهندسي دائماً، بالكوفة أولاً ثم في كل مدينة إسلامية بعد ذلك. قد يقع أن القصر ينفصل عنها، ويقام بالحوائط ويسمى بالقصبة أو القلعة(٢)، لكن لم ينفصل أبداً لا الجامع ولا الأسواق. وأحسن من ذلك: إن الجوار العضوي للمسجد والأسواق المسقفة المتخصصة، وموقعهما المركزي هو ما سيتبقى من مفهوم المساحة العمومية كالسمة الأكثر خصوصية للمدينة الاسلامية، حين سيشتد عودها في العصر الكلاسيكي. بل إن هذه السوق المركزية المتضخمة ابتكار إسلامي، إذ ثبت أن السوق في بلاد الرافدين كانت أهميتها محدودة باستمرار، فضلاً عن أنها كثيراً ما كانت مندمجة بالمعبد(٣).

النقطة الثانية الواجب توضيحها تتعلق بالسكك: يضع المؤلفون في أكثر الأحوال مقارنات بين المظهر الملتوي للمدينة الإسلامية المتأخرة، وبين الأزقة، والسكك المسدودة في مدن بلاد الرافدين(٤). لكن يبدو جلياً وبعد إمعان النظر في واقع الأمور، أن السكك الكبرى في المدينة الشرقية القديمة «كانت تنزع إلى اكتساب عرض منتظم والتلاقي على زاوية قائمة تقريباً»، كما يقرّره أوبنهايم(٥)، وذلك بالرغم من وجود الأزقة المسدودة. وخلافاً للرأي الشائع، يبدو أن انتظام شبكة الطرقات في أور كما في بابل يفوق إلى حد بعيد المنعرجات الموجودة فيهما لكن هذين الصنفين من السكك متواجدان. وهذه مشابهة أخرى مع الكوفة في أول عصرها كما هي مع بغداد الأولى. ولعله ينبغي البحث عن تسلسل ما، على مستوى بنية الدار بالذات، هذه الدار المطبوعة هنا وهناك بتفتحها على الوسط، رغم أننا نجهل كل شيء عن الدور الأولى بالكوفة.

---

(١) لعلّه يحسن أن نوجه نظرنا بتمعّن أكثر إلى أعلى بلاد الرافدين والشام وآسيا الصغرى وخاصة هاترا في عصر البارث التي كانت مستديرة لا محالة، لكن تضمّنت مدينة داخلية مربعة الشكل: Oppenheim, p.146.

(٢) حيث نجد رجوعاً إلى النمط الأشوري.

(٣) حتى فيرث قبل بذلك: Wirth, «Orientalische Stadt», pp.83-89. وتدل كلمة «سُكُو» في الأكادية على السكة والشارع. راجع: سعيد الأفغاني، أسواق العرب... بيروت ١٩٧٤، في موضوع تقاليد الأسواق عند العرب.

(٤) منذ أن ظهر كتاب وولي Excavations at Ur.

(٥) Oppenheim, p.149. لكنه قبل أيضاً بفكرة «التواء السكك والأزقة»: Ibid., pp.153-154.

وبذلك نرى وجوب الحذر في معالجة مسألة الجذور الشرقية للكوفة بالخصوص، والمدينة الإسلامية عموماً. ليس أمراً واضحاً كل الوضوح أن أحسن كيفية لمقاربة المدينة الشرقية تخيلاً، أن تعرض على النظر المدينة الإسلامية المتأخرة، سوى بنوع ما من الحدس يكون له مثل التلاشي والعناد الموجودين في شذى البخور السومري، بل أحرى بنا أن نستعرض مدينة القرن الأول أو الثاني الهجري ـ كالكوفة والبصرة وبغداد وسامراء ـ التي زالت زوال سابقتها الشرقية واقتربت منها بما يستبعد أكثر وينتظر أقل. اقترَبَت منها باعتماد جديد لتقاليد الهوامش الحضارية المتأخرة زمنياً ـ تقاليد آشورية وبارثية ـ وبفكرة تخطيط المدينة ذاتها، وبمواد البناء، والطابع الهندسي للطرق، ومفهوم المركز السياسي الديني، أكثر مما يكون باعتماد الأزقة والسكك الملتوية أو سياج الدار. وعلى كل فلن يكون ذلك عن طريق جماهير الأسواق الملونة. إن الاستمرارية التي تربط الشرق بالإسلام، لم تكن مقصودة لذاتها أو واعية. كانت استمرارية في الأشكال والتقنيات والتصورات. ومن المفارقة أنها فرضت نفسها على مشروع قطيعة تامة مع الماضي: استمرارية مستميتة تنبض بإصرار على امتداد آلاف السنين من الحضارة. حضارة جرت آثارها من الجنوب إلى المركز، ثم نحو الشمال. وعادت إلى المركز، ثم تحولت إلى الشرق. ولم تقدر على محوها ألف سنة من الذل. لقد عرف العرب الفرس، واحترموهم، وحاكوهم، لكنهم تجاهلوا الشرق القديم حقاً، ومحوا منه كلّ أثر للضمير التاريخي. على أن الشرق في شكل متنكر ومتغير، مكتسباً لمضامين جديدة، حاضر في العمل الحضاري الخفي الذي قام عليه الإسلام، هو حاضر في مخطط الكوفة، وفي الاعتقاد في قوة النص المدون، وفي تقاليد الكتّاب والعلماء، وفي تشعبات الفقه، وفي المدونات الكبرى للحديث، في مذهب التصوف كما في التشيع. إنه مثال عجيب على امتصاص بعيد عن كل تطابق لن نقف أبداً على سر مساره. ما أبعدنا ههنا عن مجرد تنزيل الإسلام منزلة الشرق.

تأثير الهلّينية

لقد أحكمت الممالك الهلينستية سيطرتها على ميدان سوف يكون بعد ذلك مرتعاً للفتح العربي ـ باستثناء الأناضول. احتل السلوقيون بالخصوص موقعاً مركزياً في الشرق، فكانت امبراطوريتهم تشمل، في بداية الأمر، الشام وبلاد الرافدين وإيران كلها، ثم تراجعوا أمام النهضة الإيرانية التي جسدها البارثيون، لكنهم تمكنوا من الاحتفاظ بميديا وخوزستان وبلاد فارس ذاتها، فضلاً عن بلاد الرافدين[1]. ولا منازع أن قلب

(1) Rostovtzeff, I, pp.429-430; *The Cambridge Ancient History*, VII, pp 157-159; A.H.M. Jones, *The Greek City from Alexander to Justinian*, Oxford, 1940, pp. 4-36.

امبراطوريتهم بقي وسيبقى الشام، إلى أن يحين وقت سقوطهم[١]. أما بخصـوص بلاد الرافدين ذاتها، فالسؤال المطروح والواجب طرحه وصوغه كما يلي هو: إلى أي حد تسرب التأثير الهلينستي بدءاً بدائرة الحياة المدنية؟ هل خلف آثاراً باقية؟ من اليسير الإحاطة بهذا المشكل، لكن الإجابة المرضية غير ممكنة إلا إذا استعرضنا الخلفية التاريخية لما كان عليه الاستيطان الهلنستي في الشرق.

خلافاً للعرب والفرس، المجاورين مباشرة للشرق الواقع بين الشام وبلاد الرافدين، فإن السلوقيين وهم المتعلقون عاطفياً بالهلينية، لم يعتمدوا على الشعب اليوناني ككل للامساك بزمام امبراطوريتهم الشاسعة. وربما لأنهم لم يجدوا يونانا بجوارهم، أو مقدونية، ولم يعتمدوا إلا على مجموعات مهاجرة صغرى[٢]، فقد لجأوا إلى إنشاء المدن (Poleis) حيث أقروا عناصر يونانية مقدونية. كانت نقطاً يستندون إليها، وجزراً للهلّينية تدعم هيمنتهم. وهكذا فإن ما بذلوه من جهود جبارة في إنشاء المدن يدخل ضمن خطة سياسية مهيأة[٣]، أكثر مما يتعلق الأمر بميل إلى التمصير يجب ترضيته، أو حتى مشروع حضاري، كما ارتآه مدّاحو الهلينية من النمط القديم ومنهم جونز Jones[٥]. وهذا لا محالة هو وضع كل مشروع امبراطوري، بما في ذلك الاتساعية الامبراطورية العربية، لكنّا نجد هنا امبراطورية بعيدة عن قواعدها البشرية. إن ما يلفت النظر عند الرجوع إلى خارطة المنشآت الهلينية، هو كثرتها في آسيا الصغرى والشام حيث يمكن ذكر انطاكية العاصمة السياسية، وأفامية المركز العسكري، وسلوقية في بياريا، واللاذقية مقر التجارة، لكي ندرك ما كان من قوة للاستقرار المدني[٥]. وقد توسعت الشبكة في بلاد الرافدين وامتداداتها إلى الجنوب، وقلّت كثافة الحضور الهلّيني، وتناقص عمقه أيضاً. وقد ذكرنا أن بابل اصطبغت بالصبغة الهلينية السطحية في عصر متأخر، وخلافاً لذلك فإن سلوقية تحولت إلى مركز نشيط للهلينية الشرقية. فكانت مقراً للحاكم العام بمنطقة الشرق، وأشرفت هكذا على الميدان الإيراني كله. كانت حاضرة مركزية حقيقية[٦] عامرة بعدد مهم من السكان الذين كانوا خليطاً من

---

(١) Rostovtzeff, I, p.437.

(٢) *The Cambridge*..., VII, p.157.

(٣) *Ibid.*, p.157.

(٤) Jones, *op.cit.*, pp.31,32. حيث يقول أن الشرقيين كانوا يريدون استيعاب الهلينية لأنهم كانوا «خجلين» من ثقافتهم «المتأخرة العتيقة».

(٥) *The Cambridge*..., VII, pp.157-161.

(٦) Caetani, *Annali*, III.2, p.836; *The Cambridge*..., VII, pp.187-188; Pigulevskaja, pp.62-63. وقد اعترضت هذه الأخيرة عن حق على الفكرة القائلة بأن هناك أفولاً تاماً بعد سنة ١٦٥. أما كتاب

الأغريق والمقدونيين والشاميين واليهود والبابليين المنقولين. وقد توفرت لها الأجهزة الأساسية الخاصة بالمدينة الأغريقية Polis في إطار المملكة الهلينية، وهي فوق ذلك تجسد وترمز أكثر من أية مدينة اخرى، إلى مفهوم المدينة كنقطة لارتكاز أية هيمنة أجنبية. وذلك لأنها منشأة شبه معزولة في محيط شرقي صميم، باستثناء السوس التي كانت بعيدة عن المركز، وبابل في عصر أنطيوكوس ابيفانوس. ومع أن بلاد الرافدين كانت إحدى الولايات المركزية في امبراطورية السلوقيين، ومع أنها كانت مقراً لسلوقية ذاتها، فإنها لم تقبل التأثير الهليني بالقوة نفسها التي كانت له في الشام. لكن لا مجال لنكران بقائه مدة طويلة، أو نكران آثاره في عصر البارثيين.

وقد اعتبر البحث التاريخي الغربي مدة طويلة أن الهلينية المنتقلة إلى الشرق حتى خراسان كانت حركة «تحضيرية» قوية أخرجت آسيا الصغرى من همجيتها كما أخرجت الشرق من وضعه البالي. إن الأغراض العزيزة على الامبريالية الأوروبية في القرن التاسع عشر تكاد توجد كلها عند مؤرخين من صنف سانفورد Sanford[(١)] وجونز بالخصوص، وقد أسقطت على ماض يبعد عشرين قرناً. وهي الهلينية كمبدأ ثقافي فتي حديث متفوق، وفكرة مثاقفة الأهالي، واستكمال مؤسسة البوليس (المدينة)، الخ... [(٢)]. وبذلك تكون هذه الهلينية معادلة للحضارة الأوروبية المنتصرة.

وقد اتسم قول روستوفتسيف Rostovtzeff بهدوء أكبر، مع أنه لم يستخدم مثل سابقيه إلا المصادر اليونانية والرومانية وهو ما نددت به بيغولفسكايا N.Pigulevskaja[(٣)]. ومع أن روستوفتسيف اطلع على نتائج حفريات Doura-Europos، فهو يعترف بالجهل الذي نتخبط فيه إزاء حركتي انتشار الهلينية والتمدين، وقد أقحم بشدة التمييز بين المدينة الشرقية والمدينة اليونانية، معترفاً بعد هذا بوجود تشابهات بينهما لا يمكن تفسيرها[(٤)]. إن هذا التحفظ الأخير أساسي وهو يخفف من حدة المعارضة بين الشرق والهلينية. ففي مستوى الطوغرافيا بداية حيث توجد هنا وهناك الغاية التنظيمية نفسها، ثم في مستوى المؤسسات حيث يُسلِّم بدرجة معينة من الاستقلال للمدينة الشرقية، وقد بات الأمر مقبولاً عادة

= Pauly-Wissowa، فلم يُشر إلى سلوقية إلا بصورة طفيفة.

(١) Sanford, *The Mediterranean World in Ancient Times*, N.Y., 1938.

(٢) *The Greek City*..., pp.32-37, 39-43.

(٣) *Ibid.*, p.20.

(٤) *Ouvr.cit.*, II, pp. 045-1052.

بالنسبة للمدينة الهلينستية. لكن هل كانت هذه المدينة حقيقة من نمط الـ Polis[1]؟ من الواضح أنه تـمّ إحياء الأجهزة اليونانية القديمة ومنها الـ Ecclesia (جمعية الشعب). لكن هذا الإحياء الذي استفاد منه العنصر اليوناني المقدوني خاصة، هل كان سياسياً أم ثقافياً؟ هل كان يعمل بكيفية ديمقراطية، أم كان مجرد تقمص لرمز ثقافي؟ لا يخلو الأمر من تناقض حيث أن المتمسكين بالهلينية يعتبرون هذه المؤسسات أمراً مصطنعاً في حين أن بيغولفسكايا التي تنازع مبدأ تفوّق الهلينية معتمدة المصادر السريانية معيدة الاعتبار بعد اشبنغلر إلى الروح الشرقية التي لا تقهر، تظهر وكأنها تعتقد في جديتها واصفة إياها بمزيد من التفاصيل[2]. وكأن الندم قد انتابها، فخلصت إلى القول إنه لا يمكن استنقاص التأثير الهليني. ولا شك أن لديها ما تبرر به قولها. ذلك أنه من وراء الصراع المبسط الذي افتعل بين الشرق والغرب والذي طالما طمس قضية الهلينية، وتجاوزاً للمفاهيم الضمنية للمثاقفة واللقاح والرفض وتفوق مبدأ على آخر، يتحتم الإلحاح على الواقع الجوهري للعبة السياسية العسكرية. لقد تشكلت امبراطورية ثم تفككت. لم تكن لها ايديولوجيا راسخة قوية، وامتدت على أرض متسعة جداً في فترة زمنية قصيرة جداً. وبعد هذا، فمع أن الشرق يستند إلى بنى متينة من الحضارة، فقد انفتح لكي تتسرب إليه المؤثرات اليونانية واحتفظ بشكل خفي بآثارها. وكان هو بذاته يعيش في الداخل تغيراً عميقاً، رافضاً الأشكال الأكثر ظهوراً للماضي الأكادي، لكنه سيستمر في الخضوع للسيطرة الخارجية. ليس مقصودنا من طرح قضية تقلبات الهلينية في الشرق إشعال خصومة جديدة في تاريخ الحضارات على الرغم من أهميتها بالنسبة لمستقبل الإسلام وعلى الرغم من المقارنات الموحية كثيراً بين العروبة والهلينية. إنما نسعى إلى تفجير سلسلة من المقابلات الواهية بين الشرق والهلينية، بين المدينة الشرقية والمدينة اليونانية[3]، بين مبدأ الخضوع هنا ومبدأ الاستقلال هناك، وتلك المقابلات بين العفوية والخلق، وبكلمة، تفجير غشاء كامل من الفرضيات المسبقة.

كيف نترجم ذلك على صعيد المحسوس؟ منذ البداية، تفرض المقارنة نفسها بين شكلين للتمدن والهجرة. الهجرة العربية هي التي أوجدت الفتح، ولم تكن مجرد نتيجة له. وبسبب قرب العرب الفاتحين من مخزونهم البشري، فإن استيطانهم كان يتصف بكثرة العدد وقوة التجمع، ولم يكن مشتتا مبعثرا. انفصلت الأمة الفاتحة في العراق، انفصالاً صريحاً عن الأهالي المحيطين بها. وأقام العرب تجمعاتهم الكبرى في بلاد الرافدين لا في

(١) The Cambridge... VI, p.431.

(٢) Pigulevskaja, Ouvr.cit., pp.23-28: كان لسلوقية والسوس، نظام الـ Polis ولم تكن بابل كذلك.

(٣) فصّل روستوفتسيف بوضوح بين النموذج اليوناني والنموذج الشرقي، Rostovtzeff, I, p.4?.

الشام، خلافاً لليونان، فضلاً عن أنه لم يكن لهم نموذج طبوغرافي أو مؤسساتي مسبق للحياة الحضرية.

فآل الأمر إلى تعايش غريب جداً بين المدينة والقبيلة التي كانت نابضة بالحياة عند العرب بينما لم تكن سوى أمر مفتعل وربما أثر عند اليونان. لماذا وفق الإسلام حيث فشلت الهلينية؟ لأنه جمع بين المبدأ الديني الذي لا يمّحي وبين الهوية الثقافية المتينة، والتنظيم العسكري الجيد، ولأنه حافظ على هذه العناصر الثلاثة في أمصاره القليلة. وخلافاً لذلك، فقد كان مستعداً لتقبل سلسلة النماذج الحضارية المودعة في الشرق بشكل انتقائي، بما فيها الهلينية. وتم العمل بهذه الانتقائية في تخطيط الكوفة. لكن الإسلام وجد أخيراً الأسلوب اللائق به بعد قرن من ذلك. إن العرب الذين أتوا مع سعد لم يكونوا يمتلكون المخطط الجاهز لهيبوداموس الذي أبدع في ميلي Milet، مع أنه في الحقيقة يعود إلى زمن غابر[1]، إذ كان ابتكاراً للهلّينية الأيونية وليست الأتّيكية، وقد نشره خلفاء الإسكندر. ولعلهم اطلعوا على ما تبقى من المخطط المشبّك بسلوقية - بهرسير وحتى في بابل، أو في السوس بالنسبة لأهل البصرة. ولنا أن نوضح القول أكثر من ذلك ونتساءل إلى أي حد يندمج مخطط هيبوداموس في الثقافات - بالمعنى الأنتروبولوجي - الشرقية، بما فيها ثقافات مشارف بلاد العرب[2]؟ ولذا يجدر بنا التساؤل عن إمكانية غامضة تتمثل في الأصل الهليني للشوارع الكبرى بالكوفة. حيث إذا رضينا بالتأويل الثاني لرواية سيف - أي أن الشوارع الرئيسة كانت تقطعها شوارع ثانوية قطعاً عمودياً - نكون قد وقعنا قطعاً على تخطيط هيأته رقعة أو شبكة. ومهما كان الأمر، وفيما يخص مساحة السكن فلا يتعارض النموذج الشرقي والنموذج الهليني، بل إنهما يتشابهان كما رأينا ذلك، ولعلهما يمتزجان في رؤية واحدة للمجال هيأها المخططون طبق حاجات التنظيم العشائري العربي أو تنظيم المعسكر. فأدى ذلك إلى تصفيفات وشرائط متمددة. أما عن المركز المقتبس من الأسلوب البابلي الجديد والأشوري،

---

(١) *History of Mankind*, II.1, p.176؛ ناقش أوبنهايم تأثير «الأورارتو» على المخطط المشبك: *op.cit.*, pp.150-151.

(٢) تسرب التأثير الهلينستي وصبغته الرومانية إلى امبراطورية البارث وبقيا في الامبراطورية الساسانية: راجع في خصوص بلاد ما بين النهرين: Oppenheim, p.151؛ وقد وافقت بيغولفسكايا (Pigulevskaja, p.84) على أن «دخول اللغة اليونانية والتقاليد الهلينية إلى المدن الشرقية كان عميقاً». انظر أيضاً: Ghirshman, *L'Iran des origines à l'Islam*, pp.278,300؛ وانظر خاصة: *(Univers des Formes, III) Parthes et Sassanides* وقد أشار D.Schlumberger النقاش حول هذا الرأي معتبراً أن الفن الساساني تحرر من الهلينية وقام في جملته على العودة إلى المصادر الأخمينية والشرقية، رغم قبوله بوجود الطابع الهليني في فن البارث. راجع في: «Sur l'origine et sur la nature de l'art des Sassanides» *VIII^e Congrès International d'Archéologie classique*, pp. 567-577.

فنجد الرحبة تقابل الأغورا الهلينية التي حافظ عليها الحضور البيزنطي.

وهكذا نصل إلى فكرة الالتحام المعماري، إلى لغة مشتركة نجدها في الحجر أو الآجر نشأت في العالم القديم كله. وعندئذ، إذا كان نموذج الدار العربية اللاحقة بابلي الأصل، فيمكن القول أنه هليني لأنه غطى إلى حد بعيد المساحة الهلنستية. مثله مثل القوس الذي انتقل بعد الإسكندر، من بلاد الرافدين إلى قلب العالم اليوناني. وكالآجر ذاته الذي عرف طريقه إلى الشام، فيما الشام بلد الحجر أصلاً وأساساً(١).

فارس وروما وبيزنطة

الحقيقة الواضحة التي ينبغي التذكير بها دائماً، أن الانساق الحضرية تتبادل التأثير وأن ليس هناك نسق مدني بحت. فهل انتظام المخطط ظاهرة شرقية أم ظاهرة هلينية، أو على الأقرب مجرد خاصية لكل مدينة تنشأ دفعة واحدة؟ سؤالان ينبغي طرحهما قبل أن تصبح الكوفة إمّا حاضرة شرقية وإما حاضرة هلينية. نجد بمصر القديمة مخططات مشبكة فيها شوارع رئيسة تقطعها شوارع ثانوية. ومن الممكن أن هذا الرسم هاجر إلى الشام، وتواجد مع رسوم أخرى، واستمر في النشاط بمكان آخر، ثم رجع إلى مصادره، بعد أن دخله التغيير. ومن الوجهة المعمارية، «إذا كانت فكرة الـ Polis استمدت شيئاً من تجمع الدور حول القصور المسّينية»(٢)، فلعل انتظامها اللاحق صدر عن اتصالات بعالم الأناضول أجرتها اليونان. لكنّ أثينا مثل روما، احتفظت بتشكل متراكم فوضوي استمدته من أصولها(٣). وهو يتميز من مظهر الحواضر الهلينية التي تغذت من مهد المؤثرات الأناضولية.

فمن المناسب ألا نبالغ في عمل هيبوداموس الرائد الذي لم يعمل إلا على استكمال تقليد معماري وجده في المكان نفسه، حتى في عمله الممتاز الذي هو Priène(٤). ومما يلفت النظر أن الأغريق والرومان لم يبنوا مدنهم النموذجية إلا في المستعمرات، تلك الحواضر المنتظمة المنسقة(٥). ذلك إما لأنهم تمكنوا في الخارج من استيعاب أسهل للتقاليد الأجنبية، وإما لأن صورة المعسكر كانت عالقة بهم فيما يخص الرومان، وإما لأن كل خلق جديد

---

(١) *The Cambridge*.... VI, pp. 558ff.

(٢) Luigi Paretti, *History of Mankind*, II,1, p.177.

(٣) Mumford, p.258.

(٤) Léon Homo, *Ouvr.cit.*, p.29؛ يرى أرسطو أن هيبوداموس هو الذي أبدع تقسيم المدن. Aristote, *Politique*, II, chap.8

(٥) *Ibid.*, pp.26ff.

يخضع لعقلانية هندسية. وتنطبق هذه الدوافع الثلاثة بصورة فريدة على العرب الذين خرجوا من بلادهم وبنوا الكوفة الأولى: التهيؤ للتقبل، وصورة المعسكر (لا بالمعنى الذي جعل المعسكر يتحول من ذاته إلى مدينة، كما رأينا ذلك)، وجدة الإنشاء. لم يكن مخططوهم يشعرون أنهم كانوا يصنعون البابلي الجديد والهليني والفارسي والروماني، لكنهم غرفوا، غير واعين، من تراث أفكار دون أن يكون لهم تصور مرئي واضح. ولربما يتم استيقاظ الجانب الأكثر مسخاً من الماضي ويتم رجوع العتيق إلى الوجود، حين يخلق الجديد إذ هي فرصة لا تعوض بالنسبة إليه، ليرجع بقوة. وهكذا حدث وثوب فوق العصور الساسانية في اتجاه بابل وربما في اتجاه الهلينية، وقد امتزجتا امتزاجاً مبهماً ضمن تراث مشترك. هكذا فعل الرومان الذين خطوا مدنهم بالمحراث تخطيطاً شعائرياً[1]، إذ كانوا يرددون دون علم به، تقليداً أتروسكياً نابعاً من أعماق الجذور الشرقية لهذا الشعب[2]. فمن الممكن أن احتفظت الجزيرة العربية بفضل اتصالها بالشرق بمحاولات عتيقة تخلى الشرق نفسه عنها، وذلك بالضبط لوضعيتها الهامشية عنه.

إن الفرس والرومان شعبان وريثان. لقد اعتمدا أصلاً نماذج مهيئة في بوتقة الحضارات التي خضعت لهما، لكن دون أن يخلو ذلك من زاد أصيل. من هنا انتشار هذه النماذج انتشارا ممتازاً، ومن هنا حدثت تركيبات وانحرافات. لكن لم يجر اللحاق بالركب أبداً. حين صمم الفرس القاهندز - يعني القلعة المركزية المحصنة - وأبدعوا فيها، فقد توسعوا بذلك في النموذج العتيق الأشوري - البابلي - الجديد في السوس كما في همذان، وفي اصطخر كما في بابل التي جددوا بناءها، لكنهم عدلوا في طيسفون وفي درابجرد عن الشكل المربع لصالح الشكل المستدير المستمد من إرثهم بالذات، أو من ارث «الأورارتو»، أو لعل الأمر تعلق برجوع النمط المصري أو الشامي الأناضولي. وكذلك الرومان فإنهم روجوا في الشرق نموذج المدينة الهلينية التي صارت مثالهم الأعلى[3]. لكنهم لم يوفقوا أبداً بأن يجعلوا من روما حاضرة مكتملة نظيفة مضاءة[4] متسقة، كما كانت أنطاكية. إن انتظام المدن الرومانية خارج إيطاليا مقتبس من التقليد الهلينستي في الشرق، ومن التقليد الأتروسكي في العالم الغربي. وعلى هذا النحو لم يقم الفرس والرومان كل في ميدانه بعمل ابتكاري

---

(١) Mumford, p.267.

(٢) Léon Homo, p.24؛ ويرى ارنست بلوخ أن المعمار الروماني أخذ عن الأتروسك الصيغة الهندسية الكوسمية.. وبعد قرن من Vitruve رجع المعمار الروماني إلى التراث الهندسي الكوسمي للأتروسك؛ Ernest Bloch, *Ouvr. cit.*, p.341.

(٣) Mumford, pp.256ff.

(٤) Léon Homo, p.582.

أساسي، بل كان عملهم تركيبياً وبصورة ما عملاً تشويهياً للنموذجين الأصليين الشرقي والهلينستي.

لكن ينبغي الاعتراف أنه لم يقع في الوضع الروماني، إلا نادراً، فرض مخطط السكك من كاردو (Cardo) وديكومانوس (Decumanus) فوق المدينة الهلينية مع المسخ الذي يشوّه وجهها. كانت المدينة الرومانية في أنطاكية كما في الإسكندرية، بخاصياتها وتسمياتها المحددة، تقع إلى جانب المدينة الهلينستية دون المساس بها(١). أما بأعلى بلاد الرافدين وهي منطقة حدود وساحة للقتال فإنا نلحظ وقوع تخريبات تتلوها إنشاءات على الأسلوب الروماني. فهل أن التصور الروماني للمدينة بصفتها شكلاً جسدياً سما هنا وهناك إلى مرتبة النموذج القادر على أن يعتمد على نفسه وينتشر خارج الامبراطورية؟ مثلاً في بلاد بابل، وبصورة أوسع في الامبراطورية البارثية؟ ليس في هذا السؤال تمويه كما يظهر لأول وهلة، نظراً للقرب الزمني، ولأن الشحناء بين امبراطوريتين لا تستثني المبادلات الحضارية (مثلاً: الحمامات التي اقتبسها العرب عن الساسانيين الذين اقتبسوها بدورهم عن العالم الروماني البيزنطي في رأي وليام مارسي)(٢). ولا ننسَ أن الحيرة التي يسرَّ طابعها العربي انتقال المؤثرات الخارجية إلى الكوفة، لم تكن مرآة للحضارة الفارسية فحسب، بل انخرطت ضمن خط عربي اتصالي امتد حتى الشام عند الغساسنة، وهذا الخط كانت التسربات الرومانية البيزنطية فيه أكثر أهمية من المفعول الساساني ذاته، مما أدى إلى عملية تنصيرية قوية في الحيرة ذاتها.

لا يمكن رد التأثير الروماني في الكوفة إلى المظهر الشعائري للتخطيط، رغم ما هنالك من تشابه في الشكل، لأن مصدر هذه التشابهات مورده عندئذ الارث المشترك الغابر، ارث الشرق القديم الذي نقلته التقاليد الأتروسكية إلى الرومان، بل بالأحرى يمكن ردّه إلى المعمار. فإذا وافقنا سيفاً على أن الصورة الهندسية المعمارية الأولى للمسجد كانت قائمة منذ البداية، فمن المهم أن ننتبه إلى ما قاله في هذا الموضوع. لقد تحدث عن أعمدة جلبت إمّا من الأهواز وإمّا من الحيرة، واصفاً بالخصوص سقف قاعة الصلاة الذي شبهه بسقف «الكنائس الرومية»(٣). لا شك إنه يمكن تسفيه هذه التوضيحات وردّها إلى عصر لاحق شهد استيعاباً أفضل لكلية الارث الشرقي من جانب العرب، وبذلك تتأخر القضية نصف

---

(١) Meulot, *Le monde et son histoire*, I. راجع خارطة أنطاكية.

(٢) *Articles et Conférences*, p.66.

(٣) الطبري، ج٤، ص ٤٥.

قرن. لكن تثير هذه الروايات وتوحي بإمكانية جديرة بالنظر لم يتردد كرسويل[1] في درسها، وقد سبقه إلى ذلك لامنس[2] الذي يرى أن المقصود به عند سيف تصاوير جدارية وفسيفساء ذهبية على الطريقة البيزنطية. ويوافق كرسويل على وجود التأثير البيزنطي لكن بشكل آخر غير شكل الفسيفساء على الحجر. ينبغي البحث عن النموذج حسب رأيه، في الصنف الكنسي من كنائس شمال الشام تلك التي استعمل فيها الخشب كمادة لبناء السقوف المستقيمة المستطيلة لا السقوف المقببة أو التي كانت على شكل القبة. ولعل هذا النمط المعماري يكون انتشر في شمال بلاد الرافدين عند قدوم الجيوش البيزنطية. ثم أورد كرسويل كمثال، الرصافة التي يعود تاريخ الكنيسة الجامعة فيها إلى القرن السادس م، وسرجيوبوليس، وحلبية. لكن لا يكشف لنا كيف انتصر هذا النموذج في بلاد بابل، ولا كيف أصبحت هذه البلاد تابعة، من بعض الوجوه على الأقل للعمارة الشامية، كما جرى في الجزيرة. ويكون سقف الظلّة حسب رأيه من خشب، أقيم مباشرة على الاعمدة وبدون أقواس، ولم يكن شكله مقبباً. وهذا يستثني التفكير في النموذج الخاص ببلاد الرافدين المتضمن لسقف من لبن مخلوط بالقصب، كما في نينوى وخورسباد، وكما أيدته المصادر بالنسبة للبصرة الأولية. فهل أن المؤثرات الرومانية أو بالأحرى البيزنطية توقفت في مستوى الحيرة والكوفة، ولم تتقدم أبعد من ذلك؟ في الحقيقة، حتى لو شككنا في واقع هندسة معمارية جديدة بهذا الإسم في الكوفة المبكرة، فإن مصادرنا تؤكد على وجود تأثير بيزنطي معين يخص الكوفة، وهي صامتة عن البصرة. وبخلاف ذلك، كانت صريحة إذْ نسبت للبصرة مسجداً، إمّا من النمط الذي قد ينتسب إلى بلاد الرافدين[3]، وإمّا من النمط العربي البدائي، وهي تسكت عن هذا في خصوص الكوفة. ومهما كان الأمر، وإذا صح أن وجود تيار من المبادلات بين بلاد بابل والشام يفرض نفسه على انتباهنا، فإن المؤثرات الرومانية - البيزنطية التي لا شك في حضورها[4]، بقيت ضعيفة في تعابيرها المباشرة. وأكثر أهمية من هذا دون شك الدور الذي قامت به هذه المؤثرات في نشر المثال الهلينستي أو في المحافظة على مثاليته كمرجع معماري، لكن أيضاً وبالخصوص في نشر مفهوم المدينة المنشأة

---

(١) *Ouvr.cit.*, I, pp.17-18.

(٢) Lammens, «Ziad Ibn Abihi, vice-roi de L'Irak», *Rivista degli studi Orienali*, IV, 1912, pp.247-248.

(٣) «بنى أبو موسى الأشعري المسجد ودار الامارة باللبن والطين وغطاهما بالقصب»: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٤٢. ها نحن قربنا كثيراً من نموذج نينوى وخرسباد الذي أشار إليه كرسويل. على إننا لا نجد ذلك بالنسبة للكوفة عند البلاذري ولا عند الطبري.

(٤) الظاهر أن ريح الشمال تصل إلى بلاد بابل لكنها لا تبلغ الجنوب.

باعتبارها المكان الأقدر على دعم أية هيمنة امبراطورية جديدة.

لا ريب أنه يوجد من الجانب الفارسي تلك الإرادية التمصيرية[1]، التي ورثها العرب والتي كانت من الأسباب الجذرية لإنشاء الكوفة. لكن الكوفة ـ وهذا الفارق مع بغداد ـ لم ترد أن تكون حاضرة امبراطورية متجهة بكل قواها إلى التعبير عن العظمة الملكية لنفسها، كما جرى الأمر بالنسبة للسوس واصطخر والمدائن. وإنما خضعت مثل المدينة الفارسية إلى سلطة مركزية ممتدة على تراب شاسع، وأقحمت في شبكة إدارية لم تتغير، هي شبكة الكُوَر الساسانية. إن هذا المظهر الذي اتخذته الكوفة كمتصرفة في تراب محدود[2]، يمدد الواقع الفارسي ويناقض واقع الاستقلال النسبي الذي كانت عليه الحاضرة الهلينستية.

وبعد، فلا أسلوب التخطيط، ولا بنية الفضاء الكوفي الأول يبدوان مقتبسين شيئاً من الأرث الفارسي. مع أن ما كان أكثر وضوحاً من غيره هو الحضور الساساني. كان أشد تأكيداً في النصف الشرقي من العراق ـ سواد دجلة أو إقليم ديالا[3]، لكنه بارز أيضاً في منطقة الفرات، عبر أسماء المكان ومسح الأراضي وشبكة القنوات، ومن خلال وجود إنشاء فارسي مثل الأنبار[4]. من الممكن ومن الواجب قطعاً أن نقبل بوجود جانب كبير من الوساطة الفارسية في نقل التصورات البابلية والمقاربات الهلينستية للظاهرة المدنية، لا أن نقبل المسعى الفارسي الصرف لهندسة المجالات. لقد كانت الكوفة مربعة الشكل فعلاً، غير مستديرة مثل درابجرد وأصفهان، وحتى المدائن التي عرفها العرب وحدها في ذلك العصر. لكن بخصوص ما اقتبس من الفرس في المعمار فإن ذلك يظهر فوراً للعيان. فقد ذكر أن الأحجار جلبت من الأهواز (خوزستان) لنحتها أعمدة عالية (إن هذه الظاهرة فارسية صرف تعود إلى عصر الاخمينيين)[5]، وأنها حملت سقفاً مسطحاً، دون تقويس، وهذا يسترعي الانتباه، ففرض على كرسويل صورة آپادانا Apadana. وكان المهندسون من الفرس وقد ورد إسم رئيسهم، وهو من همدان اسمه روزبه بن بزرجمهر، وقيل أيضاً انه صمم المركّب الموحد للمسجد والقصر. صحيح أن سيفاً نفسه لم يقبل خبر نقل الأعمدة من

---

(١) راجع حول هذا المظهر من السياسة الساسانية: Pigulevskaja, p.186ff.

(٢) Aubin, «Eléments pour l'étude des agglomérations Urbain dans L'Iran médiéval» in *The Islamic City*, pp.68-71. لكن تأثير الكوفة كان شاسعاً فيما يتعلق بالعمليات العسكرية.

(٣) R. McAdams. *Lands Behind Baghdad; a History of settlement on the Diyala Plains*, Chicago, 1965.

(٤) كانت منطقة الكوفة منطقة الثلاث بهقباذات التي نظمها أو أعاد تنظيمها الساسانيون.

(٥) رجع إليها الساسانيون: Schlumberger, *Ouvr.cit.*, pp.567ff.

الأهواز، إلا بخصوص إمارة زياد. لكن مشاركة «بنائين من بنائي فارس»[١]، كما يقول حرفياً، أمر مؤكد بالنسبة للعصر الأوّلي. أما لاحقاً وفي العصر الأموي، فسيظهر الإيوان[٢] البارثي - الساساني كواحد من العناصر الأساسية لبنية القصر، وهو ما أيدته الحفريات بكل وضوح.

(١) الطبري، ج٤، ص ٤٥: استخدم المرمر في المرحلة الأولى لا الحجر. هذا طابع هليني سيمّحي في مرحلة البناء النهائية بخاصية فارسية صرف. فهل أن الطابع الفارسي ظاهرة متأخرة؟

(٢) راجع Schlumberger, p.569، بخصوص الايوان، وهو إنشاء بارثي اقتبسه الساسانيون. ولاحظ المؤلف نفسه أن المعمار المقبب الذي عوض السقف المسطح، ابدعه البارث وأثراه الساسانيون. كما أن التغليف بالجبس المنحوت الذي صار «ستارة معمارية حقيقية» سوف يستخدم في قصر الكوفة. إلاّ أن شلومبرغر يلح على الطابع الهليني القوي جداً، باستثناء النقاط المذكورة، على فن البارث. وهو يلح أيضاً على مظهر «النهضة» في الفن الساساني الذي يعود هكذا إلى الأصل الأخميني، وخلف ذلك إلى الأصل الشرقي لبلاد الرافدين. فهل أن إرث الشرق الذي تلقاه الاسلام مرّ عبر النهضة الساسانية؟

- ١٤ -
قوّة الماضي:
الارث العربي القديم

يبدو لنا أمراً بديهياً أن كل ما من شأنه أن يشكل تكوُّن الحضارة العربية الإسلامية وهياكلها، ينبغي أن يعتمد قطبين، على الأقل خلال الأربعة أو الخمسة قرون الأولى من فترة الانطلاق. أما القطب الأول فهو العالم الشرقي الخارجي حيث تطورت هذه الحضارة، وأما القطب الثاني فهو عالم العروبة الداخلي الذي منه تحدرت. لقد سبق أن ألمحنا إلى النقطة الأولى، وها نحن نشرع الآن في فحص الموضوع الثاني.

لقد نزعت لفترة طويلة الرؤية التقليدية الأوروبية والإسلامية معاً إلى تصور الحضارة العربية ـ والمدنية أيضاً ـ وكأنها منبثقة مباشرة ومكتملة من بلاد العرب لكي تفرض وجودها على العالم الشرقي، في حين أن المعرفة الأوروبية، وبدرجة أقل الصورة الذاتية التي كوّنها العرب المحدثون، قد تطوّرت منذ حوالى قرن في اتجاه يبرز المؤثرات الخارجية غير العربية، سواء كانت نصرانية في المجال الديني، أم فارسية في المجال الحضاري، أم هلينية وهندية في المجال الثقافي. وعلى هذا النحو تـمّ تفضيل عمل المحيط على عمل المعطى الوراثي. ولعلّه ينبغي اعتبار هذا الأمر عزماً على التقليل من الحصيلة العربية الأهلية أو على حل الغيرية العربية الإسلامية، من وجهة النظر الأوروبية. أما من الوجهة العربية الحديثة، حيث يبقى التصوّر القديم مهيمناً لا محالة، عند ظهور اغراء الاتجاه الإيراني والبابلي والهليني، فذلك دون شك استجابة لرغبة ترمي إلى إخراج الكيان العربي الإسلامي من عزلته التاريخية وإنقاذه من «الهمجية» ليُصار إلى ربطه بتقاليد ثقافية كبرى، وتبرير وجوده، ومنحه عزة. إنما لم يمر وقت طويل على اتجاه البحث التاريخي من جديد وبمنظورات مغايرة تماماً، في طريق تَعْمَلُ على تحليل الواقع العربي الجاهلي بغية مزيد من الإحاطة بتولد الإسلام على الصعيد الديني كما على صعيد مؤسسات الاجتماع والدولة. ألم يكن الرسول قرشياً نشأ وترعرع في بيئة مكة قبل كل شيء؟ ألم تكن الدولة بالمدينة دولة عربية قبل كل شيء؟ وهل

كانت بلاد العرب تتصف بالفوضى كما قيل؟ ألم يكن فيها مدن، وتيارات للمبادلات، ومؤسسات وسلوك أخلاقي (Ethos)، وديانة موحدة أو تكاد؟ وحين تشكلت بعد ذلك الحضارة العربية الإسلامية الكلاسيكية، فهل كان كبار المؤسسين الثقافيين حقاً من الموالي والعجم قبل غيرهم، وأن الثورة العباسية كانت من فعل فرس خراسان؟ لقد تأثر البحث من الجانب العربي قطعاً بتيار القومية. ولما تقنع بقناع الايديولوجيا، فقد نزع إلى تيار عروبي تاريخي شمولي، حين أراد مثلاً تعريب تاريخ الشرق كافة منذ البداية. أما من الجانب الغربي فكان الأمر يعني فتح اتجاهات جديدة للبحث، جرى إهمالها لحدئذ، أو صرفها حكم مسبق معاد للعرب. ولذا فهي اتجاهات تمر عن طريق رد الاعتبار للعالم العربي القديم، لكن ذلك يدل بالخصوص على شاغل العلمية أكثر ما يكون حدة ووضوحاً. وكأن هذا الأمر بمثابة العودة إلى بديهية الأشياء وبساطتها. وتبرز هذه البديهية بقوة كبيرة في كل ما يمس الإسلام الأول: أي تولد الرسالة، وبناء الدولة في المدينة، والهياكل القبلية، والنزاعات السياسية التي وجدت في القرن الأول الهجري. أما بخصوص بنية المدن العربية خارج بلاد العرب ويعني ذلك عنصراً من عناصر الحضارة المادية والإنسانية أيضاً، فإن النّسب يُردّ إلى المهد الأصلي، ويمكن أن يظهر أكثر إبهاماً وأكثر عرضة للتقييم، لكنه لا محالة نسب ثابت مدنياً. كان للعرب مدن في شبه الجزيرة منذ القديم، وبالأخص قبيل ظهور الإسلام: كانت بعض هذه المدن قد اندثرت مع العرب الأوائل، وكانت هناك مدن باليمن والحجاز والمدن الثغور في الشمال والشرق. هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت هذه المدن تظهر بمظهر ثانوي في الوجود العربي - وهو مشكل مطروح فعلاً - إلى جانب الظاهرة الرعوية مثلاً. في حين أن الدولة والحضارة والقوة كانت متمركزة في بلاد الرافدين بالمدينة. أما من حيث حجم النمو والإشعاع فبالإمكان مقارنة الكوفة والبصرة وبغداد ببابل ونينوى والمدائن، أكثر من أن تقارن بصنعاء ومكة والمدينة. لكن هل يقضي الحجم على الشكل وأكثر من ذلك على الجوهر الثقافي، ولاسيما في المرحلة الأولى حيث لم تنفصم الوشيجة بالوطن الأم ولم يتسن امتصاص النماذج الأجنبية سريعاً. لقد أشرنا إلى فرضية بقاء المعسكر البدوي ضمن بنية قطائع العشائر السكنية، بمعنى تأثير خاصية للتجمع غير المدني على بنية مدنية. وهو دليل على أهمية الخلفية العربية كافة، لا المدنية فحسب، لمزيد من ادراك تولد الكوفة. فإذا كان هنا مبرر وفائدة في إبراز العناصر الأساسية لميراث الشرق بصفته بيئة استقبلت الكوفة، فلا أقل من البحث عما يمكن أن تكون العوالم العربية المختلفة المتوالية أو المتجانبة، قدمته في مجال التقاليد المدنية أو طرائق التجمعات البشرية، كمعنى نوعي للمجال، وكتجربة أو مؤسسات، حتى من وجهة المنطق الثقافي الأكثر انغماساً، في الأولى زمنياً من الحواضر العربية الكبرى.

الزّمانُ الكوني، الزّمان الخرافي والزّمان التاريخي

مع الإسلام، كان ظهورُ التاريخية لدى العرب. لا بمعنى أنهم راحوا يصنعون واقعاً تاريخياً جديداً تكرّسه تورخة جديدة مطلقة ـ تورخة الهجرة ـ وحسب، بل أيضاً بمعنى إقدامهم على زلزلة خيال الماضي التاريخي، خيال ما يمكن استذكاره وما لا يمكن استذكاره على حدٍ سواء. ففي المقام الأول، أدخلَ القرآن الخطابَ التاريخي، لأنّه شاء أن يكون نذيراً وبشيراً. كما أتى، وعلى مستوى أرفع، بنظرة زمانية كونيّة، لأنـه شاء أن يكـون تفسيراً لصيرورة الخلق تحت عين الله ورعايته. وبعد خمسين عاماً، سار التراثُ الإخباريّ العربيّ على الطريق التي رسمها القرآن، التي كانت بلا ريب، طريق الذّاكرة القَبَليَّة وما كان بين القبائل، فأنتجَ تاريخاً أسطورياً كلّما تعلّق الأمر بالأزمنة الخالية، بالزمان الأصليّ.

إن التراث التاريخي الحديث، مع ثغراته الكبيرة، يمكنه وحدَه الادّعاء بامتلاك زمنٍ تاريخي واقعي، خاص بالعرب القدامى. زدْ على ذلك أنَّ الزمان الكوني والزمان الخرافي هما اللذان يسودان على الخطاب القرآني وعلى خطاب التراث والسنَّة معاً. الأمر الذي لا يستبعد التموضع في الأفق التاريخي، وهو شيء آخر. فقد حاول التراث العربي، من باب النسابة، أنْ يهيمن على الزّمن الغابر وأن يكتشف مبدأً منظّماً للواقع المنصرم. بينما حاول الخطابُ القرآني، من طريق الوحي والتنزيل، الإلمامَ بالتاريخ العربي، تاريخ المدن المدمَّرة والممالك الزائلة، ما خلا مكّة، وهي مدينة أخرى، تتصل بالمستوى العالمي والكوني. إلاّ أن التراث العربي أضفى بُناه الجينيالوجية والخرافيّة على المعطى القرآني الذي طوّر لاحقاً كوسمولوجيتّه الخاصة بمكّة تطويراً كبيراً. فهنا وهناك، تدهشنا رؤية الماضي وتفاجئنا بتماسكها وربما لهذا السبب غذّت وأرضت أجيالاً بكاملها. وربما أيضاً، بلا ريب، لأنَّ الخرافة قُرِّبت كثيراً من التاريخي والعقلاني، فكان ترميزها ضعيفاً، بحيث ظهرت بصعوبة في مظهر الخرافة بالمعنى الدقيق، الخرافة المتمفصلة بنيوياً، وبدلاً من ذلك ظهرت كأنها لغة تاريخية ذات تلوين خرافي.

هذه الملاحظات صحيحة بنحوٍ خاص بالنسبة إلى الماضي العربي السحيق، ذلك الذي يرقى إلى قرنين أو ثلاثة قرون قبل الإسلام، ولنقُلْ على سبيل الاستدلال المعياري الخارجي، إلى ما قبل عهد سابور الأول (٣٢٥) الذي أنشأ الأنبار وقمع الحركات العربية الحدوديّة. وأبعد من ذلك، نشعر حقاً، في الواقع، أنَّ الزّمان يفقد عمقه الواقعي بالنسبة إلى تراث الإخباريين. وأنه ينحلّ في الخرافي ويتمسّك بالمقومات القرآنيّة، محاولاً بناء ذاته من خلال النسابة (الجينيالوجيا) وبها. إن التراث العربي يمارقُ في ظلام دامس على صعيد مداره الثقافي الخاص، لحقباتٍ تبدو لنا مغرقة في القـدم، ونعرفها تماماً في حقول تاريخية

أخرى، مثل التاريخ الروماني أو الهلنيستي. ومع ذلك، كان العرب يعلمون، من خارج التاريخ، أنّ هناك ماضياً سحيقاً لا تظهر آثاره فقط في النص وهو ذاته وثيقة من القرن السابع، بل تظهر أيضاً في الذاكرة الجماعيّة لأن الابتكار لا يمكنه أن يكون مرتجلاً. زدْ على ذلك أنّ تلك الآثار كانت منظورة في آثار البتراء وتدمر ومدن اليمن.

من المؤكد أن العرب، في فترة التنزيل، كانوا مهيّأين للدخول في التاريخ الكبير، وأن الذاكرة الجماعية في لحظةٍ ما كانت تعلم أو تعتقد أنه كان هناك ماضٍ قديم لكنّه مختلف، وكانت تتعلّق بأسماء شعوب أو مدن ـ عاد، ثمود، إرم، عمالقة، جرهم، طسم، جديس ـ ربما كانت مجرّد أسطورة، ولكنها لم تكن بلا أساس تاريخي، فجاء القرآنُ وتورخها في كل حال[1]. هذه الأسماء نجدها في الشعر العربي قبل الإسلام، لدى الشعراء المتأخرين كالأعشى أو أمية بن أبي الصّلت[2]. وبوجه خاص، كان مناهضو القرآن، بشهادة القرآن ذاته، يميلون إلى الاعتراف بهم، بمعزل عن تصنيفهم في خانة «أساطير الأوّلين»[3]. وإن ما كان العرب يجهلونه هو تاريخ بني إسرائيل، الأجنبي، الغريب عنهم. في المقابل، كان التاريخ الآخر مألوفاً لديهم، وكان ينهل من المنهل الخرافي ـ التاريخي العربي الصميم. عملياً، كان ازدواج الوعي العربي القديم يترجم في آنٍ الطابع التاريخي واللاتاريخي للواقع العربي. وكان هذا البحث عن الماضي المحلي المحض، في القرآن والشعر والتراث الشفهي، يشهد على البحث عن التواصل، ولكنْ مما يلاحظ بشكل مرموق هو أن التراث الإخباري كان يطرح تفاصيلاً غريباً في مجرى التاريخي العربي.

لئن كان القرآنُ يُخضِع الرؤيا القياميّة للتاريخ العربي ـ رؤية المدن البائدة والشعوب المنقرضة من غضب الله ـ للعبرة، ولئن كان يحصر هذا التاريخ في سلسلة الأنبياء المُنكرين، فإنه يربطه أيضاً بالجذع المشترك، جذع ابراهيم ونوح وآدم، وتالياً يعاود وضعه في الصيرورة البشرية والكونية، لأن التورخة تستهدف الأصول. والحال، فإنها تخبرنا أن العرب الأولين، البائدة، هم الوحيدون الذين كانوا من العاربة، من العرب الحقيقيين، وأن الآخرين، المنحدرين من صلب عدنان بوجه خاص، وكذلك من قحطان، حسب البعض، ربما كانوا من العرب المستعربة[4]، أي من العرب غير الأصلاء جذرياً والذين لم

---

(١) القرآن ٧، ٧١ ـ ٧٧؛ ٩، ٦٤ ـ ٦٧؛ ١٥، ٨٠ ـ ٨٦؛ ٥٤، ٢٣ ـ ٣١؛ السيرة، ص ٦٨ ـ ٧١؛ المسعودي، مروج، ج ٢، ص ١٥٣ ـ ١٥٥، ١٥٦ ـ ١٦٠، ١٦١ ـ ١٧٨؛ الثعالبي، قصص الأنبياء، القاهرة ١٢٩٠ هـ، ص ٥٨ وما بعدها.

(٢) Art. «Thamud», *E.I/I.* : الأسماء المذكورة هي أسماء عاد وثمود.

(٣) القرآن ٨٣، ١٣.

(٤) المسعودي، مروج، ج ٢، ص ١٦٣ ـ ١٦٧ ؛ ابن حزم، جمهرة، ص ٨ ـ ٩، لا يتحدث إلّا عن العاربة؛ =

يصبحوا عرباً إلاّ بالتمثّل اللغوي. يعلّق متخصّص[1] ليس «لهذا معنى يذكر»، ليضيف على الفور: ربما كان الأوّلون هم المستوطنين، وكان الآخرون مهاجرين. وكان متخصّصان آخران، أ. غروهمان و و. كاسكل، قد أكبّا على أصول العرب ما بين الشام وبلاد الرافدين، في بلاد «Aribi»، فتحدّثا هما أيضاً عن هجرة إلى داخل الجزيرة العربية اعتباراً من القرن الرابع ق.م.[2] هنا نرى الزّمن التاريخي يتّصل بالزمن الخرافي ونرى التاريخ الواقعي أو العقلاني منسوخاً عن التاريخ الأسطوري، الخرافي أو التراثي باختصار.

السابقون للعرب والعرب الأوائل والعرب

الواقع أن ما اكتشفته الرواية التاريخية العربية المدونة، هي فكرة «العرب الأوائل»، لكنها شوهتها وعكست معناها، لأنها اقتصرت على الميدان اللغوي. لا شك أن ما رواه القرآن من أن إسماعيل كان جد العرب[3] مع أنه لم يكن هو نفسه عربياً، وكان يتكلم السريانية في البداية، وأنه قد تعرب لغوياً وتزوج في الوقت نفسه امرأة من جُرهم[4] كانوا من العرب الحقيقيين البائدة، أو من العرب العاربة حسب الرواية. لا شك أن ذلك ساعد الرواية التاريخية، وبذلك فهي قد شرعت في موضعة الماضي المتمثلة في الختن المؤسس للجديد والناقل للقديم بمعنى الوسيط[5]. لكن قصة اسماعيل تبلور الذكرى أو الشعور بعروبتين جرى فك رموزهما عكسياً. ويمكننا الافتراض أن العرب العاربة كانوا فعلاً السكان الأصليين الذين سبقوا العرب، وقد عرَّفهم معيار ترابي هو معيار السكان الأوائل لشبه الجزيرة. كان العرب المستعربة يمثلون القادمين الجدد[6] أي المهاجرين، الغرباء عن أرض شبه الجزيرة لكنهم كانوا يتحكمون فعلاً في العناصر الثلاثة التي حددت العروبة على

= ابن خلدون، تاريخ، ط. بولاق، ج ٢، ص ١٥ - ١٦، يعرض تشكيلة مختلفة قليلاً. لا نجد أي ذكر لها عند المؤرخين الأوائل: ابن اسحق، ابن سعد، الطبري. يتعلق الأمر بتصوّر النّسابين، كما يقول ابن حزم.

(١) Art. «Djazira al-arab», *E.I./2.*

(٢) Art. «Arab», *E.I./2.*

(٣) القرآن سورة «البقرة»، ١٢٤ - ١٢٩. لكن مفهوم الجد غير صريح هنا، خلافاً لمفهوم مؤسس «البيت».

(٤) السيرة، ص٥، ٥٠، ٥١؛ المروج، ج٢، ص ١٦١ - ١٦٣؛ الأزرقي أخبار مكة، ص ٥٧ وما بعدها؛ ابن سعد، ج١، ص ٥١ - ٥٢.

(٥) لقد اعتبرت جرهم أنهم ورثة اسماعيل. وخلافاً لذلك، فإن قصيّ بالنسبة لمكة والدّمون بالنسبة للطائف أصبحا وريثين لكونهما من الأنساب.

(٦) W. Caskel - A.Grohman, art. «Arab», *E.I./2.* «Djazirat al-Arab», *E.I./2.* أما فون غرونباوم فإنه يلمح إلى الموضوع تلميحاً خاطفاً جداً. Von Grunebaum, «The Arab [illegible] ty before Islam..», *Arabica*, I, 1963, p.9.

الدوام، الا وهي العرق واللغة وحياة الترحال، هم بالتأكيد الذين عربوا شبه الجزيرة. لقد ترجمت الرواية العربية عن الغربة الترابية بمفهوم لغوي، وبعكس المعطيات جعلت من السابقين للعرب عرباً أوائل، وأحسن من ذلك لقد جعلت منهم العرب الحقيقيين الماسكين باللغة في حين أصبح العرب أنفسهم برابرة تلقوا هذه اللغة من الأوائل بوحي إلهي[1] (عن طريق اسماعيل) أو بالتلقين مع وجود فكرة خفية توحي بالانفصام العرقي. ولذا فبما أن السكان الأصليين كانوا السكان الأولين لما سوف يصبح «أرض العرب» بصورة ممتازة بمعنى إفرازها الأصيل، فإن القادمين الجدد من العرب منحوهم العروبة الحقة، عروبة العرق واللغة، وبذلك فقد قاموا بنقل الأصالة الترابية إلى الأصالة اللغوية مزيفين هويتهم العربية ذاتها التي كانت حقيقية وحدها. ولا يمكن في التحليل الأخير اعتبار العرب العاربة من العرب الأوائل، إلا إذا قبلنا بوجود هجرة أولى، ذلك أن هذه التسمية ينبغي أن تنطبق على العرب الأولين أو على المهاجرين وأجدادهم وأقاربهم القادمين من الخارج أي من الشمال حيث وجدت آثار لذلك بالنقوش المسمارية.

لقد ذكر علماء الأنساب أن مخلفات السابقين للعرب أي العاربة انصهرت في العرب الأوائل المستعربة[2]. فقد تعرّبوا وفقدوا في الوقت نفسه هويتهم الجماعية وبالصورة نفسها استثنى أولئك النسابون قحطان أقدم جد لليمنيين، واحتفظوا بكهلان جد البدو أي عرب اليمن كعنصر من ذرية اسماعيل[3] ومن العرب المستعربة، لكن يعتبرونه أحياناً من العرب العاربة[4]. وعلى هذا، ففي الإمكان المخاطرة بفرضية مفادها أن اليمنية الأصليين لم يكونوا عرباً عريقين لغوياً وأنه ينبغي اعتبارهم بقايا للسكان الأصليين في شبه الجزيرة[5]، أي من

---

(١) ابن سعد في الطبقات، ج١، ص ٥٠ يقول ان اسماعيل كان أول من تكلم العربية إذ كان القوم يتكلمون العبرية قبل ظهور الأنبياء؛ راجع المروج، ج٢، ص١٩٣ - ١٩٤. ويرى ابن خلدون، التاريخ، ج٢، ص ٤٦ - ٤٧، أن قحطان كان أول من تكلم نقلاً عن جرهم، وهو يدعو جرهم العرب العاربة أو الجيل الأول، واليمنية المستعربة أو الجيل الثاني، وأبناء اسماعيل الجيل الثالث أو «العرب التابعة للعرب»؛ راجع الأزرقي، ج ١، ص ٨٦.

(٢) المروج، ج٢، ص ١٦٧.

(٣) جمهرة، ص ٧.

(٤) رأي أبداه مؤلف مادة «جزيرة العرب»، في: *E.I./2.*

(٥) يقول فون غرونباوم: «لما يشعر عرب الشمال في العصر الجاهلي بتمييزهم عن عرب الجنوب، فإن هذا الشعور يعكس الفرق الحالي في المسكن واللغة والدين وربما في العرق» *art.cit.*, p.8. لكن إذا أمكن لنا مجاراته في تقدير مفاده أن العرب البائدة يمكن تمثلهم بالسكان الأصليين بمعنى الأهالي [ص ٩ من البحث المذكور] فليس صحيحاً أن الرواية العربية اعتبرتهم بصفة عامة من اليمنية. راجع أيضاً Chelhod, *ouvr.cit.*, I, p.31. أما عن الحضور البشري في العصر الحجري القديم والحديث، فراجع بحث Roger de Bayle des Hermens في Chelhod, *ouvr. cit.*, p.185ff.

السابقين للعرب، الذين بقوا في عين المكان في حمى تضاريس الجبال، أو أنهم دحروا إلى الزاوية الجنوبية الغربية من بلاد العرب. أن لغتهم «الحميرية» أو اليمنية القديمة، مع أنها قريبة من العربية، فهي تختلف عنها[1] كما تختلف تماماً كتابتهم عن الكتابة العربية المشتقة من النبطية أي فعلاً من عالم الشمال، مهد العرب الأوائل. وهناك تفرع ثنائي في النقوش اليمنية، ضمن القبيلة نفسها كقبيلة همدان، يفصل بين الأعمور والعرب، أو بين الهجر والعرب[2]. وإذا كان التمييز الثاني يحيل إلى صنف العيش، فإن التمييز الأول لعله قادر على إدخال معنى عرقي. من المؤكد جداً أن القبائل العربية سلطت ضغطاً منذ وقت طويل وبصورة متزايدة خلال القرنين السابقين للإسلام، وذلك لتعريب اليمن[3] ثقافياً ولغوياً. كما أنه تم بصورة عكسية وعلى صعيد الشعور الانتمائي، طبع هذه القبائل نفسها بالطابع اليمني. إن التاريخ النوعي لليمن، وخصوصيته الحية، وقوة النزاعات التي نشبت مع قيس في العصر الأموي[4]، كل ذلك يعود إلى الماضي البعيد جداً ويمكن تعليله بالفارق العرقي الأصيل. لكن من الصعب الإحتفاظ بهذه الفرضية، نظراً للقرابة اللغوية الدالة على أصل مشترك لكنه بعيد، بمعنى أنه تفريع انطلق من الرحم الشامي المسمى سامياً أو أمرهياً والذي سوف نسميه ع ر ب كما سيأتي بيانه. إن الفارق بين اليمن والعرب ناتج على الأرجح عن تطور طويل منفصل. على أنه من المحتمل أن هناك زاداً أصلياً متبقياً في الجانب الغربي من اليمن، بتلك الأرض المجهولة التي لم تخلف لنا أية نقوش. يعني ذلك أن ما تبقى وجد عند الأمم التي لم تساهم في التاريخ اليمني لكونها مادة بشرية متبقية مسترقة، خاضعة، متوحشة[5]. لا شك أن كل ما سبق ذكره هو من قبيل النقاش النظري حيث أنه لا يستند

---

(١) C. Contini-Rossini, *Chrestomathia arabica meridionalis epigraphia*, Rome, 1931. لكن المعجم الجديد الخاص باليمنية القديمة والعربية الذي نشره محمد الغول يدل على ما بين اللغتين من شديد القرابة.

(٢) الحديثي، **أهل اليمن في صدر الإسلام**، ص ٦٧.

(٣) مذحج وقبائل أخرى، لا همْدان. فقد استقرت قديماً وطبعها الطابع البدوي لحد بعيد. أرادت مذحج طرد الفرس في حين عقدت همْدان حلفاً معهم، وهذا تمايز دال: راجع الرازي، **تاريخ مدينة صنعاء**، ص ٣٧ - ٣٩.

(٤) H.Djait, *art.cit.*, pp. 171-179.

(٥) ياقوت، **المعجم**، ج٥، ص٤٤٢، يحدد مواطن جرهم الأولى في «تهائم اليمن»، ويمكن أن نستنتج أيضاً هذا الأمر من عدد الرقيق الضخم، ومن استرقاق جموع كاملة داخل المجتمع، ومن التمييز بين الفلاحين العاملين والرقيق الذين يشكلون فئة معينة بين السكان حتى ظهور الإسلام. إنه أمر يمكن مقارنته بنظام مدينة اسبارطة العتيقة والكلاسيكية. راجع بهذا الخصوص محمد حميد الله، **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي**، القاهرة، ١٩٥٦، ص ١٥١، حيث ذكر أن «الرقيق» يشكلون فئة متميزة من «العمال». والملاحظ أن ذا الكلاع كان يملك رقيقاً يبلغ عددهم ١٢٠٠٠، راجع **الإصابة**، ج ٣، ص ٤٢٨. ومن البديهي أنه يمكن أن يكون مصدر هذه الظاهرة ناتجاً عن تطور داخلي

إلى أية حجة موثوقة متعلقة بهجرة أجناس ناطقة بالعربية إلى بلاد العرب، فضلاً عن حصول شرح ما قدمته الرواية العربية من معطيات. لكن هذا الأمر يدل على أن المؤرخ الحديث إذا ما افتقد المصادر الأثرية الجادة، فهو يبقى مرتبطاً وحتى تابعاً لـ جهاز التقليدي، سواء توخى موقف القبول السلبي، أو الشك أو التخيل التأويلي. على أننا نؤسس مقولتنا على ثنائية من المفاهيم كثيرة الفعالية، نعني السكان الأصليين والمهاجرين، وهي ثنائية مستنبطة بداية من جملة من الحالات التي استجدت في سياق التاريخ الإنساني.

إذا ما وقعت هجرة للعرب الأوائل إلى شبه الجزيرة، للاستيلاء عليها، إن صح القول، فلا بد أن دخول الإبل(١) إلى المنطقة خلال الألفية الثانية، قد يسر الأمر، ونتج عن ذلك تعمير جديد مكثف، وحتى «ترحيل» إذا ما قبلنا بوجود هجرة في الاتجاه المقابل خلال العصر الحجري الجديد، انطلاقاً من «بلاد العرب» من سلالة الأمم المعروفة بأنها سامية(٢).

لقد ظهر العرب الأوائل في التاريخ خارج شبه الجزيرة سنة ٨٥٣ ق.م من خلال النقوش المسمارية التي ورد فيها أن الـ عـ ـ ر ـ ب ـ ا ـ ا جنديبو جلب ١٠٠٠ من الإبل من بلاد أرب لمقاتلة الأشوريين بمعركة قرقر(٣). وانطلاقاً من هذا التاريخ وعلى امتداد الألفية الأولى، فقد دون علم الأسماء ١٤٦ إسماً مصدرها العرب الأوائل، الأمر الذي يدل على تسرب مهم مستمر إلى بلاد الرافدين. لكن يبدو أن تسعة أسماء فحسب يمكن تصنيفها بلغة العرب الأوائل، بمقتضى أضمن معيار، نعني المعيار الصوتي(٤). انفردت المصادر العربية للرواية التاريخية بنقل أسماء للآلهة، منها أوال وازر(٥)، وقد وجدت تلك الأسماء بين الأسماء الأمورية في بابل بالنسبة لعصر النصف الأول من الألفية الثانية. ويوجد أيضاً إسم مناة الذي يرجع إلى منطقة حرّان. وقد وصف أشخاص عديدون بأنهم: «عـ ـ ر ـ ب ـ ا ـ ا» أو «عـ ـ ر ـ ب ـ ي ـ و»، دون أن يتسموا بأسماء عربية، وذلك يعني من بين ما يعني أنه جرى

---

(١) M.Rodinson, *Mahomet*, p.32; R.W. Bulliet, *The Camel and the Wheel*, *Passim*; J.Chelhod, *op.cit.*, p.28.

(٢) راجع: Caetani, *Annali*, II,2. وقد اقتبس عنه كايتاني. H.Winckler, *Altorientalische Forschungen*, pp.86ff.

(٣) راجع: W.Caskel- A. Grohmann, art «Arab», *E.I/2.*، وكذلك: Ran Zadok, «Arabians in Mesopotamia during the late-Assyrian...», *Z.D.M.G.*, 1981, 131, 1, p.57.

(٤) *Ibid.*, p.81. على أن مؤلف هذا البحث لم يعتبر عربية صرفاً سوى الأسماء التي مصدرها «الجنوب الغربي السامي».

(٥) *Ibid.*, p.50.

استيعابهم وليس ضرورة أنهم كانوا غير عرب من حيث الجنس، لكنهم ينتمون إلى الرحل[1]. على أن العبارة في اللغة الأكادية تحيل إلى مفهوم يخصّ نمط العيش أكثر مما تحيل إلى مفهوم عرقي[2]. فيمكن وصف الأراميين أو أي شعب يقيم بالشمال الغربي الذي سوف يعرف ببلاد الشام، بأنهم «عـ ـ ر ـ ب ـ أ ـ أ» إذا ما وقع تصورهم بمثابة الرحل وهذا يعني أن العرب وحدهم قد استمروا في حياة الترحل، وأن أولئك الذين استمروا من بعد على هذا النمط من الحياة قد تعربوا. هذا وحتى في الزمن الغابر وجدت عرقية عربية حددتها الأداة اللغوية، وجرى على سبيل التيسير أو تجاوزاً توطينها بمنطقة الجنوب الغربي السامي وذلك نظراً لهيمنة الأرامية على الشمال الغربي»[3].

إن المطابقة بين مفهوم «عربي» ومفهوم الترحل بقيت حية حتى اليوم. هناك نقوش سبئية[4] تعود إلى القرن الرابع بعد الميلاد، تحدثت عن وجود «عرب» بصفتهم رحلاً. وهناك كتابات متأخرة أقوى دلالة، وهي تقسم القبائل اليمنية إلى «أحور» و «عرب» استناداً إلى نمط العيش قطعاً. ويجب أن يلاحظ بخصوص القرآن أنه لا يستعمل أبداً الإسم الموصوف عرب، وبذا فهو لا يسمى العرب في مجموعهم أبداً مستعملاً اسماً مشتقاً هو أعراب للدلالة على البدو[5]، ومستخدماً صفة عربي نعتاً لغوياً فحسب. إن استخدام كلمة عرب من قبل المصادر التي تلت ظهور القرآن واعتمدت أحاديث الرسول وأقوال الخلفاء الراشدين ولا سيما عمر[6]، تنطبق دون ريب على قبائل الرحل، لا على كل العرب بصفتهم مجموعة عرقية، مع أن الشعور بالانتماء العرقي أو بالهوية الثقافية كان شديداً قبيل ظهور الإسلام، ولعل ذلك كان أشد عند الرحل منه عند سكان المدن، كما بيَّن ذلك فون

---

(١) *Ibid.*, p.80. حيث نجده يؤيد الرأي المعاكس.

(٢) Ran Zadok, *art.cit.*, p.44. وهو يعتمد عدة مؤلفين منهم Montgomery و Eph'al وغيرهما، وكلهم جادون في إنكار كل صبغة عرقية وبالتالي كل استمرار تاريخي على مفهوم «عرب».

(٣) *Ibid.*, p.54. لكن أسماء العرب الأوائل في الشمال (ص٧٦ ـ ٧٩) كانت موجودة كثيراً، كأمالي ثمود ونبياه. وقد فحص نولدكه Noldeke الأسماء النبطية مشدداً القول على أنهم «عرب خلص» رغم أنهم كانوا يتكلمون بسهولة الأرامية: Art. «Nabatéens», *E.I.1*.

(٤) W.Caskel- A.Grohmann, art. «Arab», *E.I.2*، عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية، ص ١٨؛ خالد العسلي، «العرب في النقوش القديمة»، **مجلة العرب**، مجلد ٥، ١٩٧١، ص ٤١٠ وما بعدها.

(٥) القرآن، «سورة الحجرات» ١٤؛ «سورة التوبة» ٩٧ و ٩٨ ـ ٩٩ ـ ١٠١. ليس الحكم سلبياً دوماً لكن المقابلة المتجاورة بين كلمتي أعراب وأهل المدينة (١٠١)، ملفتة للنظر. أما الوصف اللغوي فيظهر في كلمة معروفة هي [illegible] سورة طه، ١١٣.

(٦) الطبري، ج٥، ص ٤١؛ البلاذري، فتوح. ص ٢٧٥. إلا أن [illegible]ري يذكر أن كلمة عرب وردت مرتين بمعنى مجموع العرب: مرجع مذكور، ص ١٩

غرونباوم[١]. وبعد مرور وقت طويل، وتجاوزاً للقرون الثلاثة الأولى حيث تطابقت العروبة مع المدن والدولة والأمبراطورية والدين، ندرك أن هناك عوداً واضحاً إلى التطابق بين عرب ـ ولا حتى أعراب ـ وبين الترحل، كما هو الشأن في مقدمة ابن خلدون[٢]. كانت اللغة الاصطلاحية المغربية التي سبقت فترة الاستعمار تقابل بين عربي وبلدي، علماً أن عربي يدل على المترحل أي ذاك الذي يتمثله الذهن رجلاً من الريف أي غير المدينة فيقابل به رجل المدن. فباستثناء عصر الفتح والأمصار، هل كانت المدينة طيلة ما يزيد على ألفي سنة، على طرفي نقيض مع العروبة؟ ثم لِمَ هذه المداومة بالخصوص على المطابقة بين مفهوم يبدو عرقياً لغوياً نعني مفهوم عرب، وبين نمط عيش الترحل؟

الهوية العربية والترحل والمدينة

لقد عاش العالم الشرقي أكثر من أي مدار آخر، جدلية قوية بين التحضر والترحل. كان التحضر ذاته منسوباً إلى المدينة الواحة ونموذجها الموجود في بلاد الرافدين. والمحتمل أن المدينة، في التمثل كما في اللغة، كانت تحتل الصدارة بالنظر للقرية، وهو ما يفسر غموض لفظة قرية، وسنعود إلى توضيح ذلك. إن بلاد الرافدين المركز الممتاز، ومقر التحضر للمدن والممالك، كانت تعارض بشدة عالم الحواشي الصحراوية، عالم الرحل المختلطين بصورة مبهمة، وكانت تخضع باستمرار لضغط ذلك العالم الذي كانت تدركه من حيث اشتداد تميزه عنها، نعني الترحل، دون تمييز عرقي أو لغوي. كان الأشوريون والبابليون يطلقون تسمية «عـ ـ ر ـ ب ـ ي ـ و» على كل العناصر المحيطين بهم والذين يتكلمون لغة سامية غربية، مع العلم أن المحدثين يرون أن «العربية الخالصة» أو عربية الأوائل كانت تتميز من لغات الشمال الغربي الأخرى، كالأرامية[٣]. لكن لماذا هذه التسمية بالذات دون غيرها؟ من المحتمل أن كل الساميين غرباً مثلوا في وقت ما، أي في الألفية الثالثة، مجموعة واحدة من الشعوب وربما شعباً واحداً، وحّدته اللغة ونمط العيش في آن، وقد أدرك في نزاعه مع عالم بلاد الرافدين أن الترحل يحدد هويته أساساً. وبالفعل، كانت هذه المجموعة البشرية تسمى «عـ ـ ر ـ ب ـ أ ـ أ» أو «عـ ـ ر ـ ب ـ ي ـ و» كما جاء في الرواية الأكادية. وكانت تسمي هي نفسها باسم مقارب انطلاقاً من ذات الجذر (ع ر ب). ولعل الاسم المولد (ع ر ب) Eber، و Ibrim (عبريم) يعني انقلاباً حرفياً، من ع ر ب إلى ع ب ر، وهو

---

(١) Von Grunebaum, *art.cit.*, p.6.

(٢) التاريخ، طبعة بيروت ١٩٦١، ج ١، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

(٣) في رأي نولدكه، مثلاً: Nöldeke, *Art.cit.*.

تعليل أكثر دقة من ذلك الذي يلجأ إلى عبور ميثولوجي لنهر الفرات، ومنه اشتق جذر (ع ب ر) الذي يعني شق وقطع. أما تسميتهم بـ«سامیي الغرب»، فلم يعد أبداً سوى اتفاق وضعه العلم الأوروبي في القرن التاسع عشر، انطلاقاً من المصطلحات الواردة بالتوراة، واستشهاداً بالزاد اللغوي المشترك. إن مفهوم (ع ر ب) الأكثر قبولاً هو الذي يُشعر بواقع لغوي ••اقع يرتبط بنمط عيش الترحل. على أن هذا المفهوم يستبعد «ساميي الشرق» الذين يحيلون إلى مرحلة سابقة مشتركة - على فرض إنها وجدت يوماً، والذين ينفصلون انفصالا عميقاً عن الاخرين بسبب التحضر في شكله القروي والمدني. لقد شكلت صيغة، (ع ر ب) و (ع - ر - ب - أ - أ) و (عرب) الشكل الأول الذي اتخذه العرب الأوائل، وجذع الشعوب المعروفة بأنها سامية غربية، وهي تشترك في نمط العيش واللغة وربما الدين. وبعد ذلك انحدر منهم العبرانيون والفينيقيون والأراميون والعرب ذاتهم الخ... بواسطة التمييز التدريجي وعن طريق الهجرات. إن الموطن الأصلي نفسه الذي يقع في الجنوب الشرقي من الشام أو بين الشام وبلاد الرافدين، لا بد أنه عاش تطوراً لغوياً، وتفريعاً بين عربية الأوائل وبين الأرامية، وهذا مثال متأخر. لكن هذا التطور لم يكن من الوضوح بحيث يدركه الأشوريون والبابليون الذين استمروا في التعرف عليهم بواسطة نمط عيشهم. حتى إنهم فسحوا هذا المفهوم لكل بدوي حتى لو كان نسبه الجغرافي بعيداً. لكننا رأينا أنه كان يوجد في البداية مجموعة لغوية أيضاً. لقد وضع المحدثون مميز «العربي الخالص» لأسماء الأعلام، وذلك بمعنى من الجنوب الغربي، أي يمني. ومن المحتمل جداً أن عربية الأوائل الحديثة التي انحدرت منها لغتنا العربية، قد تميزت في وقت متأخر عن الجذع المشترك، كما يحتمل أن يكون العرب الأوائل من آخر مرحلة للتطور أو مَنْ جاء بعدهم، قد حافظوا على تسمية المجموعة كافة لأنهم تمادوا في الترحل.

أما في الموطن الأصلي، فقد بقي مفهوم عرب هو أيضاً ينطبق على البدو، من الجماعات اللغوية كافة بدون تمييز. وعلى هذا تسمى العرب الأوائل لغوياً، وقد فقدوا صفتهم البدوية ظاهراً، مثل الثموديين والنبطيين، لا عرباً بل بأسماء محددة نوعية(1). لقد برزت الهوية العربية القائمة على اللغة ضمن المجال الشامي، قبيل ظهور التاريخ الميلادي وتأكدت خلال القرون الثلاثة التالية. والظاهرة المفارقة أنّ هذا البروز ارتبط بالمدن،

---

(1) *E.I./1*, art «Nabatéens» et «Thamud»; C.Rabin, «arabiyya», *E.I./2*. الواقع أن التاريخ الحديث المدون هو الذي يسميهم كذلك، عملاً بالكتابات الأكادية والكلاسيكية والقرآنية. راجع: M.Rodinson, «Bilan des études Mohamediennes», *Revue historique*, t.229, fasc. 456, Janvier-mars 1963, pp.186-187.

والإمارات، والدول التابعة للثموديين[1] واللحيانيين قرب العَلاء والحِجر، ودول النبطيين قرب الحجر وبصرى وصلخد والبتراء بالخصوص. والنبطيون هم الذين ضبطوا اللغة بواسطة الكتابة.

إن المطابقة بين مفهوم عرب وترحل لا يفسر فقط بوجود صلة في الواقع، بل بواقع وتمثل تاريخيين يضربان بعيداً جداً في الماضي. وقد تأيدت هذه المخلفات بكون أكثرية العرب المتميزين لغوياً سواء أكان ذلك في شبه الجزيرة أم في جنوب الشام، تمادوا في ترجي نمط عيش الترحل. ولا شك أنهم استوعبوا كل أولئك الذين كانوا رحلاً مثلهم من بين الأعراق الأخرى، فكان كل مترحل يتعرب لغوياً وينضم إلى الإطار القبلي. وبقيت القبيلة ونمط العيش الرعوي يحتلان الأولوية بالنسبة للمدينة. وكانا يصوغان بشدة الذهنيات والقيم. وكانت المدينة تظهر في نظر العرب بمثابة الظاهرة المكتسبة الاستثنائية. وهي تُفقد الشخص عروبته إذ تخلصه من بداوته. وهي تصنف المجموعة المدنية في إطار النماذج الخارجية، وتغير من الذهنيات، لكن القيم قليلاً ما تتغير عموماً إلا ببطء، وتبقى اللغة طول الوقت، يتنابها بعض التغيير. وهذا من شأنه أن يفسر الثنائية البارزة باليمن بين «أحمور» و«عرب»، وتواجدهما لا محالة ضمن وحدة قبلية فريدة، هذا في حال ما إذا لم نقبل بالفارق العرقي الأصلي. وهو أيضاً ما يوضح التعارض بين قريش من جهة ومجموع القبائل أو العرب[2] أو بين المهاجرين والأنصار والأعراب. تجري الأمور وكأن المدينة تفرز هوية جديدة، هوية ثمودية وهوية الانباط، وهوية اليمن بأنواعه، وهوية قريش كما هوية «أهل القرى»، وبعد ذلك هوية أهل الكوفة وأهل البصرة. لكن هذه الهوية الجديدة تندمج في هوية أوسع هي هوية اللغة والدين والقيم. وهي تزيد اتضاحاً كلما اقتربنا من ظهور الإسلام. ومن المتناقضات أنها هوية شديدة القوة، فهي من أقوى الهويات التي ظهرت في التاريخ، وكثيرة الضعف، سريعة التفتت في آن. وهو أمر يعود إلى أن الواقع الموضوعي لهذه الهوية العربية الواضحة المتأكدة العنيدة، لا يجد صدى في شعور مؤكّد بالذات. إن الترحل نمط عيش خصوصيته مفرطة بالنظر للنموذج القروي المدني للحضارات المستقرة المهيمنة على صعيد التاريخ. وهو ذاته مبدأ ثقافي بالمعنى الأنثروبولوجي خاضع، مكيف بالطبيعة، وغير خاضع للعالم التاريخي، وهو ما يفسر مقاومته وهامشيته الأساسيتين.

---

(١) *Ibid.*, pp.186- 187؛ وكذلك كاسكل: «The Beduinization of Arabia» في: *Studies in Islamic Cultural History*. ورد ذكر مدينة الحجر في القرآن صراحة (سورة الحجر ٨٠).

(٢) راجع مثلاً الجاحظ «كتاب البلدان»، ص ٤٦٦، حيث نجد قريشاً من جهة والعرب جميعاً من جهة أخرى في موازاة أو تعارض.

لقد صنعت المدن الظاهرية التاريخية عند العرب مهما كانت هذه المدن متساة، قليلة العدد في خضم عالم البدو. أما الزاد الثقافي، فمصدره المادة البدوية، وهو في آن مقبول ومرفوض، محمود وممقوت.

التلاحم بين المدن والقبائل:

يتعارض هذا التصور بشدة مع تصور الحضارات المستقرة، حيث يتبين أيضاً في هذا المقام أن المدن تستمد مادتها البشرية من معشر الفلاحين ولا تقتبس منهم قيمها الثقافية الواعية. تحتفظ المدن باحتكار المجال الثقافي في حين أن بقاء القبيلة أساسي في عالم البدو. ولكن القبيلة تتميز كوحدة ممتلكة لكيان ذاتي، الأمر الذي يفسر عدوانيتها الثقافية. فهي تعمل وكأنها كائن سياسي قائم لا محالة على مبدأ آخر غير مبدأ الدولة. وتفرز في ذاتها قاعدة للسلطة، وفكرة السلالة في البيت، وتمييزاً اجتماعياً بين الأشراف والضعفاء. في القبيلة هناك كهان، وأسياد[1]، وحكام النزاعات، وخطباء وشعراء، ونواة للفروسية، وأخيراً حماية كل أفراد القبيلة من الاغتيال بواسطة مؤسسة الأخذ بالثأر. أما بنية القبيلة من الداخل فهي عبارة عن مجتمع سياسي أي منظم. وهي مهيكلة أيضاً تجاه الخارج بقدر ما تسير كوحدة متجانسة، ولا سيما في الحرب. لعلّ هذا ما يفسر أن بلاد العرب[2] - باستثناء حالة اليمن القديم خاصة - لم تقدر أو لم ترد أن تتحد بصورة عفوية تحت راية مبدأ الدولة، حيث كانت تتركب من أجهزة سياسية تكيفت مع واقع البيئة. وعبثاً جرت محاولات بواسطة بلاد العرب لبسط النظام الملكي. وقد وجب أن يظهر الحدث الإسلامي كظاهرة استثنائية لترتفع بلاد العرب إلى الحياة التاريخية لكن بصورة جعلت المغامرة تتجاوز سريعاً جداً إطارها ومصيرها. مع العلم أن الإسلام نتاج الحياة المدنية. وهذا دليل على أن المدينة وحدها وربما نوعاً واحداً من المدينة، كفيل بتصور المصير السياسي الذي يتجاوز آفاق القبيلة. لكن بمساعدة الحدث الديني وبفضل التلاحم الذي كان قائماً عند ظهور الإسلام بين المدينة والقبيلة، أي عالم الحضر وعالم الترحل أو ما شابهه.

لقد كان هذا التلاحم موجوداً منذ البداية، لكنه تأكد بواسطة التجارة والدين. لا

---

(١) الأشراف هم فئة اجتماعية داخل قبيلة، ونادرا ما يعنون القبائل المحاربة المعارضة بمجملها للقبائل الأخرى، كما يؤكد ذلك دونر: F.Donner, *The Early Islamic Conquests*, p.30. الذي يستعير تفسيره من مادة سرجانت: Serjeant, «Haram and Hawtah», p.20. حول هذا الموضوع المراجع كثيرة. راجع بنحو خاص: ابن الكلبي، كتاب الأنساب، م. الإسكوريال، أوراق ١٣، ١٦، ٢٥، ٢٧ وما بعدها؛ ابن حبيب، المحبر، ص ١٦٤، ١٨١، ٢٩٦ - ٣٠٣، وأسماء المغتالين من الأشراف، نوادر المخطوطات، ٦.

(٢) Lammens, *L'Arabie Occidentale avant l'hégire*, pp. 106ff.

يحدونا الشعور إطلاقاً أن قبيلة الرحل كانت العدو اللدود للمدينة، عند متابعة سير كل تاريخ العرب في بلاد العرب وخارجها. في البتراء والرها وحمص، حيث تولى العرب أمر مدينة ما، لم يسلكوا سلوك المدمرين بل كانوا منظمين وحاكمين مشيدين، دون قطع الصلة فيما يبدو، بالعالم الخلفي لصحراء الرعاة والمقاتلين. كانت البتراء وتدمر ومدن العرب الأوائل في الشمال تظهر بمظهر معلمي لمدن حقيقية. وكانت فيما يبدو تعيش عيشة الموانىء المخصصة للقوافل، دون أن تعدل عن الخيار الرعوي[١]. ولم يقض على هذه المدن هجوم ماحق قدم من عالم الرحل، بل قضت عليها نوائب البيئة. وكذلك الأمر عند طبع اليمن بالطابع البدوي[٢]. فلم يكن ذلك سبباً في انهيار اليمن بصورة واضحة على الأقل، بل كان السبب في اضطراب السلطة فعلاً، والتحولات الطارئة على المسالك التجارية وانهيار نسق السدود، والغزوات الأجنبية، غزو الحبشة ثم الفرس. بل خلافاً لذلك يسود انطباع عن وجود تعايش انتهى إلى ما يكاد يكون صهراً بين الأحمور والعرب لكن مع الحفاظ على الثنائية القديمة؛ ولنذكر في هذا الصدد وضع همْدان فهو بليغ[٣].

لقد سبق أن نظرنا في وضع الحيرة وفي النسق المتوازن الذي نجحت في إقامته، وفي هذا المقام أيضاً لم تفقد الحيرة دورها بسبب البدو، بل بسبب قرار اتخذه الملك الساساني.

وها نحن وصلنا الآن إلى البحث في وضع مدن الحجاز، مكة والطائف ويثرب. هنا وفي مكة بالخصوص، بلغ التلاحم مستوى ممتازاً. لقد تميز القرشيون من جهة عن البدو المجاورين لهم من حيث الذهنية ونجحوا في كسب هوية خاصة وضعتهم إلى جانب الآخرين أو فوقهم. لكنهم أنشأوا من جهة أخرى شبكة من الأحلاف مع القبائل، وهي عبارة عن جملة من المصالح التجارية المتبادلة، تأسست بموجب الايلاف[٤]، كما أنشأوا روابط دينية بفضل منطقة مؤسسة الحرم[٥]، بحيث أنهم كانوا يظهرون بمظهر الممسكين

---

(١) *E.I.II, Sub Verbo* «Nabatéens»; M.Rodinson, «Bilan des études mohamédiennes», *Revue Historique*, Janv. -Mars 1963, p.190.

(٢) الرازي: تاريخ مدينة صنعاء، ص ٣٧؛ الحديثي، مرجع مذكور، ص ٨٧ وما بعدها، J.Chelhod, «problèmes d'anthropologie culturelle sud-arabe», in *L'Arabie du Sud*, I, pp.37ff.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج٦، ص٢٤٦؛ الرازي مرجع مذكور ص ٣٤ - ٣٧، الحديثي، مرجع مذكور، ص ٦٨ - ٧٠ - ٨٩؛ H.Djaït, «Les Yamanites à Kufa..., *art.cit.*, p.24.

(٤) M.F.Kister, «Mecca and Tamim», *JESHO*, 8 (1965) pp.119 - 121.

(٥) R. B.Serjeant, «Haram and Hawtah», *Mélanges Taha Hussein*, pp.50ff; M. F.Kister, «Some reports concerning Mecca from Jahiliaya to Islam», *JESHO*, XV, 1972, pp. 66-67; II.M.T. Nagel, «Some considerations concerning the preislamic and the Islamic foundations of the authority of the caliphate», in *Studies on the First Century of Isl.. ic Society*, 1982, pp.117-180, =

بزعامة حقة على الأقل في مستوى غربي بلاد العرب. ومن الجائز فتح النقاش في طبيعة هذه الزعامة وامتدادها في المجال. تبرز التجارة والدين هذه الزعامة لكن كل شيء مرتبط هنا بتقويمنا لما بلغته التجارة والديانة من قوة. لم توفق قريش في أن تحشد ضد الرسول سوى القبائل المتحالفة والمنتسبة إلى منطقتها ـ كنانة وأهل تهامة وغطفان أيضاً[1] لكن الحقيقة أن اشعاعها امتد على بلاد العرب كافة، وكان كافياً بالقدر الذي جعل إسلامها واعتناقها الإسلام يجران جانباً كبيراً من شبه الجزيرة إلى الدخول في الدين الإسلامي. كل هذه الأمور تعني أن مكة ومحيطها من الرحل، سواء أكان كبيراً أم صغيراً، كانا يعيشان ضمن بنية من المبادلات والتشارك وتقديس هذا المحيط لذات الدين.

كانت مكة قطعاً في حمى من كل عدوان عربي بفضل وجود الحرم. ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للطائف ويثرب. إن هاتين المدينتين أي الطائف جنوباً ووجهتها اليمن[2] ويثرب شمالاً ووجهتها مدن العرب الأوائل الغابرة، تيماء، ودومة والحجر بعد ذلك والتي كانت تجاوز سلسلة تجمعات وادي القرى، لم يكن لهما من الحصانة ما كان لمكة. لكن المصادر لا تشير إلا نادراً بخصوصهما، إلى غزو البدو لهما بإصرار منظم. على أن إغراء الغزو كان موجوداً ونوعاً من الضغط يمارسه عالم الرحل على هاتين المدينتين، فكان على الطائف أن تبني سوراً احتماء من هجمات الرحل المجاورين[3]. وتدرعت يثرب والواحات المجاورة بالأطم[4]. وقد كانت رغبة غطفان في الإغارة على المدينة هي التي دفعتها إلى الانضمام إلى قريش ضد الرسول خلال غزوة الخندق[5]. إلا أن عدوانيتها كانت رخوة بالفعل. الواقع أن التلاحمات من كل القبائل التي جرت في الطائف، كما في يثرب، كانت أقوى من النزاعات. فكما كان الأمر بين قريش وكنانة، بدت ثقيف منتمية إلى تجمع الرحل الكبير الذي قادته هوازن والذي أمدها بحماية حربية[6]، مع الرضاء بهيبتها الحضارية. لم يكن في هذا المجال أو في غيره خضوع رضخت بموجبه للقوة المقاتلة ضمن علاقة خنوع وحماية، كما

= .187-188. لقد عاد F.Donner إلى هذه الآراء، وأخطأ بخصوص مفهوم «المنصب» حيث أسقطه على بلاد العرب في العصر الجاهلي: *Ouvr.cit.*, pp.15,34-37

(١) ابن اسحاق، السيرة، ص ٦٧٠ ـ ٦٧٣، W.M.Watt, *Mohamet à Médine*, p.52.

(٢) لعل الدمون وهو يمني من حضرموت، هو الذي بنى السور: البلاذري، الفتوح ص ٦٧؛ ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٩؛ Lammens, *Taif*, p.206; و: Art. «Taif», *E.I.II*

(٣) ياقوت، المعجم، ج٤، ص ١١.

(٤) المرجع نفسه، ج٥، ص ٨٢ ـ ٨٨؛ السمهودي، وفاء، ج١، ص ١٩٠؛ Lammens, *op.cit.*, p.184.

(٥) ابن اسحاق، السيرة، ص ٦٧٣.

(٦) كما حدث في حنين، ابن اسحاق، السيرة، ص ٨٤١ ـ ٨٤٢.

سيحدث ذلك في المستقبل بأماكن أخرى، ضمن العلاقات القائمة بين الرحل والحضر.

وهكذا كانت المدينة قادرة على الدفاع عن نفسها فعلاً. إذ كانت تختزن العدوانية القبلية، وكانت تحتفظ لحدّثٍ بالخصال القتالية، متفوقة على الآخرين بفضل دبلوماسيتها واشعاعها الاقتصادي، فكانت تسحر الألباب بقدرتها على التنظيم. أما القبيلة، فلم توفق أبداً في مواصلة الجهد الحربي الطويل النفس. فكانت عدوانيتها تتجه بالأحرى إلى قبائل أخرى، الأمر الذي نتج عنه التلاحم بالمدينة التي تفصلها عنها مسافة الاحترام. إنه احترام يعود دون شك إلى زمن بعيد، إلى التقليد الموروث عن تاريخ الشرق كافة، الذي فرض المدينة كمركز للسلطة والقدسية والحضارة من بابل إلى اليمن. وهو الذي كان يغذي عند القبائل شعوراً بالنقص ومطلب التلاحم على الرغم من قوتها الحربية. حتى ولو أن يثرب لم يمكنها الادعاء بأية هيبة ناتجة عن التجارة والدين، فقد كانت تساندها قدرتها على المبادلات المغتذية من زراعتها، وعلى هذا فقد كانت تؤكد هي أيضاً ضرورة وجودها تجاه عالم الرحل المحيط بها. فنجم عن ذلك ارتباط عدة جموع بها، كجهينة ومزينة بصلات الحلف الشاملة أو الشخصية[1]. ولذا سوف ينتقل التلاحم في بداية ظهور الإسلام كما انتقلت الصلة الممتازة بين قريش وكنانة. وسوف تبرز عند قيام الخطط الأولى بالكوفة والبصرة (أهل العالية)[2]. كان للروح التعاقدية من عميق الرسوخ في حياة الحجاز في العصر الجاهلي وربما في بلاد العرب كلها، ما جعلها تفرض وجودها حتى على الفارق الديني والعرقي، كما تشهد بذلك عرى الولاء الشديدة المفعول، التي كانت تربط اليهود بالأنصار[3].

الحقيقة أن الحجاز كان بعيداً من مناطق القبائل الكبرى الراعية للإبل في وسط بلاد العرب وشرقها، مثل تميم وأسد وطي وبكر. أمّا القبائل الشديدة المراس بالحرب المقيمة في الشام - جذام وبلي وكلب - فكانت تعيش تابعة للغساسنة أو للدولة البيزنطية، وكانت متجذرة في عالم آخر. على أن تميماً كانت تشرف على شعائر الحج[4] فكانت مسؤولة عن

---

(١) ابن اسحاق، السيرة، ص ٤٣٤، ٤٨٥ - ٥٠٦، ٦٠٩ - ٦١٠، ٧٧٥. اتحدت جهينة مع الخزرج في معركة بعاث، واتحدت مزينة مع الأوس كما قال واط: *Mahomet à Médine*, p.106. ووضع الأنصار ومزينة بالكوفة في الخطة نفسها: الطبري، ج٤، ص ٤٥.

(٢) كانت كنانة والأحابيش تشكلان مع جديلة قيس سبعاً ضمن الأسباع الأولى بالكوفة وقد انضم إلى ذلك عناصر من قريش دون شك: الطبري، ج٤، ص ٨٤. ويوجد في البصرة بخمس أهل العالية، مزينة وثقيف وخزاعة وقريش الخ... صالح العلي، التنظيمات، ص ٣١٨ - ٣١٩.

(٣) كانت قينقاع حلفاء للخزرج وقريظة موالي الأوس: السيرة، ص ٦٨٨. لقد حشد عبد الله ابن أبي لقائده قينقاع، في حين الخزرج استاؤوا لتقتيل بني قريظة، فحاولوا كل سبيل لإنقاذهم، وهي معروفة لأبي لبابة. السيرة، ص ٦٨٦ - ٦٨٧.

(٤) Kister, «Mecca and Tamim», pp.146ff.

حماية الأسواق حول مكة وفي الحرم نفسه، ولعلها انتسبت إلى الحمس[1] عن طريق بعض عشائرها. وبما أن كلباً كانت متحالفة مع تميم، فقد انضمت إلى سلسلة التحالفات القرشية الخاصة بالتجارة الكبرى[2] ويبدو جيداً أن خثعماً وطياً وحدهما لم تعترفا بقدسية الحرم في شبه الجزيرة، باستثناء اليمن الذي بقي عالماً منفرداً[3]. وهكذا كانت علائق التبادل والتحالف والحماية بين قريش وعالم الرحل، تمتد إلى ما وراء الحجاز ذاته. لم تكن العلائق القائمة بين المدن والقبائل علائق قوة ولا حتى هيمنة، بالمعنى الواسع. لكن فيما يخص الحيرة ربما كان لقبائل الرحل شعور بالسيطرة كما يرى كيستر[4]. لكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لمكة حيث يمكن في رأيي الحديث عن نفوذ أدبي على أقصى تقدير. لكن هذا النفوذ الأدبي عرف كيف يستند إلى قدرة عسكرية قابلة للحشد. وعند قدوم وقت القتال - وهو أمر استجد بالنسبة لشبه الجزيرة تأييداً للرسول أو ضده في البداية، ثم لفرض نظام الدولة على بلاد العرب كلها - فإن العنف المنظم كان مصدره المدن، لا كإفراز عفوي، بل بمفعول إرادة عليَّة. لقد استندت القوة الضاربة للرسول نفسه إلى التلاحم القائم بين العالم القبلي والنواة الحضرية[5]، وكما وقع في الماضي القريب زمن التلاحم بخصوص الحيرة والغساسنة. وهكذا تحافظ المدينة على قدرتها التنظيمية المحركة لمادة الرحل وتؤسس هذه القدرة على الوحدة الواقعية والكامنة لعالم بلاد العرب؛ إنها وحدة موضوعية قامت على اللغة والقيم والدين - دين العرب[6]. وهي الوحدة التي وقع الإصرار على التكتل بها ولو بصورة غير كاملة، غَيْر التلاحم القائم بين المدن والقبائل.

إنّما لا يجب أن ينسينا هذا التلاحم الانفصام الأساسي لنمط العيش، حيث أن المدينة تظهر في آن كمكسب للإنسان، وكناقل للعالم الخارجي التاريخي. والأمر الجديد أن هذا الانفصال كان الشعور به في الماضي البعيد بمثابة التعارض الذي لا يمكن التغلب عليه، وأنه جرى التخفيف منه خلال فترة ما قبل ظهور الإسلام مباشرة، بفضل المدن الجديدة بالحجاز.

---

(١) *Ibid.*, p.141، اعتمد كيستر المحبر لابن حبيب. إلا أننا لا نجد في أي مرجع آخر، لا في السيرة، ص ١٢٧ - ولا عند ابن سعد، **الطبقات** ج١، ص ٧٢، ولا في كتاب البلدان للجاحظ، أو تحقيق العلي ص ٤٦٧، ذكراً لعشائر تميم في أهل الحمس.

(٢) Kister, *op.cit.*, p.128.

(٣) الجاحظ، كتاب الحيوان، ج٧، ص ٢١٦ - ٢١٨. وقد أضاف عشائر قضاعة.

(٤) Kister, *op.cit.*, pp.115-116

(٥) رأي عبر عنه بوضوح ابن اسحاق في وصفه لجيش الرسول في وقعة الحديبية: «المهاجرون والأنصار ومن لحق بهم من العرب»: السيرة ص ٧٤٠؛ M.Watt, *Mahomet à Médine*, pp.102-103. إن القبائل التي التحقت حقاً بصف الرسول قبل مد الرحل الكبير، كانت جهينة ومزينة وغفار وأسلم وخزاعة.

(٦) Kister, «Some reports concer[illegible] Mecca», *Studies*, p.68; Von Grunebaum, *art.cit.*, p.15

وهذه ظاهرة مهمة جديرة بالعناية. لقد برزت هذه المدن من الداخل. وهي ترجمة عن عالم بلاد العرب الداخلي. وذلك خلافاً لمدن العرب الأوائل في الخارج، وللمدينة الحدودية الخاضعة للأجنبي مثل الحيرة، وخلافاً أيضاً لمدن اليمن القديمة ـ شبوة وتمنع ومأرب وظفار وحتى نجران(١) ـ التي تلقحت بلقاح حضارة أخرى مغايرة تماماً، والتي عرفت كيف تسمو بتميزها تجاه العرب البدو. لكن يحتمل أن وضع صنعاء لم يكن على ذلك النحو، وهي مدينة أخرى جديدة في اليمن الذي تم تعريبه منذئذ أو كان بصدد التعريب العميق، مدينة تأكد دورها بقدوم الأحباش والفرس خاصة(٢)، وقد كانت موطناً لهمدان.

مفهوم المدينة وواقعها في بلاد العرب

حتى ولو قبلنا بتعايش المدينة مع شكل معين من الترحل، في المدن النبطية والثموديه، فإن مفهوم المدينة يفترض مسبقاً التحضر. لكن التحضر في حد ذاته لا يفرز تلقائياً المدينة، مع أن الإقامة والاستقرار ضمن سياق بلاد العرب المترحلة، خارج اليمن، ينزع إلى التحول إلى تجمع مدني أو شبه مدني. ولذا، فالقول بأن التحضر في بلاد العرب خلال العصر الجاهلي كان متفوقاً على الترحل كما فعل دونر Donner(٣) وأن الواقع المدني بقي هزيلاً(٤) يعادل التصريح بما هو تناقض كبير. الواقع أنه لا شك قط أن عدد الرحل كان يتجاوز الحضريين، حتى لو أخذنا اليمن في الحساب، كما يتبين ذلك من بنية الجيوش العربية الغازية(٥). والواقع من الوهم التفكير، انطلاقاً من تجربة الشام مع العرب الأوائل، بأن بلاد العرب كانت متمدّنة أولاً ثم غمرتها بعد قليل موجة «البدْوَنَة»(٦). الواقع إذا

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص ٢١١؛ ابن رسته، الأعلاق، ص ١١٣؛ السيرة، ص ٢٣؛ الحديثي مرجع مذكور، ص ٤٦، ٧٣ ـ ٧٤؛ Strothmann, «San'a», *E.I./I*; M.Rodinson, «Bilan des Etudes Mohamm..diennes», *Revue Historique*, pp.180- 181, وانظر كذلك: «L'Arabie du Sud chez les auteurs classiques» in *L'Arabie du Sud*, I, pp.59ff.

(٢) الرازي، مرجع مذكور، ص ٥٣٧؛ السيرة، ص ٤٥.

(٣) F.Donner, *Ouvr.cit.*, pp.11,16.

(٤) *Ibid.*, p.15.

(٥) انظر فيما يلي عرضاً للقبائل التي حضرت وقعة القادسية. كانت تتعايش بالشام قضاعة واليمنيون والقيسيون: Chaban, *op.cit.*, pp.42ff. كان اليمنيون في البداية خاصة العرب منهم، كقبائل عك والسكون ومذحج، يفوقون عدداً القيسية الذين كانوا أوائل الفاتحين. ثم طرأت في فترة لاحقة هجرة قيسية قوية أدت إلى ظهور توازن في عدد الجماعتين. كان أكثر القادة في صفين من قيس بجيش معاوية: الطبري، ج٥، ص ١١ ـ ١٢؛ نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧. وكانت جموع قيس بإمرة الضحاك في مرج راهط يعدون ٦٠٠٠٠ رجل، وكانوا قطعاً أكثر عدداً من الجيش المقابل الذي اشتمل على جموع من غسان وكلب والسكون: البلاذري، أنساب الأشراف، ج٥. ص ١٣٦.

ذكر ذلك رودنسون نقلاً عن كاسكل (Caskel): M.Rodinson, *art.cit.*, p.190.

تمتعت الظاهرة المدنية بأقدمية محترمة في بلاد العرب بأنواعها، ولا سيما في القطبين القصيين نعني الشام واليمن، فإنها تعود في جملتها إلى القرن الخامس قبل الميلاد[١]، إلا أنها ظاهرة ثانوية بالنظر للرحل. وهو يظهر على كل بمثابة بروز متأخر بالنظر لكبريات حضارات الشرق والبحر المتوسط التي كانت تحد عالمه. هذا وأن الترحل نفسه لا يمكن وصفه بالمقابل المطلق لحياة الاستقرار والمدينة، لأنه استكمل نظامه بمرور الزمان ولأن القبائل كانت متموضعة موطّنة[٢].

بعد رفع هذا اللبس يعود بنا السؤال إلى الإشكال نفسه دائماً: إلى أي حد كانت مدن بلاد العرب مدناً حقيقية؟ ما هي مقومات تحديد التمدن عند العرب؟ ما هو حضور المدينة ووزنها في الوجود التاريخي العربي؟ إن الإجابة عن هذه الأسئلة يتضمن وجوباً بعدي المكان والزمان، أي أن يؤخذ بعين الاعتبار تحديد المواضع كما في مختلف العصور التاريخية. لقد عرف عالم بلاد العرب من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرنين الثالث والرابع بعده، عرف تمدناً ممتازاً بقطبيه الشمالي والجنوبي، أي الشام واليمن، تتخللهما بالوسط بلاد العرب الصحراوية. لقد عاش وسط بلاد العرب من القرن الرابع إلى القرن السادس، نمواً شاملاً بالمعنى الواسع، وتهيكل ونظّم قدراته البشرية، وحدد لنفسه لغة وثقافة وهوية وأفرز مدناً خاصة به فيما كانت مدن الشمال والجنوب تندثر أو تترك مكانها لنوع آخر من المدن حيث حدثت انهيارات وكذلك تحولات وتنقلات وإنشاءات. كانت هناك في المرحلة الأولى مأرب وصرواح وقرنو (تعرف اليوم بمعين) ونشان (تعرف اليوم بالسوداء) وتمنع وظفار وشبوه جنوباً[٣]، وتيماء وديدان وبصرى والبتراء وتدمر والحجر شمالاً. أما في المرحلة الثانية فهناك مكة والطائف ويثرب[٤] والفاو[٥] والقطيف[٦]، لكن أيضاً صنعاء[٧] ونجران وعدن،

---

(١) C.Robin, «La Civilisation de L'Arabie méridionale avant L'Islam», in *Arabie du Sud*, I, pp.208- 210; G.Garbini, «L'art et la pensée chez les anciens yéménites», *ibid.*, p.228.; Ran Zadok, *art.cit.*, p.50; M. Rodinson, *Mahomet*, p.46.

(٢) راجع البكري، معجم ما استعجم، ج١، بخصوص مواطن القبائل.

(٣) C.Robin, *art.cit.*, pp.208- 212.

(٤) تأكد ذكر يثرب في كتابة مسمارية تعود إلى القرن السادس قبل الميلاد (يثْرِبْ)، لكنها لم تقم بدور تاريخي إلا في نسق المرحلة الثانية...

(٥) عبد الرحمن الأنصاري، قرية الفاو، الرياض، ١٩٨٢.

(٦) في البحرين غير بعيد من الدارين. وهجر: الطبري ج٣، ص ٣٠٤: ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ٣٧٨، وفيه ما يدعو إلى التفكير أن القطيف لم تصبح مدينة إلا في عصر متأخر لكنها كانت إقليماً أصلاً. ولعلها تقهقرت في الواقع في العصر الإسلامي، بسبب ارتداد قسم من بكر ثم عادت إلى البروز في عصر متأخر جداً. وكانت لها صلات وثيقة بالحيرة.

(٧) أنشأ السبئيون صنعاء في القرن الأول ق. م. وكانت عاصمتهم الثانية: راجع C.Robin, *art.cit.*, p.212. =

وكذلك الجابية والحيرة. لقد وافق التطور التاريخي، إلى حد بعيد، انتقال مراكز الثقل إلى مجال مغاير ثقافياً، لكن المناطق الحضارية العربية القديمة كانت تحافظ على حضور ما وهيبة ما. ولا يسع أي إنسان أن يقول إن مكة كانت تتفوق على الحيرة أو صنعاء، حين شرع النبي في نشر رسالته، فمن وجهة نظر صرف للحضارة المدنية، كان هناك تفوق واضح للحيرة. على أن مكة تقمصت مبادىء الجدة والقوة التاريخية والروحية، وكانت تساهم في حركية دفينة وتختزن سراً عظمة مصيرها.

إن هذه المجالات المختلفة، وهذه الزمنية المتنوعة لا تطمس إطلاقاً الوحدة ولا الاستمرارية. لقد تأثر اليمن بالشام، إذ كانت علائقه التجارية بالشام عميقة مستمرة[1] وقد استمد من العالم الشامي وبلاد ما بين النهرين تصوراته المدنية والحضارية، ولوّنها بعبقريته الخاصة. وكانت القوافل تعبر بلاد العرب على كامل امتدادها، لربط الصلة بأقصى قطبين لها، متجاوزة منطقتها الصحراوية، ومحافظة على معنى تضامنها أو على واقعه بالأحرى. لقد ربّى اليمن نفسه وأدمج في حضارته المدنية كثيراً من العرب الرحل[2] وأعادهم إلى الشام حين بدأت تظهر بوادر التقهقر. وقد اعتمد الغساسنة ومناذرة الحيرة النموذج اليمني الأصلي لتشييد شكل عربي من المدينة ـ الدولة. ويظهر خيط الاستمرار بصورة أكثر دقة في كل ما بثه اليمنيون جنوباً والثموديون والنبطيون واللحيانيون شمالاً، في وسط بلاد العرب، من تصورات ثقافية وعلى رأسها شكل التمدن وفكرته، والحس التجاري وحتى الآلهة[3]، وفي بعض الأحيان بمسافة زمنية تقدر بالألف سنة. إن وحدة عالم بلاد العرب من حيث المكان والزمان، تظهر في ذلك النزوع إلى عدم قبول التيارات الحضارية إلا عبر رشح ذوي القربى مهما كانوا بعيدين مكانياً. أما في التقليد التاريخي فإن المرجع ينصب على مجال الدول والمدن والحضارة في قطبي الشام العربي[4] واليمن. وجاء في الحديث أن بعضاً من أبناء سبأ، معتبراً كجدّ، قد «تشاءموا» وغيرهم قد «تيامنوا»[5].

= ولكنها لم تصبح المدينة المهمة باليمن إلا في عصر متأخر، أي في القرن السادس.

(١) C.Garbini, *art.cit.*, pp.229ff.

(٢) الأدبيات وفيرة في خصوص هجرات عرب اليمن إلى الشمال. لكن الملاحظ أن ابن حزم جعل مجموع العرب ينحدرون من أجداد ثلاثة، هم عدنان وقحطان وقضاعة، مؤكداً أنه لا توجد صلة بين بلاد قضاعة واليمن: الجمهرة، ص ٧ ـ ٨.

(٣) يبدو أن عمرو بن لحيّ قام بدور الوسيط في هذا المجال وجلب من الشام الإله هبل وجلب الأصنام من عند عمالقة البلقاء: السيرة، ص٥١.

(٤) وهو ليس الشام المركزي بل الحواشي الصحراوية.

(٥) الرازي، مرجع مذكور، ص ٤٩٩.

وبظهور الإسلام، دخل اليمن في الدين بصورة طبيعية. وهكذا يظهر البعد القومي - الثقافي للإسلام ظهوراً قوياً. وكذلك الأمر بالنسبة لاستعداد اليمنيين والعرب الدائرين في فلك الشام، أي ورثة الحضارة المدنية، للدخول في المشروع الديني والتاريخي للأقرباء الذين كانوا سابقاً رُحَّلاً وسط بلاد العرب، وللتعايش مع أبناء القبائل الكبرى الضاعنة سالفاً والتي أصبحت ممدنة، وذلك في الكوفة والبصرة والشام. وهذا دليل على الاستعداد الاستثنائي للوحدة في عالم بلاد العرب قاطبة عند ظهور الإسلام، حيث نضج هذا التأهل خلال ألف سنة من التاريخ. لكن ذلك يعني على صعيد التجربة المدنية، أن العرب أصبحوا يتبادلون التدرّب بحيث يمكن الحديث بالنسبة لهذه الألفية، عن تجربة عربية للمدينة، على الرغم من التجزيئات المكانية والزمنية. إن التدفقات الحضارية الخارجية جرى استيعابها في الشام، ثم انتقلت إلى اليمن، ومن اليمن إلى الشام رجوعاً، ومنهما معاً إلى الحجاز. لكن وفضلاً عن ذلك، وعلى الرغم من هذا التضامن الذي التحمت به المناطق المختلفة لبلاد العرب، فإنه يمكن ويجب الحديث عن تجارب نوعية، لأن المدينة تعبير عن التربة، وعن تقليد خفي، وعن إرث ثقافي إقليمي محلي وهي الصورة المحلّية للرؤية الكونية والتجربة التاريخية والسياسية والاجتماعية. إن العلاقة بالخارج لا تمر عبر رشح الثقافة الشقيقة فحسب، لكن أيضاً بواسطة الاقتباس المباشر، كما هي حال اليمن في علاقته بالهلينية. وما يكون في المقام الأخير ليس دائماً تراكماً لماض طويل، لوجود جانب كبير من الحذف والخلق والتكيف مع الواقع المكاني والزمني. وفي الجملة، فإذا كان لا يمكن تصور مكة بدون هذا الماضي فهي ليست تتويجاً أو تراكماً. لقد تطورت مدن الحجاز ارتباطاً بالانهيار اليمني، وارتباطاً بالموت البطيء أو العنيف الذي نزل على المدن العربية القوافلية بحواشي الشام، وكان لها أن تقتبس الكثير من هنا وهناك. لكنها بقيت أساساً نتيجة للعالم الخاص بها، عالم وسط بلاد العرب، والحجاز بصورة أدق.

إن أقدم المصطلحات العربية تعبّر عن مفهوم المدينة بكلمة قرية، لا بكلمة مدينة أو مصر. وكلمة قرية يعبر عنها في الفينيقية بقرت، وفي العبرية بقيرات، وبالسريانية بـ Qeré[1]. ويقابلها باليمنية كلمة قريبة جداً من العربية وهي قِرية[2] وقد استعملها القرآن مراراً في المفرد والمثنى والجمع دلالة إما على المدينة عامة[3]، وإمّا على مدينة معينة

---

(١) A.N. al-Wohaibi, art. «Karya», *E.I.2.*

(٢) لسان العرب، ج١٥، ص ١٧٧ وما بعدها.

(٣) القرآن، سورة الأنفال، ١٦، سورة الزخرف، ٢٣، سورة سبأ، ٣٤. لكن بالنسبة لسبأ استعملت كلمة بلدة، سورة سبأ، ١٥. ولا يتعلق الأمر بمجموعة من الأهالي المستقرين كما ادعى لامنس (Lammens, *La cité arabe de Ta'if*, p.183).

مثل مكة والطائف[1] وسدوم[2] ونينوى[3] أيّ مدينة أخرى كبيرة أو صغيرة. أما في أقدم الروايات التاريخية العربية فقد حافظت هذه الكلمة على هذا المعنى: فالقرية هي المدينة[4]، وأهل القرى هم سكان المدن ولا سيما مكة ويثرب والطائف ويقابل القاري بالبادي[5]. وحتى نعت قروي كان يعني مدنياً في الأصل[6].

أما كلمة مدينة، فقد وردت في القرآن بصيغة مدائن في الجمع واستعملت مفرداً دلالة على يثرب[7]، وقد وردت أيضاً اسماً للجنس[8]. وينبغي ترقب القرن الثاني لكي تعود إلى السطح التسمية في عبارة مدينة السلام، ونهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث، لكي يبرز بوضوح مفهوم المدينة، في بغداد كما في الكوفة، بصفتها تمييزاً للمركز المدني الأصلي المحاط بسور عن الأرباض، وعن الامتدادات خارج السور[9]. وباستقراء معاجم الفصحى التي دوّنت الأصول القديمة، نجد أن كلمة مدينة لا تطابق قطعاً تصور المدينة الحديث، بل لها مفهوم «الحصن الذي يبنى في أصطمة الأرض»[10].وهي كلمة تشمل أيضاً الأرض نفسها. ورأيي أن كلمة مدينة ربّما تعني حصناً أو بصورة أدق المدينة ـ الحصن، وكذلك فهي مدينة بها حصن أو بناءات محصنة. كانت تلك صفة المدينة المستديرة، وكذلك وضع يثرب المدرعة في داخلها بالأطم. ولم يكن الوضع كذلك بالطائف وهي «قرية» وعرفت بهذا النعت، لكنها أحيطت بسور. ولذا فإن قرية ومدينة لم تتميزا من حيث الحجم، بل بالوظيفة ونمط التمدن؛ فللمدينة اتجاه دفاعي، وهذه هي نوعيتها ودورها، خلافاً للقرية التي تجسم الخيار المدني المعتاد، ولا سيما الخيار المدني والتجاري والديني وخيار التجمع البشري الكثيف. وهنا تكمن مفارقة نظراً لقلب الدلالة في الكلمتين، مع أن كلمة

---

(١) «القريتين»: القرآن، سورة الزخرف، ٣٠.

(٢) القرآن، سورة الأنبياء، ٧٤.

(٣) القرآن، سورة يونس، ٩٨.

(٤) راجع الطبري، ج٣، ص ٢٩٨.

(٥) لسان العرب، ج١٥، ص ١٧٨.

(٦) المرجع نفسه، ج١٥، ص ١٧٨.

(٧) القرآن، سورة التوبة، ١٠١ـ ١٢٠؛ وسورة الأحزاب، ٦٠.

(٨) بالمعنى نفسه، الذي «للقرية» فيما يظهر، وهو المعنى الوارد بالآية ١٣ والدال على المكان عينه: القرآن، سورة يس، ٦٠. وقد سها بوهل عن ذلك، كما سها عنه أن القرآن استعمل مراراً لفظة يثرب وليس مرة واحدة كما يقول: F.Buhl, art. «Al-Madina», *E.I.II*.

(٩) راجع فيما بعد، ص ٣١٢.

(١٠) لسان العرب، تحت مادة «مدينة» ج٥، ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣؛ حيث ذكر ما يلي: «الحصن في أصطمّة الأرض»، «كل أرض يبنى بها حصن في أصطمّتها فهي مدينة». بخصوص أصطمّة راجع تاج العروس، ج٨، ص ٣٦٧.

«مدينة» ارتبطت دائماً بفكرة المركزية والدفاع. لقد سمحت تجربة العرب الفاتحين في العراق بأن يكتشفوا مفهوم القرية كتجمّع ريفي حيث تطور معنى كلمة قرية من مفهوم المدينة إلى مفهوم القرية، ويحتمل أن يكون ذلك قد وقع منذ القرن الأول. هذا وأن الحجاج نفسه الذي وصف باللغة البدوية العتيقة الصميمة بأنه كان أفصح «قروي» بمعنى مدني، لأنه كان ينتسب إلى الطائف أو لأنه أقام في مِصرَيْ الكوفة والبصرة[1]، روي عنه أنه خاطب الأعلاجَ المهاجرين إلى الأمصار عندما طردهم منها قائلاً: «من كان له أصل في قرية فليخرجْ إليها»[2]. المقصود في هذا المقام بالذات قرى السواد، وقد عرّفت بهذا المعنى في مصنّفات الفقه[3] والروايات التاريخية التي ظهرت في القرن الأول[4]. وقد اكتست هذه الكلمة صبغة تعميمية بداية من القرن الثالث[5]. وعلى هذا فإنّ مصطلح مصر المستمد بالذات من التجربة التي مرت بها أمصار العراق، أصبح يدل على المدينة ولا سيما المدينة الكبيرة[6] التي كانت تدرك كوحدة شاملة، في حين أن كلمة «مدينة» حافظت على معنى تحديدي. فما هو السر في هذا الانزلاق في الدلالة من معنى قرية - مدينة إلى معنى قرية - بلدة؟ هل ينبغي اعتبار ذلك بمثابة تأثير للغة الآرامية التي كانت شائعة بالعراق في ذلك العصر والشرق كافة، أم أن الأمر يتعلق بما هو أشد عمقاً؟ هل فكر العرب أن أبعاد مدنهم الموجودة في العصر الجاهلي كانت تعادل أبعادَ قرى البلدان المفتوحة، وأن تصورهم للمجال المدني قد تضخم. وأخيراً أن تجربتهم المدنية في شبه الجزيرة أصبحت لاغية؟ ليس ذلك بأمر مستحيل إذا ما فكرنا في ما كان عليه التمصير في المدينة العربية الجاهلية من ضعف. كانت يثرب ركاماً من القرى - الواحات، وكانت الطائف متشبعة بالزراعة الجبلية، وحتى مكة نفسها كانت تمارس الرعي. لكنه مع هذا كان لهذه المنشآت خاصيات مدنية واضحة من جهة أخرى. فضلاً عن أن اليمن عاش التمييز بين المدينة والقرية التي كانت تسمى بيتاً[7]. ولكنْ كان لتسمية بيت دلالة مخالفة تماماً في شمال بلاد العرب، إذ كانت ترمز إلى

---

(١) لسان العرب، ج١٥، ١٧٨.

(٢) الطبري، ج٦، ص ٣٨١.

(٣) أبو يوسف، كتاب الخراج، ص ١٠٢.

(٤) الطبري، ج٥، ص ٨٣ و ج٦، ص ٦٦ و ٣٦٤.

(٥) المرجع نفسه، ج٨، ص ٥٤٧ وج٩ ص ٥٢٣، ٥٣٦؛ البلاذري، فتوح. . .، ص ٢٨١؛ لسان العرب، ج١٥، ص ١٧٨.

(٦) ابن خلدون، المقدمة، ص ٦٤٠، ٦٤١، ٧١٦، ٧١٩، وقد سبق لأبي يوسف أن استخدم الكلمة في معنى مدينة عموماً: كتاب الخراج، ص ١٠٦.

(٧) Beeston، وقد استشهد به J.Chelhod [*ouvr.cit.*, p.30]

الخيمة المقدسة سواء أكانت متنقلة أم ثابتة[1]، أو كانت تعني المعبد المقدس كما في الكعبة أو الأسرة خاصة الحاكمة بمعناها الواسع. لكن هذه الدلالة لا يمكن اعتبارها دلاً على واقع القرية الجديد، نظراً للتفوق الساحق الذي كان لتصورات شمال بلاد العرب. الواقع أن العرب في القرن الأول قد أسقطوا مفهوم القرية على عالم العجم. مع استنقاصهم له، واستعانوا بمصطلحات مغايرة تماماً هي المصر في العراق، والفسطاط في مصر، والقيروان في أفريقية، للدلالة على التجمعات العربية المحضة خارج بلاد العرب، التي كانت تعبر عن واقع جديد بالنسبة لما كان عندهم، ولما وجدوه، وبالنظر لبنى تصوراتهم. وكانوا يتمسكون في كل مرة بلبس بين الاسم النكرة والاسم العلم، كما هو الأمر بالنسبة للمدينة. الحقيقة أن القرآن بقي الوثيقة العربية الأولية الوحيدة التي تمكنت من الارتفاع إلى مستوى المفهوم والتعميم في جميع الأمور، ليس بالنظر للواقع المدني فحسب. كان القرآن يعمم دائماً الخصوصي، وهذا ما يكسبه قيمة وتأثيراً دائماً كنص مقدس كوني الاتجاه: فهو يسمو عن الملموس بكل علياته. ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للفكر العربي العادي في العصر الجاهلي الذي كان خاضعاً للخصوصي.

ينبغي أن يضاف إلى ذلك دون شك بروز أمرين مستجدّين بخصوص ظاهرة المدينة في فترة الفتوحات، يتمثلان في الاتجاه العسكري الواسع المدى وادماج الرحّل. لقد كانت المدينة لحد ذلك العصر في نظر العرب، زراعية وتجارية ودينية ومدنية بالتالي، حتى ولو كانت قاعدة للدولة في اليمن. والمحتمل أنّ يثرب لما كسبت هذا النهج الهجومي كان ذلك مدعاة لأن تسمى بـ «المدينة». وكانت من جهة أخرى المدينة بالمفهوم الحديث في الجاهلية تواجه بقوة عالم الرحل، رغم التلاحمات، أي عالم العرب أو الأعراب كما جاء في القرآن نفسه الذي ميز في آية واحدة أهل المدينة والأعراب[2]. وقد انفتحت المدينة «للعرب» بعملية الفتح، إلى درجة أن الأمصار صممت لصالحهم أساساً، وهذا ما يفسر ازدواجية المعنى وصعوبة الاحتفاظ بكلمة «قرية» التي امتزجت مدة طويلة في الماضي بانفصام وجب التغلب عليه.

الميراث المدني

تُرى، ما الذي انتقل إلى الكوفة من التجارب المدنية المتعددة التي جرت في بلاد العرب؟ يجب التذكير هنا بأن الصفوة الحاكمة كانت من الحجاز الذي توفر لديه التقليد

---

(١) كما هو شأن مندار بالنسبة بكر، غير بعيد من الكوفة المتيدة: art. «Ka'ba», E.I.2.

(٢) القرآن، سورة التوبة، ١٠١.

الأحدث والأشد حيوية أيضاً، والمنفتح فوق ذلك انفتاحاً واسعاً على مؤثرات الشام. وكان اليمنيون كثيرين بالكوفة. حقاً لقدانقرضت حضارتهم، لكنها خلّفت آثاراً واضحة، فضلاً عن المدن الحديثة التطور كصنعاء ونجران. وأخيراً، عرف البدو أنفسهم أشكالاً من التجمع مثل المحلّة التي لا يُستبعد أن تكون قد انتقلت إلى المحيط المدني. وقد تبيّن أن المصادر كانت تفضل مؤثرات الحيرة وفارس عندما تتصدى لشرح التمصير المدني التابع بصفة إرادية من النخبة الحاكمة. وسوف ننظر في ما اقتبسه اليمنيون بوضوح من تراثهم مثلاً فيما يتعلق بالجبّانات. لكن عندما نعتبر الطابع الشديد الذي طبع به العرب كل المجالات الحضارة العربية الإسلامية، لا يسعنا إلا البحث عنه في الكوفة الناشئة، دون أن نقدر على قياس مداه مسبقاً.

اليمن

كان اليمن القديم قد عرف هندسة معمارية متطورة بصورة ممتازة وقد قيل إنها برزت تامة الصفات، مكتملة منذ البداية(١). فكانت السدود والأسوار والمعابد بحجرها الجميل المربع منتشرة على الجانب الشرقي المتجه إلى الصحراء، في آن في مأرب ومعين وصرواح وشبوة. كان بالمعبد الكبير (معبد اشتر) في معين مدخل فخم بأعمدة رفيعة زواياها مربعة (القرن الثالث قبل الميلاد)(٢). وكان بمعبد صرواح شكل مستطيل للسور وأبراج كبيرة في الزوايا(٣). وقد وصفت الدار اليمنية بأنها كانت تتركب من دكة قوية بنيت بالحجر، قد أقيم عليها بناية من عدة طوابق، متركبة من هيكل له روافد من خشب قد عبيء باللّبن(٤). وهي تتميز من الدار التي ظهرت شمال بلاد العرب والتي كانت واطئة وممتدة ومنفتحة على الداخل(٥). وقد وردت إشارات في خصوص الكوفة إلى مساكن بُنيت مرتفعة(٦)، وإلى أن المسجد والقصر كانا يستندان إلى أبراج كبيرة عند الزوايا. لا نزاع في أن الشغف بالبناء كان موجوداً في اليمن القديم، شغف الخلق والتشييد الذي لم يكن ليُفقد تماماً، حتى لو ارتبط برمزية السلطة القائمة على التملك، ولم يفقد هذا الشغف باليمن ذاته في الفترة الحديثة من تاريخه حيث يشهد مساكن جميلة مرتفعة من اللبن. ومن باب أولى فقد استمر ذلك

---

(١) G.Garbini, *ouvr.cit.*, p.228.

(٢) *Ibid.*, p. 232.

(٣) *Ibid.*, p. 233.

(٤) C.Robin, *ouvr.cit.*, p.218.

(٥) Lammens, *La Cité arabe de Ta'if*, p.184.

(٦) الطبري، ج٤، ص ٤٤.

في صنعاء خلال الفترة التي سبقت الإسلام مباشرةً.

كانت صنعاء مدينة قائمة بذاتها آنذاك وكانت عاصمة «للأبناء» ولهمدان وأنصارهم أو حلفائهم(١). كانت صنعاء مبنية بالحجر أصلاً(٢). ولها حصن عظيم هو غمدان(٣) الذي هدمه الفاتحون المسلمون. وقد ورد ذكر جبّانتها وبيعتها وأسواقها وقصورها (هل كانت قصوراً بالمعنى المعهود الآن أم حصوناً؟) وكذا رحبتها(٤). لقد أنشأها السبئيون في البداية عندما كانوا على قاب قوسين من الأفول(٥). لكن لا شك أنها احتفظت بما يمكن الاحتفاظ به من الطموح التمدني والمعماري لليمن القديم، وأن هذا الإرث انتقل إلى الكوفة، الإرث الذي اقتبس الحجاز قسطاً منه فيما بعد. وزيادة على اقتباس الجبّانات لا شك في أن دُورَ طبقة الأشراف قد استوعبت النموذج اليمني مع أن اليمن قلّد في العصر الإسلامي الكلاسيكي النموذج العراقي المتكامل بعملية مد حضاري يستند إلى فكرة الوحدة الثقافية المنبثقة عن المركز أي دار الخلافة، كما حصل في صنعاء باستبدال الحجر بالآجر المطبوخ والجبس(٦). بداية من أي تاريخ قامت دور الأشراف بهذا الاسترجاع الحضاري؟ منذ عصر زياد وما تلاه وعلى الأرجح في زمن الجيل الثاني من المهاجرين، حين بدأت ترتسم استعادة الهوية اليمنية، تلك الهوية التي اصطبغت بالطابع الخرافي والتي ضوعفت بميل جديد إلى الطلاوة. وبينما رمت العاطفة اليمنية المشوبة بالشعور النّضاح بالعز بقواها، خلال النصف الثاني من القرن الأول في النزاعات السياسية التي نشبت في الشام بالقيام ضد قيس والتي كانت السلطة الأموية تحركها(٧)، فقد اندفعت هذه العاطفة بالكوفة في المشروع الشيعي الناشىء، كما أنها عبّرت عن ذاتها في الأعماق وبصفة خجولة من خلال وعي حضاري مواجه للجفاء البدوي، جفاء تميم وأسد(٨). وهكذا عاد الإنشقاق القديم إلى السطح بقوة.

---

(١) الرازي، مرجع مذكور، ص ٣٧.

(٢) ابن رسته، الأعلاق، ص ١٠٩، وهو يقول بالحرف الواحد: «وأكثر بنائها بالجص والآجر وسائرها حجارة متهدمة»، وواضح أن الحجارة المتهدمة هذه من بقايا الماضي بينما يكون الجص والآجر مستورداً من الأنماط السائدة في الحضارة العربية الإسلامية بدءاً من القرن الثاني ومرجعها العراق.

(٣) الرازي، ص ٢٠ ـ ٢٦؛ مروج الذهب، ج٢، ص ٢٠٨.

(٤) الرازي، ص ٧٧، ٧٩، ٩٠، ٩٦، ٥٩، ٣٥.

(٥) C.Robin, *ouvr.cit.*, p.212.

(٦) ابن رسته، الأعلاق، ص ١٠٩.

(٧) H.Kjait, *art.cit.*, pp.171ff.

(٨) المرجع نفسه، ص ١٧٤ وما بعدها؛ الرازي، ص ٦؛ ابن سعد، الطبقات، ج٦، ص ٢٧٨، الذي ذكر أن ابراهيم النخعي كان يستنكف من بدء العادة البدوية بالكوفة التي أبقت على الشعر الطويل المكشوف والمضفور

مكة

كانت مكة «أم القرى»[1] ويعني ذلك حرفياً أم المدن. وقد سميت يثرب كذلك «أم القرى» الملتصقة بها[2]. ويدل هذا المفهوم على المركزية والتفوق. من الممكن أن تكون مكة قد مثلت نواة لتجمع تجاورت فيه البلدات والأرباض والمنشآت المستقرة المحيطة المرتبطة بها. ومن الممكن أيضاً أن عبارة «أم القرى» ترمز إلى التفوق على مدن غربي بلاد العرب وتدل على فكرة المركز الذي يتجه إليه الجميع[3].

هناك عدة خاصيات ترسم فوراً شخصية مكة. فهي حرم أو بالأحرى تقع في حرم. وهي مقر للكعبة. وتتم شعائر الحج المقدس حولها لا بداخلها وهي الشعائر التي يجب تفريقها عن العبادة المخصصة للبيت[4] المكّي الصرف والمركّز على الكعبة. هذا اتجاه ديني مميز مهم ومؤثر، ولا شك أنه يسبق البقية ويسيطر عليها، أي الإقامة المدنية والنشاط التجاري. والملاحظ أن مكة بصفتها مدينة، أُنشئت حقاً أو تشكلت مع بروز دور القرشيين وبفضل ما قام به قُصيّ من عمل، وهو شخصية تقع بين الأسطورة والواقع التاريخي. إن قريشاً بصفتها مجموعة بشرية شديدة التماسك، وكشخص جماعي - لا يقال بنو قريش أبداً - تمثل روح هذه المدينة. فإذا كان الحرم المكان المقدس الواسع - ٦٠ كيلومتراً في ٢٠ كيلومتراً في أقصى امتداد له -[5] هو الذي يسيطر على المجموع ويحيط به، فإن مكة بالذات تمثل مجالاً مدنياً مادياً متميزاً، مع بيتها الخاص بها أي الكعبة. وقد منحت قريش لمكة الشخصية المعنوية، فجعلت منها مدينة بالمعنى المؤسسي، ذات هوية متميزة بقوة فائقة.

لقد كتبت أبحاث مفيدة جداً منذ عشرين سنة عن مفهوم الحرم[6] والمقصود به أرض

= وكان يتحدّث إبراهيم عن جفاء أسد وتميم. ونرى على العكس أن الشعبي، المرجع نفسه، ص ٢٥٢، كان يتعمم «بعمامة حمراء» من صنع يمني. ويجب التذكير بأهمية الصناعة اليمنية خاصة في السلاح والنسيج وبقائها باليمن وخارجه في الكوفة مثلاً - مدة طويلة، مثلاً في القرن الرابع: البغدادي، الخزانة ج١، ص ٣٨٢. وهو دليل على استمرار إحدى قواعد الحضارة اليمنية القديمة. إن هذه الحضارة لم تتغذ من تجارة البخور فحسب، لكن من الصناعة والزراعة المائية أيضاً. إنما من الممكن أن تكون الصناعة نتاج تطوّر متأخر بالنسبة للتجارة.

(١) لسان العرب، ج١٥، ص ١٧٨.

(٢) السمهودي، وفاء، ج١، ص ٨ وما بعدها.

(٣) لسان العرب، ج١٥، ص ١٧٨، يفسر ذلك بأن «أهل القرى يؤمونها أي يتجهون إليها». لكن عبارة «أم الكتاب» تعني في القرآن، سورة الزخرف، ٤، نواة الكتاب وقلبه.

(٤) الأزرقي، ج١، ص ١٢٦؛ ياقوت ج٥، ص ١٨١؛ Kister, *Mecca and Tamim*, p.139.

(٥) الأزرقي، ج٢، ص ٦٢، ١٣٠؛ السيرة، ص ١١٨؛ معجم البلدان ج٢، ص ٢٤٤ وما بعدها.

(٦) انظر ما سبق: أبحاث Serjeant، Kister و Nagel.

مقدسة محرمة ينتفي عنها العنف إزاء كل ما هو حي فهو أرض سلام مهيأة لاستقبال القبائل للحج والأسواق، سلام ينقذ مكة من كل عداء حربي. إن الحرم مؤسسة لبلاد العرب بقيت حية حتى [illegible] [illegible] بني [illegible] حرب [illegible] (٢). إنها مؤسسة مرتبطة [illegible] وفعلية، واضحة في بروز المدن وحمايتها ونموها طالما هي تبعدها بالذات عن العنف. إنما للحرم المكي وضع ممتاز لأنه متجذر في الزمن الغابر، وزاده قداسة إجماع كاد يشمل الناس كافة في بلاد العرب، وقد فخّم قدسيته عنصران متميّزان تمثلا في الحج والبيت.

كانت مكة حقاً المدينة العربية بالمعنى الممتاز، وهي مهد الوثنية والإسلام على السواء ونواة النخبة المقبلة. لكنها كانت أيضاً المدينة الاستثنائية التي لا تدانى، وقد جعل منها التاريخ المدون اللاحق المتأخر، نموذجاً إلهياً يعود إلى الزمن الكوني(٣). حتى أننا نجد شخصاً مثل سيف، وهو الإخباري المتقدم الذي يصف الكوفة في نشأتها فيقول في هذا الصّدد: «وكذلك كانت المساجد ما خلا المسجد الحرام، فكانوا لا يشبّهون به المساجد تعظيماً لحرمته»(٤).

هذا وما من شك في أن اللاشعور الجماعي للنخبة الحاكمة الإسلامية الأولى قد استبطن البنى والأشكال وكل ما حدث قديماً سواءً في ذلك من تجربتها المكية أو من مقامها فيما بعد بالمدينة. صحيح أن القرشيين كانوا قلة بالكوفة ذاتها لكن المؤسس سعد بن أبي وقاص كان نفسه قرشياً مكي الأصل مهاجراً إلى المدينة كما كان عمر، المدبر الرئيس لتخطيط الكوفة حسب ما ورد في الروايات. فماذا عسى أن ينعكس من ذلك على الكوفة؟ لقد ورد مثلاً أن صحن الكوفة حُدِّد برمي السهام ونحن هنا نلحظ أن في حياة قريش الجماعية المشحونة بالمقدسات كثيراً ما كان يُعتمد على القداح، وهو رمي شعائري للسهام(٥) وإذا كان القرآن نهى عن ذلك من وجهة المقصد الديني، فقد استمرّ الفعل كحركة مجرّدة بصفته تقنية لتحديد المجال وقياسه. ولا بد أيضاً من التفكير في أن المجال المركزي ذاته، قد حُدّد بهذه

---

(١) حراماً حسب عبارة السيرة، ص ٣٤٣؛ Serjeant, *art.cit.*, p.50؛ وقد جعل ناجل من الحرم ظاهرة مؤسساتية انطلقت منها الأمة، Nagel, *Art.cit.*, p.180.

(٢) الطبري، ج٣، ص ٢٨٣.

(٣) الأزرقي، ج١، ص ٣١ وما بعدها.

(٤) الطبري، ج٤، ص ٤٥.

(٥) الأزرقي، ج١، ص ١١٧ - ١١٩.

الصيغة ومنع تسلل القبائل. وهو الآخر مجال عمومي ديني قد يكون اقتبس هذه الصفة من الحرم والمسجد الحرام في آن.

لقد طُرح عمل التحريم الجاهلي قبل كل شيء كعمل لتحديد الأرض والنهي عن العنف[1]. صحيح أنه نزع المظهر القدسي عن الكوفة وكان الصحن مجالاً متقلّصاً، ولم يكن واسعاً محيطاً كما كان الحرم في العصر الجاهلي، لكن الحركة الأولية بقيت محافظة على صفائها والمسجد الأصلي بصفته مجالاً مركزياً غير محاط يسترجع معاً الانفتاح[2] ومركزية المسجد الحرام المكي. أما بخصوص مجال السكن، فلا بد من التذكير بما لفكرة الاختطاط ذاتها من أهمية. ويبدو أنها مسعى شرع فيه قُصيّ بمكة وهو الجد الممدّن، وقد استكمل ذلك أبناؤه[3]. إنه مسعى إرادي للتصميم والإنشاء وتوزيع وتنظيم للمجال الذي قسم إلى أرباع هي أرباع مكة[4]، وهو المسعى الذي نجده بالكوفة كعمل يبدو وكأنه شيء معهود مأنوس. ولا بد أن الدار أي المسكن الخاص قد اقتبست في وقت ما، كما قلنا، شيئاً من النموذج اليمني المطبوع بالترف والمبني في اتجاه الارتفاع. لكن من الأرجح أن الدار الأكثر شيوعاً وانتشاراً في الكوفة، كانت في البداية وفي أكثر الأحوال، نسخة عن المثال الموجود في شمال بلاد العرب بمكة، وهو مجال مربع مفتوح في وسطه[5]، ينفتح على حجرات وهو المثال الموجود بالطائف، والذي نجده على شكل أوسع وكحصن في أطم يثرب، وهو يتّصل فوق هذا بأقدم نموذج للدار ببلاد الرافدين.

الطائف

كانت الدور بالطائف أيضاً مسطحة حسب ياقوت[6]، بينما يصنها لامانس بأنها بيوت مرتفعة دون تقديم الدليل، وهو يقابل بين «ضعف المعمار في مكة» والحصون السميكة المتنوعة بالطائف[7]. الواقع أن يميّز هذه المدينة هو سورها[8]. لكن لعل الطابع المدني

---

(١) الطبري، ج٣، ص ٢٨٣: «ضرب مسيلمة حرماً باليمامة ونهى عنه».

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٥٨؛ الأزرقي، ج٢، ص ٦٨.

(٣) السيرة، ص ٨٤.

(٤) الأزرقي، ج٢، ص ٢٣٣ - ٢٦٥؛ السيرة، ص ٨٠.

(٥) Kister, «Mecca and Tamim», p.126: كان مثالاً دائراً ثم صار مربّعاً، ولم يظهر هذا الشكل الأخير إلا في النصف الثاني من القرن السادس م.

(٦) معجم البلدان، ج٥، ص ٩: «بيوتها لاطئة».

(٧) *La cité arabe de Ta'if*, pp. 183-184.

(٨) فتوح البلدان، ص ٦٦ - ٦٧؛ معجم البلدان، ج٤، ص ٨.

كان أكثر استكمالاً وأكثر تطوراً بالطائف مما كان عليه بمكة. فضلاً عن أن الطائف تميزت من مكة بزراعتها الجبلية الغنية[١]، الأمر الذي حمل قريشاً على جعلها تدور في فلكها إلى حدّ ما[٢].

ومن المعلوم أن زياداً كان من ثقيف. وأنه من أكبر المشيدين في البصرة والكوفة[٣]. وهذا لا يعني إطلاقاً أنه استوحى ذلك من مدينته الأصلية، لكن لعله احتفظ منها بهذا الميل إلى التمدن يضاف إليه تجربته في فارس. ولنضف: إذا اعتمدت الطائف، خلافاً لمكة، على الزراعة، فقد كانت تمارس أيضاً التجارة والربا[٤]، وعلاقتها في ذلك وثيقة بقريش[٥]، وكانت تساهم في الأسواق مساهمة نشيطة[٦]. والطائف مدينة دينية أيضاً ومقر لعبادة اللات، قد كانت أدمجت في نسق الحمس المكي لكن لا يبدو أنها كانت حرماً لأن الرسول هو الذي منحها هذه الدرجة في العهد الذي أعطاه لأهل الطائف[٧]، ولأنها إذا اتخذت سوراً فلكي تعد أسباب الدفاع المادية عن كيانها لانعدام الحرمة عنها بالذات.

المدينة:

كانت «المدينة» واحة متنوعة المساكن منتثرتها[٨]. ومصدر اسم يثرب[٩] يرجع إلى النـواة المـدمجـة[١٠] التي امتـدت إلى المجمـوع كـافـة وارتـدت بعـد ذلـك إلى مجـرد مكان معروف[١١]. ولم يكن المظهر المـدني بارزاً قبـل مجيء الرسـول، ويبدو جيـداً أن دوره

---

(١) ياقوت، ج٤، ص ٩ - ١٠؛ Lammens, art. «Taif», *E.I.II*.

(٢) فتوح البلدان، ص ٦٧؛ Kister, *ouvr.cit.*, p.9.

(٣) لا ننس أن ثقيفاً كان لها خطة هامة بالكوفة حيث كانت تقيم ذرية الدمون النسيب المؤسس: معجم البلدان، ج٤، ص ٨ الذي روى هذا عن ابن الكلبي.

(٤) فتوح البلدان، ص ٦٧: «كان أهل الطائف أصحاب رباء». M.Watt, *Mahomet à la Mecque*, pp.177-180.

(٥) المرجع نفسه، ص ١٧٨ - ١٧٩، لاسيما مع مخزوم، يمكن أن يكون أشد اعتداء تعرض له الرسول قد وقع بعد أن زار الطائف ولأن تشابك المصالح جعل من دعوته خطراً. يشير كيستر إلى ادماج ثقيف في الحمس: (Kister, *art.cit.*, p.9)

(٦) Lammens, *ouvr.cit.*, pp.206ff.

(٧) Kister, *art.cit.*, p.6.

(٨) M.Watt, II, p.13؛ وفاء، ج١، ص ١٩٠.

(٩) تسمية قديمة: Fr.Buhl, art. «al-Madina», *E.I.II*.

(١٠) وفاء، ج١، ص ٨ - ١٠. لم نتمكن من الرجوع إلى كتاب أخبار المدينة لعمر بن شبة الذي نشر مؤخراً بالمدينة.

(١١) المرجع نفسه، ج١، ص ١٩١ وج ٢، ص ٧٤٧.

التمديني كان حاسماً. فحيثما استقرّ في أرض خلاء خواء[1] برز المركز وصار فيها بعد «المدينة» ذاتها خصوصاً بالمعنى الحديث[2]. وكان اليعقوبي صريحاً في هذه النقطة حيث بيّن أن الرسول جمع حوله «الناس» الذين كانوا قبل ذلك «متفرّقين». فأصبحت المساكن متلاصقة بحيث أصبح ذلك مدينة[3] أي مكاناً يتّسم بتلاحق الأبنية وبكثافة السكن، ومفهوم «الناس» هنا يعني المهاجرين أولاً وبالذات[4]. إلا أنا نجد أيضاً عناصر من الأنصار تطوعوا للانتقال قريباً من الرسول[5] وكانت النقطة المحورية لهذا المركز الجديد، المسجد وداره الخاصة وقد تشكل منهما مُركّب متلاصق[6] هو مكان التجمع الدائم والمقر الديني وقلب السلطة كلما زادت بروزاً ونمواً، حتى أصبح المركز روح هذا التجمع البشري الذي كان مائعاً في السابق. لقد حدد هذا المركّب بالخصوص نموذجاً لكل الحضارة الإسلامية. إنه نموذج المسجد أولاً، الذي سيخطط طبق المثال النبوي مع بعض التغييرات، لكن المهم أيضاً بالنسبة للكوفة أنه سيلعب دوراً نموذجياً للتجاور بين مقر الحكم (الذي عرف بدار الإمارة بعد ذلك) والمسجد، أي مكان العبادة وتجمع المؤمنين. والملاحظ أن الأمر يتعلق بوحدتين مكانيتين متميزتين لكنهما متلاصقتان، وبوظيفتين مختلفتين لكنهما متصلتان اتصالاً عميقاً، إنما الصّلة في عصر الرسول كانت أشد قوة. وأما في الكوفة والبصرة ودمشق، فقد صار التمييز بين القصر والمسجد أكثر وضوحاً. لقد استقر مركز الحكم في عهد الرسول بالمسجد ذاته وكانت الدار متوجهة إلى الحياة الخاصة للنبي بينما كان الحكم بالكوفة يمارس أيضاً في المسجد، لكن بصفة أهم في القصر حيث تتجمع الأموال والقوى. وهكذا تواجد بالكوفة العامل السياسي والديني في نوع من جدلية التواصل والانفصال في حين أن الوحدة كانت تامة زمن الرسول، مع تفوق المسجد على الدار. وعلى كل فإن التسلسل من «المدينة» إلى الكوفة يظهر بوضوح كبير، ويبدو هكذا أن الاستناد إلى عصر الإنشاء «بالمدينة» أكثر بلاغة وقطعاً أكثر وضوحاً، من الاستشهاد بالمثال البابلي ـ الجديد الذي يبرز بصفة خاصة في التحصينات وفي الشعور بالقوة والرفعة، وليس أبداً في عنصر التصور الأساسي.

وعلى هذا، لا يندرج تأثير «المدينة» في المدينة الإسلامية خارج بلاد العرب وبالتالي في

---

(١) يستعمل السمهودي كلمة «مربد»: وفاء، ج١، ص ٣٢٢ وما بعدها.

(٢) اليعقوبي، البلدان، ص ٣١٣؛ F.Buhl, *art.cit.*.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣١٣ ـ ٣١٤.

(٤) وفاء، ج١، ص ٧٣٤ وج٢ ص ٧١٧.

(٥) أو من المسجد كما فعل بنو سلمة الذين رحلوا بطلب من الرسول: وفاء، ج١، ص ٢٠٣.

(٦) السيرة ص ٣٣٦ ـ ٣٣٨: كان المسكن من طابقين: فتوح البلدان، ص ٢٠؛ وفاء، ج١، ص ٣٣٥ ـ ٣٤٠؛ M.Watt, II, p.13.

الكوفة، إلا اندراجاً قليلاً في خط يثرب الجاهلية، التي كانت عبارة عن سلسلة من الواحات المبعثرة. بل يندرج أساساً في عمل الرسول ذاته، المؤسس لدلالات حاسمة بالأعمق رمزية للمدينة المسلمة التي جعل منها هيكلاً إسلامياً مؤسساتياً لا مدينة فحسب، بل مدينة بالمعنى السياسي (Politeia).

وإتماما لهذا التصور، يحسن بنا الإشارة إلى أن أسواق «المدينة» التي نقلها الرسول ونظمها، كانت هي النموذج لأسواق الكوفة، وليس الأسواق المحيطة بمكة التي كانت بمثابة معارض. ويصعب في هذا المقام تقييم العمل التجديدي الذي قام به الرسول: فلعل نقل سوق بني قينقاع[1] قد جرى في اتجاه المركزية، لكن الأرجح هو وجود عزيمة تنظيمية ستبقى فيما بعد، وقد ظهرت في مأسسة سوق يثرب القديم[2]. والملاحظ أيضاً وجود تعددية الأسواق[3] بيثرب وهي ظاهرة ستبقى في أية مدينة إسلامية، ووجود تقليد واضح لعله تأتى من الحضور اليهودي بخصوص ظاهرة السوق المدنية كمؤسسة دائمة تغذي الحياة الإنسانية اليومية. صحيح أنه وجدت سوق داخل مكة، لكن الأمر الأهم هو قيام السوق ـ المعرض خارج مكة والتي لها دور كبير في اقتصاد القوافل العابرة لبلاد العرب. والذي لا يقبل الشك أن الرسول فرّق بوضوح بين التجارة[4] والصلاة أي بين السوق والمعبد قاطعاً بذلك مع تقليد الشرق كله. فضلاً عن أن الإسلام مدّن السوق العربية بأن أقامها في قلب المدينة ذاتها، مع العلم أن السوق المحيطة بالمدينة الجاهلية قد بقيت، كما سنرى، بالكناسة في الكوفة وبالمربد في البصرة.

وهكذا نرى كيف أن الحضارة العربية التي شكلت المدينة فيها المحور المشع، تدين للإرث العربي الخاص الذي توفرت فيه التقاليد المدنية والتراكيب المتينة المقاومة، مثلما تدين للعمل الخلاق الذي قام به الرسول. هذا العمل النبوي الذي استمد بدوره كثيراً من ثقافته الحيوية، ثقافة قريش أولاً، وكذلك ثقافة كل الجهات في بلاد العرب. إن القرآن نفسه يشكل الذاكرة الرائعة للأمة العربية. إذ استرد الماضي كله، ماضي سبأ وماضي الحِجْر لكنه تجاوزه برؤية كونية وإلهية لتاريخ البشرية.

وهكذا ندرك ظهور إرادة عنيدة في الوجود وجهداً يتجه إلى الحضارة وتياراً توحيدياً،

---

(١) وفاء، ج٢، ص ٧٤٧.

(٢) المرجع نفسه، ج٢، ص ٧٤٧؛ فتوح البلدان، ص ٢٨.

(٣) وفاء، ج٢، ص ٧٤٧. كانت هناك بطحاء أيضا، وهي عبارة عن سوق للدواب على شاكلة الكناسة: المرجع نفسه، ج٢، ص ٧٥٤.

(٤) W.Heffening, art. «tidjara», *E.I.II.*، ولعل هذا التمييز يرجع إلى الفرس.

من العرب الأوائل إلى اليمنيين، ومن اليمنيين إلى عرب الجاهلية. صحيح أن هذا العالم مثله مثل العالم اليهودي من قبل، كان هامشياً بالنظر لمراكز القوة في الشرق، وربما أضفى لذلك حرمانه على السماء، فصعّد هذه القوة الشرقية ليضعـها بعد ذلك بين يدي الله[1]. ثم أعادها إلى الأرض لكي يعيد صوغ مدينته الأرضية انطلاقاً من تلك السماء وذلك في الأماكن نفسها، غير البعيدة من بابل وآشور والمدائن، حيث امتدّ طويلاً ودام كبرياء الامبراطورية.

---

(١) لقد فهم ماكس فيبر جيداً هذا الإشكال انظر: Max Weber, *Sociologie de la Religion*, in *Economie et Société*, I, p.446.

الباب الخامس

التمدن والاستقرار.
الذروة التاريخية
٥٠ ـ ٨٠ هـ/ ٦٧٠ ـ ٧٠٠

اكتسبت الكوفة وجهها الحقيقي في العصر الأموي، وجه المدينة التي تشكلت بشكل ورثته عن أول بادرة للتخطيط. هذا ولم تتسرب إلا أشياء قليلة جداً من العصر السابق الذي دام عشرين سنة بعد موت عمر(١). المعلوم أن الضغط الديمغرافي قد استفحل أمره وأن المدينة ـ المعسكر عاشت فترة من الغليان والاضطراب(٢)، فشاركت مشاركة نشيطة في مقتل عثمان وفي معركتين عظيمتين هما وقعة الجمل ووقعة صفين. لكن لا شيء أو تقريباً لا شيء يمكن استشفافه في المستوى المدني.

وخلافاً لذلك، فقد تشكل القصر والجامع بشكلهما النهائي، خلال ولاية المغيرة وإمارة زياد. هذا أمر ثابت بالنسبة للقصر بحيث إن إعادة بنائه خلال العصر العباسي لم تكن في واقع الأمر سوى عملية تجميلية أو ترميمية. وقد أكد علم الآثار الأمر، مميزاً بالخصوص فترتين في خلال العصر الأموي(٣)، بحيث يبدو أن الكوفة قد تطورت على مرحلتين متواليتين قبل سنة ١٠٠ وبعدها(٤). كما يمكن أن نتساءل عما إذا كان القرن الطويل الممتد من سنة ٤٠ هـ. إلى ١٥٥ من الهجرة ـ وهو تاريخ إقامة الخندق والحزام(٥) ـ

---

(١) راجع بحثنا: H. Djait, *art.cit.*, p.148ff و *E.I./2*, art «Kufa»، بخصوص الأخبار القليلة عن الطوبوغرافيا. كما توجد معلومات متفرقة في تاريخ الطبري، ج٤، ص ٢٧٣ مثلاً، وج٥، ص ٦٠ و ٦١ و ٨٣ و ٩١.

(٢) الطبري، ج٤، ص ٢٧٩ وما بعدها؛ Shaban, *Ouvr.cit.*, pp.60-78؛ M. Minds «Kufan political alignements and their background in the mid-seventh century A.D», *International Journal of Middle Eastern Studies*, 2 (1971), pp.345-367.

(٣) M.A.Mustafa, «Preliminary report on the excavations in Kufa during the third. Season» *Sumer*, 1963, p.27ff.

(٤) *Ibid.*, p.57.

(٥) الطبري، ج٨، ص ٤٦؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٨٧، لم يذكر سوى الخندق.

لم يشكل وحدة زمنية كبيرة لأن الأجهزة الأساسية لم تتغير ولأن المناخ الحضاري نفسه كان يحيط بالمدينة. لكن أدخل العباسيون الأوائل تغييرات جزئية كثيرة تبرر لا حالة الانفصام الذي أكده علم الآثار بالنسبة للقصر، على الرغم من استحالة تقديم تاريخ دقيق يحدد بداية الطور العباسي[1].

أصبحت الكوفة بعد هذه التغييرات، مجموعة مدن أميرية تحيط بحاضرة مدنية مركزية كبرى: مدينة ابن هبيرة، والهاشمية شرقاً، والرصافة إلى الجنوب الغربي، والكوفة الحقيقية بالمركز[2]، في حين أن الكوفة بقيت وحدة مدنية إلى نهاية العصر الأموي.

ومن المعلوم أن أوائل المؤرخين الذين تحدثوا عن الكوفة، ألفوا كتبهم في العصر العباسي، سواء كان سيف أو أبو مخنف[3]، أو اليعقوبي والبلاذري بعد ذلك. وقد داخلتنا الحيرة مما كتبه المؤلفان الأولان[4] إذ كانا مخضرمين عاشا العصرين، واعتمدا أحياناً التغييرات الطارئة على الطوبوغرافيا وذكرا ذلك[5]، وشعورنا مع ذلك أنهما يصفان الكوفة العباسية[6] بعد أن اقتصرا على زيادة بعض الاحتياطات حتى يكون الأمر مقبولاً.

يبقى الموضوع صعباً إلى أقصى حد لو رمنا التوفيق بين ما ذكرته هذه المصادر الأربعة الرئيسة، نعني سيفاً والتخطيط الأولي الذي عرضه علينا، وأبا مخنف الذي يرسم إطاراً

---

(١) يمكن تحديد نهاية العصر العباسي الأول بسنة ٢٠٠ هـ. تقريباً: Mustafa, *art.cit.*, p.63: شيد القصر العباسي بعد هدم القصر الأموي.

(٢) الطبري، ج٧، ص ٦١٤ وما بعدها؛ البلاذري، ص ٢٨٥.

(٣) مات أبو مخنف في ١٥٧ هـ. ويرى ماسينيون، *art.cit.*, p.45، أن روايات أبي مخنف تشتمل على أسماء مكان صيغتها إيرانية (مثلاً لحّام جرير). وتؤرخ هذه الصيغة إلى ما بعد عام ١٣٢ هـ. «كتب أبو مخنف رواية الأحداث بعد سنة ١٣٢ هـ، بعد أن نقح أسماء المكان».

(٤) اتهم وبتعيير سيفاً بأنه أسقط على الماضي معلومات من عصره الذي هو العصر العباسي: *ouvr.cit.*, pp.34-35؛ راجع أيضاً: Wellhausen, *Skizzen*... VI, pp.3-7.

(٥) مثلاً: «تركناه قد نزل عند مسجد القصّاص، يعنون مسجد أبي داود في وادعة، وكان يعتاده رجال أهل ذلك الزمان يقصّون فيه». أبو مخنف في تاريخ الطبري، ج٦، ص ٤٨. يتعمد عصر المختار بقوله: «في ذلك الزمان».

(٦) أشار أبو مخنف إلى سكة البريد خلال ثورة زيد حيث قال إنها كانت، تمر قرب ديار أرحب وشاكر، وعشائر همدان التي أقامت في الشمال: الطبري، ج٧، ص ١٨٦. فهل كان يعني سكة البريد المتجهة إلى دمشق أم تلك التي وجهتها بغداد؟ أما البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٨٤، فيحدد موضع السكة بالكنيسة القديمة الراجعة لأم خالد القسري، وكأن الأمر يتعلق بفتح سكة جديدة. يمكن القول إن أبا مخنف يشير إلى السكة العباسية. ثم لماذا يستخدم كثيراً عبارة «دخل الكوفة» أو «خرج من الكوفة»؟ كما ورد عند الطبري مثلاً، ج ٦، ٢٩: «حتى يدخل الكوفة من قبل الكناسة»، كأن الكوفة محاطة بحزام وكأن الكناسة كانت تقع خارج هذا الحزام في عصر المختار.

طوبوغرافياً ثرياً وغامضاً في آن، يصف من خلاله ثورة المختار[1] (٦٦ - ٦٧/ ٦٨٥ - ٦٨٦)، وثورة زيد بن علي[2]، إضافة إلى البلاذري في فتوح البلدان[3]، واليعقوبي في كتاب البلدان[4] الذي مزج بين القديم والحديث، وخلط بين الأخبار التاريخية والملاحظات المقتضبة. أما مخطط ماسينيون، فإنه يورد أصلاً رواية أبي مخنف بخصوص المختار، متيحاً بذلك اقتفاء أثره عبر الثنايا التي مر بها، ودامجاً أيضاً عناصر اقتبسها من اليعقوبي، وهو يخلط بين العصر الأموي والعصر العباسي. فضلاً عن أنه لم يأخذ بعين الاعتبار التصور الأولي الذي وضعه سيف، فالتبس عليه موضوع التعريف بالقبائل، كما غابت في مخططه أسماء السكك والشوارع، وتحددت مواقع الجبّانات تحديداً تقريبياً، لم يبعد كثيراً عن المعقول. الحقيقة أن ضبط تخطيط دقيق للكوفة على خارطة نعتبره من الوجهة العملية أمراً مستحيلاً، أي الكوفة في العصر الأموي، لغموض المعلومات الواردة في المصادر. على أن محاولة ماسينيون تبقى صالحة نسبياً ومفيدة. يمكن أن نحاول استكمالها وتصحيحها أيضاً دون أي أمل في الوصول إلى وضع رسم ناجز نهائي يقترب ولو قليلاً من المخطط النهائي الواضح.

لقد تم كل شيء وكأن الروايات استخدمت مجموعة من العلامات المكانيّة التي هي القصر والجامع والسبخة والفرات والكناسة والجبّانات الرئيسة، لاستعراض الجو الحضري وبث الحياة في المدينة وإعادة إحيائها، أكثر مما كانت لتوجيهنا أو إرشادنا. فإما أن يكون أبو مخنف قد ألف لأناس كانوا على معرفة جيدة بالكوفة، فأغفل لذلك عدة أمور، وإما أنه كان يضلّل القارىء. فوزع في نصوصه علامات طوبوغرافية على طريقة القصّاص - حتى يضفي مصداقية أكبر على ما يكتب. وشعورنا أن هذه العلامات نفسها كانت تتكرر دون تغيير، في كنف الغموض دائماً، واستمر الأمر قرناً ونصف القرن - منذ ثورة المختار إلى ثورة ابن طباطبا[5] (١٩٩ - ٢٠٠/ ٨١٥ - ٨١٦). فترتب عن ذلك توفّر قائمة لا يستهان بها من أسماء المكان - ذكر ماسينيون ١٢٥ إسماً[6] - وتمكيننا من استكشاف ووصف الوظائف

---

(١) الطبري، ج٦، ص ١١ - ٦٦ وص ١٠٤ - ١٠٧.

(٢) المرجع نفسه، ج٧، ص ١٨٠ - ١٩١.

(٣) فتوح البلدان، ص ٢٧٤ - ٢٨٧.

(٤) كتاب البلدان، ص ٣٠٩ - ٣١١: عرض (ص ٣١٠) خطط الكوفة وكأنها متأتية من خلافة عمر. لكن يسود الشعور بأنه يسقط ملاحظاته الراهنة ويوضحها أحياناً، وقد فعل ذلك بخصوص همدان فقال عنهم تفرقوا في الكوفة.

(٥) الطبري، ج٨، ص ٥٢٨ وما بعدها.

(٦) Massignon, *Art.cit.*, p.57. يؤكد ماسينيون أن الطبري ذكر ١٢٥ اسماً في الكوفة وذكر البلاذري ٥٠ إسماً، ووردت ١٠ أسماء في كتاب الأغاني وحده. لكن ماسينيون لا يذكر كل أسماء المكان في بحثه.

الخاصة بالأجهزة الرئيسة في المدينة، وتخيُّل الجو الذي كان سائداً فيها، لكن ليس تحديد مخطط محكم مفيد. ومع هذا فقد كانت هذه المدينة تطفح بالحياة في الماضي، وهو ما يحثنا على إعادة بنائها داراً داراً وسكة سكة، على مستوى الفكر متحدّين الزمان ومستبدلين بعلم الآثار الميداني علم الآثار المستمد من التآليف المروية. هذا ويتكون ميداننا مثل ميدان الواقع من شظايا ممزّقة وعلينا الاقتناع بالقليل.

ـ ١٥ ..
المجهود المعماري في عهد زياد
٥٠ ـ ٥٣هـ/ ٦٧٠ ـ ٦٧٣

بناء القصر والمسجد

كشف علم الآثار عن العصر الأموي الأول الذي بدأ في أمارة زياد، وقد تضافرت المصادر الأدبية للتأكيد على الجهود التي بذلها في مجال التمصير والتنظيم. إنما حين نتمعن في تاريخ الطبري بين سنة ٤٥ و٥٣/ ٦٦٥ ـ ٦٧٣[١]، لا نجد أبداً أثراً لتشييد مسجد البصرة والكوفة، ولا حتى أثراً لبناء القصر. لكن نجد فيه كل ما يساعد على إدراك ذلك، بمعنى أن هناك مسعى لتأكيد السلطة وهيبة الدولة. وهنا ينبغي اعتماد كتاب فتوح البلدان للبلاذري[٢]، والروايات القديمة التي ذكرها سيف والمتعلقة بالكوفة في بداية أمرها[٣]، وياقوت[٤]، حيث أشارت هذه المصادر جميعاً إلى ما يتعلق بالمسجد، مهملة القصر بصفة واضحة. حتى بخصوص الجامع، فقد دار الحديث عن إدخال تحسينات بزيادة الأعمدة ونشر الحصى في الصحن، والتوسيع فيه، أكثر مما دار الحديث عن البناء الصلب، ونستثني من ذلك إشارة قيمة وردت عند البلاذري: «ثم إن المغيرة بن شعبة وسّعه وبناه زياد فأحكمه وبنى دار الامارة»[٥]. ولم يذكر الطبري شيئاً بخصوص القصر، ولم يقل ياقوت شيئاً أيضاً. وباستثناء الخبر العابر الذي جاء ذكره عند البلاذري، فقد أيّد السياق التاريخي كله خبر إعادة بناء زياد مركّب القصر والمسجد بصفة شاملة. لقد وسع زياد بالفعل مسجد

---

(١) الطبري، ج٥، ص ٢١٦ ـ ٢٩٠.

(٢) فتوح البلدان، ص ٢٧٥، وما بعدها؛ المرجع نفسه، بخصوص البصرة، ص ٣٤١ وما بعدها.

(٣) الطبري، ج٤، ص ٤٦ ـ ٤٧.

(٤) معجم البلدان، ج٤، ص ٤٩٢،

(٥) فتوح البلدان، ص ٢٧٥: تشير كل الدلائل إلى أن ذلك جرى خلال ولاية المغيرة الثانية (٤١ ـ ٤٥) كما يؤيده السياق، لا خلال الولاية الأولى، كما ظن ماسينيون.

البصرة توسيعاً عظيماً فبناه بالآجر والجبس، وغطى السقف بالخشب الثمين[1]. وبعد أن نقل موضع القصر من الدهناء إلى أن جعله ملاصقاً للمسجد، بناه كذلك بناء صلباً لكن باللبن فقط[2]. ولا يتحدث أي خبر موثوق به عن إعادة بناء قصر أو مسجد الكوفة بعد زياد، واستمر الوضع كذلك حتى نهاية العصر الأموي. روى البراقي دون غيره أخباراً متأخرة وأكد أن عبد الملك هدم القصر في سنة ٧١ هـ. (مما يثبت أن القصر كان موجوداً)، وبنى قصراً آخر مكانه[3] واعتمد في قوله على الدياربكري[4]، وعلى سبط ابن الجوزي[5]. تعرض الطبري[6] والبلاذري[7] مطولاً لمقام عبد الملك في الكوفة، ولم يذكرا ولو كلمة عن هذا الهدم الذي لا يصدق. وتؤيد الأمور الرأي القائل إن مسجد الكوفة وقصرها سواء بسواء كانا من عمل زياد، وقد اتصفا بمظهر معماري متكامل حين شاهدهما الناس في القرن الثاني الهجري (سيف مثلاً)[8]، إلى أن بقيا في عصر متأخر على تلك الحال، باستثناء القصر الذي تم ترميمه في العصر العباسي. والغريب أن ابن بطوطة قدم وصفاً لقاعة الصلاة بمسجد الكوفة قريبة بصفة ملفتة للنظر مما قاله سيف بن عمر فتحدث عن سقف مرتفع يقوم مباشرة على الأعمدة[9]. وعلى هذا الأساس يجب التنويه بعمل زياد، الذي اكتسى مظهراً مكتملاً وعظيماً، وهذه ظاهرة ممتازة ولا سيما أنها وجدت في عصر الإسلام المبكر.

مسجد زياد

على الرغم من اقتضاب قول البلاذري، فقد تضمن عناصر أساسية تخص عمل زياد هي التوسيع وبناء حجرة الصلاة، ورفع السقف على أعمدة عالية، وأرض **مغطاة بالحصى** المعبر، وتشييد المقصورة[10]. وهكذا، فقد تميّز مسجد الكوفة بالخاصيات الرئيسة المعروفة

---

(١) فتوح البلدان، ص ٣٤٢. وقد روى عنه ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص ٤٣٣.

(٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها، وبنى الجسر بعد ذلك خلافاً لما وقع بالكوفة.

(٣) البراقي، ص ٦٦ وما بعدها.

(٤) مات في ٩٦٦ هـ، وألف تاريخ الخميس، ج٢، ص ٣٤٥.

(٥) تذكرة الخواص؛ أشار المسعودي في مروج الذهب، ج٣، ص ٣١٢، لا إلى تهديم القصر بل إلى الطاق الذي كان يجلس تحته عبد الملك لا غير.

(٦) الطبري، ج٦، ص ١٦٢ - ١٦٥.

(٧) أنساب الأشراف، ج٥، ص ٣٥٠ - ٣٥٤.

(٨) تحدث سيف عن إعادة بناء المسجد من قبل زياد، لا عن بناء القصر: الطبري، ج٤، ص ٤٦. وقال بخصوص المسجد: «فلم يزل على ذلك حتى بني أزمان معاوية بن أبي سفيان بنيانه اليوم على يدي زياد». الملاحظ أنه لم يتمكن من مشاهدة سقوف الفسيفساء المنسوبة إلى سعد، خلافاً لما قال ريتمير Reitemeyer.

(٩) رحلة، طبعة بيروت ١٩٦٠، ج١، ص ٢١٩؛ ابن جبير، رحلة، ص ١٨٨.

(١٠) فتوح البلدان، ص ٢٧٦. الملاحظ أن البلاذري لا يذكر ارتفاع السقوف. وإن تحدث عن جبال الأهواز =

في المسجد الإسلامي واعتُبر مع مسجد البصرة نموذجاً له[1].

ذكرنا أن سيفاً كان يقول بوجود مسجد مبني في ولاية سعد ومنذ البداية، كانت سقوفه ذات فسيفساء بيزنطية، ومحمولة على أعمدة من رخام انتزعت من أحد القصور الساسانية. فماذا فعل زياد؟ قيل إنه أعاد بناء المسجد بأعمدة وردت من الأهواز - «تنقر ثم تثقب ثم تحشى بالرصاص وسفافيد الحديد» - وقيل إنه أضاف له الأروقة[2]. وجملة القول إن الأمر تعلق هنا بتحسينات أدخلت في مخطط سعد، بأن تمّ رفع السقف، واستبدل بالخليط المقتبس شكلاً هندسياً مبتكراً متصوراً. فلم توجد في كل حال أقواس بل سقف مرتفع جداً تحمله أعمدة من حجر مغطاة بتيجان على شكل ورق الأقنثة[3] لكنها فارسية الطابع، وبفضلها تم رفع السقف. وبعد مدة، تعجب ابن جبير من ذلك، متحدثاً عن خمسة أبلطة موازية للقبلة وبلاطين في كل جناح من الأجنحة الجانبية[4]. لا فائدة من الدخول في نقاش أثاره كرسويل بشأن منطلق مثل هذا التصور للمكان[5]. لا شك قطعاً أن التأثير الفارسي موجود وهو يتمثل في نحت الأعمدة العالية وهي خاصية فارسية أصيلة[6] وأيضاً الزيادة في ارتفاع السقوف (مثلاً الإيوان بالمدائن). لكن ينبغي التأكد من الصلة بين العنصرين في المعمار الساساني قبل الاعلان عن وجود تسلسل ما، يعود إلى «الابدانا»[7]. وإلّا وقعنا مجدّداً في حضريّة سطحية وتحكميّة في آن.

= كمصدر لحجر - لا رخام - الأعمدة، فذلك خاص بالبصرة، خلافاً لقول سيف.

(١) هذا هو مشكل الأسبقية: هل كان البدء في البصرة أم في الكوفة؟

(٢) الطبري ج٤، ص ٤٦. ورد ذكر ارتفاع ٣٠ ذراعاً - ويحتمل أنها كانت سوداء - يعني أكثر من ١٥ متراً، وكذلك المجنبات والمواخير، وهي كلمة يعسر التدقيق في معناها في هذا المجال: راجع في هذا الموضوع الجنابي، مرجع مذكور، ص ١٢٠. وتقديراً للتوسيع، نذكر رقماً اقترحه ياقوت في معجم البلدان، ج١، ص ٤٩١، أي ما يسع ٦٠٠٠٠ شخص بدل ٤٠٠٠٠ في ولاية سعد.

(٣) استخرج عمودان بفضل الحفريات: الجنابي، مرجع مذكور، ص ١٢٢.

(٤) رحلة، ص ١٨٨ وما بعدها، أكد بالخصوص على مواد البناء ونوعها وهي تتركب من حجر، وعلى الارتفاع الاستثنائي الذي كان للأعمدة، وغياب القباب، راجع المقدسي أيضاً: أحسن التقاسيم، ص ١١٦ وما بعدها.

(٥) Art. «Architecture», *E.I.2*، وراجع خاصة: *Early Muslin Architecture*, I, p.44.

(٦) اليست برسيبوليس هي التي تحتوي على أعلى عمود في معمار العصور القديمة: راجع Roman Ghirshman *L'Iran des origines à l'Islam*, p.175. كان التأثير الشامي الروماني في عصر الساسانيين قد تسرب إلى الزخرف وهو عبارة عن نقش على شكل الأغصان، وأوراق الأقنثة (قصر بيشابور): *Ibid.*, p.315. انظر بتوسع: Ghirshman, *L'Univers des Formes*, II.

(٧) يعني إنكار كل تأثير فارسي، كما فعل أحمد فكري، التعبير عن سوء النية: الجنابي، مرجع مذكور، ص ١٢٥.

كان المسجد مربع الشكل تقريباً، لأن الحفريات الأثرية المتعلقة بأسسه حددت ١١٠ من الأمتار لحائط القبلة، و ١٠٩ من الأمتار للشمال، و ١١٦ متراً للضلع الغربي والشرقي. كان المسجد محصناً مسوراً، وكانت أبراج نصف دائرية تتخلل الحزام، وقد تمكن في بعض الأوقات من استقبال كل المقاتلة أي حوالى ٦٠,٠٠٠ شخص. ومن المفروغ منه أن الفتحات التي تصورها كرسويل، وناقش في عددها الجنابي معتبراً مع ذلك أنها موجودة فعلاً، وهي ٥ شمالاً و ٤ جنوباً و ٣ شرقاً وغرباً، كانت تقوم على فرضية خاطئة تماثل بين الصحن المرسوم برمية السهم منذ التخطيط الأول، وبين مساحة المسجد، وهي لا تطابق الواقع في شيء. ويمكن إحصاء ثلاثة أبواب في المسجد على أقل تقدير، هي باب الفيل شمالاً، وباب كندة جنوباً أو غرباً، وباب آخر يربط بين القصر وحجرة الصلاة، وهو ما أثبته التنقيب، ولعله باب السدّة الذي تحدث عنه البراقي بالاعتماد على مصادر الشيعة. وقد ذكر أيضاً باب الأنماط الذي يفتح على السوق أي من جهة الشرق[١]. وبذلك تكون أربعة أبواب على الأقل منها ثلاثة للعموم. ويحيط الشك بخصوص باب كندة الذي يكتب أحياناً بصيغة الجمع (أبواب كندة) وبذلك نستبعد ما ذكره كرسويل من فتحات كما نستبعد الفتحات الثماني التي ذكرها أحمد فكري واقتبسها عنه الجنابي[٢].

ومن المحتمل أن يكون المسجد الحالي موجوداً على أرض المسجد القديم. إن مظهره المحصن المهيب يوحي بصورة المسجد الذي كان قائماً في القرن الأول، إذا ما نظرنا إليه من الخارج فقط. الواقع أنه مسجد متأخر أعيد بناؤه بواسطة مواد مأخوذة من القصر. والرأي السائد أن مستوى المسجد القديم ربما كان يطابق آثار «السفينة» الموجودة تحت الأرض، على عمق عدة أمتار من المستوى الحالي[٣]. وبذلك لعل المسجد القديم، على الأقل مسجد العصر العباسي، مدفون تحت المربع الحالي الذي يشغله المسجد إلا أن مكانته الدينية ربما تحول دون التنقيب الأثري المنسق كما حصل في القصر.

قصر زياد

كشفت التنقيبات عن ثلاثة مستويات: مستوى أول مطابق للعصر الأول (دار سعد؟) عمق أسسه ٩٠ سنتمتراً على أرض عراء، ومستوى ثان من العصر الأموي وهو الأهم، وأخيراً المستوى العباسي الذي لم يكن سوى ترميم للقصر الأموي[٤]. وبذلك فما

---

(١) البراقي، ص ٣١ ـ ٣٢.

(٢) Creswell, *ouvr.cit.*, pp.127-128.

(٣) *Ibid.*, p.118.

(٤) M.A. Mustafa, *Art.cit.*, p.37.

تبقى من القصر يطابق القصر الأموي أصلاً، أي ما أنجزه زياد. قام زياد بعمل جليل عظيم شمل عناصر ثلاثة هي الحزام الخارجي والجدار الداخلي وعدة بنايات. لا يقل قياس الحزام الخارجي عن ١٦٨,٢٠ متراً، للضلع الشمالي الجنوبي، و ١٦٩.٦٨ متراً للضلع الشرقي الغربي(١). كان بناء من آجر، ولم يتجاوز سمكه ٤ أمتار، وقد أحيط بـ ٢٣ برجاً، علماً أن عبيد الله بن زياد تحصن فيه مع الأشراف، وأن المختار واجه فيه الحصار. كان حزاماً تحصنت وراءه السلطة. فقام بدور رئيسي لصد الانتفاضات. وهناك خصائص مماثلة في الحزام الداخلي منها شكله المربع ومتانة بنائه وقدرته على الصمود. لقد أثبت قصر الكوفة ذاته كحصن منيع، في حين أن قصر البصرة وتمّ تخريبه وهدمه بسرعة ثم أهمله الولاة، مع أنه لم يكن موجوداً في بداية الأمر أو يكاد، وزياد نفسه هو الذي بناه من لبن، فما سبب ذلك؟(٢) لقد تطابقت هذه الأسوار المتجبرة ومصير الكوفة، مجهضة بدون تردد كل الثورات، وأصبحت بمثابة الشخص المركزي في تاريخ مدينة الكوفة.

وفي حين أن القصر الأول ـ قصر سعد ـ تشكل من وحدة واحدة، انتشر القصر الأموي كمجموعة مركّبة وهو يشتمل على عدة وحدات وبكلام أدق ثلاث مجموعات طولية يشكل مستطيلها المركزي نواة معْلَمية، ولم نقدر إلا على الجزم بأن المادة التي أعيد استخدامها تنتمي إلى العصر الأموي الأول(٣). وحتى في هذا المستوى، لا يمكننا حسم الشيء الذي يعود إلى العصر الأول والشيء الذي يستند إلى العصر الثاني. لكن في مقدورنا تكوين فكرة دقيقة نسبياً عما كان عليه القصر الأموي. يتميّز هذا القصر في الوقت نفسه بانسجام هيئته ـ ولاسيما في المركز ـ وبما كان له من مظهر هو عبارة عن متاهة ملتوية. نجد حجرات كبرى للاستقبال (أبهاء) وإيوانات ألحقت بها أجنحة، ودوراً، وغرفاً مربعة للسكن، وغرفاً طولية ومعابر، ومداخل، تشكل معظم هيكليته المعمارية(٤). وتستقطب الانتباه القاعة الكبرى بالمركز، وكذلك صفوف الأعمدة التي تتصل بها وتنفتح على حجرة مقبية. إنها لتشابهات عجيبة تلك التي تظهر بين إيوان القصر، ما هو موجود بالاخيضر، بين الفرع الجنوبي وقصر المشتى(٥). ويسود الرأي أن أسلوب الحيرة هو الذي احتل المرتبة الأولى، في حين أن بعض العناصر من العصر العباسي الأول مثل الترصيف العمودي

---

(١) *Ibid.*, p.38.

(٢) فتوح البلدان، ص ٣٤٤.

(٣) M.A. Mustafa, *Art.cit.*, p.53.

(٤) *Ibid.*, pp. 41 - 48, 58.

(٥) *Ibid.*, p.42.

للآجر، لعله يعود إلى الزمان الغابر (العصر الأكادي والقسي)[١]. ومن جهة أخرى نجد الزخرف العباسي شبيهاً بما وجد في قصر الحَيْر الغربي، والمشتى[٢] والمفجر[٣] ـ وهو زخرف الدهن بالألوان المائية والنحوت، ذو الإتجاه الطبيعي والحيواني ـ في حين أن ما تبقى من الزخرف الأموي يتجه إلى مزيد من التجريد والهندسة، فاحتفظ بالخطوط الأساسية لتطور الزخرف الإسلامي الذي جد فيما بعد. ولا يكتسب ذلك أي تناقض في واقع الحال، فقد جرت الأمور وكأن العصر العباسي الأول أشع بكل ما ورد عليه من مؤثرات عديدة. فاتجه الزخرف إلى التمثيل الطبيعي وأتى دور الحذف والندم والعودة فيما بعد إلى البساطة الأولى. غير أننا لم نطلع كثيراً على الزخرف الأموي الذي امحى. ومع ذلك علينا أن نفترض وجود أعمال مرسومة، ومواضيع حيوانية وبشرية[٤].

على الرغم من جهلنا مختلف التحويرات التي قام بها الولاة الأمويون في القصر، والتي وجدنا منها بعض أصداء باهتة في المصادر المكتوبة، فالمؤكد أن ما عمله زياد بالكوفة يمثل تحولاً كبيراً في تشكيل المدينة وفي المعمار الإسلامي معاً. لم يكن القصر حصناً وحسب، بل كان قصراً كبيراً واسعاً حيث تظهر أبهة السلطة. وفي هذا المجال يدعم علم الآثار ما تصدره المصادر من أحكام تقريظية. فمن اللازم أن نتصور صحونه المربعة الكبيرة وأبهاءه وايواناته وكواته المعمدة التي تنفتح على منظر صَفّي الرواق المركزي[٥]. وعلينا تخيل زخرف جدرانه وملاطاته وأنواع زينته. كما لنا أن نتخيل الخلية البشرية الكبرى التي كانت تعمر البنايات الملحقة به. إن المظهر الجمالي موجود ونحن نشعر به ونتوقعه وهو الذي أوحى به علم الآثار.

---

(١) *Ibid.*, p. 45.

(٢) *Ibid.*, p. 45.

(٣) *Ibid.*, pp. 55-57.

(٤) *Ibid.*, p. 55؛ والجنابي، ص ٢٨.

(٥) M. A. Mustafa, *art.cit.*, p.41: يظهر أن بنية القاعة المركزية المعمدة تعود إلى آخر العصر الأموي، وهناك فضلاً عن ذلك، شبهٌ بشكل الكنيسة الملكية. ارجع أيضاً إلى الرسم في المقال المذكور.

- ١٦ -
التمدّن والتنظيم

الأمر المؤكد أن زياداً أعطى الكوفة نواة معمارية لكننا لا نكاد نعلم شيئاً عن عمله فيما يتعلق بالطوبوغرافيا المدنية خاصة، والمرجح أن الكوفة بدأت تشكل مركزاً مدنياً حقيقياً ابتداء من المغيرة وزياد. وكانت النواة المعمارية عنصراً يدفع بالكيان المدني إلى الأمام، ويطبعه بنموذجه المعماري والزخرفي. وقد أشار البلاذري[1] من جهة أخرى إلى أن العمال غمروا المركز العمومي ببناءاتهم الخاصة مضيقين بذلك من رقعة الأماكن الشاغرة، وقد جرى ذلك في بداية العصر المذكور وبمبادرة من عمرو بن حريث ـ الذي تولى الكوفة نيابة عن زياد. واتخذ زياد آخر الأمر مقررات مهمة فيما يتعلق بمراجعة التنظيم العسكري والإداري للمصر. واعتنى ذلك التنظيم بإعادة تجميع الوحدات القبلية. وليس مستبعداً أنه كان لتلك المقررات تأثير على طوبوغرافية الخطط. تمثل عمل زياد، وبصفة عامة ما جدّ خلال العشرين سنة التي قضاها معاوية في الخلافة (٤١ ـ ٦٠)، في تحديد أسس الترتيب العام، وإشاعة الاستقرار وإدخال التحويرات الضرورية أكثر مما تمثل في اتخاذ قرارات واضحة وأعمال معينة كتلك التي اهتمت بإعادة بناء القصر والمسجد وتلك التي نسبت بعد ذلك إلى خالد القسري (١٠٥ ـ ١٢٠ هـ) بخصوص بناء الأسواق بناءً منظماً. وقد تحقق التحول الطارىء على الكوفة بين سنة ٥٠ و ١٠٠ أو ١٢٠ هـ، فكان تحولاً صامتاً بصفة عامة، وقد تميز بمراحل بارزة منها ولاية زياد تحديداً، ولا ريب أن الأمر كان كذلك في ولاية الحجاج والقسري. ومن المعلوم أن الأمر مؤكد لا مراء فيه بالنسبة للنواة، لكن المرجّح أن الأمر كان كذلك بالنسبة لبقية المدينة.

---

(١) فتوح البلدان، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

الطموح المعماري والجمالي

كان هذا الطموح موجوداً منذ البداية حين افتتن العرب بفخامة المدائن. لكن الحسرة انتابتهم لما غادروها، لأنها كانت غريبة عن عالمهم، وقد نقلوا معهم «مصاريع الأبواب»[١] زيادة عن جملة من التصورات، وتكرر ذكر «الأبواب» كثيراً. ولما شيد سعد قصره المتواضع من قصب أو لبن وهو أمر كثير الترجيح ركب له باباً ضخماً من خشب ـ لعله هو أيضاً منقول[٢]. فبدا الباب رمزاً من رموز عظمة الحكم الجديد، وانفعل لذلك عمر ووجه رسولاً لحرق هذا الباب[٣]. وقد روي أنه عبّر عن امتعاضه قائلاً[٤]: «ليس بقصرك ولكنه قصر الخبال». كان عمر يبذل قصارى جهده للحفاظ على البساطة الأولى، وروح الأصالة الكامنة في الأمة وهويتها الثقافية. هذا ولا يمكن القول إن العرب لم يستجيبوا لهذا الطلب أو أنهم افتتنوا بسهولة بهذه الحضارة المادية الرفيعة. كان نقل الأبواب واحتمال حرق باب القصر بالكوفة، عبارة عن مواقف مؤثرة لو كانت حقيقية. الذي يهمنا هنا أنها تستند إلى الرمزية الشرقية الصرف الموجودة في الباب. وهناك شواهد على نقل الأبواب وأسكفاتها من مدينة إلى أخرى في العصر الساساني، كما توجد شواهد أخرى على أن هناك أسكافات أبواب من آجر كانت تشكل واجهات لمعالم مبنية من لبن، وهو أمر خاص بالحضارة الشرقية الفارسية[٥].

فماذا كان موقف سكان الكوفة بعد أن أدخل زياد الآجر في بناء المسجد والقصر؟ «بنوا أبواب الآجر فلم يكن بالكوفة أكثر أبواب الآجر من مراد والخزرج»[٦]. لا يمكن فهم هذه الإشارة دون اعتماد كامل خلفية الحضارة الفارسية البابلية التي ذكرنا. وهي تعني أيضاً دخول الآجر إلى البناءات الخاصة منذ ولاية زياد ـ ولا شك أن الآجر بدأ يظهر في دور الطبقة الأرستقراطية أول الأمر ـ لكن بخصوص أسكفات الأبواب وحسب. أما خلف ذلك، فقد استمر القوم في بناء منازلهم باللبن[٧]. وهكذا وقع تخطي المرحلة الأولى، والمفروض أن الأغنياء ما لبثوا أن أعادوا بناء دورهم بالآجر، وزخرفوها بالملاط، وأضافوا

---

(١) Streck, art. «Mada'in», *E.I.II.* لعل هذا المؤلف يشير إلى واسط فحسب.

(٢) فتوح البلدان، ص ١٧٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٧٧.

(٤) الطبري، ج٤، ص ٤٧.

(٥) Ghirshman, *L'Iran des origines à l'Islam*, pp. 164-165. لقصر داريوس في برسيبوليس (اصطخر) جدران من لبن «لكن أبوابه ونوافذه كانت منحوتة كتلاً كاملة من حجر».

(٦) معجم البلدان، ج٤، ص ٩١؛

(٧) فتوح البلدان، ص ٢٨١.

الطوابق وركبوا النوافذ على هيئة شبابيك(١). ولا تتوافر لدينا معلومات صريحة بهذا الخصوص إلا ما روي عن عمر، بطريق غير مباشر... وقد كانت رغبته ألا يقوم سكان الكوفة بالمبالغة في رفع دورهم وألا يتجاوزوا ثلاث حجرات في كل دار. ويعني ذلك أن الأمر كان معمولاً به فعلاً، لكن في وقت لاحق كما هو واضح. ونجد في أقوال ياقوت ما ينير لنا السبيل حيث قال: «فلما كان في أيام المغيرة بن شعبة بَنَت القبائل باللبن من غير ارتفاع ولم يكن لهم غرف»(٢). ثم تحدث بعد ذلك مباشرة عن بناء الأبواب من آجر في ولاية زيادة.

ويفيد ذلك أن الدور كانت من لبن في عصر زياد(٣) باستثناء أسكفات الأبواب. ويعني ذلك أيضاً أنه تـمّ الشروع في رفع البناءات في وقت ما، وتقسيم الدور إلى حجرات (تجاوز عددها ثلاث غرف في دور الأغنياء). أما بخصوص الأجر، فلا مجال للقول إن دور الأشراف أدخلت استخدام الأجر على كامل البناية حيث كان الأجر يستخدم حتى ذلك الحين كعنصر لزخرفة الواجهة. ولا يمكن الجزم في هذا الشأن وفي هذه النقطة بالذات، بل خلافاً لذلك، تضافرت كل القرائن على جعل التفكير يتجه إلى القول إن اللبن كان مستخدماً في أكثر الدور خلال العصر الأموي، لأنه كان أمتن مما يظن وقادراً تماماً على تحمل الدور الجميلة المرتفعة، كما تشهد بذلك دور اليمن في الزمن المعاصر.

وقد اتجهت كل هذه التغييرات في اتجاه تمدّن أكثر أصالة، كان يتمثل في البحث عن المتانة والجمالية والطموح إلى الطابع المعماري بحيث يرتفع المسكن عن الأرض، وإلى بناء المجال الداخلي، علماً أن هذه التحويرات لم تبدأ بالحراك إلا عند شروع زياد في تنفيذ مرحلة جديدة. وقد أصر زياد على طموحه المعماري الذي لم يخضع للشاغل السياسي وحسب، بل لإرادة العظمة والبحث عن مظهر جمالي ينمّ عن اتجاه اختيار شخصي جداً، وعن مصير حضاري(٤). ولا شك أن ما سنه قد سرى داخل الكوفة، ولعله أوحى شخصياً بمبادرات من هذا القبيل. كانت السلطة في عصر عمر وسعد قد خططت تصميم المدينة وأمسكت بزمامه، لكنها بقيت قريبة من أمة الفاتحين. وخلافاً لذلك، فقد أكدت تعاليها في ولاية

---

(١) أنساب الأشراف. ج٥، ص ٢٢٦ - ٢٢٨.

(٢) معجم البلدان، ج٤، ص ٤٩١.

(٣) ذكر الطبري ذلك صراحة: ج٦، ص ٦٦، في عصر المختار، ومن باب أولى في ولاية زياد، فقد أمر المختار بهدم دار محمد بن الأشعث وبنى «بلبنها وطينها» دار حجر بن عدي.

(٤) أنساب الأشراف، ج٤(١)، ص ٢٠٢ وما بعدها، بخصوص النظام الصارم في الحياة اليومية والسياسية الذي سنه زياد في البصرة والكوفة دون شك، وانشغاله بنظافة المدينة، وتنظيمها الجيد الذي دفعت ثمنه حكماً مطلقاً راسخاً.

زياد[1] وبذلك فمن المفروض أنها استبعدت المحاكاة وأرادت القطيعة والانفصال، مما أدى إلى إقامة قلعة عظيمة تمثلت في القصر وضخامته. وتبدو المفارقة في كون هذه السلطة المترفعة المتكبرة قد تسببت بمحاكاة معينة وشجعتها بشرط احترام ناموسها. فتكاثرت بذلك القصور في محيط الكوفة (قصر مقاتل مثلاً)[2]، كما تكاثرت دور الأشراف في قلب الكوفة. والمعتقد أن فن العمارة الذي ظهر داخل قصر زياد أثر على تصميم الدور، لأن القصر باستثناء قاعات الاستقبال التي كانت تتوسطه والإيوانات والقباب والأبهاء، التي تؤكد قوة الحكم بالذات ووظيفته، كان يتركب مما أقيم بأجنحته من دور قسمت إلى حجرات[3]. ورأيي أن دور الكوفة اقتبست بناءها من دور القصر.

البنايات الخاصة تضيّق على المركز

ورد خبر جلي عند سيف بن عمر ضمن تاريخ الطبري، مفاده كما نعلم أن المساحة المركزية التي حددها الخندق كان البناء فيها ممنوعاً أثناء خلافة عمر[4]. فلم تتضمن إلا المسجد والقصر المحاطين بساحة واسعة ـ هي الرحبة ـ وموضع الأسواق وما يشبه الاصطبلات في الهواء الطلق ـ الأري ـ وكان هذا المجال شاسعاً يغطي ما يناهز ٢٣ هكتاراً[5] لكن لم يلبث أن اكتسحته القطائع الخاصة والخطط الفردية. فمنذ متى حصل ذلك؟ من عهد الخليفة عثمان[6] الذي أفاض في إقطاع بعض الصحابة القطائع العقارية وأيضاً بعض رؤساء القبائل التقليديين (طلحة والأشعث بن قيس وجرير بن عبد الله البجلي، الخ...)، في قلب السواد أم منذ بداية ولاية زياد؟ من المعروف أن الوليد بن عقبة والي الكوفة في خلافة عثمان، كان يملك داراً تقع في وسط السوق[7]، كانت بمثابة العلامة الأساسية في طوبوغرافيا الكوفة. وقد ذهب الأمر باليعقوبي إلى أن عزا لعمر توزيع الدور على أهم الصحابة[8]، ولا يمكن قبول هذا القول على أنه ظاهرة عامة شاملة. على أنه

---

(١) الطبري، ج٥، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٢) فتوح البلدان، ص ٢٨١، بخصوص تكاثر القصور، في إقليم الكوفة، وراجع صالح العلي، «منطقة الحيرة...»، مقال مذكور، ولاسيما الخارطة.

(٣) M.A. Mustafa, *Art.cit.*, p.44.

(٤) الطبري، ج٤، ص ٤٥.

(٥) انظر ما سبق.

(٦) فتوح البلدان، ص ٢٧٣، يجزم البلاذري بأن عثمان هو أول من شرع في إعطاء القطائع العقارية الفردية.

(٧) ابن سعد، الطبقات، ص ١٢١؛ اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣١١؛ الطبري، ج٤، ص ٥٣٢، وج٦، ص ٨٩.

(٨) كتاب البلدان، ص ٣١٠.

يحتمل أن ذلك كان على سبيل الهبة الاستثنائية لبعض الصحابة. وقد تضارب في القول بهذا الخصوص البلاذري واليعقوبي عندما ذكرا قائمة الدور.

يقول البلاذري: «وبنى فيها عمرو بن حريث المخزومي بناء، وكان زياد يستخلفه على الكوفة إذا شخص إلى البصرة ثم بنى العمال فيها فضيقوا رحابها وأفنيتها»[1]. كان المقصود بالذات الكوفة عامة لا المركز بصورة خاصة، ويظهر أن الأمر لم يكن يعدو تمليك الأراضي العراء بصفة متفرقة، وفارق الطرق والرحاب - الكثيرة كما هو معلوم - التي كانت توسع المجموعة السكنية. الواقع أن قول البلاذري يكتسي مدلولاً آخر بمقارنته وتعليقه بما ورد في كتب أخرى، سواء كانت روايات أبي مخنف[2] أم قائمة اليعقوبي، وهو يفيد في فهم البقية.

توجد دار عمرو بن حريث فعلاً في الوسط تماماً[3]، غير بعيدة عن القصر، ومن المرجح أنها كانت تقع في الرحبة. كان ابن حريث من أكبر أغنياء الكوفة، وكان قرشياً مقرباً من السلطة، وكان بالفعل يساعد زياداً ثم ابنه عبيد الله فليس مستبعداً أن يصير قدوة بخصوص البناء في المركز. لكن ما ينبغي التدليل عليه أنه كان أول من فعل ذلك، وأن الوليد بن عقبة الذي كان والياً في خلافة عثمان، لم ينتزع هذا الامتياز قبله، فضلاً عن أن الدور التي روى أنها كانت تقع في المركز العمومي، قرب المسجد والقصر، أو في الرحبة والأسواق، كانت مملوكة لصفوة المسلمين بالمعنى الواسع أكثر مما كانت للعمال أنفسهم.

وبذلك نجد اليعقوبي يتحدث عن دار عبد الله بن مسعود وطلحة بن عبيد الله وعمرو بن حريث «حول المسجد»، وغير بعيد عنه توجد دار سلمان بن ربيعة الباهلي والمسيب بن نجبة وهو أحد قادة حركة التوابين[4]. ويبدو أن خالد بن عرفطة أحد حلفاء سعد بن أبي وقاص وقد كان من كبار القادة في فتح العراق كان يملك مع سعد نفسه داراً في هذا المركز[5]. هذه عودة إلى الماضي. لكن روي أن دار المختار بن أبي عبيد كانت أيضاً ملاصقة لحائط المسجد[6]. ويمكن التساؤل بخصوص دار الأشعث بن قيس، لكن الثابت

---

(١) فتوح البلدان، ص ٢٧٥ - ٢٧٦.

(٢) انظر لاحقاً.

(٣) الطبري، ج٦، ص ١٩ يروى عن أبي مخنف أنها تقع في «وسط السوق» لا في الرحبة.

(٤) كتاب البلدان، ص ٣١٠؛ بخصوص المسيب بن نجبة، راجع الطبري، ج٥، ص ٥٥٢ و٥٥٣ و٥٦٢ و٥٨٤ و٥٩٠ و٥٩٣ و٥٩٤ و٥٩٦ و٦٠٠.

(٥) كتاب البلدان، ص ٣١٠؛ وأنساب الأشراف ج٥، ص ٢٣٧ - ٢٧٦. والطبري، ج٦، ص ٤٧ و٦١ وج٧، ص ٤١٧: ذكر دار عمر بن سعد، التي لا بد أنها ورثت عن سعد.

(٦) الطبري، ج٣، ص ٥٦٩؛ ولا سيما معجم البلدان الذي ذكر الأمر بوضوح، ج٤، ص ٤٩٣.

أن دار حُكَيم كانت داخل السوق[1]. كما نتساءل عما إذا لم تكن توجد بالساحة العمومية كل أو أكثر ما ورد بقائمة الثلاثين، مسكناً للأشراف والمتمتعة بتسمية الدار بصفتها اقطاعاً شخصياً يقع خارج الخطط؟ وبذلك لا يكون زياد هو الذي اتجه هذا الاتجاه بل إن عمراً هو الذي شرع فيه بصفة طفيفة وتوسع فيه عثمان، ثم علي وزياد أخيراً. ويكون سمح هذا الوالي (زياد) باستكمال تضييق المركز من جهة الشمال والغرب والجنوب بالخصوص - حيث كان موضع الأسواق بقي كما هو في الأكثر -، لكن هذا التضييق لم يعمل أيضاً على ابتلاع الرحبة كلها وهو أمر لا مراء فيه[2]. ونوافق البلاذري حين يقول إنه جرى تصدير ظاهرة المركز إلى المواضع الخالية في الخطط. كما نوافق على أن الشكل المعماري للإقامة الخاصة قد تجسم بشدة في الجو الذي أشاعه زياد، ولعله تشكل كما تشكل عنصر آخر لا يقل صبغة أساسية عنه، نعني الحمام الذي سيظهر في المستقبل[3]. هناك تضييق وتعمير الفراغات، وتكثيف العمران، يضاف إلى نقل بعض القبائل: كل ذلك اكتسى أبعاداً مهمة قطعاً.

لم يبدأ كل شيء في ولاية زياد كما تدل على ذلك أسماء المكان[4] علماً أنها ترجع إلى أشخاص برزوا في تاريخ المدينة، سواء كان في فتراته الخاملة أو النيِّرة، بداية من خلافة علي حتى نهاية ثورة ابن الزبير (٣٧ - ٧٣ هـ) - أي خلال جيل[5]، وسوف نعود إلى هذه النقطة الهامة. لا مفر من التأكيد على ما قام به زياد من عمل حاسم وسريع إحقاقاً للحق، إنما ينبغي إدماجه في مرحلة تاريخية تميزت بالاستمرار في البناء الذاتي للمدينة. ولا يمكن أن ننسب قطعاً لزياد المناهج الكبرى المفتوحة، كما قيل دون أية حجة[6]. ولذا فإن العمل الكبير الذي قام به زياد بقي مرتبطاً أصلاً بتشييد المسجد والقصر، وقد تمادى في حركة تمصير الكوفة في مجموعها، لصالح الأشراف خاصة، وبذلك يكون قد استمر في العمل بسياسة عثمان.

---

(١) فتوح البلدان، ص ٢٨١: كانت هذه الدار تقع عند «أصحاب الأنماط» (صناع السجاجيد).

(٢) الطبري، ج٥، ص ٢٦٨: حيث أمر زياد بنقل حجر ورفاقه على النوق، إلى الرحبة.

(٣) لا شك أن زياداً لم ينشىء الحمامات، ولم يشجع عليها إلا أنه أذن في بنائها وفرض تضييقات على ذلك: أنساب الأشراف، ج٤(١)، ص ٢٢٣؛ فتوح البلدان، ص ٣٤٨.

(٤) فتوح البلدان، ص ٢٧٤ - ٢٨٧: اعتمد الكلام الخاص بالكوفة على دراسة في أسماء المكان.

(٥) فتوح البلدان، ص ٢٧٧ - ٢٨٧: تحدث البلاذري فعلاً عن زقاق عمرو بن حريث ص ٢٧٥، وباب فيل مولى زياد. لكن أسماء كثيرة تشير إما إلى مشاركين في الفتح، وإما حول ذلك إلى أهالي الحيرة وإياد وعاش كثيرون حتى عصر الحجاج وبعده: أعين وشبث وابن محرز وعمر بن سعد، ولم يكونوا من أتباع علي أو زياد. كانوا أناساً وسموا المدينة بحة ورهم البارز أو المتستر، وكانوا من الأشراف.

(٦) Reitemeyer, p.58.

تحوير الهياكل العسكرية والإدارية

لا تشغل بالنا الهياكل العسكرية والإدارية والمالية بصفتها تلك، في هذا القسم من الدراسة لأنها تتعلق أصلاً بالعمران والتنظيم البشري والسياسي، لكن علينا الإشارة إليها نوعاً ما لفهم المظهر الحضري والطوبوغرافيا وتوزيع القطائع وتطورها، والظروف التي مكّنت الناس من الاستقرار والعيش. وإذا ما فكرنا من جهة أخرى أن هيكلة المدينة ارتبطت ارتباطاً عميقاً بالمنشآت القبلية والعشائرية في شكل قطائع متميزة في الحزام وخارج المركز، فإننا سنجبر حقاً على الرجوع إلى كل ما يتصل بتنظيم الجموع القبلية ضمن دراسة حضرية صرف.

وقد بيّنا كيف وزّعت الخطط في بداية الأمر - أي منذ حلول سنة ١٧ هـ - ولا يمكن تجاهل هذا الإستقرار الأول، حتى لو فرضنا أن تغييرات ناتجة عن تدفق جموع المهاجرين المسترسلة قد طرأت عليه بسرعة كبيرة وتسببت في مصاعب. كان التنظيم الأول يتضمن منطقياً قوة الجمود، إذ كان دقيقاً وملزماً لا محالة، وقد اتضح أن المصادر التاريخية التالية، ومنها روايات الثورات التي نقلت عن أبي مخنف، أكدت الأمر إلى حد بعيد. مثلاً مر على بمواقع عشائر همدان[1] التي كانت في الشمال كما قال سيف[2]، وهو في طريق العودة من الجزيرة والشام، بعد وقعة صفين، أي من الشمال الغربي؛ وخلال ثورة المختار عبر ابراهيم بن الأشتر المركز للحاق بالمختار وكان الأول مقيماً بالنخع في الجنوب. والمرجح أن الثاني كان يقيم بشمال المسجد: كان وصفاً ملحمياً وغامضاً أيضاً عند أبي مخنف[3] ذاك الذي خصّصه لهذه الرحلة عبر المركز. هذه حجة أن النخع كانت تشكل مجموعة معتبرة ضمن قبيلة مذحج، كانت تقيم باستمرار في الجنوب حسب ما رسمه سيف أول مرة لخارطة القبائل. وهناك أمثلة كثيرة من هذا النوع، على أن التصميم الأول يمكن أيضاً ألا يطابق تحركات الجيوش التي تابعها أبو مخنف.

نجد في هذا الصدد التواء ينبغي تعليله قدر المستطاع ويعني ذلك أنه يصاحب التغاضي عن التصور الشامل الأول، ومن المهم تكييفه بدقة أو بأخرى مع روايات أبي مخنف. أما كتاب اليعقوبي، فهو قليل الفائدة بخصوص العصر الأموي إلا أنه يوضح توضيحاً مهما التحويرات المتأخرة التي جرت في العصر العباسي[4]. ولنذكر أن النقص الرئيسي الذي

---

(١) الطبري، ج٣، ص ٦٢. مر بثور ثم فائش وأخيراً شبام.

(٢) الطبري، ج٤، ص ٤٥.

(٣) الطبري، ج٦، ص ١٩ - ٢٢.

(٤) كتاب البلدان، ص ٣١١: يقول «انتشرت همدان في الكوفة». كما أقامت تميم، بكر وأسد «في الأطراف».

اعترى مخطط ماسينيون مصدره أنه وضع خارطة للكوفة تكون صالحة في آن للعصر الأموي والعصر العباسي، وقد استمد ماسينيون معلوماته من روايات ثورات الشيعة وأيضاً من القائمة المتأخرة التي أعدها اليعقوبي. لقد برع في إضفاء الصبغة التركيبية على هذين المصدرين وأسقطهما على خارطته[١]، ثم أراد تجاهل التصور الأول الذي ذكره سيف والذي يبقى على الرغم من بعض التناقضات التي اعترته، هيكلاً وأصلاً انطلقت منه التغييرات المقبلة كلها.

يقول ماسينيون إن الأرباع التي أنشأها زياد، تندرج في مجال المدينة، خلافاً للأسباع التي كانت سابقة لها[٢]، فتحدث في هذا الموضع عن «تجمع المناطق العسكرية التي تحولت إلى أحياء، وقد تمّ الأمر في وقت مبكر جداً في البصرة، وتمّ في الكوفة سنة ٥٠ هـ»[٣]. هذا أمر قابل للنقاش تماماً، لكنه يطرح قضية العلاقات أو الترابطات بين الخطط بصفتها فكرة طبوغرافية وإطاراً للحياة البشرية من جهة وبين تلك المؤسسات العسكرية الجبائية التي تسمت على التوالي، في الكوفة، أعشاراً وأسباعاً وأرباعاً، واستمرت تسمى أخماساً في البصرة من جهة أخرى. وقد تبسّطت القضية في البصرة لوجود احتمال مؤكد في المطابقة بين الخطة والقبيلة (أهل العالية وبكر وتميم والأزد وعبد القيس)، والخمس وهو مؤسسة للتعبئة العسكرية وتوزيع العطاء الذي فرضته السلطة وأشرفت عليه[٤]. فيمكن التأكيد في الجملة أن الوحدة السكنية طابقت وحدة التضامن البشري المتمثلة في القبيلة. وبإلقاء نظرة خاطفة على خارطة الاستقرار الأولي المحددة بالاعتماد على معلومات رواها سيف، نتبين فعلاً أن الخطط أسندت بصفة عامة إلى قبيلة واحدة أو قبيلتين أحياناً[٥]. وبالنظر في روايات أبي مخنف والإشارات المتفرقة التي تضمنتها مصادر أخرى يتأكد لدينا أن أراضي الخطط كانت ملكاً للقبائل. وكثيراً ما ذكرت طيلة القرن الأول[٦] عبارات من نوع «من جهة جهينة» أو «مر بثقيف» وأيضاً «دخل دور همدان وكندة» وهلم جراً. . . عاد اليعقوبي إلى الماضي فقال إن كل قبيلة استقرت في خطتها (= اختطت) في بداية الأمر، برئاسة شيخها وحول جبّانة

= ولا سيما هذه العبارة الحاسمة: «تحوّرت الخطط ويعلمها اليوم أولئك الذين اشتروا فيها وعمّروا».

(١) راجع مخطط ماسينيون.

(٢) Massignon, *op.cit.*, p.44.

(٣) *Ibid.*, p.44.

(٤) Massignon, «Explication du plan de Basra», Westlöstiche Abhandlungen h. Taschudi, Wiesbaden 1954, pp. 154-174؛ وصالح العلي، مرجع مذكور، ص ٣١٧ - ٣٢٥ الذي وضع قائمة مفصلة للأخماس ولم يشر قط إليها ضمن دراسته.

(٥) الطبري، ج٤، ص ٤٥.

(٦) انظر ما سبق.

خاصة بها[١]. كان عدد القبائل والعشائر مهماً في الكوفة منذ البداية: من هنا تنافر الكيان القبلي، الذي تضخم بتدفق الروادف المهاجرين بصورة مستمرة[٢]، فأصبحت الكوفة لذلك إسقاطاً، على مجال صغير، لبلاد العرب قاطبة. فضلاً عن وجود البنية الموروثة عن جيش القادسية وربما السرعة الكبيرة التي بها تم الاستقرار الأول، وبذلك تشعبت القضية.

كان جيش القادسية مقسماً أعشاراً بالفعل[٣]، بمعنى أنه تجمّع في عشر وحدات ويرجح أنه اقتبس تنظيمه ذاك من النسق الفارسي الذي اعتمد الفرق العشرية أي عشرة ومائة وألف. كانت تلك الوحدات تشمل عدداً متساوياً من المقاتلين في كل وحدة، فكانت وحدات للتجنيد قبل كل شيء حافظت على الكيانات القبلية. وبما أن أعداد الحشود كانت غير متساوية (٤٠٠٠ من تميم ورباب و ٣٠٠٠ من أسد و ١٣٠٠ فقط من الازد وبضع مئات من ثقيف)، فقد وجب التجميع بصفة منسجمة بحيث لا ينال القبائل أي تشتت. إذا كانت الجماعة القبلية كافية في حد ذاتها، كان يمكن تشكيل العشر وجلب الحشود إليه من ذوي القربى. ولا شك أن نسق الأعشار كان الأساس في أنساق التجمعات التالية. فهل تدخل هذه الظاهرة ضمن ما رواه سيف عن الاستقرار الأول؟ توزّعت الخطط حسب الجهات الأربع حيث تلاحظ مطابقة الخطة لقبيلة وحيدة في أكثر الأحوال وكان يتجمع حول القبيلة المهيمنة الأخلاط[٤] وهي عشائر من قبائل مختلفة، وتوجد أخيراً حالات نادرة بحيث يستقر ثنائي قبلي (بجلة وبجالة، الأنصار ومزينة، تميم ومحارب)[٥]. ويقول المؤلف بصراحة[٦]: «وجعل هذه الطرقات من وراء الصحن ونزل فيها الأعشار من أهل الأيام والقوادس». ماذا يقصد بقوله هذا سوى أن الجماعات المقيمة بالخطط كانت تطابق الأعشار، وأنه يمكن التأكيد في هذه المرحلة الأولية على تطابق المبدأين؟ بل نجدها الفترة الوحيدة التي تطابقت فيها بصورة مجملة الخطة والقبيلة والإطار العسكري الإداري الذي كان يجسمه العشر، وسوف تؤثر نهائياً على مظهر الكوفة. فلا الأسباع الوريثة للأعشار ولا أرباع زياد غيّرت أصلاً مواقع القبائل كما تمّ تحديدها، بمعنى تغيير تنظيم المجال بالكوفة.

---

(١) كتاب البلدان، ص ٣١١.

(٢) الطبري، ج٣، ص ٦١٤، و ج٤ ص ٤٥.

(٣) الطبري، ج٣، ص ٤٨٨ لا يمكن أن يكون ذلك متطابقاً مع فرق العشرة جنود الرومانية كما ذكر كايتاني. ويقول ابن حبيش، كتاب الغزوات، ورقة ٢١٦. إن أمراء الأعشار يأتون في المرتبة الثانية بعد أمراء التعبئة وقبل أمراء الرايات ورؤساء القبائل. وكل النسق يأتي ضد فكرة أن الأعشار هي عشر عرافات أي مائة رجل كما يرى ذلك ع.م. السامرائي، مقال منشور في المورد، ١٩٨٤، ص ١٠.

(٤) الطبري، ج٤، ص ٤٥.

(٥) المرجع نفسه، ج٤، ص ٤٥.

(٦) المرجع نفسه، ج٤، ص ٤٥.

وبقيت همدان وكندة وثقيف وبجيلة ومذحج والأزد وجهينة وتميم وأسد، في مواقعها الأولى قطعاً كما ذكرها سيف ومهما قال ماسينيون[١].

وبما ان الأعشار - القبائل أقامت، بموجب القرعة، بأماكن قررتها الصدفة، وبما أن الاختلال العددي الواضح بينها ظهر من وقت مبكر جداً[٢]، وجب أن يعاد النظر في هيكلة التنظيم العسكري الجبائي وعقلنته: فظهرت الأسباع التي أقامها عمر[٣]، وحوّرها علي، والتي بقيت حتى ولاية زياد. ولم يكن الأمر متعلقاً «بمناطق عسكرية» بل بوحدات لتجنيد المقاتلة بإمرة رؤساء ولّتهم السلطة وبوحدات لتوزيع العطاء الذي يسلّم للقادة جملة، وكانوا يسلّمونه بدورهم إلى العرفاء[٤]. الواضح أن الانطلاقة لم تبدأ من المعطيات المكانية، يعني من توزيع الخطط التي كثيراً ما كانت تتحاور فيها قبائل لا يربط بينها ماض مشترك في سكنها السابق وكانت متباعدة جداً، في عملية إنشاء الأسباع. فحصل التجميع، بمقتضى علاقات النسب. كان المقصود من ذلك المحافظة على التلاحم في التجنيد والقتال وبالتالي فإن السبع لم يحقق جواراً أو أي تقارب مكاني إلا في بعض الأحيان وفي بعض الأماكن: ربما في الجبّانات أو خارج الكوفة في «نقط التجمع» بالنسبة للكوفة[٥]. على أن مؤثرات هذا الأمر على جغرافيا الخطط لم تكن في رأينا منعدمة، ولا سيما أن القبائل الكبرى قد عملت أحياناً على جذب قبائل صغرى قريبة النسب وضعيفة العدد، فترجم الانتساب إلى السبع ذاته عن طريق الاندماج في الخطة مكانياً. ولنذكر على سبيل المثال كندة وحضرموت[٦] وهمدان وحمير[٧] وتميم وهوازن.

كانت الخطة تعني تضامناً بشرياً واعياً حياً يستمر فيه ويدوم الكيان القبلي القديم، وذلك باعتماد القبيلة في واقع الأمر، لكن السبع كان تصوراً مؤسساتياً حافظ لا محالة على صلات الدم الأكثر اتساعاً. وفي عهد زياد أدخل الربع[٨] تبسيطات أقوى مما كان للخارطة القبلية لأسباب سياسية، فكان يجاور بين مجموعة قبلية متشاحنة (تميم وهمدان وأيضاً كندة

---

(١) Massignon, *art.cit.*, p.44.

(٢) الطبري، ج٤، ص ٤٨.

(٣) المرجع نفسه، ج٤، ص٤٨؛ Massignon, p.40. لكن المؤكد أن السبع السابع الناقص لا يخصّ طيئاً، إنه يخصّ بكراً.

(٤) المرجع نفسه، ج٤، ص ٤٩.

(٥) Massignon, p.39؛ وراجع لاحقاً.

(٦) الطبري، ج٤، ص ١٣٢.

(٧) المرجع نفسه، ج٦، ص٢٤٧.

(٨) الطبري، ج٤، ص ٤٨ وج٥، ص ٢٦٨.

وأسد مثلاً)، نظراً لما كان لها من ماض في شبه الجزيرة، بل بين عناصر يمكن أن تكون متجاورة أو متباعدة في الكوفة ذاتها. ولا تتوافر لدينا أية إشارة في المصادر إلى انتقال تميم إلى الغرب في سنة ٣٧ هـ كما أكد ذلك ماسينيون بالضبط. كما أنه لا يوجد ما يسمح بالتأكيد القطعي كما فعل صالح أحمد العلي وجاراه آخرون، على أن العشيرة أصبحت وحدة الأساس في التنظيم الإداري[١]. والأرباع، أكثر في ذلك من الأسباع، لم يكن لها أدنى مفعول على جغرافيا الخطط وبالتالي على بنية الحزام السكني بالكوفة خلافاً للأعشار المتجسمة في المجال بفضل توليفها توليفاً قوياً بين الواقع البشري والإتنولوجي للقبيلة وبين تنظيم المؤسسات، ولأنها وجدت في لحظة التأسيس الحاسمة.

(١) مرجع مذكور، ص ٤٩؛ لكن الشعبي [في الطبقات، ج٦، ص٢٤٩]؛ سمي صراحة عريفاً لقومه ولا يعني ذلك القبيلة بل العشيرة. وينطبق هذا الأمر أيضاً على سعيد بن وهب المتوفى سنة ٨٦ هـ: المرجع نفسه، ص ١٧٠. والمرجح كثيراً أن زياداً هو الذي دبّر مثل هذا التبسيط.

- ١٧ -
الكشف عن الكوفة:
ثورة المختار
(٦٦ - ٦٧ هـ/ ٦٨٥ - ٦٨٦ م)

وجدت لحظات قوية سابقة أثرت على الكوفة (١٧ هـ و ٣٧ هـ و ٥٠ - ٥٣ هـ) وظهرت أوقات أخرى في فترة لاحقة، استكملت غرضها نسبيا، أو أنها اتسعت خارج المجال المدني ذاته، خلال ولاية ابن هبيرة والقسري خاصة. لكن يبدو أن هذه الفترة التي أتت بعد زياد إلى ثورة ابن الأشعث والتي استمرت خمساً وعشرين سنة (من ٥٣ إلى ٨٠ هـ) حيث استقر النسق الاجتماعي على الرغم من الأزمات السياسية، كانت فترة طويلة صلّبت خلالها المدينة خاصياتها واكتست مظهر الرشد. فتمد تشكلت فيها الكوفة الأموية بصورة جعلت خاصياتها معروفة مدة طويلة، باستثناء بعض الجزئيات.

سدّت الثلمات في كل مكان دون أن تمحى البنية الأصلية لطرق المرور وبالمحافظة على المجالات الخالية. فتكثف السكن وضاقت الشوارع الكثيرة ونزعت إلى أسلوب المتاهة، وأقرّت الجموع القبلية التي أغفلها التخطيط الأول، ولم تمنع كل هذه الأمور أن تبقى الطرق الكبرى الأولى، كما استمرت الخطط، فبقيت في الجملة الكوفة الهندسية وبنيتها الثنائية. فما هي أجهزتها الأصلية؟ الجامع والقصر المحصن، حيث اتجه كل شيء إليهما، والرحبة التي تـمّ تجاوزها بصفة متفاوتة في الشمال والغرب، والأسواق المختصة نسبياً والمستقرة شرقي المساحة المركزية والتي لم تكن مبنية بل كانت قائمة بصورة مؤقتة وقد غطتها الحصر التي كانت على قضبان أو أنابيب من حديد أو من قصب، وقد عمرت الدور المجال الجنوبي. وخلف ذلك تبدأ الطرق الكبرى الفاصلة بين الخطط التي كانت الشوارع تخترقها. كان الحرص يتمثل في الاحتفاظ بعدة مجالات تقع بمركز الخطط أو بطرفها: إنها الجبّانات والصحاري. وقامت الأجهزة الكبرى بالكوفة حيث كانت تسير الحياة العامة: الجامع والقصر والرحبة والسوق ودور الإشراف والسكك المستقيمة أو الملتوية التي تنفتح على الطرق، والجبانات والصحاري والخطط والكناسة والسبخة. وقبل تحديد مواقعها على

الخارطة يحسن بنا عبور الكوفة كما وصفها أبـو مخنف، لما روى ثـورة المختار (٦٦ هـ). ستكون جولة غامضة تمدنا ببعض العلامات، لكنها تسمح خاصة بإحياء الجو الذي كان سائداً في ذلك العصر.

كانت حركة المختار وشيكة، فاحتـاط الأمير وعجّـل بالأحـداث. فوجّـه صاحب الشرطة «حول السوق»[١] الذي أرسل بدوره ابنه برفقة الجند إلى الكناسة[٢]. ولا ننس أن قائدي الثورة كانا المختار نفسه المقيم بالمركز كما هو معلوم إلى جانب الجامع، وكان من ثقيف فتقع إذن قطيعته في الشمال، وقد عوّل بالخصوص على جيران ثقيف من همدان. والرأس الثاني هو الأشتر النخعي من مذحج المقيمة في جنوب المساحة المركزية التي ينبغي عبورها لكي يتصل الجمعان، وقد تحدد موقع القائد الثاني ومذحج بالاعتماد على خارطة سيف.

طلب صاحب الشرطة أياس بن مضارب من الأمير أن يعين في كل «جبّانة عظيمة» رجلاً ثقة برفقة رجال مسلحين. وهذا يعني:

أ) أن هناك تطابقاً وحتى تماثلاً في دور الكُناسة والجبانات.

ب) أن الجبانة كانت مكاناً للتجمع داخل الخطط، وموقعاً استراتيجياً بالنسبة لقبيلة أو مجموعة من القبائل.

ثم أورد أبو مخنف قائمة الأشراف الذين توجهوا إلى الجبانات الرئيسة لكي يصدوا أفراد قبائلهم عن الخروج ويحتلوا الشوارع الكبرى في آن واحد، منعاً لكل تنقل. وقد ورد ذكر الجبانات الآتية: السبيع (همدان) وبشر (خثعم) وكنـدة وسالم (قيس) والصـائديـين (أسد؟) ومراد (مراد ومذحج)[٣]. وذكرت جبانة الصائديين وجبانة كندة أيضاً في الرواية المتعلقة بثورة حجر، على أنهما متجاورتان[٤]. والملاحظ أيضاً أن جبانة مراد ورد ذكرها منذ عصر علي[٥] ولذا يبدو أننا بإزاء أقدم الجبانات وأهمها، والمهم أنها ملك للقبائل اليمنية،

---

(١) الطبري، ج٦، ص ١٨. كان الوالي ابن مطيع، وقد ولاه ابن الزبير.

(٢) المرجع نفسـه، ص ١٨، وأنساب الأشراف. ج٥، ص ٢٢٤. سوف نعتمد الطبري باستمرار في هذا الصدد، ج٦ المطابق للجزء الثاني ص ٦٠٠ وما بعدها من طبعة ليدن. وقد جارت روايته كثيراً رواية أبي مخنف وجاءت مفصلة؛ وكتاب البلاذري أوضح وأوجز وأقل جزئيات. إن مخطوطة برلين المنسوبة إلى أبي مخنف وعنوانها: كتاب خبر المختار وابن زياد، مزيفة وليس لها أهمية.

(٣) الطبري، ج٦، ص ١٨.

(٤) الطبري، ج٥، ص ٢٦١.

(٥) انظر لاحقاً.

باستثناء جبانة واحدة. ولم يكن لتميم جبانة فأمر رئيسهم شبث بن ربيع بأن يعسكر في السبخة التي قامت هي أيضاً بدور مكان التجمع مثل الكناسة وحلّت محل الجبانة. «وخرج ابراهيم من رَحْلِه بعد المغرب يريد إتيان المختار وقد بلغه أن الجبابين قد حشيت رجالاً، وأن الشرط قد أحاطت بالسوق والقصر»[1].

مسير ابراهيم بن الأشتر:

المرجع أن الفرقة الصغيرة التي صاحبت ابراهيم مرت من الجهة الغربية للمساحة المركزية فمرت بدار سعيد بن قيس الهمداني (هل كانت بالمركز أم بآخر خطة همدان حيث كانت أقرب ما يمكن من المركز؟) ثم بدار أسامة. طلبت من قائدها تجنب الجهة الشمالية الشرقية أي دار عمرو بن حريث «إلى جانب القصر وسط السوق»[2] وخلافاً لذلك، اقترحت المرور من قطيعة بجيلة، واختراق الدور وصولاً إلى دار مختار، عبر الممر الجانبي دون شك[3]. وهنا ينجم مشكل صغير- إذ ينبغي الافتراض مسبقاً أن خطة بجيلة توجد إلى جانب خطة ثقيف، وأن خطة همدان توجد إلى الغرب. فينشب الخلاف مع التصميم الذي حددناه بالاعتماد على المعلومات الأولى التي ذكرها سيف. لكن ابراهيم أصر على الاستخفاف بالخصم أمام باب فيل (شمال المسجد)، وعزم على الاقتراب من دار عمرو بن حريث (إلى اليمين، كما ذكر بالنص)[4]، فوقعت مناوشة لم ينج منها صاحب الشرطة فاندلعت الانتفاضة. وشعورنا أن المنطقة الموجودة شمالي المسجد والمنفصلة عن خطط القبائل كانت فيها مسالك إجبارية، لا ساحة واسعة مفتوحة، كأن البناء متراص لا ينفتح إلا على بعض الشوارع. ومن المعلوم أن المسجد اتسع في ولاية زياد بزيادة الثلث على الأقل ولم يقع ذلك إلا من جهة الشمال. وقيل أيضاً إن بعض الدور شيّدت في المساحة المركزية. هذا إذن هو الانطباع الأول.

ثم نشبت الثورة[5]، فعاد ابن الأشتر إلى قبيلته للتعبئة[6]. «إن هؤلاء الرؤوس الذين وضعهم ابن مطيع في الجبابين يمنعون إخواننا أن يأتونا ويضيقون عليهم، فلو أني خرجت بمن معي من أصحابي حتى آتي قومي، فيأتيني كل من بايعني من قومي ثم سرت بهم في نواحي الكوفة»[7]. المقصود هو حمل راية الثورة في كل مكان، وتجميع الأنصار حيثما

(١) الطبري، ج٦، ص ١٩.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٩.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٩.
(٤) المرجع نفسه، ص ١٩.
(٥) المرجع نفسه، ص ٢٠: بعد اغتيال اياس بن مضارب صاحب الشرطة؛ أنساب الأشراف، ج٥، ص ٢٢٥.
(٦) الطبري، ج٦، ص ٢١ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص ٢١٨ - ٢١٩.
(٧) الطبري، ج٦، ص ٢٠.

وجدوا بالكوفة. كانت جولة مهمة جداً ومحيرة حقاً، إذ لم نقدر على تتبعها أحياناً، بل ضعنا في متاهاتها.

كانت العودة إذن إلى النخع، ثم بدأ التجمع من هناك، فكان مسير ذو منعرجات «وهو في ذلك يتجنب السكك التي فيها الأمراء»[1]، أي طرق المرور التي تمسك بها الجبانات، وهي الطرق الكبرى التي ورد ذكرها في هذا الصدد. وتتحول هذه المناهج إلى طرق كبرى متجهة إلى الحيرة، عند مغادرة الكوفة، كما أنها تتجه إلى مكة ودمشق والمدائن والبصرة، وكانت تسمح في الداخل بتوجيه القبائل إلى المسجد. لا شك أن الجبانات كانت تقفل منافذها وتراقب منها المرور، بكيفية أو بأخرى، ونضيف أنه ربما لم يتبق منها إلا طرق قليلة لا كل الطرق التي خطّت في البداية. وسينتهي المسير، في مرحلة ابراهيم هذه ضمن الخطط، وينتهي باللحاق بالمختار. كان مسلكاً مستفزاً متستراً في آن، حسب الوضع.

أ) لقد انطلق من النخع واتجه إلى مسجد السكون[2]، وهي عشيرة مهمّة من كندة. ومن سيف عرفنا أن خطة كندة كانت مجاورة لخطة مذحج.

ب) ثم دخل المسلك قسراً إلى جبانة كندة التي لا شك أنها كانت غير بعيدة.

ج) تمثل جبانة أثَيْر المرحلة الثالثة[3]. لكن أثيراً رجل من أسد والمعتقد لا محالة أنها كانت تقع بخطة أسد، إلى جنوبي الجنوب الغربي لا في خطة مذحج كما جاء بخارطة ماسينيون، وقد سمى البلاذري هذه الجبانة صحراء[4]، أما أبو مخنف، فقد حار بين الاسمين. وما يميّز الجبانة من الصحراء أن الأولى كانت مخصصة للدفن كما للتجمعات من النوع العسكري، في حين أن الثانية خصّصت للاحتفالات[5]. لكن يبدو أن صحراء أثير كانت صورة مزدوجة، كما الأمر في جبانة سليم.

د) دحر ابراهيم خصومه تدريجياً، من صحراء أثير إلى الكناسة[6]. وقد اعتمد ماسينيون مصدراً شيعياً ليجعل منها مزبلة لأسد[7]، وحدد موقعها بالباب الغربي في الكوفة. يمكن ويرجح أن هذه الساحة الكبرى كانت تقع في خطة أسد في بداية الأمر، أي

---

(١) الطبري، ج٦، ص ٢١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢١.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢١.

(٤) فتوح البلدان، ص ٢٨٠.

(٥) انظر لاحقاً.

(٦) الطبري، ج٦، ص ٢٢.

(٧) Massignon, *Art.cit.*, p.53: هو نَفَس الرحمان للطبرسي النوري وقد انفرد بذكر هذا الخبر.

إلى الجنوب الغربي من الكوفة. كانت هذه الخطة تنفتح على الغرب، وكانت غير محددة، فاتسعت الكناسة ونجت من هيمنة أسد المتيمة هناك. ثم أصبحت فيما بعد، وبصورة سريعة جداً سوقاً للبغال ومكاناً لحط الأحمال عن قوافل الجمال القادمة من بلاد العرب، فوجب تحديدها على الطريق الرابطة بين الحيرة ومكة إلى الجنوب الغربي، وإبعادها من المركز إلى أقصى حد. لم تدمج الكناسة في المدينة خلال العصر العباسي حين أقيم الحزام، وهذا ما يوضح القول الذي كثيراً ما ورد في تأليف أبي مخنف: «يدخل الكوفة من قبل الكناسة»[1]. وكان المقدسي واضحاً جداً فقال إن الكناسة كانت موجودة من جهة البادية أي من جهة البادية العربية[2].

هـ) سيطر ابراهيم على المنطقة الجنوبية، فعجل الخطى إلى المختار معيداً المسير في الإتجاه المعاكس، مر بأسد والنخع وكندة، وبالمسجد الصغير للأشعث بن قيس، ودخل الساحة المركزية فبلغ المختار من جهة القصر، كما ذُكر[3].

وقائع المختار، مشاكل تحديد المواضع

كان علينا متابعة تطور الثورة خطوة خطوة لكي نزداد إحاطة بمظهر المدينة والأماكن الرئيسة التي ينبغي التعرف عليها. ستبقى بعض هذه الأماكن يكتنفها الغموض إلى الأبد في حين أن بعض الأماكن الأخرى ستتضح معالمها بتقدم البحث. والواجب أن نميّز بين المعارك التي قادها المختار في الكوفة، أي الثورة على السلطة التي أقامها ابن الزبير- نعني ابن مطيع الوالي وشرطته وحشود القبائل الخاضعة له - والثورة التي قادها الأشراف بعد مدة على حكمه، وأخيراً مقاومته لغزو الكوفة بقيادة مصعب بن الزبير انطلاقاً من البصرة. هذه إذن ثلاث مراحل سنجتازها بخطىً وئيدة ونتقدم بفضلها في معرفة الكوفة.

المرحلة الأولى: ثورة المختار

لقد سبق أن قلنا إن ابراهيم لحق به شمال المسجد. وما يلفت النظر أن المختار أقام معسكره بالسبخة، وهو موضع سيجري فيه القتال ضدّ شبيب وزيد بن علي. وكلمة سبخة تعني منطقة جافة مالحة وهي صفة تنطبق على النجاف تلك البحيرة المالحة القديمة الواقعة

---

(1) الطبري، ج٦، ص ٢٩ مثلاً.

(٢) أحسن التقاسيم. . . ، ص ١١٧ : جاء بالكتاب «من جهة البادية» وهي عبارة غامضة لكنها ترجح الاتجاه إلى الجنوب الغربي، لأن الغرب يعني الاتجاه إلى النجف تماماً.

(٣) الطبري، ج٦، ص ٢٢.

بين الحيرة والنجف المقبل. لكن النجاف ليس السبخة، السبخة التي أرادت بعض المصادر الشيعية المتأخرة المزيفة إلى حد بعيد، أن تجعل منها مكاناً لا ماء فيه. بل خلافاً لذلك، تبدو السبخة بمعناها الثاني والمرجح أنه هو القديم، وهو الغيضة التي أتخمت ماء في بعض الفصول، حيث ينبت القصب الرديء. ولا شك أنها كانت منطقة يفيض فيها الفرات لكن بموضع من أرض أجاج، يحدّ دور الكوفة إلى الشرق. ويؤيد هذا الأمر خبر واضح لا غبار عليه ورد ذكره في تاريخ الطبري، بخصوص ثورة شبيب، «السبخة بين الكوفة والفرات»[1] قبل الجسر. واعتمد ماسينيون هذا الأمر فعين موقعها على مخططه شرقي الكوفة تماماً خارج المدينة طبعاً، لكن في اتجاه الشمال. إلا أنه يمكن التساؤل عمّا إذا لم يكن من المناسب التقدم بموقعها أكثر إلى الشمال، وذلك اعتماداً للرواية المتعلقة بثورة المختار. وخلافاً لذلك، تميل الأخبار الخاصة بمجيء مصعب من البصرة إلى تحديد موضعها في الجنوب الشرقي في اتجاه البصرة[2] أي حيث تبدأ البطائح في الظهور. وينبغي في كل حال تحديد موقعها بصفة واضحة خارج الكوفة بحيث يكون لها مجال معين تنفتح عليه، لا أن يكون لها موقع محصور حيث يقترب الفرات أكثر ما يكون من المدينة.

ولنمعن النظر في النص الذي اهتم بهذا الموضوع لكي نستمد منه ما أمكن بخصوص السبخة كما بخصوص عناصر طوبوغرافية أخرى كالجبانة وبعض الخطط. كان المختار قريباً من ثقيف كما هو مفروض، أي إلى الشمال الشرقي من المساحة المركزية وقد انتقل إلى السبخة مع رجاله ورجال ابراهيم، شعوراً منه بقرب المواجهة الشاملة بين جنوده وجند السلطة[3]، وقد كان محقاً في تخمينه هذا. الواقع أن الأمير عمل بنصيحة شبث[4] فجمع كل القادة الذين كانوا قبل ذلك متفرقين في الجبانات والكناسة. كانت ليلة ترقب وتأهب للقتال من الجانبين، ولا سيما أن عشيرتين كبيرتين من همدان: شاكر وشبام قد لحقتا بالمختار، ووصلتا إليه بعد أن مرّت شاكر بجبّانة بشر، ومر الآخرون بجبّانة مراد[5]. وقد اجتهدوا في تجنب جبّانة السبيع كأن الجبّانات كانت تتحكم كلها في نقط الخروج، فكادت أن تكون ممراً إجبارياً. تمركز المختار بالسبخة مع ٣٨٠٠ رجل[6] وكان يواجهه ٢٠٠٠ رجل أو يزيد، حشدهم الأمير، بمكان له من السعة ما كان يسمح باحتواء هذا الجمع ويخول

---

(١) الطبري، ج٧، ص ٢٧٥.
(٢) انظر لاحقاً.
(٣) الطبري، ج٦، ص ٢٢.
(٤) المرجع نفسه، ص ٢٢.
(٥) المرجع نفسه، ص ٢٣.
(٦) المرجع نفسه، ص ٢٩.

أيضاً التراجع واستقدام النجدات وحتى الفرار خارج ساحة الوغى: «فلما بلغ ذلك المختار من مشورة شبث بن ربعي على ابن مطيع خرج المختار في جماعة من أصحابه حتى نزل في ظهر دير هند مما يلي بستان زائدة في السبخة»[1]. وقد تمكن رجاله من سماع ضجيج خصومهم القادمين إليهم من هناك، «بين بني سليم وسكة البريد»[2]. وقد استفدنا من سيف أن بني سليم أقاموا منذ البداية في الشمال الشرقي من المساحة المركزية، إما بمفردهم إلى الحد الشرقي الأقصى لخطط الشمال الخمسة وإما في خطة كبرى مع بني ثقيف حيث تمركزوا بالأماكن الأكثر بعداً عن المسجد، وهنا لا محالة علامة ذات أهمية. والأمر الأكثر صعوبة هو التعرف على الطريق الكبرى الرابطة بين مركّب المسجد والقصر وبين عاصمة الامبراطورية، أي طريق البريد والرحلات الرسمية. كانت الطريق تمر عادة من النخيلة[3] في اتجاه دمشق، ولذلك فهي تنطلق من الكوفة من جهة شمال - شمال غربي، دون عبور الفرات. لكن هناك طريقاً أخرى تؤدي إلى دمشق، وهي تعبر الجسر إلى الشمال الشرقي من الكوفة، محاذية الفرات على ضفته اليسرى ثم تعبره من جديد في مكان آخر. وهذه كانت طريق السواد ولا نعلم هل قلّ استخدامها بالنسبة للطريق الأخرى[4]، على أن اسم «سكة البريد»، الذي ذكره البلاذري[5] قد يوحي بالغلط فضلاً عن ذلك لشكنا في إمكانية نسبتها إلى بغداد أيضاً. وفي هذه الحال ينزلق نصّ أبي مخنف في الخطأ الزمني ويكون نصّاً أُلّف أو حوّر في العصر العباسي. ويبقى إذن موقعها غامضاً بالنسبة لذلك العصر، لكن الثابت أن السبخة كانت قريبة من الشمال الشرقي. ولعلها وقعت في الشمال بعيداً عن سليم وانتشرت بذلك في مكان أوسع من المكان الذي حدده لها ماسينيون؛ كما يجب الانتباه إلى عدم إبعادها عن الجسر ولا عن دار الرزق، كما أكدت ذلك المصادر كافة، ولا سيما عند رواية ثورة زيد[6]. والمؤكد أنه يمكن الوصول إلى مركز الكوفة مباشرة من السبخة، عبر عدة طرقات أو سكك يبدو أن أهمها كانت سكة لحام جرير، فوجب التحكم في «أفواهها» أي مداخلها. الواقع أنه بعد أن انهزم شبث بن ربعي في أثناء اصطدامه بالمختار في السبخة، منعت جيوش الأمير المتحكمة في السكك، جنود المختار من دخول الكوفة[7]. فلزم عليهم أن

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٤

(٣) الطبري، ج٤، ص ٥٦٢، وج٥ ص ٧٣ و ٧٨ و ٧٩. لا يتوفر أي خبر دقيق عن بداية طريق دمشق. وستمر هذه الطريق على القطقطانة، بداية من القرن الثالث: ابن خرداذبه، ص ٩٩.

(٤) أخذها علي للذهاب إلى صفين: الطبري، ج٤، ص ٥٦٥.

(٥) فتوح البلدان، ص ٢٨٤.

(٦) الطبري، ج٧، ص ١٨٥.

(٧) المرجع نفسه، ج٦، ص ٢٨.

يجانبوا المدينة من الخارج للوصول إلى المركز واستهداف القصر؛ إنه فعلاً تحول حقيقي من الشرق (كما أراد ماسينيون طبق مخططه) أو من الشمال الشرقي إلى الغرب أو إلى الجنوب الغربي، من السبخة إلى الكناسة، كأن هاتين البقعتين الواسعتين الخاليتين المحيطتين كانتا تتواجهان وتشكلان في كل حال المعابر الأصلية للدخول إلى المركز، الذي منه ينطلق محوران أساسيان. أحاط المختار بالكوفة وكذلك ابراهيم، على حد أقصى دور المدينة ومر بالشمال. فتوجه حشد من حشود الوالي إلى طريق همدان (سكة ثور)[1] لقطع الطريق من الشمال إلى الجنوب محاذياً المكان الذي سيبنى فيه لاحقاً مصلى في العراء - بناه القسري (١٠٥ - ١٢٠) وكان يقع دون شك في خطة بجيلة. هناك اتفاق إذن مع المخطط الذي وضع بالاعتماد على ما قاله سيف لكن المشاكل تواجهنا قبل هذه المرحلة ومباشرة بعد معركة السبخة. لقد مر المختار فعلاً بالجبانة[2] التي سميت على هذا النحو وتعرت من كل صفة. والمرجح أنها عرفت بالثوية التي هي جبانة قريش وثقيف وأهل المدينة بصفة عامة. والظاهر أنها كانت تقع في أقصى شمالي الشمال الشرقي من الكوفة في طرف الخطط. وغير بعيد عن ذلك، وإلى جوارها، ها نحن قد بلغنا دور مزينة وأحمس وبارق[3] وعنها يقول أبو مخنف: «وبيوتهم شاذة منفردة من بيوت أهل الكوفة»[4]. هذه جملة لا شك أنها تطرح علينا مشكلاً. فهي في البداية تناقض تصور سيف في أكثر من نقطة إذ يمكن القطع بأن مزينة كانت تقيم في اتجاه الشمال قليلاً[5] لكنهم بقوا في الشرق، تفصل خطط سليم وثقيف وهمدان بينهم وبين بجيلة وإليها تنتسب عشيرة أحمس. وما عسانا نقول في بارق وهم من الأزد؟ من هنا ينبغي تحديد مقامهم اعتماداً على سيف أيضاً في الجنوب أو الجنوب الشرقي كما هو مرجح[6]. لكن الثابت أن اليعقوبي أكد قائلاً[7]: «انتقلت عامة أحمس عن جرير بن عبد الله إلى الجبانة». ومع أن خبره اندمج في رواية خاطئة من بعض الوجوه فلا يبدو أنها مستمدة من تأويل لرواية أبي مخنف، علماً أن مشكل بارق يبقى قائماً، ولا شيء يؤكد أنهم انفصلوا عن بقية الأزد، كما

---

(١) الطبري، ج٦، ص ٢٩. هذه إشارة فريدة تجيز لنا التأكيد أنه اتجه إلى الشمال.

(٢) الطبري، ج٦، ص ٢٨.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٨. كانت بارق عشيرة مهمة من الأزد. لماذا كانت موجودة في أقصى الشمال الشرقي؟ الحق أن بارقاً كانت أيضاً عشيرة صغرى حميرية اندمجت في همدان باسم ذي بارق: الطبقات، ج٦ ص ٢٤٧؛ وقد وصفها خبر ورد في أنساب الأشراف، قسم٤، ج١، ص ٢٥٦، فقال إنها مجرد «مكان على طريق الكوفة»، اي أنه طرفي وغير ملحق بعشيرة.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٨.

(٥) هذا ما فعله ماسينيون على خريطته حيث وضعهم إلى الشمال تماماً.

(٦) أو إلى غربي الشمال الغربي لأن الأزد أقاموا في خطة بجلة - بجالة، كما سيأتي ذكره.

(٧) كتاب البلدان، ص ٣١١.

وقع لأحمس بالنسبة لبجيلة. وقد ورد ذكرهم في أثناء ثورة زيد[1] غير بعيد عن عناصر من قيس هم رؤاس. والغريب أن نجدهم في الشمال دائماً، على حدود الكوفة وعلى كلّ فإن نصّنا ناصع الوضوح وهو يفيد أن مزينة وأحمس وبارق وهي عشائر تنتسب إلى قبائل مختلفة، تجمعت خارج المدينة أو كادت، حول الجبانة وبعيداً عن الخطط المعهودة على الرغم من كونها عشائر شاركت في وقعة القادسية. فماذا يعني هذا الانتقال الذي تم عن طيب خاطر كما هو مرجح؟ هل وقع لأنهم التحقوا بالمهاجرين المتأخرين من عشائرهم حيث لم يجدوا مكاناً في الخطط الأولى؟ هل أن إرادة الابتعاد والتهميش جعلتهم يتجمعون ويشيدون مسجداً مشتركاً؟ لقد استقبلوا المختار مرحبين، وقدموا إليه الماء[2]. ولا يبدو أنهم كانوا مهتمين بالاضطراب الذي اجتاح المدينة في ذلك الوقت. والملاحظ بهذه المناسبة وخلف الطوبوغرافيا الصرف، أن هناك اتجاهاً في الكوفة في أوقات مختلفة يروم الانسياب إلى الخارج لأن المحيط يجذب القبائل والعشائر وأقسام القبائل، واليعقوبي نفسه يقول في ذلك[3]: «جاءت تميم وبكر وأسد فنزلوا الأطراف». وسنرى أن بكراً وعبد القيس اتصفت بعدم الاستقرار بصورة واضحة وهذا يطرح مشكل الجدلية بين المدينة والقبيلة.

لذا، ينبغي علينا قبول التشتت النسبي، والمقام المتكرر أو المثلث لبعض القبائل، بصورة ملموسة وضمن الهيئة القبلية التي كانت للكوفة، ارتباطاً بالطوبوغرافيا وعلم أسماء المكان.

المرحلة الثانية: ثورة الأشراف

لم تكن رواية ثورة الأشراف غنية بمحتواها الاجتماعي وحسب، بل إنها تساعدنا على التقدم في تصورنا لمدينة الكوفة والعوالم القبلية التي كانت تقيم فيها. ويتّضح مرة أخرى دور الجبّانات كما دور الكناسة والسبخة. فقد اجتمعت مضر بالكناسة برئاسة شبث بن ربعي، أي تميم وعبس وضبّة[4]. كانوا يقومون بأحد الدورين الرئيسيين مع اليمنية وهو دور أهمّ بكثير من دور قيس ـ والملاحظ أنهم تميّزوا عنهم ـ كما أنه يتجاوز كثيراً دور ربيعة، لكن لم تكن لهم جبانة. وبمطالعة المصادر وإمعان النظر فيها، خاصة المصادر المرتبطة بهذه

(١) الطبري، ج٧، ص ١٨٥.

(٢) الطبري، ج٦، ص ٢٨: يبدو أن أحمس أبدت مودتها للمختار.

(٣) كتاب البلدان، ص ٣١١. لكن متى كان ذلك؟ هل كان في العصر الأموي أم بعده، لما دحرتهم حملة التشيع التي اجتاحت المدينة؟

(٤) الطبري، ج٦، ص ٤٥؛ وأنساب الأشراف، قسم ٥، ص ٢٣٢. من الغريب أن الدينوري وضع ربيعة وتميم في جبانة «الحشاشين» التي لم يرد ذكرها في أي مصدر: الأخبار الطوال، ص ٣٠٠.

الفترة، نستدل جيداً على أن هناك استقطاباً شديداً للقبائل، وإحياء للروح القبلية وما يتصل بها من روابط عميقة بين السكن ومكان التجمع[1]، خلافاً لما وقع خلال ثورة المختار نفسه. ففي هذه الصورة الأخيرة، توزّعت الحشود بترتيب من الحكم الذي ما انفك قائماً موجوداً، أما في الصورة الأولى، فقد صدرت المبادرة عن القبائل. ولذا فهناك احتمالات قوية أنه كان لمضر مواقع يمكن تحديدها الآن في غرب الكوفة، غير بعيد عن الكناسة، وأن تميماً انتقلوا فعلاً من الشرق إلى الغرب. كما أكد ذلك ماسينيون وكما عرفناه من المصادر اللاحقة. لا شك أن هذا الانتقال لم يكن تاماً شاملاً، ولاسيما بالنسبة لتميم، حيث أن مواليهم من الحمراء بقوا في الشرق[2]، كما يتأكد ذلك[3] من وجود عشائر تميمية في منطقة ينبغي تحديدها إلى الشرق دون أي شك ممكن. وهنا أيضاً تنبغي العودة إلى فكرة تفريق الجموع القبلية حيث بقيت فلول منها بالموقع الأصلي في حين رحل أكثر أفراد القبيلة.

كانت الأمور أكثر بساطة بالنسبة لليمن خاصة همدان وكندة ومذحج، إذ بدت مستقرة من البداية. والملاحظ أن خثعم كانت حاضرة بصورة مهمة وقد حطت بجبانة بشر. واعتقادنا أن الأزد استقروا في مكانين أو ثلاثة، ثم أنه لم يكن لبجيلة، وهم من الأوائل المقيمين، جبّانة على ملكهم فكانوا ينزعون إلى الانضمام لخثعم عندما تفرض الظروف ذلك عليهم. ولنمعن النظر في المصدر الموجود بين أيدينا[4]. لقد أقام عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني بجبّانة السبيع، وأقام زحر بن قيس الجعفي (عشيرة من مذحج) وإسحاق بن محمد بن الأشعث في جبانة كندة، وكعب بن أبي الخثعمي في جبانة بشر حيث لحقت به بجيلة، وأقام عبد الرحمن بن مخنف في جبانة مخنف «عن الازد». ثم تجمع كل اليمنية، ما عدا أغلب مذحج المقيمين في جبانة مراد، في جبانة السبيع - جبانة همدان - حيث تقرر مصير الصراع الذي تواجه فيه الاشراف والمختار. فكان هذا التجمع مكتسباً صبغة استراتيجية واسعة جداً أبرزت أهمية هذه الجبانة، وقد تفوقت فيها همدان ضمن المجموعة اليمنية.

وكانت قيس تمثل القوة الثالثة، ولها أهمية ثانوية، وكانت برئاسة شمر بن ذي الجوشن المعروف في تاريخ الكوفة. وفي تلك الحقبة من تاريخ العرب الأولى كانوا متميزين عن مضر حيث أن المفهومين اكتسبا دلالة محدودة آنذاك ولم يتطابقا. تجمع قيس فروع

---

(١) الطبري، ج٦، ص ٤٥: همدان في جبّانة السبيع، مذحج وكندة في جبانة كندة، خثعم في جبانة بشر، الأزد في جبانة مخنف، قيس في جبانة السلول، مضر في الكناسة، ربيعة بين المركز والسبخة.

(٢) الطبري، ج٦، ص ٢٥.

(٣) الطبري، ج٥، ص ٢٦٢: بنو حرب وبنو العنبر.

(٤) الطبري، ج٦، ص ٤٥.

هوازن وهو الإسم الذي اتخذت بواسطته قيس في إحدى قائمتي الاسباع(١) اللتين وصلتا إلينا، أما سيف فلم يذكر سوى بني عامر بن صعصعة محدداً مقامهم إلى الشرق(٢). ولا شك أن قيساً تجمعوا حول نواة بني عامر أي جشم وسلول وبنو البكاء وكلاب بالخصوص(٣). وقد كان اسم جبانتهم سلولاً. ولا نعلم هل يجب تحديد مقامهم في الشرق تماماً كما فعل ماسينيون أو أن نضعهم في خطة تقع شرق - شمال شرقي وتكون امتداداً لخطة بني عامر الأولى، أو أن نهبط بهم إلى جنوب - جنوب شرقي. أما ربيعة فقد أقاموا في مكان غير بعيد منهم، بين سوق تجار التمور والسبخة وما زالت الغموضات تسود موقع هذه السبخة، الذي به يرتبط في كل حال كل توضيح لمخطط الكوفة: هل كان إلى الشمال الشرقي أم إلى الشرق تماماً، أم إلى الجنوب الشرقي؟ وإذا تمكنا من جهة أخرى من أن نقرر بصورة معقولة مقام قيس في مكان ما يقع إلى الشرق لأنهم كانوا يملكون جبانة خاصة بهم، ولأن بني عامر أقاموا فيه في بداية الأمر، فليس لدينا أية قاعدة توثيقية ولا أية علامة دالة تسمح بالقول إنه كان لربيعة أيضاً خطة بالرقعة الشرقية. الحقيقة إذا أقامت ربيعة بين التمارين والسبخة، ونظراً لقبولنا الترابط القائم بين السكن والاستراتيجية، فنحن ملزمون بالتصديق بوجود دُورهم بهذا المكان. وقد ذكر أبو مخنف أنهم تفرقوا سريعاً وأمروا بالعودة إلى دورهم. ولذا نجد هذا الاحتمال يؤيد وجود جوار معين. وهناك مؤشر إضافي آخر مفاده أنه خلال ثورة زيد بن علي، كانت محطته الأخيرة عند تغلب قرب «مسجد بني هلال بن عامر» حيث تلقى البيعة(٤) ثم أعلن عن ثورته في جبانة السلول(٥) وذلك بعد سلسلة من التنقلات السرية بين القبائل. ويحتمل أن ماسينيون كان محقاً في تحديد موقع بكر على مخططه ضمن الزاوية التي تقع إلى الجنوب الشرقي من الكوفة(٦)، لكن بكراً أقل أهمية في هذا الموضوع من عجل التي ظهرت بمظهر النواة المتراصة لربيعة، إلى جانب عبد القيس وأكثر منها(٧). ولعلهم جذبوا إلى مجالهم تغلباً وتيم اللات والنّمر فضلاً عن بكر. لكن ينبغي اعتماد فكرة الهجرة الداخلية لهذه العناصر من شمال - شمال غربي إلى جنوبي - جنوب شرقي

---

(١) في السُّبع الرابع إلى جانب تميم والرباب: الطبري، ج٤، ص ٤٨.
(٢) المرجع نفسه، ص ٤٥.
(٣) الجمهرة، ص ٢٧٢ وما بعدها.
(٤) الطبري، ج٧، ص ١٧٢؛ لا نجد أية إشارة مفصلة في هذا الموضوع في أنساب الأشراف تحقيق محمد باقر المحمودي، بيروت ١٩٧٧، قسم ٣، ص ٢٤٠ وما بعدها.
(٥) المرجع نفسه، ص ١٧٢ و ١٨١ و ١٨٢.
(٦) Massignon, *ouvr. cit.*، انظر الخارطة.
(٧) تظهر نسبة العجلي دائماً أكثر من النسب الربيعية الأخرى، عند ابن سعد، الطبقات؛ ج٦، والطبري، ج٥ وج٦ وج٧ في عدّة مواضع، وأخبار الدولة العباسية، ص ٢٦٠.

لأنهم استقروا في بادىء الأمر بقطيعة تقع في الشمال الغربي إلى جوار بجيلة[١]. ثم أين نحدد مقام عبد القيس الذين ورد ذكرهم في الكوفة سنة ٤٣ هـ[٢]، خلافاً لما أكده ماسينيون[٣]؟ وأين يوجد موقع أهل هجر أبناء عمومتهم، الذين كانوا آخر من استقروا في الكوفة بين الروادف بمقتضى رواية المقريزي الذي اعتمد دون شك مصدراً قديماً؟[٤]. نحن في حيرة من المؤلفين المحدثين الذين ينسبون إلى عبد القيس مسجد السهلة[٥] بالكوفة وهو ما زال قائماً[٦] في حين أنه موجود بأقصى الشمال الغربي من المدينة[٧]. فضلاً عن أنه ورد بالرواية نفسها في نص أبي مخنف، ذكر مسجد عبد القيس بحيث لم يبعد كثيراً عن جبانة السبيع، وأنه أقيم قطعاً في المنطقة ذاتها[٨]. لذلك تتسلّط علينا الفكرة المتعلقة بثنائية قطائع ربيعة حيث يكون احتل عبد القيس موقعاً خارج المركز، من جهة الشمال الغربي، واحتل غيرهم موضعاً إلى الجنوب الشرقي اندمج اندماجاً متفاوتاً في قطائع قيس[٩].

ويكشف تحليل الأخبار المروية عن ثورة الأشراف، عن وجود تحوير طرأ على خريطة القبائل في هذه الفترة الزمنية التي دامت خمسين سنة والتي فصلت بين المقام الأول (١٧ هـ) وثورة الأشراف (أواخر سنة ٦٦ هـ) فلا شك في ذلك قط. على أن هذا التحوير لم يجر

---

(١) الطبري، ج٤، ص ٤٥: راجع أنساب الأشراف، باريس، دار الكتب الوطنية، ورقة ٥٠٩، بخصوص خطة بكر.

(٢) الطبري، ج٥، ص ١٨٤ و ١٨٥ و ١٨٦ في روايته لثورة المستورد بن علفة الخارجي. إن المراجع كثيرة في هذا الموضوع: انظر لاحقاً. هذا فضلاً عن وجود صحراء عبد القيس، الطبري، ج٧، ص ١٨٢، ومسجد بالإسم نفسه: المرجع نفسه، ج٦، ص ٤٩.

(٣) Massignon, *Art.cit.*, p.47، دون أن يعتمد أي مرجع وقد ذهب به القول إلى أن «اقطاعهم» قد ألحق بهمدان.

(٤) الخطط، ج١، ص ٩٣: اعتمد تاريخ الطبري.

(٥) ذكره الطبري باقتضاب عند روايته أحداث سنة ٢٨١: ج١٠، ص ٣٦، لا عام ٢٨٦ كما قال ماسينيون الذي عرّفه بأنه مسجد عبد القيس: *Art.cit.*, p.53. وقد انفرد بذلك الأمر.

(٦) كان بين المؤلفين القدامى الذين صنفوا مسجد السهلة بقائمة المساجد المباركة ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٧٩. واعتمد البراقي خبراً للشيعة مقتبساً خاصة عن المجلسي والحر العاملي، معرفاً إياه بأنه مسجد بني ظفر: تاريخ الكوفة، ص ٤٤ ـ ٤٥. ولم يرد ذكر عبد القيس في المصدرين. أما بنو ظفر فقد رتبهم ابن دريد ضمن العشائر مجهولة الاسم لبني سليم: كتاب الاشتقاق، بغداد، ١٩٧٩، ص ٣٠٧. والمرجح أنه ينبغي إسناد هذه التسمية إلى عشيرة بني ظفر التي كانت قبيلة عراقية ظهرت في فترة متأخرة بالاقاليم واشتهرت بالغزو والحرب: كحّالة، معجم قبائل العرب، بيروت، ج٤، ص ٣٤٥. لكن لا ننس أيضاً أنّ بني ظفر عشيرة من عشائر الخزرج كثيراً ما ورد ذكرهم في سيرة ابن اسحاق: مثلاً ص ٣٥٩.

(٧) تبعد كيلومترين عن المسجد: الجنابي، مرجع مذكور، ص ٨٩ ـ ٩٣؛ زرناه سنة ١٩٧٩.

(٨) الطبري، ج٦، ص ٤٩.

(٩) راجع الرواية الخاصة بملاحقة حجر بن عدي سنة ٥١ هـ: الطبري، ج٥، ص ٢٦٢.

عشوائياً بل بمقتضى مبدأ جاذبية صلة القربى، حيث يتم الانتقال إلى قبيلة الأشقاء. فمثلاً إذا تجمّعت قيس في اتجاه الشرق، فالمرجّح أن ذلك تمّ لأن بني عامر كانوا مقيمين بالمكان، قبل ذلك[1]. وأن رحيل أكثر تميم إلى الغرب عمل بالتأكيد على تيسير تمدد خطة بني عامر؛ وكذلك إذا وجدنا عبد القيس إلى الشمال الغربي فلأنه تقرر ـ في بداية الأمر ـ إنشاء خطة لتغلب وتيم اللات، لعلها كانت واسعة بالنسبة إليهم، لكنها اتسعت في كل حال إلى الشمال والغرب واستقبلت مهاجري عبد القيس الذين انضموا إلى علي. الحقيقة أننا لا نفهم كيف أمكن لجموع أخرى من ربيعة أن يقيموا في اتجاه الشرق: لعلهم احتلوا الزاوية التي تركها خالية التخطيطُ القائم على أساس الجهات الأربع. أما عن تميم وضبّة، فقد خول لهم الرحيل إلى الغرب الحصول على مجال حيزي أكبر، قابل للامتداد إلى ما لا نهاية. ولابد أنهم استفادوا من وجود خطة اسندت إلى بجالة وبجلة المتفرعتين عن ضبة، والذين لا شك أنهم لم يكونوا كثيرين[2]. ولعله يجب اعتبار هذه الخطة مخصصة لضبة[3] جميعها، وقد انضمت تميم إليهم في وقت لا يمكن تحديده بدقة مع أن ماسينيون تمسك بتاريخ سنة ٣٧ هـ دون حجج، وقد ذكرنا ذلك. يبقى صحيحاً في كل حال أن مجيء علي إلى الكوفة خلخل وجود المصر في الأعماق ولم يلبث أن انعكس بصورة ملموسة على هياكل عالم القبائل. وترتب عن مجيئه قدوم أكثرية عجل من البصرة إلى الكوفة[4]، وجموع كثيرة من عبد القيس.

أما عن طيء التي تحدثت عنها الروايات قليلاً، والتي كانت في كل حال حاضرة بالكوفة، فاعتقادي أنه ينبغي تحديد مكانها في خطة تحمل اسم جديلة. لماذا؟ لأن جديلة اسم لطيء. وحجتنا على ذلك نستمدها من كتاب **الجمهرة**[5] ومن **الاشتقاق** لابن دريد[6]، ومن شاهد شعري[7] حاسم بخصوص الكوفة. لم تكن جديلة الكوفة من قيس كما زعم سيف، ولا من أسد ابن ربيعة، بل من طيء. هذا وقد أكد اليعقوبي أنهم اختطوا

---

(١) الطبري، ج٤، ص ٤٥: اعتباراً لمخطط سيف.

(٢) هذا ما أكده ابن دريد وهو من رجالات الكوفة: كتاب الاشتقاق، ص ١٩٣. لكن ابن الكلبي حدد موضع الأزد في خطة بجالة كما رأينا ذلك والملاحظ أن الأزد كانوا في غربي الشمال الغربي فيما يظهر، بينما ينبغي تحديد مقام ضبة وتميم غربي الجنوب الغربي. الحقيقة أنه يمكن إزاحة خطة بجلة بجالة إلى أسفل الخريطة، وهو مشكل مستعص على النظر.

(٣) ضمن الافتراض المعروض أعلاه فقط.

(٤) أنساب الأشراف، ج٤(١)، ص ٢١٥.

(٥) ابن حزم، مرجع مذكور، ص ٣٩٩.

(٦) كتاب الاشتقاق، ص ٣٨٠.

(٧) لعبد الله بن خليفة الطائي الذي ثار على زياد سنة ٥١ هـ: الطبري، ج٥، ص ٢٨١ ـ ٢٨٥.

قرب جبانة بشر التي كانت لخثعم[1].

هناك قضية تطرح فعلاً بخصوص خثعم، لو رمنا أخذ خريطة سيف مأخذ الجد. كانت خثعم قبيلة يمنية مرموقة ولم تذكر على هذه الخارطة، لكنها شاركت في حرب القادسية، ويحتمل أن عدد أفرادها كان قليلاً، إذ لم يذكر أي رقم بشأنهم. وقد قاموا بدور كبير في أثناء انتفاضة حجر بن عدي[2]، وقدموا الدعم للمختار ووقفوا ضده. كانت لهم جبانة شهيرة معروفة بجبانة بشر وهو إسم لأحد أبطال القادسية[3]، وقد تأكد أن الجبانة كانت أحد الأماكن الكبرى لتجمع اليمنية، مثل جبانة كندة ومراد. كانت بجيلة تلحق بهم فيها[4]، بصفتهم من أقدم الإخوان لهم، منذ عصر الجاهلية[5]. فهل أفسحوا لهم مكاناً في خطتهم الكبيرة التي زادت اتساعاً بعد رحيل أحمس؟ لا يبدو أن الأمر كما ذكر، لأن قول أبي مخنف «ساروا إليهم»[6]، يفرض مسبقاً وصراحة تمييزاً في السكن، كما أن السياق يوحي بالجوار واستمرار علائق القربى السابقة. وعلى هذا، ينبغي تحديد مقام خثعم بمكان تغلب، والأمر الأرجح كثيراً أن يكون ذلك في خطة جديدة كبيرة حددت أثر التخطيط الأول دائماً في الركن الشمالي الغربي، وربما في خطة طيء كما أوحى اليعقوبي بذلك؟ وبصورة عامة، إذا قطعنا بخط وهمي الكوفة قطعتين، أي الكوفة شمالاً والكوفة جنوباً، يظهر القسم الشمالي أكثر كثافة سكانية، وأشد هيكلة، بقطائعه المتراصة وشوارعه الضيقة. وهذا ما يتجلى من شهادة أحد رؤساء قيس، نعني شمر بن ذي الجوشن الذي أقام شرقاً ودعي لنجدة اليمنية في جبّانة السبيع. فرفض نجدتهم معللاً رفضه بأنه يتعذر عليه القتال في السكك الضيقة[7]. وكأن الأمر قد تعلق في هذا الباب بخاصية تميزت بها منطقة الكوفة الشمالية ـ ونحن ندرك ذلك من قوله علماً بأنه كانت هناك من البداية، خمس طرق كبرى ارتبطت بخمس خطط، تقابلها أربع طرق في الجنوب وثلاث في الشرق والغرب فقط[8]. لا شك أن هذه المساحة المسماة بظهر الكوفة في جهتها الغربية، كانت لها جاذبية ارتبطت ببعض

---

(1) كتاب البلدان، ص ٣١٠.

(2) الطبري، ج٥، ص ٢٦١.

(3) بشر بن ربيعة: فتوح البلدان، ص ٢٨١؛ والجمهرة، ص ٣٩١.

(4) الطبري، ج٦، ص ٤٥.

(5) كتاب الاشتقاق، ص ٥١٥. ينحدر كلاهما من الأنمار وهي مجموعة قريبة من نزار، لكنها كانت تقع بموقع ربيعة: ومضر بلدات ثم اعتبروا من اليمنية. راجع كذلك البكري، معجم ما استعجم، ج١، ص ٢٩٨؛ ابن الكلبي، ورقة ٥٣.

(6) الطبري، ج٦، ص ٤٥.

(7) الطبري، ج٦، ص ٤٦؛ أنساب الأشراف، ج٥، ص ٢٣٢.

(8) الطبري، ج٤، ص ٤٥.

العوامل الواضحة منها ارتفاع التربة ومتانتها وجفافها. لكن أيضاً قربها من النهر - منبع الماء والحياة والاتصال بالسواد. ولم يكن الأمر كذلك في المنطقة الغربية وحتى الجنوبية اللتين كانتا مرتفعتين قطعاً، لكنهما امتدتا في اتجاه البادية، على مسافة كبيرة[١]. وتطرح كثافة العمران في الشمال مشكلاً هو مصير تراتبية تلك الطرق التي تجلت لنا في خصوص العصر البدائي فهل أن كلمة سكة تنطبق على الطرق الكبرى التي كانت مسالك أو على الشوارع الأقل عرضاً التي «تحاذي هذه ثم تلاقيها» أم على الاثنين معاً؟[٢]. وإلى أي حد بلغ محو نسق الطرق وما هو الصنف الذي طاوله هذا المحو؟ استمرت قطعاً الطرق قائمة بصورة أو بأخرى على الأقل من حيث انفتاحها على المساحة المركزية، لأن أبا مخنف ما انفك يكرر قوله مع رواة آخرين بخصوص «أفواه السكك» (أي مدخل الشوارع ومخارجها ابرازاً لأهميتها الاستراتيجية)[٣]. فمن تحكم في هذه «الأفواه» تحكم في المدخل إلى قلب المدينة: الأمر صريح بخصوص الشمال وأيضاً بالنسبة للشرق قليل الضيق وواضح التخطيط، ويبدو أن هناك طريقاً كبرى للعبور كانت تقع بين الكناسة والقصر، بالنسبة للغرب أو الجنوب الغربي، وكان الأمر كذلك في البصرة بين المربد والمركز[٤].

ويخص السؤال الأخير تحديد موقع الجبّانات دائماً بالاعتماد على هذا النص. لا يبدو أنها كانت تقع في أطراف الخطط بل في مركزها، في منتصف المسافة حيث فتحة الخطة على المركز ومنتهاها في الخارج حيث تمحي[٥]. ولذا لم تكن الجبانات محيطة فيما يظهر، بل مركزية. وما يدفعنا إلى اعتقاد ذلك طريقةُ الهجوم التي سار عليها جنود المختار نحو جبانة السبيع، حيث قدم ابن الكامل وابن شميط من الجنوب، وهجمت شبام بغتة من الشمال، انطلاقاً من قطيعتها العشائرية[٦]. فتمت محاصرة الجموع التي تحصنت بالجبانة وجرى القضاء عليها. ولا شك أن الجبانة كانت تحديداً موقعاً استراتيجياً من جهة أخرى، ولا شك أنها لاصقت الطريق الرئيسة، ويرجح أن السكك الثانوية كانت تصب فيها[٧]. ولا بدّ أنها كانت مفرقاً للطرق، فجسمت في آن مدخلاً سدّاً يتحكم في فوضى الخطط. ويمكن

---

(١) صالح العلي، «منطقة الحيرة...»، مقال مذكور، انظر الخارطة.

(٢) المرجّح أنها تنطبق على المناهج كما على السكك ذات العشرين ذراعاً.

(٣) الطبري، ج٦، ص ٢٧ و ٢٨.

(٤) المرجع نفسه، ص ٣٠: امتنع على المختار دخول الكوفة من الشرق والشمال، فأحاط بها. ورد ذكر البصرة بوضوح في أنساب الأشراف، ج٤(١)، ص ٢١٢.

(٥) كتاب البلدان، ص ٣١٠.

(٦) الطبري، ج٦، ص ٤٨.

(٧) المرجع نفسه، ص ٤٨.

تخيلها مربعة الشكل أو مستطيلة، وأنها غطت عرض الخطة كله أو كادت تغطيه، بعرضها (٨٠ متراً لبني همدان، وهي خطة ضيقة لكنها تمددت وقد تجاوزت في الخطط الأخرى هذا الرقم). وامتدت على الطول بالمقدار نفسه أو يزيد: كانت الجبانة مجالاً حالياً، غير مبني وغير مسيج بعد[1]، وهي تحتل ما يقرب من هكتار على الأقل، وتحد امتداد البناءات في الخطة القبلية، فأتاحت بذلك تجمع عدة آلاف من الخلائق.

حصار مصعب للكوفة ونهاية المختار (٦٧ هـ/ ٦٨٧)

إن هذه الحلقة الأخيرة من المأساة تسمح فعلاً بمزيد من التطلع، لا لوظيفة التجميع التي تقوم بها الجبّانات الرئيسة، بل لدورها هذه المرة في الإحاطة وكعقدة لمرور البشر والمؤن، وصلة أساسية بين المركز والعالم الخارجي. فمن تحكم فيها تحكم في الكناسة والسبخة ويمكنه خنق القصر والمسجد. وهذا ما فعله جيش مصعب بن الزبير الذي جاء من البصرة لإنهاء مغامرة المختار، بعد أن هزم جيشه في المذار.

ولنوضح بعض الأمور حول السياق السياسي إفادة للقارىء. في سنة ٦٧ هـ كان الأمويون قد حلوا قضية الخلافة داخل الأسرة، واستردوا الشام ومصر[2]. وكان ابن الزبير يسيطر على الحجاز والعراق[3]، باستثناء الكوفة تحديداً التي انتزع منها المختار الولاء. لقد حرض المختار الكوفيين على الانتفاض باسم الأخذ بثأر الحسين كما بينا، فاستولى على الحكم في الكوفة. واعتمد على الموالي مغضباً الأشراف[4]، الذين ثاروا عليه لكن أجهضت ثورتهم. وعند ذلك، توخى المختار سياسة التطرف. وطارد دون هوادة أعداءه وأمر بقتل أسراه كافة. فطارد «قتلة» الحسين ومنهم عدد من الأشراف الذين فرت عندئذ جماعات منهم واتجهوا إلى مصعب في البصرة وطلبوا منه النجدة والتعويض عما لحقهم من ضرر[5]. ووجه المختار جيشاً إلى الجزيرة لقتال عبيد الله بن زياد مدبر مقتلة كربلاء ووفق في القضاء عليه. وترتب عن عمله هذا تأخير فتح العراق من قبل الأمويين، فتدخل مصعب الذي كان يريد توحيد العراق تحت راية ابن الزبير فضلاً عن أنه كان مدفوعاً إلى ذلك بشدة من طرف الأشراف المهاجرين من الكوفة. واتجه إلى الكوفة بعد انتصاره في المذار[6]، على رأس

---

(١) انظر لاحقاً.

(٢) أنساب الأشراف، قسم ٥، ص ١٤٨ ـ ١٥٠.

(٣) الطبري، ج٦، ص ٤٣ ـ ٤٤.

(٤) المرجع نفسه، ص ٥١ ـ ٦٦؛ أنساب الأشراف، ج٥، ص ٢٣٦ ـ ٢٤١، ٢٥١.

(٥) في معركة خازر سنة ٦٧ هـ: الطبري ج٦، ص ٨٦ ـ ٩٢؛ أنساب الأشراف، قسم ٥، ص ٢٤٧ ـ ٢٥٨.

(٦) الطبري، ج٦، ص ٩٣ ـ ٩٧؛ أنساب الأشراف، قسم ٥، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٥.

جيش قوي براً ونهراً في آنٍ[1]. وحاول المختار المستحيل مع من تبقى من الرجال - وكانوا بضعة آلاف - لقطع طريق الكوفة على مصعب، فتحصن في السيلحين[2] (هل كانت تقع في الجنوب الغربي أم في الجنوب الشرقي؟) «وسكر الفرات على مجتمع الأنهار فذهب ماء الفرات كله في هذه الأنهار وبقيت سفن البصرة في الطين»[3]. فتأخر وقت الزحف: ثمّ بدأ القتال في حروراء[4] وكان مركزاً متقدماً للكوفة على طريق البصرة، حيث أقام الخوارج الأوائل بالذات. وكانت محاولة أخيرة. لكن جيش المهلب بن أبي صفرة القوي حمل على جيش المختار فدحره استمر المختار يدافع عن مدخل الكوفة بحفنة أخيرة من أصحابه دفاعاً مستميتاً، عند رأس سكة شبث[5]، ثم تحصن في «قصره» أي قصر الإمارة، واتخذ كل الاحتياطات لمجابهة الحصار. هذه الأحداث يرويها الطبري عن أبي مخنف ويرويها البلاذري عن عدّة مصادر أهمها أبو مخنف، وهي مفيدة لأكثر من سبب. وهذه اللحظة بالذات من ثورة المختار تُعلمنا عن المحيط المباشر للكوفة وتطرح مشكلة الماء ومشكلة اتصال الكوفة بالعالم الخارجي وكيف يتم ولوج المدينة في اتجاه المركز بتقدم بطيء.

قضية الماء:

الواقع أنه ينبغي التساؤل عما هناك من علاقات بين الكوفة والماء. لقد فرّ العرب الأوائل من عالم المياه، إن أمكن القول، من عالم المدائن المائي، وأنشأوا مدينتهم على اليابسة، على الأرض الصحراوية تقريباً. كان ذلك على ضفة الفرات، لكن قبل عبوره ثم يبدأ بعد ذلك عالم الريف، وهو السواد الذي كانت تخطّه قنوات الري التي تربط بين الفرات ودجلة. يذكرنا التصور الشائع المترتب عن كلمات مثل الكوفة والحيرة والكناسة والبادية القريبة جداً، بالغبار ورائحة الصحراء. هذه حقيقة لأن الصحراء جاثمة عند الباب أمام كل عين بصيرة. وهي موجودة بالداخل أيضاً لأن السكان - يا لها من سخرية قصوى - هيأوا داخل الكوفة صحارى صغرى. إنّما كانت هذه الصورة حقيقية إلى حد ما فقط لأن الكوفة فعلاً نقطة اتصال بين عالمين، وقد أثبت الماء وجوده في البداية بفضل الفرات، وبكل ما يتبع الفرات كالسبخة التي أشرنا إليها مراراً، والقصب الذي أضفى على الكوفة

---

(١) الطبري، ج٦، ص ٩٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٩٥؛ صالح العلي حدد موقعها في الجنوب الغربي قرب طريق القادسية وحدده ماسينيون إلى الجنوب الشرقي قرب الفرات. ويؤيد السياق وجود الموقع إلى الجنوب الشرقي.

(٣) المرجع نفسه، ص ٩٩. استعملت كلمات مثل سكر وبكر وهي مصطلحات مائية مشتقة من اللغة الأكادية.

(٤) الطبري، ج٦، ص ٩٩ - ١٠٠؛ أنساب الأشراف، ج٥، ص٢٥٨.

(٥) الطبري، ج٦، ص ١٠١.

وجهها الأول، وبالمقابلة بين اللسان [1] والملطاط [2]، وبإكثار المصادر من استعمال كلمة «الظهر» [3] (اليابسة التي ترتفع فوق السطح أو التجويف وتقابله، كما يتقابل الظهر والبطن).

وتتكلم المصادر بخصوص الكوفة عن المسنّاة (سد) مع أنه كانت توجد مسناة اسمها مسناة جابر [4] بالحيرة على الرغم من الاعتقاد السائد بأن الحيرة كانت غائصة في الصحراء.

وتكمن أهمية نصوصنا سواء لدى الطبري [5]، أو لدى البلاذري [6]، في التدليل على وجود شبكة من القنوات في جنوب الكوفة وفي المنطقة التي كانت تقع قبل الفرات. وهذه القنوات معروفة بنهر الحيرة، ونهر السيلحين ونهر القادسية ونهر يوسف [7] (يرجح أن يوسف بن عمر هو الذي أمر بحفره، ويكون إذن خطأ تاريخي ورد بالرواية). فما هي هذه القنوات؟ أين كانت توجد؟ ما هي وظيفتها؟ هل كانت قنوات قديمة مهملة فتح فعلاً المختار اتصالها بالفرات بعد أن كانت مقفلة، وبذلك جف أسفل الفرات؟ علماً أن الأخبار الخاصة بمعركة القادسية [8] تحدثت عن قناة اسمها العتيق ويبدو أنها كانت مهملة ولعلها كانت مسدودة، وقد أشار إليها المسعودي أيضاً واصفاً إياها بأنها مجرى قديم للفرات كان يصب في بحر قديم قام مكان بحيرة النجف [9]. من المؤكد أن الحيرة لم تكن تقدر أن تحافظ على وجودها المزدهر في الماضي كواحة من دون الري. وقد تغذت الضفة العربية للفرات بالماء بواسطة الأنهار = القنوات. ويحتمل أنها تعطلت أو تقهقرت في أواخر العصر الساساني وعادت إلى سالف نشاطها في العصر العربي. ومن المعلوم أن خالد القسري أمر بعد ذلك بحفر النهر الجامع ونهر خالد والمبارك وباجوّه وبارمانه ولوبه فمثل كل ذلك شبكة حقيقية [10]. ولعل الجامع وحده كان موجوداً بمنطقة الكوفة [11]. فهل إليه تلمّح المصادر رغم

---

(١) الطبري، ج٣، ص ٦١٩ وج ٤، ص ٤٢.

(٢) عرّفه البلاذري بأنه يفصل بين الكوفة والحيرة: فتوح البلدان، ص ٢٧٧. الواقع أن الملطاط كان محطّاً لفيضان النهر.

(٣) الظهر هو «طريق البادية»: تاج العروس، ج٣، ص ٣٧١.

(٤) الطبري، ج٤، ص ٤٢٢ وج ٧ ص ١٨٥؛ ورد ذكر مسنّاة جابر في فتوح البلدان، ص ٢٨٠.

(٥) التاريخ، ج٦، ص [illegible]

(٦) أنساب الأ[illegible] ج٥، ص ٢٥٨.

(٧) [illegible]؟

(٨) الطبري، ج٣، ص ٥٥٦ - ٥٥٧؛ مروج الذهب، ج١، ص ١١٧.

(٩) مروج الذهب، ج١، ص ١١٨.

(١٠) فتوح البلدان، ص ٢٨٩؛ أنساب الأشراف، مخطوطة باريس - السليمانية، وجه ورقة ١٨٨.

(١١) فتوح البلدان، ص ٢٨٤.

أن ذلك خطأ تحقيبي؟ وهل كان قناة مخندقة تحيط بالكوفة ومنها تتفرع الأنهار الأخرى كما تصور ذلك ماسينيون، مشيراً ضمنياً إلى خندق المنصور؟[١] وتكون تضمنت المصادر خطأ تحقيبياً آخر في هذه الصورة أيضاً.

إن هذه المصادر قليلة الوضوح وقد تضمنت الهفوات والتراكيب العتيقة وهي تريد أن تثبت أن المختار أمر بغلق الفرات لصده عن السيل إلى الأسفل. ولهذا سال الفرات بأكمله في «مجتمع الأنهار» حيث تتجمع القنوات وتنطلق جميعها من الفرات[٢]. هذا المكان هو السيلحين الذي لا يمكن تحديده بالجنوب الغربي على حاشية الصحراء بالحيرة وما خلفها كما فعل صالح أحمد العلي[٣]، بل إنه يحدد في مكان ما بالجنوب الشرقي على الفرات. فهل يعني ذلك شبكة من القنوات الخالية المهملة المهجورة التي لم يتبق منها سوى أثر مجوف على الأرض وقد أعادتها إلى سالف نشاطها ظروف عسكرية استثنائية أو أنها كانت قنوات مستعملة، ملأها فجأة هذا التفريع أو قد كانت تروي جنوب الكوفة عادة؟ لا ننس أن الحيرة كانت ما زالت قائمة بكل معنى الكلمة في القرن الأول وما تلاه. فكيف أمكنها البقاء دون ماء؟ من المعلوم أن هناك قطائع زراعية تابعة لجنوب الكوفة، قبل بلوغ الفرات، منها طيزناباذ[٤]. ثم لماذا كانت الكوفة ذاتها تتغذى بالماء بصفة سيئة في ذلك العصر لعدم وجود فرع من فروع الفرات يسد حاجتها من الشرب على الأقل؟[٥] لا تناقص في هذا الأمر حسب رأينا، بل إنه مجرد إهمال. كانت هذه القنوات موجودة أساساً لسد حاجات الزراعة، وكانت الكوفة تقع على حافة الفرات فكانت تحصل مباشرة على الماء، فضلاً عن قلة التنظيم، فلم يتوفر لها سوى السقائين وبعض الآبار في القصر وفي بعض الجبانات[٦] ولم يوجد شيء آخر. وبذلك اصطبغ حصار المختار بصبغة فظيعة سنة ٦٧ هـ، فكان حصار العطش القاتل. على أنه يجب التأكيد في كل حال على تدخل عالم المياه وحضوره وتأثيره في هذه النقطة القصية من الصحراء، فكانت الكوفة تعيش تبعاً لذلك وضعاً شديد التناقض، وهو تناقض عمّ كل شيء دون ريب.

لقد سمحت الحفريات الأثرية الخاصة بالقصر بإبراز سواقٍ شيدت لإيصال الماء[٧]

---

(١) انظر: Massignon, *op.cit.*, p.46 والخارطة.

(٢) الطبري، ج٦، ص ٩٩.

(٣) «منطقة الحيرة...»، مقال مذكور، ص ٢٧.

(٤) فتوح البلدان، ص ٢٨٤؛ العلي، مقال مذكور، ص ٢٥.

(٥) وقد شيدت قنوات بعد ذلك: البراقي، ص ٦٩.

(٦) كانت بئر المبارك بمقبرة جعفي: فتوح البلدان، ص ٢٨٣.

(٧) M.A. Mustafa, *Art.cit.*, p.48.

والمرجح أن ذلك قد تم انطلاقاً من الفرات. ولا شك أن السواقي أقيمت في عصر متأخر خلال حكم الأمويين، وهو تأخير له مغزاه أيضاً ويطفح بالغفلة وقلة الوعي. وقد تحدثت عن مثل هذا المصادر بخصوص العصر الأول في بغداد. لقد وجب تذكير المنصور بضرورة إمداد المدينة بالماء بصورة منتظمة(١). ولعل كثرة الماء المستساغ هنا وهناك، في الكوفة كما في بغداد، قد أغنى عن التفكير في الأمر، خلافاً للوضع الذي ساد البصرة(٢). الواقع لا محالة أن الهدف الرئيسي للحصار الذي ضربه مصعب على المختار، يتمثل في القضاء على كل مقاومة تصدر عن المختار، فعمل على تعطيشه.

هناك شهادات ملموسة عجيبة في قوتها وتلونها؛ لقد وزّع مصعب رجاله على النقط الاستراتيجية في الكوفة لقطع «الماء والغذاء» عن المحاصرين في القصر. إنه حصار مدينة عزلاء بلا أسوار، وقد تم في بادىء الأمر حصار القصر عن بعد، أي في السبخة وجبانة السبيع أو الصائديين حسب المصادر، وفي الكناسة وفي جبانة كندة(١): «واربما رأيت خيل عبيد الله (ابن الحر) قد أخذت السقاء والسقائين فيضربون، وإنما كانوا يأتونهم بالماء إنهم كانوا يعطونهم بالراوية الدينار والدينارين لما أصابهم من الجهد، وكان المختار ربما خرج هو وأصحابه فقاتلوا قتالاً ضعيفاً، ولا نكاية لهم، وكانت لا تخرج له خيل إلا رميت بالحجارة من فوق البيوت ويصب عليهم الماء القذر. واجترأ عليهم الناس، فكانت معايشهم أفضلها من نسائهم فكانت المرأة تخرج من منزلها معها الطعام واللطف والماء، قد التحفت عليه، فتخرج كأنما تريد المسجد الأعظم للصلاة، وكأنها تأتي أهلها وتزور ذات قرابة لها، فإذا دنت من القصر فتح لها فدخلت على زوجها وحميمها بطعامه وشرابه ولطفه، وإن ذلك بلغ لمصعب وأصحابه، فقال له المهلب وكان مجرباً: اجعل عليهم دروباً حتى تمنع من يأتيهم من أهليتهم وأبنائهم، وتدعهم في حصنهم حتى يموتوا فيه»(٤). وكان القوم إذا اشتد عليهم العطش في قصرهم استقوا من ماء البئر. ثم أمر لهم المختار بعسل فصب فيه ليغيّر طعمه فيشربوا منه، فكان ذلك أيضاً مما يروي أكثرهم(٥).

إنه نص من نوع المنتخبات الأدبية يتضمن عالماً قائماً بذاته تلتقطه أبصارنا، عالم المرأة الاجتماعي والبشري. وهو لا يختلف كثيراً عن العصور القريبة منا. كانت النسوة مقنعات

---

(١) الخطيب في كتاب Lassner، ص ٥٨.

(٢) Massignon, «i plication du plan de Basta», *Opera Minora*, III, p.62-64؛ كذلك أشار شارل بيلا إلى مشكلة الماء في أطروحته: Ch. Pellat, art. «Basra», *E.I.2*.

(٣) الطبري، ج٦، ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٤) وقال البلاذري أن الأمر وقع: أنساب الأشراف، ج٥، ص ٢٦١.

(٥) الطبري، ج٦، ص ١٠٥.

وكن يخرجن من بيوتهن بحجة زيارة الأقارب. لقد تشكلت واتضحت المظاهر البارزة للحضارة الإسلامية في خمسين سنة. لكنه يصور الصرامة الكامنة في قضية الماء على الصعيد المدني الصرف. ولنقل مرة أخرى إن ما جدّ في عملية مصعب يسمح عموماً بإثراء رؤيتنا للكوفة من عدة وجوه. وها نحن نتعرض لمسألة أو مسألتين أخريين.

من جديد نقاط الدخول: السبخة والجبانة والكناسة.

كان على مصعب أن يقطع على المحاصرين في القصر كل خطوط التموين أي على ما يقرب من ٦٠٠٠ شخص. كيف سيتم هذا العمل الصّارم؟ عسكر مصعب نفسه بالسبخة ونصب قادته بالكناسة وفي جبانة السبيع، وجبانة كندة، وجبانة مراد، وجبانة الصائديين(١). والمعتقد أن هذه المواقع كانت تمنع كل اتصال بالخارج فهي تمثل لذلك المخارج والمداخل الرئيسة وهي تراقب البقية أيضاً، وتراقب طرق الخروج. تقدمت هذه الحشود بحذر في مرحلة ثانية، كل حشد من الموقع المحدد له، وجهتها المساحة المركزية لتطويق القصر(٢). وليتم التعرف على هذه النقط الأساسية كان واجباً الربط بين المرحلتين واعتماد هذه الحركة الزاحفة.

- استهدف احتلال السبخة القضاء على كل اتصال عبر الفرات من أسفل ومن أعلى. فالسبخة تفصل الكوفة عن الفرات إذ إن أعلى نقطة في الشمال هي جسر المراكب، الجسر الذي عينّ ماسينيون موقعه جيداً(٣). لكن السبخة تتجه أيضاً إلى الجنوب، ولا بدّ أنها تتسع عندما تلحق بمشارف بطائح الكوفة(٤) وفي اتجاه البصرة.

كانت جبّانة كندة ومراد والكناسة أيضاً، على حاشية الحزام الواقع جنوبي الجنوب الغربي. وكانت لها الوظائف نفسها تقريباً، أي الاتصال بالطريق الكبرى للحج التي تمتد حتى بلاد العرب(٥)، مع اعتبار أن هذه الطريق بالذات، طريق الظهر، تنحرف إلى البصرة كما إلى الحيرة(٦).

- تقفل جبانة السبيع المدخل في الشمال، بداية في وجه النجدات القادمة من عشائر

---

(١) الطبري، ج٦، ص ١٠٤ - ١٠٥ وأنساب الأشراف، ج٥، ص ٢٦٠ - ٢٦١.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٣) *op.cit.*، انظر الخارطة.

(٤) هذا ما يمكن استنتاجه من تقدم مصعب: الطبري، ج٦، ص ١٠٤.

(٥) كتاب البلدان ص ٣١١؛ صالح العلي، مقال مذكور، ص ٢٥ وما بعدها.

(٦) الطبري، ج٦، ص ٩٩.

همدان المختلفة، مساعدةً لإخوانهم الذين كان أكثرهم من همدان، وكانوا تحت الحصار. لكنها تمنع أيضاً الاتصال بالطريق الرابطة بين النخلة ودمشق - التي تراقبها الكناسة كذلك لأن موقعها كان يقع خارج المركز، وهي تشرف على الغرب والجنوب وتقع بينهما. وانطلاقاً من خطة همدان، يمكن فضلا عن ذلك اللحاق بالنهر[١] واللحاق عموماً بالمنطقة الريفية في الشمال، منطقة البهقباذ الأوسط[٢]. لا مراء في أن مثل هذا الوضع العاجل يعني تعطيل الصلة بالخارج وإيقاف المبادلات مع نقط العمران المجاورة فقط، أي القادسية والحيرة وممتلكات الأشراف في محيط المدينة، وقرى الأنباط ومختلف البوادي التي يقيم بها بدو المناطق المجاورة[٣] والسواد أيضاً الذي كانت علاقته بالكوفة رخوة في ذلك الوقت، إذ كان يرتبط بها عبر الجسر لا غير.

- يبقى الحديث عما اكتنف جبانة الصائديين من غموض، وكانت من أقدم جبانات الكوفة، وقد جزم البلاذري بأنها كانت ملكاً لهمدان[٤]. الواقع أن بني الصائد شكلوا بهمدان عشيرة معروفة[٥]، فلم هذا الاشتباه بجبانة السبيع في هذا المقام كما في استراتيجية التطويق؟ ليس هناك ما يوضح هذا الأمر في تاريخ الطبري[٦]، فقد احتل عبيد الله هذه الجبانة، فورد عليه أمر بالتقدم إلى القصر والوقوف قريباً من دار بلال[٧]، (والمرجح أنها كانت لابن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري). ذلك أنّ أحفاد أبي موسى أقطعوا نصف الأري في قلب المركز في جهته الجنوبية الشرقية[٨]. وكان رأي ماسينيون أن جبانة الصائديين كانت تقع إلى الجنوب الشرقي، غير بعيدة عن جبانة سالم[٩]، اعتماداً لتنوع الروايات الخاصة بالثورات، وما تضمنت من منطق داخلي. ويبدو أن مسيرة جيش عبيد الله بن الحر أكدت هذا الأمر. لكن ما سبب وجود عشيرة من عشائر همدان بهذا المكان؟ وهل يجب إسناد هذه الجبانة إلى عشيرة من أسد هي بنو الصيداء[١٠]، مما يفسر في

---

(١) الطبري، ج٦، ص ٤٨.

(٢) صالح العلي، «منطقة الكوفة»، مقال مذكور، ص ٢٣٧ - ٢٤١.

(٣) صالح العلي، «منطقة الحيرة»، مقال مذكور، انظر الخارطة.

(٤) أنساب الأشراف، ج٥، ص ٢٦٠.

(٥) كتاب الاشتقاق، ص ٤٢٩؛ الجمهرة، ص ٣٩٥.

(٦) الطبري، ج٦، ص ١٠٥.

(٧) الطبري، ج٦، ص ١٠٥.

(٨) كتاب البلدان، ص ٣١٠.

(٩) *op.cit.*، انظر الخارطة.

(١٠) كتاب الاشتقاق، ص ١٨٠.

كل حال سبب تسميتها بجبانة الصيداويين في مصادر كثيرة(١)؟ ولكن خطة أسد كانت تقع في الجنوب الغربي بصورة مبدئية اعتماداً للتقسيم الأولي فتبقى القضية قائمة بذاتها.

تسليط الأضواء على المركز

سبق لنا أن رأينا أن مصعباً أمر بوضع الدروب لقطع كل اتصال بين المركز والخطط. ولربما تمّ الاحتفاظ بها لأن المصادر اللاحقة تحدثت عنها(٢). تعني كلمة درب (دروب في الجمع) أوّلاً «سكة قليلة العرض» تمتد من ٨ إلى ٩ أمتار تقريباً(٣). فتجاوز عرضها عرض الزقاق، وكان دون عرض السكة وأضيفت فيها بعد أبواب بأطراف الدروب(٤) فاتسعت دلالة هذه الكلمة وأصبحت تدل على الأبواب الكبرى التي تقفل السكك(٥). والمعتقد أنه وقع تجهيز بعض السكك أو كلها، التي تفتح على المركز بأبواب، وذلك بداية من عصر مصعب. كان الأمر كذلك في العصر التالي بالنسبة لأسواق الكوفة بعد أن بنيت وهيئت(٦)، وشملت العملية بغداد وغيرها من المدن، فأصبحت الأبواب تغلق عند الطلب، ولا سيما عند المغرب، واتجه التطوّر نحو استحواذ الخواص على هذه السكك. هنا كانت محاولة لفرض رقابة تامة سلّطتها الدولة على الاتصالات بين المركز العمومي والحزام السكني، وربما تكلل مسعاها بالنجاح أو أنها لم توفق في ذلك. لقد جسّمت المدينة المستديرة هذه الإرادة التعسفية تجسيماً قاسياً كاد أن يكون مَرَضياً لأن المرور لم يجرِ أبداً إلا عبر مركّبات الأبواب(٧) وكلما تمادت المدينة الإسلامية في البناء، تحصنت وانغلقت، وكَبِتت الطاقة البشرية في بروج داخلية. ومن العجيب أن الروح الثورة بالكوفة - التي يمكن مقارنتها بما كان عليه الوضع في باريس خلال القرن التاسع عشر - كانت مصدراً لمثل هذه الاختيارات.

ونستمد فوائد أخرى من عصر مصعب؛ يقول أبو مخنف(٨): «ثم أن مصعباً أمر أصحابه فاقتربوا من القصر. فجاء عباد بن الحصين الحبَطي حتى نزل عند مسجد جهينة.

---

(١) كتاب الأغاني، ج١٦، ص ٥.

(٢) الطبري، ج٨، ص ٥٦١ وما بعدها. ليس مؤكداً أنها كانت موجودة خلال العصر الأموي، راجع في كل حال: أنساب الأشراف، ج٣، ص ٢٤٣.

(٣) كان للدروب ببغداد عرض يساوي ١٦ ذراعاً: كتاب البلدان، ص ٢٤٢.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٤٢.

(٥) لسان العرب، مادة «درب».

(٦) أغلقت دروب الأسواق خلال ثورة زيد: الطبري، ج٧، ص ١٨٢.

(٧) الخطيب في كتاب Lassner، ص ٩؛ وما بعدها. انظر لاحقاً أيضاً.

(٨) الطبري، ج٦، ص ١٠٥.

وكان ربما تقدم حتى ينتهي إلى مسجد بني مخزوم»[١] الذي كان على رمية سهم من القصر[٢]. ورد اسم بني مخزوم في هذه العبارة، ولم يكونوا من قريش، بل كانوا عشيرة صغيرة من عبس انتمى إليها حذيفة بن اليمان من صحابة الرسول[٣]، وقد تضافرت المصادر على ذكر حضور بني عبس قرب المسجد[٤] في المركز وهذا أمر شاذ. الواقع أن العشيرة المقصودة هي عشيرة عبس التي شاركت حذيفة في النصف الثاني من الأري[٥] في قلب المركز، وهو يقع في الركن الجنوبي الغربي، وكان إقطاعاً شبيهاً بإقطاع أبي موسى[٦] الموجود بالركن المقابل. ومبرر ذلك في كل حال أن بني عبس بقوا بحامية المدائن عند تخطيط الكوفة[٧]، إلا أن سعداً هيأ أماكن للغائبين الذين عرفوا بأهل الثغور[٨]. فعلينا التخلي عن فكرة سادت تقول بوجود حزام رقيق داخل المركز، خصص للقرشيين والأنصار، وأحاط به من كل جانب بما يشبه الخطة المستديرة التي كانت لأهل الراية بالفسطاط[٩]، ولكن كان المركز وما جاوره مباشرة يتضمن بعض الدور الخاصة بالأشراف من كبار الصحابة[١٠]. ولا شك أن أقرب القطائع من المركز داخل الخطط بالذات، أسندت لأهل العالية وشمل هذا الأمر جهينة وهي تطرح علينا مشكلاً، فلقد حصلت على خطة كاملة منذ البداية، كانت تقع بأقصى الجنوب من جهة الغرب[١١]. كانت خطة مهمة في كل حال تساوي خطة كندة وقد ورد ذكرها كثيراً في مختلف المصادر[١٢]. ورأينا في هذا الخصوص أنها كانت تقع بمقدمة كندة، وتجاوزتها في اتجاه المركز، وكانت ممراً إجبارياً له[١٣]. كان المفروض أن يأتي مثلاً الشعبي من كندة فقيل إنه كان عليه المرور بجهينة حيث عليه أن يقطع كل يوم مسافة طويلة تؤدي به إلى الجبانة[١٤].

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٠٥.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٠٦.
(٣) كتاب الاشتقاق، ص ٢٧٨.
(٤) كتاب البلدان، ص ٣١٠ و ٣١١؛ الطبري، ج٤، ص ٤٥.
(٥) كتاب البلدان، ص ٣١٠.
(٦) كتاب البلدان، ص ٣١٠.
(٧) الطبري، ج٤، ص ٤٣.
(٨) المرجع نفسه، ص ٤٥.
(٩) المقريزي، الخطط، ج١، ص ٢٩٦ وما بعدها.
(١٠) كتاب البلدان، ص ٣١٠.
(١١) الطبري، ج٤، ص ٤٥.
(١٢) فتوح البلدان، ص ٢٧٩.
(١٣) الطبري، ج٦، ص ١٠٥.
(١٤) وكيع، أخبار القضاة، ج٢، ص ٤٢٤.

باستثناء ذلك، يوحي لنا عصر مصعب ببعض العناصر الطوبوغرافية المهمة المتمثلة في وجود دار السقاية[1] التي كانت بناية عمومية للتموين بالماء، وفي وجود موضع للحدادين «حيث تكرى الدواب»[2] أي غير بعيد عن الكناسة، وينبغي تحديده بمكان يقع بين جبانة مراد والكناسة ذاتها وعلى الحدود الغربية إلى الجنوب الغربي من المركز. وهنا اسم مكان آخر هو زقاق أو شارع صغير عرف بزقاق البصريين ولعل اسمه مستمد من أن أهل البصرة أقاموا فيه إقامة دائمة، سواء كان ذلك بعد هذا العصر أم لا، وكان بمنتهى سكة جذيمة من أسد[3]. وفيه كمن أحد قادة مصعب في المحطة الأخيرة التي تم خلالها تطويق القصر[4]. هذا خبر ثمين لأنه يعني أن فكرة السكة استمر تطبيقها على طرق العشائر وليس على الطرق القبلية الكبرى وحسب، وكانت الأزقة تقطعها قطعاً متعامداً أو مائلاً[5]. وبصورة أعم، سواء فحصنا هذه الرواية أو غيرها ـ رواية هجوم شبيب على الكوفة مثلاً[6] ثم ثورة زيد بن علي[7] ـ فإن ما يبرز للنظر هو صورة الكوفة التي خطتها السكك من كل جانب، السكك التي كانت الممرات الوحيدة بين المركز والخارج. ذكر أبو مخنف باستمرار عبارة التحكم في «أفواه» السكك في نصه[8]. وتدل التطورات التي مرت بها ثورة المختار على أن هذا يمثل عائقاً يحول دون الدخول إلى المدينة. وتتواجه «الأفواه» الخارجية مع «الأفواه» الداخلية التي تنفتح مباشرة على المركز وهو منطلقها[9]. كانت تلك حال سكة جذيمة[10]. لكن هل حافظت السكك على العرض نفسه على طول امتدادها، أم أنها ضاقت بحيث أن فتحاتها في المدخل والمخرج شكلت وحدها العرض السابق؟ ألم يمح بعضها فلم تحتفظ سوى «بأفواهها»؟ ألم يبرز غيرها بعد تصميم سعد الأول، ضمن تخطيط آخر، كما وقع في سكة البريد وسكة لحام جرير؟[11] لا بد أن طريقة طمس الطرق غير متقدمة بما يكفي في عصر

---

(١) الطبري، ج٦، ص ١٠٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٠٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٠٦.

(٤) حوشب بن يزيد: الطبري، ج٦، ص ١٠٦.

(٥) انظر ما سبق.

(٦) الطبري، ج٦، ص ٢٢٤ ـ ٢٧٦.

(٧) المرجع نفسه، ج٧، ص ١٨٠ ـ ١٩٠. لم يذكر شيء عن شبيب في الكامل للمبرد، ج٣، ص ٢٦٨ ـ ٣٣٧، وقد تبسط في الحديث عن خوارج البصرة.

(٨) المرجع نفسه، ج٦، ص ٢٠ و ٢٥ و ٢٧ . . .

(٩) المرجع نفسه، ص ٢٢: تمركز كعب بن أبي كعب بالميدان أي بالرحبة ومنع شاكر من الدخول إليه إذ استولى على «أفواه سككهم وطرقهم» من جهة المركز.

(١٠) انظر ما سبق.

(١١) الطبري، ج٦، ص ٢٥.

المختار وحتى في عصر لاحق حيث جمع أبو مخنف أخباره من أناس كانوا شهود عيان لم يعيشوا بعد سنة ١٠٠ إلى ١١٠ هـ، ولا يكون هذا التطوّر حتمية دون شك ولا حتى تطوراً متوقعاً ممكناً طيلة العصر الأموي. فقد بقيت الكوفة مصراً عسكرياً فكان لازماً تجنيد الرجال وتوجيههم إلى القتال بسرعة. والمؤكد أن نسق السكك المشع من المركز إلى الخارج دام فترة طويلة.

وهكذا يتضح أن الفترة التي اندلعت خلالها ثورة المختار بمراحلها الثلاث كانت غنية بالأخبار المتعلقة بشخصية الكوفة المادية. علماً أننا نتعرف بواسطتها على علامات كثيرة ذات دلالة تمكننا من تحديد موقعها. وإذا ما افتقدنا تلك العلامات، فلا مناص لنا من مواجهة حيرتنا بشأنها، وهي كبيرة.

لقد اطلعنا على الرواية المتعلقة بالمختار على مستويين: مستوى ساذج ومستوى متعمق. وقد جارينا القَصّاص في الحالة الأولى - لأنّه قَصّاص حقاً - واكتشفنا الكوفة عبر الأحداث التي خلخلتها والتي رويت مشحونة بحركة البشر واضطرابهم. واعتبر المستوى الثاني معرفتنا للثورات الأخرى وقدرتنا على القيام بمقارنة نقدية بين العلامات الدالة أمراً مفروغاً منه. إنما نستهدف من وراء ذلك التعرف على الأماكن قطعاً واستعراض تخطيط المدينة بصفة عادية. لكن أيضاً ومجاراة لأبي مخنف فإنّنا نبعث للوجود مرة أخرى هذه المدينة بصورة من الصور، ونعيد تعميرها وإحياءها، إذ تلك هي الوسيلة الوحيدة لارتياد هيكلها.
لم يكن أبو مخنف يريد إخبارنا عن الكوفة بل عن الأشخاص الذين قاموا بدور ما وعن الوقائع التي جرت على مسرحها. صارت الكوفة منمقاً (ديكوراً) تتجدد فيه القصة نفسها مما جعل الغموض يسود فتعود بصفة شبه مستمرة إلى النقاط الساخنة نفسها في رواياته. هل أراد رسم أشخاصه في إطار غير مميز، بتدقيقات كافية لتغذية الخيال؟ إنه مشكل كبير مطروح في هذا المجال. لقد اجتهد في تعريف بعض الناس جيّداً، فاهتم بهم أكثر مما اهتم بالأماكن، فكان يسمي ويعرّف أقل شخص منهم، فتبلور لديه ولدى الإخباريين الآخرين عالم البشر، وعالم العمل والسياسة وعالم الصراع، أكثر من عالم الأشياء الجامد، أي عالم الآجر والماء والرمل. لكن هذا العالم كان قائماً بذاته وهو يستمد حياته في جوهرها من حياة رجال التاريخ الذين وضعهم أبو مخنف في حد أدنى من الشروط الملموسة كما يفعل كل قصّاص يحترم نفسه. وإذا كان أبو مخنف قصّاصاً متفنّناً إلا أنه بقي مؤرخاً. فكان علينا المراهنة على جزء صغير من الدقة الطوبوغرافية حتى نتمكن من مزيد من الاحاطة بالموضوع، والاستمرار في هذه القراءة ومقابلتها بمصادر أخرى. إن أبا مخنف لم يخترع الجبانات أو السكك أو الصحارى أو السبخة، فقد ورد ذكرها في كتب أخرى. ولسنا

بصدد السباحة في الخيال بل أن هناك أرضية من الواقع نقف عليها. لكنه يجول بنا على هواه، ويتحول بنا من اليمين إلى الشمال، ثم يدور بنا نصف دورة، ويتركنا متعطشين للتعرف على الأماكن. لقد قال الكثير عنها ولم يقل ما به يشفي غلتنا. والمفارقة هي أنه يحثنا على النزوع إلى الاستماتة في البحث الطوبوغرافي لكونه يقول الكثير ولا يقول ما يغني. هذا ميل مشروع ضروري وغير مُجْدٍ في آن. أليس الأساس أن نفهم حقيقة بنية المدينة وسير اجهزتها؟ وألا يكون مما لا طائل من ورائه للتعمق في المعرفة أن نتأكد أن السبخة كانت تقع في الشمال الشرقي لا في الشمال الغربي؟ هذا صحيح دون شك ضمن مشروع شامل للفهم الوظيفي. وليس بصحيح، إذا اعتمدنا منظور إدراك الملموس حيث يريد المرء معرفة طريقه لا أن يعطيه ظهره. وهناك حقيقة أصلية للأماكن تجعلها حيث هي لا في موضع آخر. وما نستفيده من التمعن في هذه الروايات أنها تتيح بعض الفرص لإدراك هذه الحقيقة ـ ولعلنا نتيه ـ وتفتح لنا آفاق شاسعة لروح الأماكن، وترسم لنا دون شعور منها الرسم الجانبي للشخصية الجسدية للكوفة في حياتها الملموسة أكثر ما تكون نصاعة: نحن لا نتحرك في المجردات بل نحافظ على حد أدنى للاتجاه، مثلنا مثل مسافر متعجل نزل بمدينة يجهلها، وقام بجولة فيها، بحيث يمكن لنا التعمق في التخطيط والاجتهاد في معرفة سكة معينة، أو التشبع بجو المدينة دون النظر لأي تخطيط، أو الانتقال من النظر إلى التخطيط إلى تأمل المحيط. إن مصادرنا تمدّنا بالاختيار نفسه. وشعورنا بصحبة أبي مخنف شعور مزدوج مرير: شعور بتقدمنا الكبير وشعور بتعثرنا التام. وما قدمه بخصوص جولته عبر المدينة يسمح لنا برؤية كل شيء مع أننا لن نقدر على الرجوع إلى الفندق لو كان علينا الذهاب إليه بمفردنا.

- ١٨ -
شبيب (٧٦ - ٧٧ هـ/ ٦٩٥ - ٦٩٧):
استطلاع ثان

حدث ثورة شبيب له أهمية قصوى وهو معبر في أكثر من نقطة، ومن خلاله تتضح جغرافيا تاريخية كاملة بفضل جولاته السريعة الخاطفة عبر فضاء واسع يغطي منطقة نفوذ الكوفة، في أذربيجان وبلاد الموصل وأرض جوخي والسواد، والكوفة ذاتها، وما حواليها في باديتها الواسعة. يبرز كل ذلك بصفة غير مباشرة أمام أبصارنا بحيث أصبح يشدنا إليه: أسماء المكان، الطرق والمسالك، وضع الريف - عالم من القرى والأديرة والسدود والقنوات - مستقرات البدو في الجزيرة والسواد والجبال، أو المترامية في مباسب الكوفة. وفي الإمكان أن نستمد منها الكثير على الصعيد السياسي والاجتماعي والبشري، لكننا لسنا بصدد النظر في ذلك لأن الكوفة التي اتجه إليها شبيب بعنف تبقى الشخصية الرئيسة. وتتسع دائرة الاكتشاف قليلاً بوجود شبيب، فترفع الكوفة شيئاً من الغموض الذي يلفّ هيكلها ومحيطها.

نحن ملزمون بالرجوع إلى عموميات الطوبوغرافيا، واللهث دوماً وراء حقائق مستحيلة إلى أن نحصل على بعض التدقيقات. نبدأ بلحمة الأحداث كما رواها أبو مخنف الذي اعتمد عدة شهود وأسانيد[١] فانتاب التردد الرواية ونعتمد آخرين منهم عمر بن شبه[٢]. يظهر أن شبيباً كان يرمي إلى بث البلبلة في جهاز السلطة بالعراق وتحديها، وإشاعة الاضطراب في مواردها. والدخول حتى مركز الكوفة، وكان ذلك هو الهدف الرمزي الأسمى فوفق ولو مرة واحدة على الأقل في ذلك، دون أن يمدد إقامته. لكنّه أصرَّ على الإحاطة بالمدينة المدافعة عن حياضها، الخائفة، فكان لا يكل في البحث عن ثلمة ينفذ منها فأصبح الجسر والسبخة ودار الرزق وكذلك أفواه السكك والقصر والجامع وخطة بني

(١) ولا سيما فروة بن لقيط الذي حضر الأحداث: الطبري، ج٦، ص ٢٦٢ - ٢٦٧.

(٢) الطبري، ج٦، ٢٧٢ - ٢٧٦.

شيبان - قرابته[1] - نقطاً حساسة ازدادت وضوحاً لدينا.

أ) جاء شبيب مسرعاً من المدائن في مرحلة أولى، فامتنع عليه دخول الكوفة، وحال دونه ودون ذلك جيش مؤلف من ٢٠٠٠ رجل وهو بقيادة سويد بن عبد الرحمن السعدي. وقد عسكر هذا الجيش في السبخة ثم عبر الفرات وسيطر على مدخل الجسر[2]، جسر المراكب الذي يجب وصفه وتعريفه بدقة، ما أمكن ذلك. فراوغه شبيب وعبر النهر على مرأى من سويد الذي كان يلاحقه، وبلغ دار الرزق التي ورد ذكرها لأول مرة في مثل هذه الروايات[3] التي أهملت ذكرها بخصوص المختار مثلاً. وعلم شبيب بوجود حشد آخر بقيادة عثمان بن قطن نزل بالسبخة، ولذا ينبغي تحديدها في مكان آخر غير دار الرزق، وحتى الجسر، إلى أسفل النهر وفي الشرق تماماً، فدار حول الكوفة كلها، واستمر سويد يلاحقه فحال بينه وبين دور الكوفة[4]. وعند ذلك، اتجه شبيب إلى الحيرة، ثم ابتعد نحو أسفل الفرات (على بعد ٢٤ فرسخاً)، وعاد أدراجه إلى البادية، باثاً الرعب في بني شيبان، وعاد أخيراً إلى الشمال ماراً بالأنبار، فبلغ أذربيجان[5]، بعيداً كل البعد.

ب) وبذلك كانت هذه المحاولة الأولى فاشلة. ونجحت المحاولة الثانية في السنة نفسها. اكتسح شبيب الكوفة بسرعة حيرت السلطة وهياكل الدفاع عن المدينة. لكن الحجاج علم بالأمر وهو في البصرة[6]، فسبقه إلى الكوفة، ولم يكن له متسع من الوقت سوى بضع ساعات لتنظيم جهاز دفاعي، لكنه لم يفعل شيئاً. فعسكر شبيب هذه المرة بالسبخة ذاتها، ودخل الكوفة راكباً مع رفاقه عند المغرب[7]. علينا الاعتقاد إذن أن السيطرة على السبخة كانت تعني السيطرة على مفاتيح المدينة وأنّ المسافة التي تفصلها عن المركز كانت قصيرة وأن الجانب الشرقي يوفر تسهيلات للدخول، ويمثل إلى حد ما الموقع الرخو للمدينة، إلا إذا تقرر غلق السكك، ولم يكن الأمر كذلك هذه المرة. دخل شبيب السوق، وروي ما يلي: «فجاء شبيب حتى انتهى إلى السوق ثم شد حتى ضرب باب القصر بعموده... ثم أقبل حتى وقف عند المصطبة»[8] (كانت المصطبة منصة لإقامة الاحتفالات

---

(١) من تميم بن شيبان، كان شبيب بن أحمد من الأولين وابن أمة بيزنطية أحبت سيدها، وقد تعلق بها شبيب كثيراً: راجع مثلاً الطبري، ج٦، ص ٢٥٥؛ نشأ في بادية بكر بالجنوب الغربي من الكوفة: الطبري، ج٦، ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٢) الطبري، ج٦، ص ٢٣٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٣٦.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٣٩.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٤٠.

(٦) المرجع نفسه، ص ٢٤٠.

(٧) المرجع نفسه، ص ٢٤٠.

(٨) المرجع نفسه، ص ٢٤٠ - ٢٤١.

العسكرية حسب ماسينيون[1] . . .   وتمثلت المرحلة التالية في دخول الخوارج الجامع الذي كان «كبيراً لا يفارقه قوم يصلون فيه». قتل بعض الناس وتراجع القوم مروراً بخطة شيبان. وحطوا أمام دار حوشب ـ صاحب الشرطة ـ ومسجد بني ذهل (بن معاوية وهم من كندة قطعاً): وقتل رجلان ووقع التشنيع بأحد القتيلين[2]. ولا بد أن هذه الأمور كلها جرت في فترة وجيزة جداً، وكانت خطة شيبان مجالاً لحقد غريب جداً وكثير الدلالة، كان شبيب يكنّه لقبيلته ذاتها، فهل في الإمكان تحديد موقعها على الأقل؟ كانت تقع على الأرجح في الزاوية الجنوبية الشرقية على الرغم من أن مسجد بني ذهل الذي ورد ذكره في ثورة حجر بن عدي لا علاقة له ببكر وإنما هو مسجد لإحدى عشائر كندة[3]. لكن المهمّ أن شبيباً ترك المكان واتجه رأساً إلى المردمة[4]. وكان دون شك مكاناً يدل على مرتفع من الأرض أو سد على الفرات أو إحدى قنواته. ويدل جذر (ر د م) على فكرة السد، وغلق الثغرة بتكديس المواد[5] فضلاً عن أن هناك من يتولّى جمع العشور[6] (المقصود هنا مكوس المرور والجمارك، والمكوس التجارية)[7]، وأخيراً، لأنا نجد شبيباً بمنطقة الفرات أسفل الكوفة (أسفل الفرات) فوراً بعد مروره بالمردمة حيث اصطدم بأحد أعوان الحجاج الذي جاء بصحبته من البصرة وتأخر في الطريق. وهناك مؤشر أخير هو أن صاحب الكوفة جرحت كبرياؤه وأهين فاستيقظ من سباته ووجه بسرعة جيشاً لمطاردة شبيب والتقى قادته فعلاً «بأسفل الفرات»[8]. إن كل القرائن تدل على أن خطة بكر ممن أقاموا بالكوفة اتحدت مع خطة عجل وتغلب وكانت تقع في العصر الأموي بالجنوب الشرقي من الحزام السكني وداخله: بين قيس وبقايا تميم (بنو العنبر) من جهة، وكندة من جهة أخرى، لكننا نجهل هل استقروا بالمكان الذي كان خالياً في بداية الأمر، على المخطط المتعامد وهل دخلوا الخطة الأولى التي كانت للأزد. ومازالت[9]؟ . أما قضية بكر الخارجين عن الكوفة

---

(1) *op.cit.*, p.51. كانت تقع بالميدان الذي يعني رحبة في اللغة الفارسية.

(2) الطبري، ج٦، ص ٢٤١.

(3) الطبري، ج٥،ص ٢٦٢؛ بخصوص وجود عشيرة بني ذهل بن معاوية من كندة ومسجدها بالكوفة راجع: مخطوطة الكلبي، كتاب النسب، ورقة ٢٤.

(4) الطبري، ج٦، ص ٢٤١.

(5) لسان العرب، ج١٢، ص ٢٣٦ وما بعدها؛ تاج العروس، ج٨، ص ٣٠٩.

(6) الطبري، ج٦، ص ٢٤٣.

(7) أبو يوسف، كتاب الخراج، ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

(8) الطبري، ج٦، ص ٢٤٣. هناك ترادف بين أسفل الفرات والـ..بين، ولعل الكلمة الأولى تعني منطقة البهقباذ الأسفل وليس النهر بصفته تلك.

(9) بقيت على الأقل بارق في خطة الأزد الأولى والأرجح أن غالبية الأزد كانوا بالشمال الغربي.

والموجودين بأسفل الفرات كما بعيداً جداً إلى الغرب في قلب البادية فقد اتضح وضعهم إلى حد ما بفضل هذا النّص.

ج) جرت محاولة ثالثة لدخول الكوفة سنة ٧٧ هـ. كانت أكثر اتصافاً بالمظهر الدرامي من المحاولات الأخرى، لأنها كانت معركة حقيقية ومنظّمة خسرها شبيب. فقد ضخم أبو مخنف الأحداث أكثر مما فعل عمر بن شبة الذي ورد ذكره أيضاً في تاريخ الطبري، فلوّن المحاولة ووتّرها إلى أقصى حد. والثابت أنه لا شبيب ولا زوجته غزالة تمكنا من دخول الكوفة، خلافاً لأسطورة شاعت وتواترت[١].

ولنستعرض مجرى الأحداث: لقد سبق لشبيب أن هزم جيوش الحجاج «بأسفل الفرات»[٢]، ثم حاصر بعد أشهر المدائن وقد قيل إنها كانت أحد أهدافه الرئيسة[٣] فضلاً عن الكوفة. ثم هجم على الكوفة انطلاقاً من المدائن، فمر بالطريق المعهود التي تعبر الصراة وسورا وحمام أعين، وبلغ الجسر فاصطدم بجيش لجب من الكوفيين، لكن هذا الجيش لم يقدر على صدّه فتفرقت ريحه[٤]. ولا فائدة من التعليق على السر الموجود في قوة الخوارج وضراوتها، وعلى قلة الروح القتالية عند أهل الكوفة، فليس ذلك موضعنا. يقول أبو مخنف إن الحجاج استنجد بأهل الشام الذين قدموا ودحروا شبيباً في الكوفة بالذات فأنقذوا الموقف. وروى عمر بن شبة أن أهل الشام لم يتدخلوا وأن قتيبة بن مسلم هو الذي تكفل بالدفاع عن الكوفة فتكللت جهوده بالنصر. اختلفت الروايتان وكانتا غنيتين بالمعلومات الطوبوغرافية. وأفاض أبو مخنف في القول، واتسمت رواية ابن شبة بالإيجاز والكثافة، وكانت مقتضبة شحيحة التفاصيل[٥]، وقد برزت في كلتيهما أهمية موقع الشمال الشرقي خارج المدينة ذاتها، فكان مكاناً مفضلاً بصفته مسرحاً للعمليات.

وروى أبو مخنف أن شبيباً عبر الجسر وأقام قريباً منه نحو الكوفة، أي قبل جسر المراكب. وقال إنه عسكر ثلاثة أيام دون ذكر اسم الموقع بالضبط، لكنه قال إن شبيباً أمر في اليوم الأول ببناء مسجد بطرف السبخة من جهة المكان حيث يقيم (أو سيقيم؟) تجّار القت (وهو نبات للدواب)، حيث يوجد الايوان. وأضاف أن المسجد «قائم حتى الساعة»[٦].

---

(١) واعتمدت خبراً ضعيفاً: الطبري، ج٦، ص ٢٧٣.
(٢) الطبري، ج٦، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٧.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٤٩ وما بعدها، وص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.
(٤) كان على رأسه عتاب بن ورقاء: الطبري، ج٦، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.
(٥) المرجع نفسه، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٦.
(٦) المرجع نفسه، ص ٢٦٨ـ ٢٦٩.

ويشدّ اليوم الثاني انتباهنا لأن الحجاج أمر مواليه المسلّحين بالتحصّن في مدخل السكك. وكذلك فعل أهل الكوفة الذين «وقفوا على أفواه السّكك»[١]، فكأنما وجدت سكك عمومية أسندت لحرس الوالي وحدهم ولرجاله (المقصودة بالذات سكة البريد التي سيأتي الحديث عنها)، وسكك للخطط ينبغي للسكان أن يدافعوا عنها: هذا مجرد افتراض جدير بالاعتبار. ثم رتب الحجاج الأمر في اليوم الثالث، وهو يوم القتال الحقيقي، بحيث تمركز قادة جيش الكوفة، لا أهل الشام، في «أفواه السكك»[٢]. ولم ينج الحجاج نفسه من حركة تطويق قام بها شبيب إلا بالاستماتة في الدفاع عن سكة لحام جرير[٣] إما بمساعدة السكان وإما بمساعدة رجاله، ولا علم لنا بذلك بصفة دقيقة.

اشتد القتال في اليوم الثالث[٤] وقد دار رحاه خارج الكوفة ذاتها، حيث كانت السكك مسدودة، فدار في مكان خال يبدأ بالسبخة وينتهي بالجسر. ونحن ندرك حدوده نوعاً ما بالمقارنة بين هذه العملية وبين ثورة المختار التي رويت بصورة أقل دقة، إذ أحاطت به علامات كثيرة: القصر بداية ومنه انطلق الحجاج ثم سكة البريد التي مر بها وأخيراً «أعلى السبخة» حيث انتهى به المطاف[٥]. وبعد أن تمّ صد الحملات العنيفة التي قام بها شبيب من قِبل جيش الشام الذي كان حصناً منيعاً قام بالدفاع المستميت فلم تمكن زحزحته عن موقعه، فضلاً عن أن خطب الحجاج بعثت فيه الحماس[٦]، أمر شبيب جانباً من جيشه باقتحام سكة لحام جرير ليقطع خط الرجعة على الحجاج[٧]، لكن رُدّ الهجوم. والملاحظ من الآن أن سكة لحام جرير تقع حيث يمكن الوصول إلى سكة البريد بعد المرور بها، وذلك بالاعتماد على هذه العملية وأيضاً من الوجهة الطوبوغرافية، وحيث يمكن الأخذ بسكة البريد حتى الخروج منها في أعلى السبخة حيث كان الحجاج في بدء القتال. ورأيي أنه ينبغي تعريفها كإحدى السكك المتجهة من الغرب إلى الشرق والمنطلقة من المركز، وهي تعبر السوق وتقسم الخطط الشرقية وصولاً إلى وسط السبخة. إن هذا التفسير تفرضه إعادة قراءة الرواية الخاصة بالمختار إذ ورد فيها ذكر تلك السكة، كما جاء فيها أن يزيد بن الحارث بن

---

(١) الطبري، ج٦، ص ٢٦٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٦٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٧٠.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٧٠ - ٢٧١.

(٥) المرجع نفسه، ٢٦٩.

(٦) المرجع نفسه، ص٢٦٩ - ٢٧٠ كان الحجاج قائداً كبيراً للرجال وقائداً حربياً حقيقياً، في مثل هذا الموقف المأسوي.

(٧) المرجع نفسه، ص ٢٧٠.

رؤيم (من ربيعة)[1] تمركز فيها، وقد وضعه أبو مخنف «على أفواه سكك الكوفة التي تلي السبخة»[2]. لكن ينبغي نسجيل قدرة الجيش الذي وجهه شبيب على اختراق خطوط الحجاج، وأن هذه الخطوط لم تقدر على منع الدخول إلى السبخة، وسنستعرض فيها بعد النتائج الطوبوغرافية الأخرى المترتبة عن هذا النص.

في المرحلة الأخيرة من المعركة، أعاد الشاميون الهجوم بعد أن صمدوا دون حراك وعلى الركب، وكأنهم جدار من الرماح، أمام الهجمات المتكررة لخيل شبيب[3]. فردّوه تدريجياً على أعقابه وقد كان يستميت في القتال. وبلغ شبيب أخيراً بستان زائدة الثقفي[4]. أما الحجاج، فقد تقدم واستولى على مسجد شبيب[5]. ونستنتج من السياق أن المسافة الفاصلة بين هذا المسجد حيث عيّن الحجاج نشابين، وبين بستان زائدة لا يستهان بها، لكنهما كانا يقعان بالمنطقة ذاتها[6]. وما لبث القوم أن نهبوا معسكر شبيب، ويظهر أنه كان يقع قرب الجسر[7]، وهكذا تحدد المكان في ثلاثة مواضع مختلفة علماً بأن أبا مخنف أكد عند حديثه عن المختار أنه «نزل في ظهر دير هند مما يلي بستان زائدة في السبخة»[8]، والمفروض أن زائدة كان من ثقيف[9] فكان بستانه يقع إما في طرف هذه الخطة وإما في مكان خارج عنها لكنه موجود في امتدادها. وقد عمرت هذه المنطقة الشمالية الشرقية المحاذية للفرات بالبساتين[10] في أيامنا هذه لكن لا شك أن بستان زائدة كان يوجد بعيداً قليلاً عن النهر على الحد الشمالي الغربي من السبخة.

فهل تسمح رواية عمر بن شبّة[11] برؤية أدق لهذه النقاط الدالة؟ حقاً كان ابن شبة

---

(١) الطبري، ج٦، ص ٢٦.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢٧.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٦٩.
(٤) المرجع نفسه، ص ٢٧٠.
(٥) المرجع نفسه، ص ٢٧٠.
(٦) المرجع نفسه، ٢٧١.
(٧) المرجع نفسه، والصفحة عينها: بينما كان القتال دائراً على أشده أمام مسجد شبيب أمر عتاب بن ورقاء من طرف الحجاج بقطع خط الرجعة على الخوارج في معسكرهم. فوفق في ذلك وقتل غزالة.
(٨) المرجع نفسه، ص ٢٢. انظر ما سبق.
(٩) زائدة بن قدامة أحد أشراف ثقيف تحالف مع المختار: البلاذري، أنساب الأشراف، قسم ٥، ص ٢١٥ و ٢١٩ و ٢٤٣ و ٢٤٠؛ وكتاب الاشتقاق، ص ٣٠٤. وقد ثار له بضربة رمح وجهها لمصعب خلال معركة مسكن، ولكن ماسينيون حدد موقع بستانه في «الحارات المنجسة من مدينة الكوفة المقدسة»: Massignon, *op.cit.*, p.54. فكانت مبادرة منه أو أنه اعتمد الطبرسي النوري وهو من الشيعة المحدثين.
(١٠) الجنابي، مرجع مذكور، خارطة رقم ١١.
(١١) الطبري، ج٦، ص ٢٧٢ - ٢٧٥.

من البصرة في حين أن أبا مخنف كان من أبناء الكوفة بامتياز. وكان يفصلهما قرن أو يزيد، لكن عمر بن شبة كان من المُعمَّرين وهو يعتبر أول المؤرخين للعصر العباسي ومن أجودهم دون شك، فقد اهتم بالمدن وألف بالخصوص كتابين عن الكوفة[1] استمد منهما الطبري هذا القول على الأرجح. كان بعيداً عن الأحداث قياساً لأبي مخنف، وأقل دراية منه أيضاً - في نسق المُعاش - بأسرار الكوفة القديمة في العصر الأموي لكن لا يمنع ذلك من أنه مصدر جدير بالثقة والمراجعة والنظر والمقابلة بمصدرنا الرئيس.

يضمّ تآليف عمر بن شبة بصفة تراكمية عدة أخبار حاول الطبري تقديمها ضمن رواية مسترسلة متفاوتة التماسك. وقد أورد في عدّة أماكن العناصر الطوبوغرافية البارزة المتمثلة في دار الرزق والسبخة والجسر. فورد خبر أول مقتضب[2] يصف الخطوط الكبرى لمسيرة الحجاج وقتيبة: باب الفيل - وطريق دار السقاية - السبخة، «وبها عسكر شبيب». ولم يذكر سكة البريد أو السكك الأخرى، أو أنه ذكر القليل عنها لكنه أوحى بوجود طريق كبرى تنطلق من مركب المسجد والقصر، وتنفتح على السبخة، وقد كانت محاذية لدار السقاية التي سبق ذكرها[3]. ثم يتوسع مؤلفنا في القول ويدقق ويزداد وضوحاً. فقد ذكر أن شبيباً وهو لا يزال على ضفة النهر الثانية وجه أحد ضباطه ليفتش عن مكان يعسكر فيه «على شاطىء الفرات في دار الرزق»[4] ومنع الرجل من ذلك مرة أولى، من طرف جنود تمركزوا بأفواه السكك. فوفق في هزمهم. ويبدو أن التحكم في المخارج - مخارج الشمال دون شك - كان حاجزاً للوصول إلى هذه الدار. «ومضى البطين إلى دار الرزق، وعسكر على شاطىء الفرات وأقبل شبيب فنزل دون الجسر»[5]. المهم في هذه الجملة تحديد موقع دار الرزق على ضفة النهر اليمنى. والأهم من ذلك أن عبارة «شاطىء الفرات» فيما يظهر، تنطبق خاصة على قسم معين من النهر يقع في شمال الكوفة مباشرة بأعلاها[6] وهو ما يطابق بنية معينة لسطح النهر تختلف دون أي شك في السبخة. هذا وإن مكان دار الرزق بالنسبة للجسر

---

(١) الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران ١٩٧١، ص ١٢؛ وص ١١٢ - ١١٣ من طبعة فلوجل Flügel، بيروت. ونحن نستغرب نوعاً ما أن فؤاد سزكين رتبه ضمن مؤرخي الأقاليم بعنوان «وسط بلاد العرب وجنوبها» مغفلاً تماماً كتابيه المؤلفين عن الكوفة وتأليفه كتاب التاريخ. انظر: *Geschichte des arabischen Schrifttums*, Leyde 1960. نقل إلى العربية بعنوان تاريخ التراث العربي، القاهرة ١٩٧٧، ج١، ص ٥٥٥.

(٢) الطبري، ج٦، ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٣) انظر ما سبق.

(٤) الطبري، ج٦، ص ٢٧٤. لم يقل أبو مخنف شيئاً عن هذه المرحلة الثالثة من نشاط شبيب.

(٥) المرجع نفسه، ج٦، ص ٢٧٤.

(٦) كثيراً ما تكررت هذه الكلمة لما روى سيف معركة الجسر: الطبري، ج٣، ص ٤٥٥ - ٤٥٧. وأيضاً بالنسبة لمعركة البويب، المرجع نفسه، ص ٤٧٠.

بقي غير دقيق باستمرار، لكن يبدو أن هناك تجاوراً شبه مباشر. و[illegible] أن الحجاج لم يتحرك، فقد تحول شبيب إلى السبخة ليعسكر هناك «بين الكوفة والفرات»[1]. فلم يبق أدنى شك عند هذا المؤلف بخصوص تحديد الموقع، خلافاً للغموض الذي ساد رواية أبي مخنف، أي في الشرق تماماً، فتميّزت بوضوح عن دار الرزق والجسر والشاطىء كما أكد ذلك بعد قليل سير الأحداث، ولا سيما تراجع شبيب[2].

ولم يشر أبو مخنف في أي مكان من كتابه وضمن هذه المحاولة الثالثة، إلى دار الرزق، في حين جعل ابن شبة منها محور محيط المعارك هذه، وعنصراً مركزياً في كل حال. إنما ينبغي التذكير أن أبا مخنف قدم هذه البناية خلال المرحلة الأولى بأنها المكان الذي اختاره شبيب بالذات ليعسكر فيه، في حين أنه لم يعبر النهر على الجسر[3]. ولعل الدار قريبة من الجسر أو موجودة في الشمال - أي أنها كانت أبعد بناية في الكوفة. ومن الواضح أنها كانت موجودة خارج السبخة، حتى عند أبي مخنف.

عودة إلى سيف بخصوص دار الرزق

صمتت المصادر حتى ذلك الوقت عن هذه العلامة الأساسية، على الرغم من كون دار الرزق تقع بمنطقة ساخنة وصاخبة ومشحونة بالتاريخ بصفة خاصة. كانت منطقة تربط الكوفة بالسواد - المكان الشديد الحيوية بالنسبة إليها - والرئة التي منها يتنفس المصر، لأن اهراء القمح هذا[4] لم ينشأ صدفة، حيث كانت الكوفة تستمد قوتها منه، والأرجح أن دار الرزق أنشئت منذ ولاية زياد[5]. على أن سيفاً روى معركة البويب (سنة ١٣ هـ حسب تحقيبه) وأشار إليها صراحة عدة مرات في خبر امتاز بوضوحه، سواء بالنسبة لدار الرزق أو الكوفة ذاتها: «المشركون الكوفة كلها[6]. لقد سبق أن قلنا إن المعركة دارت على موقع بموضع دار الرزق، والمسلمون بموضع السكون»[7]. ثم دقّق سيف مقاله مرّتين بأن أضاف

---

(١) الطبري، ج٦، ص ٢٧٦.

(٢) المرجع نفسه، ج٦، ص ٢٧٦.

(٣) المرجع نفسه، ج٦، ص ٢٣٦ قال: «وعسكر في دار الرزق».

(٤) انظر بخصوص وظيفتها: Massignon, *op.cit.*, p.48، وكذلك لاحقاً.

(٥) كانت بالفسطاط دار منذ أن تولى عمرو بن العاص: فتوح البلدان، ص ٢١٦. وقد روى سيف أن دار الرزق بالبصرة موجودة في ٣٦ هـ فيما يظهر: الطبري، ج٤، ص ٤٦٦ وما بعدها. والمرجح أن تحديدها إسقاط، فقد روى المدائني، جازماً، ان زياداً هو الذي بنى دار الرزق في البصرة: أنساب الأشراف، قسم ٤، ج ١، ص ٢١٤. ولا شك أن الأمر حدث كما ذكر بالنسبة للكوفة.

(٦) الطبري، ج٣، ص ٤٦٣ وما بعدها.

(٧) المرجع نفسه، ج٣، ص ٤٦٣.

أن الفرس عبروا نهر باسوسيا وبلغوا شوميا التي تحدد موقعها بموقع دار الرزق المقبلة[1]. لعل هذا المكان مطابق لمركز إقامة بشرية ظهرت في الماضي أو في ذلك العصر، خصوصاً وأن اسم المكان هذا (شوميا) له مظهر سرياني أو آرامي محلي خاص ببوادي الرافدين، والشيء نفسه بالنسبة لباسوسيا في المرحلة السابقة كراس جسر؛ على أن كل هذه المعلومات لا تفيدنا كثيراً.

وخلافاً لذلك، فما هو مُوحٍ ومشحون بالإشارات وذكريات الماضي البعيد وأيضاً بالاسقاطات الخاصة بالعصر العباسي الأول أي عصر سيف، إنما هو موجود في جملة المعطيات الخام المتنوعة التي يقدمها سيف والطبري. وهي عبارة عن خليط من الأخبار المدونة في كل حال بصفة متماسكة كانت عناصرها أصلية فضلاً عن الطابع الماضوي المقصود في الطوبوغرافيا المشار إليها. إن «السكون اليوم»[2] هو حي كندة، أو قسم منه، مما يعيد إلى الأذهان أن هذه العشيرة سبق لها أن اشتهرت بمسجدها وبحضورها[3] في قلب جنوب الكوفة. وإذا كان الفرس وقفوا حيث نشأت دار الرزق فيما بعد فلأن هذا المكان كان يقع في الاتجاه المعاكس تماماً أي في قلب الشمال. هما نقطتان قصيتان. وسواء صح الأمر أم كان خاطئاً، فهي علامة دالة تريد أن تكون ناطقة مبسطة؛ وبعد إمعان النظر في التفاصيل نجد أن «المشركين» قتلوا «فيما بين السكون اليوم وشاطىء الفرات، ضفة البويب الشرقية»[4]. ولذا يظهر أن «شاطىء» الفرات ودار الرزق مترادفان عملياً ثم ما لبثت التدقيقات أن تراكمت، فوصف البويب بأنه كان قناة لتصريف الفرات في العصر الساساني، عند مد البحر، ومغيض النهر الذي يصب في الجوف[5]. ولعل المعركة دارت على الشاطىء الشرقي من نهر البويب «بين السكون ومرهبة وبني سليم». هذه ثلاث علامات[6]. ولعل موقع الكوفة عبرته قناة في اتجاه شمال - شرق - جنوب (إن بني سليم كانوا حقاً علامة يشار إليها باستمرار) مع انحراف طفيف في اتجاه همدان (مُرهِبة)[7]. وقد انسدّت القناة أو أنها كانت في طريق الانسداد فهل كان هذا النهر بالذات، أم أنه نهر آخر ذاك الذي سمي «نهر بني سليم اليوم»؟[8] كان هذا الخبر استطراداً تخلل الرواية. فحين

---

(١) الطبري، ج٣، ص٤٦٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٦٨.

(٣) انظر لاحقا.

(٤) الطبري، ج٣، ص ٤٦٨.

(٥) الطبري، ج٣، ص ٤٦٣ و ٤٧٠.

(٦) المرجع نفسه، ج٣، ص ٤٧٠.

(٧) الهمداني، كتاب الاكليل، ج١٠، ص ١٣٤ - ١٥٨؛ كحالة، مرجع مذكور، ص ١٠٧٧.

(٨) الطبري، ج٣، ص ٤٦٥.

كان سيف منكباً على تأليف أخباره كانت هناك قطائع بقيت من الخطط القديمة وخلفت آثارها في أسماء المكان منها سليم ومرهبة وكلاهما موضع حقيقي قائم بذاته، وكانت هناك شظايا ذكريات عن حضور قديم جداً: مثلاً البويب ذاته. لكن تنتابنا في كل حال الحيرة بخصوص دار الرزق التي ورد ذكرها في أخبار جانبية اعتمدها الطبري[1] وقد طفت أيضاً قصائد في رواية سيف[2]، وهي تتحدث عن النخيلة «إذ بالنخيلة قتلى جند مهران». ذلك أن هذه الشهادات الأولية استندت دون شك إلى علامة موجودة في ذلك الوقت، لا إلى علامات مقبلة، وتشكل النخيلة محطة أولى على الطريق الداخلية للجزيرة ودمشق وكانت تقع إلى شمالي الشمال الغربي من الكوفة؛ على أنه يصعب تحديد موقعها تحديداً قطعياً، ولم يتوفر لنا أي خبر عن بُعدها[3]. وبما أنها كانت مرحلة ونقطة توقف[4] فإنه ينبغي التمسك بفكرة المسافة الدنيا ـ ربما فرسخ. فإما أن هناك خبرين منفصلين انفصالاً جذرياً وهو الأمر الأكثر رجحاناً، وإما أن هناك تربة مشتركة بينهما. في هذه الحال تكون دار الرزق والنخيلة اختلطتا في فكر شهود لا ينزعون إلى التدقيق إلا قليلاً، ويكون الذي أثر على هذه النظرة هو شعور غامض ببعد دار الرزق عن الكوفة بحيث أن النخيلة والدار وضعتا معاً على صعيد ذهني خيالي وبصري واحد. ويتبين من هذا النقاش بالخصوص، وبالاستناد إلى رواية سيف إجمالاً، وجود شعور مفاده أن دار الرزق تشغل موقعاً قصياً في اتجاه الشمال الشرقي، أعلى بكثير من الجسر، مع بقائها داخل نطاق الكوفة بالذات وفي محيطها.

حصيلة تصورنا

رأينا أن اقتفاء أثر شبيب أفادنا في التقدم للإحاطة بالتركيبة الطوبوغرافية للكوفة. لقد اندمج أكبر قسم من المشاكل المطروحة، وما كان يؤمل من نتائج في ثنايا العرض، نعني موقع قطائع بكر في حزام الخطط، وتقارب موقع مزينة وسليم، والأخبار المتوافرة عن تشتت بكر في الجنوب الشرقي والجنوب الغربي في آن واحد أي أسفل الفرات والبادية، وتعميق معرفتنا بمنطقة السبخة والجسر، ودار الرزق، وأخيراً ملحوظات عن السكك.

هناك بعض النقاط التي تستحق إعادة النظر، والتثبيت والحسم. وبعبارة أخرى: ما

---

(١) الطبري، ج٣، ص ٤٧٢، ولا سيما ما اقتبسه عن ابن اسحاق.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٧١.

(٣) صالح العلي، «منطقة الكوفة»، مقال مذكور، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(٤) الطبري، ج٤، ص ٥٦٢، وج ٥، ص ٧٣ و٧٨ و ٧٩ ؛ أنساب الأشراف، ج٤(١)، ص ١٦٥ وج ٥، ص ٢٠٤ و ٢٠٧ و ٣١٠ ؛ الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٥ و ١٦٥؛ ياقوت، معجم البلدان، هذه المادة.

هي النتائج الدقيقة الجديرة بالتسجيل على خارطةٍ للكوفة؟ وما هي الحقائق الجغرافية الطوبوغرافية الواجب وضعها؟

ولنوجزْ القول: توجد بكر في الجنوب الشرقي، وتقع السبخة في الشرق تماماً وتتقدم إلى الشمال، ويوجد الجسر في الشمال الشرقي بموقع خارج المدينة، وتقع دار الرزق أبعد من ذلك؛ هذه أمور مفروغ منها أو تكاد. لكن لنتقدم في مجال النسقية والدقة.

١) يمكن التمييز بين الكوفة بالمعنى الدقيق - المركز والحزام السكني - وبين امتداداتها المباشرة التي كان من المفروض أن تكون خارج السور، لو كان هناك حَرَم: السبخة والجسر ودار الرزق والإيوان ومسجد شبيب الجديد.

٢) يبدو هذا البلد بالذات كثيف العمران وتشكل الدور المتلاصقة جداراً لا يمكن تجاوزه بالنسبة للأطراف، وذلك لتلاحمها وامتدادها دون انقطاع[١]، فلا يمكن دخول الكوفة إلا عبر السكك. كان الأمر واضحاً بخصوص مصعب، وهو أكثر وضوحاً بخصوص شبيب. والمفهوم من ذلك السكك التي شكلت خطاً مستمراً للدخول، فكانت إما بقايا للشبكة الأولى، وإما سككاً جديدة. لكن السكك الثانوية كانت تلعب أيضاً دوراً معيناً.

٣) إن التحكم في أفواه السكك أصبح عنصراً أولياً فعالاً دائماً للدفاع. واعتقادنا أنه لم يكن يوجد أي جهاز تحصيني بهذه المداخل، كالأبراج وغيرها، فكان المدافعون يجثمون على سطوح الدور أو يكمنون بمداخل السكك[٢]. وإذا كانت كلمة «أفواه» تعني من جهة أخرى وقبل كل شيء كل نقط الدخول للطرق الرئيسة، فإنها تعني أيضاً الطرق الثانوية التي تصب في الأولى. وإذا اقتحم المهاجمون طريقاً كبرى لا يلبث أن يظهر المدافعون[٣] من «أفواه» أخرى وبذا كانت السكك تشق كل طريق - فهل كانت تقطعها قطعاً تعامدياً أم قطعاً مائلاً؟ إنه لأمر يؤثر على تخطيط المدينة كما هو متصور. إن التخطيط على شكل رقعة غير مرفوض بل بالعكس. لقد أصبح قابلاً للتصور أكثر فأكثر، كما أنه صار محل تصديق، لكن لا يوجد أدنى يقين في هذا الموضوع. ومن المعلوم أن سيفاً تحدث عن سكك ثانوية كانت محاذية للسكك الرئيسة ثم إنها «تلتقي» بها[٤]. فكيف كان يتم هذا الاتصال؟ هل

---

(١) حاصر الشاميون زيد بن علي في دار الرزق. فأراد الاستناد إلى الحيطان، للقتال من جهة واحدة. ويميل السياق إلى تأكيد وقوع العملية قرب أقصى دور الكوفة، لا بأحد حيطان دار الرزق: أنساب الأشراف، ج٣، ص ٢٤٩.

(٢) الطبري، ج٦، ص ٢٧٠.

(٣) الطبري، ج٦، ص ٢٧٠.

(٤) انظر ما سبق.

كان يتحول إلى زاوية من ٩٠ درجة؟ أم أن تحوله بنصف دائري؟ أو بواسطة نسق كامل من السكك المائلة تتسبب في تعقيد التخطيط تعقيداً عجيباً؟ أم بالخلط بين النمط التعامدي والنمط المائل، هو الحال تقريباً في كل مدينة؟

هذه قضايا مستعصية على الحل. لكنّ تشابك الطرق ثابت، بحيث أن تقاطعاً ما ينقذ المدينة من الاختناق ويكفل الاتصالات المعقلنة. ولا مراء في أن فكرة انتظام تخطيط الكوفة تفرض علينا وجودها مجدّداً وبقوة.

٤) إذا وجب اعتبار سكة لحام جرير كأحد الشوارع التي تقطع الجانب الشرقي من المدينة لا كشارع يتجه إلى الشمال الشرقي وينفتح على الجسر كما تصوره ماسينيون[١] فإن وضع سكة البريد يبقى في غموض دائم على الرغم من التوضيح الحاسم الذي قدمته النصوص التي روت قضية شبيب. يبقى غامضاً لما ينطوي عليه من مخاطر الاستنباطات الزمنية، التي قد تنجم عن التسمية كما عن الأمر ذاته. وإذا ما صدقنا البلاذري فإن سكة لحام جرير خطأ تاريخي، وهو الذي جزم بأن تسمية بعض الأماكن بأسماء فارسية حصل بعد مجيء جند خراسان (أي بعد سنة ١٣٢ هـ)[٢]. لكن لعلها كانت موجودة حتى قبل ذلك خلال ولاية الحجاج باسم جرير اللحام وحتى بدون إسم بالمرة. أما بخصوص سكة البريد، فالشك ما زال قائماً، وقد أشرنا إلى تخميننا ذاك، وهو يتمثل في وجود سكة البريد في العصر العباسي في اتجاه بغداد. ألم تكن طريق النخيلة أكثر استخداماً للذهاب إلى دمشق؟ لماذا تضارب أبو مخنف والمصادر الأخرى بصفة عامة، فقيل لنا إن الطريق كانت تمر بأرحب وشاكر[٣] من جهة وإنها كانت تشكل خطاً مستقيماً يربط بين القصر وشمالي السبخة والجسر كما هو محتمل من جهة أخرى[٤]؟ ألم تتطابق الذكريات بخصوص طريقتين متواليتين

---

(١) Massignon, *op.cit.*, p. 42.

(٢) فتوح البلدان، ص ٢٨١. لم يذكر البلاذري بالمرة سكة لحام جرير بل أشار إلى هذه الظاهرة عند حديثه عن حجام عنترة وأماكن أخرى بالكوفة، ويمكن أن يشمل ذلك اسم المكان الذي نحن بصدد النظر فيه وقام ماسينيون بذلك: *op.cit.*, p.45، واستنتج لنا أن أبا مخنف كتب روايته بعد سنة ١٣٢ هـ مصححاً أسماء المكان. والأمر المحير أن أبا مخنف يذكّر بما جد من تحويرات بطول المدة، وذلك ما يفعله سيف ولكنه لا يستمر في الأمر.

(٣) انفرد أبو مخنف بهذا الخبر عندما وصف ثورة زيد (١٢٢ هـ): الطبري، ج٧، ص ١٨٦ ولعل الأمر يعني أن دور همدان تقدمت إلى المركز في عصر متأخر.

(٤) حدد ماسينيون مسلكها بين الجسر والقصر والكناسة لكنه وضع الكناسة بالغرب تماماً وجعل طريق دمشق تنطلق منها: *op.cit.*, p.45، وهو لم يذكر مصادره لكنه قال إنه اعتمد الأحداث التي جرت سنة ٦٦ هـ. والملاحظ أن زياداً وجه نحو دمشق أصحاب حجر بن عدي الذين مروا بجبانة عرزم الواقعة في خطة عبس قرب الكناسة فعلاً: الطبري، ج ، ص ٢٧٠.

إحداهما من العصر الأموي والثانية من العصر العباسي؟ وفي هذه الصورة لعل الحجاج لم يعبر سكة البريد الموجودة في عصره، بل عبر ما سُمي بهذا الإسم، ولعلها سكة وجدت على أساس أنها الطريق المؤدية إلى السواد والمدائن، علماً إنه يمكن التفكير في طريق البريد الرسمية التي ربما اتخذت في العصر الأموي مسلكاً آخر مخالفاً للمسلك المتوخى داخل البادية، أي أنه مسلك آخر غير مسلك النخيلة، واستخدمت الطريق والمحطات الساسانية. وبذلك لعل طريق البريد من الحيرة إلى المدائن، ومن الكوفة إلى دمشق وإلى بغداد العتيدة، تطابق جزءاً من الطريق. هذا تعليل يقوم على افتراض صرف[1]. وعلى كل حال، لا يوجد أي شك بخصوص وجود سكة رئيسة في القرن الهجري الأول، تتجه كخط القطر من القصر وتمر بالمسجد (ذكر عمر بن شبة باب الفيل كنقطة انطلق منها الحجاج، ولم يذكر سكة البريد)، وتنفتح على الجزء الشمالي من السبخة، والمرجح أنها تصل إلى الجسر، أما نحن فنميل إلى الاعتقاد بأن هذه التسمية لاتاريخية، سابقة للأوان.

٥) وفيما يتعلق بالمحيط الذي يقع إلى شرقي الشمال الشرقي، ويأتي بعد «أفواه» السكك، أي مداخل المدينة دون أبواب، تبقى المسافات الفاصلة بين المواقع المحددة مجهولة إطلاقاً. ولا يعدو الأمر أن يكون إلّا ترابطاً للمواقع التي تتشارك في التحديد. فانطلاقاً من السبخة، وبالاتجاه شمالاً ومحاذاة للفرات بصورة متفاوتة، يمكن على التوالي استعراض النقاط التالية: مسجد شبيب بطرفيها، إلى جانب الإيوان (لعله كان عباسياً؟) وبستان زائدة والجسر ودار الرزق، ويمكن عكس النقطتين الأخيرتين[2].

وأخيراً، فإن الركن الشمالي الشرقي الذي تخترقه سكة البريد أو ما يقوم مقامها، من طرف إلى آخر، تبقى نقطة ممتازة للدخول، على الرغم من امتلاء الفراغ الأصلي بالبناءات، إضافة إلى الجانب الشرقي والكناسة، والركن الجنوبي الشرقي بصورة ثانوية.

تلك هي النتائج التي نستمدها من تحليلنا لعملية شبيب التي زادت من وضوح تصورنا للكوفة ونفضت على كثير من الشك. من بين أربع ثورات هزت مدينة الكوفة في العصر الأموي، كانت ثورة شبيب وثورة المختار هما الأكثر نُطقاً على صعيد البحث الطوبوغرافي.

---

(١) يرى البلاذري أن سكة البريد (العباسية) احتلت موقع الكنيسة التي بناها الوالي خالد القسري لأمه: فتوح البلدان، ص ٢٨٤.

(٢) ورد ذكر دير هند بالنسبة للمختار. الطبري، ج٦، ص ٢٢. وقد غاب هذا الأمر على الشابشتي فلم يذكر إلا دير هند بالحيرة: الديارات، ص ٢٤٤.

الباب السادس

التطور والاستكمال

٨٠ - ١٥٥هـ/ ٧٠٠ - ٧٧٢

- ١٩ -
أجيال جديدة، عصور أخرى

إنها فترة طويلة دامت ثلاثة أرباع القرن، يمكن في الوقت نفسه اعتبارها عصراً ثانياً للوجود الأموي والمرحلة الثالثة لعصر تاريخي يشتمل على ثلاث درجات. إن النظرة العادية للحكم الأموي تميّز العصر السفياني (٤١ - ٦٤)، والعصر المرواني الأول (٦٥ - ٩٥ أو ٦٥ - ١٠٥)، وأخيراً عصر المروانيين الأواخر وهو حقبة أفول الدولة، وقد تخللته النزاعات الداخلية(١). إن مثل هذا التقسيم إلى عصور، صالح من عدة وجوده، إلا أنه لا يأخذ بعين الاعتبار ثراء الأحداث الكبير بالنسبة للعراق والحجاز تلك الأحداث التي أحاطت بحكم ابن الزبير ودامت عشر سنوات. وبخصوص الكوفة قد يتأكد الشعور أن كوفة المختار تنتسب إلى الجو نفسه الذي عاشت فيه كوفة شبيب لأن شبيباً مدّد بحركته اللحظة السابقة. وعلى الصعيد المدني فإنّا نجد الأجهزة نفسها تقريباً وقد احتفظت المدينة بالقسمات نفسها بعد أن استتمت بناء مظهرها الرئيس. لكن إن كانت التغييرات الطوبوغرافية قليلة في الثمانينات من التاريخ الهجري، فقد طرأت تحويرات مهمة على نظام المدينة، وفي مظهرها الاجتماعي الداخلي، وعلائقها بالخارج. إن هذه اللحظة تشكل انفصاماً تراكم على فترات الحكم (مثل ذلك بقاء الحجاج على رأس الولاية)، وقام على تحول طرأ على الهياكل العميقة. وإذا ما سبرنا الأمور، أمكننا طرح القطيعة التي سادت الامبراطورية العربية كافة، قطيعة بين عصر أول امتد على أربعين سنة وتعلق بالعصر الأولى التكويني والتأسيسي، وبين عصر ثان مجذوب نحو المستقبل، عصر حفاظ وعصر هروب إلى الأمام. ففي سنة ٨٠، لم يبق على قيد الحياة أي شخص من أولئك الذين عايشوا فترة الرسالة والفتح. وحتى زُهرة بن الحويّة بطل القادسية فقد قتله شبيب، وقد عرفه الحجاج شاهداً

---

(١) الطبري، ج٧، ص ٢٣١ - ٢٣٩؛ Wellhausen, *Arabische Reich* ترجمة العربية، ص ٣٠٢ - ٣٧٩؛ Shaban, *Islamic History*, I, pp.153-164.

وقوراً على عالم بطولي، ومُعمَّراً كاد يبلغ المائة[1]. الأجيال غير الأجيال والعصور غير العصور.

منعرج الثمانينات

بصورة محسوسة أكثر، كانت ثورة ابن الأشعث (٨٢ - ٨٣) منطلق [illegible] عاصمة إدارية وعسكرية أموية صرف في العراق، نعني واسط. وفقد المقاتلة في الكوفة والبصرة استقلاليتهم بعد أن احتل جيش الشام العراق بصفة دائمة. وبالتالي، صارت الأمصار منزوعة السلاح فعلاً[2]. واستمر العمل بالنسق الجبائي السابق - الذي أنبنى [illegible] كافة - (الخراج والعطاء والرزق)، لكن داخله الاضطراب. لقد قدرت مداخيل ولاية زياد بـ ٤٠ مليوناً من الدراهم، في حين كانت مداخيل البصرة ٦٠ مليون [illegible] ٦٠٪ منها تحول إلى عطاء الرجال المسجلين بالديوان، وتنفق ٢٧٪ على عطاء الذرية وتوجه حوالى ٣ ملايين درهم إلى الخليفة وينفق الباقي محلياً مع إبقاء جزء منه «للبوائق والنوائب»[4]. وبذلك بلغ خراج المدينتين ١٠٠ مليون درهم، وهو المقدار المساوي لما كان يجمع في خلافة عمر[5]. ثم انخفض في ولاية الحجاج إلى ٢٤ مليوناً[6]، وقد حصل أن ارتفع إلى ٤٠ وحتى ٨٠ مليوناً[7]، لكن الانهيار أمر واقع. وينبغي ربطه بالإرث الذي خلفته فترة طويلة من الاضطرابات السابقة، فضلاً عن التشويش الذي أدخله شبيب على النسق الجبائي (كسر الخراج). كان اضطراباً مقصوداً متعمداً إذ ألقيت وبعثرت أكياس ملأى بالدراهم[8]. وأخيراً فقد اندلعت ثورة ابن الأشعث (٨٢-٨٣)، وهي ثورة «المصرين» دون أن يكون لها محتوى إيديولوجي، حيث أن توجهها تمثل تماماً في إرادة القضاء على الحضور الأموي في العراق.

كانت النتائج متنوعة مهمة، تمثلت في الانفصام النفساني بين أهل العراق والنظام كما

---

(١) الطبري، ج٦، ص ٢٥٩ و ٢٦٥.

(٢) Shaban, *op.cit.*, pp.113-116.

(٣) أنساب الأشراف، ج٤ (١)، ص ٢١٨ - ٢١٩.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) أبو يوسف، كتاب الخراج، ص ٢٦ ؛ فتوح البلدان، ص ٢٧٠.

(٦) ابن خرداذبه، ص ١٤، جعله يـ ـمض إلى ١٨ مليوناً.

(٧) ورد في فتوح البلدان، ص ٢٧٠ ٤٠ مليوناً. أما الماوردي، فقد ذكر ٨٠ مليوناً: الأحكام السلطانية، ص ١٧٦.

(٨) الطبري، ج٧، ص ٢٦٧ : ملحوظة مهمّة عن جباية الخراج.

في الاتجاهات الجديدة للسياسة الأموية في عدة ميادين. وباستثناء هذا الحدث الأكبر شحن العصر بالتحولات: كانت تحولات قادمة من الماضي وبلغت حد النضج، وتحولات مقبلة في حالة نشوء. روي أن الحجاج طرد شر طردة الأنباط من أهل الريف الذين هجروا الأرض وتوجهوا إلى المدينة[1] لمشاركتهم في ثورة ابن الأشعث. كانت مشاركة ضخمة فعلاً. لكن على مستوى التخطيط والقيادة لم يوجد إلا القليل من الموالي المتعربين والمتأسلمين من الذين اندمجوا اندماجاً تاماً في الحياة العربية[2]. ولم يبد الحجاج عداء للموالي المتعربين في أول الأمر، بل أنه استفاد من كفاءاتهم استفادة واسعة[3]. وقد شمل قراره المهم الاعلاج الفارين من الأرض فقط، على ما يظهر.

لقد كانوا جسداً غريباً تمام الغربة، ولا بد أن هجرتهم إلى المصر بدت في نظره ظاهرة جماعية تسيء إلى التوازن. والحق أنه من الصعب أن نطالب شخصاً مثل الحجاج كما أن نطالب روح ذلك العصر بحل شامل لمشكل العلاقة بين الأمة صاحبة السيادة والشعوب المولى عليها، لكن نرى المشكل يطرح نفسه بكل الخطورة وأكثر بكثير مما كان عليه زمن المختار، وهو المشكل الذي سيلقي بكل وزنه على أفق نصف القرن القادم. واختار الحجاج العودة إلى الفتوحات كأفضل علاج يوجه للتكدّر العام المسيطر على العراق. كان ذلك أيضاً انجع وسيلة لتبرير الإبقاء على العطاء وعلى وضعية المقاتلة بالنسبة لأهل البصرة والكوفة. فهؤلاء صاروا خاضعين لرقابة أهل الشام في عقر دارهم وقد انتزع منهم السلاح إن صح القول، لكنهم يقومون بأعباء وظيفتهم القتالية في الأراضي البعيدة، بخراسان وسجستان والسند، وآسيا الوسطى بعد مدة وجيزة. واستمر وتفاقم توجيه البعوث النظامية بصفة منتظمة وبالمداورة[4].

لا نزاع في أن التسعينات شكلت لحظة قوية جدا للتوسع العربي. وقد ترتب عن ذلك اتساع هائل لمساحة الامبراطورية أنجز وتوبع بإصرار، فكانت نتائجه دائمة. من فرغانة إلى الأندلس. وفي هذه الربوع النائية سيترسّخ ويتنظم الجمهور العربي، وبعد سنة ١٠٠ للهجرة سيأخذ طابع الدوام وينفصل انفصالاً واضحاً متزايداً عن قواعده العراقية. وهكذا

---

(١) الطبري، [illegible] ٣٨١.

(٢) حضرت كثير من القراء: الطبري، ج٦، ص ٣٥٠، لكن أكثرهم كانوا من العرب، والحقيقة أن فيروز حصين الذي كان له [illegible]، قد ساند ابن الأشعث: المرجع نفسه، ص ٣٨٠، وأيضاً سعيد بن جبير. كانت جموع الموالي مؤلفة من أتباع مسلحين: المرجع نفسه، ص ٣٤٧. راجع المحبّر، ص ٢٤٠ وما بعدها، عن أعيان موالي الكوفة.

(٣) مثلاً أعين أو يزيد بن أبي مسلم والي افريقية.

(٤) الطبري، ج٦، ص ٣٨٣: «ضرب البعث على أهل الكوفة إلى خراسان».

انتقلت عصبية أهل البصرة بكل عنفها إلى خراسان نتيجة استبقاء الوظيفة الحربية بهذه المواجهة(١). وكان لأهل الشام أيضاً مواجهتهم بشمال سورية وبأرمينية وبعد قليل بالجزيرة: مدرسة حربية، عصب للقوة الضاربة ولكن أيضاً وللسبب نفسه بؤرة أساسية للاضطراب، هكذا كان دور المواجهات. فلا عجب إن وجدت الثورة العباسية موقع اختيارها بخراسان، كما أنه من المتوقع بعد هذا أن تجري المعركة الحاسمة بين مقاتلة خراسان الثائرين وبين جيش الشام الذي تحوّل مع مروان بن محمد إلى جيش الجزيرة.

كيف يمكن لمثل هذا التحوّل المتجذر بقوة في منعرج الثمانينات أن يتجسّم في مصير مدينة كالكوفة؟ بتزايد الصفة المدنية أي بمظهر مدني (خلافاً للعسكري) يتأكد أكثر فأكثر ويصاحب الهدوء الصبور الذي خيّم على الكوفة بعد إعراضها عن الصراعات السياسية باستثناء فورات لا طائل من ورائها تجدّ كل عقدين. فكانت بالبصرة ثورة ابن المهلّب وهي إعادة لثورة ابن الأشعث، ونشبت بالكوفة ثورة زيد بن علي (١٢٢ هـ)، وهي بمثابة الصورة المجددة لحركة مسلم بن عقيل وحركة المختار.

ساد جوّ من السلم الداخلي على الأوضاع اذن، وعاد النشاط الاقتصادي إلى سالف عهده، بل هو شهد توسعاً ملحوظاً في السواد وبالكوفة ذاتها أيام ولاية خالد القسري (١٠٥ - ١٢٠)(٢). وعادت إلى النشاط المسالك التجارية القديمة بعد عاصفة الفتح، وظهرت مسالك جديدة (في اتجاه بلاد العرب خاصة). وبصورة عامة، فقد اتسع حجم المبادلات في كافة المستويات. وبدأت الامبراطورية الإسلامية قاطبة، تستفيد من توحيد المساحات الذي حققته، ومن اتساع فضاءاتها واختلافها(٣). لقد رقّ الاستهلاك وتنوّع وتزايد.

أما على الصعيد الطوبوغرافي، فقد تمخض عن هذه الأمور كافة بناء الأسواق في الكوفة خلال ولاية القسري، ولعبت دار الرزق دوراً تجارياً جديداً، واتسعت المبادلات بحيث شملت الكناسة.

وبقي أن نضيف نقطتين إلى هذه الصورة الأولية: إحداهما ترجع للديموغرافيا، والثانية تستهدف الإشارة إلى أن الكوفة استردت دورها المركزي ضمن جهاز الامبراطورية وزاد التحامها بمحيطها.

---

(١) الطبري، ج٧، في عدة صفحات; Shaban, *Abbasid Revolution*, pp 114ff.

(٢) أنساب الأشراف، مخطوطة باريس - السليمانية، ورقة ١٨٧ و ١٨٨ و ١٨٩ و ١٩٠.

(٣) صالح العلي، مرجع مذكور، ص ٢٢٣ - ٢٣٤؛ الزبيدي، مرجع مذكور، ص ١٥٧ - ١٦١ خاصة.

صممت الكوفة في بداية الأمر لإسكان ٧٠٠٠ إلى ٣٠,٠٠٠ شخص[١]، هذا هو الحجم الذي ذكرته المصادر التي أوردت أيضاً رقم ١٠,٠٠٠ مقاتل[٢] (لا ساكن)، ورقم ٤٠,٠٠٠[٣]. وينبغي اعتماد رقم يتراوح بين ٢٠,٠٠٠ و ٣٠,٠٠٠ من المقاتلة. ومن المعلوم أن جموع المهاجرين المتأخرين وفدوا في رادفة أولى وثانية وثالثة ورابعة أثناء خلافة عمر، وطيلة خلافة عثمان التي دامت ثلاث عشرة سنة. وقد شارك من الكوفة مع علي ١٢,٠٠٠ مقاتل في وقعة الجمل[٤]، والثابت أنه لم يخرج معه إلا جزء من أهل الكوفة. وقد ذكر أبو مخنف بعد وقعة صفين، أن عدد المقاتلة من الرجال يبلغ ٤٠,٠٠٠، وأن عدد الفتيان يكون ١٧,٠٠٠، ويبلغ عدد الموالي ٨٠٠٠، فيكونون ٦٥٠٠٠ في الجملة[٥]. إلا أنه أورد الرقم نفسه تقريباً بالنسبة لعصر شبيب، بعد أربعين سنة من ذلك[٦].

لدينا أرقام دقيقة في عصر زياد (٤٥ ـ ٥٣ في البصرة، ٥٠ ـ ٥٣ في الكوفة) تستند إلى رواية متينة ذكرتها عدة مصادر[٧]. أحصى ٨٠,٠٠٠ مقاتل في البصرة بالديوان، معهم ١٢٠,٠٠٠ من النساء والأطفال، أي ٢٠٠,٠٠٠ في الجملة. وكان في الكوفة على التوالي ٦٠,٠٠٠ و ٨٠,٠٠٠ أي ١٤٠,٠٠٠ في الجملة. والفائدة التي نستمدها من هذا الخبر تتمثل في وجود إشارة شاملة، مع أن النسبة بين الرجال من جهة، والنساء والأطفال من أخرى، من شأنها أن تدعو العالم الديموغرافي إلى التفكير. وينبغي أن نضيف إليهم الموالي والرقيق رجالاً ونساء وأطفالاً، حيث تأكد حضورهم القوي خلال ثورة المختار (لا سيما رد الفعل الشديد الصادر عن الاشراف)[٨]. وبالاقتصار على الرقم الذي ذكره أبو مخنف، نجد أن نسبتهم هي الثمن، وبذلك فعددهم في عصر زياد يكون يتراوح بين ١١,٠٠٠

---

(١) قال ابن اسحاق بوجود ٧٠٠٠ مقاتل في القادسية. ورأى سيف أنهم ٣٠٠٠٠: انظر ما سبق.

(٢) كتاب البلدان: ١٠٠٠٠ خطّط لهم، ص ٣١١.

(٣) ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ٤٩١، ذكر أنهم ٤٠٠٠٠.

(٤) الطبري، ج٤، ص ٥٠٠: كان ثلثهم من ربيعة.

(٥) الطبري، ج٥، ص ٧٩ ـ ٨٠: وأحصي بالبصرة ٦٠٠٠٠ مقاتل في السنة نفسها (٣٧) «سوى أبنائكم وعبدانكم ومواليكم»: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٦) المرجع نفسه، ج٦، ص ٢٦٢: ٥٠٠٠٠ مقاتل عربي.

(٧) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥؛ أنساب الأشراف ج(١)، ص ٢٢٠؛ ومعجم البلدان، ج٤، ص ٤٩١ ـ ٤٩٢ حيث ذكر رقم ٦٠٠٠٠ مقاتل في ولاية زياد و ٢٠٠٠ فقط في العصر الأول، رواية عن الشعبي.

(٨) ذكر الدينوري ٢٠٠٠٠ من الموالي، واعتبرهم من الحمراء، ص ٢٨٨.

و ۱۲,۰۰۰ رجل. ... رأ، خفض زياد من عدد المقاتلة بمقدار ۱۰,۰۰۰ في الكوفة و ٤۰,۰۰۰ في البصرة ورحّلهم للإقامة في خراسان[1].

وهكذا شاهدت الكوفة مضاعفة عدد سكانها خمس مرات في جيل واحد حيث ارتفع عددهم من ۳۰۰۰۰ على أكثر تقدير سنة ۱۷ هـ إلى ۱٥۰۰۰۰ على الأقل سنة ٥۳ هـ. حدث ذلك في عصر زياد حيث أخذت الكوفة شكل المدينة وعاشت ... استبداد وإعادة تنظيم وصرامة في التصرف في الأمور. وبإضافة عدد سكان البصرة يكوّن العدد الجديد كتلة من العمران العربي تبلغ ۳۷۰۰۰۰ ساكن، وهذا رقم ضخم يفض... مظهر التجمعين الكبيرين من البشر ويفرض سلسلة من التطورات المقب... الحكم إلى العراق، وازدهار الثقافة العربية والحضارة العربية، اللتين كا... في هذين المركزين الرئيسين، وتعريب العراق في القرنين الثالث والرابع للـ... وهو يفرض قبل كل شيء فكرة التوسع المجالي للمدينتين.

أما في ولاية الحجاج، وباستثناء خبر ذكره أبو مخنف يبدو رجعاً للماضي، فهناك رقم شامل يقدر بـ ۱۰۰۰۰۰ مقاتل رافقوا ابن الأشعث، من أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل الثغور (المناطق الحدودية البعيدة)، وأهل المسالح (جنود الحاميات القريبة من الجزيرة وحلوان والأهواز وفارس والجبال)[2]. لم تكن البصرة والكوفة منفصلتين بعد في تلك الفترة، من الوجهة المؤسساتية والبشرية، عن ممتلكاتها الإيرانية النائية. وبذلك يشمل هذا الرقم أغلب قسم ـ لا كله ـ من الأرخبيل العربي في العالم الساساني القديم. والرقم الأكثر إيحاء هو أن ۱۰۰۰۰۰ من موالي المدينتين رافقوهم على الطريقة الفارسية[3]. هنا نلتقي مجدّداً بقضية تضخم عدد الموالي من كل صنف: ليس المقصود بالموالي أسرى الحرب المعتوقين كما كان الحال في العصور الأولى، بل كانوا نتاج النزوح الريفي، ونتاج ميل جديد إلى تشكيل جموع من الاتباع للنشاط الحربي أو التجاري. إذا رجّحنا كما يبدو معقولاً أن عدد السكان العرب المدرجين بالديوان بقي مستقراً، فإن العدد الإجمالي لسكان الكوفة قد يكون تضاعف، بدفق الأنباط، أو أنه مر على الأقل بفترة نمو كبير. إلا أن حركة النموّ هذه تعطلت إلى حين من جراء عدّة عوامل منها عملية الطرد التي نفذها الحجاج وسوء الظروف

---

(۱) الطبري، ج٥، ص ۲۲٦، ذكر رقم ۲٥۰۰۰ من كل مصر. ولم يحدد البلاذري إلا رقم الـ ٥۰۰۰۰: فتوح البلدان، ص ٤۰۰. واستنبط صالح العلي، التنظيمات، ص ٤٤، رقم ٤۰۰۰۰ بصري و ۱۰۰۰۰ كوفي وجاراه في ذلك شعبان إنما بحذر: Shaban, *Abbasid Revolution*, p.32.

(۲) الطبري، ج٦، ص ۳٤۷.

(۳) المرجع نفسه، ص ۳٤۷.

العامة، وتأسيس واسط أيضاً، واستقرار أهل الكوفة في وقت لاحق في «مستعمراتهم» القريبة والبعيدة، وحركة انسياب العرب إما في المحيط البدوي وإما في السواد[1]. لكن المصادر تصر على القول إن ١٠٠٠٠٠ سيف كانت مستعدة لأن تقف إلى جانب زيد في سنة ١٢٢ هـ لو شاء ذلك، تأتيه من الكوفة وخراسان[2]. هذا الرقم الوارد في أكثر من خبر، لا يمكن أن يكون مجرد استرجاع لرواية أبي مخنف حول ثورة ابن الأشعث، فهو إما يندرج في المثالية التكرارية والرمزية الرياضية، فيكون تقريبياً خالصاً لا يُعبّر إلا عن ضخامة القوة الضاربة[3]. إلا أنه يكشف مع هذا عن شعور غامض بالعدد الكبير، وينقل فكرة التكثير. لكنه في أغلب الروايات لا ينطبق على الكوفة وحسب[4]، وهذا ما يضيف صعوبة أخرى.

ويمر الزمن ونأتي إلى سنة ٢٦٤ هـ حيث يرد رقم ٨٠٠٠٠ دار أو نار ولعله يقابل ما يقدر بـ ٣٢٠٠٠٠ إلى ٤٠٠٠٠٠ ساكن[5]. كان العصر عصر توسع للحضارة الإسلامية، وعصر الذروة بالنسبة للكوفة، وعصر توسع هام جداً للمجال الديني، كما يشهد بذلك علم الآثار. لكن بغداد من جهة وسامراء من أخرى كانتا تجذبان أهم عدد من سكان الريف والمدن وتعوقان التطور الطبيعي للكوفة. فالمفروض إذن أن هذا الرقم يمثل قاعدة تقريبية صالحة لأواخر العصر الأموي: إن رقماً يتراوح بين ٣٠٠٠٠٠ و ٣٥٠٠٠٠ ساكن، في الثلث الأول من القرن الثاني الهجري، لهو قريب من المعقول تماماً بالنسبة للكوفة ومنطقتها القريبة. وهو يتسب إلى تقديرات العصر: كان مثلاً عدد العمال الذين استخدمهم المنصور لبناء بغداد ١٠٠٠٠٠ عامل، وقد قدم عدد هام منهم من الكوفة. وتواجد أيضاً أكثر من ١٢٠٠٠٠ مقاتل في معركة الزاب (١٣٢ هـ). وأخيراً تؤيد كل القرائن النمو الديموغرافي السريع، منها الوضع الغذائي الممتاز الذي كانت عليه الأمصار التي كانت تستمد كامل غذائها من السواد والأهواز وفارس والجبال وأذربيجان بفضل مؤسسة الرزق، مما جعل المدينة مكاناً للأمن الغذائي. وهذا ما يفسّر تدفق الأهالي عليها وما جدّ من مراقبة للنزوح. لكن هذه الجموع ذاتها تغذي المدينة بدورها بمادتها البشرية. فالتدفق الخارجي هو العامل

---

(١) كتاب البلدان، ص ٣٠٩ و ٣١١.

(٢) مقاتل الطالبيين، ص ١٣٥. ذكر الطبري، ج٧، ص ١٦٦، أن رقم ١٠٠٠٠٠ مرتبط بأهل الكوفة وحدهم وهذه جزئية مهمة.

(٣) انظر مثلاً، الطبري، ج٧، ص ٥٦١.

(٤) بصفة عامة وباستثناء ما ذكره أبو مخنف. وانظر أيضاً الطبري، ج٠، ص ٥٦١.

(٥) معجم البلدان، ج٤، ص ٤٩٢. وقد استخلص كايتاني أيضاً رقم ٤٠٠٠٠٠، اعتماداً على هذا الخبر: Caetani, *Annali*, III.2, p.861.

الأخر للنمو الديموغرافي الذي لم يعد يرتبط عائقه الرئيس بالحروب، بل بالعمل الهدام المتأتي من الطاعون المتكرر ولا سيما الطاعون الجارف الذي حدث في سنة ١١٦ هـ/ ٧٣٤[١].

فهل أن استرداد الكوفة لموقع مركزي يعود إلى هذا التطور السريع المتسق، وإلى تهدئة النزاعات، ولكونها نسجت صلات متينة بمحيطها، وخلافاً لذلك لكون أهل البصرة مارسوا نشاطهم في بلاد بعيدة (خراسان والسند)؟ لقد بدأت الكوفة تفقد هذا الموقع منذ سنة ٣٠ هـ حيث سبقتها البصرة إلى الاستيلاء على خراسان، ذلك البلد الغني المبشر بخيرات لامتناهية. ثم ظهرت فترة مجد في عصر علي، تجسم في انتصاره على أهل البصرة في وقعة الجمل، فأصبحت الكوفة عاصمة للخلافة، وتجسمت إرادة الكفاح والهيمنة في معركة صفين. وقد دفعت الكوفة ثمن ذلك بعد مدة قصيرة حيث أن معاوية وزياداً فضلا البصرة التي انفتحت لهجرة كبيرة جداً[٢]. وعلى ذلك نجد معلومات المصادر عن عصر زياد تدل على تفوق واضح للبصرة. لم تعد الكوفة عندئذ تشكل سوى ثلثي مداخيل البصرة وعمرانها[٣]، وهذا انقلاب يسترعي الانتباه عندما نتذكر البداية المتواضعة لهذا المصر. ثم استمرت البصرة في التطور السلمي في حين أن الكوفة عاشت المآسي تلو المآسي. إن زياداً والحجاج أيضاً وحتى الوالي الذي ولاه ابن الزبير، وقد أشرفوا على العراق كافة، استقروا بالبصرة ولم يوجهوا إلى الكوفة سوى خليفة لهم لا غير[٤]. إلا أنهم أقاموا بالكوفة بصورة منتظمة والتحقوا بها كلما فرض الوضع ذلك.

أما في عصر ابن هبيرة، وخالد القسري، ويوسف بن عمرو، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز فقد صار الوالي يقيم بالكوفة أو الحيرة إذا لم يكن موجوداً بواسط[٥]. وهكذا غادر يوسف اليمن إلى الكوفة خصيصاً لعزل خالد وتولي الأمر مكانه[٦]، وأعد العدة لقمع ثورة زيد وهو في الحيرة[٧]. ويبدو أن ابن عمر أقام بالكوفة والحيرة أيضاً[٨]. وبعد مدة، أمر

---

(١) الطبري، ج٧، ص ٩٣. انتشر هذا الطاعون في العراق والشام، وقد تضررت منه واسط أكثر من غيرها. وقد تفشى طاعون آخر قبل ذلك في الكوفة عام ٤٩ هـ: الطبري، ج٥، ص ٢٣٢.

(٢) أنساب الأشراف، ج٤ (١)، ص ٢٧٣. أدى ذلك إلى إعادة توزيع وتقسيم العطاء.

(٣) انظر ما سبق.

(٤) الطبري، ج٥، ص ٢٣٤: كان زياد يقيم بالتناوب ستة أشهر في كل مصر.

(٥) الطبري، ج٧، ص ١٨٠.

(٦) المرجع نفسه، ص ١٥١.

(٧) المرجع نفسه، ص ١٨٠ - ١٨٦.

(٨) المرجع نفسه، ص ٣١٧.

يزيد بن عمر بن هبيرة ببناء مدينة ملاصقة للكوفة وقصراً[1]. ولعلّه ينبغي الربط بين استئناف الكوفة لمهمة المركز، واعتراف السلطة بموقعها الاستراتيجي الممتاز، وبين إقامة ولاية مستقلة للمشرق (خراسان) بأمر من هشام[2]. فلم تعد البصرة مصدّرة للرجال لتعمير خراسان، هذه الولاية التي وقفت على قدميها، وبذلك فقدت البصرة جانباً من إشعاعها في المجال العسكري واسترجعت الكوفة في الوقت نفسه موقعها المتميز كملتقى للمواصلات.

وهكذا تلتئم كل العناصر التي بسطناها. إنها عناصر ضرورية لمحاولتنا شرح ما طرأ من تطور على المدينة في آخر مرحلة مرت بها خلال العصر الأموي. وهي تنير الطوبوغرافيا، التي لا معنى لها إذا لم ترتبط بكيان المدينة كاملاً وبمادتها البشرية ومكانها في تاريخ متسع تشكل هي جزءاً منه.

---

(١) كان قصر ابن هبيرة بعيداً عن الكوفة، لكن مدينة ابن هبيرة تتراس مع الكوفة ومدّدتها على الضفة اليسرى. انظر: فتوح البلدان، ص ٢٨٥.

(٢) الطبري، ج٧، ص ٤٧ - ٤٩.

- ٢٠ -

الاستمرارية، الاضافات والابتكارات

هذه كوفة نصف القرن الأخير من العهد الأموي هي بالذات التي عاش فيها أبو مخنف. لا شك أنه ألف كتبه في مطلع العصر العباسي، كما بيّن ماسينيون، فاستعرض العصور السابقة، وبذل جهده في إحياء ما مضى من الأحداث، لكن الكوفة التي كانت نصب عينيه هي تلك التي امتدت حياتها من سنة ٨٠ إلى سنة ١٣٠هـ، أي كوفة لم تعد تحدّد ذاتها المجالية بالمدينة - المصر المتراصة المنحصرة على نفسها، بل صارت تنزع إلى ضم العديد من التجمعات شبه المدنية التي دخلت في فلكها ويشهد على ذلك تكاثر المنشآت الخارجية التي أمر بها الخلفاء الأمويون الأواخر والأوائل من العباسيين على السواء، من مثل سوق يوسف بن عمر في الحيرة، وسوق أسد ومدينة ابن هبيرة، وزرارة وهي آخذة هيئتها في ذلك الوقت، والرصافة والهاشمية، وقصر أبي الخصيب.

أما بخصوص الخطط التي بقيت مع المركز، العنصر الأساسي للهيكل المدني، فينبغي تسجيل استمرارية الاستيطانات القبلية، واستقرار الأوضاع أيضاً. لم يأت سكان عرب جدد زرافات للإقامة، ولم يجرِ أي إحداث جديد في الخطط ولا كذلك التحولات التي هي هجرات داخلية كما وقع في الخمسين سنة الأولى. لقد تزايد عدد الموالي إنما أقاموا في خطط أسيادهم. وإذ ورد ذكر مسجد للموالي، وقد وضعه ماسينيون غلطاً[1] بأحد أطراف المدينة، فهذا لا يدل على وجود استيطان خصوصي للموالي غير مندمج في الخطط، ولا على سكن مستقل لهم[2]. إن ما طرأ من تغييرات على نسق الخطط بمفعول النمو العمراني، قد وقع على نمط إما التمدد والدفع إلى الخارج أو عبر التراص الداخلي. لكن عند الحديث عن الكوفة والأزقة والمتاهات والكثافة السكنية التي لا شك فيها، فلا بد من التعرض إلى الوجه

---

(١) Massignon, *Art.cit.*, p.54.

(٢) انظر لاحقاً.

الآخر أي إلى الـ[illegible]انات والصحارى والأفنية والرحبة والسكك ذاتها، التي حفظت للمدينة بنية منفتحة فسيـ[illegible]ـة بعيدة كل البعد عن صورة المدينة الإسلامية في العصور الكلاسيكية وما بعد الكلاسيـ[illegible]ـية (القرن ٣ ـ القرن ٨ هـ).

الواقع أن الاستمرارية تظهر في أغلب المنظر المدني وأغلب علاماته. فعند مطالعة الروايات الخاصه بزيد بن علي، تعود بنا الذاكرة إلى أماكن عهدناها هي جبانة سالم، والصائديين أو الصوداويين (من أسد)، والكناسة، والجبانة، وجبانة مخنف، وجبانة كندة، واستمرت الدور القديمة قائمة وهي تحمل أسماء مؤسسيها: دار خالد بن عرفطة، ودار عمرو بن حريث، ودار عمر بن سعد. وكلها تعيد إلى الأذهان أن عصر الإنشاء والتشييد الحقيقي هو عصر جيل الفتح ومن جاء بعده، وهم الذين طبعوا بطابعهم أسماء المكان. لكن السلالات تبقى وتستمر لدى الأشراف، وهذا ما يفسر أن الدور حافظت على وظيفتها الأولى، باستثناء دار الوليد بن عقبة، التي تحولت إلى دار للقصارين[1].

لم يخل الأمر من إضافات وابتكارات كبناء الأسواق، والقنطرة ومصلّى خالد، وكنيسة أم خالد، ودَوْر سوق الرقيق الذي صارت تقوم به دار الرزق، وتأكيد الوظيفة التجارية والثقافية للكناسة. وتزايد عدد الحمامات، وتطوّرت المناطق المجاورة، وزاد الارتباط بالحيرة بصفة واضحة. إن هذه المنشآت والأدوار الجديدة طبيعية في مدينة فتية لم تنه بعد تشييدها الذاتي، ضمن حضارة جديدة تتشعب، وتدفق معرفتها لحاجاتها، وتستوعب التأثيرات الخارجية. لكنها ابتكارات أملتها أيضاً التغييرات الحديثة.

١) بناء خالد القسري للأسواق:

أنيمت الأسواق في الكوفة منذ البداية، كما هو معلوم، في كامل الجانب الشرقي من المساحة المركزية مستقلة عن المسجد. والأسواق من عطاءات الحضارة العربية الأكثر تميزاً، حيث أن الأسواق الدورية كانت من أسمى مواضع الحيوية الإجتماعية والثقافية العربية. لقد جدد عمر القاعدة لتنظيم الأسواق، فقرر أن المكان يعود لمن يحتله أول مرة: «الأسواق على سنة المساجد. من سبق إلى مقعد فهو له، حتى يقوم منه إلى بيته أو يفرغ من بيعه». هذا أمر يناقض ثبات نقط البيع وتخصص الأسواق. على أنه تمّ لاحقاً تحديد في تطبيق هذه القاعدة وقصرها على المساحات المخصصة من السوق حيث نرى ظهور التميّز من زمن ولاية زياد بالبصرة. فقد تحدث صاحب أنساب الأشراف عن «سوق الطعام» أي سوق

---

(١) ربما في عصر العباسيين.

الحنطة والزيوت[1]. وفي واسط، صممت الأسواق بتخصصات متميزة، مما يفترض أن الوضع كان على ذلك النحو في الكوفة حيث استقر الباعة في أطناف غطتها الحصر وقامت على أوتاد (المرجح أنها كانت من قصب)[2].

وتندرج بادرة خالد المتمثلة في بناء أسواق الكوفة، وهي الأولى من نوعها في الإسلام، تندرج ضمن سياق عظمت خلاله المبادلات، نعني سياق الازدهار الاقتصادي. لكن هذه البادرة ترتبط كذلك بإرادة البناء والتنظيم. فقد جدد مقصورة المسجد[3] التي بناها زياد، وأمر بحفر القنوات منها النهر الجامع، مواصلاً بعمله كله الجهد الهائل الذي شرع فيه الوليد بن عبد الملك الذي مثل تحولاً حاسماً في الانطلاقة المعمارية الإسلامية. لكن خالداً كان صاحب أعمال ميالاً إلى المشاريع النفعية.

كانت المصادر مقتضبة في تدوينها الحدث. قال البلاذري: «وبنى خالد حوانيت أنشأها وجعل سقوفها أزاجاً معقودة بالآجر والجص»[4]. أما اليعقوبي فإنه قال: «إنه بنى الأسواق وجعل لأهل كل بياعة داراً وطاقاً وجعل غلالها للجند» (أي لجيش الشام)[5]. ولم يقل الطبري شيئاً عن هذه الأسواق المركزية، لكنه أشار إشارة خاطفة إلى فكرة اتساعها في الخطط. واستمد ماسينيون نظريته عن مركزية الأسواق منها، وهو يرى أن أسواق الكوفة «لا شك أنها كانت نماذج لأسواق بغداد»[6]..إنه رأي صائب جداً لا سيما أن الأسواق الأولى في بغداد أقيمت في طاقات مركب الأبواب. وقد أمر أوائل العباسيين ببناء الطاقات بالهاشمية[7]. لكن تهيئة الأماكن في بغداد والكوفة لم تكن متماثلة حيث انتشرت الأسواق في الكوفة على قطعة واحدة في الخلاء، قريباً من المسجد، فتمتعت حقاً بمركزية كاملة. وهو نموذج افتقدته بغداد وأسواقها إلى حد ما، في حين أن أسواق الكوفة اكتست طابعاً نموذجياً من كافة الوجوه، وصالحاً لكل مدينة إسلامية مقبلة.

الحقيقة أن المصادر تطرح علينا مشاكل. كيف نتمثل الأسواق المبنية؟ هل نتصورها صفوفاً من الدكاكين المسقفة على حافة سكك غير مسقّفة، إذا ما اعتمدنا قول البلاذري

(١) أنساب الأشراف، ج٤ (١)، ص ٢٣٩. روى أن زياداً أمر بتسقيف دكاكين البصرة: المرجع نفسه، ص ٢٢٠.

(٢) كتاب البلدان، ص ٣١١؛ الطبري، ج٥، ص ٢٥٨.

(٣) فتوح البلدان، ص ٢٧٦.

(٤) فتوح البلدان، ص ٢٨٤.

(٥) كتاب البلدان، ص ٣١١.

(٦) Massignon, *op.cit.*, p.49.

(٧) الطبري، ج١، ص ٦١٥ و ٦٣٠.

تماماً؟ أو أنها دكاكين مصطفة تنفتح على شبكة من السكك المسقفة هي أيضاً، وهو الأمر الذي ينطبق على السوق الإسلامية المعهودة المقتبسة فعلاً من سوق الكوفة؟ والملاحظ في هذا الموضوع أن ما ذكره اليعقوبي ينبغي اعتباره وكأنه إضافة، إذ إن خالداً أقطع داراً وأروقة قامت بدور النقطة المركزية بالنسبة لكل صناعة، فضلاً عن الدكاكين: فكانت مكاناً للصنع والتخزين، وداراً للصناعة ونواة للقيصرية. إن الأمر واضح بالنسبة لدار الوليد بن عقبة[1] إذ قيل إنها كانت في سوق القصارين المليء بأصوات المقصات وإنها كانت داراً للقاصرين[2] أي ملكهم الخاص.

ولا نعلم إلا القليل عن طوبوغرافية هذه الأسواق التي تفرعت إلى سكك متخصصة، يوجد بقبلة (جنوب) الجامع، الوراقون، والمتوقع أنها كانت مهنة متأخرة لم يرد ذكرها بالنسبة للعصر الأموي. وفي الشمال حيث المكان الذي احتله الجامع الأول وبمركز المساحة المركزية، نجد التمّارين (تجار التمر) وأصحاب الصابون[3] الذي تخصصت الكوفة في صنعه[4]. ويضيف ماسينيون قائلاً: «وإذن البقالون»[5]، لكن ينبغي أن نفهم من ذلك أن المقصودين هم تجار الفواكه الجافة التي كانت بضاعة شريفة. ولا شك أن القصارين بدار الوليد كانوا يقيمون بأقصى الشرق أو الغرب، والعكس بالنسبة للقلائين. فقد ورد ذكرهم كعلامات تحدد الأسواق، حيث كانت العلامتان الأخريان هما مركّب القصر والمسجد في الغرب وخطة أشجع وثقيف في الشمال[6]. ولا شك أن أصحاب الأنماط (صناع السجاد) كانوا غير بعيدين من المسجد، وكذلك أصحاب الخزّ (الحرير)[7]. ولا يمكن تحديد أماكن الحرف الأخرى: السواقون[8]، والخلالون[9]، والسراجون[10]، والصاغة[11]، والزياتون[12]، والحناطون[13]، (والأغلب أنهم كانوا من تجار الأطياب العطور

---

(١) الطبري، ج٤، ص ٥٣٢ وج٦، ص ٨٩.

(٢) ابن سعد، الطبقات، ص ٢٤.

(٣) الطبري، ج٤، ص ٤٤.

(٤) الزبيدي، ص ٢٠٦.

(٥) Massignon, p.50.

(٦) كتاب البلدان، ص ٣١١.

(٧) الطبقات، ج٦، ص ١٣٩؛ وابن الفقيه، ص ٢٥٢.

(٨) Massignon, p.50.

(٩) الوفيات، ج١، ص ٤٤٥.

(١٠) Massignon, p.50.، وقد اعتمد الخاصي.

(١١) الزبيدي، ص ١٦٢.

(١٢) أنساب الأشراف، ج٥، ص ٢٦٢.

(١٣) الطبري، ج٦، ص ٢٢٦.

التي كانت تمسح بها الجثث، أكثر مما كانوا يختصين في التحنيط بالمعنى الدقيق). ولا شك أن الجزارين كانوا يقيمون خارج الأسواق في السبخة حيث كانت لهم دار ورد ذكرها أول مرة أثناء ثورة زيد (١٢٢ هـ)[١]. وكان للحدادين أيضاً مكان خارج مركز المدينة، ولعله يقع بين الكناسة والمركز أو بأقصى غرب المركز[٢]. وقد غمض أمر سوق الغنم، عند تدوين الرواية بخصوص مقتل هانىء بن عروة، علماً أن ماسينيون حددها بأقصى خطة مذحج[٣]. ولا يسمح النص باستخلاص هذا الأمر إطلاقاً، لكن المنطق الطوبوغرافي للأسواق قد يحملنا على وضعه خارج المركز. وبالفعل كانت أسواق الأغنام تقع بأطراف المدينة، وهي بعيدة عن المساحة المركزية، وكانت تشكل صنفاً مغايراً من الأسواق له طابع خاص، ووظائف مغايرة[٤]. في حين أن الأسواق المركزية كانت بها صنائع نظيفة شريفة، وقد شكّلت وحدة شاملة تفرّعت إلى وحدات أصغر فهي مركب لصنائع متميزة اندرجت في جغرافيا المركز. إنها سوق مفردة متفرعة إلى عدة أسواق. وكانت شبكة من النشاطات المتكاملة المتداخلة التي جسمها مفرق السكك التجارية المنفصلة بعضها عن بعض، إذ تضمنت دروباً تغلق ليلاً أو عند نشوب اضطرابات خطيرة[٥]. والملاحظ أخيراً أن موقع سوق الصيارفة كان خارج المركز في الركن الجنوبي الغربي للمساحة المركزية قرب مسجد بني جذيمة (عشيرة من عبس لا أسد كما روي)[٦]. هذا استثناء وجب التلميح إليه لما اكتساه هذا النشاط من أهمية وهو يفسر بأسباب دينية أو ظرفية.

٢) الأسواق المحيطة. الكناسة والدور الجديد للحيرة

إن مهمة الأسواق المركزية هي أن تنتج وتخزن وتبيع المنتوجات المصنوعة. وهي تنتمي إلى قطاع التجارة الخاصة وتعبر عن الوجه الإيراني والوجه العراقي للكوفة. وكانت تتعاطى نشاطات من الصنف «الشرقي». وقد تركز في دار الرزق ما كان يرجع بالنظر للدولة ـ جباية الضرائب على الإنتاج الزراعي وإعادة توزيعها في إطار الرزق[٧]، والغنيمة والرقيق خاصة ـ وبالكيفية ذاتها، كانت كل علائق التبادل التجاري والبشري تتم بالكناسة

---

(١) أنساب الأشراف، ج٣، ص ٢٥٠ وما بعدها.

(٢) مقاتل...، ص ١٣٦؛ الطبري، ج٦، ص ١٠٦.

(٣) Massignon, p.53.

(٤) مثل الكناسة.

(٥) الطبري، ج٧، ص ١٨٢.

(٦) فتوح البلدان، ص ٢٨٤.

(٧) الطبري، ج٦، ص ٦٠٢.

وكل ما من شأنه أن يعبر عن استمرار قوة الصلات ببلاد العرب، الوطن الأم. كانت «أسواق الأطراف» تشمل فضلاً عن الكناسة ودار الرزق منشآت جديدة خارجية منها سوق أسد وسوق يوسف، وتسهم إسهاماً نشيطاً في الحياة الاقتصادية بالكوفة بسبب نشاطاتها وموقعها الطوبوغرافي.

وتلفت الكناسة النظر بصورة خاصة. كانت أرضاً عراء واسعة في خلافة علي حيث تميم وهمدان تفضان الخلافات بينهما[1]. وبداية من ولاية زياد، ظهرت وظيفتها التجارية حيث أمر هذا الوالي بشراء النوق والبغال، ووجّه عليها حجر بن عدي ورفاقه إلى معاوية[2]. كانت تقوم بوظيفة السوق لبيع وكراء الدواب كالجمال والبغال والبراذين[3]، ولاحظ ماسينيون أن «تجارة وصناعة النقل تركّزتا فيها بصورة طبيعية»[4] وأشرف عليهما «النخاسة بالدواب» وهم تجار الدواب عموماً، باستثناء الخيل التي لم تعتبر دواباً للنقل أبداً[5]. كانت هذه التجارة نتيجة أكثر منها سبباً، للدور الذي لعبته الكناسة كمرفأ للقوافل متجه نحو بلاد العرب أولاً والبصرة ثانياً. وأضاف ماسينيون أيضاً أنها كانت «مكاناً لحط الرحال وحمل الأثقال بالنسبة لقوافل الجمال». فهي باب لبلاد العرب مفتوح مباشرة على طريق الحج، ومصبّ عظيم لسكان البادية: تلك كانت الكناسة. وهي تحمل بصورة قوية عمق الصلة ببلاد العرب، وترمز إلى الوجه العربي الصرف للكوفة، أي إلى وجهها الآخر، وبعدها المرتبط «بشبه الجزيرة» العربية. كانت كلمة «كناسة» تعني أصلاً مصباً للقمامة[6]، فصارت تعني في المعجم العربي اللاحق المكان حيث تناخ الجمال وتحط الرحال بصفة عامة. إنه تطور في الدلالة مستمد من اسم العلم هذا، وهو تطور رفضته القواميس الكلاسيكية بتاتاً[7]، لكنه حاضر بقوة في لحمة اللغة المحكية.

لم تكن الكناسة إذن سوقاً للدواب فقط، ولم تكن تنفرد بذلك في هذا المجال، فقد ورد ذكر سوق البراء[8] المتخصصة في بيع الدواب. لقد كانت مركزاً لسوق منتوجات

---

(١) أنساب الأشراف، مخطوطة باريس - ورقة ٤٤٨.

(٢) الطبري، ج٥، ص ٢٦٨.

(٣) الجاحظ، كتاب البغال في رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٦٤، ج٢، ص ٣٣٣؛ ابن سعد، طبقات، ج٦، ص ٤٠١.

(٤) Massignon, *op.cit.*, p.53.

(٥) أبو عبيدة، كتاب الخيل، ص ٥ - ٨. كانت الجيوش «تجر» الخيول المربوطة بدواب أخرى.

(٦) لسان العرب، مادة «كناسة»، جذر ك ن س.

(٧) لسان العرب وتاج العروس.

(٨) أنساب الأشراف، وجه ورقة ٤٩٩ وظهر ورقة ٥٠٠.

السواد وما وراءه من البلاد الإيرانية إلى المدن المستهلكة في بلاد العرب، وهي مدن مثقلة بالمال. ولم يكن لبلاد العرب ما تبيعه إلا ما قلّ، باستثناء جمالها خاصة. مما جعل للجمل دوراً مزدوجاً كما ازدوج دور الكناسة: كان دابة للحمل ودابة للتوريد، وكانت الكناسة سوقاً للقوافل وسوق للجمال.

ولا ينبغي تصور الكناسة كتنويعة من الأسواق المركزية، بل كسوق دائمة ومرفأ ونقطة المنتهى. كانت الكناسة سوقاً كلها تلونات، وكانت مكاناً يلتقي فيه عالمان يسودهما الطابع العربي. وهي أفرزت سوقاً داخلية استهلاكية حيث يباع الصحناة، وهو طعام من السمك، كما ذكر في ملامة عنيفة وجهها شبث بن ربعي إلى أحد موالي المختار[1].

ولذا، صارت بصورة طبيعية، مكاناً مرموقاً للشعر البدوي، مثلها مثل المربد في البصرة، لكن بدرجة أقل[2]. وإنها لصورة مؤثرة لم تكن لتتكرر كل يوم تلك التي تذلهر لنا أحد الشعراء واقفاً على ناقته ينشد إحدى قصائده التي تثير حساسية طفل. وهذا المنظر يوحي لنا بقوة المناخ الثقافي وعمق الحيوية الاجتماعية بالكناسة[3].

لا فائدة من العودة إلى الدور السياسي العسكري الذي كان للكناسة. ولعله كان أهم من دور الجبّانات الكبرى، لأن الكناسة كانت نقطة تجمع لتميم وحلفائها من ضبة وعبس ثم لكونها ملكاً للمدينة كلها. كانت مكاناً عمومياً مزدوجاً بالنسبة للمجتمع المدني كما للسلطة التي لم تمتنع عن جمع جنودها فيها (ابن مطيع مثلاً)[4]، وعرض المصلوبين. وخلافاً لما جاء بخبر قليل الوثوق[5]، فإن هانىء بن عروة لم «يصلب» بالكناسة، بل قتل في ساحة السوق التي لم تكن قد بُنيت في ذلك العصر[6]. لكن لا يبقى أي شك في عرض جثة زيد بالكناسة على جذع نخلة، وقد نصبت عليها الحراسة ليل نهار من قبل جنود الوالي[7]. وظاهرة الصلب بالكناسة ظاهرة متأخرة إذن وتبدو منعزلة في المصادر فلا تمكننا من نعت الكناسة بأنها «مكان للشنق»، كما قال ماسينيون[8].

---

(١) الطبري، ج٦، ص ٢٥.

(٢) الأفغاني، أسواق العرب، ص ٤٠٧.

(٣) الأغاني، ج١٤، ص ٣٠.

(٤) الطبري، ج٦، ص ٢٩.

(٥) الطبري، ج٥، ص ٣٥٠، في حين أن أبا مخنف قال إنها السوق.

(٦) انظر ما سبق.

(٧) الطبري، ج٧، ص ١٨٠ ـ ١٩٠. وكانت ترمى بالكناسة جثث المسجونين إذا ماتوا: ابن سعد، طبقات، ج٦، ص ٢٨٥.

(٨) *Op.cit.*, p.53.

والمصادر نفسها لا تخول لنا وضع السماسرة في بيع الرقيق أو النخاسين في الكناسة كما فعل ماسينيون أيضاً دون برهان(١). ويكفي ما روي صراحة بخصوص مسلمة بن عبد الملك الذي هدد ببيع بني المهلب رقيقاً بعد ثورة يزيد (سنة ١٠٢ هـ)(٢) في دار الرزق، للتدليل على أن هنا لا بالكناسة كانت تعقد مثل هذه الصفقات المرتبطة بالحرب، وبالدور الاقتصادي التوزيعي للدولة، المتركز بدار الرزق فعلاً.

وبقدر ما كان هذا المخزن الكبير للدولة يوزع على فترات منتظمة المنتوجات الغذائية على السكان العرب في شكل أرزاق، فقد كان على هؤلاء السكان خزنها والاستغناء بذلك عن نقاط البيع بالمفرّق داخل خطط القبائل، إذ لم يرد ذكرها بالمرة. وهكذا نجد أسواقاً كبرى ومؤسسة عمومية تشرف عليها الدولة من جهة، وشكلاً اقتصادياً عائلياً من جهة أخرى، فضلاً عن نشوء أسواق جديدة خارج الكوفة، حين بدأت المدينة تزدهر. كان أسد بن عبد الله القسري شقيق خالد، والياً على خراسان مدة، فأمر ببناء قرية وسوق في منطقة الكوفة. وسمي هذا المركّب (سوق أسد) باسم السوق الدورية أو الدائمة. وقال البلاذري إنه «نقل إليها الناس»، مضيفاً أنها كانت معسكره أصلاً، عند توليه خراسان(٣). إن هذه المدينة ـ السوق التي تدور في فلك الكوفة، أُنشئت إنشاءً إرادياً، وكانت في آن مستقلة ومرتبطة بوجود الكوفة. ولها مقابل في إنشاء يوسف بن عمر لسوق يوسف في الحيرة بالذات(٤).

وقد استرجعت هذه المدينة العربية القديمة الموجودة قبل الإسلام عنفوانها في عصر هذا الوالي (١٢٠ ـ ١٢٦)، واعتاد الولاة الإقامة بها حتى فترة ابن هبيرة، بحيث يمكن التساؤل عما إذا لم تصبح حينئذ المقر غير الرسمي للحكم في العراق، الأمر الذي يبين إرادة الابتعاد عن الكوفة والاقتراب منها في آن، بالتخلي عن واسط. وبدون أن نقول إن «أرباض» الكوفة صارت تمتد حتى الحيرة، وهي ظاهرة سوف نُرى فيها بعد أي في القرن الثالث كما أثبتته آثار الحفريات، فإنه يمكننا التأكيد أن الحيرة دخلت في فلك الكوفة سنة ١٠٠ هـ، فأصبحت تعيش ملتحمة بها. لقد ولى الزمن الذي كانت تؤثر تأثيراً عميقاً على المصر، من حيث الهندسة المعمارية والكتابة والصياغة (كانت سوق الصاغة من الحيرة) والخزف والتقنيات المصرفية والصيرفة(٥)، مع بقائها منعزلة لأنها كانت مقراً لشكل عروبي

---

(١) *Ibid.*, p.53.

(٢) الطبري، ج٦، ص ٦٠٢.

(٣) فتوح البلدان، ص ٢٨٤؛ ابن الفقيه، ص ١٨٣؛ ياقوت، ج٣، ص ٢٨٣.

(٤) ابن الفقيه، ص ١٨١، ياقوت ج٣، ص ٢٨٥.

(٥) Massignon, *op.cit.*, p.49.

مهترىء خاضع متمسّح، فيما كانت الكوفة قلعة للإسلام، ورمزاً لحداثة مطلقة العروبة. ففي عصر الحجاج مثلاً (سنة ٧٧، خلال ثورة شبيب)، كان لهذا الوالي أن يشير إليها بالبنان كملجأ محتقر نوعاً ما لليهود والنصارى(١)، وكعالم صغير للغير، وليس بعالم الإسلام المناضل: كان هناك إذن حاجز نفساني يفصل بين المدينتين العربيتين. وفي حين كانت الكوفة تتشبع بالإسلام أكثر فأكثر، كانت الحيرة بصدد فقدان عروبتها، وتحدد وضعها بمغايرة دينية. إن التفتح الواضح على النصرانية الذي طرأ على الكوفة في ولاية خالد القسري، وانطلاقة المصر نسبياً خارج حدوده الأولى، والتضخم العظيم لتنقل البشر طيلة قرن، والإنتصار الكامل للاتجاه العربي الإسلامي على أي شكل منافس آخر كل هذا غير من طابع العلائق. صار الآن ممكناً التمون من الحيرة وكأن المرء ذاهب إلى ضاحية، إما بسوق الحيرة(٢)، إذ استمر قائماً، وهو واحد من الأسواق العشرين التي وجدت في العصر الجاهلي(٣)، وإما بسوق يوسف الجديد(٤). وتزايدت حوالي سنة ١٠٠ هـ لقاءات الشعراء والأشراف المعربدين في الأديرة المحيطة بالحيرة(٥). كانوا يحتسون الخمر ويقولون الشعر فيها على هواهم. وقد أخذ ماضي الحيرة الذي تشهد عليه القصور القائمة على حدود الصحراء(٦)، يجاور الخيال والإحساس العربيين(٧).

سوق أسد، وسوق يوسف، وسوق حكمة: إن تفجّر الكوفة على الخارج، وتدجين المحيط بالحمامات الخارجية (حمام أعين، الخ...)، وبالقرى، والمزارع، لهو بمثابة الرفع للحواجز الشرسة للكوفة الأولى. إنه شاهد على الانفتاح على العالم يعارض بشدة انغلاق وبمثابة تملك جديد لهوية مدينة مدنية تماماً.

٣) القنطرة والحمامات:

القنطرة أو الجسر المبني:

كان على أهل الكوفة أن يقتصروا لحد ذلك الوقت على جسر دائم من المراكب لكي يعبروا الفرات ويدخلوا السواد، وكان يقف على حراسة الجسر موظفون (كان مسروق

---

(١) الطبري، ج٦، ص ٢٦٦.
(٢) الأفغاني، مرجع مذكور، ص ٣٧٤.
(٣) المرجع نفسه، ص ٣٧٤ وما بعدها.
(٤) ابن الفقيه، ص ١٨١.
(٥) الشابشتي، الديارات، ص ٢٣٦ - ٢٥٧.
(٦) صالح العلي، مقال مذكور، ولاسيما الخارطة.
(٧) يوسف خليف، حياة الشعر في الكوفة، ص ٢٠٤ وما بعدها؛ الزبيدي، ص ١١٥ - ١٢٠.

مكلفاً بالسلسلة بمدينة واسط(١) هذا الجسر يسهل قطعه، هو ضيق نسبياً، إذ حين يتكاثر الناس
عليه يدور الحديث عن الزحام(٢). ولمّا اتسع حجم المبادلات وتزايدت حدة الشعور بالتنظيم
والاستقرار اتخذ عمر بن هبيرة الوالي (١٠٣ ـ ١٠٥) قراراً ببناء قنطرة بمواد صلبة. وأعاد القسري
البناء وحسنه ثم جرى إصلاحه عدة مرات بعد ذلك(٣).

أورد البلاذري خبراً مفاده أن أصل البناء يعود إلى العصر الساساني الغابر، وروى أن
مهندساً عربياً من النساطرة الجُعْفيين بنى القنطرة التي انهارت بعد مدة (لأنها بنيت من لبن
على الأرجح)، مما أدى إلى إقامة جسر من المراكب كممر بديل(٤). ويزعم هذا الخبر أن
زياداً كان أول من أعاد بناء القنطرة، وأن ابن هبيرة وخالداً وابن شبيرة الثاني قاموا
بإصلاحها ثم تناوب الولاة على الاصلاح. ومن العسير اعتماد هذا الخبر، لأنه لم يرد خبر
آخر يتعلق بوجود قنطرة في ولاية زياد بل بعد زياد. وروى أبو مخنف أن هناك قنطرة قريبة
من دير عبد الرحمن(٥)، كما ذكر أن أهل الكوفة خرجوا سنة ٨٢ هـ لاستقبال ابن الأشعث
«بعدما جاز قنطرة زبارا»(٦).

فهل يطابق هذان الخبران الصادران عن هذا المؤرخ، اسقاطاً لواقع لاحق، كما كان
ديدنه في صور كثيرة؟ وهل أنهما يتعلقان بأمر آخر غير قنطرة الكوفة؟ في الحقيقة، الأقرب إلى
الصواب أن تكون القنطرة أمراً حديثاً، وأنها من عمل ابن هبيرة نفسه الذي روي عنه
فضلاً عن ذلك أنه كان أول من نظم الأسواق في واسط حيث ولّى صاحباً للسوق. بقي
علينا أن نحدد مكانها. لا يمكننا القطع أنها كانت تقع مطلقاً على الرافد الكوفي للفرات بدل
نهر سورا. والمرجح أنها كانت توجد دون شك بمكان يعرف بزبارا(٧) بعيداً عن الجسر فيما
يظهر، كما أكد ذلك خبر ورد بكتاب المقاتل أدرج في رواية تتعلق بثورة أبي السرايا(٨). إن

---

(١) ابن سعد، الطبقات، ج٦، ص ٨٣ ـ ٨٤.
(٢) الطبري، ج٦، ص ٢٠٧.
(٣) فتوح البلدان، ص ٢٨٦؛ ابن الفقيه، ص ١٨٣؛ الراقمي، ص ١٢٠، وقد حدد هذا الأخير موضعها بمكان
يعرف حالياً بقنبدره، في الجنوب الشرقي من المسجد.
(٤) فتوح البلدان، ص ٢٨٦.
(٥) الطبري، ج٦، ص ٨١ ـ ٨٢. أبو مخنف ذاته يذكر هذه القنطرة في الأخبار المتعلقة بعلي لكن يظهر من السياق
أنها والجسر شيء واحد: الطبري، ج٥، ص ٨٣.
(٦) المرجع نفسه، ج٦، ص ٣٤٦. وقد ورد ذكر وجود قنطرة بالحيرة: ابن سعد، ج٦، ص ٢٠٩؛ صالح العلي،
«منطقة الكوفة»، ص ٢٣٩؛ الأغاني، ج١٣، ص ٤١.
(٧) الزبيدي، ص ١٦٤.
(٨) مقاتل...، ص٥٥٣. لكن الخبر الخاص بعلي يوحي بالقرب إذ يقول أبو مخنف في الطبري، ج ٥، ص ٨٣ ما
نصه: «وخرج فعبر الجسر فصلى ركعتين بالقنطرة». إذاً بالطبع يمكن هذا القول أنهما شيء واحد كما ذكرنا
أعلاه.

المصادر متضاربة وغامضة في الغالب، لكنها تذكر رغم ذلك واقعاً أساسياً في الموضوع، هو تعدد نقط العبور الثابتة والقناطر العربية المبنية بمنطقة الكوفة وبهذا الصدد فإن الذي يهمنا هو الانطباع العام أكثر مما هو ضبط الأمور. قنطرة الكوفة، وقنطرة زبارا (سواء طابقت الأولى أم لا)، وقنطرة دير عبد الرحمن، وقنطرة الحيرة: لقد جعل هذا التراكم من القنطرة عنصراً جوهرياً في محيط الكوفة. وحين يأتي الوقت الذي ستحاط خلاله المدينة بخندق من الماء سوف تبرز القناطر المجهزة بالابواب في كل مكان، وسوف تطبع بوجودها منظر المدينة.

الحمامات الداخلية والخارجية:

ولم تكن مساهمة الحمامات أقل من ذلك في وسم المظهر الحضري ووتيرة الحياة في الكوفة كما في البصرة، وبالتالي في كل مدينة إسلامية. كانت الحمامات موروثة عن الساسانيين، ولعلهم اقتبسوها بدورهم من الحمامات الرومانية. وقد ظهرت الحمامات بعد مدة طويلة، المدة اللازمة كي تدخل الممارسات التعبدية أعماق المجتمع وتندمج في الحياة اليومية، وينسجم بجهود الابتكار والتنظيم مع احتياجات الكيان الاجتماعي، وإلى أن استوعبت النماذج الخارجية للحضارة. وقد طابقت بالخصوص شعائر الوضوء.

أقيمت الحمامات في ولاية زياد، في البصرة كما في الكوفة، مع بعض التضييقات. ويبدو أن زياداً فرض الحصول على الاذن مسبقاً، وحددها خارج محيط المدينة[1]. ثم تكاثرت بعد مدة في البصرة، وأنشئت داخل المدينة خاصة، هذه المدينة التي أتخمت ماء، وتعددت فيها القنوات[2]. كان عدد الحمامات المعروفة بالكوفة خمسة منها حمامان كانا خارج المدينة، في حين أن البلاذري ذكر أسماء أربعة عشر حماماً في البصرة[3]. أقيم حمام عمرو بن حريث وحمام قطن بن عبد الله من جهة خطط الشمال، لكن لا يمكن ضبط موقعهما أكثر من ذلك، مع أن الحمام الثاني لم يكن على الأرجح بعيداً عن جبانة السبيع[4]، وحدد موقع حمام المهبذان بوضوح في السبخة[5] حيث كان التزود بالماء متيسراً. وقد تزود الحمام الأول والحمام الثاني بالماء من نهر بني سليم[6]. أما الحمامات الموجودة خارج المدينة، كحمام أعين وحمام عمر بن سعد، فإنه ينبغي تحديدها بين رافدي الفرات[7] على طريق المدائن وخراسان.

---

(١) أنساب الأشراف، ج٤ (١)، ص ٢٢٣.

(٢) ١٢٠٠٠٠ قناة حسب الاصطخري ونقل عنه الخبر الأفغاني: أسواق العرب، ص ٣٩٨.

(٣) فتوح البلدان، ص ٣٨٤ وما بعدها؛ أنساب الأشراف قسم٤، ج١، ص ٢٠٥ حيث يرد ذكر لحمام بلج.

(٤) الطبري، ج٦، ص ٨٤.

(٥) المرجع نفسه، ص ٥١.

(٦) الطبري، ج٣، ص ٤٦٥؛ البراقي، ص ١٢٠.

(٧) لا سيما حمام عمر حيث قضى شبيب ليلة، وكان يقع بين قصر ابن هبيرة وقبّين: الطبري، ج٦، ص ٢٣٦.

وكانت هذه الحمامات أيضاً أماكن استراتيجية من المقام الأول، حيث عسكرت فيها عدة جيوش، وأقيمت فيها المرافق بحيث تحولت تلك الأماكن إلى منشآت مدنية أو شبه مدنيـة.

تذكر المصادر أن عمر بن سعد عندما حاول «الخروج» من المدينة حين طارده المختار، لجأ إلى حمّامه، فدخله ثم عاد وقتل[1]. وحدده أبو مخنف تحديداً أدق ضمن روايته بخصوص شبيب، فجعله يقع بعد مكان يعرف بقبين وقبل قصر ابن هبيرة (العتيد)[2].

وأخيراً، فلما أمر الحجاج، بعد ثورة ابن الأشعث، برحيل الجيش النظامي أي «ضرب البعث»، وهو الجيش المتكون من أهل الكوفة، عسكر الجميع بحمام عمر. واستخدم حمام أعينَ كمعسكر ـ وأعين أحد موالي بشر بن مروان[3] أصبح من موالي الحجاج ـ وكمكان للاستراحة وكمرحلة أولى بعد الخروج من الكوفة. وكذلك استعمله ابن الأشتر في طريقه إلى الجزيرة[4]، وعتّاب بن ورقاء عند خروجه لملاقاة شبيب[5]، وشبيب نفسه[6]. وورد ذكره صراحة بأنه يقع على الصَّراة[7]. ويبدو أن الموقع الخارجي لبعض الحمامات كان من خاصيات الكوفة. لكنها بقيت كما في البصرة، من نصيب أناس مقربين من الحكم، سواء كانوا عرباً أو موالي، وكانت السلطة هي التي تأذن بالاستغلال. فيقابل عمر بن سعد وعمرو بن حريث في البصرة عبد الله بن عثمان بن أبي العاص ومسلم بن أبي بكرة، ويطابق أعينَ شخص فيل وهو من موالي زياد، وقد تسمى باسمه باب الفيل في الكوفة. ومن المعلوم أيضاً أنه كان في أول الأمر للحمامات مداخيل كبيرة وكبيرة جداً في البصرة، بلغت ١٠٠٠ درهم في اليوم، فساعد ذلك على انتشارها. وقد عرف أصحاب الحمامات في الكوفة كيف يحافظون على شبه الاحتكار الذي كانوا يتمتعون به، وكان ذلك أحد النشاطات التجارية النادرة التي تعاطاها أشراف الكـوفة.

---

(١) الطبري، ج٦، ص ٦١.
(٢) المرجع نفسه، ج٦، ص ٢٣٦.
(٣) المرجع نفسه، ج٦ ص ٢٤٢.
(٤) المرجع نفسه، ص ٨٢.
(٥) المرجع نفسه، ص ٢٦٠.
(٦) المرجع نفسه، ص ٢٦٨.
(٧) المرجع نفسه، ص ٢٦١.

- ٢١ -

رجوعاً إلى التقاليد العربية: الجبّانات والصحاري

ذكر اليعقوبي في كتاب البلدان أن كل قبيلة اختطت مع رئيسها[1] قال: «وكان لكل قبيلة جبانة تعرف بهم وبرؤسائهم». وأضاف في التاريخ ملحوظة مفادها أن الأشعث خط جبانة كندة، قال: «فاختط الأشعث جبانة كندة واختطت كندة حوله»[2] وفعل سعد الشيء نفسه بالنسبة للجامع والقصر. وهذا يعني أن القبائل منحت حرية التصرف في المكان المخصص لكل منها، وفي التنظيم الداخلي للخطط. وكانت التهيئة المكانية للمركز من صلاحيات السلطة في حين أن تهيئة الخطط كانت ترجع بالنظر إلى القبائل. وتقوم دار الرئيس مقام العلامة المركزية الدالة على غرار القصر، ويتواجه الجامع والجبانة، فالجامع هو المكان الأول المحدد في الخطة والذي ينبغي أن يحتل منها المركز الهندسي. كما أن الجبانة قامت بدور المركز لتجميع القبيلة، فكانت النقطة الحساسة، والساحة العمومية، وقلب الخطة النابض.

كانت الجبانة ثمرة للعفوية الخلاقة في عالم القبائل لأن السلطة لم تتدخل في إقامتها، فكان عليها أن تنجو منطقياً من تأثير الحضارات المحلية المحيطة، وخلافاً لذلك فهي ترجع إلى نسبها العربي. لكن ما هي سلالة التقليد الثقافي العربي المقصود؟ فعلاً، لقد تراكمت وتجاوزت في الكوفة عدة عوالم عربية مختلفة نسبياً، يمكن ترتيبها في أصناف ثلاثة:

- قبائل قيس ومضر من رعاة النوق. وهم رحل وبدو من الطراز الأول، منهم تميم وأسد وعامر وهوازن، فضلاً عن العشائر والحلفاء.
- عالم المستقرين المتحضرين من الحجاز، وكانوا من مكة ويثرب (المدينة) والطائف

(١) كتاب البلدان، ص ٣١٠.

(٢) التاريخ، ج٢، ص ١٥١، طبعة بيروت.

من قريش والأنصار وثقيف. ومنهم كانت الجماعة السياسية الحاكمة والعسكرية والدينية، وهي في القمة تمسك بزمام السلطة العليا والسلطة الحكومية في الكوفة. وكانت جماعة قليلة العدد، لكن انضمت إليها قبائل وعشائر بدوية الأصل، بفضل أحلاف قديمة أو حديثة أبرمها الرسول معهم. لنذكر كنانة وخزاعة ومزينة وجهينة[1]. وكان لوجود شخصيات معتبرة أمسكوا بزمام سلطة القرار (سعد والمغيرة وزياد والحجاج)، أن بدا تأثيرها واضحاً على الصعيد التمصيري. إذ نحت أفرادها وجه الكوفة، بصفتهم رجالاً مسؤولين عن جماعة يعملون فيها طبق اختيارات مدبرة وبعد التروي فيها، وهم في هذا منفتحون على جملة من الآفاق الثقافية، أكثر مما كانوا ممثلين لنوعية معينة. لكن هذه النوعية كانت موجودة كتقليد حضري عربي أصيل يختلف عن تقليد الحيرة وتقليد اليمن.

لقد رأينا أنّ مكة تميزت بحيّزها المقدس أي الحرم، بمسجدها وأماكنها التي يجتمع فيها الأشراف والمعروفة بالنوادي وبتكاثر منشآتها المعدة للاستقبال ودورها الجماعية (دار السقاية مثلاً)[2]. وكانت الطائف تعرف بسورها المتقن الذي وقف عرضة في سبيل تقدم الرسول نفسه[3] واختط الرسول أول مسجد للإسلام في يثرب، فكان نموذجاً قيست عليه كل المساجد الأخرى، وأدخل ضمنياً مبدأ التخطيط والاقطاع بالنسبة للأراضي والأملاك الفردية[4]. كانت المدينة بلا شك مرحلة أساسية فتحت للسلطة القدرة على القيام بالمبادرة التنظيمية[5]. ولا شك أن الحاكمين استفادوا من مخزون الخبرات هذا.

- يمثل اليمنية ثالث هذه العوالم وقد كانوا حاضرين حضوراً مكثفاً في الكوفة، وكانوا الورثة المتأخرين لحضارات متكاملة عرفت نظام الدولة والكتابة والري والمدينة. وقد عاش اليمن انهيار الأسر المالكة الأخيرة التي حكمته وعاش تفكك قواعد حضارته، خلال المرحلة المتأخرة من وجوده التاريخي. فتمخضت عن هذا الأمر هجرات متوالية واحتلالات خضع لها، فخضع لاحتلال الفرس والأحباش، ويحدونا الشعور أن اليمن كان مجالاً لدفع بدوي قوي، وأن القبائل المعتبرة قبل الإسلام كانت متأثرة بالبداوة شديد التأثر منها همدان

---

(١) كتاب الاشتقاق، ص ٢٨٥. ولا سيما اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣١٢.

(٢) C.E. Bosworth, «The terminology of history of the Arabs in the Jahiliyya according to Khwa razmi's «Keys of the Sciences» *Goitein Festschrift*, pp. 27-43, (القدس، ١٩٨١). أنظر: دار سقاية الكوفة، الطبري، ج٦، ص ٢٧٣.

(٣) فتوح البلدان، ص ٦٧ - ٧٠.

(٤) السيرة، ص ٣٣٣ وما بعدها؛ فتوح البلدان، ص ٢٦ - ٢٨؛ لسان العرب، مادة قطيعة.

(٥) بنى بها الرسول المسجد باللبن والحجر وسعف النخيل وجذوعه وأنشأ في يثرب السوق وخص الخيل بمجال عرف بالحمى: فتوح البلدان، ص ٢٠، ٢٢، ٢٨.

ومذحج، اللتان تفوقتا على حمير وحضرموت تفوقاً واضحاً في ذلك العصر(١). ونجد في المقابل، أن ما دخل بعد ذلك في الفلك اليمني مثل كندة، تمسك بتثبيت الهوية اليمنية بمفعول «الهيبة الحضارية»(٢). ولا شك أن اليمنية نقلوا معهم إلى الكوفة عدة عناصر من متبقيات حضارتهم القديمة وأصروا على الحفاظ عليها. وهذا لا يعني أنهم مثلوا النواة التمصيرية الوحيدة، كما فهم ذلك ماسينيون، والقطب الرئيس لممارسة الحياة الحضرية(٣) ومع ذلك فقد أضفوا على الكوفة لوناً نوعياً لا ينكر. وظهر ذلك في خطط القبائل حيث يمكن للعفوية الخلاقة أن تعطي أكلها أكثر مما كان في المساحة العمومية حيث تدخلت ارادية السلطة القرشية ـ الثقفية مستعينة بنصح المستشارين من فارس والحيرة (الذين كانوا يمثلون عروبة من نوع آخر، احتكت بالحضارة الفارسية، فاعتبرت عروبة الحيرة غريبة خارجية مع أنها أثرت لا محالة على كل ما يرتبط بالعمارة في بادىء الأمر).

فإذا أمكن أن ننازع في وجود أي تأثير يمني على تصور الرحبة المركزية بالرغم من وجود الرحبات أي المساحات الخالية(٤) في المدن اليمنية القديمة، فإنه يجب أن نأخذ بعين الاعتبار الجبانات بصفتها عملاً يمنياً مباشراً. كان قول اليعقوبي في محله حيث أكد أن جبانة كندة كانت الأولى من حيث التخطيط والتشييد. فضلاً عن أن النظر في قائمة الإحدى عشرة جبانة التي ورد ذكرها في الكتب الموجودة بين أيدينا، يدل على أن أكثرها كان ملكاً للقبائل اليمنية.

ـ كانت جبانة السبيع التي تقع في الشمال، ملكاً لقبيلة همدان، وقد استمدت اسمها من البيت الشريف بهمدان(٥).

ـ جبانة كندة في الجنوب، تابعة لكندة.

ـ جبانة بشر في الشمال، من المحتمل أنها كانت في خطة بجيلة(٦) حيث أقامت

---

(١) H. Djaït, «Les Yamanites à Kufa au 1er siècle de l'Hegire», *JESHO*, XIX /2 (1976), pp.148-181.

(٢) عبارة من ابتكار ماكس فيبر. Max Weber, *Economie et Société*, I, pp. 424ff.

(٣) Massignon, *op.cit.*, p.41.

(٤) H.Dj it, *art.cit.*, p.177.

(٥) غلب هذا البيت بني ناعط في الشرف: «الهمداني، الاكليل ج١٠، ص ١٤٨، وجزيرة العرب، ص ١١٠ ـ ١١٢؛ كتاب الاشتقاق، ص ٤٢٧؛ الجمهرة، ص ٣٩٥. لا ننسَ أن سيد همدان سعيد بن قيس كان من السبيع، ويحتمل أنه أنشأ الجبانة، راجع أيضاً: فتوح البلدان، ص ٢٨٠؛ Massignon, p.47.

(٦) كانت العلاقات فيما بينهم وثيقة جداً في الجاهلية. قال ابن دريد في كتاب الاشتقاق، ص ٥١٥: «كانوا أخوة». وأكد اليعقوبي أن طيئاً أقاموا حول جبانة بشر: كتاب البلدان، ص ٣١١ ـ ٣١٢.

خثعم. وهي تحمل اسم خثعمي شارك في حرب القادسية[١]، وهي تابعة لهذه القبيلة[٢].

- جبانة مراد في الجنوب. كانت تقع في خطة مذحج، وهي تابعة لقبيلة مراد، وتستخدمها مجموعة مذحج[٣].

- جبانة مخنف باسم مخنف بن سليم الأزدي. لا شك أنها كانت تقع في خطة بجلة وبجالة حيث أقام أكثر الأزد[٤].

- جبانة الصائديين في الجنوب الشرقي، التي تطرح مشكلاً. لقد سمتها أغلب المصادر بهذا الإسم ونسبتها نسبة صريحة أحياناً إلى عشيرة الصائديين من همدان[٥]. وبالعودة إلى ما اتصف به موقع هذه الجبانة من غرابة، فقد استمد ماسينيون رأياً يقول بانتقال قسم من همدان إلى شرقي الجنوب الشرقي تعويضاً لجموع قبيلة أخرى[٦] إلا أنها كانت جبانة قديمة ومهمة جداً. وقد أشير إليها بالخصوص كمكان للتجمع، خلال اندلاع ثورة حجر[٧]. وباستثناء اسم المكان هذا، فلا وجود لأية إشارة تدل على إقامة همدان في هذه المنطقة وعلى ذلك فهناك احتمال مفاده أن هذه الجبانة القريبة من جبانة سلول، كانت ملك عشيرة الصوداويين[٨] من أسد[٩]، حيث أقام قسم من هذه القبيلة إلى جانب عامر خلال فترة التخطيط الأولى. وقد سبق أن أشرنا عند طرح هذا المشكل، إلى تردد

---

(١) فتوح البلدان، ص ٢٨١؛ كتاب الاشتقاق، ص ٥٢٣؛ الجمهرة، ص ٣٩١، حيث يذكر ابن حزم أنه كان شريفاً.

(٢) الطبري، ج٦، ص ١٨، ٢٢، ٤٥.

(٣) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣١١؛ أنساب الأشراف، ج٥، ص ٢٢٤ و ٢٣٢؛ الطبري، ج٦، ص ١٨، ٢٣، ٤٥، ١٠٥.

(٤) اعتماداً لخبر هام رواه ابن الكلبي ونقله ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص ٣٧٤. انظر ابن سعد، الطبقات ج٦، ص ٣٥، والطبري، ج٤، ص ٥٠٠، ٥٢١، ٥٧٠، بخصوص مخنف بن سليم سيد الأزد؛ وبخصوص الجبانة ذاتها، راجع كتاب البلدان، ص ٣١١؛ الطبري، ج٦، ص ٤٥ و ج ٧، ص ١٨٣.

(٥) البلاذري في أنساب الأشراف، ج٣، ص ٢٤٦ و ج ٥، ص ٢٢٤ و٢٦٠، يقدّم هذا التوضيح باستمرار ويضيف «من همدان». ووردت كلمة الصائديين دائماً في تاريخ الطبري، ج٥، ص ٢٦١ و ٢٦٢، وج٦ ص ١٨ و ١٠٥. ويحمل السياق على تحديدها إلى الجنوب الشرقي لكن هناك معلومة واحدة (ج٦، ص ١٨) غير مقنعة تماماً توحي بأن هذه الجبانة يمنية. بخصوص عشيرة الصائديين من همدان انظر: الاشتقاق، ص ٤٢٩، الذي يدرج فيهم الجرندق الشاعر ويؤكد ابن حزم صاحب الجمهرة، ص ٣٩٥، أن أباه منها وأحد أصحاب علي، وكذلك أبا ثمامة الذي مات برفقة الحسين.

(٦) Massignon, p.47.

(٧) الطبري، ج٥، ص ٢٦١.

(٨) الأغاني، ج١٦، ص٥، من طبعة بولاق.

(٩) كتاب الاشتقاق، ص ١٨٠.

المصادر في موضوع ... هذه الجبانة التي تنسب إلى الصائديين تارة، وإلى الصوداويين طوراً - لكن المصادر المتأخرة هي التي تستخدم دائماً هذه التسمية الثانية. وما تواتر في المصادر هي التسمية الأولى بنسبة عالية جداً. ولذا، يمكن حسم الأمر حسماً قاطعاً أو يكاد، لفائدة الصائديين. وفي صورة ماذا كانت جبانة الصائديين منشأة يمنية فلا يعني ذلك انتقال عشائر همدان، بل إنه بمجرد حضور عشيرة صغيرة في وقت من الأوقات؛ أتيح لها فيها بعد أن تهاجر إلى مكان آخر. وعلى النقيض من ذلك، فإذا تم هذا الإنشاء بمنطقة تفوقت فيها بكر وقيس فذلك يدل دلالة واضحة على الطابع اليمني الصرف للجبانات.

- من إحدى عشرة جبانة عدتها الكوفة[1] كانت ست جبانات يمنية، إذا عددنا جبانة الصائديين. والأهم من ذلك أن حدثت بهذه المواقع أحداث جسام، منها الانتفاضات المسلحة والثورات والمعارك، وقد ارتبطت صميم الارتباط بحياة المصر. ونستثني جبانة سليم[2] التي كان لها اسم آخر هو جبانة بني سلول[3] والتي كانت ملكاً لقيس، وكانت الوحيدة من بين ما تبقى من جبانات التي يمكن مقارنتها بجبانات اليمن. ذلك أن شمر بن ذي الجوشن انتصب مع قيس في جبانة سالم خلال ثورة الأشراف على المختار، في حين اجتمعت اليمنية بجبانة السبيع وجبانة بشر، وفي حين لم يكن لمضر (تميم وعبس وضبة) سوى الكناسة، وحيث اكتفت ربيعة بمكان غير محدد كان يقع بين التمارين والسبخة[4]. وفي سنة ١٢٢ هـ سوف تكون جبانة سالم المكان الذي يختاره زيد بن علي لجمع رجاله واعلان الثورة[5].

- وكانت جبانة أثير تابعة لأسد[6] التي كانت قبيلة مضرية كبيرة. فوجب تحديد موقعها إلى الجنوب الغربي، في خطتها وفي اتجاه الكناسة. ولم يذكرها الطبري سوى مرة واحدة عندما كانت مقراً لمناوشة بين ابراهيم بن الأشتر وأحد خصومه، كان قد تغلب عليه وطرده حتى الكناسة بالذات[7]. ولذا لم يكن لها من الأهمية ما كان للجبانات اليمنية

---

(١) لا نعتبر في هذا العدد جبانة ميمون التي أُنشئت في العصر العباسي: فتوح البلدان، ص ٢٨٦، وإلا صار عددها ١٢ جبانة تماماً، بشرط تمييز الثوية.

(٢) فتوح البلدان، ص ٢٨٣؛ الطبري ج٦، ص ١٧٢ و١٨٢؛ أنساب الأشراف، ج ٣، ص ٢٤٩؛ ابن الفقيه، ص ١٨٣؛ اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣١١.

(٣) الطبري، ج٦، ص ٤٥ و٤٦.

(٤) المرجع نفسه، ج٦، ص ٤٥.

(٥) المرجع نفسه، ج٧، ص ١٧٢.

(٦) أخطأ البراقي حين أسندها إلى عبس لكنه يؤكد أنها عادت بعد ذلك لكندة: تاريخ الكوفة، ص ١٢٠ وما بعدها.

(٧) الطبري، ج٦، ص ٢١.

الأخرى، ولا حتى جبانة سالم التي تبدو ممثلة حقاً تمثيلاً استثنائياً للجبانة غير اليمنية ذات الاشعاع الكبير. فضلاً عن أن ما يدل على ذلك أن جبانة أثير تسمى كذلك بصحراء أثير، كما سماها أبو مخنف نفسه[1]. ولا يقل دلالة عن هذا الأمر أن جبانة سالم صنفت مع الصحارى، كما ورد في مصدر انفرد حقاً بهذا الخبر وأشار إليها في بيت شعر[2]. ذلك أن مثل هذا التمثل لم يرد أبداً في المصادر التي بين أيدينا، فيما يخص الجبانات اليمنية الكبرى. فضلاً عن أن الكلمتين غير مترادفتين. لقد ميز ماسينيون بين الفكرتين وحمل نفسه على طرح معادلة بالنسبة لسالم وأثير فحسب[3]، وهو ما يفسر حيرته كما يفسر إلى أي حد تبقى الجبانة ظاهرة يمنية في صفائها. ولا يعني الصفاء في هذا المجال أن الوظائف كانت بسيطة بل أن الأمر يستدعي على النقيض من ذلك جملة من الدلالات التي لا يمكن أن تحملها إلا مؤسسة متقدمة كانت ثمرة لتجربة تاريخية طويلة.

- جبانة عرزم حيث كان يصنع اللبن الرديء[4]، كانت تقع دون شك غرباً، في خطط عبس[5] وقد ورد ذكرها فعلاً في رواية أبي مخنف عن ثورة حجر (٥١ هـ)[6]. روى أن قافلة الأسرى مرت من هناك وهي في طريقها إلى دمشق وكان لقبيصة بن ضبيعة العبسي دار فيها ـ لم تكن داخل الجبانة دون شك، بل إلى جانبها ـ وقد توقف فيها ليعلن وصيته الأخيرة. ثم مرت القافلة بالغريَّيْن غرباً، مما يلي النجف، وتحولت قسراً إلى الشمال، وجهتها دمشق[7]. يمكن أن نفترض أن هذه الجبانة التي كانت تحمل اسم شخص لا اسم عشيرة أو قبيلة[8]. كانت ملكاً لعبس. لكنها لم تقم بأي دور في النزاعات السياسية إذ كانت مضر تجتمع بالكناسة. وبما أنها كانت مقراً لنشاط اقتصادي الطابع ـ يتمثل في صنع اللبن وقولبته ـ فقد أقرها ذلك في وضعية خاصة غير معهودة.

والآن نصل إلى الجبانة أو الجبانتين الأخيرتين اللتين كانتا موجودتين في العصر الأموي، إذا ما تقرر التطابق بين تسمية الثُوَيَّة والجبانة (بدون أية صفة أخرى)، دلالة على

---

(١) الطبري، ج ٦، ص ٢١؛ كتاب البلدان، ص ٣١١، ولم يصفها اليعقوبي بالصحراء بل أدرجها ضمن الجبانات.

(٢) الطبري، ج٧، ص ٢٨٢.

(٣) Massignon, p.47.

(٤) فتوح البلدان، ص ٢٨١.

(٥) يرى ماسينيون أنها من أقدم الجبانات: *op.cit.*, p.46

(٦) الطبري، ج٥ ص ٢٧٠.

(٧) الطبري، ج٥، ص ٢٧١.

(٨) مع أن بني عرزم وجدوا بالبصرة وكانوا مجهولي النسب: كتاب الاشتقاق، ص ٥٥٣.

الواقع نفسه، أو الفصل بين التسميتين.

ويرى ماسينيون[١] وفي أثره البراقي[٢] أن أول يخص الكيان نفسه الذي تسمى باسمين مختلفين، وقد تتضافر الدلائل على صحة هذا الرأي. لكنه ليس بديهياً من أول وهلة، كما أنه من غير البديهي تحديد الموقع من قبل المؤلف نفسه في الشمال الشرقي عند طرف خطة ثقيف. ولنذكر أن الجبانة أو الثوية كانت لجمع أهل المدينة المشتمل على القرشيين والأنصار والثقفيين ومواليهم وحلفائهم. فما سبب هذه التسمية المزدوجة المحيرة؟ وما سبب الاشارة إلى الثوية في المصادر كلما دفن فيها أحد الأشخاص المهمين من العصر الأولي، لاسيما زياد (توفي سنة ٥٣ هـ). علماً أن هذه الكلمة ظهرت أول ما ظهرت بشأنه[٣] في حين أن الجبانة لم تذكر بصفتها مقبرة سوى مرتين بمناسبة دفن[٤] الفضل بن دكين مولى آل طلحة الذي توفي في خلافة المعتصم، وسهل بن حنيف وكان من الأنصار ومن صحابة الرسول، وقد مات في خلافة علي سنة ٣٨ هـ؟[٥]. وخلافاً لذلك فإذا تعلق الأمر بأعمال تاريخية أو أشير إلى هذا المكان كعلامة طوبوغرافية للثورة - المختار وزيد - أو كنقطة للمجتمع، فإن تسمية الجبانة هي التي ترد دائماً وليست الثوية.

روي أن زياداً وقبله المغيرة بن شعبة، وكذلك أبا موسى الأشعري[٦]، والأحنف بن قيس[٧] دفنوا بالثوية. وقد جاء في أشعار كثيرة ذكر اسم الثوية مع قرنه بهيبة قريش[٨] وقد ورد صدى هذا الاسم في قصائد المتنبي. كان للكلمة في حد ذاتها رنين شعري وهي تخرج من المعجم العادي، وتضيف لفكرة الموت لوناً من العطف والرقة، جاعلة من المقبرة «دار ضيافة»: إنه المعنى الأول للأصل ث، و، ى[٩]. لا شك أن هذا البعد هو المفسر لثنائية التسمية، الأولى شعرية والثانية عادية. فوجب قبول هذه الثنائية لأن كلمة ثوية أصبحت تستعمل للتفخيم وهي تلطف من رهبة الموت، وتمتزج بصورتها فقط لما تنزل على الفضلاء وعظماء القوم من قريش لتميزهم عن الآخرين، وهي في الآخر كلمة تثير منا الخشوع.

---

(١) Massignon, *op.cit.*, p.47.

(٢) مرجع مذكور، ص ١٤٣.

(٣) الطبري، ج٥، ص ٢٩٠، نقل الخبر عن عمر بن شبّة؛ أنساب الأشراف، ج ٤(١)، ص ٢٨١ - ٢٨٢.

(٤) ابن سعد، ج٦، ص ٤٠١.

(٥) المرجع نفسه، ج٣، ص ٤٧٢.

(٦) ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص ٨٧ - ٨٨.

(٧) ابن قتيبة، كتاب المعارف، ص ٥٦٤.

(٨) أنساب الأشراف، ج ٤(١)، ص ٢٨١ - ٢٨٢.

(٩) لسان العرب، مادة ثوى.

ولذا تسترد كلمة جبانة حقوقها حين يضطرب الناس ويثورون، لكن المقصود بالذات في هذا المقام أيضاً هي الجبانة بلا نعت بمعنى الجبانة الفذة التي يقع هكذا تفخيمها بسلبها من أية نسبة. وقد ورد ذكرها في العصر الأولي كمكان يؤمه الزهاد من أصحاب ابن مسعود[1] للصلاة والعبادة. وبداية من عصر زياد استخدمت الجبانة مصلى لصلاة الجمعة[2]. وهي ترد في غير هذا وبصورة مركزية أثناء ثورة المختار[3] ـ لا ننسَ أنه من ثقيف ـ وثورة زيد بن علي وكان من قريش[4]. ظهر المختار فيها بعد انتصاره في السبخة ثم «طلع» إلى دور مزينة وأحمس[5] وبارق وقد كانت بعيدة عن المدينة أو بطرفها. يجب تحديدها بأقصى الشمال، والمحتمل أن يكون ذلك خارج الخطط المعروفة كما يوحي السياق وكذلك فبعد أن سيطر زيد على الكناسة، حل مدة قصيرة بالجبانة التي يبدو أنها كانت خارج الكوفة ذاتها بصورة واضحة[6]. وهي لم تستخدم للقتال في الحالتين معاً أو للتأهب له، بل كانت مرحلة أو مكاناً للعبور. إنه لأمر مهمّ ينبغي تأكيده. هذا ولم يكن اسم الجبانة دون أية صفة أخرى صورة فريدة، بل إنه كان موجوداً في البصرة[7] والمدينة. ففي المدينة أمر عمر خلال سنة الرمادة بإقامة خيام بدو محارب الجائعين في الجبانة[8]. فهل كانت موجودة منذ ظهور الإسلام أم قبله؟ وفي الحالة الثانية، يكون ذلك دليلاً على تأثير اليمن منذ القديم، على مدن شمالي بلاد العرب.

لكن جبانات الكوفة بقيت خاصية من الخاصيات المميزة للكوفة، ومعبرة عن الوجود القوي الذي كان لليمنيين فيها، وبفضل عددها وتعدد وظائفها وما كان لها من دور اجتماعي

---

(١) ابن سعد، ج٦، ص ١٦٠.

(٢) أنساب الأشراف، ج ٤(١)، ص ٢٣٨. لكن من الممكن أن المقصود هي الجبانة بالبصرة.

(٣) الطبري، ج٦، ص ٢٨.

(٤) المرجع نفسه، ج٧، ص ١٨٣.

(٥) يقول اليعقوبي: «انتقلت عامة أحمس عن جرير بن عبد الله إلى الجبّانة»: كتاب البلدان، ص ٣١١.

(٦) يبدو أن أبا مخنف حدد موقعها خارج الكوفة. فضلاً عن أن المشهد الذي وصفه هذا المؤلف يسمح لنا بتحديدها في اتجاه الحيرة: الطبري، ج٧، ص ١٨٣، علماً أن يوسف بن عمر كان يتابع من فوق ربوة كانت تقع بين الكوفة والحيرة، وعلى امتداد البصر، تحركات زيد في الجبانة. وقد كان قريباً منه بحيث كان في مستطاع زيد أسره. وروى سيف: الطبري، ج٣، ص ٤٨٨، أن سعداً عسكر قبل الوصول إلى القادسية بين الغَنَيّ (في الطفّ غرباً) والجبانة. وأخيراً، فقد حدد ياقوت بوضوح الثوية خارج الكوفة وجعلها إلى جانب الحيرة: ج٢، ص ٨٧. وجاء في عيون الأخبار، كما ذكر في حاشية كتاب وكيع: أخبار القضاة، ج٢، ص ٤٢٤، خبر في المعنى نفسه لكن السؤال يبقى مطروحاً: هل كانت تقع في الشمال الشرقي أم في الجنوب الغربي أم في الشمال الغربي؟

(٧) الطبري، ج٤، ص ٤٦٦؛ أنساب الأشراف، ج ٤ (١) ص ٥٠٧؛ ابن سعد ج ٧، ص ٤٩٤.

(٧) ابن سعد، ج٣، ص ٣١٤.

وعسكري وسياسي كبير. ولنذكر أن أقدم الجبانات ـ ما عدا الجبانة ـ ملك لقبائل اليمن[1]: السبيع ومراد وكندة والصائديين. وهي أيضاً أهمها مع جبانة سلول. والملاحظ أيضاً أن تميماً وضبة وربيعة لم تكن لها جبانة. ولعل الأحنف دفن بالثوية لهذا السبب، ولأنه كان شخصية مرموقة. في حين أن طياً وبجيلة المتحالفتين مع خثعم، كانت لهما جبانة بشر، وأن بجلة المتصاهرة مع الأزد كانت تستخدم جبانة مخنف لدفن موتاها وتنظيم حياتها الاجتماعية. فكان على بعض القبائل الكبرى كربيعة ومضر التي كانت اقامتها غير قارة نسبياً أن تستخدم أمكنة أخرى للاجتماع أو لدفن الموتى. يقول أبو مخنف: «وكان الناس إنما يدفنون في دورهم وأفنيتهم»[2].

وها أن خباب بن الأرت وهو من مشاهير الصحابة مات في غياب علي بوقعة صفين، فدفن بالظهر وهو الحد الذي كان للكوفة مع البادية، وأضاف أبو مخنف قائلاً: «ودفن الناس إلى جنبه».

ماذا يعني بقوله هذا، لاسيما وأن الدليل متوفر على أن كثيرين منهم استمروا يدفنون في الجبانات؟[3]. لكن اذا اعتبر بعضهم خباباً حليفاً لبني زهرة أي حليفاً لقريش، فقد اعتبر البعض الآخر أنه كان حليفاً لتميم مقيماً بخطتها في جهارسوج جُنَيس[4]. من هنا نستخلص أن تميماً هي المقصودة بصفة خاصة عند أبي مخنف بقوله هذا الثري بالمعاني على الصعيد الانتروبولوجي. تشمل كلمة «أفنية» قطعاً الجبانات لكن أيضاً الصحاري وكافة الأراضي الخالية الأخرى الموجودة في الخطط. ولا شك أن الأهالي استمروا في دفن موتاهم في دورهم الخاصة، وبقيت هذه العادة شائعة في المدن الإسلامية إلى عهد قريب.

وعلى هذا تتمثل الوظيفة الأولى للجبانات في القيام بدور المقابر القبلية كما كان الأمر

---

(١) يطالب اليمنيون لانفسهم بالأسبقية في إنشاء أول جبانة للإسلام في صنعاء كما جاء في كتاب أحمد بن عبد الله الرازي الصنعاني (توفي سنة ٤٦٠/ ١٠٦٨) بعنوان: تاريخ مدينة صنعاء اليمن، دمشق، ١٩٧٤، ص ٩٠ إلى ٩٢ وص ٢١٦ ـ ٢١٧ وص ٢٢٢. ومن الغريب أن إنشاء هذه الجبانة نسب إلى بادرة قام بها الرسول، واعتبر في الوقت نفسه أن الفرس هم الذين أنشؤوها ـ بني جربش أو الأبناء ـ ولم تكن مقبرة بل مصلى للعيدين. وهذا يحملنا على الخلوص إلى نتيجة مزدوجة تقول بأن الجبانة منشأة يمنية أضيفت عليها الصفة الإسلامية وأن وظيفة المقبرة بالكوفة فرضت عليها طبق العادات المعمول بها شمالي بلاد العرب مما يفسر وظيفتها الثانية. ومما يلفت النظر أن جبانة صنعاء اليوم هي مصلى في الهواء الطلق، يستخدم في المناسبات الكبرى، وليست مقبرة بتاتاً.

(٢) الطبري، ج٥، ص ٦١.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج٦، ص ١٤٤ و ١٦٠ و ٤٠١.

(٤) ابن سعد، الطبقات، ج٦، ص ١٤.

في مقابر البصرة[١]. لقد أقيمت هذه المقابر وسط الخطط القبلية معبرة بذلك في أعمق دخيلتها، بفعل الدفن وأزليته، عن الضمير الجماعي للقبيلة ومن انتسب إليها. وبدون الدخول في البحث في أنثروبولوجيات الموت، الذي نزعم أنه يكتسي أهمية قصوى، ففي الإمكان أن نفترض أن الجبانات بقيت مدة طويلة بدون أنصاب وأحجار على القبور[٢]. وقد أوصى بعضهم مثل شُرَيْح ببناء لحد داخلي[٣]، لكن عدم ذكر اسم المدفون في الخارج هي القاعدة المعمول بها في أكثر الأحوال. علماً أن اليمن عرف قديماً أنصاباً كانت تحمل كتابات منقوشة (المساند). ولا شك أن المثال البدوي عاد متفوقاً في هذا المجال، بعد أن أضفى عليها الاسم طابعه القدسي: كان مثال التستر والزهد وعدم الاكتراث بالقبر بوصفه علامة مرئية. ولم تكن اللامبالاة تتجه إلى الميت الذي يتضرع الشاعر العربي إلى السماء يستعطفها، راثياً إياه، طالباً منها أن تجود عليه بمائها المنعش. كما أنها لم تتجه إلى الموت في حد ذاته وقد كان مبعث الفزع والألم في القرن الهجري الأول، كما ورد بأقوال ابن سعد[٤]، ومنطلق مشاعر أخرى طبعاً.

لا شك أن أرض الجبانات كانت منبسطة[٥]، حتى تطأها أقدام البشر والخيل بالآلاف وتدور فيها معارك حامية دون ضيق واضح. وهكذا يصل بنا القول إلى أن الوظائف التي قامت بها هذه الأماكن كانت متعددة. كانت في البداية نقطة إشعاع ومركزية مجالية: فقد أشعت العشائر بقطائعها ضمن الخطة القبلية، انطلاقاً من جبانة مركزية؛ ثم قامت بدور المقبرة؛ والمقر للتجمعات ومركز العصب للحياة الاجتماعية عند القبيلة عندما تكتسي نبرة رسمية؛ وأخيراً فقد كان لها دور عسكري بمعنى معين. لم يكن الجانب العسكري متوقعاً في البداية قطعاً، إذ كانت الحشود التي تخرج إلى القتال من الكوفة كما من البصرة، من الأسباع والأخماس، تتجمع خارج المدينة في أمكنة تؤخذ من الصوافي كما

---

(١) الطبري، ج٤، ص ٤٦٦.

(٢) أبو داود، السنن، القاهرة ١٩٣٥، ج٣، ص ٢١٦؛ وكيع. أخبار القضاة، ج٣، ص ١١.

(٣) ابن سعد ج٦، ص ١٤٤. كان الأمر كذلك عند إبراهيم النخعي الذي أوصى زيادة على ذلك، الا تصحب النار نعشه: المرجع نفسه، ج٦، ص ٢٨٣، ٣٠٢ كان اللحد عبارة عن سرب من لبن، يشيد تحت الأرض ولا بدّ أن ذلك لم يكن شائعاً إلا قليلاً.

(٤) المرجع نفسه، ج٦ وج ٧، في عدة مواضع. راجع أيضاً تحية الأموات المنسوبة إلى علي عند الطبري، ج٥، ص ٦١ - ٦٢.

(٥) روي أن علياً وجه من قبله صاحب الشرطة لتسوية القبور الناتئة وقد فعل ذلك في المدينة بأمر من الرسول: وكيع، ج٣، ص ١١. يلتقي المثال البدوي بالتشدد الإسلامي في هذا المجال. ولنقارن ذلك بتعاليم محمد بن عبد الوهاب. وقد ظهرت أحجار القبور حوالى سنة ١٠٠ هـ، وجرى التشهير بهذه البدعة: ابن سعد، ج٦، ص ٣٠٢.

صرح بذلك سيف وروى عنه الطبري بالنسبة للبصرة في العصر الأولي[1]. أما فيما يتعلق بالكوفة، فقد ورد خبر هام[2] مفاده ما يلي: «أمر علي الناس أن يخرجوا بسلاحهم فخرجوا إلى المسجد حتى امتلأ بهم». وكان ذلك سنة ٣٧ هـ، أو ٣٨ هـ، بعد وقعة صفين ولما بلغ خطر الخوارج أشده، فوبخهم علي لدخولهم المسجد حاملي السلاح، معتدين بذلك على حرمته، وأمرهم أن «يذهبوا إلى جبانة مراد» فأطاعوه. فكان علي أول من بادر بجعل الجبانة مكاناً لحشد كافة الناس لا قبيلة معينة، لأن الجبانة كانت أكثر اتساعاً، أو أنها كانت موجودة على طريق حروراء. هكذا وفي مثل هذا الوقت الذي كانت صبغته استعجالية، استنفر أهل الكوفة لكن لم يعرفوا مكاناً يتجمعون فيه داخل مدينتهم لأن الجبانات لم تكن موظفة بعد لمثل هذا الأمر[3] على ما يبدو. إن علياً هو الذي شرع في إضفاء دور عسكري على الجبانات بنيّة القيام بعمليات داخلية أو لتنظيم تجمعات عاجلة. ذلك أنه لم تظهر أية رواية تتعلق بفترة سابقة باستثناء الرواية الغامضة الخاصة بمقبرة بني حصن في البصرة[4] والمتعلقة بأحداث جرت سنة ٣٦ هـ قبل وقعة الجمل. لقد ارتبطت هذه الظاهرة هنا وهناك بأمر استثنائي غير متوقع، وبجو الحرب الأهلية. فكان الرجال والقادة يبحثون عن أمكنة داخلية للتجمع: منها المسجد في الكوفة ودار الرزق في البصرة وجبانة مراد، ومقبرة بني حصن. وارتجلت القرارات انطلاقاً من اختيار معقلن قائم على القابلية الطبيعية للجبانات، لكي تحوي عدداً كبيراً من الأشخاص. فقامت منذ ذلك الوقت بدور استراتيجي وأبقت عليه، وتخصصت حسب القبائل أو مجموعات القبائل وارتبط الأمر دائماً بالاضطرابات الداخلية، بجو الدراما والطوارىء: قضية حجر بن عدي (٥١ هـ) ثورة المختار (٦٦هـ)، انتفاضة الأشراف (٦٦ هـ)، دخول مصعب (٦٧ هـ)، ثورة زيد بن علي (١٢٢ هـ). واستخدمت الجبانات في كافة هذه الحالات من قبل القوات الثائرة كما من قبل قوات السلطة الحاكمة (زياد وابن مطيع والمختار نفسه ومصعب). وإن بدا أن الولاة الأمويين عند قيام الثورات فضلوا المسجد مكاناً للتجمع، فذلك لكي يفكوا التعبئة فعلاً، لا لكي يقوموا بها، بمعنى أن هدفهم كان دفاعياً. في حين كانت الجبانات تستخدم للعمل الهجومي، أو لرد الهجوم، وفي الجملة القيام بثورة أو للعمل على مقاومتها. أما عن نقاط تجمع الحشود النظامية (الأرباع) التي تحشدها السلطة وتشرف عليها، تأهباً للحملات السنوية في اتجاه العالم الايراني، فقد استمر اختيارها خارج المدينة. ولم تقم فيها الجبانات بأي دور، حتى ولو

---

(١) الطبري، ج٣، ص ٥٨٦ و ٦٢٣.
(٢) الطبري، ج٥، ص ٩١.
(٣) المحتمل أيضاً أنه كان حشداً لكل القبائل وأن الجبانة كانت ملكاً لقبيلة واحدة وهذه حجة لا ينبغي استبعادها.
(٤) الطبري، ج٤، ص ٤٦٦.

كان للتعبئة الأولية لكل قبيلة على حدة. كان المقاتلة يتحركون فرادى وجماعات وكتلاً مضطربة أحياناً، مرهقة مرهبة[1] في اتجاه السبخة وكانوا كثيراً ما يعبرون الجسر للذهاب إلى حمام أعين وحمام عمر بن سعد وغيرهما. وكان ذلك خارج المدينة طبعاً، دون أن يقع أي تجمع مسبق في الداخل. وعلينا إذن أن نتصور الدور العسكري الاستراتيجي والثوري للجبانات ضمن هذه الحدود وهو الدور الممتلىء حضوراً والأساسي جداً في حياة الكوفة: لم يكن دوراً عسكرياً عادياً متسقاً مندمجاً في الهياكل القائمة بل كان بالأحرى دوراً مرتبطاً بالقلاقل الداخلية، والحروب الأهلية وأوضاع الانقسام والطوارىء. والملاحظة الأخيرة أن الجبانة أحيت القبيلة بصفتها وحدة مقاتلة والروح القبلية الانقسامية. إنها عكس العنصر التجميعي بالنسبة للكيان الاجتماعي.

وتبقى مشكلة السكن في الجبانات قائمة. وقد ارتأى هندز M.Hinds[2] أن الناس بنوا فيها وسكنوها في فترة مبكرة دون أية حجة بل وصل به الأمر إلى القول بأن المختار اعتمد على أهل الجبانات مما يدلل على سوء فهم كبير للأوضاع بالكوفة. الحقيقة أن المصادر قليلاً ما تورد أسماء أشخاص يقطنون في جبانة ما خلال العهد الأموي، والمقصود هنا هو قرب الجبانة، والمثال على ذلك هو قبيصة العبسي صاحب حجر بن عدي الذي يقول عنه الطبري[3]: «فلما انتهوا إلى جبانة عرزم نظر قبيصة بن ضبيعة العبسي إلى داره وهو في جبانة عرزم فإذا بناته مشرفات» والمرجح إذن أن الجبانات لم تكن طوال القرن الأول لا مبنية ولا مسكونة. لكن لعل الأمور تغيرت مع العهد العباسي لوجود ضغط ديموغرافي ولأن الجبانات فقدت وظائفها العسكرية - الثورية المعهودة، ومن الممكن إذن أن اجتاحتها البناءات خصوصاً وهي تقع داخل «المدينة» التي صارت مسورة. ولنا إشارة طارئة على هذا في طبقات ابن سعد[4] حيث يأتي ذكر محاضر بن مورّع الهمداني وهو من رجال آخر القرن الثاني فيقال عنه: «كان يسكن جبانة كندة».

الصحاري (جمع صحراء): هل كانت معادلة تماماً للجبانات بالنسبة للجماعات غير

(١) في ولاية الحجاج: الطبري، ج٦، ص ٢٠٧.

(٢) M.Hinds, «Ku fan political alignments and their background in the mid-seventh century», *The International Journal of Middle Eastern Studies*, (1971) p.348. ربما كانت البنايات قد اجتاحت الجبّانات في العصر العباسي، نحو نهاية القرن الهجري الثاني. ابن سعد، ج٦، ص ٣٩٨، يذكر حالة همداني كان يقيم في جبّانة كندة؛ بينما لم تذكر في العصر الأموي سوى حالات الأشخاص المقيمين (في) هذه الجبانة أو تلك: مثلاً قبيصة العبْسي، من أصحاب حُجْر، ورد عند الطّبري، ج٥، ص ٢٧٠. فضلاً عن كون هذه الحالة غامضة.

(٣) الطبري، ج٥، ص ٢٧٠.

(٤) ابن سعد، طبقات، م. ن.

اليمنية من قيس ومضر وربيعة؟

لقد سبق أن أشرنا إلى جبانتينْ فقط كانتا ملك قبائل الشمال، أثير وسالم، من بين الجبانات وتطلق عليها تسمية جبانة تارة وصحراء طوراً، في حين أن جبانة عرزم بقيت غامضة الأصل. فضلاً عن أن الصحاري الصرف التي ليس لها من اسم سوى اسم صحراء كانت كلها ملكاً لمضر وقيس وربيعة، ولا يملك اليمنية شيئاً منها. كان عددها خمسة باستثناء صحراء أم سَلَمة التي أنشأها العباسيون:

- صحراء شَبَث[1]: تميم.
- صحراء البَرَدَخت[2]: ضبة.
- صحراء بني قرار[3]: ضبة.
- صحراء عبد القيس[4]: ربيعة.
- صحراء بني عامر[5] أو على الأصح بني جعفر بن كلاب: عامر بن صعصعة (قيس).

لعل الأمر يتعلق ببديل عن الجبانة اليمنية وتقليد لها، مع اللجوء إلى استعمال اسم ورد من شمال بلاد العرب. أو أنها كانت مؤسسة، بالمعنى الواسع، قبلية عربية متجذرة في العصر الجاهلي وانتقلت إلى الكوفة. وتعرف المعاجم الصحراء بأنها «الأرض المنبسطة والفضاء الواسع لا نبات فيه»[6]. كانت الأرض العراء حقاً والقاحلة، لكن يبدو أنها لم تكن الصحراء الكبرى (الفيافي) المفتوحة والخلاء الشاسع. ولم تستخدم هذه الكلمة أيضاً دلالة عن الأراضي التي في وضعية ما بين السباسب والفيافي من بلاد العرب أو مما يقع بين العراق وبلاد العرب، حيث كانت تستخدم كلمتا بادية وبر[7]. وعند الاقتضاء يمكن التساؤل عما إذا لم يكن التعريف المدرج مستمداً من الخبرة العربية في الأمصار، التي كانت حضرية محضة، وعما إذا لم يتعلق الأمر بفسحات خالية هُيئت داخل النسيج الحضري وكانت محدودة ظرفية؟ إنها لم تكن متسعة إلا بالنظر لمجموعة المساحات الصغيرة الموجودة في

---

(١) فتوح البلدان، ص ٢٨٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٨٠. أخذ عنه ابن الفقيه: ص ١٨٣.

(٣) الطبري، ج٧، ص ١٨٢؛ مقاتل... ص ١٣٦.

(٤) البراقي، ص ١٢١ وما بعدها.

(٥) ابن سعد، ج٦، ص ٣٢.

(٦) ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص ٤٤٣.

(٧) المسعودي، مروج، ج٢، ص ٢٤٠ وما بعدها. لا يستعمل أبداً كلمة صحراء في هذا الفصل المخصص لخصال الحياة البدوية، في الصحراء.

الخطط، والمدعوة أمنية أو رحاباً (جمع رحبة)، حيث يستلقي الناس على الرمال طلباً للراحة، وحيث يجتمعون حلقة لعقد الحوار، والتي كانت شواطىء داخلية ومساحات للراحة واللقاء وأماكن للمداولات والممارسة الاجتماعية. ويتضح هذا الأمر جيداً في فقرة وردت في كتاب أخبار القضاء، وتعلقت بالجولات اليومية التي كان يقوم بها الشعبي(١). لكن الصحراء تقع مثلها مثل الجبانة على مستوى أعلى، فيما يخص الاتساع والوظائف التي تقوم بها.

وقد أبدى البراقي رأياً مفاده أن الصحراء كانت مخصصة للاحتفالات والمظاهر والتظاهرات الجماعية وأن الجبانة خصصت للدفن. لكن الدفن كان يقع أيضاً في الصحاري حيث أن لبيداً دفن بصحراء بني جعفر بن كلاب، وقد عرفها البراقي دون شك بأنها صحراء بني عامر(٢). وسبق أن رأينا أن الجبانات كانت، على النقيض من ذلك، مقراً للتجمعات الكبرى يعني للقتال في الحقيقة. لكن المصادر ظلت صامتة فيما يخص انتشار الناس عند إقامة الاحتفالات على مستوى القبيلة، بالنسبة للجبانات كما بالنسبة للصحاري.

وإذا ما فكرنا أن الصحراء تمثل اللون الشمالي - والشرقي - من بلاد العرب للجبانة، وبشكل أعم صورة لعالم المدينة في اليمن وحتى في الحجاز، فإن كانت هناك معادلة، فإنها غير تامة. لماذا تلصق بصحراء أثير وسالم فقط صفة الجبانة، دون الصحاري الأخرى؟ ولماذا لم يعترضنا أي شيء عن الصحاري في روايات أبي مخنف وسيف وعمر بن شبة، حتى كمجرد علامات طوبوغرافية، باستثناء ما ورد ذكره في شأن صحراء عبد القيس؟(٣) وليس هناك من قائمة، على نقصها، سوى في فتوح البلدان، للبلاذري. وأخيراً فإن الحالة الوحيدة التي أشير إليها بخصوص الدفن في الصحراء تتعلق بلبيد(٤) وتستند إلى صحراء جعفر بن كلاب من عامر، التي لعلها هي جبانة سالم، مع أن الأمر قليل الاحتمال.

وليس ثابتاً أن الصحاري قد حُددت واختطت منذ البداية مثل الجبانات ولا سيما

---

(١) وكيع، ج٢ ص ٤٢٤. راجع أيضاً الملحوظة في أسفل الصفحة التي تحيل إلى عيون الأخبار لابن قتيبة، وكلاهما قولان موحيان.

(٢) تاريخ الكوفة، ص ١٢٠.

(٣) الطبري، ج٧، ص ١٨٢: ورد ذكر الخبر في صلب الرواية الخاصة بزيد بن علي.

(٤) ابن سعد، ج٦، ص ٣٣. لكن مصعب بن الزبير دفن إلى جانب مسكن بالمكان نفسه الذي أقام معسكره فيه قبل المعركة التي تحمل الاسم نفسه. وماهو ذو دلالة أن المكان سمي «صحراء مصعب»: أنساب الأشراف، ج٥، ص ٣٥٠، حيث يقول البلاذري: «وزعموا أنها لا تنبت شيئاً». حقاً إن الصحراء تنتمي إلى مصطلحات مستمدة من الجغرافيا الطبيعية، إنها مساحة ما من الصحراء المحضة، مهما صغرت.

بمركز الخطط القبلية ما عدا الصحاري المرتبة في مرتبة الجبانة لا شك أنها كانت توجد في محيط المدينة بصورة متفاوتة، وكأنها ألحقت بها. كما يحتمل أنها كانت أصغر من الجبّانات وأنها تشكّلت ضمن مجال أقل تهيئة وأن وظائفها لم تكن واضحة. وفي حين أن الجبانة كانت تظهر كأنها جهاز مجرَّب، وأنها استقرت فوراً في وضع جبانة ومساحة مركزية ثم تبين فيما بعد أنها اختبرت مسرحاً للقتال، قد تكون الصحراء إسقاطاً لساحة التجمع القديمة داخل محلة القبيلة أو خارجها، والتي لم تكن صالحة للرعي دون شك، أو أنها كانت إسقاطاً لفسحات صحراوية متناثرة على أرض القبيلة حيث لا ينبت أي نبات؟ وفي هذه الصورة الأخيرة فلعل المقصود هو العودة المؤثرة إلى الماضي، والتعبير عن الحنين إلى الفسيح الرحب وعن مقاومة خفية لهوس الانحصار والاختناق والانغلاق. وفي مرحلة ثانية فقط، تحولت الصحراء إلى جبانة واقتربت من مثال الجبانة، طلباً للاندماج في المجال الحضري بصفتها إحدى أجهزته.

- ٢٢ -
مساجد الكوفة

تذكر المصادر المعهودة ومصادر الشيعة ثلاثين مسجداً[1] بالنسبة للكوفة وهو عدد لا نجد مثيله في مدينة أخرى - كالبصرة والمدينة وبغداد - خلال العصر نفسه من تاريخ الإسلام. إن مصدر هذه الكثرة هو الروايات المفصلة عن الثورات، كما الشعور الديني الشيعي الخصوصي جداً، الذي عمل على تصنيف وترتيب وتعديد مساجد الكوفة، وهي مساجد تكون محل تقديس أو لعنة حسب الأحوال. ينبغي التمييز قطعاً بين المسجد الجامع الذي سمي المسجد الأعظم أحياناً والمخصص لصلاة الجمعة وكافة الصلوات الرسمية التي تبدأ بالخطبة، ولاجتماع الجماعة كافة بإشراف الوالي، وبين المساجد الأخرى المتكاثرة البسيطة. كان للمسجد الأعظم وضع خاص، لا لأنه كان أوسع من غيره بل لما كان له من وظائف ولرمزيته العظيمة، ولعله كان الوحيد المقرر في التخطيط الأول. وخلافاً للجبانات، فإن المساجد العادية لا تظهر بصفتها مساجد أصلية. بل إنها ظهرت بعد المدة الأولى ضمن الخطط القبلية إما كمساجد ارتبطت بشخص وتسمت باسمه، وإما كمساجد للعشيرة لا للقبيلة. ويمكن افتراض أنه كان لكل عشيرة بالكوفة في وقت من الأوقات - بعد سنة ١٠٠ دون شك - مسجد خاص بها مما يرفع عدد المساجد إلى أكثر من مائة. إن تكاثر مباني العبادة وامتدادها عبر كافة المجال الحضري، إلى جانب وجود جامع أعظم مركزي، كل هذا يشكل كل مدينة اسلامية مقبلة وبالتالي فهو ارث من القرن الأول. الأمر الذي يؤكد بقوة أنه ينبغي اعتبار الأمصار المقر والمركز لأسلمة العرب أنفسهم، فضلاً عن وجود دورين آخرين، كنقط للهجرة والإشراف وكحراس للبلدان المفتوحة في آن. وإذا كان الجامع الأعظم يقع في المساحة العمومية، فإن المساجد الأخرى كلها تقريباً تقع بحوزة القبيلة داخل قطائع العشائر. وإذا كان الجامع الأعظم من إنشاء السلطة، ارتبط ارتباطاً وثيقاً

---

(١) أكثر بكثير بعد اطلاعنا على ابن الكلبي: انظر القائمة الإضافية.

بممارساتها فإن المساجد الأخرى مؤسسات خاصة أنشأها الأفراد والعشائر ولا يبدو أنها كانت نقطاً انطلقت منها الثورات والقلاقل خلافاً للجبانات. كانت تنوب عن المسجد الأعظم في القيام بالشعائر كل يوم فقط، وأحياناً حتى في صلاة الجمعة، وبذلك تلتئم الجماعة[1] لكن ليس بقصد تنظيم عمل سياسي متعمد لم يرد ذكره بمصادرنا أبداً.

هذا وقد حثت السلطة وشجعت على بناء مساجد للعشائر. فقد أمر زياد في البصرة ببناء المساجد «لشيعة بني أمية»، بمعنى العشائر المؤيدة للأمويين، منها مسجد بني عدي ومسجد بني مجاشع ومسجد الاساورة ومسجد الحُدان[2]. وبرزت الظاهرة نفسها في الكوفة دون شك، مباشرة أو عن طريق الاشراف أو كلاهما. وعلى كل حال، فإن مساجد الكوفة التي حملت اسم شخص - هو مؤسسها - فإنما هو اسم أحد الأشراف الذي ألصق بها، من بين كل من ساعد الأمويين عموماً: مسجد الأشعث المرتب ضمن المساجد الملعونة حسب التقليد الشيعي اللاحق[3] ومسجد شبث الذي وقع له الشيء نفسه، ومسجد سِماك. أما مسجد عدي بن حاتم، فقد استثنى من ذلك. وهذه قائمة بالمساجد مستمدة من مصادر مختلفة، مع التحري اللازم فيما يخص مصادر الشيعة التي كانت متأخرة عموماً، وكذلك تجاه ماسينيون الذي لا يبدو أن قائمته مؤكدة.

قائمة مساجد الكوفة

اسم المسجد	اسم آخر يسند إليه	القبيلة المنتسب إليها	المصادر
مسجد عبدالقيس	مسجد ظفر وربما السهلة	عبد القيس	الطبري، ج٦، ص ٤٩. البراقي، ص٤٤، ماسينيون، ص٥٢.
مسجد أبي داوود	مسجد القصاص	وادعة	الطبري، ج٦، ص٤٨.
مسجد عدي بن الحاتم		طي	الطبري، ج٥، ص٢٦٧.
مسجد أحمس	مسجد مزينة، مسجد بارق	بجيلة، مزينة، الأزد	الطبري، ج٦، ص ٢٦ و٤٨. الأغاني، ج٨، ص٣١.
مسجد الأنصار		الأنصار	الجنابي، ص ٨٨.
مسجد الأشعث	مسجد الجواشن	كندة	الطبري، ج٦، ص٢٢، البراقي ص ٤٥.

(١) أنساب الأشراف، ج٥، ص ٢٠٧.

(٢) أنساب الأشراف، ج٤ (١)، ص ٣٢[illegible].

(٣) البراقي، ص ٤٤ وما بعدها.

اسم المسجد	اسم آخر يسند إليه	القبيلة المنتسب إليها	المصادر
مسجد بني عبدالله ابن دارم		تميم	البراقي، ص٤٤.
مسجد بني عدي		قيس (هوازن)	الطبري، ج٧، ص١٨٣.
مسجد بني عنز		وائل بن قاسط (ربيعة)	فتوح البلدان، ص٢٨٢، ابن الفقيه، ص ١٨٣.
مسجد بني أود	مسجد بني قرن	مذحج	ماسينيون، ص ٥٢
مسجد بني البداء		كندة	أنساب الأشراف، ج٥، ص٢٠٧.
مسجد بني بهدلة		كندة	فتوح البلدان، ص٢٨٤.
مسجد بني ذهل		بكر	الطبري، ج٥، ص٥٧٨، وج٦، ص ٢٤١.
مسجد بني جذيمة		عبس أو أسد	فتوح البلدان، ص٢٨٣، ابن الفقيه، ص ١٨٣.
مسجد بني دهمان		جهينة	الطبري، ج٦، ص٥٩.
مسجد بني هلال		عامر	الطبري ج٧، ص ١٧٢.
مسجد بن كاهل	مسجد أمير المؤمنين	أسد	البراقي، ص ٤٦.
مسجد بني مخزوم		عبس	الطبري، ج٦، ص ١٠٥.
مسجد بني المقاصف		عبس	فتوح البلدان، ص ٢٨٤؛ ماسينيون، ص ٥٢.
مسجد بني مرة		بكر	ماسينيون، ص ٥٢.
مسجد بني السيد		-	البراقي، ص ٤٤.
مسجد بني شيطان		تميم	الجمهرة، ص ٢٢٨.
مسجد جرير بن عبد الله البجلي		بجيلة	البراقي، ص ٤٤.
مسجد جعفي		مذحج	ابن سعد، ج٦، ص٣٨٠، ٣٩٦، ابن الفقيه، ص١٧٤، البراقي، ص٤٤، ماسينيون ص٥٣.
مسجد غني		سليم أو الأنصار	ابن الفقيه ص ١٧٤، البراقي ص ٤٤.
مسجد الحمراء		حلفاء تميم	ابن الفقيه، ص ١٧٤، البراقي، ص ٤٤، ٤٥.
مسجد النخع		مذحج	ابن سعد، ج٦، ص١١٩.

اسم المسجد	اسم آخر يُسند إليه	القبيلة المنتسب إليها	المصادر
مسجد موجود بالحمراء		حلفاء تميم	البراقي، ص ٤٥.
مسجد السكون		كندة	الطبري، ج٩، ص٢١.
مسجد صعصعة ابن صوحان		عبد القيس	البراقي، ص ٤٦.
مسجد شبث		تميم	الطبري، ج٦، ص٢٤، ٢٧٠.
مسجد سماك	مسجد الحوافر أو بني هالك	أسد	فتوح البلدان، ص ٢٨٢-٢٨٣؛ الجمهرة ص١٩١؛ الأغاني، ج٧، ص١٨٤.
مسجد تيم		رباب (تميم)	البراقي، ص ٤٤.
مسجد ثقيف			البراقي، ص ٤٥.

قائمة إضافية بأسماء مساجد قبيلة كندة التي وردت عند هشام الكلبي(١) ولم ترد عند غيره

مسجد بني زيد بن حارثة
مسجد بني ذهل بن معاوية
مسجد بني امرىء القيس بن الحارث (فترة عباسية)
مسجد بني مالك بن الحارث
مسجد بني الطمح بن الحارث
مسجد بني مالك بن ربيعة
مسجد جبلة بن عدي بن ربيعة
مسجد بني الحارث بن عدي
مسجد بني مرة بن حجر بن عدي بن معاوية
مسجد بني عمرو بن وهب بن ربيعة
مسجد بني أبي الخير بن وهب بن ربيعة
مسجد بني الأرقم بن عمرو بن وهب
مسجد بني شجرة
مسجد بني سلمة (بني أبي كرب بن ربيعة).

(١) الكلبي: كتاب النسب، ورقة ٢٤.

بعض الملاحظات عن الجدول الأول: لم يرد في القائمة مسجد المعادل الذي حدد موضعه خطأ بفهرس تاريخ الطبري[1]، وعند الجنابي[2] بالكوفة مع أنه كان يوجد في البصرة. كما أننا أغفلنا عمداً إضافة مساجد العصر العباسي إلى القائمة، منها مسجد المروزية[3]، ومسجد وكيع بن الجراح[4] ومسجد دار اللؤلؤ الذي ذكره ماسينيون بدون أي سند. ولا يمكن ادراج مسجد الموالي بتاتاً في هذا الجدول، لأنه كان يقع خارج الكوفة بشراف، بعيداً جداً عن القادسية كما ورد في الاشارة الوحيدة المتوفرة لدينا[5]. فقد أخطأ ماسينيون حينما حدده بالكناسة عند بني أسد (عشيرة كاهل) قائلاً: «أرى أن مسجد الموالي أقيم في هذه العشيرة الأخيرة التي كثرت مواليها، فكانت تسمية فريدة لفت إليها النظر غولدزيهر Goldziher[6]. فإن كانوا فعلاً موالي لأسد[7]، فإن المقصودين بالذات هم بنو أسد المتواجدون في البادية قريباً من طريق الحج، لا أولئك المقيمون بالكوفة[8]: ذلك أن هذا المسجد كان يبعد عن الكوفة ١٣٠ ميلاً[9] أي ٢٦٠ كيلومتراً.

كان كتاب الطبري أضمن مصدر لضبط هذا الجدول، فقد أمدنا بأكبر قسم من أسماء المكان وتلاه البلاذري، ونقل ابن الفقيه عن البلاذري واعتمد كذلك مصادر الشيعة التي استفاد منها البراقي كل الاستفادة. فقد اقتبس البراقي معلوماته عن المجلسي وعن الحر العاملي وعن كتب الزيارات[10]، فذكر أسماء مساجد لم يرد ذكرها في المصادر المعروفة، منها مسجد جرير بن عبد الله البجلي، ومسجد صعصعة ومسجد تيم. وأورد بالخصوص ما رواه الشيعة عن المساجد المباركة والمساجد الملعونة، فجاء ذلك قراءة معيارية جديدة لمواقع الكوفة من طرف الضمير الشيعي. وتظهر هذه القراءة المستجدة نفسها اسقاطاً على الفضاء لرؤية خاصة بتاريخ المدينة في القرن الأول. وقد قامت هذه الرؤية أصلاً على جدلية الصديق والعدو. فقد تعرّض كل الأشخاص والعشائر الذين واجهوا «قضية الشيعة» بالفتور والعداء، لأن تصنف مساجدهم وخططهم أيضاً في صنف الملعون. فكان الأمر

---

(١) الطبري، ج١٠، ص ٥٤٩.
(٢) الجنابي، ص ٨٧ - ٨٨.
(٣) الأغاني، ج١٨، ص ٤٢.
(٤) ابن سعد، ج٦، ص ٣٩٨.
(٥) الطبري، ج٧، ص ٦٣٢.
(٦) Massignon, *op.cit.*, p.54.
(٧) الطبري، ج٧، ص ٦٣٢.
(٨) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣١١.
(٩) ابن خرداذبه، المسالك، ص ١٢٦.
(١٠) البراقي، ص ٤٤.

كذلك بالنسبة لمسجد الأشعث وجرير البجلي وسماك وشبث، ومسجد ثقيف، والمسجد الواقع عند الحمراء. ووصفت المساجد بأنها مباركة، إذا مر بها وصلى فيها أحد الأئمة الأوائل ولا سيما علي[1]. الواقع أنها تحيل على شخص أو عشيرة أيدوا القضية. وهذه حال مسجد السهلة الذي قال عنه البراقي إنه تحقق من كونه مسجد بني ظفر وقال ماسينيون إنه مسجد عبد القيس[2]. ومن المعلوم أن الارتباط قوي جداً بين عبد القيس وبين علي وقد وقفوا إلى جانبه في وقعة الجمل، وحتى منذ وصوله إلى ذي قار قرب الكوفة[3]. وكذلك حال مسجد جعفي ومسجد غني، مع أن الأمر كان أقل وضوحاً، وكذلك الأمر بالنسبة للحمراء، وهو شيء محتمل لأنهم أيدوا المختار، وقد تماثل مسجدهم بصورة مثيرة بمسجد يونس[4].

---

(١) المرجع نفسه، ص ٤٤.

(٢) Massignon, *op.cit.*, p.52. *op.cit.*,

(٣) الطبري، ج٤، ص ٥٠٥.

(٤) البراقي، ص ٤٥ و ٤٦؛ ابن الفقيه، ص ١٧٤.

1 : دار عمرو بن حريث
2 : دار الوليد بن عقبة
3 : دار المختار
4 : دار خالد بن عرفطة
5 : دار أبي موسى
6 : مسجد بني مخزوم
7 : مسجد الأشعث
8 : جبانة كندة
9 : مسجد بني البدّاء
10 : مسجد السّكون
11 : مسجد بني أوْد
12 : مسجد النخع
12 م : جبانة مراد
13 : مسجد جُعفي
14 : مسجد سِماك
15 : جبانة أثير
16 : مسجد بني كاهِل
17 : جبانة عرزم
18 : مسجد بني جذيمة
19 : صحراء البَرْدَخت
20 : مسجد بني مقاصف
21 : صحراء بني قَرار
22 : مسجد دارم
23 : مسجد بني شَيْطان
24 : مسجد بني تيم
25 : مسجد شبث
26 : صحراء شبث
27 : مسجد بني دهمان
28 : جبانة مخنف
29 : صحراء عبد القيس
30 : مسجد عبد القيس
31 : مصلى خالد
32 : جبانة بشر
33 : مسجد جرير
34 : جبانة السّبيع
35 : مسجد أبي داود
36 : مسجد ثقيف
37 : حمام قطن بن عبد الله
38 : حمام عمرو بن حُريث
39 : مسجد أحمس
40 : الجبانة
41 : بستان زائدة
42 : مسجد شبيب
43 : الايوان
44 : دار الرزق
45 : دار الجزارين
46 : حمام المهبذان
47 : صحراء بني عامر
48 : مسجد بني غني
49 : جبانة سلول
50 : مسجد بني عدي
51 : مسجد الحمراء
52 : جبانة الصائديين
53 : مسجد بني عَنَز

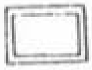 قطيعة عشيرة

سكة

دار (مسكن الأشراف)

مسجد

- ٢٣ -
وضع السكك: السور والخندق

لا يبدو أنّ الإنارة كانت موجودة باستمرار في الكوفة، خلافاً لما قد يُظنّ اعتماداً على إشارة ماسينيون الذي يتكلّم عن «المشاعل المنارة ليلاً»(١). كان الظلام يسود الكوفة بالليل، كما كان يسود روما(٢)، وتقريباً كافة المدن التي سبقت العصر الحديث. ولنا على ذلك حجج مباشرة وغير مباشرة، فمثلاً كان عبيد الله بن زياد يتفقد المسجد ليلاً، سنة ٦٠ هـ. بالمصابيح مقلباً الزوايا(٣). وقد وقف الحجاج فوق باب القصر، عند دخول شبيب إلى الكوفة «وثم مصباح مع غلام له قائم» داعياً الناس إلى الحشد، ويرشدنا السياق إلى أن الرؤية كانت غير ممكنة بالمرة(٤). وكانت المشاعل التي تحدث عنها ماسينيون وجاراه البراقي في ذلك، من الهرادي التي أشعلها جنود زيد بن علي (١٢٢ هـ). لما ثاروا بالليل، وذلك للتعارف وإشاعة الدفء بينهم في آن لأن «الليلة كانت شديدة البرد»(٥). إنها لظاهرة استثنائية وهذا ما يفسر ملاحظتها وتدوينها، ذلك أن الأمر لم يكن متعلقاً بإضاءة عادية مستمرة للسكك. ويظهر أن الهرادي كانت لا محالة حزماً من القصب ربطت بينها فروع الكرم (راجع تاريخ حنبعل) يتمّ اشعالها ورفعها، وهي تحترق سريعاً جداً، «فكلما أكلت النار هردياً رفعوا آخر». أما الحجج غير المباشرة فكثيرة. ورد بالمصادر أن الليل كان يساعد على التجمعات تأهباً للانتفاض، واندلاع الثورات، وأيضاً تدبير المؤامرات والتنقلات أو مجرد العنف اليومي، ولا سيما السرقات. وكان هذا العنف حاضراً وشاملاً، وقد شهر به زياد وندد به في خطبته(٦) التي كانت في الواقع بمثابة منشور موجه لأهل البصرة.. وقد غلب

---

(١) Massignon, *op.cit.*, p.46.

(٢) Léon Homo, *op.cit.*, p.581.

(٣) الطبري، ج٥، ص ٣٧٢.

(٤) الطبري، ج٦، ص ٢٤٢.

(٥) الطبري، ج٧، ص ١٨٢.

(٦) أنساب الأشراف، ج٤ (١)، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

عليه الشعور بقوة الاضطراب العمومي الذي هو اضطراب يتبع الحق العام لكن ارتبط ببداية الاضطراب السياسي. كان الأمر كذلك عندما بدأ الانتفاض على عثمان: فقد بدأت الفوضى تدب وظهرت نزعة مخيفة إلى الإجرام[1]. وكان ذلك عبارة عن نوائب من الحمى، واهتزازات من الضيق لكنه كذلك انخرام طرأ على تكيّف الروح العربية بالمحيط، بالنظر لضياع الفرد في المدينة التي عمّتها البلبلة، وأخيراً فهو عنف عادي يفرزه كل تواجد حضري في كل عصر ويختار منه الناس فتستغله السلطة أو المشوشون في اتجاهات مختلفة. والظاهرة الكبيرة هنا أن زياداً فرض استبداداً شحن بالمخاطر وأوقع بهذا تحولاً في تاريخ العراق والإسلام، وهو أمر شعر به أبو مخنف لوضوحه. فما هو منطلقه؟ كان الأمر عبارة عن معاينة لفوضى عامة عادية يصرح بها زياد بهذه العبارة: «الغارة في النهار والسرق في الليل»[2].

ويضيف: «وإياي ودلج الليل فإني لا أوتي بمدلج إلا سفكت دمه». وأخضع البصرة إلى نظام منع التجول[3] بصورة مستمرة لا هوادة فيها. كان المقصود من ذلك اتخاذ إجراء لحفظ الأمن اليومي الحيوي، وهو تنظيم للتعايش الجماعي حتى ولو أخفى هذا الأمر نوايا سياسية دون شك. ذلك أن زياداً نفسه مؤسس الدولة السلطوية وفارض الاستبداد والعسف والممارس للقسوة في الضرب على أيدي الأعداء، كان أيضاً منظماً ومربياً. وقد بيّنا أنه جعل من البصرة والكوفة على صعيد التمصير الصرف، مدينتين حقيقيتين. وإضافة إلى جهده المعماري، فقد أصدر تدابير كثيرة لفائدة المدينة، ولا سيما المحافظة على نظافة السكك. فكان السكان ملزمين برفع أكوام الطين بعد نزول الأمطار، ورفع القمامات من السكك[4] وبلغ به الأمر في البصرة إلى حد إنشاء مصلحة مختصة لرفع القمامة. والمفروض أنه طبق السياسة نفسها في الكوفة. لقد أشار البلاذري إلى أن المكان الموجود بدار الروميين في المركز، كان مصباً للزبال[5]: يعني ذلك أن الناس كانوا يذهبون إليه لصب زبالهم و«الرمل». ثم في عصر يزيد بن عبد الملك، نظّف هذا المكان وبُسط. وقد أشرنا كذلك إلى وضع الكناسة التي كانت مصباً للقمامة، ثم أصبحت سوقاً كبرى للقوافل. وما يستخلص من هذه الأمور أن شاغل نظافة السكك كان موجوداً.

---

(١) الطبري، ج٤، ص ٢٧٩.

(٢) أنساب الأشراف، ج٤ (١)، ص ٢٠٧.

(٣) أنساب الأشراف، ج٤ (١)، ص ٢٠٧؛ الطبري، ج٥، ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٤) أنساب الأشراف، ج٤ (١)، ص ٢٣٧.

(٥) فتوح البلدان، ص ٢٨٠.

الواضح أن هذه السكك لم تكن مبلطة بل حافظت على وضعها خلافاً لما كان عليه الأمر في مدينة أخرى هي حمص[١]. لكن حمص كانت تابعة للمملكة الرومانية البيزنطية التي يعترف كتّاب عرب كالجاحظ بتفوقها على مجال وادي الرافدين ما عدا بغداد التي فاقت في نظره مدن «الشامات» فعلاً[٢]. ومن المعلوم أن موضوع نظافة السكك والرحاب تدقيقاً، تجسم في بغداد حيث كانت السكك تكنس وتُزال أوساخها كل يوم[٣]. لكن المحتمل أنها لم تكن مبلطة في بادىء الأمر، لأن التبليط كان في الحقيقة ابتكاراً رومانياً لم يدخل كل مكان.

أشرنا سابقاً إلى السور والخندق ولنوجز القول بشأنهما. لقد فرضهما أبو جعفر المنصور على السكان فحمّلهم النفقات سنة ١٥٥ هـ عقاباً لهم على نزعاتهم المتشيعة لعليّ، وإحصاء لعددهم - كما جاء في الروايات[٤]. والواقع أن ما قام به أبو جعفر يُعبّر عن ظهور تصور كامل جديد للمدينة. هذا التصور إنما ترمز إليه بغداد تماماً، إذ كان جهازها الأساسي السور ومركبات الأبواب. وهكذا تعود التقاليد البابلية إلى سالف قوتها، بعد أن اختفت إلى حين. وقد أراد المنصور توسيع هذا التصور إلى عاصمته القديمة حيث ارتجف لفكرة هجمة يقوم بها جيش ابراهيم بن عبد الله العلوي الثائر في البصرة. ليس هناك أي شك في أن الجهد التمصيري الذي قام به المنصور في بغداد والكوفة وغيرهما، قد داخله شاغل الاحتماء من الثورات الداخلية. إنها لمفارقة أنه فكر في الأمر بعد أن استتب النظام. وينبغي أن نضيف لهذه الأسباب سبباً آخر هو أن الكوفة لم تعد مصراً للمقاتلة بل أصبحت بلداً تابعاً، ومدينة من مدن الخليفة. فكان السور استجابة «لتمدين» الكوفة تمديناً كاملاً شاملاً، وللتحول الطارىء على اتجاهها، والمسيرة التي قطعتها طيلة قرن ونصف منتقلة من وضع المصر المسلح المهاجم المضطرب المهيمن، أحد منابع القوة العربية، إلى وضع مدينة الثقافة والصناعة المنزوعة السلاح والهشة. فكان ينبغي حمايتها من العالم الخارجي.

لعب السور بصورة ملموسة دوراً أقل أهميةً من الخندق الذي كان قناة حقيقية محصنة، وكان متضمناً للجسور بأبوابها[٥]، وكانت الأفلاك والمراكب تعبره. كانت الكوفة في الماضي مدينة مليئة بغبار وبرائحة الصحراء فأضحت مدينة الماء. كانت محاصرة بين النهر والصحراء، فمالت إلى جهة النهر، وجلبت مياهه وسيطرت عليه وعبرته وجعلت منه حزاماً

---

(١) البلاذري في فتوح البلدان، ص ١٤٠: «إنها مفروشة بالصخر».

(٢) الخطيب، في: Lassner, p.56.

(٣) *Ibid.*, p.57.

(٤) لم يتحدث البلاذري إلا عن الخندق. انظر: فتوح البلدان، ص ٢٧٨.

(٥) البراقي، ص ١٢٠.

تحتمي به. فكان سور الكوفة الحقيقي الخندق - القنال، أي ما عرف بالخندق. وقد أشار إليه الطبري عند حديثه عن ثورة شقيق أبي السرايا سنة ٢٠٢ هـ[1]. ومن نتف الأخبار التي يمكن اقتباسها من هذا الحدث يتبين أن الربض كان موجوداً بالخارج، وهو ربض عيسى بن موسى، وكذلك الكناسة التي أصبحت ربضاً مبنيّاً. وبذلك فقد أحاط السور[2] «بالمدينة» أي بالمركز والخطط، وحدودها القديمة التي أمحت[3] وتحولت إلى أحياء حضرية مع ما تبقى من الجبانات. وهكذا تحولت الكوفة إلى مدينة إسلامية كلاسيكية، لها بنية مزدوجة تتركب من «المدينة» والأرباض، وحيث كان الخندق والسور يحددان «المدينة» أكثر مما يحميانها، وقد رسما الحد الفاصل بالضبط بينها وبين الأرباض.

---

(١) الطبري، ج٨، ص ٥٦١.

(٢) المستوفي القزويني تحدث عن الكوفة على أساس أنها كانت محاطة بأسوار دائرتها ١٨٠٠٠ قدم: Le Strange, p.75.

(٣) ما عدا خطّة كندة التي اتسعت وتمددت باتجاه الجنوب الغربي من الجزيرة مع أنها تحوّلت بدورها إلى حارة في القرن الثالث: عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب، ج١، ص ٣٨٢؛ H.R.Blachère, *Un poète arabe du IVe siècle, de l'hégire*, p. 24

الباب السابع

الكوفة كنموذج للمدينة الاسلامية؟

- ٢٤ -
الكوفة والمدن المنشأة بالعراق قبل بغداد

إذا ما وافقنا على أن الكوفة كانت منذ البداية حاضرة، اختطت تخطيطاً كاملاً، ووافقنا على وجود الثنائية بين المساحة العمومية المتركبة من القصر والمسجد والأسواق من جهة والحزام السكني المخصص لخطط القبائل من جهة ثانية، فإنه يمكن التساؤل تساؤلاً مشروعاً عن النموذج الذي جسمته الكوفة بالنسبة لكل مدينة إسلامية مقبلة. ويزداد المشكل دقة بقدر ما ندخل في العصر الأموي حيث امتلكت أسلوباً معمارياً يبدو أن واسط قلدته، وبغداد، ولو تجاوزنا منطقة وادي الرافدين، قصور الشام. ويكون النموذج إذن نموذجاً للتخطيط وأيضاً للتمصير في المرحلة الأولية ونموذجاً معمارياً جاء بعده لما تبلور الفن الأموي في وادي الرافدين.

ولذا، لنا أن نستفهم في هذا الموضوع المؤلفات القديمة والحديثة. جاء في أحد المصادر بخصوص البصرة ما مفاده أنها اتبعت مثال التخطيط كما كان بالكوفة: «واختطت على نحو من خطط الكوفة»[١]. كذلك فقد أقر ماسينيون مركزية الأسواق كأساس في بنية الحاضرة الإسلامية، فعرض افتراضاً يقول أن أسواق بغداد قلدت أسواق الكوفة من حيث الهندسة المعمارية والوظائف[٢]. وأوضح صالح أحمد العلي بدوره[٣] ما هنالك من تشابه ملفت للنظر بين الامصار وبين بغداد في عصر المنصور لا بسبب المحافظة على البساطة العربية القديمة وحسب، بل بما كان عليه المسجد من طابع مركزي مدمج وكذلك القصر والدواوين، فقال متحدثاً عن بغداد «إن الأمر كان تماماً على نحو الأمصار الأولى».

---

(١) سيف، في: تاريخ الطبري، ج٣، ص ٥٩٣.

(٢) Massignon, *Art.cit.*, p.49; وكذلك: «Mission [illegible] Mésopotamie», p.91.

(٣) «The foundation of Baghdad» في: Stern-H[illegible]ani, *ouvr.cit.*, pp.87-101.

وذهب التفكير بغرابار O.Grabar[١] في بحث مهم، تجاوز فيه مؤلفه الأفكار الشائعة نوعاً ما، إلى أن قصر المنصور في بغداد كان مقتبساً من العصر الأموي وأنه كثيراً ما جرى تجاهل وجود أسلوب معماري أموي في وادي الرافدين، الذي جسمته واسط والكوفة، ولعله انتقل إلى الشام. وتساءل فعلاً عن دور الكوفة، وكان سؤاله عما إذا كانت نموذجاً للبناءات الأموية (في واسط) كما العباسية (في بغداد)[٢]. ينبغي العودة للبحث في هذا المشكل، لأن المؤلف بقي على سطح الاتجاه إلى المقارنة الهندسية الصرف، ولم تشمل افتراضاته المجموعات المدنية، لكن الأمر يتعلق بمؤشر لا مراء فيه. وقد مر بنا أن لاسنر Lassner كان يلح على فكرة الأصالة في المدينة المستديرة، وقد رأينا أن تصوره كان خاطئاً بشأن كيفية إنشاء الأمصار وتطورها. وبالرغم من ذلك فقد تحدث عن «التشابهات العجيبة» بين مركز بغداد من جهة، يعني «المجال الشخصي» للخليفة، وبين مركز الكوفة وواسط من جهة أخرى[٣]. وقد لاحظ وجود مركب القصر والمسجد في الموقعين وطابعهما الاتصالي وأن المسجد كان أصغر من القصر. أما فيما يتعلق بالعلاقة المادية الجوهرية بين القصر والمسجد فقد نسب وجودها في الكوفة الأولية[٤]، وظهورها من جديد في بغداد إلى الإرث الساساني المشترك الذي ينبغي التدليل عليه، في حين أنه كان أكثر معقولية وأكثر مصداقية أيضاً أن تُعتبر تأثيراً من الكوفة على بغداد.

من المناسب أن نقول إن هذه الانطباعات المتفرقة تأتي لدعم فرضيتنا القائلة بأن الكوفة نموذج، أو على الأقل أن الكوفة لعبت دوراً بارزاً في توضيح التصور الحضري الإسلامي. فقد استند المؤلفون السابقون إما إلى تشكيلة المركز وإما إلى هندسة القصر. لكن سبق أن أشرنا إلى عنصرين للمشكل هما ثنائية المساحة العامة ومساحة السكنى، وبنية الخطط ذاتها التي تحدد إمكانية أصلية للتطور نحو حاضرة متشعبة ملتوية المظهر، فكان ذلك سبقاً للنموذجية التي كان عليها وضع الكوفة، وأيضاً طرحاً لقضية الاستمرارية في مشروع الاسلام الحضاري.

الكوفة والبصرة:

تفقد هذه النموذجية كل حدتها إذا رضينا بما ورد في الروايات التاريخية بخصوص

---

(١) al-Mushtta, Baghdad and Wasit», in *The World of Islam, Studies in honour of Philip Hitti,* London, 1960, pp. 99-108.

(٢) *Ibid.*, p.104.

(٣) Lassner, *The Topography of Baghdad, pp. 133ff.*

(٤) لا في البصرة، كما قال خه: ص ١٣٤.

أسبقية إنشاء البصرة، لأن المشكل يصبح عندئذ «مشكل مصادر أثرية وأدبية. الحق أننا لا نعلم إلا القليل عن تكوّن البصرة، ولم يمدنا علم الآثار بشيء بعد[1]، على أن القليل الذي وصلنا ينفي الفكرة التقليدية في الموازاة بين المصرين منذ البداية. حتى ولو وافقنا، مع أبي مخنف[2]، والمدائني[3]، وابن اسحاق[4] وغيرهم على أن العرب أقاموا في الخُرَيْبَة منذ سنة ١٤ هـ/ ٦٣٥، فلا تكون هذه الاقامة إلا مؤقتة لا محالة. وحين تدعم وضع العرب بعد وقعة القادسية واتجهت الاقامة إلى الاستمرار حوالى سنة ١٦ ـ ١٧ هـ فلم تقع بالكيفية الرسمية والارادية والمنظمة تنظيماً دقيقاً التي تمت بها في الكوفة. فقد تضافرت القرائن كلها على اعتبار الكوفة مصراً حقيقياً بينما تكون البصرة قد نشأت عرضاً. واستمر الطابع الوقتي للمنشآت بعد سنة ١٦ هـ واتسم بخاصيات مشوبة بنظام المعسكر الذي كان بصدد التحول البطيء، حيث كان ينبغي لأهل البصرة أن يتمكنوا فعلاً من امتلاك قاعدة عقارية بواسطة الفتح، فحملهم ذلك على التقدم إلى خوزستان. ولـذا تبدو أسبقيـة البصرة مفتعلة فلا تنقص في شيء من الأهمية القصوى التي كانت لعملية التخطيط التي حدثت بالكوفة، ومن نموذجيتها.

يسهل اتهام سيف بعصبيته الكوفية وتخطئة الخبر الذي ذكره عن جماعة صغيرة بقيادة عتبة بن غزوان انطلقت من المدائن واتجهت إلى موقع البصرة، فأصبحت بذلك نوعاً من السليل لجماعة سعد الرئيسية[5]. ويسود فعلاً الشعور أن مقصده كان المطابقة بين زمن الانشاءين بحيث يكون ذلك قد تم في بداية سنة ١٧ «في نفس الشهر» حسب قوله. لكنه يعترف أن ثلاث محاولات للاستقرار «نزولات»[6] قد جرت، ثم يناقض نفسه فيقول إن البصريين الجدد كانوا موجودين على ضفاف دجلة حين كان الكوفيون العتيدون يقيمون في المدائن[7]. وبذلك فهو يلتحق بالروايات الأخرى التي تتحدث عن مرحلة أولية تم خلالها

---

(١) صالح أحمد العلي، «خطط البصرة»، سومر، عدد ١٩٥٢/٨، ص ٧٢ وما بعدها.

(٢) الطبري، ج٣، ص ٥٩١.

(٣) المرجع نفسه، ج٣، ص ٥١٠.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٣٧.

(٥) الطبري، ج٣، ص ٥٩٠. يقول الواقدي هو أيضاً بهذا التفريع: فتوح البلدان، ص ٣٤٥، وابن سعد، الطبقات، ج٧، ص ٦. ويذكر اليعقوبي أن الاختطاط بإشراف عتبة تم سنة ١٧ هـ: كتاب البلدان، ص ٢٣٥. ويؤرخ كذلك كايتاني إنشاء البصرة من طرف عتبة بين سنة ١٦ و ١٧ / ٦٣٧ ـ ٦٣٨: Caetani, *Chronografia*, p.191. ويفضل أخيراً ماسينيون دون نقاش سنة ١٧: Massignon, «Explication du plan du Kūfa» *art.cit.*, p.58.

(٦) الطبري، ج٤، ص ٤٢.

(٧) الطبري، ج٣، ص ٥٩٢.

فتح «كور» دجلة[1].

وسواء اعتمدنا سيفاً أو المخبرين الآخرين[2]، وبالرغم من اختلافاتهم، فإن قراءة نقدية للنصوص تحملنا على الاقتناع بأن عملية عسكرية ثانوية للتلهية[3] جرت بين سنة ١٤ و١٦ هـ، وقد كانت بقيادة عتبة بن غزوان وبتوجيه من المدينة. ولا شك أن جموع بكر المقيمين بالحدود قد أشاروا بها[4]. فتسببت هذه الحركة في هجرة محدودة[5]. وكانت عملية ضعيفة المدى حدثت بأسفل دجلة، فتم الاستيلاء على الأبلّه ـ مقر الحامية الفارسية ـ ودستميسان والفرات[5]. وكان من السهل انهاؤها مما يفسر أن العرب المهاجرين تكاثروا بسرعة. ولا شك أن ذلك قد وقع منذ سنة ١٥ هـ بعد القادسية مباشرة. وكان على هذه الغزوات أن تكتسب لها قاعدة فقامت الخريبة بذلك. وقد أكدت بعض الأخبار أن العرب بنوا سبع قرى محصنة هي الدساكر[7]. ولعل المعسكر في هذه الصورة اتخذ شكل منشأة قروية متفرّقة، فكان نواة للبصرة العتيدة[8]. لكن ذلك يبدو متناقضاً مع أقوال هذه المصادر بالذات بخصوص إقامة معسكر من الخيام، وأكواخ من القصب، القصب الذي يقتلعه العرب في كل حملة لكي يتمّ تركيبه عند العودة[9]. من رأينا أنه ينبغي رفض فكرة بناء هذه

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٣٥.

(٢) يذكر الطبري، ج٣، ص ٣٩٠ وما بعدها اسم الشعبي وأبي مخنف والمدائني. وتمثل المصدر الرئيس عند البلاذري في شكل مجهول: «قالوا» لكنه يذكر أيضاً الواقدي وابن اسحاق وعوانة وأبا عبيدة، ووهب بن جرير، وآخرين أقل شهرة: فتوح البلدان؛ والدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٦ - ١١٩، وقد ألحا على ما كان لهذه العمليات من استقلال وتدبير وأهمية.

(٣) كانت فكرة عملية التلهية وحماية الجهة الجنوبية واضحة عند سيف، الطبري، ج٣، ص ٥٩١، وعند البلاذري، ص ٣٣٦؛ ابن سعد، طبقات، ج٧، ص ٥.

(٤) مع سويد بن قطبة مماثل المثنى: فتوح البلدان، ص ٢٤٣ وص ٣٣٥؛ الأخبار الطوال، ص ١١٦ حيث بدا بمظهر المقلد للمثنى وكان من عجل؛ صالح العلي، التنظيمات، ص ٣٤.

(٥) فتوح البلدان، ص ٣٣٨؛ أبو مخنف في الطبري، ج٣، ص ٥٩١.

(٦) فتوح البلدان، ص ٣٣٥ - ٣٤١.

(٧) لا سيما ابن اسحاق: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٣٧، وقد جعل منها مرحلة لاحقة أنشئت بعد وقت قصير من إقامة معسكر الخيام؛ الواقدي، في طبقات ابن سعد ج٧، ص ٦، اعتبر ذلك بادرة عفوية قام بها بعض الأفراد.

(٨) Massignon, «Explication du plan de Basra», *Opera Minora*, III, p.70. يرى ماسينيون أن الخريبة هي موقع البصرة في حين أنها تظهر على الأطراف. انظر: فتوح البلدان، ص ٣٣٦؛ الطبري ج٤، ص ٤٩٨ وص ٥٣٨.

(٩) فتوح البلدان، ص ٣٣٦ و٣٤٢. اقتبس عنه ياقوت ج١، ص ٤٣٢، كما هو معلوم؛ الطبقات ج ٧، ص ٦؛ الأخبار الطوال، ص ١١٧. الواضح أن المقصود هي المرحلة التالية.

القرى[١]، وقبول فكرة المنشأة الأصلية المزدوجة: يكون اقرار المهاجرين في قرى الأهالي، واقرار رفاق عتبة في معسكر حقيقي على النمط العربي[٢]. وهو ما لا يتناقض مع إمكانية اختطاط مسجد في الهواء الطلق منذ سنة ١٤ هـ[٣]. وقد تم التخطيط الشامل باشراف أبي موسى الأشعري بعد سنة ١٦ هـ. فقط، فبدأ البناء باللبن، وشيد المسجد والقصر[٤]. لكن المسجد كان صغيراً وكان القصر بعيداً عنه، والواضح أنهما كانا مخصصين معاً لمجموعة صغيرة من الناس. ولم يتوفر أي خبر دقيق، ما عدا الخبر الذي يقول بتزامن التخطيطين[٥]: تخطيط البصرة، وتخطيط الكوفة، بخصوص التاريخ الذي مارس فيه أبو موسى التخطيط، في حال ما إذا تعلق الأمر بعمل سابق لعمل سعد. كل ما نعلمه أن أبا موسى خلف عتبة سنة ١٦ هـ[٦]. لكن ليس واضحاً بتاتاً أنه بادر بتمصير حقيقي للمعسكر. كان عدد المهاجرين ضعيفاً جداً، وكانت الموارد تعوزهم كثيراً، ولذا فمن الصعب أن يتم التخطيط النهائي في عام ١٦ أو ١٧ هـ[٧]. وسيقع فعلاً تغيير في جغرافيا القبائل بالبصرة، بكيفية متسعة بين سنتي ١٧ و ٢٠ هـ/ ٦٣٨ - ٦٤١ ارتباطاً بفتح خوزستان وبفضل هجرة جموع قبلية ضخمة منسجمة[٨]. وهذا لا يعني كذلك أنه كان يجب بدء هذا الفتح، وبالأحرى انهاؤه أو ترقب الاقامة المخططة في الكوفة، لكي يقوم أهل

---

(١) كانت الدساكر موجودة قبل وصول العرب، كما قال أبو مخنف: الطبري ج٣، ص ٩١. وورد ذلك في الرواية الرئيسة التي أوردها البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٣٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٣٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٤١؛ ابن سعد ج ٧ ص ٥؛ ياقوت، معجم البلدان، ج٥ ص ٤٣٢ الذي يتحدث عن تمصير أذن به عمر بعد معركة الفرات، وعن الإقامة بمنشأة دائمة يتم اللجوء إليها. وروى ياقوت أن المسجد بني بالقصب.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٤٢؛ اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣٢٣ الذي أرّخ الاختطاط في سنة ١٧ هـ؛ ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص ٤٣٣.

(٥) الطبري، ج٣، ص ٥٩٠.

(٦) فتوح البلدان، ص ٣٤٠ - ٣٤١ الذي اعتمد تاريخ سنة ١٧ أيضاً. ومن رأى الطبري أن المغيرة كان هو الوالي سنة ١٦: ج٤، ص ٣٩. وهو التاريخ الذي اعتمده صالح العلي في التنظيمات، ص ٣٩. لكن البلاذري كان جازماً: ص ٣٤١.

(٧) أورد البلاذري عبارة رئيسة في فتوح البلدان، ص ٣٤٢، أكدت التخطيط قال: «ثم أن الناس اختطوا وبنوا المنازل، وبنى أبو موسى الأشعري المسجد ودار الإمارة بلبن وطين وسقفها بالعشب». وقد تزامن البناء المتين وتخطيط المصر، كما حدث في الكوفة.

(٨) صالح أحمد العلي، ص ٤١، اعتمد ابن سعد. لكن قبيلة عبد الق.. لم تهاجر إلى البصرة إلا في عهد ابن عامر (٢٥ - ٣٦ هـ). ويحتمل أن الأمر كان على ذلك النحو بالنسبة ..زد. وقد اتضح نمو البصرة خلال الأعوام الخمسة (١٧ - ٢٢) عبر وفد أهل البصرة سنة ١٧ هـ لدى ع.. الطبري ج٤، ص ٧٤ - ٧٥ وعبر إعادة تعديل الفتوحات بين البصرة والكوفة سنة ٢٢ هـ: الطبري ج٤، ص ١٦٠ وما بعدها.

البصرة بتخطيط يخصهم. يحتمل كثيراً أنهم سبقوا أهل الكوفة في مدة تقع بين سنتي ١٦ و١٧ هـ/ ٦٣٧ - ٦٣٨. وما ينبغي تسجيله خاصة هو الفرق بين ظروف الاقامة هنا وهناك، والفارق الدلالي الكبير بين هاتين الظاهرتين. كان جيش الفتح موجوداً في الكوفة التي كانت ترمز إلى تجربة الاستيطان العربي في بلاد الرافدين، بالنسبة لعمر. وقد توفرت لهذا الجيش أرض مفتوحة تستدعي التنظيم مع ما يشمل ذلك من ابتكار وتهيئة واستيعاب للتجارب الواردة بالمحيط. وكانت البصرة ثمرة لعفوية لم يجرِ السيطرة عليها تماماً، وثمرة لعمل إضافي ثانوي في البداية، وثمرة رغبة في الهجرة بأقل التكاليف. فكانت إذن محتشمة ضعيفة المدى واستفادت من الانتصارات التي ترتبت عن خوض معارك كبرى وقعت بمركز القرار في بلاد بابل. كانت هناك لحظتان واضحتان في ظهور البصرة: فترة إقامة مؤقتة سنة ١٤، بعد وقعة البويب مباشرة، وفترة اقامة دائمة مصحوبة بالتخطيط والبناءات، بعد سنة ١٦هـ/٦٣٧[1]. لكنه كان تخطيطاً منقوصاً حتماً، وهو ما يفسر فيما بعد اتساع أعمال التحوير والتشييد التي أمر بها زياد. ولا شك أنه أخذاً بوجهة النظر هذه ينبغي الاحتفاظ بالأسبقية في التخطيط للكوفة أو على الأقل على كثافة أعظم في الدلالة، وحتى تخطئة الموازاة أو التوأمة بين المصرين في هذه المرحلة الأولية. ومن الممكن أن التقليد التاريخي العربي قد أسقط على وضع مختلف صورة الكوفة الأولية والصورة التي أضحت عليها البصرة بعد ذلك. وعلى كل، فقد اتصفت الكوفة من أول وهلة بصفة المدينة، أو أن تخطيطها على الأقل، أكد طموحها لذلك لأن أهل الكوفة قاموا بحربهم، فجنحوا إلى الحياة المدنية. أما البصرة فباستثناء الغارات الأولى التي وقعت في مرحلة الخريبة، فقد كان عليها أن تشن حربها (في خوزستان) لتربح سلمها وتدعم وجودها. فما أعوز نشوؤها من صفات العز التي توفرت للكوفة - النموذج التمصيري والتنظيم الجبائي العسكري وكبرياء السابقة - عوضت عنه بأن كانت مكاناً للمبادرة والخلق والتماسك الذي استحقته بقدر ما منحته. لقد بقيت الكوفة حبيسة نشأتها المنظمة جداً، والمرتبطة كثيراً بالحرب والحكم. وبفضل عفويتها الأولى، حصلت البصرة على قدرة كبيرة على التطور، ونزعة عميقة إلى السلم الداخلي.

الكوفة وواسط:

سبق أن قلنا أن غرابار أقام صلة أساسية بين الكوفة وواسط وبغداد، فلفت بذلك نظر الباحثين إلى أهمية العمارة الأموية بوادي الرافدين وحتى إلى دورها النموذجي لا في الاتجاه الأموي - العباسي فقط حيث طرح الاستمرارية، بل أيضاً في الاتجاه الفضائي العراق -

(١) ذاك هو الأمر الذي لم ينتبه إليه صالح أحمد العلي، التنظيمات، ص ٣٦.

الشام (قصر المشتى خاصة)[١]. لكن إذا لم يشغلنا الآن المشكل المعماري - تصميم القصور، وبنية الايوانات ووجودها، والشرفات الخاصة بالأبواب - فذلك لا يعني أنه ليس مؤشراً رفيعاً على التسلسل الرابط بين الكوفة وبغداد، مروراً بواسط، على مستوى التصور المدني الأوسع. على أن غرابار جعل من واسط المثال الوحيد لبغداد، فأنزل الكوفة منزلة الأصل فقط، بسبب التماثلات المدهشة (مثلاً القبة الخضراء) والتقارب الزمني وطابع مدينة الحكم، أي مدينة شبه امبراطورية، الذي كانت عليه واسط. لكن العباسيين أقاموا بالكوفة وعرفوها، واستخدموا مهندسين معماريين من الكوفة[٢] وقد بينا ذلك. وأخيراً فبالرغم من قلة الثقة المتبادلة فقد كانت لهم جذور بالكوفة، في حين كانت واسط تجسم السلطة المكروهة التي قاموا بتقويضها. هذه عناصر نفسانية ينبغي أخذها بعين الاعتبار وهي تحملنا على الاعتقاد بأن المنصور استمد نموذجه مباشرة من واسط والكوفة معاً، مع اعتبار التأثيرات الخارجية طبعاً والجانب الخلاق بالمقدار نفسه. الواقع أن واسط سمت كثيراً بالتصور المعماري الكوفي. كان كل شيء كبيراً بها، المسجد والقصر، ويمكن مقارنة ذلك بمنجزات المنصور بخصوص الأبعاد. كانت مدينة للحكم كما قلنا ولحكم مهدد كما أنه صار متعسفاً، لكنها كانت مدينة مصطنعة أيضاً، لا وجود فيها لمجموعة حقيقية من السكان، خلافاً لما كان عليه الأمر في الكوفة، وفي حين أنها توافرت لبغداد، بغداد التي بنت لنفسها مصير حاضرة كاملة مندمجة.

لقد اعتمدت المصادر المتوفرة لدينا على كتاب بحشل تاريخ واسط[٣] أساساً فضلاً عن معلومات متفرقة وردت في الأدب التاريخي الجغرافي، وعلى ما كتبه ياقوت الحموي وعلى فقرة قصيرة من كتاب البلدان[٤] لليعقوبي. كما أمدتنا التنقيبات الأثرية التي أجريت بين سنة ١٩٣٦ و ١٩٤٢، بمعلومات هامة[٥].

أنشئت واسط بعد ثورة ابن الأشعث (أي بين سنة ٨٣ و ٨٤ هـ/ ٧٠٢ - ٧٠٣)[٦].

---

(١) Grabar, *Art.cit.*, pp. 99 -108.

(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١، ص ٧٠.

(٣) تحقيق كوركيس عواد، بغداد ١٩٦٧. مات بحشل في ٢٩٢ هـ/٩٠٥.

(٤) كتاب البلدان، ص ٣٢٢؛ راجع أيضاً البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٨٨ - ٢٩٠، الذي يتحدث خاصة عن المحيط؛ ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص ١٨٧؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١١٨.

(٥) فؤاد صفر، واسط: نتائج الموسم السادس للتنقيب، القاهرة ١٩٥٢، ص ٤٥ وما بعدها. ونشرت أبحاث كثيرة للمدرسة العراقية بمجلة سومر من ١٩٤٥ إلى ١٩٥٧ ذكرها بالتفصيل كوركيس عواد.

(٦) أرّخ بحشل إنشاء واسط سنة ٧٥ هـ: تاريخ واسط، ص ٤٣. لكن لا يمكن اعتماد هذا التاريخ فقد كذبته المصادر الأخرى: الطبري ج٦، ص ٣٨٣؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٨٨؛ ياقوت، مادة واسط. وقد تضاربت أقوال بحشل بلا ريب بحيث أنه يجعل بناء واسط بعد ثورة ابن الأشعث: ص ٤٤.

فهي إذن ثمرة لإرادة السلطة الأموية في العراق - بمعنى إرادة الحجاج - في التخلي عن البيئة العربية المحيطة به، وإنشاء مقر للحكم والاحتلال أو نحوه، في محيط معاد. الواقع أن واسط قامت إلى جانب حاضرة أهلية قديمة هي كسكر، وحافظت على تميزها فأنشئت على شاطىء دجلة الغربي، في حين أن المدينة القديمة كانت تقع إلى الشرق. إنما جرى الإبقاء على ما كان من صلة بينهما، فشيد جسر من المراكب، وثبتت وحدة المدينة بتمامها شيئاً فشيئاً - أي المدينة القديمة والجديدة - وتراكبت هكذا على النهر كما كان الأمر في بابل[1]. على أن مدينة الحجاج حافظت مدة على ذاتيتها التي كان السور يرمز إليها ويجسمها[2]. ولم يكن للمدينة الجديدة إلا أن تأخذ بعين الاعتبار التجربة الحضرية التي استوعبها العرب بوادي الرافدين. كان جهد البناء هاماً، وقد تجاوز المحاولات الأولية وهيأ للأعمال الكبرى الأولى في العمارة العربية التي سيدشّنها الوليد. ولقد أتى هذا المجهود في فترة تأكيد الذات في الميدان الفني، في فترة تحول طرأ على الحضارة العربية الباحثة عن أسلوب لها، ومجد تسجله على الحجر أو الآجر. فظهرت القبة الخضراء المعروفة[3] التي قلدها المنصور فكانت حدثاً فنياً مع أن قبة الصخرة سبقتها في الوجود. هذا وإن بنية النواة المركزية كانت من النوع الكوفي: كان القصر يُفتح على المسجد، وقامت غير بعيد من ذلك أسواق متخصصة[4]. مع الفارق أن البناء تم على نطاق أعظم، ولا شك أنه كان أكثر تهذيباً. كانت أقيسة القصر المربع[5]، ٤٠٠ ذراع × ٤٠٠ ذراع، وكان المسجد أصغر من ذلك (٢٠٠ × ٢٠٠). إن هذه الأقيسة مساوية تماماً لما سيتم في بغداد وأكثر مما كانت عليه في الكوفة. كانت السوق غير بعيدة عن القصر، وعالية التخصص[6] وقيل أنها كانت متسعة كثيراً. لكن عدد الصنائع المذكورة في المصادر غير هام جداً[7]، وهذا دليل واضح على الفارق الموجود بين الأهداف التي قصدها الحجاج وواقع الاستقرار.

وقد فرضت الأمور تسلسلاً مع الكوفة، في تصور المركز هذا. لكن كافة الأشياء

---

(١) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣٢٢؛ ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص ١٨٧.

(٢) كتاب البلدان، ص ٣٢٢، تحدث المؤلف عن مدينة قديمة ومدينة جديدة وعن إحاطة السور بالمدينة الجديدة فقط. ومن المعلوم أن ابن هبيرة قاوم فيها حصاراً مضروباً عليها. وتحدث بحشل عن سورين وخندق: ص ٤٣، وذكر ياقوت خندقين وسوراً: مادة «واسط».

(٣) فتوح البلدان، ص ٢٨٨؛ كتاب البلدان، ص ٣٢٢؛ الأعلاق النفيسة، ص ١٨٧. ولم يرد ذلك في كتاب التاريخ.

(٤) التاريخ، ص ٤٣.

(٥) ياقوت، مادة واسط؛ Grabar, *art.cit.*, p.105; Lassner, *ouvr.cit* pp.133,189.

(٦) التاريخ، ص ٤٤: معلومات هامة.

(٧) ذكر بحشل عشر صناعات، وكان النفوق للصرافين.

المتعلقة بامتداد الأقيسة والبحث عن المظهر العظيم والمترف، توحي باستيعاب أكثر رقة للمكاسب السابقة كما توحي بالذات بوعي للحضارة العربية وهي بصدد التكوين، وبترجمة معمارية عن شعور بالقوة، فيما كانت منطقة الشام وفلسطين توحي بالبحث عن الجمالية والجمالية فحسب. فهل كان ذلك بمثابة عودة أكثر وضوحاً إلى المثال الآشوري ـ البابلي الذي ساعدته ظرفية الدفاع والصراع؟

إن الظاهرة الجديدة في واسط بالمقارنة مع الكوفة والبصرة، هي أن يُشيّد خط مضاعف من الأسوار، وخندق، وأن توجد أبواب جيدة الحراسة[1]. هذا احياء لبابل وصورة مسبقة لبغداد أيضاً، كأن واسط أرادت أن تمر من فوق مرحلة الأمصار الصرف[2] لوصل الحاضرتين الكبيرتين بوادي الرافدين. كانت الكوفة الأولية والأموية مدينة مفتوحة فعلاً. ولم ترض، شبيهة في ذلك باسبرطة، بسور سوى ذاك الذي ترفعه سيوف أبنائها. لقد تبقى فيها ما يشبه الشعور بالحرية العربية ذاتها، حرية المقاتلين المتأهبين للهجوم، لا سيما حرية البدو المولعين بروح الصحراء. ولعلهم كانوا يتبرمون من العيش المدني ويختنقون فيه اختناقاً ولعلهم كانوا يتصورون أي سور كحائط سجن يحبسهم بصفة لا تطاق. ولعل امتناع المصرين من قبول النظام الاستثنائي، نظام الرقابة وحظر التجول ليلاً، الذي شرع زياد في تطبيقه[3] وتمادى فيه الحجاج، هو الذي جعل هذا الأخير يقدم على الفصل بين مقر الحكم والسكان العرب. إن التمييز بين المجتمع والسلطة هو وحده الذي يفسر تشييد الأسوار في واسط كما في بغداد، وليس الخطر الخارجي[4]. بقي أن يجري التنقيب عن نموذج في الحضارات السابقة...

في البداية، تماثل المجتمع بالشعب العربي من مهاجرة الكوفة والبصرة. كانت أمة من المقاتلين تشعبت تشعباً عميقاً بذاتيتها بالنسبة لجهاز الدولة الذي اعتبرته طفيلياً باستمرار. وهناك أيضاً عالم أهل السواد، الذي منع عليه الحجاج التسرب إلى الحاضرة العربية. لذا اختير السكان العرب في واسط اعتماداً على ما أبدوه من ولاء، فتكونوا من أهل الشام ومن عدد من أهل الأمصار المنتخبين[5]، والرأي عندي أنهم كانوا قليلي العدد ولم يشكلوا مجموعة حضرية منسجمة ومتميزة في آن. أما أهالي السواد، فقد حُظِرت عليهم

---

(١) تاريخ واسط، ص ٤٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٥، حيث يدور النقاش لمعرفة ما إذا كان لواسط خاصيات المصر ونظامه.

(٣) الطبري، ج٥، ص ٢١٧ وما بعدها.

(٤) كان يجدّ ذلك بعد نشوب الثورات الداخلية: ثورة ابن الأشعث، واضطراب الراوندية، وانتفاضة محمد بن عبد الله الحسني.

(٥) بحشل، تاريخ واسط، ص ٤٤.

الاقامة عبر تمييز عنصري لا يتصور، إذ كانوا ملزمين بمغادرة المدينة قبل أن تقفل أبوابها عند المغرب[1]. كان للعرب المختارين فقط حق الاقامة، لكنهم كانوا مثل الآخرين وعلى حد سواء، خاضعين لنظام الرقابة والارهاب. فيذكر لنا بحشل أن الحجاج وضع الحرس على كل باب من أبواب السور ويذكر لنا أيضاً أن العرب كانوا يدخلون المدينة عند المغرب فيما يخرج منها أهل السواد[2]. إذ لا حق لهم بالمبيت فيها.

وهكذا نجد في المشروع الحجاجي لواسط ارادة واضحة لاقصاء الغير، وهذا ما أضفى على واسط مظهر المدينة المغلقة الخاضعة للرقابة، ومثل هذه النية تبرز في مخطط المدينة المدورة، لكن الكوفة والبصرة لم تتصفا بهذا المظهر، ما عدا بعض الفترات الخالية من الارهاب. ولقد قيل إن أفصح العرب أقاموا بواسط لنقائهم العرقي، وفي مكان آخر إن أهل الكوفة اختلطوا بأهل السواد وأهل البصرة في الخوز[3]، وهذا دليل على عمق المبادلات بين المصرين ومحيطهما البشري. وقد برزت سياسة التعسف الاستثنائية التي توخاها الحجاج في نهب زخارف العمارة بالمدن القريبة، لا سيما أبواب الحديد بمدينة زند ورد والدوقرة، ودير ماسرجيس وسرابيط، كما تناقلته الروايات[4]، واستقدمت لتركيب أبواب واسط، وأعيد استخدامها في بغداد من قبل المنصور[5]. لكن هذه السياسة التي توخاها الحجاج جاءت معاكسة للتيارات المتجهة إلى الاختلاط ولحركات النزوح الريفي إلى المدينة، ولذا جرى العدول عنها بعد موته[6]. ولئن ظهرت الكوفة بمظهر النموذج على صعيد العمارة للنواة المدنية فإن واسط اختلفت عنها جذرياً، على الصعيد البشري والثقافي، وقد ترجم ذلك من حيث العمارة إلى تعارض دامغ في واسط، بين مركز سياسي - ديني عظيم وحزام سكني - متركب من محلات - هزيل فعلاً[7]. وعندما «تمدنت» البصرة والكوفة بانتفاء الصفة العسكرية عنهما، تم ظهور واسط كمركز استيعاب لجيش الاحتلال الشامي، معوضة الكوفة والبصرة في اختيارهما الحربي السابق، لكنها وقفت نفسها على خدمة دولة وخصوصية سياسية معينة.

---

(١) تاريخ واسط، ص ٤٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ٤٦.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٨٩؛ ياقوت، معجم البلدان، مادة «واسط»، ج٥، ص ٣٤٩؛ الخطيب، تاريخ بغداد، ص ٧٥.

(٥) الخطيب، تاريخ بغداد، ص ٧٥.

(٦) معجم البلدان، مادة «واسط». لكن تاريخ واسط يذكر أن التمييز العنصري استمر حتى زوال الدولة الأموية: ص ٤٦.

(٧) تاريخ واسط، ص ١٢، ١٤٠.

- ٢٥ -

الكوفة وبغداد

سبق أن اقترحنا وجود تسلسل مزدوج بين الكوفة وبغداد، بداية وأصلاً عن طريق تدخل واسط وثانياً بالعودة المباشرة إلى التصور الحضري الكوفي بصورة شاملة وتفصيلية. لكن بمفعول العودة يتبين تأثير بنية بغداد على الكوفة وهي ما زالت في حالة تطور.

لقد ألح التقليد الاستشراقي مدة طويلة على الطابع الفارسي الذي طبعت به بغداد[١]، وهو أمر واقع لكنه يبدو ثانوياً. واليوم أكثر من أي وقت، تفرض نفسها على المؤرخ فكرة الاستمرارية الهيكلية بين الإرث الأموي والانشاءات العباسية الأولى، لكن مع وجود انفصام معين. وفي الجملة فقد جمعت بغداد ـ طبق نظام زمني معكوس ـ بين واسط والكوفة، وتجاوزتها في آن.

كانت الكوفة عاصمة إدارية للعباسيين قبل سنة ١٤٩ هـ/ ٦٧٢، لأنها اشتملت على الدواوين المركزية[٢]. وكانت العاصمة السياسية تتجسم قطعاً في المدينة حيث يقيم الخليفة في تنقلاته المختلفة، ولاسيما مدينة ابن هبيرة في خلافة المنصور[٣]. لكن هذه المدينة

---

(١) Streck, *Die alte Landschaft Babylonien*, p.56؛ وانظر أيضاً: Creswell, *Early, Muslim Architecture*, II, pp.18-21. الذي ألح خاصة على التصميم المستدير وجعل منه نسخة من درابجرد وغور وطيسفون. وقد لاحظ صالح أحمد العلي التشابه بين المدينة المستديرة المحصنة والقهندزات الفارسية: انظر: Hourani-Stern, *The Islamic City* p.93؛ في حين أن لاسنر نازع في كل فكرة لتسلسل الفارسي: Lassner, *op.cit.*, pp.132-133. لكن صالح العلي أكد الاستمرارية مع الأمصار في مستوى الهياكل الإدارية والبشرية فيما يكرس لاسنر النموذجية الامبراطورية لمدينة طيسفون ـ سلوقية المتوأمة. إن التصميم المستدير وجد منذ القدم في وادي الرافدين. لكن الاستدارة لم تكن منتظمة تماماً. وقد انفردت مدينة زنجرلي (آخر الألفية الثانية) بالصفة الدائرية الكاملة، وكانت تقع بأعلى الشام. ولقد بني كثير من المدن الدائرية بعد سقوط امبراطوريتي بابل وسلوقية؛ انظر: Oppenheim, *op.cit.*, p.146.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٩٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٨٥. سماها كذلك «المدينة الهاشمية». الواجب تمييزها عن هاشمية أخرى قريبة منها كما =

الأخيرة كانت مصطنعة الانشاء، وكانت تقابل الكوفة وتستقبل منها قسراً كافة التأثيرات [1]. وقد روي أنَّ بغداد تقرر لها التمتع بموقع أفضل من موقع الكوفة. على أن الموقع لا يمكن اعتباره إلا عن طريق الغايات التي يختارها المؤسسون، وليس في حد ذاته. كانت الكوفة أحسن موقعاً ضمن تشكيلة مد[illegible] [illegible] بطريقتهم ما كان لـ[illegible] مفتوح من [illegible]. كانت الكوفة تستجيب لتخوفهم تجاه الأهالي وتربصهم بالوطن الأ[illegible]. وقد استجابت بغداد بدورها إلى تمثل جديد للفضاء والـ[illegible] الذين تكونت منهم الامبراطورية[2]، وقد ارتبطت بغاية أخرى تخالف غاية عمر. وظهر في إنشاء بغداد الطموح إلى الجديد، ورمزية الجدة، ومعنى الامبراطورية وعزتها، كما برز تصور حديث للموقع الهندسي الذي كان لهذه الأمبراطورية[3].

فما هي العناصر الرئيسية التي تركبت منها بغداد في خلافة المنصور؟ كان للمدينة المستديرة مركز، حزام سكني، وأسوار متشعبة[4]. وقد امتدت منذ البداية إلى أراض قامت خارج الأسوار[5].

وكما حدث بالكوفة وواسط، فقد حدد المركز المساحة العمومية حيث يوجد القصر والجامع الأعظم، وقد كان القصر كذلك أوسع من المسجد[6]. كما أن هناك داراً للشرطة وبعض البنايات الادارية الأخرى وكما هو الشأن بالكوفة أيضاً، فإننا نجد حزاماً سكنياً يحيط

= ينبغي التمييز بين قصر ابن هبيرة ومدينة ابن هبيرة. ويرى الطبري أن المنصور هو الذي أنشأها وهي تقع إلى جانب مدينة ابن هبيرة دون أن تكون قد انصهرت فيها: تاريخ، ج ٧، ص٦١٤.

(١) فتوح البلدان، ص ٢٩٠؛ الطبري، ج٧، ص ٦١٤ ـ ٦١٥.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٧، ص ٦١٦ ـ ٦١٧؛ اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨. ورد في الكتابين خبر أصلي واحد عن بغداد كمفرق للطرق، لكن الطبري يلح على ما كان لوضعها من قيمة استراتيجية بينما يبرز دورها التجاري في كتاب البلدان لليعقوبي.

(٣) Lassner, *ouvr.cit.*, pp.131-132.

(٤) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٢٣٨ ـ ٢٤١؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ص ٦٩ ـ ٧٩؛ ابن الفقيه، بغداد مدينة السلام، نشر صالح أحمد العلي وهو القسم المتعلق ببغداد اعتماداً على مخطوطة مشهد، ص ٣٣. أوضح لاسنر جيداً هذه البنية الثلاثية، Lassner, *ouvr.cit.*, p.142.

(٥) الخطيب البغدادي، ص ٨٣ ـ ٩٩؛ كتاب البلدان، ص ٤٦: من الواضح أن الأرباع قسمت الارباض الخارجية إلى خطط مربعة الزوايا. والأرباع لا تهمّ الدائرة الداخلية كما ورد في كتب التاريخ الحديثة، انطلاقاً من هرزفلد، حتى صالح العلي ولاسنر اعتماداً على الطبري وحده: تاريخ، ج٧ ص ٦٥٢. على أنه من الممكن أن تكون الأرباع الخارجية امتداداً للأرباع الداخلية إن وجدت.

(٦) قياس القصر المذكور هو ٤٠٠ ذراع للضلع و ٢٠٠ ذراع لضلع المسجد لا غير: الخطيب ص ١٠٧؛ Lassner, *ouvr.cit.*, pp.136,189. Creswell, *Short Account*, p.179

بالمساحة العمومية وتخترقه السكك المختطة اختطاطاً هندسياً[١]. إن تقسيم المدينة المستديرة إلى منطقتين مجاليتين ـ أي المساحة العمومية ومساحة للاقامة ـ يظهر استمراراً ممتازاً لتركيبة الكوفة. وقد ذكرنا أن هذا التطور ظهر أول ما ظهر بالكوفة، وما يلفت النظر أن كل من درس وضع بغداد، بداية من لاسترانج Le Strange حتى لاسنر، مروراً بهرزفلد Herzfeld وكرسويل وعبد العزيز الدوري وصالح العلي، لم يهتموا بمصير الحزام السكني داخل أسوار المدينة أو أنهم لم يفكروا في اعتباره عنصراً حاسماً للبنية المدنية الاسلامية في حد ذاته أولاً وفي كونه يتعارض مع المركز السياسي ـ الديني ثانياً. فلو أراد المنصور بناء قلعة فحسب أو «مقراً شخصياً» لما أقيمت هذه المنطقة السكنية وهذه السكك وعددها ٤١ كما ذكر ذلك اليعقوبي[٢]. صحيح أن رقة الحزام ـ من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ متر عمقاً.. أي ما يعادل طول الطاقات ـ لا تؤيد ما كان يتوقع له من أهمية[٣]. وصحيح أيضاً أن الاقطاعات التي منحها قادة الجيش خارج المدينة المستديرة، وكان ذلك منذ البداية فيما يظهر، تدعو إلى القول أن الاسكان تمّ تصميمه خارج المدينة.

على أن المساحة المخصصة للسكن داخل المدينة مهما صغرت، فإنها تؤيد التصور المدمج للحاضرة على النمط الكوفي، لأن المركز مهما كان متفوقاً، فإنه لا يبتلع المكان كله. إن وجود مثل هذا الحزام ـ زيادة على بنية المركز نفسه من جامع وقصر ورحبة ـ يحملنا على الاعتراض على تصور المدينة ـ القصر، ويطرح استمرارية أساسية مع الأمصار.

في حين أن لاسترانج[٤] اعتمد بصراحة المعطيات التي ورد ذكرها لدى اليعقوبي والخطيب البغدادي فوزع على المركز البنايات الادارية ودور أبناء الخليفة، نجد أن لاسنر قد تصور تصميماً آخر تماماً. هو أخرجها من المركز وضمها إلى مساحة السكن فشيد حلقة إضافية وترك فراغاً بينها وبين القصر[٥]، معتمداً ما ذكره الطبري لا غير[٦]، بخصوص

---

(١) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٢٤٠؛ الخطيب، ص ٨٩؛ Herzfeld, *op.cit.*, II, pp.103ff.; Reitemeyer, pp.55-58. ولم يتحدث لاسنر عن ذلك قط، ولم يقل عنها صالح العلي إلا القليل، بحث مذكور، ص ٩٤.

(٢) كتاب البلدان، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١. ابن الفقيه يسمّي السكك شوارع غلطاً: بغداد مدينة السلام، ص ٣٦. يبدو أن ما ميز المدينة المستديرة هي السكك. أما الطرق فهي تواجه المحاور الخارجية الكبرى التي تنطلق من الدروب: كتاب البلدان، ص ٢٤٠؛ الطبري، ج٧، ص ٦٥٤.

(٣) Lassner, *Ouvr.cit.*, p.145; Creswell, *Early Muslim Architecture*, II, p.13.

(٤) *Baghdad, during the Abbasid Caliphate*, pp.14,15. وقد تجاهل ذلك هرزفلد وكْرِسويل.

(٥) Lassner, *ouvr.cit.*, pp.144-146, 207.

(٦) التاريخ، ج٧، ص ٦٥٦.

بيوت القادة، التي كانت تنفتح على الرحبة ،ولا سيما إشارة وردت في كتاب البلدان[1] جاء بها:

«وليس حول القصر بناء ولا دار ولا مسكن لأحد إلا دار من ناحية باب الشام للحرس وسقيفة كبيرة. . .، وحول الرحبة كما تدور منازل أولاد المنصور الأصاغر ومن يقرب من خدمته من عبيده وبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند وديوان الحوائج وديوان الأحشام ومطبخ العامة وديوان النفقات». هذا نص هام دون شك، والغريب أنه لا هرزفلد ولا كرسويل اعتمداه في تخيلهما لتصميم مخطط المدينة المستديرة، لكن لم يكن الأمر على هذا النحو بالنسبة للاسترانج[2]. فهو يوزع هذه البنايات بين القصر والحزام السكني، تاركاً فسحات بينها ومحترماً الطابع الواضح للرحبة. الواقع أن تصميمه يستجيب أكثر لمجموع المعلومات التي توفرت لدينا، مما تستجيب لذلك الحلقة الاضافية التي تصورها لاسنر. وما قدمه هذا الأخير من حجج لم يكن مقنعاً، بما فيها قصة عيسى بن علي[3] التي لا تدل إلا على أن الرحبة كانت حيّزاً كبيراً للسير على الأقدام بالصورة نفسها التي بقي ما قاله اليعقوبي غامضاً. كان المجال المركزي واسعاً فعلاً: كان قطره يتراوح بين كيلومتر وكيلومترين حسب التقديرات ولذا، يمكن تصور القصر والمسجد منعزلين تماماً دون إضافة حلقة أخرى مفردة لا بد أن تكون المصادر قد أشارت إليها لو كانت موجودة حقاً. فضلاً عن أن مقر المصالح الادارية كان في كل زمن بالمركز العمومي سواء في الكوفة أو البصرة أو واسط والأكثر أن يكون في القصر ذاته أو إلى جواره. لكن بخصوص المدينة المستديرة فإنه ينبغي ابعادها كما أكد ذلك اليعقوبي ولأنه أكد الأمر، دون إقصائها عن المركز الذي من وظائفه أن يتقبل وجود هذه المصالح. وبالفعل فإننا نستعين في مثل هذه الصورة، بمعرفتنا بالكوفة الأولية وبتلك البنية الحضرية الموظفة التي استنتجناها، وهي تسمح لنا بأن نحسم في اتجاه المصداقية. على أن الرحبة لا تغطي المركز كله إلا على سبيل المجاز. إن المقصود بالتحديد من هذه الكلمة هو المجال المحيط بمركّب القصر والمسجد، والذي يفصله عن قطائع السكني. وكما كان في الكوفة، لكن بصورة أعظم، أصبحت هذه الرحبة «رحبة المسجد» بعد ذلك[4] ممددة إياه، واستخدمت للصلاة في الهواء الطلق (أي كمصلى). وتؤيد كل هذه

---

(١) كتاب البلدان، ص ٢٤٠.

(٢) Le Strange, *Ouvr.cit.*, pp.14-15.

(٣) الطبري، ج٧، ص ٦٥٢: كان عيسى يريد الحصول على اذن بألا يستمر في عبور الرحبة راجلاً .وقد حدث ما يشبه ذلك في الكوفة: انظر ما سبق ص ١٠٨. والمهم أن نلاحظ أن الفصائل صممت لتوصل مختلف أجزاء مساحة السكن.

(٤) هكذا يسمّيها الطبري منذ بدء إنشائها: ج٧، ص ٦٥٢، ويحتمل أن يكون ذلك إسقاطياً يعود إلى الماضي. لكن الأمور تزيد وضوحاً في القرن الثالث: المرجع نفسه، ج٩، ص ٣٥٨.

الأسباب فكرة تعمير المركز بواسطة البنايات الادارية، وإلا كان ساحة شاسعة خالية أو يكاد. إن هرزفلد يقدر قطر المدينة المدورة بـ ٢٦٨٠ متراً[١]: لكن تصعب الموافقة على هذا الرقم لأنه يزيد من الاختلال بين المركز والحزام السكني الذي كان عمقه هو عمق الطاقات فعلاً (٥٣٨ ذراعاً= ما يقرب من ٢٩٠ متراً، وهناك زيادة طفيفة بإضافة الطاقات الصغرى)[٢]. ويقترب عمق مركبات المداخل المنتهية حيث تبدأ الرحبة من ٧٠٠ ذراع (= ٣٧٠ متراً) إذا جمعنا العناصر المكونة لها[٣]. الأمر الذي يجعل قطر المركز يتجاوز ألفي متر، ٥٠٠ رقم لا يمكن الموافقة عليه، كما لا يمكن قبول التقدير القصير (حيث يساوي القطر الكامل ٦٠٠ متر)[٤]، مما يضفي مصداقية على رقم الميل الواحد (كيلومتران) الذي ذكرته المصادر[٥]. وحتى في هذه الصورة يبقى المركز أعظم من مركز الكوفة، لكن التخطيط لمثل هذه البنية سابق الوجود في واسط. وفي بغداد بالذات وقع التعويض عن نحافة الحزام السكني بالقذف بأرباض السكنى خارج المدينة، ولئن كانت منطقة السكنى مشلولة نسبياً فإنها حافظت على تصور الحاضرة الكاملة وكانت امتداداً في بنية الأمصار السابقة. من كان يقيم فيها؟ نجد بها قادة الجيش وموالي المنصور، ولم يقم فيها الـ ٤٠٠٠ من حرس المداخل،

---

(١) *Archaeologische Reise*, II, pp.108ff، وهو يعتمد في ذلك اليعقوبي في كتاب البلدان. ص ٢٣٨، حيث ذكر قطراً يساوي ٤٥٠٠ ذراع سوداء، ابتداء من خارج الأبواب.

(٢) الرقم الوحيد المتوفر لدينا هو ما يذكره الخطيب البغدادي، مرجع مذكور، ص ٧٦. لقد خص الطاقات بطول يساوي ٢٠٠ ذراع أي ١٠٨ من الأمتار، لكن هذا الطول يقف عند الرحبة التي تفتح على الطاقات الصغرى والتي ليست الرحبة المركزية، إلا أن هرزفلد (*op.cit.*, p.129) وكرسويل (*op.cit.*, p.16)، لم يوافقا على هذا الرقم مقترحين ٥٣٨ ذراعاً: ٢٩٠ متراً، عملاً بالأقيسة المحتملة للحجرات. هذا رقم يجانب الصواب، وإلا فإن الحزام السكني يتقلص بصورة تبعث على السخرية. أما عن الطاقات الصغرى، فنجهل كل شيء بشأنها. وكان لاسنر محقاً حين خصها بوجود حقيقي. ويكون الفضاء التكميلي الموجود بين الطاقات الكبرى والرحبة الكبرى يساوي ١٠٠ ذراع على الأقل، عملاً بالتصميم الذي تصوره ص ٢١٣. ويمكن ضرب هذا الرقم على اثنين أو ثلاثة حسب عدد الطاقات الصغرى كما جرى تصوره. ويتميز افتراض لاسنر بأنه يزيد من سمك المساحة العادية المخصصة للإقامة ومن واقعها. وبما أن هذه المساحة زاد عمقها، فهي تؤيد فكرة المدينة المندمجة المربعة.

(٣) الخطيب، ص ٧٤؛ Creswell, II, p.13؛ Lassner, p.200.

(٤) يرى صالح العلي، بحث مذكور ص ٩٣، أن ألف ذراع تعادل ٦٠٠ متر، وهو خطأ لأن الذراع العباسية السوداء المستخدمة في هذا الصدد، تعادل ٥٤ سنتيمتراً. راجع: Hinz, *op.cit.*, pp.55,61. ولا نتهم كذلك .... اعتمد لاسنر في حساباته الذراع الشرعية وهي تقدر بـ ٤٩,٨٧٥ سنتيمتراً: Lassner, *op.cit.*, p.209. ... ولا نجد عند الخطيب البغدادي التقدير الموافق لألف ذراع، الذي اقترحه العلي، مع أن الخطيب يورد أربعة تقديرات هي ٦٠٠ ذراع من باب الشام إلى باب البصرة، و ٨٠٠ ذراع من باب خراسان إلى باب الكوفة، ص ٧١، وميل واحد، ص ٧١، و ٢٢٠٠ ذراع، انظر ص ٧٣.

(٥) الخطيب، ص ٧١؛ ووافقه هرزفلد (*op.cit.*, p.21) وكريسويل (*op.cit.*, p.10) في ذلك.

كما يحمل الأمر على الاعتقاد لأن أكثرهم كانوا يقطنون في الطاقات حيث كانوا من جند الحامية لا غير[١]. لكن هنا عنصر هام يميز فيما يبدو المدينة المستديرة عن الكوفة: إنه فقدان الأسواق في المساحة العمومية. كان وجودها في المرحلة الأولى قد تأكد في الطاقات[٢] ثم استقرت في مرحلة ثانية في الكرخ خارج المدينة[٣]. صحيح أن هذه الممايزة في هذه النقطة المهمّة فعلاً قد تؤيد بخصوص بغداد المنصور صورة المدينة الملكية والادارية، أو التي صارت ادارية بصورة متزايدة. على أن الطاقات التي لم تقع بالمركز من حيث المجال، تابعة للمجال العمومي لا للمجال السكني الخاص، من حيث الوضع المؤسساتي وليست لها صبغة الاقامة، فضلاً عن إمكانية وجود الأسواق في هذا المكان بسبب قرار نقل، لا منذ البداية، لو صدقنا رواية أوردها الخطيب تحمل على الظن أن الأسواق كانت موجودة في بداية الأمر غير بعيد عن القصر أي في المركز[٤]. الواقع أن تنقلات الأسواق تكشف عن التردد العميق الذي كان عليه المنصور بخصوص رؤيته لغائية انشائه الجديد، أو على الأقل مقاومته لجاذبية النموذج الكوفي حيث بقيت مركزية الأسواق مكسباً جوهرياً. ولا شك أنه كان يريد في البداية مدينة «ملكية»، لكنها تامة. ولا شك أنه غير من تصوره بعد ثورة ابراهيم بن الحسن دون أن يستطيع المساس بالمخطط الأول للمدينة المستديرة. فقرر افساح المجال لإقامة جيش دائم قوامه ٣٠,٠٠٠ رجل[٥] وقرر عندئذ منح القطائع والأرباع خارج الأسوار، فتحولت بسرعة كبيرة إلى أرباض. وتم الانتقال من الوحدة المدنية المغلقة إلى المجموعة المدنية المركبة، أي إلى المنطقة ـ المدينة؛ إنه لانتقال حاسم إذ برز معه الثنائي

---

(١) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١؛ الخطيب ص ٨٩ و ٧٧؛ العلي، بحث مذكور ص ٩٥؛ Lassner, p.145.

(٢) الخطيب، ص ٨٠.

(٣) الخطيب البغدادي، ص ٧٩. يرى لاسنر (*op.cit.*, pp.147-148)، إن الانتقال إلى الكرخ لم يكن من باب الصدفة، إذ لعل الكرخ كان السوق القديمة التي سبقت الإسلام في بغداد، ولعلها استقرت نواة من العمران خارج الحوزة، أثناء بناء المدينة المستديرة، فلم يعمل المنصور إلا على إعادة تطوير هذه المنطقة.

(٤) الخطيب، ص ٧٨، لكن قصة البقرة المتنقلة في الأسواق والتي كان خوارها يبلغ مسامع الخليفة ليست مقنعة كل الاقناع، إذ كان في إمكانه الإقامة بمدخل الأبواب أي غير بعيد عن الطاقات. لكن ما يعني الخطيب بقوله «السوق العتيقة»؟ مرجع مذكور، ص٩٠. إن أوضح الخطيب، ص ٨٠، ان الأسواق كانت تقع في الطاقات بعد الانتهاء من بناء المدينة مباشرة، فإن الطبري يؤكد أنه لا مراء في أنها نقلت عند غلق المنافذ بين الحزام السكني والمركز: التاريخ، ج٧، ص ٦٥٢ ـ أي في مرحلة تالية. واعتمد لاسنر (*op.cit.*, p.145) هذه الإشارة مدعياً أن الأسواق تسببت في نقل حراس الأبواب من أماكنهم، دون الاستناد إلى أي مصدر.

(٥) الطبري، ج٧، ص ٦٣٨ ـ ٦٣٩. تصور العلي المشكل جيداً: بحث مذكور، ص ٩٣. وما ذكره الطبري بخصوص بناء بغداد اعترضته رواية ثورة إبراهيم وكأن الأمر حدث قبلها وبعدها.

الإسلامي المتركب من المدينة والأرباض. واتضح مفهوم المدينة بوجود بغداد في العمران الإسلامي[١]، مع أنه استمد وجوده من الازدواج الفارسي الواضح القائم بين الشهر والبيرون[٢]. إن الكوفة على العكس مدينة مفتوحة لا وجود فيها للأرباض كوحدات خارجية تقابل وتمدد كياناً مدنياً متراصاً شديد التمييز. وقد تكونت الأرباض فيما بعد وطبق نموذج بغداد - وهذا تأثير انعكس من بغداد على الكوفة - باصطفاء المركز والحزام السكني الأقرب[٣] (الموافق للخطط القديمة)، وفصلها عن المناطق المحيطة التي استمرت تمتد، وتجسم الانفصال ببناء الأسوار سنة ١٥٥ هـ/٧٧٢ ببادرة اتخذها فعلاً المنصور.

لكن الأسوار كانت جزءاً أساسياً في تشكيلة بغداد، ولم تكن مقررة فقط لتمييز المدينة عن الأرباض. لقد لعبت هذا الدور بعد ذلك حين تشكلت وحدة الكيان البغدادي. ومن العسير تبين وظيفتها الأصلية. فهل كانت لأسباب خاصة بالأمن؟ لكنها تكون في هذه الحالة قد بنيت لدرء أخطار الثورات الداخلية أو كانت رمزاً لتعالي السلطة التي أرادت الانفصال عن الأهالي؟ أو هل أنها عادت إلى العمل بتقليد تشييد المدن على النمط الفارسي، المسبوق بالتقليد الآشوري البابلي؟ الملاحظ في هذا الصدد أنه كان لواسط خط مضاعف من الأسوار، فلا لزوم للرجوع إلى التقليد الفارسي. فقد انفصلت واسط فعلاً عن النموذج المفتوح للامصار بفضل سورها، فاكتست بهذه الكيفية طابع السجن أو الثكنة الذي كان كثير الوضوح في مظهر المدينة المستديرة حيث لا يوجد اتصال بين المركز ومساحة الحزام السكني مباشرة. بل كان عليه أن يمر بالفواصل ثم بمركّبات الأبواب التي كانت عبارة عن معابر شديدة الحراسة. كانت المدينة المستديرة بتصورها الأول، قبل أن يقيم الجيش في محيطها، أي قبل أن تتحول إلى «مدينة»، قد استهدفت من سورها إبعاد واقصاء العالم الخارجي فقط، ذاك المحيط الزاخر بالعجم. في حين انفصلت الكوفة عنه بواسطة النهر أي بوقوعها على حافة العالم العربي الأصيل، خارج العراق تقريباً. وكلما تقدم العرب إلى قلب وادي الرافدين ازداد ارتفاع أسوارهم. وقد صاحب هذا التقدم مسيرة إلى غابر الزمن، فنتج عنها تجديد العهد بالحضارات القديمة ومحاكاتها. كانت عودة غير واعية

---

(١) شكلت المدينة ما كان داخل الأسوار لا سيما السور الثاني الذي سمي سور المدينة فعلاً: وهناك ملحوظات دقيقة في كتاب البلدان، ص ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٢، وفي كتاب الخطيب، ص ٧١ و ٧٣ و ٧٤ و ٧٦، عن مفهوم المدينة كفضاء مغلق يقابل الأرباض بالخارج.

(٢) Aubin, «Eléments pour L'étude des agglomérations urbaine dans L'Iran médiéval» dans Hourani-Stern, *The Islamic City*, p 72.

(٣) ظهرت كلمة مدينة وربض بالنسبة للكوفة أول ما ظهرت عند رواية ثورة شقيق أبي السرايا سنة ٢٠٢ هـ: الطبري، ج٨ ص ٥٦٠ - ٥٦١.

لا محالة، ازدوجت بعوامل ملموسة تماماً: تسرب العناصر الأعجمية بالتناضح البطيء، وتطور السلطة وتطور المجتمع الشامل في علاقاته مع السلطة. فحتى مع العباسيين القريبين جداً من الخراسانيين، بقي عالم أهل السواد العالم الغريب، الخاضع، الأهلي، المحتقر احتقاراً عميقاً، وقد حاصروا المدن بحضورهم القريب جداً، وأثاروا ردوداً دفاعية خيالية صرف. وهكذا فمن الكوفة إلى بغداد مروراً بواسط امتدت الرؤية الحضرية العربية وتحولت في آن. وقد استمرت واسط في بغداد بوضوح. أما بالنسبة للكوفة، فقد انفصلت بغداد عنها من عدة جوانب، وتمادت فيها من جوانب أخرى. انفصلت بغداد عن روح الصحراء التي كانت حية جداً في الكوفة، والتي جعلت منها مدينة مفتوحة ـ ما عدا فترات الارهاب. وعادت بغداد إلى النموذج الكوفي بواسطة تصور المركز أصلاً والمدينة بصفتها مركزاً ومساحة سكنية، لكن مع رفض مركزية الأسواق وهذا يمثل خروجاً على التقليد الكوفي والإسلامي معاً[1]. وأخيراً فقد أثرت على الكوفة رجعاً وحثت على ظهور الثنائية الكلاسيكية بين المدينة والأرباض، وهذه كيفية لمراقبة انفجار النواة الحضرية. كان انفجاراً سريعاً مذهلاً بخصوص بغداد. ولا شك أنه يجب تكريس الفرق الكيفي في هذا الصدد، القائم بين بغداد والأمصار القديمة بحيث نلحظ تركيزاً أقوى لامكانات الامبراطورية على صعيد أسمى لبناء الحضارة الإسلامية. فبين ضخامة حجم بغداد الكبيرة[2] وسامراء، والحجم المتوسط الذي كانت عليه الكوفة والبصرة، وبين السرعة الخاطفة للنمو من جهة وبطء التجربة من أخرى، يتبين الفارق نفسه الذي وجد بين الحاضرة الهلينستية (الإسكندرية مثلاً في عصر بطليموس فيلادلفوس عند عظمة تتويجه)، وبين حاضرة يونانية من العصر الكلاسيكي (أثينا في القرن الخامس). لكن عمل احتضان الأمصار الذي استمر وجوده يتراجع طيلة قرن ونصف، هو الذي قامت عليه حضارة بغداد. والمفارقة في هذا الصدد أن هذه المدينة الحبيسة، كما كانت في بداية الأمر داخل أسوارها بقرار من السلطة، قامت بتفجير الأسوار لتصير حاضرة مفتوحة لكل التيارات. في حين أن الأمصار التي كانت مفتوحة بطبيعتها، زرعت الهوية الثقافية وحفظتها.

---

(١) أثار لاسنر في هذه النقطة نقاشاً مع ماسينيون، لكن مركزية الأسواق محتملة على مستوى الحاضرة كافة، انظر: Lassner, *op.cit.*, pp.173ff

(١) في حين كانت المدينة المستديرة تغطي مجالاً يقدر بـ ٤٥٣ هكتاراً، وهذا يمثل حسب رأيي أقيسة الكوفة الأولى في العصر الأموي؛ كانت مجموعة بغداد في خلافة الموفق (٨٩٠ ب. م.) تقيس ٧ كيلومترات في ١٠ كيلومترات. ويبدو أنها بلغت مساحة تقدر بـ ٧٠٠٠ هكتار: Lassner, *op.cit.*, pp.157,169. الحقيقة أن الكوفة غطت في العصر ذاته مساحة تُقدر بـ ١٦,٧٥ ميلاً مربعاً، واشتملت على ٨٠٠٠٠ دار: ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٤٩٢، وأن حفوفها الأثرية التي تعود إلى القرن الثالث الهجري، كانت عظيمة (١٥كم × ٩كم): الجنابي، ص ١٥٩. وإني أرى أنه بالغ في توسيعها.

خاتمة

الوجه المدني للكوفة
- مصير الكوفة وهويتها -

لا تنتهي أية مدينة من بنائها الذاتي وهدمها الذاتي أبداً، ذلك أن نبضات حياتها ترتبط بالمادة البشرية الموجودة داخلها، وبالمد البشري المحيط بها، كما ترتبط بوتائر التاريخ الكبرى بالمقدار ذاته، حيث المستوى السياسي يثبت أحياناً قدرته على الهيكلة بصورة خاصة. فهو قادر بقرار بسيط على تغيير المظهر الاجتماعي والمظهر المدني إلى أجل. لقد نشأت الكوفة عن قرار اتخذه سعد، وعمر أيضاً على مستوى أعلى. ورغم ما انتاب العصر الأموي من هزات، وتغييرات، فقد ساده انسجام كبير. وكان للتحول العباسي الذي حدث في الوقت المناسب، تأثير ووزن كبيران على مصير المدينة.

وقد سبق أن أشرنا إلى الطابع الممتاز الذي اتصف به العصر الأموي، ويجب التأكيد على كلاسيكية معينة داخل هذا العصر، ارتبطت بفترة حبلى بالأحداث، بدأت من سنة ٦٠ هـ وانتهت في سنة ١٢٠ هـ، حيث اتجهت المدينة إلى نحت أدل تعابيرها، فأوحت بانطباع التماسك واتخذت شكل إطار قار للحياة الجماعية، وقد داخلتها قطعاً بعض الاضافات والتحويرات والاستكمالات.

لو رمنا تجميع الكيان الكوفي في صورة وصفية وظيفية، والقيام بقطع جانبي عبر العصر الأموي وهو العصر الأكثر تعبيراً لوجب التذكير بالثنائية الأساسية بين المركز والخطط، التي تضاف إليها أجهزة الأطراف الأساسية الموجودة بالمدينة وخارجها. على هذه القاعدة التفكيكية ضمن ثلاثية منقوصة، يهمنا أن نؤكد وحدة المجموع، وتكامل المجموعات الفرعية وكذلك تشعب الأجهزة وتنوعها. إذ لدينا من جهة دائماً مساحة عمومية تتركز فيها أهم الوظائف السياسية والدينية والعسكرية المتداخلة لحدئذ، ومن جهة أخرى الخطط، وهي عبارة عن أماكن قبلية وطوبوغرافية مخصصة للسكن. فضلاً عن أن المركز يتحمل هو أيضاً وظيفة السكن إذ تضمن دوراً كثيرة للاشراف، وخطط بعض العشائر

كعبس والأشاعرة بصورة استثنائية، علاوة على أن الخطط تتحمل على عكس ذلك وظائف عسكرية قائمة على دور السكك والجبّانات، وهذا تراكب تنويعي. ويتضح الثراء الممتاز في الأجهزة والعناصر المكونة للمركب المدني كله. فتجاوزاً للتقسيم الثنائي أو الثلاثي - إلى مركز وخطط ومحيط يستثني الضاحية - نلاحظ وجود تعددية وتنوع كبير في الأجهزة والمواضع من قبيل: المسجد الجامع والقصر ومساجد العشائر والجبانات والصحاري والأقنية والحمامات والسكك والأزقة والكنائس وأماكن العبادة في الهواء الطلق (مصلى خالد) ودور الاشراف، وأيضاً دور لعامة الناس وهي البيوت، ودار الروميين، ودار الضيافة، والأسواق المركزية، والكناسة والسبخة ودار الرزق، وجسر السفن والقنطرة، والرحبة التي صارت امتداداً جزئياً للمسجد الجامع في ولاية يوسف بن عمر. وفي الجملة هو عالم مدني مهيأ مركّب بعيد عن كل التصورات المقامة على فكرة البساطة البدائية، سواء صحت أو كانت محض خيال. لا شك أن هذا التطور في سبيل التنوع حدث بدافع الاحتياجات، كما حدث بفضل القوة الخلاقة المنطلقة بصورة طبيعية وبطول المدة في كل مجموعة بشرية تحررت من البحث عن الغذاء. لكن حضور التقاليد الحضارية المتعددة، منها تقاليد كانت موجودة قبل عند العرب ومنها ما استبطنوها، وكذا الدفع من إرادة منبثقة عن حكم مركزي قوي، كل هذا أمر لا يقل حسماً. لقد دام هذا العمل التركيبي العظيم قرناً من الزمن، لكن دون الوصول إلى تأسيس أكثر من هيئة أولية للمدينة الإسلامية ونموذج استبقى منه المستقبل الأشكال الاسلامية أو الشرقية - الإسلامية أكثر مما استبقى الإرث العربي المحض بوجهيه العربي - الشمالي واليمني. وبعد، فإن أهمية الكوفة تكمن، وأكثر من البصرة، في كونها تمثل لحظة عبور وتحول من العروبة القديمة إلى الإسلام المهيكل، هي في الحقيقة لحظة كانت تبحث فيها الحضارة الإسلامية عن نفسها في ظلام الولادة والتكوين. لحظة ذات أهمية مؤكدة بالنسبة للمؤرخ ومحيرة اطلاقاً بالنسبة للخيال العادي.

لم تدمَّرْ الكوفة بيد المغول ولا بحديد تمرلنك وناره، بل دمَّرها النهب الشديد الذي قام به بدو الجزيرة العربية: قرامطة، شمّار، خفاجة. لقد بناها العرب ودمَّرها العرب. إنها بعد الآن مدينة ميتة لم يبق منها سوى بعض الآثار المتأخرة عموماً، لكنَّها عكست قدسيَّتها الشيعيَّة على النجف التي يتقاطر إليها الألوف لزيارة العتبات المقدّسة، ضريح عليّ.

فيا لسخرة التاريخ أو يا للقدر المشؤوم! مدينة يبنيها شعب ويقتلها هذا الشعب نفسه، لا في سورة غضب واهتياج، بل بهجماتٍ خارجية متتالية كما لو كان الأمر متعلّقاً بمدينة أجنبية ومكروهة، يجب نهبها وتحطيمها. وفي هذا جاذبيَّات جيو - بيئيَّة وتاريخيَّة تفتن الألبابَ بتواصلها أو بتكرارها: الصحراء خطر دائم على السهل الطميّ، والقبيلة صارت

مجدّداً العدو المميت للمدينة. إن توحّش البداوة هذا الذي تمعّن فيه ابن خلدون، يكشف عن انهيار أول شكلٍ ارتدته الحضارة العربية والإسلامية: حضارة القرون الخمسة أو الستة الأولى. وصار تاريخ الكوفة تاريخ تحوّلات العروبة بالذات: بادىء الأمر، عروبة منتظمة، منضبطة، شديدة التأطر بالدين الجديد، متمدّنة، منبنية، ثم عروبة منفلتة، حبلها على غاربها، فتيّة، شرسة، هدّامة، لا ميزة لها سوى حفاظها على هويّتها، بينما تأسست عروبةُ الكوفة وكذلك البصرة، على أساس الحضارة الإسلامية بقدر ما غرقت في بلاد رافدين استعربت أو تعرّبت بفضلها. ومنذ أن استبعد العبّاسيون أهل الأمصار من العطاء، نشهد انبثاثاً للحضريين العرب في السّواد، نشهد تريبفهم ودخولهم الكثيف في الحياة التجارية والزراعية. وتالياً تغذّى تعريب العراق من غذاء كوفةٍ متفجرة، كما تعينّ على الثقافة الاسلامية المأثورة جداً، أن تعتاش من جهد شرّاحها ونَحوييها وفقهائها. وعمل الكوفة العسكرية، والمطبوعة أيضاً منذ البداية بطابع مدينة كبرى بتوجهها، حلّتْ في القرن الثاني والقرن الثالث مدينةً مسالمة وثقافية، مطبوعة بالطابع الشيعي في أعماقها الاجتماعية، قبل أن يستوعبها التشيّع استيعاباً كاملاً. والحال، في خضم الحوادث الكبرى، كانت في القرن الأول الممثلة والمسرح الذي نَهَل منه إسلام الفرق معنى لبنائه الذاتي.

مركز الهجرة العربية إلى بلاد الرافدين، موقع أساسي لتثبيت وتوسيع الفتوحات التي ستقوم بتشكيل المجال الإسلامي شرقاً، مختبر تجربة تعايش القبائل العربية المتحضّرة، مشاركة بقوّة في الصراعات السياسية ـ الدينية للإسلام الأول، هكذا كانت الكوفة ما قبل العصر العبّاسي. وهي التي انكببنا على ترميمها في بنيتها الحضرية. يبقى أن يُواصل هذا الجهد بدراسة اجتماعية وسياسية. ولكن، كما رأينا بوضوح، لا يتعلق الأمر بدراسة مدينةٍ ما، بل يتعلق بدرس مدينة نشأت فيها وتحدّدت حضارة كبرى، ولا يتعلق بمدينة مستقلة بل بواحد من أكبر المراكز في امبراطورية شاسعة. وفي كل المستويات، تتماهى دراسة الكوفة مع دراسة الإسلام العربي الذي كانت رمزاً لقوته الاتساعية في زمنٍ أول، ولقدرته على البذل الثقافي والاجتهاد في زمن ثانٍ.

فهرس المصادر والمراجع

١ ـ المصادر

- الأزرقي، **أخبار مكة**، بيروت، [بدون تاريخ].
- الأصفهاني، **كتاب الأغاني**، بيروت، ١٩٥٥؛ القاهرة، ١٩٢٨.
- الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، بيروت، [بدون تاريخ].
- الألوسي، **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**، بغداد، ١٣١٤ هـ.
- ابن أبي حديد، **شرح نهج البلاغة**، القاهرة، [بدون تاريخ].
- ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، بيروت، ١٩٦٥.
- ابن الأعثم الكوفي، **كتاب الفتوح**، حيدرآباد، ١٩٦٨.
- ابن بطوطة، **الرحلة**، بيروت، ١٩٦٠.
- ابن جُبير، **الرحلة**، بيروت، ١٩٥٥.
- ابن حبيب السُكَري، **المُحبَّر**، حيدرآباد، ١٩٤٢.
- ابن حجر، **الاصابة في تمييز الصحابة**، القاهرة، ١٣٢٨ هـ.
- ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، القاهرة، ١٩٦٢.
- ابن خُرداذبه، **كتاب المسالك والممالك**، طبعة جديدة، ليدن، ١٩٦٧.
- ابن خلدون، **مقدمة**، بيروت، ١٩٦١.
- ابن خلّكان، **وفيات الأعيان**، بيروت، [بدون تاريخ].
- ابن دريد، **الاشتقاق**، بغداد، ١٩٧٩.
- ابن رسته، **الأعلاق النفيسة**، ليدن، ١٨٩٢.
- ابن سعد، **كتاب الطبقات الكبرى**، بيروت، ١٩٥٧.
- ابن عساكر، **التاريخ الكبير**، دمشق، ١٣٢٥ هـ.
- ابن الفقيه الهمذاني، **مختصر كتاب البلدان**، ليدن، ١٨٩٢.
- ابن الفقيه الهمذاني، **بغداد مدينة السلام**، تحقيق صالح أحمد العلي، باريس، ١٩٧٧.

- ابن قتيبة، عيون الاخبار، القاهرة، ١٩٢٥ - ١٩٣٠ .
- ابن مزاحم، كتاب وقعة صفّين، القاهرة، ١٩٨١ .
- ابن منظور، لسان العرب، بيروت، ١٩٥٥ .
- ابن النديم، الفهرست، طبعة فلوغل، طبعة جديدة، بيروت؛ ١٩٦٤؛ طبعة ر. تجدّد، طهران، ١٩٧١ .
- ابن هشام، سيرة سيدنا محمد، غوتنغن، ١٢٧٦ هـ.
- أبو داود، سنن، القاهرة، ١٩٣٥ .
- أبو عُبيد بن سلاّم، كتاب الاموال، القاهرة، ١٣٥٣ هـ.
- أبو عُبيدة، كتاب الخيل، حيدرآباد، ١٣٥٨ هـ.
- أبو يوسف، كتاب الخراج، القاهرة، ١٣٥٢ هـ.
- البحتري، كتاب الحماسة، القاهرة، ١٩٢٩ .
- بحشل الواسطي، تاريخ واسط، بغداد، ١٩٦٧ .
- البخاري، التاريخ الكبير، حيدرآباد، ١٣٦١ هـ.
- البغدادي (عبد القادر)، خزانة الأدب، بولاق، ١٢٢٩ هـ.
- البكري، مُعجم ما استعجم، القاهرة، ١٩٤٥ .
- البلاذري، أنساب الأشراف، ج٣، تحقيق محمودي، بيروت، ١٩٧٧
- البلاذري، أنساب الأشراف، ج٣، تحقيق عبد العزيز الدوري، بيروت، [بدون تاريخ].
- البلاذري، أنساب الأشراف، ج٤، تحقيق احسان عباس، بيروت، ١٩٧٩ .
- البلاذري، أنساب الأشراف، ج٤، تحقيق شلوسينغر، ١٩٣٨ .
- البلاذري، أنساب الأشراف، ج٥، تحقيق غويتين، القدس، ١٩٣٦ .
- البلاذري، أنساب الأشراف، مخطوطة المكتبة الوطنية/ باريس ومخطوطة مصوّرة عن نسخة مكتبة السليمانية ومودعة في جامعة باريس الثالثة.
- البلاذري، فتوح البلدان، القاهرة، ١٩٣٢ .
- الجاحظ، البيان والتبيين، القاهرة، ١٩٢٦ .
- الجاحظ، رسائل، القاهرة، ١٩٦٤ .
- الجاحظ، كتاب البلدان، تحقيق صالح أحمد العلي، بغداد، ١٩٧٠ .
- الحمداني، كتاب الإكليل، ج١٠، القاهرة، ١٣٦٨ هـ.
- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، القاهرة، ١٩٣١ .
- خليفة بن خياط، التاريخ، بغداد، ١٩٦٧ .
- الدينوري، الأخبار الطوال، القاهرة، ١٩٦٠ .

- الرازي، تاريخ مدينة صنعاء، الطبعة الثانية، صنعاء، ١٩٨١.
- الزبيدي، تاج العروس، القاهرة، ١٣٠٦ هـ.
- السراخسي، المبسوط، القاهرة، ١٣٢٤ - ١٣٣١ هـ.
- السمرقندي، تحفة الفقهاء، دمشق، ١٩٥٨.
- السمهودي، وفاء الوفا للتعريف بدار المصطفى، بيروت، ١٩٥٥.
- الشابشتي، كتاب الديارات، بغداد، ١٩٦٦.
- الصولي، أدب الكتّاب، القاهرة، ١٣٤١ هـ.
- الطبري، تاريخ الرُسُل والملوك، القاهرة، ١٩٦٠ - ١٩٦٩.
- قُدامة بن جعفر، كتاب الخراج، ليدن، ١٩٦٧.
- الكلبي (هشام)، كتاب النسب، مخطوطة في الاسكوريال.
- المبرّد، الكامل، القاهرة، [بدون تاريخ].
- المسعودي، مروج الذهب، بيروت، ١٩٦٥ - ١٩٧٠.
- المقدّسي، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ليدن، ١٨٩٢.
- وكيع بن خلف، أخبار القضاة، القاهرة، ١٩٤٧ - ١٩٥٠.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، [بدون تاريخ].
- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، القاهرة، [بدون تاريخ].
- اليعقوبي، التاريخ، بيروت، ١٩٦٠.
- اليعقوبي، كتاب البلدان، ليدن، ١٨٩٢

٢ - المراجع

١) المراجع باللغة العربية

- الأفغاني (سعيد)، أسواق العرب في الجاهلية والاسلام، بيروت، ١٩٧٤.
- أمين (أحمد)، فجر الاسلام، القاهرة، ١٩٢٨.
- أمين (أحمد)، ضحى الاسلام، القاهرة، ١٩٣٨.
- البراقي (الحسن بن أحمد)، تاريخ الكوفة، الطبعة الثانية، النجف، ١٣٥٦ هـ.
- الجنابي (كاظم)، تخطيط مدينة الكوفة عن المصادر التاريخية والأثرية، بغداد، ١٩٦٧.
- الحديثي (نزار)، أهل اليمن في صدر الاسلام، بغداد، ١٩٧٨.
- الدوري (عبد العزيز)، «الاسلام وانتشار اللغة العربية والتعريب» في: القومية العربية والاسلام، بيروت، ١٩٨١.

- الدوري (عبد العزيز)، التكوين التاريخي للأمة العربية، بيروت، ١٩٨٤.
- العلي (صالح أحمد)، «منطقة الحيرة - دراسة طوبوغرافية»، مجلة كلية الآداب، ٥/١٩٦٩، بغداد.
- العلي (صالح أحمد)، «منطقة الكوفة»، سومر، ٢١/١٩٦٥، العددان ١، ٢.
- العلي (صالح أحمد)، «مصادر دراسة تاريخ الكوفة في القرون الاسلامية الاولى»، مجلة المجمع العلمي العراقي، ٢٤/١٩٧٤.
- كحالة (عمر رضا)، معجم قبائل العرب، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧٨.
- المخزومي (مهدي)، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، بغداد، ١٩٥٥.
- المعجم الوسيط، القاهرة، ١٩٧٢.

٢) المراجع باللغات الأجنبية:

Aigrain, art. «Arabic» in *Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclésiastiques*, t.III, Paris, 1924.

Al-'Ali (A.S.), «The Foundation of Baghdad» in *The Islamic City*, ouvr.édité par A.Hourani et S.M. Stern.

Aubin (J.), «Eléments pour l'étude des agglomérations urbaines dans l'Iran Médiéval» in *The Islamic City*.

Blachère (R.), *Coran*, trad. française, Paris, 1957.

Blachère (R.), Chonemi (M.) et Denizeau (C.), *Dictionnaire arabe- français-anglais*, Paris, 1967.

Bosworth (C.E.), «The Terminology of history of the Arabs in the Jahiliyya according to Khawarazmi's 'Keys of the Sciences'» in *Goitein Festschrift*, Jérusalem, 1981.

Bosworth (C.E.), «Abu 'Abdallah al-Khwarazmi on the technical terms of the secretary's art», in *JESHO*, XII, 1969, 2, pp. 113-164.

Brockelman (C.), *Geschichte der Arabischen Literatur*, Leyde, 1943.

Brunschvig (R.), «Urbanisme médiéval et droit musulman» in *Revue des Etudes islamique*, XV, 1947, pp. 127-155.

Bulliet (R.), *The Camel and the Wheel*, Harvard Un. Press, 1977.

Caetani (L.), *Annali dell'Islam*, Milan, 1905-1926.

Caetani (L.), *Chronographia Islamica*, Paris, 1912.

Cahen (Cl.), «Mouvements populaires et autonomisme urbain dans l'Asie musulmane du Moyen Age», in *Arabica*, V, 1958, pp.225-250; VI, 1959, pp.25-26 et 223-265.

The Cambridge Ancient History, Cambr. Univ. Press, 1968.

Champdor (A.), *Babylone*, Paris, 1957.

Chelhod (J.) et alii, *L'Arabie du Sud, Paris, 1984*.

Chevallier (D). et alii, *La ville arabe dans l'Islam*, Tunis- Paris, 1982.

Christensen, *L'Iran sous les Sassanides*, Copenhague, 1936.
Creswell (K.A.C.), *Early Muslim Architecture*, Oxford, 1932.
Desmaisons, *Dictionnaire persan-français*, Paris, 1908.
Djaït (H), «Les Yamanites à Kûfa au 1[er] siècle de l'Hegire» in *JESHO*, XIX, 1976, 2, pp.148-181.
Encyclopédie de l'Islam, 1[er] éd. Paris, 1913-1960; 2[e] éd., Paris, 1960.
Evans-Pritchard, *The Sanusi of Cyrenaïca*, Oxford, 1949.
Frankfort (H.). «Town-Planning in Ancient Mesopotamia» in *Town Planning Review*, XXI, 1950, 2.
Ghirshman (R.), *L'Iran: Proto-Iraniens, Mèdes, Achéménides*, Paris, 1962 (Univers des Formes);
Ghirshman (R.). *L'Iran: Parthes et Sassanides*, Paris, 1963 (Univers des Formes).
Goitein (S.D.F.), *A Mediterranean Society*, Berkeley, 1967.
Goitein (S.D.F.), «Cairo: an islamic city in the light of the Geniza documents» in *Middle Eastern Cities*, éd. par I. Lapidus.
Grabar (O.). «The Architecture of the Middle eastern city from past to present: the case of the Mosque», in *Middle Eastern Cities*.
Grabar(O.), «al-Mushatta, Baghdad and Wa'sit», in *The World of Islam, Studies in honour of Philip Hitti*, Londres, 1960.
Von Grunebaum (G.E.), «The Structure of Muslim Town», in *Islam. Essays in the nature and growth of a cultural tradition*, Londres, 1955.
Von Grunebaum (G.E.). «The nature of arab unity before Islam», in *Arabica*, X, 1963.
Hill (D.R.), *The Termination of hostilities in the early arab conquests A.D. 634-656*, Londres, 1971.
Hinz, *Arabische masse und gewichte, Leyde, 1955*.
Homo *(L.). Rome impériale et l'urbanisme dans l'Antiquité*, Paris, 1971.
Hourani (A.), «The islamic city in the light of recent research» in *The Islamic City*.
Hourani (A.) et Stern (S. M.), *The Islamic City*, oxford, 1970.
Jastrow (M.), *The Civilisation of Babylonia and Assyria*, Philadelphie, 1915.
Jones (A.H.M.), *The Greek city from Alexander to Justinian*, Oxford, 1940.
Kister (M.J.), *Studies in Jahiliyya and early Islam*, Londres, 1980.
Kister (M.J.), «al-Hira. Some notes on its relations with Arabia» in *Arabica, XV, 1968, 1*.
Labourt (Ch.), *Le Christianisme dans L'Empire perse sous la dynastie sassanide (224-632)*, Paris, 1904.
Lammens (H.), *L'Arabie occidentale avant l'Hégire*.
Lammens (H.), «La Cité arabe de Taif à la veille de l'Hégire», in *Mélanges de l'Université Saint-Joseph*, Beyrouth, VIII, 1922.
Lapidus (I.M.). et alii, *Middle Eastern Cities*, Berkeley and Los Angeles, Univ. of California Press, 1969.

Lassner (J.), *The Topography of Baghdad in the early Middle Ages*, Detroit, 1970.

Lassner (J.), *The Shaping of 'Abba'sid rule*, Princeton, 1980.

Lassner (J.), «The Caliph's personal domain» in *the Islamic City*.

Lavedan (P.), *Géographie des villes*, Paris, 1936.

Le Strange (G.), *Baghdad during the Abbasid Caliphate*, Oxford, 1924.

Le Strange, *The Lands of the eastern Caliphate*, Cambridge, 1930.

Lombard (Maurice), *Espaces et réseaux du haut Moyen Age*, Paris, 1972.

Lombard (M). *L'Islam dans sa première grandeur*, Paris, 1971.

Lopez et Raymond, *Medieval trade in the Mediterranean world*, Berkeley, 1967.

McAdams (R.). *Lands behind Baghdad: a history of settlement on the Diyala Plains*, Chicago, 1965.

Marçais (W.), *Articles et conférences*, Paris, 1951.

Marçais (G.), «La conception des villes dans l'Islam», in *Revue d'Alger*, II, 1945, *10*, pp.517-533.

Martin (R.), *Recherches sur l'agora grecque*, Paris, 1951.

Massignon (L.), «Explication du plan de Kufa», *Mélanges Maspéro*, Le Caire, 1935-40, vol.3.

Massignon (L.), «Mission en Mésopotamie», *I.F.A.O.*, I, Le Caire, 1910.

Massignon (L.), «Explication du plan de Basra», in *Westöstliche Abhandlungen Taschudi*. Wiesbaden, 1954, reproduit dans *Opera Minora*, III.

Mumford (L.), *La Cité à travers l'Histoire*, Paris, 1964.

Mustafa' (M.'Ali), «Preliminary report on the excavations in Kūfa during the third season», in *Sumer*, XIX, 1963.

Nagel, «Some considerations concerning the pre-islamic and the islamic foundations of the authority of caliphate», in *Studies on the first century of Islamic society*, 1982.

Oppenheim (L.). *La Mésopotamie*, Paris, 1970.

Oppenheim(L.),«Mesopotamia, land of many cities», in *Middle Eastern Cities*.

Pauly-Wissowa, *Realencyclopädie des classischen altertums-Wissenschaft*, XXIX.

Pauty (E.), «Villes spontanées et villes créées en Islam», in *Annales de l'Institut d'Etudes orientales d'Alger*, IX, 1951.

Pigulevskaja (N.), *Les Villes de l'Etat iranien aux époques parthe et sassanide. Contribution à l'histoire sociale de la Basse-Antiquité*, Paris, 1963.

Planhol (X. de), *Les Fondements géographiques de l'histoire de l'Islam*, Paris, 1968.

Reitemeyer, *Die Städtegründungen der araber im Islam*, Munich, 1912.

Rodinson (M.). *Mahomet*, Paris, 1961.

Rodinson (M.), «Bilan des études mohammadiennes», in *Revue Historique*, t.229, fasc 465, janvier-mars 1963.

Rostovtzeff (M.). *The Social and economic history of the hellenistic world*, Oxford, 1941.

Rutten (M.), *Babylone*, Paris, 1948.
Salonen (A.), «Akkad musannitu = arab musannat», in *Orientalia*, XXXII, 1963.
Sanford, *The Mediterranean world in Ancient Times*, New York, 1938.
Schlumberger (D.), «Sur l'origine et sur la nature de l'art des Sassanides», *VIII^e congrès international d'archéologie classique*.
Serjeant (R.B.), «Haram and hawtah: the sacred enclave in Arabia», in *Mélanges Taha Hussein*, Le Caire, 1962.
Serre et Shemidt, *Lexique technique français-arabe*.
Shaban (M.A.), *Islamic history. A new interpretation*, Cambridge, 1971.
Shaban (M.A.), *The 'Abbasid Revolution*, Cambridge, 1970.
Spuler (B.), *Handbuch der orientalistik*, t. II, Leyde, 1959.
Talbot-Rice, «Hira», *Journal of the Royal Central Asian Society*, XIX, 1932.
Watt (W.M.), *Mahomet à la Mecque*, trad. fr., Paris, 1958.
Watt (W.M.), *Mahomet à Médine*, trad. fr., Paris, 1959.
Weber (M.), *La Ville*, trad. fr., Paris, 1982.
Weber (M.), *Sociologie de la Religion* in *Economie et Société*, trad. fr. I, Paris, 1971.
Wellhausen (J.), *Die religiös-politischen oppositionspartein im alten Islam*, trad. arabe de 'A. Badawi, Koweit, 1978.
Wellhausen (J.), «Prolegomena zur ältesten geschichte des Islams», in *Skizzen und Vorarbeiten*, t. VI, Berlin, 1889.
Wellhausen (J.), *Das Arabische Reich und seine sturze*, trad. arabe de M.'A. Abu Rida, Le Caire, 1958.
Wirth (E.), «Villes islamiques, villes arabes, villes orientales? Une problématique face au changement», in *La Ville arabe dans l'islam*, éd. de D. Chevalier et A Bouhdiba, Tunis, 1982.
Wirth (E.), «Die Orientalische Stadt...», *Saeculum*, 1975, 26.
Wirth (E.), «Strukturwandlungen und Entwicklungsteudenzen der orientalischen stadt», in *Erkunde*, 1968, 22, pp. 101-128.
Wirth (E.), «Zum Problem des Bazars (suq, Carsi)...», in *Der Islam*, 1974, 51, pp. 203-260; 1975, 52, pp. 6-46.
Wooley (Sir Leonard), *Excavations at Ur: a record of twelve years' work*, Londres, 1954.
Yusuf (S.M.), «The Battle of Qadisiyya», in *Islamic culture*, t.° 19, 1945.
Zadok (R.), «Arabians in Mesopotamia during the Late-Assyrian, Chaldean, Achaemenian and Hellenistic periods, chiefly according to the cuneiform sources», in *Z.D.M.G.*, 131, 1, 1981.

فهرس

الباب الأول:
الفتح العربي للعراق وتأسيس الكوفة ٥
١ - إشكالية الفتح ٦
٢ - من الأيام إلى القادسية ١٧
٣ - إنهاء فتح العراق وتنظيم السواد ٤٨
٤ - إنشاء الكوفة ٦٧

الباب الثاني:
المخطط المدني الأول ٧٣
٥ - تشابك المشاكل ٧٤
٦ - الكوفة الأولى: هل كانت مجرد معسكر
أم مدينة حقيقية؟ ٨٤
٧ - بنية المجال الداخلي: المدار المركزي ٩٢
٨ - بنية المجال الداخلي: الحزام
السكني أو الخطط ١٢١
٩ - التخطيط والتطور اللاحق ١٣٩

الباب الثالث:
الاستشراق والمدينة الإسلامية ١٤٣
١٠ - من النظام إلى الخلل ١٤٤
١١ - مدينة بلا وجه ١٤٧
١٢ - المدينة العفوية والمدينة المنشأة ١٥٠

الباب الرابع:
التأثيرات والجذور: من بابل إلى مكة ١٥٩
١٣ - قوة الماضي: الشرق والهلينية وامتداداتها ١٦٠
١٤ - قوة الماضي: الإرث العربي القديم ١٨٠

الباب الخامس:
التمدن والاستقرار، الذروة التاريخية ٢١٣
١٥ - المجهود المعماري في عهد زياد ٢١٨
١٦ - التمدن والتنظيم ٢٢٤
١٧ - الكشف عن الكوفة: ثورة المختار ٢٣٥
١٨ - شبث: استطلاعٌ ثان ٢٦٢

الباب السادس:
التطور والاستكمال ٢٧٥
١٩ - أجيال جديدة، عصور أخرى ٢٧٦
٢٠ - الاستمرارية، الاضافات والابتكارات ٢٨٥
٢١ - رجوعاً إلى التقاليد العربية:
الجبّانات والصحاري ٢٩٧
٢٢ - مساجد الكوفة ٣١٢
٢٣ - وضع السكك: السور والخندق ٣١٩

الباب السابع:
الكوفة كنموذج للمدينة الإسلامية؟ ٣٢٣
٢٤ - الكوفة والمدن المنشأة بالعراق قبل بغداد ٣٢٤
٢٥ - الكوفة وبغداد ٣٣٤

خاتمة:
الوجه المدني للكوفة: مصير الكوفة وهويتها ٣٤٢

الجداول والقوائم:
- جدول القبائل العربية
التي شهدت القادسية .... ٣٢ - ٣٣
- قائمة مساجد الكوفة ٣١٣
- قائمة إضافية في أسماء مساجد قبيلة كندة .. ٣١٥

الرسوم والخرائط:
- التخطيط الأول للصحن حسب رواية سيف ١٠٠
- التخطيط الثاني للصحن حسب رواية سيف ١٠٤
- التخطيط الثاني للصحن حسب رواية
سيف والشواهد الأثرية ١١٧
- الخطط القبلية حسب رواية سيف ١٢٨
- خريطة العراق العربي في العصر الكلاسيكي ١٦٧
- خريطة الكوفة في أوجها خلال
الخلافة الأموية ٣١٨
- المصادر والمراجع ٣٤٥

٣٠٠٠/٩٣/١١٥١

خريطة الكوفة في اوجها خلال الخلافة الاموية